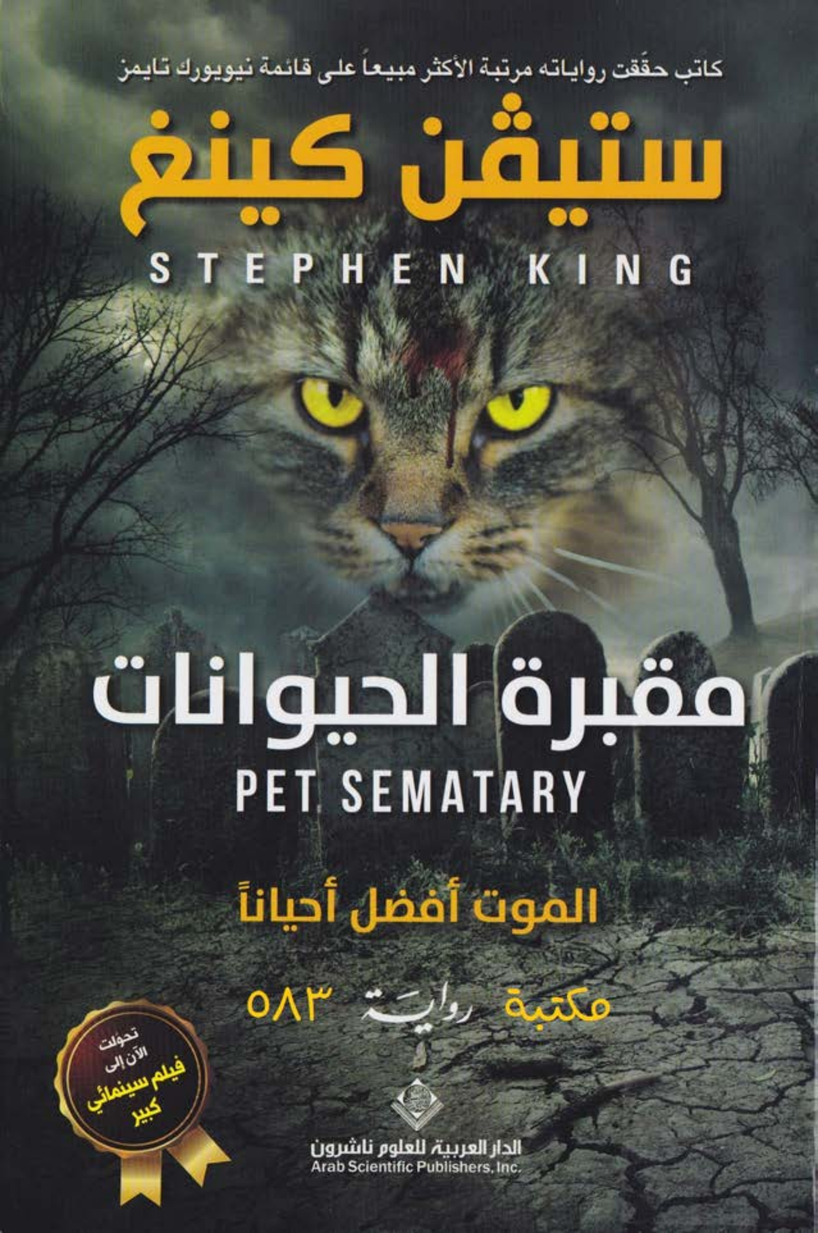

كاتب حققت رواياته مرتبة الأكثر مبيعاً على قائمة نيويورك تايمز

ستيفن كينغ

STEPHEN KING

مقبرة الحيوانات

PET SEMATARY

الموت أفضل أحياناً

مكتبة رواية ٥٨٣

تحولت الآن إلى فيلم سينمائي كبير

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

مقبرة الحيوانات

PET SEMATARY

الموت أفضل أحياناً

مكتبة | 583

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

Pet Sematary

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من

The Lotts Agency, Ltd.

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع مع الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 1983, 2019 by Stephen King

All Rights Reserved

Arabic Copyright © 2019 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى: تموز/يوليو 2019 م – 1440 هـ

ردمك 978-614-01-2844-6

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة ، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الانترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic

twitter.com/ASPArabic

www.aspbooks.com

asparabic

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة : **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

مكتبة

t.me/t_pdf

مقبرة الحيوانات

PET SEMATARY

الموت أفضل أحياناً

مكتبة | 583

ستيفن كينغ

STEPHEN KING

ترجمة

اوليغ عوكي

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

إليك بعض الأشخاص الذين ألّفوا كتباً، يُخبروننا فيها ماذا فعلوا ولماذا فعلوا تلك الأشياء:

جون دين. هنري كيسنجر. أدولف هتلر. كاريل تشسمان. جَبّ ماغرودر. نابليون. تاليراند. دزرائيلي. روبرت زيمرمان، المعروف أيضاً بـ بوب ديلان. لوك. شارلتون هَسْتون. إيرول فْلين. الخميني. غاندي. تشارلز أولسون. تشارلز كولسون. سيدٌ فيكتوريٌّ. الدكتور أكس.

وإليك بعض الأشخاص الذين لم يؤلّفوا كتباً ليُخبرونا فيها ماذا فعلوا... وماذا رأوا:

الرجل الذي دفن هتلر. الرجل الذي شرّح جثة جون ويلكس بُوث. الرجل الذي حنَّط ألفيس بريسلي. الرجل الذي حنَّط - بشكل سيئ، هكذا يقول معظم الحانوتيين - يوحنا الثالث عشر. الحانوتيان الأربعينيان اللذان نظّفا جونزتاون، وهما يحملان أكياس حفظ الجثث، ويغرزان الأكواب الورقية بتلك الرزّات التي يستخدمها عمّال النظافة في منتزهات المدينة، ويُبعدان الذباب عنهما. الرجل الذي حرق جثة ويليام هولدن. الرجل الذي كسا جثة الإسكندر الكبير بالذهب لكي لا تتعفَّن. الرجال الذين حنَّطوا الفراعنة.

الموت لغز، والدفن سر.

مقدمة

عندما أُسأل (وهذا يحدث كثيراً) أي كتاب أعتبره أكثر كتاب مخيف ألَّفتُه في حياتي، يأتي جوابي بسهولة ودون تردّد: *مقبرة الحيوانات*. قد لا يكون أكثر كتاب يخيف القرّاء - بناءً على البريد الذي يصلني، أظن أن الكتاب الذي يفعل ذلك هو The Shining [البريق] على الأرجح - لكن عظمة الخوف، مثل عظْمة الضحك (أو عظْمة الكوع)، موجودة في أماكن مختلفة لدى الأشخاص المختلفين. كل ما أعرفه هو أن *مقبرة الحيوانات* هو الكتاب الذي وضعتُه جانباً في الجارور، قائلاً لنفسي إنني تخطّيت الحدود أخيراً. الزمن يوحي أنني لم أفعل ذلك، على الأقل بناءً على ما سيقبله الناس، لكنني بالطبع تخطّيت الحدود بالنسبة لمشاعري الشخصية. ببساطة، ذُعرتُ مما كتبتُه، والاستنتاجات التي توصّلتُ إليها. لقد رويتُ سابقاً كيف أتتني فكرة تأليف هذه الرواية، لكنني أظن أنه يمكنني أن أرويها مرة أخرى: المرة الأخيرة تُغني عن كل المرات السابقة.

في أواخر السبعينات، دُعيتُ لقضاء سنة في جامعتي الأم، جامعة ماين، ككاتبٍ مقيمٍ، وكذلك لأعلّم مادة الأدب العجائبي (شكَّلت محاضراتي في ذلك المقرّر التعليمي العمود الفقري لكتاب Danse Macabre [رقصة الموت]، الذي نُشر بعد سنة أو سنتين). استأجرتُ وزوجتي منزلاً في أورينغتون، يبعُد حوالي عشرين كيلومتراً عن الجامعة. كان منزلاً مدهشاً في بلدة ماين الريفيّة المدهشة. المشكلة الوحيدة كانت الطريق الذي عشنا فيه. فقد كان مزدحماً جداً، ومعظم حركة المرور عليه تتألف من شاحنات ناقلة نفط ثقيلة من المصنع الكيميائي الواقع في آخره.

أخبَرني خوليو ديسكنتس، الذي يملك المتجر على الجهة المقابلة لطريقنا، باكراً أن على زوجتي وأنا مراقبة أولادنا بحذر كبير، وكذلك مراقبة أي حيوانات أليفة قد يربّيها أولادنا. "فقد استهلك ذلك الطريق الكثير من الحيوانات"، قال خوليو، وهي جملة وجدَت مكاناً لها في الرواية. والدليل على عدد الحيوانات التي استهلكها الطريق كان في الغابة الواقعة خلف منزلنا المستأجَر. كان هناك مسار يقود صعوداً عبر الحقل المجاور إلى مقبرة حيوانات صغيرة في الغابة... إلا أن اللافتة على الشجرة الموجودة خارج تلك المقبرة المؤقّتة الصغيرة الفاتنة للحيوانات الأليفة قالت "مَكبرة الحيوانات". هذه الجملة وجدت أكثر من مجرد مكان لها في الكتاب؛ فقد أصبحت عنوانه (في النسخة الإنكليزية). كان هناك كلاب وقطط مدفونة فيها، وبضعة طيور، وحتى معزاة.

إبنتنا، التي كانت وقتها في الثامنة تقريباً، كانت تربّي قطاً يدعى سْماكي، وبعد وقت قصير من انتقالنا إلى منزل أورينغتون، وجَدتُ سْماكي ميتاً على مَرجة منزلٍ على الطريق. بدا أن أحدث حيوان استهلكه الدرب 5 كان الحيوان الأليف المحبوب لإبنتي. دفنّا سْماكي في مقبرة الحيوانات، وصنعت إبنتي شاهد قبر يقول "سْماكي: كان مطيعن" (لم يكن سْماكي مُطيعاً أبداً، بالطبع؛ كان قطاً في النهاية).

بدا كل شيء على ما يرام حتى تلك الليلة، عندما سِمعتُ دويّاً من المرأب، رافقه بكاء وأصوات فرقعة كأنها مفرقعات نارية صغيرة. خرَجتُ لأتحقَّق ووجدتُ إبنتي، حانقة وجميلة في حزنها. فقد عثرت على بضع أوراق من مادة التحزيم ذات الفقاقيع التي تُشحن فيها أحياناً الأغراض السريعة العطب. كانت تقفز عليها لتفقع الفقاقيع، وتصيح، 'كان قِطي *أنا*! لتربّي الحياة قِطاً خاصاً بها! كان سْماكي قِطي *أنا*!'. قلتُ لنفسي إن هكذا غضب هو أعقل ردّة فعل أولى على الحزن يمكن

أن يقوم بها إنسان يفكّر وله مشاعر، ولطالما أحببتُها لتلك الصرخة المتحدّية: لتربّي الحياة قِطاً خاصاً بها! أصبتِ يا حلوتي؛ أصبتِ.

كان إبننا الصغير، سنّه وقتها أقل من سنتين، قد تعلّم السير للتو، لكنه بدأ يتمرّن على مهاراته في الركض فوراً. ذات يوم غير بعيد عن موت سْماكي، بينما كنا في الفناء المجاور نلهو بطائرة ورقية، قرّر طفلنا الصغير أن يركض نحو الطريق. ركَضتُ خلفه، وتباً إن لم أكن قادراً على سماع إحدى شاحنات كيانبرو (أورينكو، في الرواية) تلك قادمة. إما أنني أمسكتُه وأوقعتُه أرضاً، أو أنه تعثّر من تلقاء نفسه؛ لستُ متأكداً كلياً حتى هذا اليوم. فعندما تخاف حقاً، تُمحى ذاكرتك في أغلب الأحيان. كل ما أعرفه بشكل مؤكّد هو أنه لا يزال بخير وفي رجولته اليافعة. لكن جزءاً من ذهني لم يتخلّص أبداً من ذلك *التساؤل* الشنيع: ماذا لو لم أُمسكه؟ أو ماذا لو أنه سقَط في وسط الطريق وليس على حافته؟

أعتقد أنه يمكنك أن ترى لماذا وجَدتُ الكتاب الذي نتَجَ عن تلك الحوادث مُحزِناً جداً. فكل ما فعلتُه هو أخذ عناصر موجودة وأضفتُ عليها ذلك *التساؤل* الفظيع. بتعبير آخر، لم أجد نفسي أفكِّر التفكير الذي لا يُصدَّق فحسب، بل أدوِّنه أيضاً.

لم تكن هناك مساحة للتأليف في منزل أورينغتون، لكن كانت هناك غرفة فارغة في متجر خوليو، وهناك ألّفتُ هذه الرواية. كنتُ أستمتع بالعمل عليها يوماً بعد يوم، وعرَفتُ أنني أروي قصة 'ساخنة'، قصة شَغَلت انتباهي وستشغل انتباه القرّاء، لكن عندما تعمل يوماً بعد يوم، لن تتمكن من رؤية الغابة؛ بل فقط تعدّ الأشجار. عندما أنهيتُ تأليف الكتاب، تركته يرتاح لستة أسابيع، وهذا هو أسلوبي في العمل، ثم قرأتُه مرة أخرى. وجَدتُ النتيجة مُجفلةً وشنيعةً لدرجة أنني وَضَعتُ

الكتاب في جارور، معتقداً أنه لن يُنشر أبداً. ليس وأنا حيّ، على أي حال.

عملية نشره كانت محض صدفة. فقد أنهيتُ علاقتي مع دابلداي، ناشر كتبي الأولى، لكنني كنتُ أدين له برواية أخيرة قبل إمكانية إغلاق الحسابات بالكامل. لم تكن لديَّ سوى رواية واحدة لم نتناقش بشأنها، وكانت *مقبرة الحيوانات*. ناقَشتُها مع زوجتي، وهي أفضل مستشار لي عندما لا أكون متأكداً كيف أواصل فكرةً أو أمراً، وأخبرَتني أنه عليَّ نشر الكتاب. فقد شعرَت أنه كتاب جيد. مريع، لكن جيد جداً لكي لا يُقرأ.

كان محرِّري الأولي في دابلداي، بيل تومسون، قد انتقَل وقتها (إلى مبنى إفرست هاوس، في الواقع؛ بيل هو الذي اقترح أولاً، ثم حرَّر ونشر Danse Macabre [رقصة الموت])، لذا أرسَلتُ الكتاب إلى سام ڤون، الذي كان أحد عمالقة التحرير وقتها. سام هو الذي أخذ القرار النهائي – أراد نشر الكتاب. حرَّره بنفسه، منتبهاً انتباهاً خاصاً لنهاية الرواية، وتعليقاته حوَّلت كتاباً جيداً إلى كتاب أفضل. لطالما كنتُ ممنوناً لقلمه الأزرق المُلهَم، ولم أتأسَّف أبداً على نشري الكتاب، رغم أنني لا أزال أجده مُحزِناً وإشكالياً بعدة طرق.

أشعر باضطراب كبير من أكثر جملة رنّانة في الكتاب، التي وردت على لسان جاد، الجار المسنّ للويس كريد. 'أحياناً يا لويس'، قال جاد، 'الموت أفضل'. آمل من كل قلبي ألا يكون هذا صحيحاً، لكنه يبدو صحيحاً في السياق الكابوسي لمقبرة الحيوانات. وربما لا بأس بهذا. فمقولة "الموت أفضل أحياناً" هي الدرس الأخير الذي يعلّمنا إياه الحزن، الدرس الذي نصل إليه عندما نتعب أخيراً من القفز على الفقاقيع البلاستيكية ونحن نصرخ على الحياة أن تربّي قطاً (أو ولداً)

خاصاً بها وتترك قطنا (أو ولدنا) وشأنه. يوحي هذا الدرس أنه يمكننا في النهاية إيجاد السَكينة في حياتنا البشرية فقط بتقبُّل إرادة الكون. قد يبدو هذا مبتذَلاً، هُراء العصر الجديد، لكن البديل يبدو لي كظلمةٍ مريعةٍ جداً لكي تتحمّلها مخلوقات فانية مثلنا.

20 سبتمبر 2000

الجزء الأول

مقبرة الحيوانات

الفصل 1

لويس كريد، الذي فَقَد أباه في الثالثة من عمره والذي لم يعرف جَدّاً أبداً، لم يتوقع أبداً العثور على أب مع دخوله منتصف عمره، لكن ذلك ما حصل بالضبط... رغم أنه اعتبر ذلك الرجل صديقاً، مثلما يجب أن يفعل الرجل الناضج عندما يجد الرجل الذي كان يجب أن يكون أباه في وقت متأخر نسبياً من عمره. لقد التقى ذلك الرجل ليلة انتقاله مع زوجته وولدَيه إلى المنزل ذي الإطار الأبيض الكبير في لادلو. وقد انتقل ونستون تشرشل معهم إليه. كان تشرش قِط إبنته آيلين.

تحرَّكت لجنة البحث في الجامعة ببطء، وكانت عملية البحث عن منزل قريب من الجامعة مُرعِبة، وحين اقترَبوا من المكان الذي ظنَّ أن المنزل سيكون فيه (*كل المعالم صحيحة... مثل العلامات الفلكية في الليلة التي سبقت اغتيال قيصر*، فكَّر لويس في سرّه بكآبة)، كانوا جميعاً مُتعَبين ومتوتّرين. كانت أسنان غايدج تنبُت وبقي يثير جلبةً بلا توقف تقريباً، ويرفض أن ينام مهما غنّت له رايتشل. عرضت عليه صدرها رغم أن ذلك كان خارج موعده المألوف. كان غايدج يعرف موعد عشائه مثلها - وربما أفضل منها - فعضَّها فوراً بأسنانه الجديدة. راحت رايتشل، التي لا تزال غير أكيدة كلياً من هذا الانتقال إلى ماين من شيكاغو، حيث عاشت حياتها كلها، تجهش بالبكاء. انضمت إليها آيلين فوراً. وفي الجهة الخلفية لسيارة الستايشن، تابَع تشرش يدور بلا هوادة مثلما فعل طوال الأيام الثلاثة الأخيرة التي استغرقتها رحلتهم من شيكاغو إلى هنا. كان مواؤه من صندوقه سيئاً، لكن سيره المضطرب بعدما استسلَموا أخيراً وأطلقوا سراحه في السيارة كان مثيراً للأعصاب بنفس المقدار تقريباً.

لويس نفسه شَعَر أنه يريد البكاء قليلاً. وخطرت على باله فجأة فكرة رعناء لكنها ليست غير جذّابة: سيقترح أن يعودوا إلى بانغور ليأكلوا شيئاً بينما ينتظرون شاحنة النقل، وعندما يخرج رهائنه الثلاثة من السيارة، سيدوس دواسة الوقود إلى الحد الأقصى ويبتعد دون إلقاء أي نظرة إلى الوراء، ويدع مُكربِن السيارة الضخم الرباعي الأسطوانات يزدرد البنزين المُكلِف. سيقود جنوباً، وصولاً إلى أورلاندو، فلوريدا، حيث سيعمل مُسعِفاً في عالم ديزني، بإسم جديد. لكن قبل أن يصل إلى الطريق الرئيسي – الطريق القديم الكبير 95 المتّجه جنوباً – سيتوقف عند حافة الطريق ويُخرِج القط اللعين أيضاً.

ثم دخلوا منعطفاً أخيراً، وظهر أمامهم المنزل الذي رآه هو فقط حتى الآن. كان قد سافر وتفحَّص كل منزل من المنازل المحتملة السبعة التي اختارها من الصور الفوتوغرافية بعدما أصبح المنصب في جامعة ماين له بكل تأكيد، وقد اختار هذا المنزل: منزل قديم كبير بطراز نيو إنغلاند الاستعماري (لكن ألواح جدرانه الخشبية ومواده العازلة جُدِّدَت حديثاً؛ تكاليف التدفئة، رغم أنها رهيبة كفاية، كانت على أساس الاستهلاك)، بثلاث غُرف كبيرة في الطابق السفلي، وأربع غُرف أخرى في الطابق العلوي، وحظيرة طويلة يمكن تحويلها إلى غُرف إضافية لاحقاً، وكل ذلك محاطٌ بمَرجة شاسعة خضراء حتى في حرّ أغسطس هذا.

كان هناك حقل كبير بالقرب من المنزل ليلعب فيه الأولاد، ووراءه غابةٌ تكاد لا تنتهي. لقد شرح له السمسار العقاري أن العقار يُجاوِر أراضي الولاية، ولن تجري أي أعمال تطوير في المستقبل المنظور. وما تبقّى من قبيلة الميكماك الهندية يطالبون بحوالي ثمانية آلاف فدان في لادلو وفي البلدات الواقعة شرق لادلو، وقد تمتدّ الدعوى القضائية المعقَّدة، التي تشمل الحكومة الفدرالية وكذلك الولاية، إلى القرن التالي.

توقَفت رايتشل عن البكاء فجأة. استوت جالسةً. "هل هذا –"

"هذا هو"، قال لويس. شَعَر بالقلق – لا، شَعَر بالخوف. في الواقع، شَعَر *بالرعب*. فقد رهَن اثنتَي عشرة سنة من حياتهم لأجل هذا؛ ولن ينتهي من تسديد ثمنه قبل أن تصبح آيلين في السابعة عشرة، وهو سنّ لا يُصدَّق.

بلَع ريقه.

"ما رأيك؟".

"أعتقد أنه *جميل*"، قالت رايتشل، وقد أزال رأيها هذا حملاً ثقيلاً عن صدره. رأى أنها لم تكن تمزح؛ كان ذلك في طريقة نظرها إلى المنزل بينما انعطفوا إلى الممر الخاص الأسفلتي الذي يدور وصولاً إلى الحظيرة في الخلف، وعيناها تتفحّصان النوافذ الفارغة، وذهنها يفكّر مسبقاً بأمور مثل الستائر والقماش المشمَّع للخزائن، وأشياء كثيرة أخرى.

"بابا؟"، قالت إيليه من المقعد الخلفي. كانت قد توقَفت عن البكاء هي أيضاً. حتى غايدج توقَف عن إثارة الجلبة. تذوَّق لويس طعم الصمت.

"ماذا يا حبيبتي؟".

عيناها، البنيتان تحت شعر أشقر داكن في مرآة الرؤية الخلفية، تفحّصتا أيضاً المنزل، المَرجة، سقف منزل آخر إلى اليسار البعيد، والحقل الكبير الممتدّ حتى الغابة.

"هل هذا منزلنا؟".

"سيكون يا حبيبتي"، قال.

مكتبة
t.me/t_pdf

"عظيم!"، *صرَخت*، وكادت تصمّ له أذنيه. ولويس، الذي يمكن أن يصبح منزعجاً جداً أحياناً من إيليه، قرَّر أنه لا يهتم إن وقعت عيناه يوماً على عالم ديزني في أورلاندو.

رَكَن أمام الحظيرة وأطفأ محرِّك السيارة.

تكتكَ المحرِّك. في الصمت، الذي بدا كبيراً جداً بعد شيكاغو وهيجان شارع ستايت وحَيّ اللُوپ، غرّد طائر بعذوبة في وقت متأخر من بعد الظهر.

"المنزل"، قالت رايتشل بلطف، وهي لا تزال تنظر إلى المنزل.

"المنزل"، قال غايدج برضى على حُضنها.

حدَّق لويس ورايتشل في بعضهما البعض. واتّسعت عينا آيلين في مرآة الرؤية الخلفية.

"هل قلتَ –"

"هل قال –"

"هل كانت هذه –"

تكلّموا كلهم في الوقت نفسه، ثم ضحِكوا. لم يلاحظ غايدج شيئاً؛ بل تابَع يمصّ إبهامه. كان قد بدأ يقول "ما" منذ حوالي شهر الآن وقام بمحاولة أو محاولتين ليقول شيئاً ربما كان "بااا"، أو هو مجرد تفكير بالتمني من جانب لويس.

لكن هذه، إما بالصُدفة أو بدافع التقليد، كانت كلمة حقيقية. *المنزل*.

أخذ لويس غايدج من حُضن زوجته وعانَقه.

هكذا جاءوا إلى لادلو.

الفصل 2

في ذاكرة لويس كريد، لطالما تميّزت تلك اللحظة بطابع عجيب – جزئياً، ربما، لأنها كانت عجيبة حقاً، لكن في الأغلب لأن بقية الليلة كانت جامحةً. ففي الساعات الثلاثة التالية، لم يحلّ عليهم السلام أو أي شيء عجيب.

كان لويس قد خبّأ مفاتيح المنزل بشكل أنيق (كان رجلاً مُتقَناً ومنهجيّاً) في مغلف صغير كتب عليه *منزل لادلو – حصلتُ على المفاتيح في 29 يونيو*، وقد وَضَعه في صندوق قفاز الفيرلين. كان متأكداً جداً من ذلك. لكنه لم يجد المفاتيح هناك الآن.

بينما راح يبحث عنها، منزعجاً أكثر فأكثر مع مرور الوقت، حملت رايتشل غايدج وتبِعت آيلين إلى الشجرة في الحقل. كان يبحث تحت المقاعد للمرة الثالثة عندما صَرَخت إبنته ثم بدأت تبكي.

"لويس!"، نادت رايتشل. "لقد جرحت نفسها!".

فقد سقَطت آيلين عن العجلة الأرجوحة وارتطمت ركبتها بحجرة. كان الجرح سطحياً، لكنها كانت تصرخ مثل شخص فَقَد رِجله للتو، فكَّر لويس في سرّه (ببعض الامتعاض). ألقى نظرة سريعة نحو المنزل الواقع على الجهة الأخرى للطريق، حيث يحترق ضوء في غرفة الجلوس.

"يكفي يا إيليه"، قال. "سيظنّون هناك أن شخصاً يُقتَل".

"*لكنني أتألممم!*".

تمالك لويس أعصابه وعاد إلى السيارة بصمت. اختفت المفاتيح، لكن علبة الإسعافات الأولية لا تزال في صندوق القفاز. أخذها وعاد. عندما رأته إيليه، بدأت تصرخ بصخب أكثر من أي وقت مضى.

"لا! ليس الأشياء التي تلسع، لا أريد الأشياء التي تلسع يا بابا!

"لا –"

"آيلين، هذا مجرد مطهِّر أحمر، ولا يلسع –"

"كوني قوية"، قالت رايتشل. "هذا مجرد –"

"لا–لا–لا–لا–لا–"

"توقفي عن هذا وإلا فإن مؤخِّرتك ستلسعك"، قال لويس.

"إنها مُتعَبة يا لُو"، قالت رايتشل بهدوء.

"أجل، أعرف هذا الشعور. مدّي لها رِجلها".

وَضَعت رايتشل غايدج من يدها وأمسكت رِجل آيلين، التي دهنها لويس بالمطهِّر الأحمر رغم عويلها الهستيري بشكل متزايد.

"ظهر أحدهم على شرفة ذلك المنزل في الجانب المقابل للشارع"، قالت رايتشل. حملت غايدج الذي كان قد بدأ يزحف بعيداً على العشب.

"مدهش"، تمتم لويس.

"لُو، إنها –"

"مُتعَبة، أعرف". أغلق قارورة المطهِّر الأحمر ونظر إلى إبنته بتجهّم. "انتهينا. ولم تتألمي أبداً. اعترفي يا إيليه.

"*بلى! هذا مؤلم! هذا مؤلللل* –"

شعَر برغبة قوية لصفعها فشدّ يده على رِجله.

"هل وجدتَ المفاتيح؟"، سألت رايتشل.

"ليس بعد"، قال لويس وهو يُغلق علبة الإسعافات الأولية ثم نهض. "سوف –"

بدأ غايدج يصرخ. لم يكن يثير جلبةً أو يبكي بل يصرخ حقاً، يتلوّى على ذراعَي رايتشل.

"ما باله؟"، صاحت رايتشل وهي تدفعه إلى لويس بتهوّر تقريباً.

افترَض أن هذه إحدى حسنات الزواج من طبيب - يمكنكِ دفع الطفل إلى زوجك كلما بدا أنه يُحتضَر. "لويس! ما -"

كان الطفل يُمسِك عنقه بشكل مضطرب، ويصرخ بعنف. قَلَبه لويس ورأى نتوءاً أبيض غاضباً يصعد من عنق غايدج. وكان هناك أيضاً شيء على حزام كنزته، شيء غائم، يتشنَّج بضعف.

آيلين، التي كانت قد هدأت قليلاً، بدأت تصرخ مرة أخرى، "*نحلة! نحلة! نحلةةةةة!*". قفزت إلى الوراء، وتعثَّرت بنفس الحجرة الناتئة التي سقطت سقطةً عنيفةً عليها من قبل، وجلست بقوة، وبدأت تبكي مرة أخرى في مزيج من الألم والتفاجؤ والخوف.

إنني أُصاب بالجنون، فكَّر لويس في سرّه بتعجّب. *وععععععع!*

"افعل شيئاً يا لويس! ألا يمكنك فعل شيء؟".

"عليك إخراج إبرة اللسع"، تشدَّق صوتٌ خلفهم. "هذا هو المطلوب. أخرِج إبرة اللسع ثم ضع بعض بيكربونات الصوديوم عليه. سينخفض النتوء". لكن الصوت كان ذا لكنة شرقية قوية لدرجة أن ذهن لويس المتعَب والمرتبك رفض ترجمة اللهجة للحظة.

استدار ورأى عجوزاً ربما في السبعين من عمره - مُعافى وبكامل صحته - يقف هناك على العشب. كان يرتدي رداءً سروالياً فوق قميص قطني رقيق أزرق يُظهِر عنقه المجعَّد كثيراً. ووجهه محترق من الشمس، ويدخِّن سيجارةً بلا مرشَح. بينما راح لويس ينظر إليه، حشرَ العجوز السيجارة بين إبهامه وسبابته ونقفها بدقة. ثم مدَّ يده وابتسم بشكل معقوف... ابتسامة أعجَبت لويس حالاً - وهو لم يكن رجلاً "يتأقلم" مع الناس.

"لا أقصد أن أعلِّمك وظيفتك أيها الطبيب"، قال. وهكذا تعرَّف لويس على جادسون كراندال، الرجل الذي كان يجب أن يكون أباه.

الفصل 3

كان قد راقَب وصولهم من الجانب المقابل للشارع وجاء ليرى إن كان يمكنه المساعدة عندما بدا له أنهم "في شدّة"، حسب تعبيره.

بينما حملَ لويس الطفل على كتفه، اقترب كراندال ونظَرَ إلى التورّم على عنق غايدج، ومدَّ يداً مفتولةً مكتنزةً. فتَحت رايتشل فمها لتحتجّ – بدت يده خرقاء بشكل رهيب وحجمها تقريباً بحجم رأس غايدج – لكن قبل أن تتمكن من قول أي كلمة، قامت أصابع العجوز بحركة حاسمة واحدة، مناسبة ورشيقة مثل أصابع رجل ينقِّل بطاقات لعب بين مفاصل أصابعه. وأصبحت إبرة اللسع على راحة يده.

"إنها كبيرة"، قال معلِّقاً. "لن تفوز بجائزة، لكنها ستحتل مرتبة متقدمة، أظن". انفجر لويس بالضحك.

نظر إليه كراندال بتلك الابتسامة المعقوفة وقال، "نعم، إنها استثنائية، أليس كذلك؟".

"ماذا قال يا ماما؟"، سألت آيلين، ثم انفجرت رايتشل بالضحك أيضاً. طبعاً كان هذا تصرّفاً غير مهذّب جداً، لكن لا بأس به بطريقة أو بأخرى. أخرَج كراندال علبة سجائر تشسترفيلد كينغز، وحشر واحدةً في زاوية فمه المتشقِّق، وأومأ برأسه لهما بلطف بينما كانا يضحكان – حتى غايدج كان يقهقه الآن، رغم تورّم لسعة النحلة – وأشعل عود ثقاب بظفره. *للعجائز خدعهم*، فكَّر لويس في سرّه. *خدع صغيرة، لكن بعضها جيد.*

توقَّف عن الضحك ومدَّ يده التي لم تكن تسند مؤخرة غايدج – مؤخرة غايدج الرطبة بلا تردد. "سعيد بلقائك يا سيد –"

"جاد كراندال"، قال وصافحه. "أظن أنك الطبيب".

"نعم. لويس كريد. وهذه زوجتي رايتشل، وإبنتي إيليه، والولد ذو لسعة النحلة هو غايدج".

"تشرّفتُ بمعرفتكم".

"لم أتقصَّد الضحك... أو بالأحرى، لم نتقصَّد الضحك... المسألة ببساطة أننا... مُتعَبون قليلاً".

تبسيط الحالة هذا جعله يقهقه مرة أخرى. فقد شَعَر بإنهاك كليّ.

أومأ كراندال برأسه وقال، "بالطبع". ألقى نظرة سريعة على رايتشل. "لماذا لا تأخذين إبنك الصغير وإبنتك إلى المنزل لدقيقة، سيدة كريد؟ يمكننا وضع بعض بيكربونات الصوديوم على منشفة ونهدّئ بعض هذا. سيسرّ زوجتي أن تلقي التحية عليكم أيضاً. هي لا تخرج كثيراً. ساءت حالة التهاب المفاصل لديها في السنتين أو الثلاثة الأخيرة".

ألقت رايتشل نظرة سريعة على لويس، الذي أومأ برأسه.

"هذا لطف كبير منك يا سيد كراندال".

"آه، أردّ فقط عندما ينادونني جاد"، قال.

سُمع بوق سيارة صاخب مفاجئ، ثم خمود محرِّك، ثم ظهرت شاحنة النقل الزرقاء الكبيرة تدخل - الهوينى - في الممر الخاص.

"يا إلهي، ولا أعرف أين المفاتيح"، قال لويس.

"لا بأس"، قال كراندال. "معي نسخة. السيد والسيدة كليفلاند... اللذين عاشا هنا قبلكم - أعطياني نسخة، آه، لا شك أن هذا حصل منذ أربع عشرة أو خمس عشرة سنة. لقد عاشا هنا لفترة طويلة. كانت جوان كليفلاند أعزّ صديقات زوجتي. ماتت منذ سنتين. وذهَب بيل إلى ذلك المجمَّع السكني المخصَّص للعجائز في أورينغتون. سأُعيدها لكم. إنها مُلككم الآن، على أي حال".

"أنت لطيف جداً يا سيد كراندال"، قالت رايتشل بامتنان.

"على الإطلاق"، قال. "أتطلّع إلى وجود أشخاص يافعين في الأرجاء مرة أخرى". ما عدا أن لكنته بدت كأنها لغة أجنبية لآذانهم الغربية الوسطى. "عليك فقط الانتباه لهما خلف المنعطف يا سيدة كريد. هناك الكثير من الشاحنات الكبيرة على ذلك الطريق".

سُمع الآن صوت خَبْط أبواب بينما نزل عمّال النقل من الشاحنة وأتوا صوبهم.

كانت إيليه قد تحوّلت بعيداً قليلاً، وقالت الآن، "ما هذا يا بابا؟".

لويس، الذي كان قد بدأ يسير لملاقاة عمّال النقل، ألقى نظرة سريعة إلى الخلف. عند حافة الحقل، حيث تنتهي المَرجة ويبدأ عشب الصيف المرتفع، رأى مساراً عرضه حوالي متر ورُبع تم جزّه كلياً، يصعد التلة، وينعطف بين مجموعة منخفضة من الأجمات وأيكة من أشجار البتولا، ثم يختفي عن الأنظار.

"يبدو مساراً"، قال لويس.

"آه، نعم"، قال كراندال، مبتسماً. "سأُخبِرك عنه يوماً ما يا صغيرتي. هل تريدين زيارتنا لنداوي أخاك الصغير؟".

"بالتأكيد"، قالت إيليه ثم أضافت مع بعض التفاؤل، "هل بيكربونات الصوديوم تلسع؟".

الفصل 4

أحضَر كراندال المفاتيح، لكن وقتها كان لويس قد وجَد نسخته. فقد كان هناك فراغ في أعلى صندوق القفاز وانزلق فيه المغلف الصغير نحو شبكة الأسلاك. استخرجه وفتح الباب لعمّال النقل. أعطاه كراندال النسخة الاحتياطية. كانت على حلية قديمة ملطّخة. شَكَره لويس ووضعها بذهن شارد في جيبه، وهو يراقب عمّال النقل يُدخلون الصناديق وخزائن الملابس والمكاتب وكل الأشياء الأخرى التي جمّعاها خلال سنوات زواجهما العشرة. رؤيته لها بهذه الطريقة، بعيداً عن مكانها الاعتيادي، أنقصَ قيمتها. *مجرد مجموعة أمور في صناديق*، فكَّر في سرّه، وشَعَر فجأة بالحزن والاكتئاب – افترضَ أن هذا ما يسمّيه الناس الحنين إلى الوطن.

"اقتُلعتم وأُعيد زرعكم"، قال كراندال، الذي أصبح بجانبه فجأة، وجفَلَ لويس قليلاً.

"تبدو كأنك تعرف هذا الشعور"، قال.

"لا، في الواقع لا أعرفه". أشعَل كراندال سيجارةً – فشّ! اشتعلَ عود الثقاب بشكل ساطع في ظلال المساء الأول. "أبي بنى ذلك المنزل على الجانب المقابل للشارع. أحضَر زوجته إلى هناك، وقد حبلت بطفل هناك، وأنا كنتُ ذلك الطفل، ووُلدتُ في العام 1900".

"هذا يجعلك –"

"في الثالثة والثمانين"، قال كراندال، وشعرَ لويس ببعض الارتياح لأنه لم يقل أيضاً *من عمري اليافع*، وهي جملة يمقتها حقاً.

"تبدو أصغر سناً بكثير".

هزَّ كراندال كتفيه. "على أي حال، عشتُ هناك طوال عمري.

تجنَّدتُ عندما خضنا الحرب العُظمى، لكن أقرب نقطة وصلتُها إلى أوروبا كانت بايون، نيوجيرسي. مكان بغيض. حتى في العام 1917 كان مكاناً بغيضاً. كنتُ مسروراً جداً للعودة إلى هنا. تزوَّجتُ نورما، وقضيتُ وقتي على السكة الحديدية، ولا نزال هنا. لكنني رأيتُ الكثير من الحياة هنا في لادلو. بكل تأكيد".

توقف عمّال النقل عند مدخل الحظيرة، حاملين إطار النوابض الذي يُوضع تحت السرير المزدوج الكبير التي يتشاركه مع رايتشل. "أين تريد وضع هذا يا سيد كريد؟".

"في الطابق العلوي... مهلاً، سأُريكم". بدأ يسير نحوهم، ثم توقف مؤقتاً للحظة وألقى نظرة سريعة خلفية نحو كراندال.

"أكمل عملك"، قال كراندال، مبتسماً. "سأرى كيف تسير الأمور معكم. سأعيدهم إليك وابتعد عن طريقك. لكن تبديل المسكن عملية تدفع إلى العطش الشديد. أنا أجلس عادة على شرفتي حوالي التاسعة وأشرب بعض شراب الشعير. في الطقس الدافئ أحبّ مشاهدة هبوط الليل. تنضم إليَّ نورما أحياناً. تعال لزيارتنا، إن شئت".

"حسناً، ربما سأفعل ذلك"، قال لويس، دون أن يعتزم القيام بذلك أبداً. فالشيء التالي سيكون تشخيصاً غير رسمي (ومجانياً) لحالة التهاب المفاصل لدى نورما على الشرفة. كراندال يروق له، وتروق له ابتسامته المعقوفة، وطريقته المرتجَلة في الكلام، ولكنته الشمالية التي لم تكن حادّة أبداً لكنها ناعمة لدرجة أنها تكاد تكون تشدّقاً. رجل طيب، فكَّر لويس في سرّه، لكن الأطباء يصبحون حذِرين من الأشخاص بسرعة. هذا أمر مؤسف، لكن عاجلاً أم آجلاً حتى أفضل أصدقائك سيريدون نصيحة طبية. ولا حدود لهذا أبداً مع الكبار في السنّ. "لكن لا تبحث عني، أو تبقى مستيقظاً - كان يومنا شاقاً".

"طالما تذكَّرتَ أنك لست بحاجة إلى دعوة رسمية"، قال كراندال – وكان هناك شيء في ابتسامة الرجل المعقوفة جَعَلت لويس يشعر أن كراندال يعرف بالضبط بماذا كان لويس يفكِّر.

بقي يراقب العجوز للحظات قبل أن ينضم إلى عمّال النقل. كان كراندال يسير بسهولة وبشكل مستقيم، كما لو أنه في الستين من عمره وليس فوق الثمانين. شَعَر لويس بمَوَدّة خفيفة تجاهه.

الفصل 5

بحلول الساعة التاسعة كان عمّال النقل قد غادروا. وكان غايدج وإيليه، المنهكَين، ينامان في غرفتيهما الجديدتين، غايدج في مَهده، وإيليه على فِراش على الأرض مُحاطةً بجبل من الصناديق - مليارات أقلام الكرايولا الخاصة بها، السليمة والمكسورة والكليلة؛ مُلصقاتها الإعلانية لبرنامج افتح يا سمسم؛ كتبها المصوَّرة؛ ملابسها؛ وأشياء أخرى الله أعلم ما هي. وبالطبع كان تشرش معها، نائماً أيضاً ويزمجر من الجهة الخلفية لحنجرته. بدت تلك الزمجرة الصدئة أقرب ما يستطيعه ذلك الهرّ الكبير إلى الخرخرة.

كانت رايتشل قد طافت في المنزل بلا هوادة حاملةً غايدج على ذراعيها سابقاً، لتقيِّم الأماكن التي طلب لويس من عمّال النقل ترك الأغراض فيها، وتدفعهم إلى إعادة ترتيبها أو تغييرها أو إعادة تكديسها. لم يضيِّع لويس شيكهم؛ كان لا يزال في جيب صدره، إلى جانب الورقات الخمسة من فئة عشرة دولارات التي وَضَعها جانباً للإكرامية. عندما تم تفريغ الشاحنة أخيراً، سلَّمهم الشيك والنقود، وأومأ برأسه شاكراً، ووقَّع فاتورة الاستلام، ووَقَف على الشرفة يراقب عودتهم إلى شاحنتهم الكبيرة. افترَض أنهم قد يستريحون في بانغور ويتناولون بعض شراب الشعير. بضع زجاجات شراب شعير ستكون منعشة الآن. هذا جَعَله يفكِّر بـ جاد كراندال من جديد.

جلَس ورايتشل إلى طاولة المطبخ، ورأى الدوائر تحت عينيها.

"أنتِ"، قال، "اخلدي إلى النوم".

"أوامر الطبيب؟"، سألت، مبتسمةً قليلاً.

"أجل".

"حسناً"، قالت وهي تقف. "أنا منهكة. وغايدج عرضةً ليستيقظ في الليل. هل ستنضم إليَّ؟".

تردَّد. "لا أعتقد، ليس بعد. ذلك العجوز من الجانب المقابل للشارع -"

"الطريق. يسمّونه طريقاً في الريف. أو إذا كنتَ جادسون كراندال، أظن أنك ستلفظه *طراق*".

"موافق، *للطراق*. لقد دعاني لتناول بعض شراب الشعير. أظن أنني سأقبل عرضه. أنا مُتعَب، لكنني متوتر جداً لكي أنام".

ابتسمت رايتشل. "سينتهي بك المطاف بسماع نورما كراندال تُخبرك أين تتألم وما نوع الفِراش الذي تنام عليه".

ضحِك لويس، وهو يفكِّر كم هي مضحكة - مضحكة ومخيفة - قدرة الزوجات على قراءة عقول أزواجهن بعد حين.

"كان هنا عندما احتجنا إليه"، قال. "أظن أنه يمكنني أن أصنع معه معروفاً".

"نظام المقايضة؟".

هزَّ كتفيه، غير راغبٍ وغير متأكدٍ كيف سيُخبرها أن كراندال راقَ له سريعاً. "كيف هي زوجته؟".

"لطيفة جداً"، قالت رايتشل. "جلَس غايدج على حُضنها. وقد تفاجأتُ لأن يومه كان شاقاً، وأنت تعرف أنه لا يتأقلم سريعاً مع الأشخاص الجدد حتى في أفضل الظروف. ولديها دمية تركت آيلين تلعب بها".

"كم تقدِّرين سوء حالة التهاب المفاصل لديها؟".

"سيئة جداً".

"تجلس على كرسي ذي عجلات؟".

"لا... لكنها تسير ببطء شديد، وأصابعها...". رفعت رايتشل الأصابع النحيلة وفتلتها على شكل مخالب لتوضِّح له الفكرة. أومأ لويس برأسه. "على أي حال، لا تتأخر يا لُو. يقشعرّ بدني في المنازل الغريبة".

"لن يبقى غريباً لفترة طويلة"، قال لويس وقبَّلها.

الفصل 6

عاد لويس لاحقاً وهو يشعر بضآلة قدْرِهِ. لم يطلب منه أحد فحص نورما كراندال؛ عندما اجتاز الشارع (*الطراق*، ذكَّر نفسه مبتسماً)، كانت السيدة قد أَوت إلى فراشها من قبل، وجاد مجرد صورة ظلّيّة غامضة خلف المنخل الذي يسيِّج الشرفة. سمِع الصرير المريح لكرسيّ هزّازٍ على مشمَّع الأرضية القديم. قرَع لويس باب المنخل، الذي خشخَش بشكل أنيس على إطاره. وتوهَّجت سيجارة كراندال مثل يراعة كبيرة مسالمة في ظلمة الصيف. من جهاز راديو، جاء الصوت المنخفض لتعليق على مباراة لفريق ريد سوكس، وكل ذلك ولَّد لدى لويس كريد أغرب شعور بالعودة إلى المنزل.

"أيها الطبيب"، قال كراندال. "اعتقَدتُ أن هذا أنت".

"آمل أنك كنتَ جدّياً بشأن شراب الشعير"، قال لويس.

"آه، أنا لا أكذب أبداً بشأن شراب الشعير"، قال كراندال. "الرجل الذي يكذب بشأن شراب الشعير يكوِّن أعداءً لنفسه. اجلس أيها الطبيب. لقد وَضَعتُ زجاجتين إضافيتين على الثلج، تحسُّباً".

كانت الشرفة طويلة وضيقة، ومفروشة بكراسي وأرائك من خيزران الروطان. غرِق لويس في إحداها وتفاجأ كم كانت مريحة. رأى على يساره دلواً من القصدير مليئاً بمكعّبات ثلج وبضع زجاجات شراب شعير. أخذ واحدة.

"شكراً"، قال وفتحها. كانت الرشفتان الأولان منعشتين لحنجرته.

"على الرحب والسعة"، قال كراندال. "آمل أن تكون إقامتكم هنا سعيدة أيها الطبيب".

"شكراً"، قال لويس.

"على فكرة، إذا كنتَ تريد رقائق بسكويت هشّ أو شيء من هذا القبيل، يمكنني إحضارها لك. لديَّ قطعة جرذ ناضجة".

"قطعة *ماذا*؟".

"جبن الجرذ" [أي، جبن الشيدر]. بدا كراندال مستمتعاً قليلاً.

"شكراً، لكن شراب الشعير يكفيني".

"حسناً، سندعها وشأنها". تجشأ كراندال برضى.

"زوجتك أوت إلى السرير؟"، سأل لويس، متسائلاً لماذا كان يفتح الباب هكذا.

"نعم. تبقى أحياناً مستيقظة. وأحياناً أخرى لا".

"التهاب مفاصلها مؤلم جداً، أليس كذلك؟".

"وهل رأيتَ يوماً حالةً غير مؤلمة؟"، سأل كراندال.

هزَّ لويس رأسه.

"أظنه مقبولاً"، قال كراندال. "لا تشكو كثيراً. إنها امرأة جيدة، نورما". كان هناك مقدار كبير وبسيط من المَوَدّة في صوته. وفي الخارج على الطريق 15، مرَّت شاحنة ناقلة نفط كبيرة وطويلة لدرجة أن لويس بقي للحظات لا يستطيع رؤية منزله على الجانب المقابل للشارع. وكان مكتوباً على جانبها، بالكاد مرئي في آخر خيوط الضوء، كلمة أورينكو.

"شاحنة كبيرة لعينة"، علّق لويس.

"أورينكو قريبة من أورينغتون"، قال كراندال. "مَصنع سماد كيميائي. يذهبون ويعودون، بلا كلل. وناقلات النفط وشاحنات التفريغ، والأشخاص الذين يذهبون إلى عملهم في بانغور أو برُوْور ويعودون إلى منازلهم في الليل". هزَّ رأسه. "هذا هو الشيء الوحيد الذي لم يعد يعجبني في لادلو. ذلك الطريق اللعين. لا راحة منه. يسيرون طوال الليل والنهار. يوقظون نورما أحياناً. تباً، يوقظني أحياناً،

وأنا أنام نوماً عميقاً كالدب".

لويس، الذي اعتبر هذا الجزء الغريب من ماين هادئاً بشكل مُوحِش بعد الزئير المتواصل لشيكاغو، اكتفى بإيماء رأسه.

"يوماً ما سيقطع عنا العرب النفط، وسيتمكنون من إنبات زهور بنفسج أفريقي على الخط الأصفر بالضبط"، قال كراندال.

"قد تكون محقاً". أمالَ لويس زجاجته إلى الخلف وتفاجأ من إيجادها فارغةً.

ضحِك كراندال. "خذ واحدة أخرى أيها الطبيب".

تردَّد لويس ثم قال، "حسناً، لكن واحدة فقط. عليَّ العودة سريعاً".

"بالتأكيد. أليس تغيير المسكن أمراً مزعجاً؟".

"أجل"، وافَق لويس، ثم بقيا صامتين لبعض الوقت. كان صمتاً مريحاً، كما لو أنهما يعرفان بعضهما البعض منذ زمن طويل. كان هذا شعوراً قرأ عنه لويس في الكتب، لكنه لم يختبره أبداً قبل الآن. شَعَر بالخجل من أفكاره العفوية سابقاً بشأن الاستشارة الطبية المجانية.

على الطريق، زأرت شاحنةٌ أضواؤها الأمامية تتلألأ مثل نُجيمات.

"هذا طريق شنيع فعلاً"، كرَّر كراندال بتبصّرٍ، بغموضٍ تقريباً، ثم استدار إلى لويس. كانت هناك ابتسامة صغيرة غريبة على فمه المتشقِّق. حشرَ سيجارة تشسترفيلد في إحدى زوايا الابتسامة وأشعل عود ثقاب بظفره. "هل تتذكَّر المسار هناك الذي علَّقت عليه إبنتك الصغيرة؟".

لم يتذكَّره لويس لوهلةٍ؛ فقد علَّقت إيليه على أشياء كثيرة قبل أن تخرّ نائمةً. ثم تذكَّره. تلك الرقعة المجزوزة العريضة التي تلتفّ بين أيكة الأشجار وفوق التلة.

"نعم، أتذكّره. وعَدت أن تُخبرها عنه يوماً ما".

"صحيح، وسأفعل ذلك"، قال كراندال. "ذلك المسار يخترق الغابة لحوالي كيلومترين ونصف. الأولاد المحليون قُرب الطريق 15 والممر الوسطي يعتنون به لأنهم يستخدمونه. الأولاد يأتون ويذهبون... أصبح عددهم أكثر بكثير مما كان عليه عندما كنتُ فتى؛ ثم تختار مكاناً وتلتزم به. لكن يبدو أنهم يُخبرون بعضهم البعض، وتقوم مجموعة منهم كل ربيع بجزّ ذلك المسار. يبقونه نظيفاً طوال الصيف. لا يعرف عنه كل الراشدين في البلدة – الكثير منهم يعرفون، بالطبع، لكن ليس الجميع – لكن كل الأولاد يعرفون. أنا أكيد من هذا".

"هل يعرفون ماذا يوجد هناك؟".

"مقبرة الحيوانات"، قال كراندال.

"مقبرة الحيوانات"، كرَّر لويس، بارتباك.

"هذا ليس غريباً مثلما قد يبدو"، قال كراندال، وهو يدخِّن ويهزّ على كرسيه. "الطريق السبب. يستنفد الكثير من الحيوانات. كلاب وقطط، في الأغلب، لكن هذا ليس كل شيء. فإحدى شاحنات أورينكو الكبيرة تلك دهست حيوان الراكون الذي كان أولاد عائلة رايدر يربّونه. حصل ذلك – يا إلهي، لا شك أنه حصل في العام 73، وربما قبل ذلك. قبل أن تسنّ الولاية قانوناً يحظّر تربية راكونٍ أو حتى ظربانٍ، على أي حال".

"لماذا فعلوا ذلك؟".

"داء الكَلَب"، قال كراندال. "داء الكَلَب منتشر كثيراً الآن في ماين. أُصيب به ذات يوم كلب ضخم من فصيلة السانت برنارد في الجزء الجنوبي من الولاية وقتل أربعة أشخاص. كان ذلك مأساوياً. لم يكن قد تم تلقيح الكلب. لو تأكَّد أولئك الحمقى من تلقيح الكلب، لما كان ذلك قد حصل أبداً. لكن يمكنك تلقيح الراكون أو الظربان

مرتين في السنة وسيبقى احتمال إصابته بالداء. لكن راكون فتيان رايدر، والذي كان القدامى يسمّونه 'الراكون اللطيف'، يأتي إليك متهادياً – تباً كم كان سميناً! – ويلعق وجهك مثل كلب. حتى إن أباهم أخذه إلى الطبيب البيطري ليخصيه وينزع له مخالبه. لا شك أن ذلك كلّفه ثروة!".

"كان رايدر يعمل في شركة IBM في بانغور. وانتقلوا إلى كولورادو منذ خمس سنوات... أو ربما ست. مضحك عندما تفكّر أن ذَينك الولدين كبرا الآن بحيث أصبح بإمكانهما القيادة. هل حزنوا على ذلك الراكون؟ أظن ذلك. وقد بكى ماتي رايدر طويلاً لدرجة أن أمه خافت وأرادت أخذه إلى الطبيب. أظن أنه تخطى الأمر الآن، لكنهم لا ينسون أبداً. عندما يُدهَس حيوانٌ جيدٌ على الطريق، الولد لا ينسى أبداً".

انتقل تفكير لويس إلى إيليه مثلما رآها لآخر مرة هذه الليلة، مستغرقةً في النوم مع خرخرة تشرش بصوتٍ أجش أسفل الفِراش.

"إبنتي تربّي قطاً"، قال. "ونستون تشرشل. أو تشرش اختصاراً".

"هل ترتفعان عندما يسير؟".

"عفواً؟". لم تكن لدى لويس أي فكرة عما يتكلّم.

"لا يزال يملك خصيتيه أم تم إصلاح ذلك؟".

"لا"، قال لويس. "لا، لم يتم إصلاحه".

في الواقع، حصلت بعض المشادّة بشأن ذلك في شيكاغو. فقد أرادت رايتشل إخصاء تشرش، وحتى أخذت موعداً لدى البيطري. لكن لويس ألغاه. لا يزال حتى الآن غير متأكد من السبب. لم يكن شيئاً بسيطاً أو غبياً مثل مساواة ذكورته بذكورة قط إبنته، ولا حتى امتعاضه من فكرة وجوب إخصاء تشرش لضمان عدم اضطرار جارتهم البدينة إلى إحكام إغلاق سلال نفاياتها البلاستيكية لكي لا يتمكن

تشرش من تمزيقها بمخالبه واستكشاف ما بداخلها - شكَّل هذان الأمران جزءاً من السبب، لكن الأغلب كان شعوراً غامضاً لكن قوياً من أنه سيُفسد شيئاً في تشرش هو نفسه يقدِّره - من أنه سيطفئ نظرة اذهب-إلى-الجحيم في عينَي القط الخضراوين. لفتَ نظر رايتشل أخيراً إلى أنهم سينتقلون إلى الريف، ولا يجب أن يشكِّل ذلك مشكلةً. وها هو جادسون كراندال الآن يشير إلى أن جزءاً من الحياة الريفية في لادلو ينطوي على التعامل مع الطريق 15، المزدحم، ويسأله إن تم إصلاح القط. جرِّب بعض السخرية أيها الطبيب كريد - هذا مفيد لدمك.

"سأُصلحه"، قال كراندال، وهو يسحق سيجارته بين إبهامه وسبابته. "القط المصلَح لا يميل إلى التجوّل كثيراً. لكن إذا بقي هائماً طوال الوقت، سينفد حظه، وسينتهي به المطاف هناك مع راكون أولاد رايدر وكلب صيد تيمي دَسلر الصغير وببغاء السيدة برادلي. لا أقصد أن الببغاء دُهس على الطريق، بل وُجد مستلقياً على ظهره ذات يوم".

"سآخذ بنصيحتك"، قال لويس.

"جيد"، قال كراندال ونهض. "كيف حال شراب الشعير؟ أظن أنني سأدخل لإحضار شرحة من السيد جرذ العزيز في النهاية".

"شراب الشعير انتهى"، قال لويس وهو ينهض أيضاً، "وعليَّ المغادرة أيضاً. غداً يوم حافل".

"تبدأ العمل في الجامعة؟".

أومأ لويس برأسه. "لن يعود الطلاب قبل أسبوعين، لكن عليَّ أن أكون قد فهمتُ وقتها ما الذي أفعله، ألا تعتقد؟".

"نعم، إذا كنتَ لا تعرف مكان الحبوب، أظن أنك ستعاني من بعض المتاعب". مدَّ كراندال يده وصافحه لويس، منتبهاً مرة أخرى إلى حقيقة أن العظام العجوزة تتألم بسهولة. "تعال لزيارتنا في أي مساء"،

قال. "أريدك أن تتعرَّف على نورما. أظن أنك ستروق لها".

"سأفعل ذلك"، قال لويس. "تشرّفتُ بمعرفتك يا جاد".

"وأنا أيضاً. ستستقرّون. وربما حتى تبقون لفترة".

"آمل ذلك".

نزَل لويس المسار المرصوف ببلاط متفاوت الأشكال إلى حافة الطريق واضطر أن يتوقف بينما مرَّت شاحنة أخرى، تليها خمس سيارات تسير في اتجاه باكسبورت. ثم رافعاً يده في تحية قصيرة، اجتاز الشارع (*الطريق*، ذكَّر نفسه مرة أخرى) ودخل منزله الجديد.

كان هادئاً بأصوات النوم. بدا له أن إيليه لم تتحرّك أبداً، وكان غايدج لا يزال في مَهده، ينام بأسلوبه الاعتيادي، على ظهره ومنفرجِ الذراعين والساقين، وهناك رضّاعة قريبة منه. وقف لويس هناك للحظة وراح ينظر إلى إبنه، وامتلأ قلبه فجأة بحبّ قوي للفتى إلى حدود بدت خطيرة تقريباً. افترَض أن جزءاً من ذلك كان مجرد حنين إلى كل الأماكن والوجوه المألوفة في شيكاغو التي زالت الآن، محتها الكيلومترات بفعالية لدرجة أنها ربما لم تتواجد من الأصل أبداً. *أصبح عددهم أكثر بكثير مما كان عليه... مما كان عليه ثم تختار مكاناً وتلتزم به*. كانت هناك بعض الحقيقة في هذا.

ذهَب إلى إبنه، ولأنه لم يكن هناك أحدٌ، ولا حتى رايتشل، ليراه يفعل ذلك، قبَّل أصابعه ثم مرَّرها عبر قضبان المَهد ووضعهما بخفة ولفترة قصيرة على خد غايدج.

قوقأ غايدج واستدار على جنبه.

"نَم جيداً يا حبيبي"، قال لويس.

خلع ملابسه بهدوء واندسّ في نصفه من السرير المزدوج الذي كان

الآن مجرد فِراش واحد على الأرض. بدأ جهد اليوم يحلّ عليه. لم تتحرَّك رايتشل. وخيَّمت ظلال الصناديق غير المفرَّغة على الغرفة.

قبل أن يغفو بقليل، رفع لويس نفسه على أحد مِرفقيه ونظر خارج النافذة. كانت غرفتهما عند الجهة الأمامية للمنزل، ويمكنه رؤية منزل كراندال على الجانب الآخر للطريق. كان الجو مظلماً كثيراً ليرى الأشكال - سيكون ذلك ممكناً في ليلة مُقمِرة - لكن يمكنه رؤية جمرة السيجارة هناك. *لا يزال مستيقظاً*، فكَّر في سرّه. *ربما سيبقى مستيقظاً لفترة طويلة. العجائز لا ينامون كثيراً. ربما يبقون متأهبين للحراسة.*

من ماذا؟

كان لويس يفكِّر في ذلك عندما غفا. حلَم أنه في عالم ديزني، يقود شاحنة بيضاء ساطعة عليها شعار الهلال الأحمر. كان غايدج بجانبه، وبدا له في الحلم أن غايدج في العاشرة من عمره على الأقل. كان تشرش على لوحة قيادة الشاحنة البيضاء، ينظر إلى لويس بعينيه الخضراوين اللامعتين، وفي الشارع الرئيسي قرب محطة قطارات تسعينات القرن التاسع عشر، كان ميكي ماوس يصافح الأولاد المتحلّقين حوله، وقفازاته البيضاء الكبيرة تبتلع أيديهم الصغيرة الواثقة.

الفصل 7

كان الأسبوعان التاليان حافلَين للعائلة. وبدأ لويس يستقرّ في وظيفته الجديدة تدريجياً (كيف سيكون الوضع عندما يعود عشرة آلاف طالب، العديد منهم مدمنو مخدرات وشراب، وبعضهم مبتلون بأمراض اجتماعية، وبعضهم قلقون بشأن العلامات أو مكتئبون من مغادرة المنزل لأول مرة، ودزينة منهم – فتيات، في الأغلب – فاقدو الشهية... الوضع عندما يتدفّقون كلهم إلى الحرم التعليمي دفعةً واحدةً سيكون شيئاً مختلفاً مرة أخرى). وبينما بدأ لويس يتأقلم مع وظيفته كمدير قسم الخدمات الطبية في الجامعة، بدأت رايتشل تتأقلم مع المنزل.

كان غايدج مشغولاً بتلقي الكدمات التي ترافق اعتياده على بيئته الجديدة، وبقيت مواعيده الليليّة مضطربة لبعض الوقت، لكنه عاد لينام طوال الليل بدءاً من منتصف أسبوعهم الثاني في لادلو. فقط إيليه، مع توقّعها بدء الذهاب إلى روضة أطفال في مكان جديد، بدت متحمسة جداً ومستنفرة دائماً. كانت عرضة لفترات قهقهة مطوَّلة أو لاكتئاب مشابه تقريباً لما بعد انقطاع الطمث أو لنوبات غضب لأصغر كلمة. قالت رايتشل إنها ستتخطى ذلك عندما ترى أن المدرسة ليست الكارثة الكبرى التي تتخيّلها، وشعَرَ لويس أن رايتشل محقّة. لكن إيليه بقيت في معظم الأوقات ما كانت عليه دائماً – عزيزة على القلب.

أصبحت زجاجة أو زجاجتا شراب شعيره المسائية مع جاد كراندال من عاداته. وقرب فترة عودة غايدج لينام الليل بطوله من جديد، بدأ لويس يُحضِر حزمة سداسية الزجاجات كل ثاني أو ثالث ليلة. تعرَّف على نورما كراندال، امرأة لطيفة جداً تعاني من التهاب المفاصل الروماتويدي – التهاب المفاصل القديم القذر الذي يقتل معظم ما

يمكن أن يكون جيداً في مرحلة الشيخوخة لدى الرجال والنساء المعافين صحياً - لكن موقفها منه كان جيداً. لن تستسلم للألم؛ ولن ترفع الراية البيضاء. دعه يتملّكها إن استطاع. توقَّع لويس أنه لا تزال لديها خمس إلى سبع سنوات مُثمِرة أخرى وإن لم تكن سنوات مريحة جداً.

مخالفاً بالكامل عاداته الراسخة، فحَصها من تلقاء نفسه، ووضع لائحة بكل الأدوية التي وصفها لها طبيبها، ووجد أنها سليمة بالكامل. شَعَر بخيبة أمل مزعجة من عدم وجود شيء آخر يمكنه أن يفعله لها أو يقترحه عليها، فطبيبها وايبريدج كان مسيطراً على وضعها بأفضل ما يمكن - ما عدا حصول تقدّمٍ باهرٍ مفاجئٍ، والذي كان ممكناً لكن لا يمكن الاعتماد عليه. عليك أن تتعلَّم تقبّل الوضع، وإلا سينتهي بك المطاف في غرفة صغيرة تكتب رسائل إلى المنزل بأقلام كرايولا.

كانت تروق لرايتشل، وقد دعَّمتا صداقتهما بتبادل وصفات طهي بطريقة مماثلة لتبادل الفتيان الصغار بطاقات البيسبول: فطيرة تفاح نورما كراندال المخبوزة في طبق عميق مقابل ستروغانوف رايتشل. وقد أُخذت نورما بولدَي كريد - بالأخص إيليه، التي قالت عنها إنها ستكون "صاحبة جمال من الزمن القديم". على الأقل، أخبَر لويس رايتشل تلك الليلة في السرير، أن نورما لم تقل إن إيليه ستكبر لتصبح راكوناً عذباً فعلاً. ضحِكت رايتشل بقوة لدرجة أنها أطلقت ريحاً متفجِّراً، ثم بدأ كلاهما يضحكان بصخب ولفترة طويلة لدرجة أنهما أيقظا غايدج في الغرفة المجاورة.

حلَّ اليوم الأول من روضة الأطفال. ولويس، الذي أصبح يشعر أنه مسيطر تماماً على زمام الأمور في المشفى ومرافق الدعم الطبي الآن، أخذ اليوم إجازةً (بالإضافة إلى ذلك، كان المشفى فارغاً كلياً حالياً؛ فآخر مريض، وهي طالبة صيفيّة كسرت رِجلها على سلالم اتحاد

الطلبة، سُرِّح قبل أسبوع). وَقَف على المَرجة بجانب رايتشل مع غايدج على ذراعيه، بينما دخلَت الحافلة الصفراء الكبيرة المنعطف من الممر الوسطي وتوقفت بتثاقل أمام منزلهم. فُتحَت الأبواب الأمامية؛ وانجرفت ثرثرات الأولاد وزعيقهم على هواء سبتمبر الخفيف.

ألقت إيليه نظرة غريبة ضعيفة إلى الخلف فوق كتفها، كما لو أنها تسألهما إن لم يكن لا يزال هناك وقت لإلغاء هذه العملية المحتومة، وربما ما رأته على وجهَي والدَيها أقنعها أن الأوان فات، وكل شيء سيلي هذا اليوم الأول كان محتوماً بكل بساطة – مثل تفاقم التهاب مفاصل نورما كراندال. استدارت عنهما وصعَدت درجات الحافلة. انغلقت الأبواب مع لهاث أنفاس تنين. انطلقت الحافلة. أجهشت رايتشل بالبكاء.

"لا، بالله عليك"، قال لويس. لم يكن يبكي. فقط يكاد يبكي. "إنه مجرد نصف يوم".

"نصف يوم هو فترة سيئة كفاية"، أجابت رايتشل بصوت توبيخيّ وبدأت تبكي بحدّة أكثر. احتضنها لويس، وأحاط غايدج ذراعيه بشكل مريح حول عنق كلٍّ من والدَيه. عندما تبكي رايتشل، يبكي غايدج أيضاً عادة. لكن ليس هذه المرة. *أصبحنا له لوحده*. فكَّر لويس في سرّه، *وهو يعرف ذلك جيداً*.

انتظَرا عودة إيليه ببعض الذعر، وراحا يشربان الكثير من القهوة، ويتساءلان عن سير الأمور معها. خرَج لويس إلى الغرفة الخلفية التي كانت ستكون مكتبه محاولاً إضاعة الوقت عبر نقل الأوراق من مكان إلى آخر لكن دون إنجاز أي شيء آخر. وبدأت رايتشل إعداد الغداء بشكل مُبكر إلى حدّ يدعو إلى السخرية.

عندما رنَّ الهاتف عند العاشرة والربع، أسرعت رايتشل نحوه وردّت بـ "ألو؟" حابسة للأنفاس قبل أن يتمكن من أن يرنّ للمرة الثانية. وَقَف لويس عند المدخَل بين مكتبه والمطبخ، متأكداً أن المتصل هو معلِّمة إيليه تُخبرهم أنها قرَّرت أن إيليه لا تستطيع تحمّل الأمر، وأن معدة التعليم العام وجدتها عسيرة للهضم وكانت تبصقها. لكن المتصلة كانت نورما كراندال التي أرادت إخبارهم أن جاد قطفَ آخر أكواز الذرة ويسرّهما الحصول على دزينة منها إذا أرادا. ذهب إليهما لويس حاملاً كيس تسوّق ووبَّخ جاد لعدم السماح له بالمساعدة في القطاف.

"معظمه لا يستحق العناء اللعين على أي حال"، قال جاد.

"توقف عن قول هذا النوع من الكلام بينما أكون موجودة"، قالت نورما وهي تخرج إلى الشرفة حاملةً شاياً مُثلَّجاً على صينية كوكا كولا قديمة.

"آسف يا حبيبتي".

"ليس آسفاً البتّة"، قالت نورما للويس وجلست جافلةً.

"رأيتُ إيليه تستقلّ الحافلة"، قال جاد وهو يُشعِل سيجارة تشسترفيلد.

"ستكون بخير"، قالت نورما. "هذه حالهم تقريباً دائماً". *تقريباً*، فكَّر لويس في سرّه بكآبة.

لكن إيليه *كانت* بخير. فقد عادت إلى المنزل عند الظهر مبتسمةً مرحةً، وفستانها الأزرق ليوم المدرسة الأول يتطاير بلباقة حول ساقَيها المتجرّحتين (كان هناك جرح جديد على إحدى الركبتين للتعجّب بشأنه)، وتُمسك بيدها صورة ولدَين على الأرجح أو ربما رافعتين قنطريتين متحرّكتين، وإحدى فردتَي حذائها مفكوكة، وشريطٌ مفقودٌ من

شعرها، وتصرخ، "لقد غنّينا *العجوز ماكدونالد!* ماما! بابا! غنّينا *العجوز ماكدونالد!* نفس الأغنية كما في مدرسة شارع كارستيرز!".

ألقت رايتشل نظرة سريعة على لويس، الذي كان يجلس على المقعد بجوار النافذة وغايدج على حُضنه. كان الطفل نائماً تقريباً. وهناك شيء حزين في نظرة رايتشل، ورغم أنها أشاحت بنظرها بسرعة، إلا أن لويس شعَر بلحظة ذعر رهيب. *سنصبح عجوزين حقاً*، فكَّر في سرّه. *هذا حقيقي حقاً. لا أحد سيقوم باستثناء لنا. إنها في طريقها... ونحن أيضاً.*

ركَضت إيليه نحوه، محاولةً أن تريه صورتها، وجرحها الجديد، وتُخبِره عن *العجوز ماكدونالد* والسيدة بيريمان في الوقت نفسه. كان تشرش يلُفّ بين رجلَيها، ويخرخر بصخب، وكانت إيليه بطريقة أو بأخرى، وبأعجوبة تقريباً، لا تتعثّر به.

"صه"، قال لويس وقبَّلها. لقد نام غايدج، غير مكترث بكل الإثارة. "فقط دعيني أضع الطفل في السرير ثم سأستمع إلى كل شيء".

صعد بغايدج السلالم، مارّاً عبر أشعة شمس سبتمبر المائلة الحارة، وعندما وَصَل إلى المنبسط، أصابه هاجس رعب وظلمة لدرجة أنه توقَف – جمد في أرضه – ونظر حوله متفاجئاً، متسائلاً ما الذي انتابه للتو. احتضن الطفل بقوة أكبر، فتحرَّك غايدج بانزعاج. واقشعّرت ذراعا لويس وظهره بشكل كبير.

ما الأمر؟ تساءل، مرتبكاً وخائفاً. كان قلبه ينبض بسرعة؛ وشَعَر ببرودة في فروة رأسه كما لو أنها أصبحت فجأة صغيرة جداً لتغطي جمجمته؛ كان يمكنه الشعور بارتفاع منسوب الأدرينالين خلف عينيه. كان يعرف أن العيون البشرية تنتأ حقاً عندما يكون الخوف شديداً؛ لا تتوسَّع فحسب بل *تنتفخ* في الواقع بسبب ارتفاع ضغط الدم والضغط

الهيدروستاتيّ للموائع الجمجميّة. *ما هذا الشيء اللعين؟ أشباح؟ يا إلهي، أشعر حقاً كما لو أن شيئاً مسّني للتو في هذا الرواق، شيئاً رأيْته تقريباً.*

في الطابق السفلي، ارتطم باب المنخل بإطاره بعنف.

جفلَ لويس كريد، وكاد يصرخ، ثم ضحِك. كان ذلك فقط أحد جيوب الهواء البارد النفسية التي يمرّ بها الأشخاص أحياناً - لا أكثر، ولا أقل. اضطراب وجيز جداً. هذه أمور تحصل؛ هذا كل ما في الأمر. ماذا قال سكرُوج لشبح جاكوب مارلي؟ *قد لا تكون أكثر من مجرد حبّة بطاطا غير مطهية تماماً. يوجد مرق لحم فيك أكثر مما يوجد قبر.* وذلك كان صحيحاً أكثر - بدنياً وكذلك نفسياً - مما كان تشارلز ديكنز يعرف على الأرجح. لم تكن هناك أشباح، على الأقل ليس حسب خبرته. وقد أعلن وفاة أربعة وعشرين شخصاً في مهنته ولم يشعر أبداً بانتقال الروح.

أخذ غايدج إلى غرفته ووضعه في مَهده. لكن بينما كان يسحَب البطانية ليغطي إبنه، شَعَر بارتعاش في ظهره، وتذكَّر فجأة صالة عرض عمّه كارل. لم تكن تحتوي على سيارات جديدة، أو تلفزيونات بكل ميزاتها الحديثة، أو غسّالات أطباق ذات واجهات زجاجية لكي تتمكن من مشاهدة أفعال رغوة الصابون العجيبة. بل مجرد صناديق مفتوحة أغطيتها، وضوء كشّاف مخفي بعناية فوق كل واحد منها. كان خاله حانوتيّاً.

يا إلهي، ما كل هذه الأهوال؟ دعها تزول! اطردها من ذهنك!

قبَّل إبنه ونزلَ ليستمع إلى إيليه تُخبِره عن يومها الأول في مدرسة الأولاد الكبار.

الفصل 8

ذلك السبت، وبعد أن أكمَلت إيليه أسبوعها الأول في المدرسة ومباشرة قبل عودة الطلاب إلى كلّياتهم، اجتاز جاد كراندال الطريق وسار إلى حيث يجلس أفراد عائلة كريد على مَرجتهم. كانت إيليه قد ترجَّلت عن درّاجتها وتشرب كوب شاي مُثلَّج. وغايدج يزحف على العشب، يتفحَّص الحشرات، وربما حتى يأكل بعضها؛ لم يكن غايدج يكترث كثيراً لمصدر بروتيناته.

"جاد"، قال لويس وهو ينهض. "دعني أُحضر لك كرسياً".

"لا داعي". كان جاد يرتدي سروال جينز، قميص عمل ذا عنق مفتوح، وحذاءً أخضر. نظَرَ إلى إيليه. "هل لا تزالين تريدين رؤية إلى أين يؤدّي المسار يا إيليه؟".

"نعم!"، قالت إيليه، ونهضت فوراً. تلألأت عيناها. "أخبَرني جورج باك في المدرسة أنه يؤدّي إلى مقبرة الحيوانات، وقد أخبَرتُ ماما، لكنها قالت أن عليَّ انتظارك لأنك تعرف مكانها".

"هذا صحيح"، قال جاد. "إذا لم يكن لديكما مانع، سنقوم بنزهة إلى هناك. لكنك ستحتاجين إلى حذاء. الأرض ليِّنة قليلاً في بعض الأماكن".

سارعت إيليه إلى المنزل.

راقبها جاد بنظراته بمَوَدّة وسعادة. "ربما تودّ أن ترافقنا يا لويس".

"أجل"، قال لويس. ونظَرَ إلى رايتشل. "هل تريدين أن تأتي معنا يا حبيبتي؟".

"ماذا بشأن غايدج؟ اعتقَدتُ أن المسافة كيلومترٌ ونصف".

"سأضعه في حقيبة الظهر".

ضحِكت رايتشل. "حسناً... لكنه ظهرك يا سيد".

انطلقوا بعد عشر دقائق، والجميع يرتدي حذاءً ما عدا غايدج، الذي كان يجلس جاحظ العينين في حقيبة الظهر ينظر إلى كل شيء من فوق كتف لويس. بقيت إيليه تسبقهم باستمرار، لتطارد الفراشات وتقطف الزهور.

كان العشب في الحقل الخلفي يصل إلى الخصر تقريباً، وزهَّرت الآن نبتات عصا الذهب، إشاعات أواخر الصيف تلك التي تأتي كل سنة لتنشر النميمة عن الخريف. لكن لم يكن هناك خريف في هواء اليوم؛ فالشمس لا تزال في أغسطس، رغم أن شهر أغسطس انتهى منذ قرابة أسبوعين. حين وَصَلوا إلى أعلى التلة الأولى، وكانوا يسيرون متباعدين عن بعضهم البعض على المسار المجزوز، ظهرت بُقع كبيرة من العرق تحت ذراعَي لويس.

توقف جاد مؤقتاً. ظنَّ لويس في البدء أن أنفاس العجوز انقطعت – ثم رأى المنظر الذي انفتح خلفهم.

"جميل جداً هنا"، قال جاد، وقد وضع عشبة تيموثي بين أسنانه. ظنَّ لويس أنه سمِع للتو التبسيط اليانكي الجوهريّ.

"إنه *فاتن*"، قالت رايتشل ثم استدارت إلى لويس، ورمقته بعض نظرات الاتهام. "لماذا لم تُخبِرني عن هذا؟".

"لأنني لم أعرف بوجوده"، قال لويس، وكان خجِلاً قليلاً. كانوا لا يزالون على عقارهم؛ كل ما في الأمر هو أنه لم يجد أبداً الوقت الكافي قبل اليوم ليصعد التلة الواقعة خلف المنزل.

كانت إيليه قد سبقتهم بمسافة جيدة. عادت الآن وهي تنظر بتعجّب واضح أيضاً. وتشرش في أعقابها.

لم تكن التلة مرتفعةً، لكن لا داعي لأن تكون كذلك. كانت الأشجار الكثيفة تحجب الرؤية إلى الشرق، لكن عند النظر في هذا الاتجاه، الغرب، تنفتح الأرض في حلم ذهبي ناعس من أواخر الصيف. كان كل شيء ساكناً، ضبابياً، صامتاً. لم تكن هناك حتى ناقلة نفط أورينكو على الطريق العام لخرق الهدوء.

وادي النهر هو ما كانوا ينظرون إليه، بالطبع؛ بينوبسكوت، الذي استخدمه الحطّابون ذات يوم لكي تطفو أشجارهم نزولاً من الشمال الشرقي إلى بانغور ودِيري. لكنهم كانوا جنوبي بانغور وإلى الشمال قليلاً من دِيري هنا. مجرى النهر عريض وهادئ، كما لو أنه يغطّ في حلم عميق. كان باستطاعة لويس رؤية هامبدن ووينتربورت في الجانب البعيد، وراح يتخيَّل أنه يمكنه من هنا تتبّع الأفعى السوداء الموازية للنهر للطريق 15 وصولاً حتى باكسبورت تقريباً. نظروا إلى ما بعد النهر، إلى الأشجار الغَضّة والطرقات والحقول. ونتأ البرج شمالي لادلو من بين ظُلّة أشجار دردار قديمة، وكان بإمكانه رؤية متانة سطح القرميد المربع لمدرسة إيليه إلى اليمين.

تحرَّكت سُحُب بيضاء ببطء فوقهم نحو أفقٍ أزرق باهتٍ. وكانت حقول أواخر الصيف في كل مكان، مستنفدَة في نهاية الدورة، راقدة لكن غير ميتة، بلون أسمر مصفَرّ مدهش.

"فاتن هي الكلمة الصحيحة"، قال لويس أخيراً.

"كانوا يسمّونها تلة الأمل في الأيام الخوالي"، قال جاد. وَضَع سيجارة في زاوية فمه لكنه لم يشعلها. "هناك قلّة لا يزالون يسمّونها هكذا، لكن بعد انتقال الصغار في السن إلى البلدة، نُسي أمرها تقريباً. لا أعتقد أن عدد الأشخاص الذين يأتون إلى هنا كبيرٌ. لا يبدو من بعيد أنه يمكنك رؤية الكثير لأن التلة ليست مرتفعة جداً. لكن يمكنك

رؤية –" وأومأ بيده وصمتَ.

"يمكنك رؤية كل شيء"، قالت رايتشل بصوت منخفض مرتعب. استدارت إلى لويس. "حبيبي، هل *نملك* هذا؟".

وقبل أن يستطيع لويس إجابتها، قال جاد: "هذا جزء من العقار، نعم".

وهذا لم يكن، فكّر لويس في سرّه، مماثلاً بالضبط.

كان الجو بارداً أكثر في الغابة، ربما بثماني أو عشر درجات. وكان المسار، الذي لا يزال عريضاً ومعلّماً من وقت لآخر بزهور في أوعية أو علب قهوة (معظمها ذابلة)، مليء بإبر الصنوبر الجافة. كانوا قد ساروا حوالي نصف كيلومتر وبدأوا ينزلون، عندما نادى جاد على إيليه.

"هذه نزهة جيدة لفتاة صغيرة"، قال جاد بلطف، "لكنني أريدك أن تعدي أمك وأباك أنك إذا صعدتي إلى هنا، فستبقين على المسار دائماً".

"أعِدُ بذلك"، قالت إيليه بحزم. "لماذا؟".

ألقى نظرة سريعة على لويس، الذي كان قد توقف ليستريح. فحَمْل غايدج، حتى في ظل أشجار الصنوبر القديمة تلك، كان شاقاً. "هل تعرف أين أنت؟"، سأل جاد لويس.

فكّر لويس وبدأ يغربل الأجوبة: لادلو، شمالي لادلو، خلف منزلي، بين الطريق 15 والممر الوسطي. هزَّ رأسه.

أشار جاد بإبهامه خلف كتفه. "هناك أمور كثيرة في هذا الاتجاه"، قال. "هناك البلدة. ولا شيء في هذا الاتجاه سوى غابات لثمانين كيلومتراً أو أكثر. يسمّونها هنا غابات شمالي لادلو، لكنها تلامس جزءاً صغيراً من أورينغتون، ثم تصل إلى روكفورد. وتنتهي عند أراضي

الولاية التي أخبَرتُكَ عنها، تلك التي يريد الهنود استرجاعها. أعرف أنه من المضحك قول إن منزلك الصغير اللطيف هناك على الطريق الرئيسي، بهاتفه وأضوائه الكهربائية وتلفزيون الكبل وكل شيء، يقع على حافة بريّة، لكنها الحقيقة". اِلتفَت إلى الوراء نحو إيليه. "كل ما أقوله يا إيليه هو أنك لا تريدين أن تهيمي في تلك الغابات. قد تتوهين عن المسار، والله أعلم أين قد ينتهي بك المطاف وقتها".

"لن أغادره يا سيد كراندال". رأى لويس أنها كانت مُعجَبة بالقدر الكافي، وحتى مرتعبة، لكن غير خائفة. بينما رايتشل كانت تنظر إلى جاد بانزعاج، وشَعَر لويس بانزعاج طفيف هو أيضاً. افترَض أنه ناتج تقريباً عن الخوف الغريزي من الغابات الذي تولِّده فينا الحياة في المدينة. لم يحمل لويس بوصلة في يده منذ أيام الكشّافة، قبل عشرين سنة، وذكرياته عن كيفية إيجاد الطريق باستخدام أشياء مثل نجم الشمال، أو كيفية معرفة الجهة التي ينمو عليها الطحلب على الأشجار كانت غامضة مثل ذكرياته عن كيفية ربط عقدة تقصير أو عقدة نصفية.

تمعَّن فيهم جاد وابتسم قليلاً. "لم نفقد أحداً في هذه الغابات منذ 1934"، قال. "على الأقل، لا أحد من السكان المحليين. آخر واحد كان ويل جيسون – لم تكن خسارة كبيرة. باستثناء ستاني بوشارد، أظن أن ويل كان أكبر مدمن شراب في هذه الجهة من باكسبورت".

"قلتَ لا أحد من السكان المحليين"، علَّقت رايتشل بصوت لم يكن عادياً جداً، وكان بإمكان لويس قراءة أفكارها تقريباً: نحن لسنا من السكان المحليين. على الأقل، ليس بعد.

تردَّد جاد قليلاً ثم أومأ برأسه. "نفقد أحد السيّاح كل سنتين أو ثلاث لأنهم يعتقدون أن المرء لا يمكن أن يتوه بالقرب من الطريق

الرئيسي. لكننا لم نفقد أحداً بشكل نهائي أبداً يا سيدة. لا تقلقي".

"هل هناك حيوان الموظ؟"، سألت رايتشل بقلق، وابتسم لويس. إذا أرادت رايتشل أن تقلق، فستقلق بإفراط.

"حسناً، قد تشاهدين أحد حيوانات الموظ"، قال جاد، "لكنه لن يسبِّب لك أي متاعب يا رايتشل. تصبح تلك الحيوانات متوترة قليلاً خلال موسم التزاوج، لكنها خارج الموسم لا تفعل أكثر من مجرد النظر. والأشخاص الوحيدون الذين تهاجمهم بعد فترة شبَقها هم الأشخاص من ماساتشوستس. لا أعرف لماذا، لكن هذا ما يحصل". ظنَّ لويس أن الرجل يمزح لكنه لم يكن أكيداً؛ فقد بدا جاد جدّياً جداً. "لقد رأيتُ ذلك يحصل مرات عديدة. شخصٌ من ساغوس أو ميلتون أو وسْتون متسلقاً شجرة، ويصيح على قطيع من الموظ، وكل موظ لعين منها بحجم منزل متنقّل. يبدو أن الموظ يستطيع أن يشمّ ماساتشوستس في الرجل أو المرأة. أو ربما فقط يشمّ كل تلك الملابس الجديدة من ل. ل. بينز - لا أعرف. أودّ رؤية أحد طلاب تربية الحيوانات في الكلّية يكتب تقريراً عن هذا، لكنني لا أظن أن أحدهم سيفعل ذلك".

"ما هي فترة الشبَق؟"، سألت إيليه.

"لا تهتمّي"، قالت رايتشل. "لا أريدك أن تأتي إلى هنا إلا إذا كنتِ مع شخص ناضج يا إيليه". اقتربت رايتشل من لويس قليلاً.

بدا جاد متألماً. "لم أقصد إخافتك يا رايتشل. أنتِ أو إبنتك. لا داعي للخوف في تلك الغابات. هذا مسار جيد؛ يصبح كثير الحشرات في الربيع وزلقاً قليلاً طوال الوقت - ما عدا في العام 1955، الذي شهِد أكثر صيف جاف يمكنني تذكُّره - لكن تباً، لا يوجد حتى أي لبلاب سام أو بلّوط سام، اللذين يتواجدان في الجهة الخلفية لفناء

المدرسة، وعليك الابتعاد عنهما يا إيليه، إذا كنت لا تريدين تمضية ثلاثة أسابيع من حياتك تستحمّين بالنشاء".

غطّت إيليه فمها وقهقهت.

"إنه مسار *آمن*"، قال جاد بجدّية لرايتشل، التي بقيت لا تبدو مُقتنِعة. "أنا أكيد أن حتى غايدج يستطيع السير عليه، وأولاد البلدة يأتون إلى هنا كثيراً، لقد أخبَرتك هذا من قبل. يُبقونه نظيفاً. لا أحد يطلب منهم ذلك؛ فقط يفعلونه من تلقاء أنفسهم. لن أريد إفساد ذلك على إيليه". انحنى وغمزَها. "هذا مماثل لأشياء عديدة أخرى في الحياة يا إيليه. تبقين على المسار وسيكون كل شيء بخير. تخرجين عنه وفجأة تجدين نفسك تائهة إذا لم تكوني محظوظة. ثم يضطر أحدهم إلى إطلاق حملة بحث عنك".

واصلوا سيرهم. بدأ لويس يشعر ببعض التشنّج المؤلم في ظهره من حاملة الطفل. وكان غايدج بين الحين والآخر يُمسِك شعر لويس بيديه الاثنتين ويشدّ بحماسة أو يوجّه ركلةً مبتهِجةً إلى كُليتَيه. وراح البعوض المتأخر يحوم حول وجهه وعنقه.

انحنى المسار نزولاً، وبدأ يتموّج بين أشجار شوح قديمة جداً، ثم مرّ عبر رقعة متشابكة من الخميلة المليئة بالعلّيق. كانت التربة لزِجة هنا، وخاض لويس في الوحل وبعض المياه الراكدة. وعَبَروا في لحظة من اللحظات فوق بقعة مستنقعية مستخدمين زوجاً من الأعشاب الأجميّة الكبيرة كنقاط انطلاق. هذا كان أسوأ ما في الأمر. بدأوا يصعدون مرة أخرى وأعادت الأشجار فرض نفسها. بدا أن وزن غايدج قد ازداد خمسة كيلوغرامات بشكل عجيب، وحرارة الجو، بشكل عجيب مماثل أيضاً، ارتفعت عشر درجات. راح وجه لويس يتصبَّب عرقاً.

"كيف الحال معك يا حبيبي؟"، سألت رايتشل. "هل تريدني أن أحمله عنك لبرهة؟".

"لا، أنا بخير"، قال، وكان هذا صحيحاً، رغم أن قلبه كان ينبض بسرعة كبيرة في صدره. كان معتاداً على وصف التمرين الجسدي للآخرين أكثر من اعتياده على تنفيذه بنفسه.

كان جاد يسير وإيليه إلى جانبه، بسروالها الفضفاض الأصفر الليموني وبلوزتها الحمراء الساطعة في ظُلمة الظلال البنّية الخضراء.

"لُو، هل تعتقد أنه يعرف حقاً إلى أين هو ذاهب؟"، سألت رايتشل بنبرة منخفضة قلِقة قليلاً.

"بالتأكيد"، قال لويس.

ناداهما جاد بانشراح دون أن يستدير: "لم نعد بعيدين كثيراً الآن... هل أنت صامد يا لويس؟".

يا إلهي، فكَّر لويس في سرّه، الرجل تخطّى الثمانين من عمره، لكنني لا أعتقد أنه ذرف أي نقطة عرق.

"أنا بخير"، أجابه ببعض العدوانية. كان الكبرياء ليجعله يقول الشيء نفسه على الأرجح حتى ولو شَعَر ببداية نوبة قلبية. ابتسم، وشدَّ أربطة حقيبة الظهر قليلاً، وتابع سيره.

وصلوا إلى قمة التلة الثانية، ثم انحدر المسار بين رقعة أجمات وخميلة متشابكة عالية حتى مستوى الرأس. ضاقَ بعدها، ثم أمامهم مباشرة، رأى لويس إيليه وجاد يمرّان تحت قوس مصنوع من ألواح خشبية قديمة لطَّخها الطقس، ومكتوب عليها بطلاء أسود باهت، بالكاد مقروء، الكلمتين "مكبرة الحيوانات". تبادَل ورايتشل ابتسامةً ومرّا تحت القوس، ممسكَين يدَي بعضهما غريزياً كما لو أنهما جاءا إلى هنا ليتزوجا.

للمرة الثانية ذلك الصباح، تفاجأ لويس.

لم تكن هناك سجادة إبر في هذا المكان، بل دائرة مثالية تقريباً من العشب المجزوز، قطرها حوالي اثنا عشر متراً. كانت محاطةً بخميلة متشابكة بكثافة على ثلاث جهات، وخليط أشجار قديمة أسقطتها الرياح على الجهة الرابعة بدت شريرة وخطيرة. من الأفضل لأي شخص يحاول شقّ طريقه عبرها أو التسلّق فوقها أن يرتدي رباطاً رياضياً فولاذياً، فكَّر لويس في سرّه. كانت الفسحة الخالية مزدحمة بشواهد من الواضح أن الأولاد صنعوها من أي مواد استطاعوا الحصول عليها بالتوسّل أو الاستعارة – ألواح أقفاص خشبية، فضلات أخشاب، قِطع قصدير مطروق. ومع ذلك، بالمقارنة مع محيط الأجمات المنخفضة والأشجار المتشعِّثة التي تتحارب على مساحة العيش وضوء الشمس هنا، يبدو أن حقيقة صناعتهم الخرقاء تشدِّد على التماثل الذي كان لديهم وحقيقة أن البشر مسؤولون عما يتواجد هنا. وقد ألقت الستارة الخلفية الحرجيّة على المكان نوعاً من العمق المجنون، طابعاً لم يكن سماوياً بل دنيوياً.

"هذا جميل"، قالت رايتشل، بنبرة لا تُظهِر أنها عَنَته.

"*رائع!*"، صاحت إيليه.

أنزَل لويس غايدج عن كتفه وأَخرَجه من حاملة الطفل لكي يتمكن من الزحف. تنهَّد ظهره ارتياحاً.

راحت إيليه تركض من نصب تذكاري إلى نصب تذكاري آخر، وتصيح على كل واحد منها. تبَعها لويس بينما راقَبت رايتشل الطفل. جلَس جاد القرفصاء، وأسند ظهره على صخرة ناتئة، وراح يدخِّن.

لاحَظ لويس أن المكان *لم يبدُ* منظَّماً، أو يعتمد نمطاً، فقط؛ فقد تم ترتيب النُصُب التذكارية في دوائر تقريبية متحدة المركز.

القط سْماكي، صرَّح شاهدٌ مصنوع من خشبة صندوق. كان خط

اليد طفولياً لكن دقيقاً. *كان مطيعن*. وتحت ذلك: *1971-1974*. وعلى مقربة من ذلك في الدائرة الخارجية رأى قطعة أردواز طبيعي مكتوب عليها إسم بطلاء أحمر باهت لكن مقروء تماماً: بيفر. وتحت ذلك بيت من الشعر: *بيفر، بيفر، شمّام أظافر/طوال حياته بقي مستنفر*.

"كان بيفر كلب صيد عائلة دَسلر"، قال جاد. كان قد حفَر حفرة صغيرة في التربة بكَعب حذائه وراح يرمي كل رماده فيها بعناية. "دهسته شاحنة نفايات العام الماضي. أليس هذا مؤسفاً؟".

"أجل"، وافَق لويس.

كانت بعض القبور معلَّمة بزهور، بعضها جديد وأغلبها قديم، وعدد كبير منها متحلِّل كلياً تقريباً. وأكثر من نصف الكتابات المكتوبة بالطلاء أو بالقلم التي حاوَل لويس قراءتها كانت قد تلاشت جزئياً أو كلياً. وبعضها الآخر لا يحمل أي علامة ملحوظة أبداً، وافترض لويس أن الكتابات عليها دُوِّنَت على الأرجح بطبشورة أو قلم شمع للتلوين.

"ماما!"، صاحت إيليه. "هنا يوجد سمكة ذهبية! تعالي وانظري!".

"لا شكراً"، قالت رايتشل، وألقى لويس نظرة سريعة عليها. كانت تقف لوحدها، خارج الدائرة الخارجية، تبدو غير مرتاحة أكثر من أي وقت مضى. فكَّر لويس في سرّه: *إنها منزعجة حتى هنا*. لم تكن ترتاح أبداً بالقرب من مظاهر الموت (وافترَض أن هذا يحصل مع الجميع حقاً)، على الأرجح بسبب أختها. فقد تُوفِّيت أخت رايتشل يافعةً جداً، وقد ترَك ذلك ندبةً تعلَّم لويس باكراً في زواجه عدم وجوب لمسها. كان إسمها زيلدا، وماتت من التهاب السحايا الفقري. الأرجح أن موتها كان طويلاً ومؤلماً وبشعاً، وكانت رايتشل وقتها في عمر حسّاس. وإذا أرادت نسيانه، اعتقَد أن لا ضرر في ذلك أبداً.

غمزها لويس، وابتسمت له رايتشل امتناناً.

رفع لويس نظره. كانوا في فسحة طبيعية. افترَض أن ذلك يفسِّر سبب نمو العشب جيداً هنا؛ فأشعة الشمس تستطيع العبور. ومع ذلك فالمسألة تتطلب ريّاً وعنايةً. وهذا يعني حمل عبوات ماء إلى هنا أو ربما مضخّات هندية التي هي حتى أثقل من غايدج في حقيبة ظهره. فكَّر مرة أخرى أنه غريبٌ أن يواظب الأولاد على فعل شيء كهذا لفترة طويلة. ذكرياته الشخصية عن حماسة الطفولة - عزّزتها صفقاته مع إيليه - كانت أنها تميل إلى الاحتراق مثل ورق الصحف، بسرعة... بحرارة عالية... وتنطفئ سريعاً.

لكنهم *واظبوا* على الاعتناء بالمكان؛ كان جاد محقّاً في هذا. وأصبح ذلك جلياً له أكثر فأكثر مع سيره نحو الوسط التقريبي للدائرة. فمع الانتقال إلى الداخل، تصبح قبور الحيوانات أقدم؛ ويقلّ عدد الكتابات التي يمكن قراءتها، لكن تلك التي يمكن قراءتها تُظهِر خطاً زمنياً بعيداً في الماضي. هنا ترقد *تريكسي. قوتلت على الطريق العام 15 ستمبر 1968*. وفي نفس الدائرة يوجد لوح خشبي مسطَّح عريض زُرِع عميقاً في الأرض. الصقيع والذوبان جعلاه يلتوي ويميل جانبياً، لكن لويس بقي قادراً على قراءة *في ذكرى مارتا أرنابتنا الأليفة ماتة 1 مارس 1965*. وفي صف أبعد قرأ *الجنرال باتون (كلبنا! الطيب!)* الذي مات في 1958؛ وپولينيزيا (التي ستكون ببغاءً، إذا كان لويس يتذكَّر فيلم دكتور دُوليتل بشكل صحيح)، التي زعَقت "پولي تريد بسكويتة" لآخر مرة في صيف 1953. لم يكن هناك شيء مقروء في الصفين التاليين، ثم على مسافة بعيدة من الوسط، منقوشة بإزميل بشكل متعرّج على قطعة حجر رملي، قرأ *هانا أفضل كلبة في التاريخ 1929-1939*. رغم أن الحجر الرملي ناعمٌ نسبياً - وبالتالي أصبحت الكتابة الآن مجرد شبح - وجَد لويس صعوبة في تخيُّل الساعات التي أمضاها ذلك الولد ليحفر

هذه الكلمات السبعة على الحجر. بدا له الإلتزام النابع عن الحبّ والحزن مذهِلاً؛ هذا شيء لم يفعله الأهل لأهاليهم أو حتى لأولادهم إذا ماتوا يافعين.

"مدهش، هذا يعود إلى زمن بعيد"، قال لجاد، الذي كان قد اقترب منه.

أومأ جاد برأسه. "تعال إلى هنا يا لويس. أريد أن أريك شيئاً".

سارا إلى صف يبعد ثلاثة صفوف فقط من الوسط. النمط الدائري هناك، الذي يُلحَظ كصُدفة عشوائية تقريباً من الصفوف الخارجية، كان واضحاً جداً. توقَّف جاد أمام قطعة صغيرة من الأردواز سقطت أرضاً. ركع العجوز بعناية ورفعها وأعاد نصبها من جديد.

"كانت توجد كلمات عليها"، قال جاد. "لقد نقشتُها بنفسي، لكنها زالت الآن. دفنتُ كلبي الأول هنا. سپوت. مات من الشيخوخة في العام 1914، سنة اندلاع الحرب العُظمى".

مرتبكاً من فكرة وجود مقبرة أقدم من العديد من مقابر الناس، سار لويس نحو الوسط وفحص عدة شواهد. كلها كانت غير مقروءة، ومعظمها تكاد أرضية الغابة تستردّه. ونما العشب بشكل كليّ تقريباً فوق أحدها، وعندما أعاد نصبه، سمع صوت تمزّق احتجاجيّ طفيف من الأرض. هروَلت خنافس عمياء إلى القسم الذي كشَفه. شَعَر ببعض القشعريرة وقال لنفسه، *مقبرة للحيوانات. لستُ متأكداً أن هذا يُعجبني حقاً*.

"كم تعود هذه في التاريخ؟".

"لا أعرف"، قال جاد، وهو يضع يديه عميقاً في جيبيه. "كان المكان هنا عندما مات سپوت، بالطبع. كانت لديَّ شلّة كاملة من الأصدقاء في تلك الأيام. ساعَدوني على حفر الحفرة لـ سپوت. الحَفر

هنا ليس سهلاً، أيضاً - الأرض صخرية بشكل مريع، من الصعب قلبها. وساعَدتُهم أحياناً". أشار إلى هنا وهناك بإصبع صلب. "هناك كلب بيت لاڤاسّور، إذا كنتُ أتذكَّر جيداً، وثلاثة من قطط ألبِيون غروتلي مدفونة بجانب بعضها البعض هناك".

"كان العجوز فريتشي يربّي حمام سباق. دفنتُ إحداها التي قبض عليها كلبٌ بمساعدة آل غروتلي وكارل هانا. إنها هناك". صمت وراح يتأمل. "أنا آخر مَن تبقّى من تلك الشلّة. كلهم ماتوا الآن. رحلوا".

لم يقل لويس شيئاً، بل بقي واقفاً ينظر إلى قبور الحيوانات واضعاً يديه في جيبيه.

"الأرض صخرية"، كرَّر جاد. "أظن أنه لا يمكن زرع شيء هنا غير الجثث على أي حال".

بدأ غايدج يبكي قليلاً، فأحضَرته رايتشل وهي تحمله على وركها. "إنه جائع"، قالت. "أعتقد أن علينا العودة يا لُو". *رجاءً، اتفقنا؟* سألت عيناها.

"بالطبع"، قال مُجيباً عينيها. حمَل حقيبة الظهر مرة أخرى واستدار لكي تستطيع رايتشل إدخال غايدج فيها. "إيليه! أين أنتِ يا إيليه؟".

"ها هي"، قالت رايتشل وأشارت نحو الأشجار التي أسقطتها الرياح. كانت إيليه تتسلَّق كما لو أن تلك الأشجار الساقطة نسيبٌ وغدٌ للقضبان الأفقية في المدرسة.

"عزيزتي، عليك النزول من هناك!"، صاح جاد بصوتٍ قلقٍ. "إذا وضعتِ قدمك في الفجوة الخطأ وتحرّكت تلك الأشجار القديمة، سينكسر كاحلك".

قفَزت عنها إيليه. "آخ!"، صرخت وسارت نحوهم وهي تفرك وركها. لم تكن بشرتها مجروحة، لكن غصناً ميتاً صلباً مزَّق سروالها.

"لقد فهِمت قصدي"، قال جاد، ونفش لها شعرها. "الأشجار قديمة مثل هذه، حتى الشخص الخبير بالغابات لن يحاول تسلّقها إذا كان بإمكانه الاستدارة حولها. الأشجار التي تسقط في كومةٍ تصبح شريرة. ستعضّك إن استطاعت".

"حقاً؟"، سألت إيليه.

"حقاً"، قال لويس قبل أن يتمكن جاد من إجابتها.

أسهبَ جاد قائلاً، "تتكوَّم مثل قشات. وإذا صدفَ وداست رِجلك على الواحدة الصحيحة، قد تنهار كلها مثل انهيار ثلجي".

نظَرَت إيليه إلى لويس. "هل هذا صحيح يا بابا؟".

"أعتقد ذلك يا حبيبتي".

"هذا مقرف!". اِلتفَتت إلى الوراء نحو الأشجار التي أسقطتها الرياح وصاحت: "لقد مزّقتِ بنطلوني، أيتها الأشجار الكريهة!".

ضحِك الراشدون الثلاثة، على عكس الأشجار التي أسقطتها الرياح، التي بقيت جالسة تبيَضّ في الشمس مثلما فعلت لعقودٍ. بدت لـ لويس أشبه ببقايا هزيلة لوحشٍ ميت منذ فترة طويلة، شيء ذبحه فارس نبيل، ربما. عظام تنين، تُرِكَت هنا في مَعلَم حجري عملاق.

خطَر بباله حتى عندها أن هناك شيئاً مريحاً جداً في تلك الأشجار التي أسقطتها الرياح وطريقة وقوفها حاجزاً بين مقبرة الحيوانات وأعماق الغابات ما وراءها، الغابات التي سيشير إليها جاد كراندال لاحقاً أحياناً بذهن شارد بـ "الغابات الهندية". بدت عشوائيتها ماكرة جداً ومثالية جداً لتكون من أعمال الطبيعة. إنها –

ثم أمسَك غايدج إحدى أذنيه وفتلها، وصاح بسعادة، ونسي لويس كل شيء عن الأشجار التي أسقطتها الرياح والغابات ما وراء مقبرة الحيوانات. لقد حان وقت العودة إلى المنزل.

الفصل 9

أتت إليه إيليه في اليوم التالي وعلامات الانزعاج على وجهها. كان لويس يعمل على مجسَّم في مكتبه الصغير. إنه رولز روْيس سيلفر غوست موديل العام 1917 – 680 قِطعة، أكثر من 50 قطعة متحركة. كانت السيارة على وشك الانتهاء، ويكاد يمكنه تخيّل السائق المرتدي زيّاً مميزاً، متحدّراً مباشراً من الحوذيين الإنكليز للقرن الثامن عشر والتاسع عشر، جالساً بشكل إمبراطوري خلف المِقود.

كان مهووساً بالمجسَّمات منذ العاشرة من عمره. وقد بدأ بطائرة سپاد من الحرب العالمية الأولى اشتراها له عمّه كارل، وعمِل مع معظم طائرات ريڤَل، ثم انتقَل إلى أشياء أكبر وأفضل في مراهقته وعشريناته. مرَّ في مرحلة تركيز على الزوارق التي داخل زجاجات، ثم مرحلة تركيز على آلات الحرب، وحتى مرحلة بَنَى فيها مسدسات واقعية لدرجة أنه كان من الصعب تصديق أنها لن تُطلق النار عندما تضغط الزناد – كولت، ونشستر، لوجر، وحتى بَنتلاين سبيشل. وركَّز خلال السنوات الخمسة الأخيرة تقريباً على السفن السياحية الكبيرة. جلس مجسَّمٌ لسفينة لوسيتينيا ومجسَّمٌ للتايتانيك على رفوف مكتبه في الجامعة، وهناك حالياً مجسَّمٌ للأندريا دوريا، الذي أكمله قبل مغادرتهم شيكاغو، يجوب رف الموقد في غرفة جلوسهم. انتقَل الآن إلى السيارات الكلاسيكية، وإذا صحَّت الأنماط السابقة، من المفترض أن تمرّ أربع أو خمس سنوات قبل أن تصيبه رغبة قوية بالانتقال إلى شيء جديد. كانت رايتشل تنظر إلى هوايته الحقيقية الوحيدة هذه بالتسامح الخاص بالزوجات الذي يُخفي، حسبما افترَض، بعض الازدراء؛ حتى بعد عشر سنوات من الزواج، الأرجح أنها لا تزال تعتقد أنه سيتخلّى عن هذه الهواية. ربما

بعض هذا الموقف يأتي من أبيها، الذي يعتبر الآن تماماً مثلما اعتبر وقت تزوَّج لويسورايتشل أنه حصل على صِهر حقير.

ربما، فكّر في سرّه، *رايتشل محقّة. ربما سأستيقظ يوماً ما في عمر السابعة والثلاثين، وأضع كل تلك المجسَّمات في العلّية، وأحترف الطيران الشراعي.*

في غضون ذلك، بدت إيليه جدّيةً.

بعيداً، ومنجرفاً في الهواء الصافي، أمكنه سماع صوت الأجراس العذبة التي تدعو الناس أيام الأحد.

"مرحبا يا بابا"، قالت.

"مرحبا يا حبيبتي. ما الأمر؟".

"آه، لا شيء"، قالت، لكن وجهها قال شيئاً مختلفاً؛ قال وجهها إن هناك أموراً كثيرةً، وكلها لم تكن خطيرة، شكراً جزيلاً. كان شعرها المغسول حديثاً والمتهدِّل على كتفَيها لا يزال أشقر في هذا الضوء أكثر من البني الذي يتحوَّل إليه بشكل محتوم. كانت ترتدي فستاناً، وانتبه لويس أن إبنته ترتدي فستاناً أيام الأحد تقريباً دائماً، رغم أنهم لا يذهبون إلى دار العبادة. "ماذا تبني؟".

أخبَرها وهو يُلصق واقيةً من الوحول بعناية. "انظري إلى هذا"، قال وهو يسلّمها بعناية غطاء عجلة. "أترين هذين الحرفين R المربوطَين؟ هذا تفصيل جميل، أليس كذلك؟ إذا عدنا إلى شايتاون في يوم الشُكر واستقلّينا طائرة L-1011، انظري إلى المحرّكات النفّاثة وسترين نفس هذين الحرفين R".

"غطاء عجلة، مسألة مهمة". أعادته إليه.

"رجاءً"، قال. "إذا كنت غنية كفاية لامتلاك سيارة رولز روْيس، يمكنك التبختر قليلاً. عندما أجني مليوني الثاني، سأشتري واحدةً

لنفسي. رولز روْيس كورنيش. ثم عندما يُصاب غايدج بدوار السيارة، يمكنه التقيؤ على جلد حقيقي". *وبالمناسبة يا إيليه، ما الذي يُشغِل بالك؟* لكن الأمور لا تسير هكذا مع إيليه. لا يجب عليك أن تسألها أسئلة مباشرة. كانت حذِرة من إفشاء الكثير عن نفسها. وهذه صفة تُعجب لويس.

"هل نحن أغنياء يا بابا؟".

"لا"، قال، "لكننا لن نتضوّر جوعاً أيضاً".

"مايكل بورنز في المدرسة يقول إن كل الأطباء أغنياء".

"حسناً، أخبري مايكل بورنز في المدرسة أن الكثير من الأطباء يصبحون أغنياء، لكن المسألة تستغرق عشرين سنة... ولا يصبحون أغنياء بإدارتهم مشفىً جامعيّاً، بل عندما يكونون متخصِّصين. طبيب نسائي أو جرّاح عظام أو طبيب أمراض عصبية. يصبحون أغنياء بسرعة أكبر. أما الأطباء أمثالي، فالمسألة تستغرق وقتاً أطول".

"لماذا لا تكون متخصصاً إذاً يا بابا؟".

فكَّر لويس بمجسَّماته مرة أخرى وبطريقة قراره ذات يوم أنه لم يعد يريد بناء أي طائرات حربية، بطريقة ضجره بشكل مماثل من دبابات التايغر ومنصات المدافع، بطريقة اقتناعه (بين ليلة وضحاها تقريباً، هكذا بدا له عند استعادته الأحداث) أن بناء زوارق في زجاجات أمرٌ مغفَّلٌ جداً؛ ثم فكَّر كيف سيكون الوضع لو أمضى كل حياته في فحص أقدام الأولاد بحثاً عن حالة انعقاف أصابع القدمين، أو ارتداء قفازات لاتكس رقيقة لكي يتمكن من تلمُّس طريقه بين منفرج ساقي امرأة بأحد أصابعه بحثاً عن نتوءات أو جروح.

"لن يعجبني بكل بساطة"، قال.

دخل تشرش المكتب، وتوقف ليتفحَّص الوضع بعينيه الخضراوين

الساطعتين. وَثَب بصمت إلى عتبة النافذة وبدا أنه يريد أن ينام.

ألقت إيليه نظرة سريعة عليه وعبَست، وهذا جعل لويس يستغرب لأن إيليه تنظر إلى تشرش عادة بحبّ كبير لدرجة أنه يكون مؤلماً تقريباً. بدأت تسير حول المكتب، لتنظر إلى مختلف المجسَّمات، وقالت بصوتٍ بدا عفوياً تقريباً، "يا إلهي، كان عدد القبور كبيراً في مقبرة الحيوانات، أليس كذلك؟".

آه، هذا هو لُب الموضوع، فكَّر لويس في سرّه، لكنه لم ينظر من حوله؛ فبعد تفحّصه تعليماته، بدأ يضع مصابيح على سيارة الرولز.

"هذا صحيح"، قال. "أظن أكثر من مئة".

"بابا، لماذا لا تعيش الحيوانات الأليفة طويلاً مثل البشر؟".

"حسناً، بعض الحيوانات تعيش طويلاً مثلنا"، قال، "وبعضها تعيش حتى أطول بكثير. الأفيال تعيش لوقت طويل جداً، وهناك بعض سلاحف البحر معمِّرة جداً لدرجة أن الناس لا يعرفون كم عمرها حقاً... أو ربما يعرفون، ولا يستطيعون تصديق ذلك بكل بساطة".

رفضت إيليه هذه الفكرة ببساطة. "الأفيال وسلاحف البحر ليست *حيوانات أليفة*. الحيوانات الأليفة لا تعيش طويلاً جداً *أبداً*. يقول مايكل بورنز أن كل سنة من عمر الكلب تعادل تسعة من سنواتنا".

"سبعة"، صحَّح لها لويس تلقائياً. "أفهم ما تقصدينه يا حبيبتي، وهناك بعض الصحة فيه. الكلب الذي يعيش حتى سنّ الثانية عشرة هو كلب مُسنّ. هناك شيء يدعى *أيض*، وما يبدو أن الأيض يفعله هو إخبارنا عن الوقت. آه، إنه يفعل أموراً أخرى أيضاً – يستطيع بعض الأشخاص أن يأكلوا كثيراً ويبقون نحيلين بسبب أيضهم، مثل أمك. بينما أشخاص آخرون – أنا مثلاً – لا يستطيعون أن يأكلوا بنفس قدرهم دون أن يصبحوا بدينين. أيضنا مختلف، هذا كل ما في

الأمر. لكن يبدو أن أهم شيء يفعله الأيض هو أن يكون ساعة بيولوجية لأجسام الكائنات الحيّة. للكلاب أيض سريع نوعاً ما. وأيض البشر أبطأ بكثير. معظمنا يعيش حتى سنّ الثانية والسبعين تقريباً. وصدِّقيني أن اثنتين وسبعين سنة هي وقت طويل جداً".

لأن إيليه بدت قلقة حقاً، أمَل أن يكون قد بدا صادقاً أكثر مما شَعَر في الواقع. كان في الخامسة والثلاثين من عمره، وبدا له أن تلك السنوات مرَّت بسرعة مثل نسمة قصيرة جداً تحت الباب. "أما سلاحف البحر فلها أيض حتى أبطأ –"

"ماذا بشأن القطط؟"، سألته إيليه ونظَرَت إلى تشرش مرة أخرى.

"حسناً، القطط تعيش لنفس المدة كالكلاب"، قال، "في الأغلب، على أي حال". هذه كانت كذبة، وهو يعرف ذلك. فالقطط تعيش حياة عنيفة وتموت بطريقة دموية عادة، دائماً تحت المدى المعتاد للنظر البشري. خذ تشرش مثلاً، يغفو في الشمس (أو هكذا يبدو)، تشرش الذي ينام بسلام على سرير إبنته كل ليلة، تشرش الذي كان لطيفاً جداً في صِغره، متشابكاً في كُرة خيوط. ومع ذلك فقد رآه لويس يعذِّب طائراً مكسور جناحه، وعيناه الخضراوان تلمعان حشريةً و– نعم، سيُقسِم لويس على ذلك – وابتهاجاً خالياً من أي شفقة؛ تشرش الذي يُحضِر طرائده النادرة إلى رايتشل لكي يثير إعجابها: فأرة، حشرة، وذات مرة جرذ كبير، اصطاده على الأرجح في الزقاق بين منزلهم والمنزل المجاور. كان الجرذ ملطخاً بالدم كثيراً لدرجة أن رايتشل، التي كانت وقتها حاملاً في شهرها السادس بغايدج، اضطرت إلى الركض إلى الحمّام والتقيؤ. حياة عنيفة، وفاة عنيفة. الكلب يقبض على القط ويمزِّقه إرباً إرباً بدلاً من مجرد مطاردته على غرار الكلاب المتلعثمة التي تنخدع بسهولة في الرسوم المتحركة على التلفزيون، أو يقضي عليه قط

آخر، أو طُعم مسمَّم، أو سيارة مارّة. القطط أشبه برجال العصابات في عالم الحيوان، تعيش خارج القانون وتموت هناك في أغلب الأحيان. الكثير منها لا يكبُر في السنّ أبداً لكي يهرم بهدوء.

لكن هذه ربما ليست أشياء يمكنك إخبارها لإبنتك ذات السنوات الخمس، التي كانت تفحص حقائق الموت لأول مرة في حياتها.

"أقصد"، قال، "تشرش الآن في الثالثة من عمره فقط، وأنتِ في الخامسة. قد لا يزال حيّاً عندما تصبحين في الخامسة عشرة، طالبة في السنة الثانية من المرحلة الثانوية. وهذا وقت بعيد جداً".

"لا يبدو لي بعيداً جداً"، قالت إيليه، بصوت مرتعش. "ليس بعيداً *أبداً*".

تخلّى لويس عن تظاهره بالعمل على مجسَّمه وأومأ لها أن تقترب منه. جلَست على حُضنه، وتفاجأ مرة أخرى من جمالها، الذي زاده الآن انزعاجها العاطفي. كانت داكنة البشرة، مشرقية تقريباً. كان طوني بنتون، أحد الأطباء الذين عمِل معهم في شيكاغو، معتاداً على مناداتها الأميرة الهندية.

"حبيبتي"، قال، "لو كان الأمر متروكاً لي، لتركتُ تشرش يعيش حتى المئة. لكنها سُنّة الحياة".

"لا أريد أن يكون تشرش مثل تلك الحيوانات الميتة!"، صاحت بقوة، وبصوت دامع وحانق فجأة. "لا أريد أن يموت تشرش أبداً! إنه قِطّي! وليس قِط الحياة! لتربّي الحياة قِطاً خاصاً بها! لتحصل الحياة على كل القطط اللعينة التي تريدها، وتقتلها كلها! تشرش *لي أنا*!".

سُمع صوت خُطى في المطبخ، وأطلّت رايتشل برأسها، جافلةً. كانت إيليه تبكي الآن على صدر لويس. لقد خرج الرعب؛ أصبح علنياً؛ أطلّ بوجهه ويمكن النظر إليه. الآن، حتى ولو لم يكن بالإمكان

تغيير الواقع، إلا أنه يمكن البكاء عليه على الأقل.

"إيليه"، قال وهو يهزّها برفق، "إيليه، إيليه، تشرش لم يمُت؛ إنه نائم، هناك".

"لكن يمكن أن يكون ميتاً"، صاحت. "يمكن، في أي وقت".

احتضنها وراح يؤرجحها، معتقِداً، عن حق أو عن خطأ، أنها بكت لصعوبة تقبُّل فكرة الموت، أو عدم قبوله أي نقاش ولو حتى دموع فتاة صغيرة؛ أنها بكت من وحشية عدم القدرة على توقّع لحظة حصوله؛ وأنها بكت بسبب القدرة المدهشة والمميتة للإنسان على ترجمة الرموز إلى استنتاجات إما ممتازة ونبيلة أو مُرعِبة باكتئاب. إذا ماتت كل تلك الحيوانات ودُفنَت، فإن تشرش يمكن أن يموت

في أي وقت!

ويُدفَن؛ وإذا كان بإمكان هذا أن يحصل لتشرش، فبإمكانه أن يحصل لأمها وأبيها وأخيها الصغير أيضاً. ولنفسها. كان الموت فكرةً غامضةً؛ ومقبرة الحيوانات حقيقيةً. في نسيج تلك العلامات الفظّة توجد حقائق تستطيع حتى يدَي طفلٍ صغيرٍ تلمّسها.

سيكون من السهل الكذب بشأن هذه النقطة، مثلما كذَب سابقاً بشأن متوسط العمر المتوقَّع للقطط. لكنها كذبة سيتم تذكّرها لاحقاً وربما حتى تُضاف إلى تقرير العلامات الذي يسلّمه كل ولد بنفسه إلى أهله. أمه أخبَرته هكذا كذبة، كذبة غير مؤذية عن عثور النساء على الأطفال في العشب النَدِيّ عندما يُردنَ طفلاً حقاً، ورغم أن تلك الكذبة كانت غير مؤذية، إلا أن لويس لم يسامح نفسه أبداً لتصديقها – أو لإخبار إمه له بها.

"حبيبتي"، قال، "هذا جزء من الحياة".

"جزء سيئ!"، صاحت. "جزء سيئ حقاً!".

لم يكن هناك جواب على هذا. بكت. افترض أن دموعها ستتوقف في نهاية المطاف. كانت خطوة أولى ضرورية لعقد صُلح غير سهل مع حقيقة لن تزول أبداً.

احتضن إبنته وراح يستمع إلى أجراس دور العبادة صباح الأحد، التي تملأ حقول سبتمبر؛ ومرَّ بعض الوقت بعد توقف دموعها قبل أن يُدرِك أنها نامت، مثل تشرش.

وَضَعها في سريرها في الطابق العلوي ثم نزل إلى المطبخ، حيث كانت رايتشل تخفق مزيج قالب حلوى بحيوية كبيرة. عبَّر لها عن تفاجئه من أن إيليه يمكن أن تغفو هكذا في الصباح؛ لم يكن هذا من عاداتها.

"لا"، قالت رايتشل، وهي تضع الوعاء على الطاولة مع دوّي حازم. "ليس من عاداتها، لكنني أعتقد أنها بقيت مستيقظة معظم ليلة أمس. سمِعتُها تتقلب في سريرها، وهرع تشرش ليخرج من هناك حوالي الثالثة. إنه يفعل ذلك فقط عندما تكون منزعجة".

"لماذا هي –"

"آه، أنت تعرف لماذا!"، قالت رايتشل بغضب. "إنها مقبرة الحيوانات اللعينة تلك! لقد أزعجتها حقاً يا لُو. كانت أول مقبرة من *أي* نوع لها، وهذا... أزعجها. لا أعتقد أنني سأكتب أي رسالة شكر إلى صديقك جاد كراندال على *تلك* النزهة الصغيرة".

فجأة أصبح صديقي، فكَّر لويس في سرّه، مرتبكاً ومستغيثاً في الوقت نفسه.

"رايتشل –"

"ولا أريدها أن تصعد إلى هناك مرة أخرى".

"رايتشل، ما قاله جاد عن المسار حقيقي".

"المسألة ليست مسألة *المسار* وأنت تعرف ذلك"، قالت رايتشل. رَفَعت الوعاء مرة أخرى وبدأت تخفق مزيج قالب الحلوى حتى أسرع. "إنها مسألة ذلك *المكان* اللعين. إنه غير صحي. صعود الأولاد إلى هناك والاعتناء بالقبور، وإبقاء المسار... مسألة *مَرَضية* لعينة حقاً. مهما يكن المرض الذي أصاب الأولاد في هذه البلدة، لا أريد أن تلتقط إيليه عدواه".

حدَّق لويس بها بارتباك. كان لديه شك أن احترامهما للغموض هو أحد الأشياء الذي حافظ على زواجهما بينما بدا أن كل سنة تشهد فشل زواجين أو ثلاثة من زيجات أصدقائهم؛ الفكرة المفهومة جزئياً لكن التي لا تُناقَش أبداً من أنه ربما، عندما تسوء الأحوال، لا يكون هناك شيء يدعى زواجاً، لا شيء يدعى اتحاداً، كل نفسٍ تقف لوحدها وتتحدّى العقلانية في نهاية المطاف. هذا كان الغموض. ومهما ظننتَ أنك تعرف شريكتك جيداً، ستصطدم بجدران فارغة أو تسقط في حُفر عميقة من وقت لآخر. وتصطدم أحياناً (نادراً، الحمد لله) بكتلة مليئة بغرابة فضائية، شيء يشبه المطبّ الهوائي الذي يمكن أن يضرب الطائرة بدون أي سبب أبداً. موقفٌ أو اعتقادٌ لم تشتبه به أبداً، واحدٌ غريبٌ جداً (لك على الأقل) لدرجة أنه يبدو مضطرباً نفسياً تقريباً. ثم تخطو بخفة، إذا كنتَ تثمِّن زواجك وراحة بالك؛ تحاول أن تتذكَّر أن الغضب من هكذا اكتشاف من شِيَم المغفَّلين الذين يصدِّقون حقاً أنه من الممكن لأحد العقول أن يعرف عقلاً آخر.

"حبيبتي، إنها مجرد مقبرة حيوانات"، قال.

"الطريقة التي كانت تبكي بها هناك الآن"، قالت رايتشل وهي تومئ نحو باب مكتبه بملعقة مكسوة بالمزيج، "هل تعتقد أنها مجرد مقبرة حيوانات *بالنسبة لها*؟ هذا سيترك ندبةً يا لُو. لا. لن تصعد إلى هناك

بعد الآن. المسار ليس السبب، بل *المكان*. إنها تفكِّر مسبقاً هنا أن تشرش سيموت".

للحظة تولَّد لدى لويس انطباعٌ مجنونٌ بأنه لا يزال يتكلَّم مع إيليه؛ كل ما في الأمور أنها ترتدي أحد فساتين أمها، وتضع قناعاً ذكياً جداً وواقعياً جداً لوجه رايتشل. حتى التعبير كان نفسه؛ متجهِّماً قليلاً، لكن مجروحاً ضمنياً.

راح يتلمَّس طريقه، لأن المسألة بدت كبيرة عليه فجأة، وليست شيئاً يمكنه أن يتخطّاه بسهولة بلا مبالاة لذلك الغموض... أو لتلك الوحدة. راح يتلمَّس طريقه لأنه بدا له أن شيئاً كبيراً يفوتها لدرجة أنه يكاد يملأ الأفق، ولا يمكنك فعل ذلك إلا إذا كنت تُغمض عينيك عنه عن قصد.

"رايتشل"، قال، "تشرش سوف يموت".

راحت تحدِّق به بغضب. "هذا ليس قصدي أبداً"، قالت وهي تلفظ كل كلمة بعناية، فتنطقها كما لو أنها تكلِّم ولداً متخلفاً. "لن يموت تشرش اليوم، أو غداً –"

"حاوَلتُ إخبارها هذا –"

"أو *بعد* غد، أو على الأرجح *لسنوات* –"

"حبيبتي، لا يمكننا أن نكون أكيدين من هـ –"

"بالطبع *يمكننا*!"، صرَخت. "نعتني به جيداً، ولن *يموت*، لا أحد سيموت هنا، لماذا إذاً تُزعج فتاةً صغيرةً بشيء لا يمكنها أن تفهمه إلى أن تصبح أكبر سناً بكثير؟".

"رايتشل، اسمعيني".

لكن لم يكن لدى رايتشل أي نيّة للاستماع إليه. كانت مستعرة. "من السيئ كفاية محاولة تقبُّل فكرة موت – حيوان أليف أو صديق أو

نسيب - عندما يحصل ذلك، من دون تحويلها إلى... مَعلَم سياحي لعين... مَرجة في غابة للحيوانات...". كانت الدموع تنهمر على خدَّيها.

"رايتشل"، قال وحاوَل أن يضع يديه على كتفَيها. هزَّت كتفيها لإبعاده عنها بحركة سريعة متشنّجة.

"لا تهتمّ"، قالت. "لا فائدة من الحديث معك. ليست لديك أدنى فكرة عما أتكلّم".

تنهَّد. "أشعر كما لو أنني سقطتُ عبر باب أفقي مخفي إلى داخل خلاّط عملاق"، قال، على أمل أن يحصل على ابتسامة منها. لم يحصل على شيء؛ ما عدا أن عينيها تركَّزتا عليه، سوداوين وملتهِبتين. أدرَك أنها حانقة؛ ليس فقط غاضبة، بل حانقة تماماً. "رايتشل"، قال فجأة، دون أن يكون أكيداً بالكامل مما سيقوله إلى أن يكون قد خرج من فمه، "كيف نمتِ ليلة أمس؟".

"يا إلهي"، قالت بازدراء، ثم انصرفت، لكن ليس قبل أن يرى وميض ألم في عينيها. "هذا ذكي حقاً. ذكي *حقاً*. لن تتغيَّر أبداً يا لويس. عندما لا يسير شيء على ما يرام، نلقي اللَوْم على رايتشل، صح؟ فرايتشل تعاني من إحدى ردّات فعلها العاطفية الغريبة".

"هذا ليس عدلاً".

"حقاً؟". أخذت وعاء مزيج قالب الحلوى إلى الطاولة البعيدة قرب الموقد وخبطته هناك بدويّ آخر. بدأت تشحِّم قالب الخَبز، وهي تضغط شفتيها بقوة.

قال بصبر، "لا ضرر من اكتشاف الطفل شيئاً عن الموت يا رايتشل. في الواقع، سأعتبره من الضروريات. بدت لي ردّة فعل إيليه - بكاؤها - طبيعياً جداً. بدا لي -"

مكتبة
t.me/t_pdf

"آه، *بدا* طبيعياً"، قالت رايتشل، وهي تهاجمه مرة أخرى. "بدا طبيعياً جداً سماعها تبكي من أعماق قلبها على قطّها الصحي تماماً –"

"توقفي"، قال. "أنتِ لا تتكلّمين بشكل منطقي".

"لم أعد أريد مناقشة المسألة".

"نعم، لكننا سنناقشها"، قال وقد أصبح غاضباً الآن. "لقد جاء دوري الآن لأتكلّم؟".

"لن تصعد إلى هناك بعد الآن. الموضوع محسوم بالنسبة لي".

"لقد عرفت إيليه من أين يأتي الأطفال منذ العام الماضي"، قال لويس بتأنٍ. "لقد أحضرنا لها كتاب مايرز وكلّمناها عن المسألة، هل تتذكّرين؟ اتفقنا على أنه يجب على الأولاد معرفة من أين يأتون".

"ليس لهذا أي علاقة بـ –"

"بلى!"، قال بفظاظة. "عندما كنتُ أتكلّم معها في مكتبي، عن تشرش، تذكّرتُ أمي وكيف حاكت لي تلك القصة القديمة عن الملفوف عندما سألتُها من أين تأتي النساء بالأطفال. لم أنسَ تلك الكذبة أبداً. لا أعتقد أن الأولاد ينسون أبداً الكذبات التي يُخبِرها لهم أهاليهم".

"المكان الذي يأتي منه الأطفال لا علاقة له بمقبرة لعينة للحيوانات!"، صاحت رايتشل، وما قالته عيناها كان *تكلّم عن التشابه طوال الليل والنهار، إن شئت يا لويس؛ تكلّم إلى أن يزرَقّ لونك، لكنني لن أقبل.*

ومع ذلك فقد حاوَل.

"مقبرة الحيوانات أزعجتها لأنها تجسيد للموت. هي تعرف عن الأطفال؛ ذلك المكان في الغابة جَعَلها تريد معرفة شيء عن الطرف الآخر للأشياء. هذا طبيعي جداً. في الواقع، أعتقد أنه أكثر شيء طبيعي في العـ –"

"*هلاّ توقفت عن قول هذا!*"، صَرَخت فجأة - صَرَخت بقوة، وارتَد لويس، جافلاً. ارتطم مِرفقه بكيس الطحين المفتوح على الطاولة، فانقلب وسقط على الأرض، ناثراً محتوياته في سحابة بيضاء جافة.

"تباً"، قال بتجهّم.

في غرفة في الطابق العلوي، بدأ غايدج يبكي.

"ممتاز"، قالت وهي تبكي أيضاً الآن. "لقد أيقَظت الطفل أيضاً. شكراً لصباح يوم أحد لطيف هادئ".

وَضَع لويس يده على ذراعها، وقد أصبح غاضباً الآن رغماً عنه. ففي النهاية، هي التي أيقظت غايدج. أيقظته بصراخها هكذا. "دعيني أسألك شيئاً"، قال، "لأنني أعرف أن أي شيء - حرفياً *أي شيء* - يمكن أن يحصل للكائنات الجسدية. أنا أعرف هذا بصفتي طبيباً. هل تريدين أن تكوني الشخص الذي يشرح لها ماذا يحصل إذا أُصيب قطّها بحمّى الكلاب أو سرطان الدم - لعِلمك، القطط معرَّضة كثيراً لسرطان الدم - أو إذا دُهس على ذلك الطريق؟ هل تريدين أن تكوني ذلك الشخص يا رايتشل؟".

"أفلتني"، قالت هامسةً. لكن الألم والرعب المرتبِك في عينيها تفوّقا على الغضب في صوتها: *لا أريد أن أتكلّم عن هذا يا لويس، ولا يمكنك إجباري*، قالت تلك النظرة. "أفلتني، أريد الوصول إلى غايدج قبل أن يسقط عن -"

"لأنك ربما يجب أن تكوني ذلك الشخص"، قال. "يمكنك إخبارها أننا لا نتكلّم عن هذه المسألة، الأشخاص اللطفاء لا يتكلّمون عنها، بل فقط يدفنون - تباً! لا تقولي كلمة يدفنون، ستسبّبين لها عقدة نفسية".

"*أكرهك!*"، شهِقت رايتشل وابتعدت عنه.

ثم شَعَر بالأسف بالطبع، وكان قد تأخَّر في ذلك بالطبع.

"رايتشل –"

دفعته بقسوة، وهي تبكي بحدّة أكثر. "اتركني وشأني. لقد فعلتَ ما يكفي". توقفت عند باب المطبخ، ثم استدارت نحوه والدموع تنهمر على خدّيها. "لا أريد أن يُناقَش هذا أمام إيليه بعد الآن يا لُو. أنا جادّة. لا شيء طبيعي في الموت. لا شيء. أنت كطبيب يجب أن تعرف *ذلك*".

استدارت واختفت من أمامه، تاركةً إياه في المطبخ الفارغ، الذي كان لا يزال يهتزّ من جدالهما. ذهَب أخيراً إلى حجرة المؤن ليُحضر المكنسة. بينما كان يكنس، راح يفكِّر بآخر شيء قالته وبضخامة هذا الفرق في الرأي، الذي بقي غير مُكتشَف لوقت طويل. لأنه، كطبيب، يعرف أن الموت، ما عدا ربما عند الولادة، أكثر شيء طبيعي في العالم. لم تكن الضرائب أمراً أكيداً؛ ولا النزاعات البشرية؛ ولا نزاعات المجتمع؛ ولا الازدهار والركود. في النهاية، هناك فقط الساعة وعلاماتها، التي تصبح متآكلة ومجهولة مع مرور الزمن. حتى سلاحف البحر وأشجار السيكويا العملاقة يجب أن تزول يوماً ما.

"زيلدا"، قال بصوتٍ عالٍ. "يا إلهي، لا شكّ أن ذلك كان سيئاً بالنسبة لها".

السؤال الآن هو ما إذا كان عليه ترك الأمور تمرّ أو يحاول أن يفعل شيئاً بشأنها؟

أمالَ اللقّاطة فوق سلة المهملات، وانزلق الطحين بصوتٍ ناعمٍ هادئٍ، متناثراً فوق الكراتين والعلب الفارغة المرمية.

الفصل 10

"آمل ألا تكون إيليه قد وجدت صعوبة في تقبُّل الأمر"، قال جاد كراندال تلك الليلة، ولم تكن هذه أول مرة يشعر فيها لويس أن الرجل يملك قدرة غريبة - وغير مريحة نوعاً ما - على وضع إصبعه بلطف على مكان بقعة التقرّح أينما كانت.

كان يجلس الآن مع جاد ونورما كراندال على شرفة أسرة كراندال في برودة المساء، يشربون الشاي المُثلَّج بدلاً من شراب الشعير. على الطريق 15، كانت زحمة العودة إلى المنزل بعد عطلة نهاية الأسبوع كبيرة نوعاً ما؛ افترَض لويس أن الناس أدركوا أن كل عطلة نهاية أسبوع جيدة في أواخر الصيف قد تكون الأخيرة الآن. سيتولى غداً واجباته الكاملة في جامعة مشفى ماين. وطوال البارحة واليوم بقي الطلاب يصلون، ويملأون الشقق في أورونو ومساكن الطلبة في الحرم التعليمي، ويرتّبون الأسرّة، ويجدِّدون المعارف، ولا شك يتذمَّرون من سنة أخرى من حصص الساعة الثامنة وطعام المقصف. بقيت رايتشل باردة معه - أو بالأحرى، مُثلجة - وعندما عَبَر الطريق هذه الليلة، عرَف أنها ستكون قد أوت إلى السرير من قبل، وغايدج ينام معها أكثر من المعتاد، حيث يكون الاثنان بعيدَين جداً إلى طرفها من السرير لدرجة أن الطفل يكون في خطر كبير بالسقوط. وسيكون نصفه من السرير قد كبُر إلى ثلاثة أرباع السرير، وكل تلك المساحة تبدو كصحراء كبيرة جرداء.

"قلتُ إنني آمل -"

"آسف"، قال لويس. "شرد ذهني. بلى، انزعجت قليلاً. كيف تكهّنت بذلك؟".

"رأيناهم يصعدون وينزلون، مثلما قلتُ". أمسك جاد يد زوجته

بلطف وابتسم. "أليس كذلك يا عزيزتي؟".

"أفواج وأفواج منهم"، قالت نورما كراندال. "نحن نحبّ الأولاد".

"أحياناً مقبرة الحيوانات تلك هي أول لقاء لهم مع الموت وجهاً لوجه"، قال جاد. "يرون الناس يموتون على التلفزيون، لكنهم يعرفون أن ذلك تمثيلٌ، مثل أفلام الغرب الأميركي القديمة التي كانوا يعرضونها في السينما بعد ظهر أيام السبت. على التلفزيون وفي الأفلام السينمائية، يضعون فقط أيديهم على مِعْداتهم أو صدورهم ويسقطون أرضاً. أما المكان على تلك التلة فيبدو حقيقياً أكثر بكثير لمعظمهم من كل تلك الأفلام والبرامج التلفزيونية مجتمعةً".

أومأ لويس برأسه، وهو يفكِّر في سرّه: *هلاّ قُلت هذا لزوجتي؟*

"لا يؤثر على بعض الأولاد أبداً، على الأقل ليس بمقدار يمكنك رؤيته، رغم أنني أظن أن معظمهم نوعاً ما... نوعاً ما يأخذونه إلى المنزل في جيوبهم لكي ينظروا إليه لاحقاً، مثل كل الأمور الأخرى التي يجمِّعونها. معظمهم بخير. لكن بعضهم... هل تتذكَّرين فتى هولوواي الصغير يا نورما؟".

أومأت برأسها. اهتزّت مكعبات الثلج بلطف في الكوب الذي تحمله. كانت نظّاراتها متدلّية على صدرها، والأضواء الأمامية لسيارة مارّة أضاءت السلسلة للحظة. "كان يرى كوابيس في نومه"، قالت. "أحلام عن جثث تخرج من الأرض ولا أعرف ماذا أيضاً. ثم مات كلبه – أكل طُعماً مسمَّماً، هذا ما سمعه كل شخص في البلدة، أليس كذلك يا جاد؟".

"طُعم مسمَّم"، قال جاد وهو يومئ برأسه. "هذا ما ظنّه معظم الناس، نعم. حصل ذلك في العام 1925. كان بيلي هولوواي ربما في العاشرة وقتها. وقد كبُر ليصبح سيناتوراً عن الولاية. وترشَّح لمجلس

النواب الأميركي لاحقاً، لكنه خسِر. كان ذلك قبل كوريا".

"أقام وبعض أصدقائه جنازةً للكلب"، تذكَّرت نورما. "كان مهجَّناً، لكنه أحبَّه كثيراً. أتذكَّر أن والدَيه عارضا الدفن قليلاً، بسبب الأحلام المزعجة وكل ذلك، لكنه جرى بسلام. صنعَ اثنان من الفتيان الأكبر منه سناً تابوتاً، أليس كذلك يا جاد؟".

أومأ جاد برأسه وأفرغَ كوب شايه المثلَّج. "دِين ودانا هول"، قال. "وذلك الولد الآخر الذي تصادق بيلي معه - لا يمكنني تذكُّر إسمه الأول، لكنني متأكد أنه أحد أولاد بُووي. هل تتذكَّرين عائلة بُووي التي كانت تعيش على الممر الوسطي في منزل بروشيت القديم يا نورما؟".

"نعم!"، قالت نورما بحماس كما لو أن الأمر حصَل البارحة... وربما بدا هكذا في ذهنها. "كان من أولاد بُووي! آلان أو بيرت -"

"أو ربما كيندال"، وافَق جاد. "على أي حال، أتذكَّر نشوب جدال قوي بينهم بشأن مَن سيحمل النعش. لم يكن الكلب كبيراً جداً، لذا لم يكن هناك مجال ليحمله أكثر من شخصين. قال فتيا هول إنهما مَن يجب أن يحملاه بما أنهما صنعا التابوت، وأيضاً لأنهما توائم - نوعٌ من مجموعة متطابقة، إن شئت. وقال بيلي إنهما لم يعرفا باوزر - إنه الكلب - جيداً بما فيه الكفاية لكي يحملا النعش. 'يقول أبي إن فقط الأصدقاء المقرَّبين يحق لهم حمل النعش'، هذه كانت حجته، 'وليس مجرد أي *نجّار*'". ضحك جاد ونورما على هذا معاً، وابتسم لويس. وجد نفسه يتمنى لو كانت رايتشل هنا.

"كانوا على وشك بدء العراك حول هذه النقطة عندما جلبت ماندي، أخت بيلي، المجلد الرابع من الموسوعة البريطانية"، قال جاد. "كان أبوها، ستيفن، الطبيب الوحيد في هذه الناحية من بانغور وتلك الناحية من باكسبورت في تلك الأيام يا لويس، وكانوا العائلة الوحيدة

في لادلو التي تستطيع تحمّل ثمن موسوعة".

"كانوا أيضاً أول مَن حصل على أضواء كهربائية"، قاطَعته نورما.

"على أي حال"، استأنَف جاد، "ظهرت ماندي رافعةً رأسها وذيلها فوق مصدّ الوحول، مثلما كانت أمي تقول، بكل سنواتها الثمانية، وتنورتها المتطايرة، حاملةً ذلك الكتاب الكبير على ذراعيها. كان بيلي وإبن بُووي - أعتقد أنه كيندال، ذلك الفتى الذي تحطّمت طائرته واحترقت في بنساكولا حيث كانوا يدرِّبون الطيّارين المقاتِلين في أوائل 1942 - يستعدان للتعارك مع توائم هول على امتياز حَمْل ذلك الأخرق المسمَّم إلى المقبرة".

بدأ لويس يقهقه. وسرعان ما أصبح يضحك بصوتٍ عالٍ. كان يمكنه الشعور ببدء زوال مخلّفات التوتّر من الجدال المرير مع رايتشل البارحة.

"لذا تقول لهم، 'انتظروا! انتظروا! انظروا إلى هذا!' ويتوقف الجميع وينظرون. واللعنة إذا لم تكن قد -"

"جاد"، قالت نورما بنبرة تحذيرية.

"آسف يا عزيزتي؛ أنا أتحمّسُ عند رواية القصص، تعرفين ذلك".

"أظنك تتحمَّس"، قالت.

"والمضحك أنها كانت قد فتحت الكتاب عند صفحة الجنازات، وهناك صورة للملكة فيكتوريا تلقى وداعها الأخير، ويقف حوالي سبعة وأربعين شخصاً على كل جهة من تابوتها، بعضهم متعرِّق ويجهد لرفع التابوت، وبعضهم يقف على مقربة في معاطف الجنازات والياقات المنفوشة كما لو أنهم ينتظرون شخصاً ليُعلن وقت بدء السباق. وتقول ماندي، 'عندما تكون جنازة احتفالية للدولة، بإمكان أي عدد من الأشخاص حمل النعش! هكذا يقول الكتاب!'".

"وهذا حلّ المسألة؟"، سأل لويس.

"أجل. انتهى الأمر بحوالي عشرين ولداً، واللعنة إن لم يظهروا مشابهين تماماً للصورة التي وجَدتها ماندي، ما عدا ربما للياقات المنفوشة والقبعات الطويلة. نظَّمت ماندي العملية، فجعلتهم يصطفون وأعطت كل واحد منهم زهرة برية - هندباء أو خُفّ سيدة أو أقحوان - وانطلقوا. يا للعجب، لطالما شعرتُ أن الدولة خسرت عندما لم تُنتخَب ماندي هولوواي للأمم المتحدة". ضحِك وهزَّ رأسه. "على أي حال، هذه كانت نهاية أحلام بيلي المزعجة عن مقبرة الحيوانات. نَدَب كلبه وأنهى حداده وأكمل حياته. وأظن أن هذا ما نفعله كلنا".

حقاً؟ تذكَّر لويس مرة أخرى شبه هستيريا رايتشل.

"ستتغلَّب إبنتك إيليه على ذلك"، قالت نورما وعدَّلت جلوسها. "لا شك أنك تظنّ أننا لا نتكلَّم هنا إلا عن الموت يا لويس. جاد وأنا نُكمل حياتنا، لكنني آمل ألا يكون أحدنا قد وصل بعد إلى مرحلة غراب الجيَف -"

"لا، بالطبع لا، لا تكوني ساذجةً"، قال لويس.

"- لكنها ليست فكرة سيئة أن تكون على معرفة سطحية به. هذه الأيام... لا أعرف... يبدو أن لا أحد يريد أن يتكلَّم عنه أو يفكِّر به. أزالوه عن التلفزيون لأنهم اعتقَدوا أنه قد يؤذي الأولاد بطريقة ما - يؤذي عقولهم - والناس يريدون توابيت مُغلقة لكي لا يضطروا إلى رؤية الجثث أو توديع الموتى... كما لو أنهم يريدون نسيان الأمر".

"وفي الوقت نفسه أحضَروا تلفزيون الكبل بكل تلك الأفلام التي تُظهِر أشخاصاً" - نظَرَ جاد إلى نورما وتنحنح -"تُظهِر أشخاصاً يفعلون ما يفعله الناس عادة بعد إسدال ستائرهم"، قال مُكملاً الجملة عنها. "غريب كيف تتغيَّر الأمور من جيل إلى آخر، أليس كذلك؟".

"نعم"، قال لويس. "أفترض ذلك".

"حسناً، نحن نأتي من زمن مختلف"، قال جاد بنبرة شبه اعتذارية. "كنا على مقربة من الموت. شهدنا وباء الإنفلونزا بعد الحرب العُظمى، وأمهات يمتن مع أولادهن، وأولاد يموتون من العدوى والحمّى لدرجة يبدو فيها الأطباء هذه الأيام كما لو أنهم يلوّحون بعصا عجيبة فقط. في الزمن الذي كنا فيه يافعَين أنا ونورما، كنتَ إذا أُصبتَ بالسرطان، يكون ذلك أشبه بأمر إعدام صادر بحقك. لا علاجات بالإشعاع في العشرينات! حربان، جرائم قتل، عمليات انتحار...".

صمتَ للحظة.

"عرَفناه كصديق وكعدو"، قال أخيراً. "مات أخي بيت من انفجار الزائدة الدودية في العام 1912، عندما كان تافْت رئيساً. كان بيت في الرابعة عشرة، ويمكنه ضرب كرة البيسبول أبعد من أي ولد في البلدة. لم تحتج في تلك الأيام إلى أخذ مقرّر تعليمي في الكلّية لتدرس الموت، أو التوابل الحارّة، أو مهما تكن التسمية التي يطلقونها عليه. في تلك الأيام، كان يأتي إلى المنزل، ويلقي التحية، ويتناول العشاء معك أحياناً، وأحياناً يمكنك الشعور به يعضّ مؤخِّرتك".

لم تصحّح له نورما هذه المرة؛ بل أومأت برأسها بصمت.

نهض لويس، وتمطَّط. "عليَّ أن أذهب"، قال. "غداً يوم حافل".

"نعم، تبدأ دوَّامة الخيل لك غداً، أليس كذلك؟"، قال جاد وهو ينهض أيضاً. رأى جاد أن نورما كانت تحاول النهوض أيضاً وأمسك بيدها. نهضت مبتسمةً.

"سيئة هذه الليلة، أليس كذلك؟"، سأل لويس.

"ليست بهذا السوء"، قالت.

"ضعي بعض الحرارة عليها عندما تأوين إلى السرير".

"سأفعل"، قالت نورما. "أنا أفعل ذلك دائماً. ويا لويس... لا تقلق بشأن إيليه. ستكون مشغولة جداً في التعرّف على أصدقائها الجدد هذا الخريف لكي تكترث كثيراً لذلك المكان القديم. ربما سيصعدون كلهم يوماً ما ويعيدون طلاء بعض الشواهد، أو ينزعون الأعشاب الضارة، أو يزرعون زهوراً. يفعلون ذلك أحياناً، عندما تخطر الفكرة بباهم. وستشعر بتحسّن. ستبدأ بالحصول على تلك المعرفة السطحية".

ليس إذا كان لدى زوجتي رأي مخالف.

"تعال ليلة الغد وأخبِرني كيف سارت الأمور، إذا سنحت لك الفرصة"، قال جاد. "سأهزمك في لعبة الكريبج".

"حسناً، ربما سأجعلك تثمل أولاً"، قال لويس. "وسأفوز بثلاث نقاط دفعةً واحدةً".

"أيها الطبيب"، قال جاد بصدق كبير، "اليوم الذي تفوز فيه عليَّ بثلاث نقاط دفعةً واحدةً في الكريبج سيكون اليوم الذي أدع فيه طبيباً دجّالاً مثلك يداويني".

غادر وهما يضحكان وعَبَر الطريق إلى منزله في ظلمة أواخر الصيف.

كانت رايتشل نائمة مع الطفل، مكوِّرة نفسها على جهة سريرها في وضعية الجنين الوقائية. افترَض أنها ستتغلَّب على ذلك. فقد شهد زواجهما جدالات وأوقات برودة أخرى، لكن هذا الجدال كان أسوأها بالتأكيد. شَعَر بالحزن والغضب والتعاسة في الوقت نفسه، وأراد أن يصالحها لكنه لم يعرف كيف، حتى إنه لم يعرف إن كان عليه القيام بالخطوة الأولى أم لا. كان كل شيء عديم الفائدة – مجرد زوبعة في فنجان تضخمَّت بطريقة أو بأخرى إلى إعصار. شجارات وجدالات

أخرى، نعم بالتأكيد، لكن قلّة منها فقط مريرة مثل الجدال والشجار حول دموع إيليه وأسئلتها. افترَض أن الزواج لا يحتاج إلى ضربات عديدة مماثلة قبل أن يتعرَّض لضرر بنيوي عميق... ثم يوماً ما، بدلاً من القراءة عنه في رسالة من أحد الأصدقاء ("حسناً، أظن أن عليَّ إخبارك قبل أن تسمعه من شخص آخر يا لُو؛ ماغي وأنا ننفصل...") أو في الصحيفة، يكون خاصاً بك.

خلع كل ملابسه بهدوء وضبط المنبِّه عند السادسة صباحاً ثم استحمّ، وحلق ذقنه، وقرقَش حبّة مضادة للحموضة قبل أن ينظِّف أسنانه - فقد سبَّب له شاي نورما المُثلَّج حرقةً في المعدة. أو ربما الحرقة نتجت عن عودته إلى المنزل ورؤيته رايتشل مبتعدةً جداً على جهتها من السرير. المساحة هي ما يعرِّف كل شيء آخر، ألم يقرأ ذلك في مقرّر التاريخ في الكلّية؟

كل شيء تمّ، ووضع المساء أوزاره، وأوى إلى السرير... لكنه لم يستطع أن ينام. كان هناك شيء آخر، شيء يزعجه. بقيت أحداث آخر يومين تجول في رأسه بينما كان يستمع إلى تنفّس رايتشل وغايدج بشكل متزامن تقريباً. [الجنرال باتون. هانا أفضل كلبة في التاريخ. مارتا أرنبتنا الأليفة]. إيليه، حانقة. *لا أريد أن يموت تشرش أبداً!... ليس قِط الحياة! لتربّي الحياة قِطاً خاصاً بها!* ورايتشل حانقة بشكل مماثل. *أنت كطبيب يجب أن تعرف...* نورما كراندال تقول *يبدو كما لو أن الناس يريدون نسيان الأمر...* وجاد، بصوت متأكد للغاية، متيقّن للغاية، صوت من عمر آخر: *يتناول العشاء معك أحياناً، وأحياناً يمكنك الشعور به يعضّ مؤخّرتك.*

واندمج ذلك الصوت بصوت أمه، التي كذَبت على لويس كريد بشأن الجنس في سنّ الرابعة لكنها أخبَرته الحقيقة عن الموت في سنّ

الثانية عشرة، عندما قُتلت نسيبته رُوثي في حادث سيارة غبي، عندما سُحقَت في سيارة أبيها من قِبل ولد عثر على المفاتيح في جرّافة تابعة لقسم الأشغال العامة وقرّر أن يقودها في رحلة ثم اكتشف أنه لا يعرف كيف يوقفها. تعرَّض الولد لجروح وكدمات طفيفة فقط؛ وتم تدمير فيرلين عمّه كارل. *لا يمكن أن تكون ميتة*، قال ردّاً على الجملة القاسية لأمه. لقد سمِع الكلمات، لكن لم يتمكن من فهم معناها. *ماذا تقصدين أنها ماتت؟ عما تتكلّمين؟* ثم استدرك وسأل: *مَن سيدفنها؟* لأنه رغم أن والد رُوثي، عمّ لويس، حانوتيٌّ، إلا أنه لا يمكنه أن يتخيَّل أن العمّ كارل قد يكون الشخص الذي يفعل ذلك. في ارتباكه وخوفه المتزايد، استولى عليه هذا كأهم سؤال في الدنيا. كان لغزاً أصلياً، مثل لغز مَن يقص شعر حلاّق البلدة.

أظن أن دوني دوناهيو سيفعل ذلك، ردَّت أمه. كانت عيناها حمراوين؛ وقد بدتا مُتعَبتين. بدت أمه مريضة تقريباً من الإرهاق. *إنه أعز أصدقاء عمّك في هذه المهنة. آه، لكن يا لويس... رُوثي الصغيرة الحلوة... لا يمكنني تقبُّل فكرة أنها تألّمت. هلاّ صلّيتَ معي يا لويس؟ صلِّ معي لأجل رُوثي. أحتاج إلى مساعدة منك.*

لذا ركعا على رُكبتيهما في المطبخ، هو وأمه، وصلّيا، والصلاة هي التي أفهمته أخيراً ما حصل؛ إذا كانت أمه تصلّي لروح رُوثي كريد، فهذا يعني أن جسمها لم يعد حيّاً. وتراءت أمام عينيه المُغمضتين صورة فظيعة لرُوثي آتية إلى حفلة ذكرى ولادته الثالثة عشرة بمُقلتَي عينيها المضمحلّتين معلّقتين على خدّيها وعفن أزرق ينمو في شعرها الأحمر، وهذه الصورة لم تولِّد رعباً مُقرفاً لديه فحسب، بل حبّاً مشؤوماً مريعاً.

صرَخ بأكبر عذاب ذهني في حياته، "*لا يمكن أن تكون ميتة! ماما، لا يمكن أن تكون ميتة - أنا أحبّها!*" .

وردَّت عليه أمه، بصوتٍ مسطَّحٍ لكن مليء بالصور، مثل باب قبر ذي مِفصَلات صدئة ينغلق إلى الأبد: حقول ميتة تحت سماء نوفمبر، بتلات ورود مبعثرة بنّية ذات حافات مرفوعة، أحواض فارغة وسَّختها الطحالب والعفن والغبار:

لقد ماتت يا حبيبي. آسفة، لكنها ماتت. لقد رحلت رُوثي.

ارتجَف لويس وهو يفكِّر في سرّه: الميت ميت - ماذا تريد أيضاً؟

فجأة عرَف لويس ماذا نسيَ أن يفعل، لماذا لا يزال مستيقظاً في هذه الليلة قبل أول يوم في وظيفته الجديدة، يستذكر أحزانه القديمة.

نهض، توجَّه نحو السلالم، وانعطَف فجأة في القاعة إلى غرفة إيليه. كانت تنام بسلام، فاتحةً فمها، ومرتديةً بيجامتها البيبي دول الزرقاء التي أصبحت صغيرة عليها حقاً. *يا إلهي يا إيليه*، فكَّر في سرّه، *أنتِ تنمين مثل الذرة.* كان تشرش مستلقياً بين كاحلَيها المتباعدَين، ميتاً أيضاً بالنسبة للعالم. *وعذراً على التلاعب اللفظي.*

يوجد في الطابق السفلي لوحة على الجدار قرب الهاتف معلَّقة عليها رسائل ومذكرات وفواتير مختلفة. ومكتوب في أعلاها بخط رايتشل المُتقَن [الأشياء الواجب تأجيلها طالما أمكن]. تناول لويس دليل الهاتف، وبحث عن رقم، ودوَّنه على ورقة مذكرة فارغة. وكتَب تحته: *كوينتن ل. جولاندر، طبيب بيطري - اتصال لأخذ موعد لتشرش - إذا كان جولاندر لا يخصي الحيوانات، سيحيلنا.*

نظَرَ إلى الملاحظة، وتساءل إن كان الوقت قد حان، وهو يعرف أنه حان. يجب أن يخرج شيءٌ ملموسٌ من كل هذا الشعور السيئ، وقد قرَّر ما بين هذا الصباح وهذه الليلة - حتى دون أن يعرف أنه كان يقرِّر - أنه لم يعد يريد أن يعبر تشرش الطريق إذا أمكنه مساعدته على عدم فعل ذلك.

عاودته مشاعره القديمة حول هذا الموضوع، فكرة أن هذا سيقلِّل من شأن القط، سيحوِّله إلى قِط بدين مسنّ قبل أوانه، مسرور من مجرد النوم على المشعاع إلى أن يضع أحدهم شيئاً في طبقه. لم يرغب أن يصبح تشرش هكذا. كان تشرش يروق له مثلما هو الآن، نحيل ولئيم.

في الظلمة في الخارج، مرَّت شاحنة كبيرة على الطريق 15، وهذا جعله يعقد العزم. علَّق المذكرة وأوى إلى سريره.

الفصل 11

عند الفطور في الصباح التالي، رأت إيليه المذكرة الجديدة على اللوحة وسألته عن معناها.

"يعني أنه سيخضع لعملية صغيرة جداً"، قال لويس. "وقد يضطر بعدها إلى المبيت في عيادة الطبيب البيطري لليلة واحدة. وعندما يعود إلى المنزل، سيبقى في باحتنا ولن يرغب أن يتجوَّل كثيراً".

"أو يجتاز الطريق؟"، سألت إيليه.

قد تكون في الخامسة فقط، فكَّر لويس في سرّه، *لكنها بالتأكيد ليست خرقاء*. "أو يجتاز الطريق"، قال موافقاً.

"رائع!"، قالت إيليه، وانتهى الموضوع عند هذا الحدّ.

لويس، الذي كان مستعداً لجدال مرير وربما هستيري عن غياب تشرش عن المنزل ولو لليلة واحدة، ذُهل من سهولة إذعانها. وأدرَك كم كانت قلقة. ربما لم تكن رايتشل مخطئة كلياً حول تأثير مقبرة الحيوانات عليها، في النهاية.

رايتشل نفسها، التي كانت تُطعم غايدج بيضة فطوره، رمقته نظرة امتنان، وشعَر لويس بشيء يرتخي في صدره. أخبَره المشهد أن الجفاء زال؛ لقد دُفن هذا الحقد الصغير. إلى الأبد. أمَل ذلك.

لاحقاً، بعد أن اِزدرَدت حافلة المدرسة الصفراء الكبيرة إيليه في الصباح، أتت إليه رايتشل، ووضعت ذراعيها حول عنقه، وقبَّلت فمه بلطف. "كنتَ عذباً جداً في فعل ذلك"، قالت، "وآسفة أنني كنتُ لئيمة جداً".

قبَّلها لويس بدوره، لكنه شعَر ببعض الاضطراب رغم ذلك. فقد خطَر بباله أن جملة *آسفة أنني كنتُ لئيمة جداً*، رغم أنها غير مألوفة

على الإطلاق، إلا أنها ليست شيئاً لم يسمعه أبداً من قبل. فهي تُقال له عادة بعدما تحصل رايتشل على مرادها.

في غضون ذلك، كان غايدج قد تمادى إلى الباب الأمامي وبدأ ينظر إلى الطريق الفارغ عبر أدنى لوح زجاجي. "حافلة"، قال وهو يشدّ بلا مبالاة حفاضه المرتخي. "إيليه-حافلة".

"إنه يكبُر بسرعة"، قال لويس.

أومأت رايتشل برأسها. "بسرعة كبيرة لا تناسبني، أعتقد".

"انتظري إلى أن يتخلّى عن الحفاضات"، قال لويس. "ثم يمكنه أن يتوقف".

ضحِكت، وعادت الأمور إلى مجاريها بينهما؛ بشكل كامل. وَقَفت أمامه، وأجرت تعديلاً طفيفاً على ربطة عنقه، ونظرت إليه نظرة تفحّص من فوق إلى تحت.

"هل أنجح التفقّد العسكري أيها الرقيب؟"، سأل.

"تبدو أنيقاً جداً".

"أجل، أعرف. لكن هل أبدو جرّاح قلب؟ رجل يكسب مئتَي ألف دولار في السنة؟".

"لا، مجرد لُو كريد القديم ذاته"، قالت وقهقهت. "حيوان الروك أند رول".

ألقى لويس نظرة سريعة على ساعته. "على حيوان الروك أند رول أن يرتدي حذاءه ويذهب"، قال.

"هل تشعر بتوترّ؟".

"قليلاً".

"لا داعي"، قالت. "إنها سبعة وستون ألف دولار في السنة لوضع بعض الضمادات المرنة، ووصف دواء للإنفلونزا والصُداع ما بعد

الثمالة، وإعطاء الفتيات الحبة –"

"لا تنسي غسول قمل العانة"، قال لويس، مبتسماً مرة أخرى. أحد الأشياء التي فاجأته في جولته الأولى في المشفى كان كمية دواء الفصام والاكتئاب، التي بدت له هائلةً – تلائم مشفى قاعدة عسكرية أكثر مما تلائم حرم جامعة متوسطة الحجم.

وقد ابتسمت له الآنسة شارلتون، كبيرة الممرضات، بسخرية وقالت، "الشقق خارج الحرم التعليمي في المنطقة رديئة جداً. سترى".

افترَض أنه سيرى.

"أتمنى لك يوماً جيداً"، قالت وقبَّلته مرة أخرى، ببطء. لكن عندما ابتعدت عنه، بدت نظراتها جدّية. "وبالله عليك تذكَّر أنك مسؤول *إداريّ*، ولستَ متدرِّباً أو طالب سنة ثانية!".

"نعم أيها الطبيب"، قال لويس بتواضع، وضحِكا مرة أخرى. بقي للحظة يفكّر أن يسألها: *هل كانت زيلدا السبب يا حبيبتي؟ هل هذا ما كان يزعجك؟ هل هذه منطقة الضغط المنخفض؟ زيلدا وطريقة وفاتها؟* لكنه لم يكن سيسألها ذلك، ليس الآن. بصفته طبيباً كان يعرف أموراً كثيرةً، ورغم أن أهمّها قد يكون حقيقة أن الموت شيء طبيعي تماماً مثل الولادة، إلا أن حقيقة أنك لا يجب أن تعبث بجرحٍ بدأ يندمل أخيراً كانت أقل أمر مهم بينها.

لذا بدلاً من أن يسألها، أعاد فقط تقبيلها وخرَج.

كانت بدايةً جيدةً، يوماً جيداً. كانت ماين ترتدي حلّة أواخر الصيف، والسماء زرقاء صافية، والحرارة مثالية عند اثنتين وعشرين درجة مئوية. بينما كان يقود سيارته إلى نهاية الممر الخاص للمنزل ويتأكد من عدم مرور أحد، قال لويس لنفسه متأملاً إنه لم ير حتى الآن أي أثر لأوراق الخريف المتساقطة التي يُفترَض أن تقدِّم مظهراً

خلاّباً. لكن يمكنه أن ينتظر.

وجَّه الهوندا سيفيك التي اشتروها كسيارة ثانية نحو الجامعة وتركها تسير. ستتصل رايتشل بالطبيب البيطري هذا الصباح، وسيُصلحون تشرش، وهذا سيضع كل ذلك الهُراء عن مكبرة الحيوانات (كان مضحكاً كيف يترسَّخ ذلك الخطأ الإملائي في ذهنك ويبدو لك صحيحاً مع مرور الوقت) ومخاوف الموت خلفهم. لم يكن هناك داعٍ للتفكير بالموت في صباح سبتمبر جميل مثل هذا.

شغَّل لويس الراديو وراح يتنقّل بين المحطات إلى أن وجَد فرقة هيوي لويس والنيوز تغني "العمل لكسب لقمة العيش". رفع حجم الصوت وراح يغنّي معها – ليس جيداً لكن بمتعة مُفعَمة بالحيوية.

الفصل 12

أول شيء لاحَظه عند الانعطاف إلى حرم الجامعة كان كيف ازدادت زحمة المرور فجأة وبشكل مذهِل. كانت هناك زحمة سيارات، درّاجات هوائية، مهروِلين بسراويل رياضية قصيرة. اضطر أن يتوقف بسرعة ليتجنَّب مهروِلَين آتين من اتجاه قاعة دَنّ نحو الملعب الرياضي خلف الملعب المسقوف. فَرْمَل لويس بقوة كافية لكي يُقفَل حزام كتفه وضغط بوق السيارة. كان ينزعج دائماً من الطريقة التي يبدو بها أن المهروِلين (لدى راكبي الدرّاجات الهوائية نفس العادة المثيرة للغضب) يفترضون تلقائياً أن مسؤوليتهم تزول بالكامل لحظة بدئهم الركض. كانوا، في النهاية، *يمارسون الرياضة*. مدَّ أحدهم إصبعه للويس حتى من دون أن يلتفت صوبه. تنهَّد لويس وتابع قيادته.

ثاني شيء لاحَظه كان اختفاء سيارة الإسعاف من مكانها في مرأب سيارات المشفى الصغير، وهذا أشعره ببداية بغيضة. فقد تم تجهيز المشفى لمعالجة أي مرض أو حادث تقريباً على مدى قصير؛ وكانت هناك ثلاث غُرف مجهَّزة جيداً للفحص والمداواة في البهو الكبير، وخلفها جناحان يحتوي كل واحد منهما على خمسة عشر سريراً. لكن لم تكن هناك غرفة عمليات، ولا حتى شيء يشبه واحدةً. وفي حال وقوع حادث خطير، هناك سيارة الإسعاف التي ستنقل الجريح أو المريض إلى مركز ماين الشرقية الطبي. ستيف ماسترتون، مساعِد الطبيب الذي قدَّم للويس جولته الأولى على المرفق، أظهَر للويس سجل السنتين الأكاديميتين السابقتين بفخر ممكن تبريره؛ فلم تُستخدَم الإسعاف إلا ثمانٍ وثلاثين مرة في تلك الفترة، وهذا ليس سيئاً عندما تتذكَّر أن عدد الطلاب هنا يفوق عشرة آلاف ومجموع سكان الجامعة حوالي سبعة

عشر ألفاً.

وها هو، في يومه الحقيقي الأول للوظيفة، والإسعاف مختفية.

رَكَن سيارته في المكان المعنون بلافتة مطلية حديثاً تقول "محجوز للطبيب كريد" وأسرعَ في الدخول.

وجَد شارلتون، امرأة رمادية الشعر صغيرة البنية في حوالي الخمسين من عمرها، في غرفة الفحص الأولى، تقيس حرارة فتاة ترتدي سروال جينز وقميصاً بحمّالة عنق. رأى لويس أن الفتاة تعرَّضت لحرقة شمس سيئة منذ فترة غير طويلة جداً؛ كان التقشّر يتقدَّم جيداً.

"صباح الخير يا جوان"، قال. "أين الإسعاف؟".

"آه، شهدنا مأساة حقيقية"، قالت شارلتون وهي تُخرج ميزان الحرارة من فم الطالبة وتقرأه. "جاء ستيف ماسترتون هذا الصباح عند السابعة ورأى بركة كبيرة تحت المحرِّك والعجلتين الأماميتين. لقد تعطَّل المشعاع. اضطروا إلى قَطرها".

"رائع"، قال لويس، لكنه شعَر بالارتياح رغم ذلك. على الأقل لم تكن في مأمورية، وهو أول شيء خشيه. "متى نستعيدها؟".

ضحِكت جوان شارلتون. "حسب خبرتي مع ورشة التصليح في الجامعة"، قالت، "ستعود حوالي الخامس عشر من ديسمبر ملفوفة بشريط زينة احتفال الشتاء". ألقت نظرة سريعة على الطالبة.

"لديك نصف درجة من الحمى"، قالت. "خذي قرصَي أسبرين وابتعدي عن المقاصف والأزقة الداكنة".

نزَلت الفتاة. ألقت نظرة تقييمية سريعة نحو لويس ثم خرَجت.

"زبوننا الأول في الفصل الدراسي الجديد"، قالت شارلتون بحدّة. بدأت تهزّ ميزان الحرارة بسرعة ورشاقة.

"لا تبدين مسرورة جداً لهذا".

"أعرف هذا الصنف"، قالت. "آه، لدينا الصنف الآخر أيضاً – الرياضيون الذين يلعبون المباريات وهم مصابون بالتهاب العظم والغضروف والتهاب الوتر وكل شيء آخر لأنهم لا يريدون أن يجلسوا على مقاعد الاحتياط، عليهم أن يتباهوا برجوليتهم، ولا يخذلون فريقهم، حتى ولو كانوا يعرِّضون مستقبلهم الاحترافي للخطر. ثم لديك آنسة النصف درجة من الحمى–". أمالت رأسها نحو النافذة، حيث استطاع لويس رؤية الفتاة ذات حرقة الشمس تسير في اتجاه مجمَّع مساكن الطلبة غانتّ كمبرلاند-أندروسكوغن. أعطته الفتاة في غرفة الفحص انطباعاً بأنها شخص متوعك تماماً لكنه يحاول عدم إظهار ذلك. أما الآن فكانت تسير برشاقة، وخصرها يتمايل بشكل جميل، تلاحظ الذين حولها والذين حولها يلاحظونها.

"المُصابون بوسواس المرض النموذجيون في الكلّية". ألقت شارلتون ميزان الحرارة في جهاز التعقيم. "سنراها عشرين مرة هذه السنة. ستتزايد زياراتها قبل كل جولة من الامتحانات التمهيدية. وقبل حوالي أسبوع من الامتحانات النهائية، ستكون مقتنعة أنها مصابة بالتهاب رئوي. والتهاب الشُعُب الهوائية هو المرض الاحتياطي. ستتفادى أربعة أو خمسة امتحانات – تلك التي يكون المدرِّسون فيها جبناء، لاستخدام الكلمة التي يستخدمونها – وتخضع لامتحانات تعويضية أسهل. يمرضون دائماً إذا عرفوا أن الامتحان التمهيدي أو الامتحان النهائي سيكون امتحاناً متعدد الأجوبة بدلاً من امتحان مقال".

"يا للهول، ألسنا ساخرين هذا الصباح"، قال لويس. كان مرتبكاً قليلاً، في الواقع.

غمزته فابتسم. "لا آخذ الأمر على محمل الجدّ أيها الطبيب. ولا يجب أن تأخذه أنت أيضاً".

"أين ستيفن الآن؟".

"في مكتبك، يردّ على البريد ويحاول معرفة أحدث طن من الكلام الفارغ البيروقراطي من جمعية بلُو كروس بلُو شيلد"، قالت.

دخَل لويس. فرغم سخرية شارلتون، شَعَر بإلفة مريحة.

عند الالتفات إلى الوراء، سيظن لويس - عندما يستطيع تحمّل التفكير بالمسألة من الأصل - أن الكابوس بدأ حقاً عندما أحضَروا الفتى المُحتضَر، فيكتور باسكاو، إلى المشفى حوالي العاشرة ذلك الصباح.

حتى ذلك الوقت، كانت الأمور هادئة جداً. عند التاسعة، بعد وصول لويس بنصف ساعة، دخَلت الممرضتان المتطوّعتان اللتان ستعملان من التاسعة إلى الثالثة. أعطى لويس كعكة دونات وكوب قهوة لكل واحدة منهما وتكلَّم معهما لحوالي رُبع ساعة، محدِّداً واجباتهما، وما كان أهم من ذلك ربما، ما كان أبعد من مدى واجباتهما. ثم تولّت شارلتون زمام الأمور. بينما كانت تقودهما إلى خارج مكتب لويس، سمِعها لويس تسألهما: "هل إحداكما حسّاسة لرؤية البراز أو القيء؟ ستريان الكثير منهما هنا".

"يا إلهي"، همسَ لويس وغطى عينيه. لكنه كان يبتسم. المرأة القاسية مثل شارلتون ليست عبئاً دائماً.

بدأ لويس يملأ الاستمارات الطويلة لجمعية بلُو كروس بلُو شيلد، والتي تتطلّب إجراء جردة كاملة بمخزون الأدوية والمعدّات الطبية ("كل سنة"، قال ستيف ماسترتون بصوت مُكدَّر. "الشيء نفسه كل سنة لعينة. لماذا لا تدوِّن *مرفق زراعة كاملة للقلب، القيمة التقريبية ثمانية ملايين دولار* يا لويس؟ هذا سيُخرسهم!")، وكان منهمِكاً كلياً، لا يفكِّر إلا بأن كوب قهوة سيكون جيداً الآن، عندما صَرَخ ماسترتون

من صالة الانتظار: "لويس! يا لويس، اخرج إلى هنا! لدينا فوضى!".

شبه الذعر في صوت ماسترتون دفع لويس إلى الخروج على عجل، حيث قفز عن كرسيه كما لو أنه كان يتوقع ذلك لا شعوريّاً. فقد صدرَ زعيقٌ، رفيع وحادّ مثل شظية زجاج محطَّم، من مصدر صراخ ماسترتون. وتبع ذلك صفعةٌ حادّةٌ وصوت شارلتون يقول، "توقفي عن هذا أو انصرفي من هنا أيتها اللعينة! توقفي عن هذا الآن!".

اقتحم لويس صالة الانتظار ولم ينتبه أولاً إلا للدم – كان هناك الكثير من الدم. كانت إحدى الممرضتين المتطوِّعتين تشهق، والأخرى شاحبة كالكريما وتضع يديها المشدودتين على شكل قبضتين عند زوايا فمها، وتشدّ شفتيها في ابتسامة مقزِّزة كبيرة. كان ماسترتون راكعاً يحاول إمساك رأس الفتى الممدَّد على الأرض.

رفع ستيڤ نظره إلى لويس، وبدا متجهِّماً وخائفاً وحاوَل أن يتكلَّم. لم يخرج شيء منه.

بدأ الناس يتجمَّعون عند الأبواب الزجاجية الكبيرة للمركز الطبي للطلاب، وراحوا يحدِّقون في الداخل، وقد كوَّروا أيديهم حول وجوههم لحجب الوهج. تذكَّر لويس صورةً ملائمةً تماماً: مشاهدته التلفزيون مع أمه صباحاً في غرفة الجلوس عندما لم يكن سنّه أكبر من ست سنوات قبل أن تذهب إلى عملها. مشاهدة برنامج "اليوم" القديم، تقديم دايڤ غارووای. كان الناس في الخارج، فاغري الفم أمام دايڤ وفرانك بلير والعزيز ج. فْرَد ماغز. نظر حوله ورأى أناساً آخرين يقفون عند النوافذ. لا يمكنه فعل أي شيء بشأن الأبواب، لكن –

"أغلقي الستائر"، صرخ بالممرضة المتطوِّعة التي صَرَخت.

عندما لم تتحرَّك فوراً، صفَّقت لها شارلتون. "افعلي ذلك يا فتاة!".

بدأت الممرضة المتطوِّعة تتحرَّك. بعد لحظة أُسدلَت ستائر خضراء على النوافذ. وانتقل ستيڤ ماسترتون وشارلتون غريزياً ليقفا بين الفتى الواقع على الأرض وبين الأبواب، ليحجبا الرؤية قدر ما يستطيعان.

"نقّالة صلبة أيها الطبيب؟"، سألت شارلتون.

"إذا احتجنا إليها، أحضريها"، قال لويس وهو يقرفص بجانب ماسترتون. "لم تسنح لي الفرصة حتى لأنظر إليه".

"هيا أسرعي"، قالت شارلتون للفتاة التي أغلقت الستائر. كانت تشدّ زوايا فمها بقبضتيها مرة أخرى، راسمةً تلك الابتسامة الصارِخة الجدّية. نظَرَت إلى شارلتون وتأوّهت، "آه، تباً".

"أجل، أنتِ محقّة، *آه، تباً*". ودفعت الفتاة دفعة قوية جعلتها تتحرَّك، وتنورتها المخطَّطة باللونين الأحمر والأبيض تحفّ برِجليها.

انحنى لويس فوق مريضه الأول في جامعة ماين في أورونو.

كان شاباً، عمره حوالي العشرين، ولم يحتج لويس إلى أكثر من ثلاث ثوانٍ ليقوم بالتشخيص الوحيد الذي يهمّ: الشاب سيموت. فنصف رأسه مسحوقٌ، وعنقه مكسورٌ، وهناك ترقوة ناتئة من كتفه اليمنى المتورِّمة والمفتولة، ومن رأسه يتسرَّب ببطء دمٌ ومادة صفراء مائعة على السجادة. كان بإمكان لويس رؤية دماغ الشاب، الأبيض الرمادي والنابض من خلال قسم محطَّم من الجمجمة عرضه حوالي خمسة سنتيمترات. كان ذلك أشبه بالنظر عبر نافذة محطَّمة. لو كان حاملاً بطفل في جمجمته، لاستطاع توليده تقريباً. الأمر الذي لا يُصدَّق أبداً هو أنه لا يزال حيّاً. فجأة سمِع في ذهنه جاد كراندال يقول *أحياناً يمكنك الشعور به يعضّ مؤخِّرتك*. وأمه: *الميت ميت*. شَعَر برغبة مجنونة بالضحك. كان الميت ميتاً حقاً. هذا أكيد، يا صديقي العزيز.

"نادِ الإسعاف"، صرخ بماسترتون. "علينا –"

"لويس، الإسعاف -"

"يا إلهي"، قال لويس وهو يصفع جبهته. نقل نظره إلى شارلتون. "جوان، ماذا تفعلون في حالة كهذه؟ تتصلون بأمن الجامعة أو مركز ماين الشرقية الطبي؟".

بدت جوان مضطربة ومنزعجة - وخمَّن لويس أن هذا أمر نادر جداً معها. لكن صوتها كان هادئاً كفاية عندما رَدَّت. "لا أعرف أيها الطبيب. لم نشهد حالةً مماثلةً أبداً من قبل طوال عملي في المركز الطبي".

راح لويس يفكِّر بأسرع ما يمكنه. "اتصلي بشرطة الجامعة. لا يمكننا انتظار أن يرسل لنا مركز ماين الشرقية الطبي سيارة إسعافه. إذا لزم الأمر، يمكنهم أخذه إلى بانغور في إحدى سيارات الإطفاء. على الأقل فيها صفارة إنذار وأضواء ومضيّة. افعلي ذلك يا جوان".

ذهَبت لكن ليس قبل أن يلمح نظرتها الودّية جداً ويفسِّرها. هذا الشاب، المسمَرّ جداً والمفتول العضلات - ربما من عمله الصيفيّ ضمن طاقم أحد الطرقات، أو طلاء المنازل، أو إعطاء دروس في كرة المضرب - ولا يرتدي الآن سوى شورت رياضي أحمر ذي حافة بيضاء، سيموت مهما فعلوا. وكان ليموت أيضاً حتى لو كانت سيارة إسعافهم مركونة في الخارج ومحرِّكها مشتغل عندما أُحضِر المريض.

بدأ الشاب المُحتضَر يتحرَّك، بشكل لا يُصدَّق. رفرف عينيه وفتحهما. عينان زرقاوان، والقزحيتان مطوَّقتان بالدم. راحتا تحدِّقان بالفراغ ولا تريان شيئاً. حاوَل تحريك رأسه، وضغطَ لويس ليمنعه من فعل ذلك، متيقظاً من العنق المكسور. الصدمة الكبيرة في الجمجمة لم تُعق احتمال شعوره بالألم.

الفجوة في رأسه، يا إلهي، الفجوة في رأسه.

"ماذا حصل له؟"، سأل وهو ينظر إلى ستيف، مُدركاً أنه سؤال غبي وعديم الفائدة في هذه الظروف. سؤال شخصٍ متفرِّج. لكن الفجوة في رأس الشاب أكَّدت حالته؛ كان مجرد متفرِّجٍ. "هل أحضره رجال الشرطة؟".

"أحضَره بعض الطلاب على بطانية. لا أعرف ظروف الحادثة".

كان عليه التفكير بما سيحصل بعد ذلك. هذه مسؤوليته أيضاً.

"اخرج وجِدهم"، قال لويس. "أدخلهم من الباب الآخر. أريدهم هنا، لكنني لا أريدهم أن يروا من هذا أكثر مما رأوا من قبل".

ماسترتون، الذي بدا مرتاحاً من ابتعاده عما يجري هنا، ذهَب إلى الباب وفتحه، سامحاً لتسرّب ثرثرة متحمِّسة، فضولية، مرتبكة. استطاع لويس سماع صفارة إنذار الشرطة أيضاً. إذاً فقد وصل أمن الجامعة. شَعَر لويس بنوع من الارتياح البائس.

كان الشاب المُحتضَر يُصدر صوت غرغرة في حنجرته. حاوَل أن يتكلَّم. سمِع لويس مقاطع لفظية - بعض الصوت، على الأقل - لكن الكلمات نفسها كانت غير واضحة.

مالَ لويس فوقه وقال، "ستكون بخير أيها الشاب". تذكَّر رايتشل وإيليه بينما قال ذلك، وانقبضت معدته بشكل قوي. وَضَع يده على فمه وكبتَ تجشّؤاً.

"كااا"، قال الشاب. "غااااا -"

نظر لويس حوله ورأى أنه لوحده مع الشاب المُحتضَر. كان بإمكانه سماع صياح جوان شارلتون على الممرضتين المتطوّعتين بشكل خافت بأن النقّالة الصلبة موجودة في خزانة الغرفة الثانية. شكَّ لويس أنهما تستطيعان تمييز الغرفة الثانية عن الغُدد التناسلية لضفدعٍ؛ فهذا، في النهاية، يومهما الأول في الوظيفة. وقد حصلتا على مقدمة مُرعبة

إلى عالم الطب. أصبحت السجادة الخضراء التي تمتد من الجدار إلى الجدار مبلَّلةً الآن بسائل أرجواني موحِل في دائرة تتوسَّع حول رأس الشاب المحطَّم؛ الحمد لله أن تسرُّب المائع الجمجميّ توقف.

"في مقبرة الحيوانات"، قال الشاب بصوت أجش... وبدأ يبتسم. كانت تلك الابتسامة مشابهة بشكل ملحوظ للابتسامة الهستيرية الكئيبة للممرضة المتطوِّعة التي أغلقت الستائر.

راح لويس يحدِّق فيه، رافضاً في البدء تصديق ما سمِعه. ثم اعتبر أنه لا شك تعرَّض لهلوسة سمعية. *لقد أصدر أحد تلك الأصوات اللفظية وقد حوَّلها عقلي الباطني إلى شيء متماسك، إلى شيء يتلاءم مع خبرتي.* لكن ذلك لم يكن ما حصل، وقد أُجبر على معرفة ذلك بعد لحظة. أصابه رعبٌ مجنونٌ يسبِّب الإغماء وبدأت بشرته تقشعرّ بشراهة، وبدت القشعريرة في الواقع كما لو أنها *تتحرَّك* إلى أعلى وأسفل ذراعيه وإلى بطنه في أمواجٍ... لكن حتى عندها رفَض التصديق. نعم، كانت المقاطع اللفظية على الشفتين الدمويتين للشاب الممدَّد على السجادة وكذلك في أذنَي لويس، لكن ذلك يعني فقط أن الهلوسة كانت بصرية وكذلك سمعية.

"ماذا قلتَ؟"، همَس.

كانت الكلمات جليّة وواضحة هذه المرة مثل كلمات ببغاء ناطق أو غراب مشقوق لسانه: "ليست المقبرة الحقيقية...". كانت العينان شاغرتين، لا تريان، محاطتين بالدم، والفم مبتسم بالابتسامة الكبيرة لسمكة شبّوط ميتة.

انتشر الرعب في كل جسم لويس، مُمسكاً قلبه الدافئ بيديه الباردتين، وضاغطاً عليه. قلَّله هذا، جعَله أقل وأقل، إلى أن شَعَر برغبة بأن يلوذ بالفرار من هذا الرأس الدموي، المنفتل، الناطق على أرضية

صالة انتظار المشفى. كان رجلاً من دون تدريب ديني عميق، لا يميل إلى تصديق الخرافات أو المسائل ما وراء الطبيعة. كان غير محضَّر لهذا... مهما كان.

محارباً الرغبة بالفرار بكل قوته، أجبر نفسه على الانحناء أكثر فوقه. "ماذا قلتَ؟"، سأل للمرة الثانية.

الابتسامة. هذا كان سيئاً.

"تربة قلب الرجل حجرية أكثر يا لويس"، همَس الشاب المُحتضَر. "يزرع الرجل ما يستطيع... ويعتني به".

لويس. فكَّر في سرّه، ولم يعد يسمع شيئاً بعقله الواعي بعد إسمه. *يا إلهي، لقد ناداني بإسمي.*

"مَن أنت؟"، سأل لويس بصوت رقيق مرتعش. "مَن أنت؟".

"الهندي أحضَر سمكتي".

"كيف عرفت –"

"ابق بعيداً، نحن. تعرف –"

"أنت –"

"كاا"، قال الشاب، وراح لويس يتخيَّل الآن أنه يمكنه شمّ رائحة الموت في أنفاسه، إصاباته الداخلية، إيقاعه المفقود، فشله، بقاياه.

"ماذا؟". شعَر برغبة مجنونة بأن يهزّه.

"غاااااا –"

بدأ الشاب في الشورت الرياضي الأحمر يرتجف كلياً. وبدا فجأة أن كل عضلاته تجمَّدت. فقدت عيناه نظرتيهما الفارغتين للحظة وبدا أنه ينظر إلى عينَي لويس. ثم تلاشى كل شيء دفعةً واحدةً. فكَّر لويس في سرّه أنه سيتكلَّم مرة أخرى، عليه أن يتكلَّم مرة أخرى. ثم استأنَفت العينان نظرتيهما الفارغتين... وبدأتا تلمعان. لقد تُوفِّي.

استرخى لويس، غير منتبه تماماً إلى أن كل ملابسه ملتصقة به؛ كان متعرّقاً بالكامل. أزهَرت الظلمة، ناشرةً جناحاً فوق عينيه، وبدأ العالم يدور حوله بشكل مُقرف. مُدركاً ماذا كان يجري، استدار نصف استدارة عن الشاب الميت، ودفع رأسه نزولاً بين رُكبتَيه، وضغطَ ظفرَي إبهامه الأيسر وسبابته اليسرى في لثّته بقوة كافية لكي ينزف الدم منها.

بعد لحظة بدأ العالم يصفو من جديد.

الفصل 13

ثم امتلأت الغرفة بالناس، كما لو أنهم كلهم مجرد ممثلين ينتظرون إشارة المخرج. هذا زاد من شعور لويس باللاواقعية والارتباك – قوة تلك المشاعر، التي درَسها في حصص عِلم النفس لكن لم يختبرها أبداً في الواقع، أخافته كثيراً. افترَض أنها ما يشعر به الشخص بعد قليل من دسّ أحدهم جرعة مخدِّر قوي في كوب شرابه.

مثل مسرحية تُعرَض لي وحدي فقط، فكَّر في سرّه. *أولاً تُفرَّغ الغرفة بشكل ملائم لكي يتمكن العرّاف المحتضَر من أن ينطق لي وحدي بضعة أسطر من توقّعٍ غير مباشر، وحالما يموت، يعود الجميع.*

وقفت الممرضتان المتطوِّعتان بشكل غير متقن عند طرفَي النقّالة الصلبة، تلك التي يستخدمونها للأشخاص المصابين في العمود الفقري أو العنق. وتبَعتهما جوان شارلتون وهي تقول إن شرطة الجامعة في طريقها إليهم. لقد دهست سيارةٌ الشاب بينما كان يهرول. تذكَّر لويس المهرولِين الذين ركضوا أمام سيارته ذلك الصباح وانقبضت معدته.

خلف شارلتون أتى ستيف ماسترتون مع شرطيين من أمن الجامعة. "لويس، الأشخاص الذين أحضَروا هم...". صمتَ وقال بحدّة، "لويس، هل أنت بخير؟".

"أنا بخير"، قال ونهض. ملأته حالة غثيان مرة أخرى ثم تلاشت. راح يتلمَّس طريقه. "هل يدعى باسكاو؟".

قال أحد شرطيي الجامعة، "فيكتور باسكاو، وفقاً للفتاة التي كانت تُهروِل معه".

ألقى لويس نظرة سريعة على ساعته وطرَح دقيقتين. كان بإمكانه سماع فتاة تبكي بقوة من الغرفة التي عزل فيها ماسترتون الأشخاص

الذين أحضَروا باسكاو. أهلاً بعودتك إلى المدرسة، أيتها السيدة الصغيرة، فكَّر في سرّه. نتمنّى لك فصلاً دراسياً لطيفاً. "لقد تُوفِّيَ السيد باسكاو عند الساعة 10:09 صباحاً"، قال.

مسَح أحد الشرطيين الجهة الخلفية ليده على فمه.

قال ماسترتون مرة أخرى، "لويس، هل أنت بخير حقاً؟ تبدو *فظيعاً*".

فتَح لويس فمه ليجيبه، وأسقطت إحدى الممرضتين المتطوّعتين طرفها من النقّالة الصلبة فجأة وركَضت إلى الخارج، وتقيأت على مئزرها. بدأ هاتفٌ يرنّ. الفتاة التي كانت تبكي بدأت الآن تصرخ إسم الشاب المتوفى - "ڤيك! ڤيك! ڤيك!" - مراراً وتكراراً. هرج ومرج. إرباك. كان أحد الشرطيين يسأل شارلتون إن كان بإمكانه الحصول على بطانية ليغطيه بها، وكانت شارلتون تقول إنها لا تعرف إن كانت لديها السلطة لتقدِّم واحدة، ووجَد لويس نفسه يفكِّر بسطر من موريس سنداك: "فلتبدأ الجَلَبة الجامحة!".

ارتفعت تلك القهقهات العَفِنة في حنجرته مرة أخرى، وتمكَّن من كبحها بطريقة أو بأخرى. هل قال هذا الباسكاو مقبرة الحيوانات حقاً؟ هل لفظ هذا الباسكاو إسمه حقاً؟ هذه كانت الأشياء التي تُفقده توازنه، الأشياء التي تُرسله متمايلاً خارج مداره. لكن ذهنه بدا مسبقاً يلفّ تلك اللحظات القليلة في فيلم وقائي - نحت، تغيير، قطع اتصال. بالتأكيد قال شيئاً آخر (هذا إن كان قد تكلَّم من الأصل)، وفي صدمة اللحظة وحزنها العميق، أساء لويس تفسير ذلك. الأرجح أن باسكاو أصدر أصواتاً فقط، مثلما فعل من الوهلة الأولى.

راح لويس يتحسَّس بحثاً عن نفسه، بحثاً عن ذلك الجزء من نفسه الذي جعل الإدارة تعطيه هذه الوظيفة بدلاً من أحد المتقدِّمين إليها

الثلاثة والخمسين الآخرين. لم يكن هناك أحد يتولى القيادة هنا، لا توجد أي حركة؛ كانت الغرفة مليئة بأشخاص متجمهرين فقط.

"ستيف، اذهب واعط تلك الفتاة حبة مهدئة للأعصاب"، قال، ومجرد قول هذه الكلمات جَعَله يشعر بتحسّن. كان كما لو أنه في مركبة فضائية بدأت تتحرَّك للإفلات من جاذبية قمر صغير جداً. قال كائن القمر الصغير، بالطبع، تلك اللحظة غير المنطقية عندما تلفَّظ باسكاو. لقد تم توظيف لويس ليتولّى المسؤولية؛ وكان سيفعل ذلك.

"جوان. أعطي الشرطي بطانيةً".

"أيها الطبيب، لم نضع لائحة بكل –"

"أعطِه واحدةً على أي حال. ثم تفقَّدي تلك الممرضة المتطوِّعة".

نظَرَ إلى الفتاة الأخرى، التي كانت لا تزال تُمسك طرفها من النقّالة الصلبة. كانت تحدِّق في بقايا باسكاو بنوع من الافتتان المنوَّم مغنطيسياً. "أيتها الممرضة المتطوِّعة!"، قال لويس بقسوة، وارتعَشت عيناها بعيداً عن الجثة.

"م–م–ما –"

"ما إسم الفتاة الأخرى؟".

"م–مَن؟".

"تلك التي تقيأت"، قال بقسوة مقصودة. "جو–جو–جودي. جودي ديليسيو".

"وإسمك؟".

"كارلا". بدت الفتاة الآن أكثر هدوءاً بقليل.

"كارلا، اذهبي وتفقَّدي جودي. وأحضري تلك البطانية. ستجدين كومة منها في خزانة المؤن الصغيرة بجانب غرفة الفحص الأولى. اذهبوا، جميعكم. دعونا نتصرَّف ببعض الاحترافية".

بدأوا يتحرّكون. بعد قليل هدأ الصراخ في الغرفة الأخرى. والهاتف الذي كان قد توقف عن الرنين، عاد ليرنّ مرة أخرى. ضغط لويس زر الانتظار دون أن يرفع السمّاعة.

بدا شرطي الجامعة الأكبر سنّاً متماسكاً أكثر، وكلَّمه لويس. "مَن نُبلغ؟ هل يمكنك أن تعطيني لائحة؟".

أومأ الشرطي برأسه وقال، "لم نشهد هكذا حالة منذ ست سنوات. إنها طريقة سيئة لبدء الفصل الدراسي".

ضغط لويس أحد الأزرار غير المضاءة على الهاتف وبدأ يُجري اتصالاته دون أن يكترث من أن يتحقّق مَن كان ينتظر على الخط.

الفصل 14

لم تهدأ الأمور حتى الرابعة تقريباً بعد ظهر ذلك اليوم، بعد أن صرَّح لويس وريتشارد إرفينغ، مدير أمن الجامعة، للصحافة. كان الشاب، فيكتور باسكاو، يهروِل مع صديقين، أحدهما خطيبة. مرَّت سيارة يقودها تريمونت ويثرذ، في الثالثة والعشرين من عمره، من هايفن، ماين، على الطريق الذي يؤدي من نادي لنغايل الرياضي للنساء نحو وسط الحرم الجامعي بسرعة مُفرطة. سيارة ويثرذ صدمت باسكاو ودفعته نحو شجرة. أُحضِر باسكاو إلى المشفى على بطانية من قِبل صديقَيه وعابرَي سبيل، وتُوفيِّ بعد ذلك بدقائق. أُلقي القبض على ويثرذ بانتظار توجيه تهمة رسمية له بالقيادة بطريقة مستهترة والقيادة تحت تأثير الشراب، والقتل غير المتعمَّد عبر مركبة.

سأل محرِّر صحيفة الجامعة إن كان يمكنه القول إن باسكاو تُوفيِّ من إصابات في الرأس. قال لويس، متذكِّراً تلك النافذة المحطَّمة التي يمكن رؤية الدماغ من خلالها، إنه يفضِّل ترك الطبيب الشرعي لمقاطعة بينوبسكوت يُعلِن سبب الوفاة. ثم سأل المحرِّر إن كان الشباب الأربعة الذين أحضَروا باسكاو إلى المشفى على بطانية لم يسبِّبوا وفاته عن غير قصد.

"لا"، رَدَّ لويس، وشَعَر بسعادة من أن الفرصة سنحت له لتبرئة أولئك الأربعة، الذين تصرّفوا بسرعة وحنان. "على الإطلاق. برأيي، أُصيب السيد باسكاو بجروح مميتة لحظة صدمه".

كانت هناك أسئلة أخرى – قلّة – لكن ذلك الجواب أنهى المؤتمر الصحفي حقاً. الآن جلَس لويس في مكتبه (كان ستيف ماسترتون قد عاد إلى منزله قبل ساعة، بعد المؤتمر الصحفي فوراً – شكَّ لويس أنه

فعل ذلك ليشاهد نفسه في نشرة أخبار المساء) محاولاً لملمة شظايا اليوم - أو ربما محاولاً فقط تغطية ما حصل، وضعْ طبقة رفيعة من الروتين فوقه. كان وشارلتون يستعرضان البطاقات في "الملف الأمامي" - أولئك الطلاب الذين كانوا يمضون سنوات كلّيتهم بتجهّم رغم بعض الإعاقة. كان هناك ثلاثة وعشرون مريضاً بالسكري في الملف الأمامي، وخمسة عشر مصاباً بداء الصَرَع، وأربعة عشر يعانون من شلل سفلي، وحالات أخرى متنوعة: طلاب لديهم سرطان في الدم، طلاب لديهم شلل مخيّ وضمور عضلي، طلاب عميان، طالبان أبكمان، وحالة واحدة من فقر الدم المنجلي، التي لم يرها لويس من قبل أبداً.

ربما أدنى نقطة بعد الظهر حصلت بعد رحيل ستيف مباشرة. فقد دخَلت شارلتون ووضعت قسيمة مذكرة زهرية على مكتب لويس تقول *ستصل سجادة بانغور إلى هنا عند 9:00 غداً.*

"سجادة؟"، سأل.

"يجب استبدالها"، قالت بنبرة اعتذارية. "ما من طريقة لإزالة تلك البقعة أيها الطبيب".

بالطبع لا. في تلك اللحظة دخلَ لويس إلى الصيدلية وأخذ حبّة توينل - التي كان زميله في الغرفة في كلّية الطب يسمّيها تُونر. "اركب حافلة مدينة التُونر يا لويس"، كان يقول له، "وسأضع بعض موسيقى فرقة كريدنس". وكان لويس يرفض النزهة في مدينة التُونر الأسطورية في أغلب الأحيان، وكان ذلك لحسن حظه على الأرجح؛ فقد رسَب زميل غرفته في منتصف فصله الدراسي الثالث وركب حافلة مدينة التُونر وصولاً حتى فيتنام كمُسعِف طبي. يتخيَّله لويس هناك أحياناً، ثمل بالكامل، ويستمع إلى أغنية كريدنس "اركض عبر الأدغال".

لكنه بحاجة إلى شيء. فإذا كان سيضطر إلى رؤية تلك القسيمة

الزهرية عن السجادة على مكتبه كلما رفع نظره عن الملف الأمامي المفتوح أمامه، فسيحتاج إلى شيء.

كان يجوب بسرعة جيدة نوعاً ما عندما أطلّت السيدة بايلينغز، الممرضة الليلية، رأسها وقالت، "زوجتك يا سيد كريد. الخط الأول".

نظر لويس إلى ساعته ورأى أنها الخامسة والنصف تقريباً؛ كان ينوي الخروج من هنا قبل ساعة ونصف.

"حسناً يا نانسي. شكراً".

رفع سمّاعة الهاتف وضغط زر الخط الأول. "مرحباً حبيبتي. أنا في طري –"

"لويس، هل أنت بخير؟".

"نعم، بخير".

"سمعتُ الخبر في نشرة الأخبار. يوسفني هذا يا لُو". صمتت للحظة ثم أكملت تقول، "أُذيع في نشرة أخبار الإذاعة. وقد بثوا صوتك وأنت تُجيب على أحد الأسئلة. بدوتَ جيداً".

"حقاً؟ هذا جيد".

"هل أنت أكيد أنك بخير؟".

"نعم يا رايتشل. أنا بخير".

"عد إلى المنزل"، قالت.

"نعم"، قال. وبدت فكرة المنزل صائبةً له.

الفصل 15

لاقته عند الباب، وفغر فاهه. كانت ترتدي حمّالة الصدر الشبكية التي يحبّها، وسروالاً داخلياً نصف شفاف، ولا شيء آخر.

"تبدين شهية"، قال. "أين الولدين؟".

"أخذهما مِيسِي داندريدج. نحن لوحدنا حتى الثامنة والنصف... مما يعطينا ساعتين ونصف. دعنا لا نضيِّع الوقت".

ضغطت جسدها عليه، وشمَّ رائحة جميلة خفيفة – هل هي رائحة عطر الورد؟ أحاطها بذراعيه؛ حول خصرها أولاً، ثم وجدت يداه مؤخرتها بينما راح لسانها يرقص بلطف على شفتيه ثم داخل فمه.

انتهت قبلتهما أخيراً وسألها ببعض الفظاظة: "هل ترغبين ببعض العشاء؟".

"التحلية"، قالت، ثم بدأت تبرم النصف السفلي من جسمها ببطء وتحفّه على بطنه وبين منفرج ساقيه. "لكنني أعدُك أنك لن تضطر إلى أكل شيء لا تحبه".

مدَّ يديه إليها لكنها انزلقت من بين ذراعيه وأمسكت يده. "إلى الطابق العلوي أولاً"، قالت.

أخذته إلى حمّام حار جداً، ثم خلعت عنه ملابسه ببطء وقادته إلى داخل الماء. ارتدت القفّاز الاسفنجي الخشن قليلاً الذي يُعلّق على الدُشّ عادة، وفركت جسمه بالصابون بلطف، ثم شطفته. بدأ يشعر أن آثار يومه – يومه الأول الرهيب – تزول عنه تدريجياً. لقد أصبحت مبلَّلةً جداً، والتصق سروالها الداخلي بها كأنه جزء من بشرتها.

بدأ لويس يخرج من المغطس، فدفعته إليه بنعومة.

"ماذا –"

أمسكه القفّاز الاسفنجي بلطف – بلطف لكن باحتكاك يكاد لا يُحتمَل، وبدأ يتحرّك صعوداً ونزولاً بهدوء.

"رايتشل –"، أصبح كل جسمه متعرّقاً، وليس فقط من حرّ الحمّام.

"اسكت".

بدا له أن المسألة ستستمر إلى ما لا نهاية – سيصل إلى الذروة واليد داخل القفّاز الاسفنجي ستُبطئ، وتكاد تتوقف. ثم لم تتوقف، بل ضغطت عليه، وأرخت، ثم ضغطت مرة أخرى، إلى أن جاء بقوة لدرجة شَعَر فيها أن طبلة أذنه فرقعت.

"يا للهول"، قال بصوت مرتجف عندما أصبح قادراً على الكلام من جديد. "أين تعلّمتِ *هذا*؟".

"كشّافة الفتيات"، قالت بدلال.

كانت قد أعدَّت طبق ستروغانوف تركته يغلي ببطء أثناء مرحلة الحمّام، ولويس، الذي كان ليُقسِم عند الساعة الرابعة أنه لن يأكل شيئاً قبل بضعة أشهر بالحد الأدنى، أكل مقدار وجبتين.

بعد ذلك، قادته إلى الطابق العلوي مرة أخرى.

"الآن"، قالت، "دعنا نرى ماذا يمكنك أن تفعل *لي*".

عند أخذ كل الأمور بعين الاعتبار، وجد لويس أنه ارتقى إلى مستوى الأحداث بشكل جيد جداً.

بعد ذلك، ارتدت رايتشل بيجامتها الزرقاء القديمة. وارتدى لويس قميصاً خفيفاً وسروالاً قطنياً قصيراً بلا شكل وذهب ليُحضر الولدين.

أرادت مِيسِي داندريدج أن تعرف عن الحادث، وصوَّره لها لويس

بتفاصيل أقل مما ستقرأه في صحيفة الغد على الأرجح. لم يكن يحبّ فعل هكذا أمور – فهذا يُشعره كأنه يقوم بأسوأ أصناف الثرثرة – لكن مِيسِي رفضت قبول أي مال لمجالستها الولدين، وكان ممنوناً لها على الأمسية التي تشاركها مع رايتشل.

استغرق غايدج في نومه قبل أن يجتاز لويس الكيلومتر والنصف الذي يفصل بين منزل مِيسِي ومنزلهم، وكانت إيليه تتثاءب وعيناها شاردتين. وَضَع حفاضاً نظيفاً لغايدج، وألبسه بيجامته، ومدَّده في مَهده. ثم قرأ قصةً لإيليه. كالعادة، طالَبت بصخب بقصة *أين هي الأشياء المتوحشة*، بما أنها شيء متوحش متمرِّس. أقنَعها لويس بالاكتفاء بقصة *القط في القبعة*. وقد غفت بعد خمس دقائق من حَمله لها إلى الطابق العلوي، وضعتها رايتشل في سريرها.

عندما عاد ونزل إلى الطابق السفلي، كانت رايتشل تجلس في غرفة الجلوس مع كوب حليب. وإحدى روايات دوروثي سايرز مفتوحة على فخذٍ طويلٍ.

"لويس، هل أنت بخير حقاً؟".

"حبيبتي، أنا بخير"، قال. "وشكراً. على كل شيء".

"هدفنا الإرضاء"، قالت بابتسامة متقوِّسة قليلاً. "هل ستذهب إلى منزل جاد لتناول بعض شراب الشعير؟".

هزَّ رأسه. "ليس الليلة. أنا مرهَق كلياً".

"آمل أن يكون لي دور في إرهاقك".

"أعتقد ذلك".

"أحضِر لنفسك كوب حليب إذاً أيها الطبيب، وهيا لننام".

اعتقَد أنه سيبقى مستيقظاً لفترة طويلة، مثلما كان يحصل معه في

أغلب الأحيان عندما كان طالباً متدرِّباً، والأيام الصعبة تدور وتدور في ذهنه. لكنه انزلق بسلاسة نحو النوم، كما لو أنه جالس على لوح تزلّج عديم الاحتكاك. قرأ في مكان ما أن الإنسان يحتاج كمعدل وسطي إلى سبع دقائق فقط ليُطفئ كل البدّالات ويفصل نفسه عن هموم اليوم. سبع دقائق لكي يتبادل الوعي واللاوعي الأدوار، مثل الجدار السري في المنزل المسكون بالأشباح في مدينة الملاهي. هناك شيء مُوحِش قليلاً في ذلك.

كان قد أوشك على الوصول إلى هناك عندما سمِع رايتشل تقول، كما لو أنها تتكلَّم من مسافة بعيدة، "- بعد الغد".

"ماذا؟".

"جولاندر. الطبيب البيطري. سيأخذ تشرش بعد الغد".

"آه". تشرش. استفد من خصيتيك يا عزيزي تشرش بينما لا تزالان معك. ثم انزلَق بعيداً عن كل شيء، نزولاً في حفرةٍ، وغفا عميقاً ومن دون أحلام.

الفصل 16

أيقظه شيء بعد ذلك بوقت طويل، صوت تحطّم صاخب كفاية ليجعله يستوي جلوساً على السرير، ويتساءل إن سقطت إيليه على الأرض أو انطوى مَهد غايدج على نفسه. ثم أبحَر القمر من خلف سحابةٍ، مُغرقاً الغرفة بضوء أبيض بارد، ورأى فيكتور باسكاو يقف عند الباب. كان صوت التحطّم نابعاً عن فتح باسكاو الباب عنوةً.

وَقَف هناك برأسه المحطَّم خلف صدغه الأيسر، وقد جفَّ الدم على وجهه راسماً خطوطاً كستنائية مثل طلاء الهندي المحارب على جسده، ونتأت ترقوته بشكل شاحب. كان يبتسم.

"بالله عليك أيها الطبيب"، قال باسكاو. "هناك أماكن علينا زيارتها".

نظر لويس حوله. كانت زوجته نتوءاً غامضاً تحت لحافها الأصفر، تنام نوماً عميقاً. عاد والتفَت إلى باسكاو، الذي كان ميتاً لكن غير ميت بطريقة ما. لكن لويس لم يشعر بأي خوف. وأدرَك السبب تقريباً حالاً.

إنه حلم، قال لنفسه، وارتاح عندما أدرَك أنه كان خائفاً في النهاية. *الموتى لا يعودون؛ هذا مستحيل بدنياً. هذا الشاب يقبع في جارور تشريح الجثة في بانغور وعليه وشم أخصائي عِلم الأمراض – شقٌّ شكله Y أُعيدت خياطته. الأرجح أن أخصائي عِلم الأمراض رمى دماغه في تجويف صدره بعدما أخذ عيّنة من النسيج وملأ تجويف الجمجمة بورق بني لمنع التسرُّب – هذا أبسط من محاولة إعادة ملاءمة الدماغ في الجمجمة مثل قطعة أحجية.* أخبرَه العمّ كارل، والد رُوثي المشؤومة، أن أخصائيي عِلم الأمراض يفعلون ذلك، وكافة أصناف

المعلومات العشوائية الأخرى التي افترَض أنها ستسبِّب أهوالاً صارِخةً لرايتشل، بسبب رُهابها من الموت. لكن باسكاو لم يكن هنا – هذا مُحال يا عزيزتي. كان باسكاو في صندوق مبرَّد وبطاقة تعريف معلَّقة بإصبع قدمه. *ومن المؤكَّد أنه لا يرتدي شورت الهرولة الأحمر هناك*.

لكن الرغبة بالنهوض كانت قوية. فقد كانت عينا باسكاو عليه.

رفع غطاء السرير عنه ولوَّح قدمَيه إلى الأرض. أحدثت السجادة المعقوفة – وهي هدية عرسه من جَدّة رايتشل منذ زمن طويل – بعض القشعريرة الباردة في قدمَيه. للحلم واقعٌ باهرٌ. كان حقيقياً لدرجة أنه لن يتبع باسكاو إلى أن استدار باسكاو وبدأ بنزول السلالم مرة أخرى. كانت الرغبة باللحاق به قوية، لكنه لم يرغب أن يُلمَس، حتى في حلمٍ، من جثة تسير.

لكنه *لحق به*. تلألأ شورت هرولة باسكاو.

اجتازا غرفة الجلوس، غرفة الطعام، المطبخ. توقَّع لويس أن يفتح باسكاو القفل ثم يرفع مزلاج الباب الذي يربط المطبخ بالحظيرة حيث يركن سيارتَي الستايشن والسيفيك، لكن باسكاو لم يفعل شيئاً من هذا القبيل. وبدلاً من فتح الباب، اخترقه بكل بساطة. وفكَّر لويس وهو يراقبه ببعض الدهشة: *هل هكذا يتم الأمر؟ رائع! أي شخص يستطيع فعل ذلك!*

حاوَل أن يفعل ذلك هو أيضاً – واستمتع قليلاً من اصطدامه بالخشب. يبدو أنه شخص واقعي عنيد، حتى في أحلامه. برمَ لويس مسكة قفل الباب، ورفع المزلاج، ودخل الحظيرة-المرأب. لم يكن باسكاو هناك. تساءل لويس لبرهة إن كان باسكاو قد زال من الوجود ببساطة. الأشخاص في الأحلام يفعلون ذلك في أغلب الأحيان. وكذلك الأماكن أيضاً – ففي لحظة تكون واقفاً عارياً قرب حوض

سباحة مستشاراً كلياً، تناقش احتمالات مقايضة الزوجة مع، مثلاً، روجر ومِيسِي داندريدج؛ ثم تطرف عيناك وتجد نفسك تتسلَّق سفح بركان في هاواي. ربما أضاع باسكاو لأن هذه بداية الفصل الثاني.

لكن عندما خرَج لويس من المرأب، رآه مرة أخرى، واقفاً في ضوء القمر الباهت عند الجهة الخلفية للمَرجة - عند رأس المسار.

اعتراه الخوف الآن، داخلاً بهدوء، متفحِّصاً الأماكن المجوَّفة في جسمه ومالئاً إياها بدخان قذر. لم يرغب أن يصعد إلى هناك. توقَّف.

ألقى باسكاو نظرة خلفية سريعة فوق كتفه، وكانت عيناه فضيتين في ضوء القمر. شَعَر لويس برعب ميؤوس منه يزحف في بطنه. تلك العظمة الناتئة، بُقع الدم الجافّ تلك. لكن لا جدوى من مقاومة تلك العينين. من الواضح أن هذا حلمٌ عن تنويمه مغنطيسياً، عن الهَيمنة عليه... عن عدم قدرته على تغيير الأمور، ربما، مثلما كان غير قادر على تغيير حقيقة موت باسكاو. يمكنك أن تدرس عشرين سنة في الكلّية وستظل غير قادر على فعل شيء عندما يُحضرون لك شاباً اصطدم بشجرة بقوة كافية لفتح نافذة في جمجمته. كان يجدر بهم أن يطلبوا سمكرياً، أو جالب مطرٍ، أو "الرجل من غلاد".

وحتى مع مرور تلك الأفكار في باله، كان منجذباً إلى المسار. تبَع شورت الهرولة، الكستنائي في هذا الضوء مثل الدم الجاف على وجه باسكاو.

لم يعجبه هذا الحلم. على الإطلاق. كان حقيقياً جداً. القشعريرة الباردة على السجادة، عدم قدرته على عبور باب الحظيرة عندما يكون بإمكان الشخص (أو يجب أن يكون قادراً على) المرور عبر الأبواب والجدران في أي حلم يحترم نفسه... والآن ملمس الندى البارد على قدمَيه العاريتين، ورياح الليل، مجرد نفخة منها، على جسمه، الذي كان

عارياً ما عدا من لباسه الداخلي. بعدما أصبح تحت الأشجار، وإبر الصنوبر تلتصق بكَعبَي قدمَيه... تفصيل صغير آخر كان حقيقياً أكثر بقليل مما يجب أن يكون.

لا تهتمّ. لا تهتم. أنا في المنزل وعلى سريري. هذا مجرد حلم، مهما يكن برّاقاً، ومثل كل الأحلام الأخرى، سيبدو مضحكاً في الصباح. سيكتشف ذهني الواعي عدم تناغماته.

الغصن الصغير لشجرة ميتة نكزَ ذراعه بفظاظة وجفَل. أمامه، كان باسكاو مجرد ظل متحرّك، وبدا رعب لويس كأنه تبلَّر الآن في منحوتة ساطعة في ذهنه: *أنا أتبع رجلاً ميتاً إلى الغابة، أنا أتبع رجلاً ميتاً صعوداً إلى مقبرة الحيوانات، وهذا ليس حلماً. يا للهول، هذا ليس حلماً. هذا يحصل حقاً.*

نزَلا الجهة البعيدة للتلة المشجَّرة. وراح المسار يتقوَّس تقوّسات كسولة بين الأشجار ثم هبَط إلى الخميلة. لا أحذية الآن. تحلَّلت الأرض إلى هلام بارد تحت قدمَيه، مُمسكٍ وقابضٍ، ولا يفلته إلا على مضض. كانت هناك أصوات مصّ بشعة. وبإمكانه أن يشعر بالوحل يرشح بين أصابع قدمَيه، محاولاً الفصل بينها.

حاوَل بيأس التمسّك بفكرة الحلم.

لم يستطع.

وَصَلا إلى الفسحة، وأبحَر القمر بحرية بعيداً عن سُحُبه مرة أخرى، مُغرِقاً المقبرة بسطوع شنيع. الشواهد المائلة - بعض الألواح الخشبية والصفائح التي تم قصّها بواسطة مجزّة والدٍ ثم طُرِقَت إلى أشكال مربعة خشنة، قِطع مهترئة من الطَفَل الصخري والأردواز - بَرَزت بوضوح ثلاثي الأبعاد، مُلقيةً ظلالاً سوداء تماماً.

توقَف باسكاو قرب "القط سْماكي، كان مطيعن" واستدار نحو

لويس. الرعب، الرعب، شَعَر بأن هذه الأشياء ستزداد فيه إلى أن ينفجر جسمه تحت ضغطها الناعم لكن الشرِس. كان باسكاو يبتسم، وشفتاه الدمويتان متجعّدتين بعيداً عن أسنانه، وسُمرته الصحية التي تشبه سُمرة عمّال الطرقات اضمحلت في ضوء القمر النحيل وطغى عليها بياض جثة ستُلفّ بكَفَنها عما قريب.

رَفَع ذراعاً وأشار. نظَرَ لويس في ذلك الاتجاه وأنَّ. اتّسعت عيناه، وحشَر مفاصل أصابعه في فمه. كانت هناك برودة على خدّيه، وأدرَك أنه بدأ يبكي من شدّة رعبه.

الأشجار الساقطة التي حذَّر جاد كراندال إيليه منها أصبحت كومة عظام. كانت العظام تتحرَّك. تتلوَّى وتطرق ببعضها، فُكوك سفلية وعظام أفخاذ وزنود وأضراس وقواطع؛ رأى الجماجم المبتسمة لبشرٍ وحيواناتٍ. عظام أصابع تقعقع. هنا بقايا قدم انثنت مفاصلها الشاحبة.

آه، كانت تتحرَّك؛ كانت *تتسلَّل* -

كان باسكاو يسير نحوه الآن، ووجهه الدموي متجهّم في ضوء القمر، وبدأت بقايا ذهن لويس المتماسك تنزلق في أفكار دائرية منتحِبة: *عليك أن تصرخ على نفسك لتستيقظ. لا يهمّ إن أخفتَ رايتشل إيليه غايدج. أيقظ المنزل بأكمله، الحيّ بأكمله. عليك أن تصرخ على نفسك لتستيقظ؛ تصرخ تصرخ تصرخ على نفسك لتستيقظ لتستيقظ لتستيقظ* -

لكن لم يخرج منه إلا همس خافت من الهواء. كان صوت ولد صغير يجلس محدودباً في مكان ما ويحاول تعليم نفسه كيف يصفِّر.

اقترب باسكاو ثم تكلَّم.

"لا يجب فتح الباب"، قال باسكاو. كان يُخفض نظره نحو لويس

لأن لويس سقط على رُكبتيه. لم يعد يبتسم. كانت هناك نظرة على وجهه أساء لويس تفسيرها في البدء بأنها شفقة. لم تكن شفقة أبداً؛ مجرد نوع مُرعِب من الصبر. ومع ذلك أشار إلى كومة العظام المتحرِّكة. "لا تذهب أبعد من هناك، مهما شعرتَ أنك بحاجة إلى فعل ذلك أيها الطبيب. لم يُصنَع الحاجز لكي يُكسر. تذكَّر هذا: الطاقة هنا أقوى مما تعرف. إنها قديمة ومضطربة دائماً. تذكَّر".

حاوَل لويس مرة أخرى أن يصرخ. لم يستطع.

"لقد جئتُ كصديق"، قال باسكاو - لكن هل كانت *صديق* الكلمة التي استخدَمها باسكاو فعلاً؟ لم يظن لويس ذلك. كان كما لو أن باسكاو تكلَّم بلغة أجنبية يستطيع لويس فهمها من خلال أعجوبة في الحلم... وكلمة *صديق* كانت أقرب شيء استطاع ذهن لويس التوصّل إليه للكلمة التي قالها باسكاو في الواقع. "دمارك ودمار كل الذين تحبّهم قريب جداً أيها الطبيب". كان قريباً بما فيه الكفاية لكي يتمكن لويس من شمّ رائحة الموت عليه.

باسكاو، يمدّ يده إليه.

الطقطقة الناعمة المجنِّنة للعظام.

بدأ لويس يفقد توازنه في جهده للابتعاد عن تلك اليد. ارتطمت يده بنصب تذكاري وأمالته إلى الأرض. وجه باسكاو، المائل نزولاً، ملأ السماء.

"أيها الطبيب - *تذكَّر*".

حاوَل لويس أن يصرخ، وبدأ العالم يدور من حوله - لكنه بقي يسمع طقطقة العظام المتحرِّكة في سرداب الليل المُقمِر.

الفصل 17

يحتاج الإنسان العادي إلى سبع دقائق لكي يغفو، لكن وفقاً للفيزيولوجيا البشرية، يحتاج نفس الإنسان العادي من خمس عشرة إلى عشرين دقيقة لكي يستيقظ، كما لو أن النوم حوضٌ الخروج منه أصعب بكثير من دخوله. عندما يستيقظ النائم، يحصل ذلك تدريجياً، من نوم عميق إلى نوم خفيف إلى ما يسمّى أحياناً "نوم اليقظة"، وهي حالة يستطيع فيها النائم أن يسمع الأصوات وحتى يردّ على الأسئلة من دون أن يُدرك ذلك لاحقاً... ما عدا ربما كأجزاء من حلمٍ.

سِمع لويس طقطقة العظام وخشخشتها، لكن ذلك الصوت أصبح تدريجياً حادّاً أكثر، معدنياً أكثر. كان هناك دويّ. صياح. مزيد من الأصوات المعدنية... شيء يتدحرج؟ *بالتأكيد*، وافَق ذهنه المنجرِف. *دحرجِ تلك العظام.*

سِمع إبنته تنادي، "أحضِرها يا غايدج! اذهب واحضِرها!".

وقد تبع ذلك صياح ابتهاج غايدج، وكان هو الصوت الذي فتَح لويس عينيه عليه ورأى سقف غرفة نومه.

بقي جامداً تماماً في وضعيته، ينتظر الواقع، الواقع الجيد، الواقع *السعيد*، لكي يحلّ عليه بالكامل.

كله حلمٌ. مهما يكن فظيعاً، مهما يكن حقيقياً، كان كله حلماً. مجرد أحفورية في الذهن تحت ذهنه.

عاد الصوت المعدني مرة أخرى. كان من إحدى سيارات غايدج اللعبة أثناء دحرجتها في رواق الطابق العلوي.

"أحضِرها يا غايدج!".

"*أحضِرها!*"، صاح غايدج. "*أحضِرها – أحضِرها – أحضِرها!*".

دبيب–دبيب–دبيب. قدما غايدج الصغيرتان العاريتان تدوّيان في الرواق. كان وإيليه يقهقهان.

نظرَ لويس إلى يمينه. كانت جهة رايتشل من السرير فارغة، والغطاء مُزاح، والشمس قد أشرقت كثيراً. ألقى نظرة سريعة على ساعته ورأى أنها الساعة الثامنة تقريباً. لقد تركته رايتشل يُطيل في النوم... لهدفٍ ما على الأرجح.

كان هذا ليزعجه عادة، لكن ليس هذا الصباح. أخذ نَفَساً عميقاً ثم زفره، وكان مسروراً في الوقت الحاضر من استلقائه هنا وضوء الشمس يشعّ عبر النافذة، ويشعر بالنسيج الجليّ للعالم الحقيقي. راحت حبّات الغبار ترقص في أشعة الشمس.

نادت رايتشل نحو الطابق العلوي: "من الأفضل لك أن تنزلي وتتناولي وجبتك الخفيفة وتخرجي للقاء الحافلة يا إيليه".

"حسناً!". الطقطقة الصاخبة أكثر لقدمَيها. "إليك سيارتك يا غايدج. عليَّ أن أذهب إلى المدرسة".

بدأ غايدج يصيح بسخط. رغم أن كلامه لم يكن مفهوماً – إلا أن الكلمات الوحيدة الواضحة هي *غايدج*، *سيارة*، *أحدِرها*، و *إيليه حافلة* – بدا قصده واضحاً كفاية: يجب أن تبقى إيليه. وبإمكان التعليم العام الاستراحة لهذا اليوم.

صوت رايتشل مرة أخرى، "أيقظي أباك قبل أن تنزلي يا إيليه".

دخَلت إيليه، بشعرها المربوط على شكل ذيل حصان، ومرتديةً فستانها الأحمر.

"أنا مستيقظ يا حبيبتي"، قال. "اذهبي واستقلّي حافلتك".

"حسناً يا بابا". اقتربت منه وقبّلت خده الرثّ قليلاً، وهرعت نحو السلالم.

كان الحلم قد بدأ يضمحل، يخسر تماسكه. شيء جيد أيضاً.

"غايدج!"، صاح. "تعال واعطِ أباك قبلةً!".

تجاهَل غايدج ذلك. كان يلحق إيليه إلى الطابق السفلي بأسرع ما يمكنه وهو يصيح، "أحضِرها! أحضِرها-أحضِرها-أحضِرها!" بأعلى صوته. لم يتمكن لويس سوى من لمح جسم ولده الصغير المتين، المكسو فقط بحفاض الأطفال وبنطلون مطاطي.

نادت رايتشل مرة أخرى، "لويس، هل كان هذا أنت؟ هل أنت مستيقظ؟".

"أجل"، قال وهو يستوي جالساً.

"أخبرتُك أنه مستيقظ!"، صاحت إيليه. "أنا ذاهبة. إلى اللقاء!".

صوت خبط الباب الأمامي وصياح غايدج الغاضب أكَّد ذلك.

"بيضة واحدة أم بيضتان؟"، نادت رايتشل.

رفع لويس البطانية عنه ولوَّح قدمَيه إلى نتوءات السجادة المعقوفة، جاهزاً ليُخبرها أنه لن يتناول البيض، بل مجرد وعاء حبوب ويغادر على الفور... لكن الكلمات ماتت في حنجرته.

كانت قدماه قذرتين بالتراب وإبر الصنوبر.

وَثَب قلبه إلى حنجرته مثل عفريت العلبة المجنون. تحرَّك سريعاً، بعينين محملقتين، وأسنان تعضّ بلا وعي على لسانه، ورفع الغطاء عنه كلياً. كان أسفل السرير مليئاً بالإبر. والملاءة موحِلة وقذرة.

"لويس؟".

رأى بعض إبر الصنوبر التائهة على رُكبتَيه، ونظَرَ فجأةً إلى ذراعه اليمنى. كان هناك خدش على ذراعه، خدش حديث، تماماً حيث نكزه الغصن الميت... في الحلم.

سأصرخ. يمكنني الشعور بذلك.

كانت الصرخة تزأر من الداخل، لا شيء سوى طلقة باردة كبيرة من الخوف. تلألأ الواقع. الواقع – *الواقع الحقيقي*، فكّر في سرّه – كان تلك الإبر، القذارة على الملاءة، الخدش الدموي على ذراعه العارية.

سأصرخ ثم سأُصاب بالجنون ولن أضطر إلى القلق بشأن ذلك بعد الآن –

"لويس؟". كانت رايتشل تصعد السلالم. "لويس، هل عدتَ إلى النوم؟".

تصارع مع نفسه في تلك الثانيتين أو الثواني الثلاثة؛ حارَب لنفسه بتجهّم تماماً مثلما فعل في لحظات الإرباك الهادر تلك بعدما أُحضِر باسكاو إلى المركز الطبي، وهو يُحتضَر على بطانية. فاز. الفكرة التي رجّحت كفّة الميزان كانت أنها لا يجب أن تراه بهذه الحال، بقدمَين موحِلتين مليئتين بالإبر، والبطانية القذرة مرمية على الأرض.

"أنا مستيقظ"، نادى بابتهاج. كان لسانه ينزف من العضّة المفاجئ اللا إرادية. راح ذهنه يدور، وفي مكان ما في أعماقه، بعيداً عن الأحداث، تساءل إن كان دائماً على مسافة قريبة جداً من هكذا لاعقلانية مجنونة؛ إن كان الجميع هكذا أيضاً.

"بيضة واحدة أم بيضتان؟". كانت قد توقَفت على الدرجة الثانية أو الثالثة. الحمد لله.

"بيضتان"، قال، وهو بالكاد يُدرك ماذا كان يقول. "مخفوقتان".

"عظيم"، قالت، وعادت إلى الطابق السفلي.

أغمضَ عينيه لبرهة ارتياحاً، لكنه رأى عينَي باسكاو الفضيتين في الظلمة. أعاد فتح عينيه بسرعة. بدأ لويس يتحرَّك بسرعة، ليطمس المزيد من الأفكار. نزع الأغطية عن السرير. كانت البطانية نظيفة. فصَل الملائتين، وكوّرَها، وأخذها إلى الرواق، ورماها في أنبوب الغسيل.

دخل الحمّام وهو يركض تقريباً، وفتح حنفية الدُش بسرعة، ووقف تحت الماء الساخن إلى درجة الغليان تقريباً، غير متيقظٍ. غسَل الأوساخ عن قدمَيه ورِجليه.

بدأ يشعر بتحسّن، باستعادته رباطة جأشه. بينما راح يجفِّف نفسه، تفاجأ من إدراكه أن هذا هو شعور القتلة بلا شك عندما يقتنعون أنهم تخلّصوا من كل الأدلة. بدأ يضحك. واصلَ تجفيف نفسه، لكنه واصلَ الضحك أيضاً. بدا أنه لا يسعه التوقف عن ذلك.

"أنتَ فوق!"، نادت رايتشل. "ما المضحك إلى هذا الحد؟".

"نكتة شخصية"، صاح لويس ردّاً عليها، وهو لا يزال يضحك. كان خائفاً، لكن الخوف لم يوقف الضحك. أتاه الضحك، صاعداً من بطن كان صلباً كالأحجار المثبَّتة في جدار. خطَر بباله أن دفع الملاءتين في أنبوب الغسيل كان أفضل شيء على الإطلاق يستطيع أن يفعله. كانت مِيسِي داندريدج تأتي خمسة أيام في الأسبوع لكي تنظِّف البيت وتغسل الغسيل. لذا فإن رايتشل لن ترى أبداً تلك الملاءتين إلى أن تعيد بسطهما على السرير - نظيفتين. افترَض أنه من الممكن أن تذكر مِيسِي أمرهما لرايتشل، لكنه لم يعتقد ذلك. فهي ستهمس لزوجها على الأرجح أن الزوجين كريد يلعبان لعبة جنسية غريبة تتضمن وحلاً وإبر صنوبر بدلاً من الرسم على الجسم.

هذه الفكرة جَعَلت لويس يضحك بقوة أكبر.

تلاشت آخر القهقهات والضحكات بينما ارتدى ملابسه، وأدرَك أنه يشعر بتحسّن قليل. لم يعرف كيف يُعقَل ذلك. بدت الغرفة عادية الآن ما عدا من السرير المعرَّى. لقد تخلَّص من السم. ربما الدليل كان في الواقع الكلمة التي كان يبحث عنها، لكنها بدت مثل سم في ذهنه.

اعتبرَ أن هذا ربما ما يفعله الأشخاص بالأشياء المتعذَّر تفسيرها.

هذا ما يفعلونه بالأشياء غير المنطقية التي ترفض أن تُفكَّك إلى الأسباب والمسبِّبات العادية التي تدير العالم الغربي. ربما هكذا يتكيَّف ذهنك مع الصحن الطائر الذي تراه يحوم بصمت فوق حقلك الخلفي في صباح أحد الأيام، مع مطر الضفادع، مع اليد التي تلمس قدمك العارية من تحت السرير في هَدأة الليل. كانت هناك نوبة قهقهة أو نوبة بكاء... وبما أنها كانت ذاتها التي لا تُمَسّ حرمتها ولن تُفكَّك، تجاوزتَ الرعب سليماً معافى، مثل حصاة الكُلية.

كان غايدج على كرسيه، يأكل رقائق ذرة بالكاكاو ويزخرف الطاولة بها. كان يزخرف الحصيرة البلاستيكية تحت كرسيه المرتفع برقائق الذرة بالكاكاو، وعلى ما يبدو يستحمّ بها.

خرَجت رايتشل من المطبخ حاملةً بيضه وكوب قهوة. "عما كانت النكتة الكبيرة يا لُو؟ كنتَ تضحك كمعتوه فوق. أخفتني قليلاً".

فتَح لويس فمه من دون أي فكرة عما كان سيقول، وما خرج منه أنها كانت نكتة سمِعها الأسبوع الفائت في السوق الذي عند الناصية، نكتة عن خيّاط اشترى ببغاء لا يقول إلا "زوجتك تخونك".

حين انتهى، كانت رايتشل تضحك أيضاً - وكذلك غايدج.

ممتاز. لقد تدبَّر بطلنا أمر كل الأدلة، وبدهاء: الملاءتين الموحِلتين والضحك المعتوه في الحمّام. سيقرأ بطلنا الصحيفة الآن - أو على الأقل ينظر إليها - مُعيداً ارتداء قناع الحالة السويّة الصباحية.

بناءً على هذا، فتَح لويس الصحيفة.

هذا ما تفعله، بالضبط، فكَّر في سرّه بارتياح غير محدود. *تمرّره مثل حصاة، وتنتهي الأمور عند هذا الحد... إلا إذا حضرتَ حفلة سمر حول نار في الهواء الطلق مع بعض الأصدقاء في ليلةٍ ذات رياح قوية*

وفُتح موضوع الأحداث المتعذّر تفسيرها. لأنه في حفلات السمر حول النيران في الهواء الطلق عندما تكون الرياح قوية، يكون الكلام رخيصاً.

أكَل بيضه. قبَّل رايتشل وغايدج. وألقى نظرة سريعة على خزانة الغسيل المربعة البيضاء الموجودة عند أسفل الأنبوب أثناء مغادرته. كان كل شيء على ما يرام. ضربة قاضية صباحية أخرى. أظهَرَ أواخر الصيف كل دلالات مواصلة ذلك إلى الأبد، وكان كل شيء على ما يرام. ألقى نظرة سريعة على المسار بينما أخرجَ السيارة من المرأب، لكنه كان على ما يرام أيضاً. لم يحُد قيد أنملة أبداً. لقد مرَّرته مثل حصاة.

كان كل شيء على ما يرام إلى أن قطعَ ستة عشر كيلومتراً على الطريق، ثم أصابته الاهتزازت بقوة لدرجة أنه اضطر أن يخرج عن الطريق 2 ويدخل مرأب سيارات سينغز، المطعم الصيني غير البعيد عن مركز ماين الشرقية الطبي، الذي يكون مهجوراً في الصباح – حيث ستؤخذ جثة باسكاو. إلى مركز ماين الشرقية الطبي، طبعاً، وليس سينغز. لن يأكل ڤيك باسكاو أي طعام صيني أبداً بعد الآن.

الاهتزازات فتلت جسمه، مزَّقته، تلاعبت به. شَعَر لويس أنه عاجز ومرتعب – ليس مرتعباً من أي شيء خارق، ليس في أشعة الشمس الساطعة هذه، بل فقط مرتعب من احتمال فقدانه عقله. شَعَر كما لو أن هناك سلكاً طويلاً غير مرئي يُلَفّ حول جسمه.

"كفى"، قال. "رجاءً، كفى".

بحَث بارتباك بين الإذاعات ووجد جوان بايز تغني عن الماسات والصدأ. صوتها العذب الجميل هدّأ له أعصابه، وحين انتهت، شَعَر أنه يمكنه مواصلة القيادة.

عندما وصل إلى المركز الطبي، اتصل ليصبِّح على شارلتون ثم

توارى في الحمّام، مقتنعاً أن مظهره لا بد وأن يكون كارثياً. ليس تماماً. كان لديه تجويف صغير تحت العينين، لكن حتى رايتشل لم تلاحظ ذلك. رشَّ بعض الماء البارد على وجهه، وجفَّفه، ومشَّط شعره، ودخَل مكتبه.

كان ستيف ماسترتون والطبيب الهندي، سورندرا هاردو، هناك، يشربان القهوة ويستعرضان الملف الأمامي.

"صباح الخير يا لُو"، قال ستيف.

"صباح الخير".

"لنأمل ألا يكون مثل صباح الأمس"، قال هاردو.

"هذا صحيح، لقد فاتتك كل الإثارة".

"سورندرا شهد الكثير من الإثارة ليلة أمس أيضاً"، قال ماسترتون مبتسماً. "أخبِره يا سورندرا".

لمَّع هاردو نظّاراته، مبتسماً. "أحضَر شابان صديقتهما حوالي الساعة الواحدة صباحاً"، قال. "كانت سعيدة جداً بثمالتها؛ تحتفل بعودتها إلى الجامعة. وقد جرحت أحد فخذَيها جرحاً بليغاً، وأخبرتها أنها ستحتاج إلى أربع غُرَز على الأقل، بلا ندبة. خيّطني، قالت لي، ففعلتُ ذلك، مُنحنياً هكذا –"

وضَّح لهما هاردو انحناءه احتراماً فوق فخذ غير مرئي. بدأ لويس يبتسم، مستشعراً ما سيأتي لاحقاً.

"وبينما كنتُ أخيطها، تقيأت على رأسي".

انفجر ماسترتون ضحكاً. وكذلك فعل لويس. ابتسم هاردو بهدوء، كما لو أن هذا حصل معه آلاف المرات.

"سورندرا، منذ متى وأنت مناوِب؟"، سأل لويس، عندما توقف الضحك.

"منذ منتصف الليل"، قال هاردو. "كنتُ على وشك المغادرة. لكنني أردتُ أن أمكث قليلاً لألقي التحية عليك مرة أخرى".

"حسناً، صباح الخير"، قال لويس، وهو يصافح يده البنية الصغيرة. "عد إلى المنزل الآن ونَم قليلاً".

"كدنا ننتهي من الملف الأمامي"، قال ماسترتون. "قل الحمد لله يا سورندرا".

"معتقداتي تختلف عن معتقداتكما"، قال هاردو، مبتسماً.

"غنّي لنا إذاً جوقة 'الكارما الفورية' أو شيء من هذا القبيل".

"لتُشرِقا معاً"، قال هاردو، وهو لا يزال يبتسم، وانزلق من الباب.

بقي لويس وستيف ماسترتون يراقبان رحيله بصمت، ثم نظرا إلى بعضهما البعض. عادا وانفجرا ضحكاً. بالنسبة للويس، لم يضحك بهذا الشكل الجيد أبداً من قبل... بهذا الشكل الطبيعي.

"لحسن الحظ أننا أنهينا الملف"، قال ستيف. "اليوم هو اليوم الذي نضع فيه حصيرة الترحيب بمروِّجي المخدرات".

أومأ لويس برأسه. سيبدأ أوائل باعة المخدرات بالقدوم عند العاشرة. مثلما يُحبّ ستيف أن يقول، الأربعاء قد يكون يوم أمير المعكرونة، لكن في جامعة ماين كل ثلثاء أشبه بإنزال النورماندي، لكن الهجوم يكون على الدارفون، وهو أكثر صنف مفضَّل.

"نصيحة، يا أيها الزعيم العظيم"، قال ستيف. "لا أعرف كيف هم أولئك الشباب في شيكاغو، لكن هنا سينقضّون على أي شيء تقريباً، من رحلات الصيد المدفوعة جميع مصاريفها في ألاغاش في نوفمبر إلى مباريات البولينغ المجانية في الصالات العائلية في بانغور. ذات مرة، حاول شابٌ إعطائي إحدى الدمى الجنسية تلك القابلة للنفخ. أنا! وأنا مجرد مساعد طبيب! إذا لم يتمكنوا من بيعك بعض

المخدرات، سيقودونك إليها".

"كان عليك أن تأخذ الدمية الجنسية".

"لا، كانت حمراء الشعر. ليست ذوقي المفضَّل".

"حسناً، أوافق مع سورندرا"، قال لويس. "طالما أن الوضع لن يكون كالبارحة".

الفصل 18

عندما لم يحضر مندوب أبجون عند العاشرة، يئس لويس من الانتظار واتصل بمكتب أمين السجل. تكلَّم مع سيدة تدعى ستايبلتون قالت إنها سترسل له نسخة من ملف فيكتور باسكاو الجامعي فوراً. عندما أغلق لويس السمّاعة، كان شاب أبجون هناك. لم يحاول إعطاء لويس أي شيء، بل سأله فقط إن كان مهتماً بشراء تذكرة موسم لمباريات فريق نيو إنغلاند باتريوت بسعر مخفَّض.

"لا"، قال لويس.

"لم أعتقد أنك ستشتري"، قال شاب أبجون بتجهّم وغادر.

عند الظهر، صعد لويس إلى مطعم وكر الدب وجلب شطيرة سمك طون ومشروباً غازياً، وعاد بهما إلى مكتبه وأكل غداءه أثناء تصفّحه ملف باسكاو. كان يبحث عن رابطٍ مع نفسه أو مع شمالي لادلو، حيث توجد مقبرة الحيوانات... افترَض أنه اعتقاد غامض بأنه يجب أن يكون هناك شرحٌ منطقيٌ حتى لهكذا حادثة غريبة. ربما الشاب ترعرع في لادلو - وربما حتى دفن كلباً أو قطاً هناك.

لم يجد الرابط الذي كان يبحث عنه. كان باسكاو من بيرغنفيلد، نيوجيرسي، وأتى إلى جامعة ماين ليدرس الهندسة الكهربائية. في تلك الأوراق القليلة، لم يستطع لويس رؤية أي رابط محتمل بينه وبين والشاب الذي مات في غرفة الاستقبال - غير الرابط المميت، بالطبع.

امتصّ آخر نقاط المشروب الغازي من كوبه، وهو يستمع إلى القشة تفرقع في القعر، ثم رمى كل نفاياته في سلة المهملات. كان الغداء خفيفاً، لكنه أكَله بشهية. لا عيب في ذلك، على جميع الأحوال... ولا عيب في الطريقة التي شعَر بها، حقاً. ليس الآن. لم

تتكرَّر الاهتزازات، والآن حتى رعب ذلك الصباح بدأ يبدو أشبه بمفاجأة بغيضة عديمة الفائدة، أشبه بحلم، من دون عواقب.

راح يقرَع أصابعه على نشّافته، ثم هزّ كتفيه ورفع سمّاعة الهاتف مرة أخرى. اتصل بمركز ماين الشرقية الطبي وطلبَ المَشرَحة.

بعد تحويله إلى موظف قسم عِلم الأمراض، عرَّف عن نفسه وقال، "لديكم أحد طلابنا، فيكتور باسكاو –"

"ليس بعد الآن"، قال الصوت على الطرف الآخر. "لقد رحل".

انعقد لسان لويس. وتمكَّن أخيراً من أن يقول، "ماذا؟".

"أُعيدت جثته إلى والدَيه بالطائرة في وقت متأخر من ليلة أمس. أتى شاب من دار دفن بروكينغز–سميث وأخذ وصاية عليها. وَضَعوه على متن طائرة دلتا..." – صوت أوراق تُقلَب – "دلتا الرحلة 109. أين ظننتَ أنه ذهَب؟ ليرقص في حفلة ما؟".

"لا"، قال لويس. "لا، بالطبع لا. كان مجرد...". كان مجرد ماذا؟ بالله عليك، لماذا تتابع هذه القضية، على أي حال؟ لم تكن هناك أي طريقة عاقلة للتعامل معها. يجب صرف النظر عنها، شطبها، نسيانها. وأي شيء آخر كان يستجلب الكثير من المتاعب العديمة الفائدة. "بدا الأمر فقط سريعاً جداً"، أنهى جملته بنبرة غير مُقنِعة.

"حسناً، شُرِّحَت جثته بعد ظهر البارحة" – ذلك الصوت الخفيف لتصفّح الأوراق مرة أخرى – "حوالي الثالثة والثلث على يد الطبيب رينزويك. كان أبوه وقتها قد أنهى كل الترتيبات. أظن أن الجثة وصلت إلى نيوارك عند الثانية فجراً".

"آه. حسناً، في تلك الحالة –"

"إلا إذا أخفقت إحدى شركات النقل وأرسلتها إلى مكان آخر"، قال موظف قسم عِلم الأمراض بابتهاج. "هذا حصل من قبل،

لعِلمك، رغم أنه لم يحصل مع دلتا أبداً. دلتا جيدة جداً في الواقع. كان لدينا شاب تُوفِّي في رحلة لصيد السمك في مقاطعة أروستوك، في إحدى تلك البلدات الصغيرة التي يتألف إسمها من إحداثيين على الخريطة فقط. الأحمق اختنق بغطاء زجاجة شراب شعير بينما كان يشربها. احتاج رفيقاه إلى يومين لإخراجه من البريّة، وأنت تعرف أنها مسألة حظ وقتها إن كانت مادة حفظ الجثث ستنفع أم لا. لكنهم انطلقوا به آملين خيراً. أعادوه إلى منزله في غراند فولز، مينيسوتا، في مقصورة البضائع في إحدى الطائرات. لكن حصل خطأ، حيث شحنوه إلى ميامي أولاً، ثم إلى ديموين، ثم إلى فارغو، داكوتا الشمالية. تعقَّل أحدهم أخيراً، لكن كانت قد مرّت وقتها ثلاثة أيام أخرى. لا شيء نفعَ. كان كما لو أنهم حقنوه بإبرة عصير كُولإيد بدلاً من جاندافلو. كان الشاب أسود كلياً ورائحته تشبه رائحة لحم مشوي فاسد. هذا ما سمِعتُه، على أي حال. أُصيب ستة عتّالي أمتعة بالمرض".

ضحِك الصوت على الطرف الآخر للخط من كل قلبه.

أغمضَ لويس عينيه وقال، "حسناً، شكراً –"

"يمكنني إعطاءك رقم هاتف منزل الطبيب رينزويك إذا كنتَ تريده أيها الطبيب، لكنه عادة يلعب الغولف في أورونو عند الصباح".

"لا بأس"، قال لويس.

أغلق سمّاعة الهاتف. *فليضع هذا حدّاً للموضوع*، فكَّر في سرّه. *عندما كنتَ تحلم ذلك الحلم المجنون، أو مهما كان، كانت جثة باسكاو بكل تأكيد في ثلاجة الموتى في بيرغنفيلد. ولتكن هذه نهاية النقاش.*

أثناء عودته إلى المنزل بعد ظهر ذلك اليوم، خطر بباله أخيراً

تفسير بسيط للقذارة على أسفل السرير، مما أشعره بارتياح كبير.

لقد سار أثناء نومه لأول مرة في حياته، وذلك نتجَ عن الصُدفة غير المتوقعة والمزعجة جداً لقدوم طالب مُصاب بجروح قاتلة ثم وفاته في مشفاه خلال يومه الحقيقي الأول في الوظيفة.

هذا يفسِّر كل شيء. وقد بدا الحلم حقيقياً جداً لأن أجزاءً كبيرةً منه *كانت* حقيقية - ملمس السجادة على قدمَيه، الندى البارد، وبالطبع، الغصن الميت الذي خدش ذراعه. هذا يفسِّر لماذا كان باسكاو قادراً على المرور عبر الباب على عكسه هو.

تراءت صورة في ذهنه، صورة رايتشل تنزل إلى الطابق السفلي ليلة أمس ورؤيته يرتطم بالباب الخلفي، محاولاً المرور عبره في نومه. الفكرة جَعَلته يتسم. كان ذلك ليسبِّب لها دُواراً لعيناً.

عند أخذه فرضية السير أثناء النوم بعين الاعتبار، كان قادراً على تحليل أسباب الحلم - وقد فعلَ ذلك ببعض اللهفة. لقد سار إلى مقبرة الحيوانات لأنها أصبحت مقترنة بلحظة إجهاد حديث أخرى. كانت في الواقع سبب جدال قوي بينه وبين زوجته... كما تذكَّر بإثارة متزايدة أنها اقترنت في ذهنه باللقاء الأول لإبنته مع فكرة الموت - شيءٌ لا شك أن عقله الباطني تصارع معه ليلة أمس عندما نام.

لحُسن حظي الكبير أنني عدتُ إلى المنزل سليماً معافى - حتى إنني لا أتذكَّر ذلك الجزء. لا بدّ أنني عدتُ بصيغة الطيّار الآلي.

من الجيد أنه عاد. لا يمكنه تخيّل كيف سيكون شعوره لو استيقظ هذا الصباح قرب قبر القط سْماكي، مشوَّش الذهن، ومُغطى بالندى، ومرتعباً بالكامل على الأرجح - على غرار رايتشل أيضاً، بلا شك.

لكن الأمر انتهى الآن.

انتهى، فكَّر لويس في سرّه بارتياح غير محدود. *نعم، لكن ماذا*

بشأن الأمور التي قالها عندما كان يموت؟ حاوَل ذهنه أن يسأل، وأسكته لويس بسرعة.

في ذلك المساء، وبينما كانت رايتشل تكوي الملابس وإيليه وغايدج يجلسان على نفس الكرسي منهمِكَين بمشاهدة برنامج "عرض الدمى"، أخبَر لويس رايتشل بنبرة عادية أنه قد يذهب في نزهة قصيرة – لتنشّق بعض الهواء النقي.

"هل ستعود في الوقت المناسب لتساعدني في وضع غايدج في السرير؟"، سألت من دون أن ترفع نظرها عن الملابس. "أنت تعرف أنه يأوي إلى السرير بشكل أفضل عندما تكون هنا".

"بالتأكيد"، قال.

"إلى أين أنت ذاهب يا بابا؟"، سألت إيليه دون أن تشيح بنظرها عن التلفزيون. كان الضفدع كامل على وشك أن يتلقى ضربةً على عينه من الآنسة بيغي.

"إلى الخارج فقط يا حبيبتي"

"آه".

خرَج لويس.

بعد خمس عشرة دقيقة أصبح في مقبرة الحيوانات، وراح ينظر حوله بفضول ويتأقلم مع شعور قوي بأنه سبق ورأى هذا المكان. لا مجال للشك بقدومه سابقاً إلى هنا: شاهدُ القبر الصغير الذي وُضع تكريماً لذكرى القط سْماكي كان مطروحاً أرضاً. كان قد فعل ذلك عندما اقترب طيف باسكاو، بالقرب من نهاية مما يمكنه أن يتذكَّر من الحلم. أصلح لويس وضعيته دون تفكير وسار إلى الأشجار الساقطة.

لم يعجبه هذا. فذكرى تحوُّل كل تلك الأشجار والأغصان الميتة

إلى كومة عظام لا تزال قادرة على إصابته بالقشعريرة. أجبَر نفسه على مدّ يده ولمس إحداها. بسبب توازنها بشكل غير مستقر على الكومة، تدحرَجت وسقطت عنها. قفز لويس إلى الوراء.

سار بجانب كومة الأشجار الساقطة، إلى اليسار أولاً، ثم إلى اليمين. كانت الخميلة مُطبقة بكثافة على الجهتين بحيث لا يمكن اختراقها. كما أنها لم تكن من النوع الذي تحاول أن تشقّ طريقك عبره - ليس إذا كنتَ ذكياً، فكَّر لويس في سرّه. كانت هناك كتل غَضّة من اللبلاب السام تنمو قريباً من الأرض (بقي لويس يسمع كل حياته بعض الأشخاص يتبجّحون أنهم منيعون من هذه النبتة، لكنه عرَف أن لا أحد تقريباً منيعٌ منها حقاً)، وما وراءها بعض أكبر الأشواك وأكثرها خُبثاً التي رآها في حياته.

عاد لويس إلى الوسط التقريبي لكومة الأشجار الساقطة. راح ينظر إليها حاشراً يديه في الجيبين الخلفيين لسرواله الجينز.

لن تحاول تسلّق هذه، أليس كذلك؟

ليس أنا أيها الزعيم. لماذا سأريد فعل شيء غبي كهذا؟

رائع. لقد أقلقتني لبرهة يا لُو. تبدو هذه طريقةً جيدةً لتدخل مشفاك مع كاحل مكسور، أليس كذلك؟

بالفعل! كما أن الظلام بدأ يحل.

رغم أن لويس كان على توافق تام مع نفسه، إلا أنه بدأ يتسلّق كومة الأشجار الساقطة.

كان قد قطع منتصف المسافة صعوداً عندما شَعَر بالكومة تتحرَّك تحت قدمَيه مع صوت صرير غريب.

دحرجِ *تلك العظام أيها الطبيب.*

عندما تحرَّكت الكومة مرة أخرى، بدأ لويس ينزل عنها بجهد. وقد

خرج ذيل قميصه من داخل بنطلونه.

وَصَل إلى الأرض الصلبة من دون حادث ونفضَ فتات لحاء الشجر عن يديه. سار عائداً إلى رأس المسار الذي سيعيده إلى منزله – إلى ولديَه اللذين سيريدان قصة قبل النوم، إلى تشرش الذي كان يستمتع بيومه الأخير كقطّ طبيعي وجاذب للقطط، إلى الشاي في المطبخ مع زوجته بعد أن يكون الولدان قد ناما.

راح يتفحَّص الفسحة مرة أخرى قبل أن يغادر، وفاجأه صمتها الأخضر. بدأ ضباب الأرض يظهر من مكان مجهول وأخذ يحوم حول الشواهد. تلك الدوائر المتحدة المركز... كما لو أن الأيدي الطفولية لأجيال شمالي لادلو شيَّدت مجسَّماً صغيراً لستونهنج دون إدراك.

لكن هل هذا كل شيء يا لويس؟

رغم أنه لم يتسنَّ له سوى إلقاء نظرة خاطفة فوق قمة كومة الأشجار الساقطة قبل أن يوتِّره الإحساس بالتحرّك تحت قدمَيه، إلا أنه يمكنه أن يحلف بأن هناك مساراً وراءها، يؤدي عميقاً في الغابة.

لا شأن لك بذلك يا لويس. عليك صرف النظر عن هذا.

حاضر أيها الزعيم.

استدار لويس وتوجَّه إلى المنزل.

بقي مستيقظاً تلك الليلة لساعةٍ بعد أن أوت رايتشل إلى السرير، وهو يقرأ مجموعة مجلات طبية كان قد انتهى منها من قبل، رافضاً الإقرار بأن فكرة الإيواء إلى السرير – النوم – وتَّرته. لم يختبر أبداً حالة السير أثناء النوم من قبل، ولم تكن هناك أي طريقة ليضمَن أنها لن تتكرَّر... إلى أن تحصل أو لا تحصل مرة أخرى.

سمِع رايتشل تنهض من السرير، ثم نادته من فوق بصوت هادئ،

"لُو؟ حبيبي؟ هل ستصعد؟".

"كنتُ صاعداً للتو"، قال وهو يُطفئ المصباح فوق مكتبه وينهض.

احتاج إلى أكثر من سبع دقائق بكثير لكي يُطفئ الآلة تلك الليلة. وعند سماعه رايتشل تأخذ الأنفاس الطويلة الهادئة التي تميِّز النوم العميق بجانبه، بدا طيف فيكتور باسكاو أقل شبهاً بحلمٍ. سيُغمض عينيه ويرى الباب يُفتَح ويجد ضيفنا العزيز، فيكتور باسكاو، واقفاً هناك في شورت هرولته، شاحباً تحت سماره الصيفي، بترقوته الناتئة.

سينزلق نحو النوم، ويفكِّر كيف سيكون الحال إذا استفاق بالكامل في برودة مقبرة الحيوانات، ورأى تلك الدوائر المتحدة المركز مُضاءة بضوء القمر، وأن يضطر إلى العودة مستيقظاً على المسار عبر الغابة. سيفكِّر بتلك الأشياء ثم يجفل ويستيقظ بالكامل من جديد.

بعد منتصف الليل بقليل تسلَّل عليه النوم أخيراً من الخلف وألقى شباكه عليه. لم تكن هناك أحلام. استيقَظ بحزم عند السابعة والنصف، على صوت مطر الخريف البارد على النافذة. نزع الملاءة عنه ببعض القلق، ووجد سريره خالياً من أية عيوب. لا يمكنه أن يصف قدمَيه بهذه الطريقة، بكل حلقات مسامير اللحم في كَعبيه، لكنهما نظيفتين على الأقل.

فاجأ لويس نفسه يصفِّر في الدُش.

الفصل 19

اعتنت مِيسِي داندريدج بغايدج بينما أخذت رايتشل ونستون تشرشل إلى عيادة الطبيب البيطري. بقيت إيليه مستيقظة تلك الليلة إلى ما بعد الحادية عشرة، وهي تشتكي كثيراً من أنه لا يمكنها أن تغفو من دون تشرش وتطالب بكوب تلو الكوب من الماء. أخيراً رفَض لويس السماح لها بشرب المزيد بحجّة أنها ستبلِّل السرير. هذا سبَّب نوبة بكاء ضارية جداً لدرجة أن رايتشل ولويس راحا يحدِّقان في بعضهما البعض بشكل خالٍ من أي تعبير، رافعَين حاجبيهما.

"إنها خائفة على تشرش"، قالت رايتشل. "دعها تفرِّغ قلقها".

"لا يمكنها مواصلة البكاء بهذه الوتيرة الصاخبة لفترة طويلة"، قال لويس. "آمل ذلك".

كان محقّاً. فقد أصبح نواح إيليه الأجش الغاضب مجرد أنين. ثم ساد الصمت أخيراً. عندما صعد لويس ليتفقَّدها، وجَدها نائمة على الأرض وقد لفَّت ذراعيها بشكل محكم حول سرير القط الذي بالكاد تنازَل تشرش لينام فيه يوماً.

نزعه من ذراعيها، ووضعها على سريرها، ومسَّد لها شعرها بلطف عن حاجبيها المبلَّلين بالعرق، وقبَّلها. بدافع إرضائها، دخَل الغرفة الصغيرة التي تُستخدَم كمكتب لرايتشل، وكَتب ملاحظة سريعة على ورقة - *سأعود غداً، مع حبّي، تشرش* - وعلّقها بالوسادة الموجودة في أسفل سرير القط. ثم دخَل غرفة نومه بحثاً عن رايتشل. كانت رايتشل هناك. ضاجعها وغفيا في ذراعَي بعضهما البعض.

عاد تشرش إلى المنزل يوم الجمعة من أول أسبوع كامل للويس في

وظيفته؛ ودلَّلته إيليه، مستخدَمةً جزءاً من مصروفها لتشتري له علبة طعام لذيذ للقطط، وكادت تصفَع غايدج مرةً لمحاولته لمسه. هذا جعل غايدج يبكي بطريقة لا يستطيع تأديب الوالدَين تحقيقها أبداً. كان تلقيه توبيخاً من إيليه أشبه بتلقي أكثر توبيخ مُذلّ في حياته.

النظر إلى تشرش أحزن لويس. كان الأمر مضحكاً، لكن ذلك لم يغيِّر الإحساس. لم يكن هناك أي أثر لمشاكَسة تشرش السابقة. لم يعد يسير مثل مسلَّح؛ بل أصبحت مشيته بطيئة حذرة مثل شخص يتماثل للشفاء. سمحَ لإيليه أن تُطعمه بيدها، ولم يُظهِر أي رغبة بالخروج من المنزل، ولا حتى إلى المرأب. لقد تغيَّر. ربما كان ذلك التغيير إلى الأفضل في نهاية المطاف.

لم يبدُ أن رايتشل وإيليه لاحظتا ذلك.

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل 20

جاء الصيف الهندي ورحل. وحلَّ اللون النحاسي على الأشجار، شاغَبَ قليلاً، ثم تلاشى. بعد مطر غزير بارد في منتصف أكتوبر، بدأت الأوراق تتساقط. وبدأت إيليه تصل إلى المنزل مُثقَلة بزخرفات الهالووين التي صنعتها في المدرسة وترفِّه عن غايدج بقصة الفارس العديم الرأس. أمضى غايدج ذلك المساء يثرثر بسعادة عن شخص يدعى إيتشيبود براين. وراحت رايتشل تقهقه غير قادرة على التوقف. كانت فترةً ممتعةً لهم، ذلك الخريف المُبكر.

استقرّ عمل لويس في الجامعة في روتين متطلِّب لكن لطيف. كان يعاين المرضى، ويحضَر اجتماعات مجلس الكلّيات، ويكتب الرسائل الإلزامية إلى صحيفة الطلاب، وينصح طلاب الجامعة المختلطة عن سرية علاجات المشفى للأمراض المنقولة جنسياً، ويحضّ الطلاب على الحصول على لقاحات الإنفلونزا، بما أن التوقّعات تشير إلى انتشار النوع A كثيراً مرة أخرى ذلك الشتاء. ويشارك في الهيئات. خلال الأسبوع الثاني من أكتوبر، حضر مؤتمر نيو إنغلاند حول الطب الجامعي في كلية بروفيدانس، وقدَّم مقالاً عن العواقب القانونية لمداواة الطلاب، ذكر فيه فيكتور باسكاو تحت الإسم الوهمي "هنري مونتيز". نال المقال صدّى جيداً بين القراء. وبدأ تحضير ميزانية المشفى للسنة الأكاديمية التالية.

وحلَّ الروتين على أمسياته: الأولاد بعد العشاء، زجاجة أو زجاجتا شراب شعير مع جاد كراندال لاحقاً. ترافقه رايتشل أحياناً إذا كانت مِيسِي متوفرة لمجالسة الولدَين لحوالي ساعة، وتنضم نورما إليهم أحياناً، لكن لويس وجاد يكونان لوحدهما في الأغلب. وجَد لويس أن

العجوز مريح مثل خُفّ قديم، ويكلّمه عن تاريخ لادلو عائداً إلى ثلاثمئة سنة تقريباً كما لو أنه عاش كل تلك الأحداث. كان يتكلّم لكن لا يرغو أبداً. ولم يُضجِر لويس أبداً، رغم أنه رأى رايتشل تتثاءب خلف يدها في أكثر من مناسبة.

كان يجتاز الطريق إلى منزله مرة أخرى قبل العاشرة في معظم الأمسيات، وربما يضاجع رايتشل. لم يضاجعها بهذه الكثرة أبداً منذ السنة الأولى لزواجهما، وليس بهذا النجاح وهذه المتعة أبداً. قالت رايتشل إنها مقتنعة أنه بسبب شيء في مياه البئر الارتوازي؛ لكن لويس اختار هواء ماين.

بدأت ذكرى الموت البغيض لفيكتور باسكاو في اليوم الأول للفصل الدراسي الخريفي تتلاشى في الهيئة الطلابية وفي ذهن لويس؛ لا شك أن عائلة باسكاو لا تزال حزينة عليه. وقد تكلّم لويس مع الصوت الدامع المجهول بشكل رحوم لوالد باسكاو على الهاتف؛ أراد الوالد فقط ضمانةً بأن لويس فعل كل شيء كان بوسعه أن يفعله، وطمأنه لويس أن جميع الضالعين في الحادثة فعلوا كل ما بوسعهم. لم يُخبِره عن الإرباك، والبقعة المنتشرة على السجادة، وكيف أن إبنه كان ميتاً تقريباً من اللحظة الأولى لإحضاره إلى المشفى، رغم أن تلك أمورٌ ظنَّ لويس أنه لن ينساها أبداً. لكنها بدأت تتلاشى من قبل بالنسبة للذين كان باسكاو مجرد ضحية.

لا يزال لويس يتذكَّر الحلم وحادثة السير أثناء النوم التي رافقته، لكن ذلك بدا الآن كما لو أنه حصَل لشخص آخر، أو في برنامج تلفزيوني شاهده ذات ليلة. زيارته الوحيدة إلى صالون تدليك في شيكاغو منذ ست سنوات بدت هكذا الآن؛ كانا حدثين غير مهمين بشكل متساوٍ، رحلتين جانبيتين ذات رنين خاطئ، مثل الأصوات التي

تصدر في حجرة صدى.

لم يفكِّر أبداً بما قاله أو بما لم يقله باسكاو المُحتضَر.

كان هناك صقيع قارس ليلة الهالووين. بدأ لويس وإيليه جولتهما على المنازل من منزل أسرة كراندال. قوقأت إيليه بشكل مُرضٍ، وادَّعت أنها تركب مكنستها في أرجاء مطبخ نورما، ولُقِّبَت عن حق "ألطف شيء رأيتُه في حياتي... أليست كذلك يا جاد؟".

وافَق جاد وأشعل سيجارةً. "أين غايدج يا لويس؟ ظننتُ أنك ستُلبسه ملابس تنكرية هو أيضاً".

كانا يخطّطان بالفعل لأخذ غايدج في جولة – رايتشل بالأخص كانت تتطلّع إلى ذلك لأنها ومِيسِي داندريدج ابتكرتا سوية زي حشرة ذات شمّاعات مفتولة ملفوف حولها ورق رقيق مجعَّد للمجسّات – لكن غايدج أُصيب بنزلة برد مزعجة في الشُعب الهوائية، وبعد الاستماع إلى الصليل الصادر عن رئتَيه، واستشارة ميزان حرارة الطقس خارج النافذة، الذي أظهرَ أن الحرارة أربع درجات فقط عند الساعة السادسة، ألغاها لويس. وقد وافَقته رايتشل، رغم خيبة أملها.

وعَدت إيليه بإعطاء غايدج بعض حلواها، لكن حزنها الكبير جَعَل لويس يتساءل إن لم تكن مسرورة قليلاً أن غايدج لن يرافقها لكي يُبطئها... أو يسرق بعض الأضواء منها.

"مسكين غايدج"، قالت بنبرة تُخصَّص عادة لأولئك الذين يعانون من أمراض مزمنة. غايدج، غير مُدرك لما كان سيفوته، جلس على الأريكة يشاهد برنامجاً كرتونياً وتشرش يغفو بجانبه.

"إيليه–العرّافة"، رَدَّ غايدج دون اهتمام كبير وعاد إلى التلفزيون.

"مسكين غايدج"، قالت إيليه مرة أخرى، مُخرجةً تنهيدةً أخرى. تذكَّر لويس دموع التمساح وابتسم. أمسَكت إيليه يده وبدأت تشدّه.

"هيا بنا يا بابا. هيا بنا – هيا بنا – هيا بنا".

"أُصيب غايدج بخُناق طفيف"، قال لويس لجاد الآن.

"آه، هذا مؤسف حقاً"، قالت نورما، "لكن هذا سيعني المزيد له في السنة القادمة. افتحي كيسك يا إيليه... ها هي قادمة!".

أخذت تفاحةً وقطعة شوكولا سنيكرز صغيرة من وعاء الحلوى الموجود على الطاولة، لكنهما سقطا من يدها. صُدمَ لويس قليلاً من درجة انعقاف تلك اليد. انحنى والتقط التفاحة أثناء تدحرجها على الأرض. والتقط جاد قطعة السنيكرز وأسقطها في كيس إيليه.

"آه، دعيني أُحضِر لك تفاحة أخرى يا حبيبتي"، قالت نورما. "لقد تعرَّضت لرضّةٍ".

"إنها جيدة"، قال لويس، محاولاً إسقاطها في كيس إيليه، لكن إيليه ابتعَدت مُغلقةً كيسها بشكل وقائي.

"لا أريد تفاحة مرضوضة يا بابا"، قالت وهي تنظر إلى أبيها كما لو أنه فَقَد صوابه. "بُقع بنّية... *مقرف!*".

"إيليه، هذا غير مهذّب!".

"لا توبِّخها لقولها الحقيقة يا لويس"، قالت نورما. "فقط الأولاد يقولون الحقيقة كما هي. هذا ما يجعلهم أولاداً. البُقع البنّية مقرفة *فعلاً*".

"شكراً يا سيدة كراندال"، قالت إيليه وهي تُلقي نظرةً مبرَّأةً نحو أبيها.

"على الرحب والسعة يا حبيبتي"، قالت نورما.

رافَقهما جاد إلى الشرفة. كان شبحان صغيران يصعدان الطريق، وتعرَّفت عليهما إيليه كصديقين من المدرسة. أخذتهما إلى المطبخ، وللحظة بقي جاد ولويس لوحدهما على الشرفة.

"ساءت حالة التهاب مفاصلها"، قال لويس.

أومأ جاد برأسه ونفضَ سيجارته فوق منفضة. "أجل. تسوء حالتها كل خريف وشتاء، لكن هذه المرة هي الأسوأ".

"ماذا يقول طبيبها؟".

"لا شيء. لا يمكنه قول أي شيء لأن نورما لم تذهب لمراجعته".

"ماذا؟ لما لا؟".

نظَرَ جاد إلى لويس، وبدا أعزلَ بشكل غريب في النور الذي يلقيه ضوء سيارة الستايشن التي تنتظر الشبحين. "كنتُ أنوي أن أطلب منك هذا في وقت أفضل يا لويس، لكنني أظن أنه لا يوجد وقت ملائم لفرض هكذا أمر على صداقةٍ. هلاّ فحصتها؟".

من المطبخ، استطاع لويس سماع الشبحين يُطلقان أصوات تخويف وإيليه تقوقئ - والتي كانت تتمرّن عليه طوال الأسبوع - مرة أخرى. بدا كل ذلك ممتازاً ومن أجواء الهالووين.

"هل هناك أمر آخر تعاني منه نورما؟"، سأل. "هل هي خائفة من شيء آخر يا جاد؟".

"تشعر بآلام في صدرها"، قال جاد بصوت منخفض. "لم تعد تريد الذهاب لرؤية الطبيب وايبريدج بعد الآن. أنا قلق قليلاً".

"هل نورما قلقة؟".

تردَّد جاد ثم قال، "أعتقد أنها خائفة. أعتقد أن هذا هو السبب الذي يجعلها لا تريد الذهاب إلى الطبيب. إحدى صديقاتها القديمات، بتّي كوسلو، تُوفِّيت في مركز ماين الشرقية الطبي الأسبوع الفائت. من السرطان. كانت بنفس سنّ نورما. إنها خائفة".

"يسرّني أن أفحصها"، قال لويس. "لا مشكلة أبداً".

"شكراً يا لويس"، قال جاد بامتنان. "إذا أمسكناها ذات ليلة،

ووضعنا عصابةً على فمها، أظن -"

قطع جاد كلامه، وأحنى رأسه بسخرية إلى إحدى الجهتين. التقت عيناه بعينَي لويس.

لم يستطع لويس أن يتذكَّر لاحقاً كيف شَعَر بالضبط وقتها، أو كيف انزلَق إحساسه إلى الإحساس التالي. محاولة تحليله ذلك جَعَله يُصاب بدُوار. كل ما يمكنه أن يتذكّره بدقّة هو أن الحشرية تغيَّرت بسرعة إلى شعور بأن شيئاً في مكان ما ساء بشكل كبير. التقت عيناه عينَي جاد، وكان الاثنان غير محترسَين. مرَّت لحظةٌ قبل أن يتمكن من إيجاد طريقة ليتصرّف بها.

"*هوووو-هوووو*"، صاح شبحا الهالووين في المطبخ. "*هووو-هووو*". ثم اختفى فجأة صوت حرف الهاء وارتفع صوت الـ "*وووو-ووووو* -" الصاخب أكثر والمخيف بحقّ.

ثم بدأ أحد الشبحين يصرخ.

"*بابا!*". كان صوت إيليه مسعوراً ومُنذِراً. "*بابا! السيدة كراندال سقَطت!*".

"يا إلهي"، قال جاد بأنين جارح تقريباً.

خرجت إيليه إلى الشرفة وهي تركض، وفستانها الأسود يرفرف خلفها. كانت تُمسك مكنستها بيدٍ، وبدا وجهها الأخضر من الرعب أشبه بوجه متشرِّد مدمن شراب سيئ النوعية في المراحل الأخيرة من إصابته بتسمّم شرابيّ. وتبِعها الشبحان الصغيران، يبكيان.

اندفَع جاد عبر الباب، بخفّة مدهشة لرجل فوق الثمانين. لا، أكثر من مجرد خفّة. برشاقة تقريباً. كان ينادي إسم زوجته.

انحنى لويس ووضع يديه على كتفَي إيليه. "ابقي هنا على الشرفة

يا إيليه. مفهوم؟".

"بابا، أنا خائفة"، همَست.

تجاوزهما الشبحان مسرعَين ونزلا الطريق ركضاً، وأكياس الحلوى تخشخش في أيديهما، ويصرخان إسم أمهما.

رَكَض لويس إلى المطبخ عبر القاعة الأمامية، متجاهلاً إيليه التي كان تناديه ليعود.

وجد نورما مستلقيةً على مشمَّع الأرضية الكثير التلال قرب الطاولة في كومة تفاح وقِطع شوكولا سنيكرز صغيرة. يبدو أنها أمسكت الوعاء بيدها وانقلب منها. كان يقبع قربها مثل صحن طائر صغير من البيركس. كان جاد يفرك أحد معصمَيها، ونظر إلى لويس بوجه متوتّر.

"ساعدني يا لويس"، قال. "ساعد نورما. أظن أنها تُحتضَر".

"تنحّى جانباً"، قال لويس. ركَع وسحقت إحدى رُكبتَيه تفاحةً. شَعَر بعصيرها يبلِّل ركبة سرواله القديم، وملأت رائحتها المطبخ فجأة.

ها هي، حالة باسكاو مرة أخرى، فكَّر لويس في سرّه ثم طرد الفكرة من ذهنه سريعاً.

راح يتحسَّس نبضها ووجده ضعيفاً وسريعاً – ليس نبضاً حقاً بل مجرد تشنّجات بسيطة. حالة شديدة من عدم انتظام نبضات القلب، في طريقها سريعاً لتصبح نوبة قلبية كاملة. *أنتِ وألفيس بريسلي يا نورما*، فكَّر في سرّه.

فتَح فستانها، كاشفاً قميصاً تحتياً حريرياً أصفر كالكريما. ثم أدار رأسها إلى إحدى الجهتين وبدأ يُجري لها عملية إنعاش قلبي رئوي.

"اسمعني يا جاد"، قال. كَعب اليد اليسرى ثُلث المسافة فوق عظمة القَصّ – أربعة سنتيمترات فوق الرَّهابة. اليد اليمنى تُمسك المعصم الأيسر، تفرك، وتزوِّد بعض الضغط. اعمل بحزم، لكن هوِّن

على الأضلاع العجوزة - لا داعي للذعر بعد. وبالله عليك، لا تدع الرئتين العجوزتين تنهاران.

"أنا هنا"، قال جاد.

"خذ إيليه"، قال. "اذهب إلى الجانب المقابل للشارع. بحذر – لا تدع سيارة تدهسكما. أخبِر رايتشل بما حصل، وقُل لها إنني أريد حقيبتي. ليس تلك الموجودة في المكتب، بل الموجودة على الرف العالي في حمّام الطابق العلوي. ستعرف الحقيبة المطلوبة. وقُل لها أن تتصل بوحدة الأزمات الطبية في بانغور وتطلب منهم إرسال سيارة إسعاف".

"باكسبورت أقرب"، قال جاد.

"بانغور أسرع. اذهب. لا تتصل أنت؛ دع رايتشل تفعل ذلك. أحتاج إلى تلك الحقيبة". *وبعدما تعرف الحالة هنا*، فكَّر لويس في سرّه، *لا أظن أنها ستُحضِرها*.

ذهَب جاد. سمِع لويس دويّ باب المنخل. كان لوحده مع نورما كراندال ورائحة التفاح. صدرت التكّات الهادئة للساعة ذات الصندوق الطويل من غرفة الجلوس.

لفظت نورما فجأة شخيراً طويلاً. رفرف جفناها. وغرق لويس فجأة في يقين بارد بغيض.

ستفتح عينيها... يا إلهي ستفتح عينيها وتبدأ التكلّم عن مقبرة الحيوانات.

لكنها اكتفت بالنظر إلى لويس بإدراك مشوَّش، ثم أغمضت عينيها من جديد. خجِل لويس من نفسه ومن هذا الخوف الغبي الذي لم يكن من طبيعته. وشَعَر بأمل وارتياح في الوقت نفسه. كان هناك بعض الألم في عينيها لكن ليس عذاباً. كان تكهّنه الأول أن هذه النوبة لم تكن خطيرة.

كان لويس يتنفس بصعوبة ويتعرَّق الآن. لا أحد غير المُسعفين على التلفزيون يستطيعون جعل الإنعاش القلبي الرئوي يبدو سهلاً. فتدليك الصدر بشكل ثابت ومتواصل يحرق الكثير من السعرات الحرارية، وسيؤلمه الحزام بين ذراعيه وكتفيه غداً.

"هل يمكنني أن أفعل أي شيء؟".

نظر حوله ورأى امرأة ترتدي سروالاً فضفاضاً وكنزة بنّية تقف متردّدة عند المدخَل، وقد تكوَّرت إحدى يديها في قبضةٍ على صدرها. والدة الشبحين، فكَّر لويس في سرّه. كان انطباعه الأول أنها خائفة لكنها ليست عاجزة.

"لا"، قال، ثم: "نعم. رطبّي قطعة قماش من فضلك، ثم اعصريها وضعيها على جبهتها".

تحرَّكت لتفعل ذلك. أخفَض لويس نظره، وكانت عينا نورما مفتوحتين مرة أخرى.

"لويس، لقد سقَطتُ"، همَست. "أظن أنه أُغمي عليَّ".

"لقد أُصبتِ بطارئ قلبي من نوع ما"، قال لويس. "لا يبدو خطيراً جداً. استرخي الآن ولا تتكلّمي يا نورما".

استراح للحظة ثم قاس نبضها مرة أخرى فوجده سريعاً جداً. كانت تفعل ما سمّاه الدكتور تاكر من كلية الطب في جامعة شيكاغو ذات مرة شيفرة مورس: ينبض قلبها بشكل منتظم، ثم يشهد فترة وجيزة من النبضات التي تُعتبر رجفاناً تقريباً لكن ليس تماماً، ثم يعاود الخفقان بشكل منتظم مرة أخرى. نبضة-نبضة-نبضة، ضربة عنيفة-ضربة عنيفة-ضربة عنيفة، نبضة-نبضة-نبضة-نبضة-نبضة. لم يكن هذا جيداً، لكنه أفضل قليلاً من عدم انتظام نبضات القلب.

عادت المرأة حاملةً قطعة قماش وضعتها على جبهة نورما. ثم

ابتعَدت بارتياب. عاد جاد ومعه حقيبة لويس.

"لويس؟".

"ستكون بخير"، قال لويس وهو ينظر إلى جاد لكنه يكلِّم نورما في الواقع. "وحدة الأزمات الطبية قادمة؟".

"زوجتك تتصل بهم"، قال جاد. "لم أبقَ لأعرف ردّهم".

"لا... مستشفى"، همَست نورما.

"بلى، مستشفى"، قال لويس. "خمسة أيام من المراقبة والأدوية، ثم المنزل رافعةً قدمَيك، يا عزيزتي نورما. وإذا قلتِ أي شيء آخر، سأجعلك تأكلين كل هذا التفاح. مع البذور أيضاً".

ابتسمت بفتور، ثم أغمضت عينيها مرة أخرى.

فتَح لويس حقيبته، وراح يفتِّش، ووجد الآيزودل، وخضَّ إحدى الحبوب، الصغيرة جداً بحيث تتسّع بسهولة على أحد أظافره، في راحة يده. أعاد إغلاق الزجاجة وقرصَ الحبة بين أصابعه.

"نورما، هل يمكنك سماعي؟".

"نعم".

"أريدك أن تفتحي فمك. لقد قدَّمتِ لنا حيلتك، وستحصلين الآن على الحلوى. سأضع حبة تحت لسانك. حبة صغيرة. أريدك إبقاءها هناك إلى أن تذوب. مذاقها مرّ قليلاً لكن لا تهتمّي. اتفقنا؟".

فتَحت فمها. فاحت منه رائحة طقم الأسنان الاصطناعية البالية، وشعَر لويس للحظة بحزن مؤلم تجاهها، ممددةً هنا على أرضية مطبخها في كومة تفاح وحلوى الهالووين. خطَر بباله أنها كانت في السابعة عشرة من عمرها ذات يوم، وشباب الحي يحدِّقون بصدرها باهتمام كبير، وكل أسنانها طبيعية، وقلبها تحت بلوزتها محرِّكٌ صغيرٌ صلبٌ.

وضعت لسانها فوق الحبة وابتسمت قليلاً. مذاق الحبة مرّ قليلاً

فعلاً. هذا هو الحال دائماً. لكنها لم تكن فيكتور باسكاو الذي تجاوز حدود المساعدة وحدود الحياة. اعتقَد أن نورما ستعيش لتحارب يوماً آخر. راحت يدها تتلمَّس في الهواء، وأمسكها جاد بلطف.

عندها نهض لويس، وأمسك الوعاء المقلوب وبدأ يلملم الحلوى. راحت المرأة التي عرَّفت عن نفسها بأنها السيدة بادينغر من أسفل الطريق تساعده، ثم قالت إنه من الأفضل أن تعود إلى السيارة. فقد كان ولداها خائفَين.

"شكراً لمساعدتك يا سيدة بادينغر"، قال لويس.

"لم أفعل شيئاً"، قالت بشكل قاطع. "لكنني سأجثو على رُكبتيَّ هذه الليلة وأشكر الله أنك كنتَ هنا أيها الطبيب كريد".

لوَّح لويس يده، مُحرَجاً.

"وأنا مثلها"، قال جاد. بحثت عيناه عن عينَي لويس وركَّزت عليهما. كانتا هادئتين. لقد استعاد زمام السيطرة من جديد. وقد مرَّت لحظة ارتباكه وخوفه الوجيزة. "أنا مَدين لك يا لويس".

"أقلِعا عن هذا"، قال لويس ووجَّه إصبعاً نحو السيدة بادينغر أثناء مغادرتها. ابتسمت ولوَّحت له. وجَد لويس تفاحة وبدأ يأكلها. كانت حلوة لدرجة أن براعم تذوُّقه تشنّجت للحظة... لكن ذلك الإحساس لم يكن غير ممتع كلياً. *لقد فزتَ بجولةٍ هذه الليلة يا لُو*، فكَّر في سرّه وعمِل على التفاحة باستمتاع. كان شَرِهاً.

"أنا مَدين لك حقاً"، قال جاد. "عندما تحتاج إلى خدمةٍ يا لويس، اطلب مني قبل أي شخص آخر".

"حسناً"، قال لويس، "سأفعل ذلك".

وصلت سيارة الإسعاف من وحدة الأزمات الطبية لبانغور بعد

عشرين دقيقة. وبينما وَقَف لويس في الخارج يراقب الممرضين يحملّون نورما فيها، رأى رايتشل تنظر من نافذة غرفة الجلوس. لوَّح لها، فرَفَعت يدها بالمقابل.

وَقَف إلى جانب جاد يراقبان الإسعاف تبتعد، بأضوائها الوامضة، وصفارة إنذارها الصامتة.

"أظن أنني سأذهب إلى المستشفى الآن"، قال جاد.

"لن يدعوك تراها هذه الليلة يا جاد. سيريدون إجراء بعض الفحوص لها ثم وضعها في غرفة العناية المركَّزة. لا زوّار طوال الساعات الاثنتي عشرة الأولى".

"هل ستكون بخير يا لويس؟ بخير حقاً؟".

هزَّ لويس كتفيه. "لا أحد يستطيع أن يضمن هذا. *كانت* نوبة قلبية. على أية حال، أعتقد أنها ستكون بخير. وربما أفضل من أي وقت مضى، بعدما تتناول بعض الأدوية".

"نعم"، قال جاد وهو يُشعِل سيجارة تشسترفيلد.

ابتسم لويس وألقى نظرة سريعة على ساعته. اندهش من رؤية أنها الثامنة إلا عشر دقائق فقط. ظنَّ أن الوقت متأخر أكثر من ذلك بكثير.

"جاد، أريد أن أذهب وأُحضِر إيليه لكي تتمكن من إنهاء جولتها على المنازل".

"نعم، بالطبع. قل لها أن تحصل على كل الحلوى التي يمكنها الحصول عليها يا لويس. أظن أنها رأت ما يكفي من حيل هذه الليلة".

"نعم، أظن ذلك أيضاً"، قال لويس.

كانت إيليه لا تزال ترتدي زي المشعوِذة عندما وصل لويس إلى

المنزل. حاوَلت رايتشل إقناعها خلعه وارتداء قميص نومها، لكن إيليه قاوَمتها، على احتمال أن تُستأنف اللعبة التي عُلِّقَت بسبب نوبة قلبية. وعندما أخبَرها لويس أن تعيد ارتداء معطفها، راحت إيليه تقفز وتصفِّق فرحاً.

"ستتأخران كثيراً في العودة إلى المنزل يا لويس".

"سنأخذ السيارة"، قال. "بالله عليك يا رايتشل. بقيت تتطلّع إلى هذا طوال شهر كامل".

"حسناً..."، قالت متبسمةً. وقد رأت إيليه ذلك وصرخت مرة أخرى. ركَضت إلى خزانة المعاطف. "هل نورما بخير؟".

"أعتقد ذلك". كان شعوره جيداً. صحيح أنه مُتعَب لكن شعوره جيدٌ. "كانت نوبة خفيفة. عليها الحذر من الآن وصاعداً، لكن عندما تكونين في الخامسة والسبعين عليك أن تدركي أن أيام قفزك بالزانة انتهت على أي حال".

"الحمد لله أنك كنتَ هناك".

"أجل". ابتسم عندما عادت إيليه. "هل أنت جاهزة أيتها المشعوذة هايزل؟".

"أنا جاهزة"، قالت. "هيا بنا - هيا بنا - هيا بنا!".

في طريق العودة إلى البيت مع نصف كيس من الحلوى بعد ساعة (احتجّت إيليه عندما طالبَ لويس بالتوقف أخيراً، لكن ليس كثيراً؛ كانت مُتعَبة)، فاجأته إبنته بقولها: "هل أنا سبّبتُ إصابة السيدة كراندال بالنوبة القلبية يا بابا؟ عندما لم آخذ التفاحة ذات الرضّة؟".

نظَرَ لويس إليها جافلاً، وتساءل من أين يأتي الأولاد بهكذا أفكار مضحكة نصف خرافية. دُسّ على صدعٍ، وسينكسر ظهر أمك. يحبّني، لا يحبّني. معدة بابا، رأس بابا، ابتسِم في منتصف الليل،

وسيموت بابا. هذا جَعَله يفكِّر بمقبرة الحيوانات مرة أخرى وبتلك الدوائر البدائية. أراد أن يتبسم لنفسه ولم يقدر على ذلك.

"لا يا حبيبتي"، قال. "عندما كنتِ في الداخل مع الشبحين –"

"لم يكونا شبحين، مجرد توائم بادينغر".

"حسناً، عندما كنتِ في الداخل معهما، كان السيد كراندال يُخبِرني أن زوجته تشعر بآلام خفيفة في صدرها. في الواقع، ربما كنتِ سبب إنقاذ حياتها، أو على الأقل منع الحالة من أن تكون أسوأ بكثير".

كان دور إيليه الآن لكي تبدو جافلةً.

أومأ لويس برأسه. "كانت بحاجة إلى طبيب يا حبيبتي. وأنا طبيبٌ. لكنني كنتُ هناك فقط لأنها كانت ليلتك بالخروج لتنفيذ حيل على الناس أو للحصول على حلوى منهم".

بقيت إيليه تفكِّر في هذا لوقت طويل ثم أومأت برأسها. "لكنها ستموت على الأرجح على أي حال"، قالت بنبرة واقعية. "الأشخاص الذين يُصابون بنوبات قلبية يموتون عادة. حتى ولو عاشوا، قريباً جداً سيُصابون بنوبة قلبية أخرى وأخرى إلى أن... ينفجروا!".

"هل لي أن أسأل أين تعلّمتِ كلمات الحكمة هذه؟".

اكتفت إيليه بهزّ كتفيها – بطريقة تشبه طريقته كثيراً، وقد استمتع برؤية ذلك.

سمحت له بأن يحمل كيس حلواها – وهذه دلالة ثقة مُطلَقة تقريباً – وفكَّر لويس ملياً بموقفها. فكرة موت تشرش ولَّدت حالة شبه هستيريا. لكن فكرة وفاة الجدّة نورما كراندال... والتي بدا أن إيليه تتقبّلها بهدوء، بأنها مسألة طبيعية. ماذا قالت؟ أخرى وأخرى، إلى أن... ينفجروا!

كان المطبخ فارغاً، لكن لويس استطاع سماع رايتشل تتحرَّك في

الطابق العلوي. وضع حلوى إيليه على الطاولة وقال، "ليس بالضرورة أن تسير الأمور بهذه الطريقة يا إيليه. كانت النوبة القلبية التي أصابت نورما خفيفةً جداً، وكنتُ قادراً على إعطائها العلاج فوراً. أشكّ أن يكون قلبها قد تعرَّض لأذى كبير. هي –"

"آه، أعرف"، وافقت إيليه، بابتهاج تقريباً. "لكنها عجوز، وستموت قريباً جداً على أي حال. السيد كراندال أيضاً. هل يمكنني أن آكل تفاحة قبل أن أخلد إلى النوم يا بابا؟".

"لا"، قال وهو ينظر إليها بتبصّر. "اصعدي ونظّفي أسنانك يا حبيبتي".

هل ظنَّ أي شخص حقاً أنه يفهم الأولاد؟ تساءل.

عندما هدأت الحركة في المنزل وكانوا في أسرّتهم، سألته رايتشل بلطف، "هل كان الوضع سيئاً جداً على إيليه يا لُو؟ هل شعرت بالانزعاج؟".

لا، فكَّر في سرّه. *إنها تعرف أن العجائز يطلقون أجراس إنذار عند فواصل زمنية دورية، تماماً مثلما تعرف أن تدع الجندب يذهب عندما يبصق... مثلما تعرف أنه إذا صادفك الرقم ثلاثة عشر عندما تنط الحبل، فسيموت أعزّ أصدقائك... مثلما تعرف أنك تضع القبور في دوائر متناقِصة في مقبرة الحيوانات...*

"لا"، قال. "تعاملت مع المسألة بشكل جيد جداً. هيا ننام يا رايتشل، اتفقنا؟".

تلك الليلة، بينما كانوا نائمين في منزلهم وبينما كان جاد مستيقظاً في منزله، حلَّ صقيع قارس آخر. هبّت الرياح في الصباح الباكر، نازعةً معظم الأوراق المتبقية، التي كانت قد أصبحت الآن بنّية اللون بشكل

غير مثير للاهتمام، عن الأشجار.

الرياح أيقظت لويس، ورفع نفسه على مرفقَيه، نائماً ومرتبكاً في الأغلب. كانت هناك خطوات على السلالم. خطوات بطيئة. لقد عاد باسكاو. لكن الآن، فكَّر في سرّه، مرَّ شهران. عندما يُفتَح الباب سيرى رعباً متعفّناً، شورت الهرولة المليء بالعثّ، اللحم الساقط في فجوات كبيرة، الدماغ المضمحلّ إلى سائل. فقط العينان ستكونان حيّتين... ساطعتين وحيّتين بشكل شرير. لن يتكلَّم باسكاو هذه المرة؛ فأوتاره الصوتية ستكون مضمحلّة جداً لتُصدر أي أصوات. لكن عينيه... ستومئان له بأن يرافقه.

"لا"، لهثَ، وتلاشت الخطوات.

نهض، ذهَب إلى الباب، وفتحه، وهو يشدّ شفتيه إلى الخلف في ابتسامة خوف وتصميم، ولحمه منكمش. سيكون باسكاو هناك، رافعاً ذراعيه لكي يبدو مثل قائد أوركسترا ميت منذ فترة طويلة على وشك الدعوة إلى عزف المقطع المدوّي الأول من سمفونيةٍ.

لا شيء من هذا القبيل، مثلما كان جاد ليقول. كان منبسط السلالم فارغاً... صامتاً. لم يكن هناك صوت آخر غير صوت الرياح. عاد لويس إلى السرير ونام.

الفصل 21

في اليوم التالي، اتصل لويس بوحدة العناية المركَّزة في مركز ماين الشرقية الطبي. كانت حالة نورما مذكورة كحرِجة؛ وهذا إجراء قياسي خلال الساعات الأربعة والعشرين الأولى بعد أي نوبة قلبية. لكن لويس حصل على تقييم متفائل أكثر من وايبريدج، طبيبها. "حتى لن أعتبرها نوبة قلبية خفيفة"، قال. "لا ندوب. إنها تَدين لك بالكثير أيها الطبيب كريد".

دون سابق تخطيط، زار لويس المستشفى في وقت لاحق من ذلك الأسبوع حاملاً باقة زهور، ووجد أنه تم نقل نورما إلى غرفة شبه خاصة في الطابق السفلي - وهذه دلالة جيدة جداً. كان جاد معها.

أحبّت نورما الزهور كثيراً وضغطت زر نداء الممرضة وطلبت مزهريةً. ثم راحت توجِّه جاد إلى أن أصبحت في الماء، مرتَّبةً حسب مواصفاتها، وموضوعةً على خزانة الملابس في الزاوية.

"الأم تشعر بتحسّن كبير جداً"، قال جاد بجفاف بعد أن عبَث بالزهور للمرة الثالثة.

"لا تتذاكى يا جادسون"، قالت نورما.

قدَّم لها جاد تحيةً هزليةً. "لا، سيدتي".

أخيراً نظَرَت نورما إلى لويس. "أريد أن أشكرك على ما فعلتَه"، قالت بخجل كان صادقاً تماماً وبالتالي ذا تأثير مضاعَف. "يقول جاد إنني أَدين لك بحياتي".

قال لويس مُحرَجاً، "جاد يبالغ".

"ليس كثيراً"، قال له جاد، وهو يُحوِل عينيه مبتسماً تقريباً لكن ليس تماماً. "ألم تُخبِرك أمك أبداً بألا تتجنَّب أي شكر يا لويس؟".

لم تقل أي شيء عن هذا، على الأقل ليس شيئاً يستطيع لويس أن يتذكَّره، لكنه يظن أنها قالت شيئاً ذات مرة عن أن التواضع الخاطئ يوازي نصف خطيئة التكبّر.

"نورما"، قال، "أي شيء كنتُ قادراً على فعله فعلتُه بسرور".

"أنت رجل عزيز"، قالت نورما. "خذ رَجلي هذا إلى مكان ما ودعه يدعوك إلى كوب شراب شعير. إنني أشعر بالنعاس مرة أخرى، ويبدو أنه لا يمكنني التخلّص منه".

نهض جاد بنشاط. "تباً حقاً! أنا سأقبل بهذا يا لويس. بسرعة قبل أن تغيِّر رأيها".

تساقط الثلج لأول مرة قبل أسبوع من يوم الشُكر. وتساقطت عشرة سنتيمترات أخرى في الثاني والعشرين من نوفمبر، لكن قبل يوم واحد من الاحتفال نفسه، كانت السماء صافيةً وزرقاء وباردةً. أخذ لويس عائلته إلى مطار بانغور الدولي وودِّعهم إلى محطتهم الأولى من رحلة عودتهم إلى شيكاغو لزيارة عائلة رايتشل.

"هذا ليس عدلاً"، قالت رايتشل للمرة العشرين ربما منذ أن بدأا يناقشان هذه المسألة بشكل جدّي منذ شهر. "لا تعجبني فكرة وجودك وحيداً في المنزل يوم الشُكر. يُفترَض أن يكون هذا الاحتفال عائلياً يا لويس".

نقل لويس غايدج، الذي بدا هائلاً ومُبرّق العينين في أول معطف طفل كبير له، إلى ذراعه الأخرى. كانت إيليه تقف عند إحدى النوافذ الكبيرة، تراقب إقلاع مروحية لسلاح الجو.

"لن أقضي الوقت أبكي فوق شراب شعيري"، قال لويس. "سيستقبلني جاد ونورما على العشاء لتناول ديك رومي مع كل

مطيّباته. تباً، أنا مَن يشعر بالذنب. لطالما كرهت التجمّعات الكبيرة أيام الاحتفالات على أي حال. أبدأ بتناول الشراب وأنا أشاهد مباراة ما في كُرة القدم عند الثالثة بعد الظهر وأغفو عند السابعة، وأشعر في اليوم التالي كما لو أن مشجِّعات دالاس يرقصنَ حولي ويصحنَ بُولا- بُولا داخل رأسي. لا يُعجبني أبداً ذهابك لوحدك مع الولدَين".

"سأكون بخير"، قالت. "السفر على الدرجة الأولى يُشعرني كأنني أميرة. وغايدج سينام خلال الرحلة من لوغان إلى أوهير".

"هذا ما تأملينه"، قال، وضحِكا.

نُودِيَ على الرحلة، وهرولت إيليه إليهما. "هذا نحن يا ماما. هيا بنا - هيا بنا - هيا بنا. سيغادرون من دوننا".

"لا لن يفعلوا ذلك"، قالت رايتشل. كانت تُمسِك البطاقات الثلاثة الزهرية للصعود إلى الطائرة بيدها، وترتدي معطفها الفرو الاصطناعي البنّي المترف... الذي من المفترَض أن يبدو على الأرجح فرو فأر المِسْك، فكّر لويس في سرّه. مهما كان يُفترَض به أن يبدو، فقد جعَلها تبدو جميلة جداً.

ربما شيءٌ مما كان يشعر به بدا على عينيه لأنها عانَقته بشكل عفوي، حاشرةً غايدج بينهما. بدا غايدج متفاجئاً لكن غير منزعج كثيراً.

"لويس كريد، أحبك"، قالت.

"ماماا"، قالت إيليه وقد نفد صبرها الآن. "هيا بنا - هيا بنا -"

"حسناً، حسناً"، قالت. "أحسِن التصرّف يا لويس".

"سأكون يقظاً"، قال مبتسماً، "أوصلي سلامي إلى أهلك".

"آه، أنت"، قالت وجعَّدت أنفها نحوه. لم تنخدع رايتشل؛ كانت تعرف بالضبط لماذا يتجنَّب لويس هذه الرحلة. "مُضحك".

راقَبهم يدخلون منحَدَر الصعود إلى الطائرة... ويختفون عن الأنظار للأسبوع القادم. وشَعَر بالحنين لهم منذ الآن. انتقَل إلى النافذة حيث كانت إيليه، حاشراً يديه في جيبَي معطفه، وراح يراقب حمّالي الأمتعة يؤدّون عملهم.

كانت الحقيقة بسيطة. فالسيد والسيدة إروين غولدمان من لايك فوريست لم يحبّا لويس من البداية فحسب، بل وأتى من الجهة الخطأ من المسارات أيضاً، لكن هذا طرف جبل الجليد فقط. الأسوأ هو أنه توقَّع دعماً كاملاً من إبنتهما، التي حرصا على أن تكون ملتزمة دينياً طوال سنواتها الثمانية عشرة الأولى من حياتها وأُرسلَت إلى أفضل المدارس، أثناء دراسته في كلّية الطب، حيث سيرسُب بشكل مؤكَّد تقريباً.

كان بإمكان لويس تولّي كل ذلك، وهو ما كان يفعله في الواقع. ثم حصل شيءٌ لم تعرفه رايتشل ولن تعرفه أبداً... ليس من لويس، على أي حال. فقد عرضَ إروين غولدمان أن يدفع كامل مصاريف دراسة لويس في كلّية الطب على شرط أن يكون ثمن هذه "المنحة التعليمية" (كلمتَي غولدمان) هو قطع لويس علاقته برايتشل حالاً.

لم يكن لويس كريد في الفترة المثلى من حياته ليتعامل مع هكذا إهانة، لكن هكذا اقتراحات ميلودرامية (أو رشاوى، لقول الحق دون مواربة) نادراً ما تُقدَّم للذين يكونون في فترتهم المثلى - والتي قد تكون في حوالي سنّ الخامسة والثمانين. كان مُتعَباً، من جهة. فهو يمضي ثماني عشرة ساعة في الأسبوع في الحصص، وعشرين ساعة أخرى منكبّاً على الكتب، وخمس عشرة ساعة أخرى يخدم الطاولات في متجر بيتزا مخبوزة في أطباق عميقة في آخر شارع فندق وايتهول. كما كان متوتّراً. فأسلوب السيد غولدمان المرِح بشكل غريب ذلك المساء تبايَنَ بالكامل مع سلوكه البارد السابق، وشَعَر لويس أنه عندما دعاه غولدمان إلى

مكتبه الخاص ليدخّن سيجاراً، رمى نظرة سريعة نحو زوجته. لاحقاً - وبوقت طويل، عندما سمح الوقت لإجراء مراجعة عامة - وجدَ لويس أن الأحصنة تشعر بلا شك بنفس هذا القلق العام عندما تشمّ الدخان الأول لحريقٍ في البراري. بدأ يتوقع أن يكشف غولدمان في أي لحظة معرفته بأن لويس يضاجع إبنته.

لكن عندما قدَّم غولدمان عرضه غير المعقول بدلاً من ذلك - وحتى أخرجَ دفتر شيكاته من جيب سترة تدخينه مثل مجرفة في إحدى مهزلات نويل كاورد وراح يلوِّح به أمام وجه لويس - انفجَر لويس. اتَّهَم غولدمان بأنه يحاول إبقاء إبنته كغرضٍ معروضٍ في متحف، بأنه لا يملك أي اعتبار لأي شخص سوى نفسه، وبأنه وغد مستبِد أرعن. وسيمرّ وقت طويل قبل أن يعترف لنفسه أن جزءاً من غضبه كان نابعاً من الارتياح.

كل تلك البصائر الصغيرة حول شخصية إروين غولدمان، رغم صحّتها، لم تكن تحمل أي طابع ديبلوماسي إصلاحيّ. بعد استبعاد أي شبه مع نويل كاورد؛ إذا كانت هناك فكاهة في بقية المحادثة، فكانت من النوع السوقيّ أكثر بكثير. فقد طرده غولدمان وأخبَره أنه إذا رآه مرة أخرى على عتبة بابه، فسيطلق عليه النار مثل كلب حقير. وأخبَره لويس أن يأخذ دفتر شيكاته ويسدّ به مؤخِّرته. قال غولدمان إنه رأى متشرِّدين على الحضيض لديهم إمكانيات أكثر من لويس كريد. وقال له لويس إنه بوسعه أيضاً حشر بطاقتَيه الفيزا والأميركان اكسبرس الذهبية اللعينتين في مؤخرته إلى جانب دفتر شيكاته.

كل هذا لم يكن خطوةً أولى واعدةً نحو بناء علاقات جيدة مع الأنسباء المستقبليين بحكم الزواج.

في النهاية، أقنعتهما رايتشل (بعدما سنحت الفرصة لكل واحد

منهما أن يندم على الأشياء التي قالها، رغم أنهما لم يغيِّرا رأيهما ببعضهما أبداً). لم تتكرَّر الميلودراما، وبالطبع لم يكن هناك مشهد مسرحي متجهّم من النوع "لم تعد لديَّ إبنة من الآن وصاعداً". الأرجح أن غولدمان كان ليعاني خلال زواج رايتشل من مخلوق البحيرة الساحلية السوداء قبل أن ينكرها. ومع ذلك فالوجه الناتئ فوق ياقة معطف إروين غولدمان الصباحيّ في يوم زفاف لويس على رايتشل بدا مشابهاً جداً للوجوه المنحوتة أحياناً على النواويس المصرية. كانت هدية عرسهما ست أوانٍ فخاريةٍ وفرن مايكروويف. لا مال. وخلال معظم أيام لويس المتهوِّرة في كلّية الطب، عمِلت رايتشل كبائعة في متجر ألبسة نسائية. منذ ذلك اليوم وحتى الآن، لا تعرف رايتشل إلا أن الأمور كانت وستبقى "متوتّرة" بين زوجها ووالدَيها... بالأخص بين لويس وأبيها.

كان بوسع لويس أن يذهب إلى شيكاغو مع عائلته، رغم أن مواعيد الجامعة كانت ستفرض عودته قبل رايتشل والولدَين بثلاثة أيام. لكن هذه ليست مشقّة كبيرة. من جهة أخرى، تمضية أربعة أيام مع إمحوتب وزوجته أبو الهول كانت لتكون مشقّة كبيرة.

الولدان ليَّنا حموَيه كثيراً، مثلما يفعل الأولاد في أغلب الأحيان. وشكَّ لويس أنه بوسعه إكمال التقارب بنفسه بمجرد الإدعاء أنه نسي ذلك المساء في مكتب غولدمان. ولن يهمّ حتى لو عرَف غولدمان أنه يدَّعي. لكن الحقيقة كانت (ولديه الجرأة على الأقل ليعترف بذلك لنفسه) أنه لم يرغب أن يقوم بذلك التقارب. عشر سنوات فترةٌ طويلةٌ، لكنها ليست طويلة كفاية لتبديد المذاق المقزِّز الذي ملأ فمه عندما فتح العجوز أحد طرفَي سترة تدخينه البلهاء تلك في مكتبه الخاص أمام كوبين من الشراب وأخرجَ منه دفتر شيكاته. نعم، شَعَر بالارتياح أن

أمر الليالي - خمسة بالإجمال - التي أمضاها ورايتشل على السرير المرتخي لشقته الضيقة لم يُكتشَف، لكن ذلك القرف المفاجئ كان شيئاً مختلفاً كلياً، ولم تغيِّره السنوات بين ذلك الوقت والآن.

كان بإمكانه الذهاب، لكنه فضَّل أن يرسل إلى حميه حفيدَيه، مع إبنته ورسالة.

انطلقت الدلتا 727 مبتعدةً عن المنصة، واستدارت... ورأى إيليه عند إحدى النوافذ الأمامية تلوِّح بشكل محموم. لوَّح لها لويس مبتسماً، ثم رفعت إحداهما - إيليه أو رايتشل - غايدج إلى النافذة. لوَّح له لويس، ولوَّح له غايدج بدوره - ربما لأنه رآه، أو ربما لأنه كان يقلِّد إيليه فقط.

"أوصلوا عائلتي بأمان"، تمتم، ثم أغلق سحّاب معطفه وخرَج إلى مرأب السيارات. كانت الرياح تنتحب هناك وتهبّ بقوة كافية لتنتزع القبعة عن رأسه، فوضع يده عليها. راح يتلمَّس مفاتيحه لكي يفتح باب السائق في سيارته ثم استدار بينما أقلعت الطائرة النفّاثة من وراء مبنى المحطة، رافعةً أنفها نحو السماء الزرقاء، ومحرِّكاتها تدوّي.

شَعَر لويس بالوحدة فعلاً الآن - وكان قريباً من البكاء إلى حدّ يبعث على السخرية - فراح يلوِّح مرة أخرى.

كان لا يزال يشعر بالاكتئاب ذلك المساء عندما أعاد اجتياز الطريق 15 بعد زجاجتَي شراب شعير مع جاد ونورما - شربت نورما كوب عصير عنب، وهو شيء سمحه لها الطبيب وايبريدج، وحتى أوصاه لها. انتقَلوا إلى المطبخ هذه الليلة تماشياً مع فصل السنة.

أذكى جاد نيران الموقد الصغير، وجلَسوا حوله، شراب الشعير بارد، والدفء جيد، وأخبرهما جاد كيف صدَّ هنود الميكماك إنزالاً بريطانياً في متشايس منذ مئتَي سنة. قال إن أفراد قبيلة الميكماك كانوا

مخيفين جداً في تلك الأيام، ثم أضاف أنه يظنّ أن هناك بضعة محامي دولة ومحاميي أراضي فدراليين يظنّون أنهم لا يزالون مخيفين.

كان يجب أن تكون الأمسية جيدة، لكن لويس كان يُدرك أن منزلاً فارغاً بانتظاره. أثناء عبوره المَرجة وشعوره بالصقيع ينسحق تحت حذائه، سمِع أن الهاتف بدأ يرنّ في المنزل. هرع يركض، واجتاز الباب الأمامي، وقطعَ غرفة الجلوس مسرعاً (طارحاً منصة المجلات أرضاً)، ثم انزلق حذاؤه المثلج فوق مشمَّع أرضية المطبخ إلى الهاتف. خطفَ سمّاعة الهاتف خطفاً.

"ألو؟".

"لويس؟"، صوت رايتشل، بعيد قليلاً لكن ممتاز تماماً. "نحن هنا. لقد وصلنا. لا مشاكل".

"رائع!"، قال وجلس ليتكلّم معها، وهو يفكِّر في سرّه: *أتمنى من كل قلبي لو كنتِ هنا*.

الفصل 22

كان غداء الشُكر الذي قدَّمه جاد ونورما لذيذاً. عندما انتهى، عاد لويس إلى منزله وهو يشعر بالامتلاء والنعاس. صعد إلى غرفة النوم في الطابق العلوي، مستمتعاً بالهدوء قليلاً، خلع خفَّيه، واستلقى. كانت الساعة بعد الثالثة بقليل؛ واليوم في الخارج مُضاء بأشعة شمس شتوية رفيعة.

سأكبو قليلاً فقط، فكَّر في سرّه وسقط مستغرقاً في نومه.

هاتف غرفة النوم هو الذي أيقظه. تحسَّس بحثاً عنه، محاولاً أن يتمالك نفسه وهو مشوَّش الذهن من حقيقة أن الخارج كان مظلماً تقريباً. استطاع سماع نحيب الرياح حول زوايا المنزل والتمتمة الباهتة الجشّاء للسخّان.

"ألو"، قال. ستكون رايتشل تتصل من شيكاغو مرة أخرى لتتمنى له يوم شُكر سعيداً. ستضع إيليه على الخط لتكلِّمه ثم يأتي دور غايدج وثرثرته – وكيف استطاع أن ينام كل بعد الظهر اللعين في حين أنه كان ينوي مشاهدة مباراة كُرة القدم...

لكن المتصل لم يكن رايتشل. كان جاد.

"لويس؟ أخشى أنه ربما لديك مشكلة صغيرة".

نهض عن السرير، وهو لا يزال يحاول إبعاد النوم عن ذهنه. "جاد؟ أي مشكلة؟".

"حسناً، هناك قط ميت على مَرجتنا"، قال جاد. "أعتقد أنه قد يكون قط إبنتك".

"تشرش؟"، سأل لويس. شَعَر بانقباض مفاجئ في بطنه. "هل أنت متأكد يا جاد؟".

"لا، لستُ متأكداً مئة بالمئة"، قال جاد، "لكنه يشبهه".

"آه. آه تباً. سآتي حالاً يا جاد".

"حسناً يا لويس".

أغلق السمّاعة وبقي جالساً هناك لحوالي دقيقة. ثم دخَل واستخدَم الحمّام، وارتدى حذاءه، ونزل إلى الطابق السفلي.

حسناً، ربما لم يكن تشرش. جاد نفسه قال إنه غير متأكد مئة بالمئة. يا للهول، القط حتى لم يعد يريد أن يصعد إلى الطابق العلوي إلا إذا حمله أحدهم... لماذا سيجتاز الطريق؟

لكنه كان متأكداً في أعماقه أنه تشرش... وإذا اتصلت رايتشل هذا المساء مثلما ستفعل بكل تأكيد، ماذا سيقول لإيليه؟

تذكَّر بجنون نفسه يقول لرايتشل: *أعرف أن أي شيء، حرفياً أي شيء، يمكن أن يحصل للكائنات الجسدية. أنا أعرف هذا بصفتي طبيباً... هل تريدين أن تكوني الشخص الذي يشرح لها ماذا يحصل إذا دُهس على الطريق؟* لكنه لم يكن يصدِّق حقاً أن أي شيء سيحصل لتشرش، أليس كذلك؟

تذكَّر أحد الشباب الذي يلعب الورق معهم، وِيكس ساليفان، يسأله ذات مرة كيف يمكنه أن يُستثار لزوجته ولا يُستثار للنساء العاريات اللواتي يَراهنّ يوماً بعد يوم. حاوَل لويس أن يشرح له أن المسألة ليست مثلما يتوهّمها الناس – فالمرأة التي تأتي لتخضع لفحص عنق الرحم أو لتتعلَّم كيف تفحص صدرها بنفسها لم ترمي عنها الملاءة فجأة وتقف أمامه مثل فينوس. ما تراه هو صدر، فرْج، فخذ. أما الباقي فمغطى بملاءة، وهناك ممرضة حاضرة، لحماية سُمعة الطبيب أكثر من أي شيء آخر. لم يقتنع ويكي. فالثدي يبقى ثدياً، هذا رأي ويكي، ونقطة على السطر. يجب إما أن تكون مستثاراً طوال الوقت أو

غير مستثار أبداً. كل ما استطاع لويس أن يردّ عليه هو قوله إن ثدي زوجتك *مختلف*.

تماماً مثلما يُفترَض أن تكون عائلتك مختلفة، فكَّر في سرّه الآن. لم يكن يُفترَض أن يُقتَل تشرش لأنه كان داخل الدائرة العجيبة للعائلة. وما فشل في إفهامه لويكي هو أن الأطباء يميِّزون الأمور عن بعضها بابتهاج وغير تحيُّز تماماً مثل أي شخص آخر. الثدي ليس ثدياً إلا إذا كان ثدي زوجتك. وفي العيادة، ثدي امرأة أخرى ليس ثدياً بل حالةً مَرَضيةً. يمكنك الوقوف أمام جمهور ندوة طبية وتذكر لهم أرقام الأولاد المصابين بسرطان الدم إلى أن يُبَحّ صوتك وستظل مذهولاً غير مصدِّقٍ إن أُصيب به أحد أولادك. ولدي؟ قطة ولدي، حتى؟ لا بدّ وأنك تمزح أيها الطبيب.

لا تقلق. خذ هذا خطوةً واحدةً تلو الأخرى.

لكن هذا كان صعباً عندما تذكَّر كم أصبحت إيليه هستيرية من احتمال أن يموت تشرش يوماً ما.

القط اللعين الغبي، لماذا ربَّينا قطاً لعيناً من الأصل، على أي حال؟
لكنه أُخصيَ. وكان يُفترَض أن يُبقيه ذلك حيّاً.

"تشرش؟"، نادى، لكنه لم يسمع غير صوت السخّان، يتمتم ويتمتم، ويحرق الدولارات. كانت الأريكة في غرفة الجلوس، التي أصبح تشرش يمضي معظم وقته عليها مؤخراً، فارغةً. لم يكن مستلقياً على أحد المشعاعات. خشخَش لويس طبق القط، وهو الشيء الوحيد الذي يكفل قدوم تشرش مُسرعاً إذا كان على مرمى سمعه، لكن لم يأتِ قطٌ مسرعاً هذه المرة... وخشيَ أنه لن يأتي مرة أخرى.

ارتدى معطفه وقبعته بدون حماس وتوجَّه نحو الباب. ثم عاد. مُصغياً لما أخبَره به حدسه، فتَح الخزانة تحت المغسلة وقرفص. كان

هناك نوعان من الأكياس البلاستيكية - بيضاء صغيرة لسلال النفايات داخل المنزل وخضراء كبيرة لصفائح النفايات خارجه. أخذ لويس أحد الأكياس الخضراء. فقد ازداد وزن تشرش منذ أن تم إصلاحه.

حشر الكيس في أحد الجيوب الجانبية لسترته، فلم يعجبه الملمس الزلق البارد للبلاستيك على أصابعه. ثم خرج من الباب الأمامي واجتاز الشارع إلى منزل جاد.

كانت حوالي الخامسة والنصف. والشَفَق شارف على الانتهاء. وهناك طابع موت في الأفق. كان باقي الغروب خطاً برتقالياً غريباً على الأفق فوق النهر. والرياح تهبّ على الطريق 15، وتُخدِر خدَّي لويس وتخطف الضباب الأبيض لأنفاسه. ارتَجَف، لكن ليس من البرد، بل من الشعور بالوحدة. كان قوياً ومُقنِعاً. وبدا أنه لا توجد أي طريقة لتجسيده بواسطة مجازٍ. كان مجهول الهوية. شَعَره من تلقاء نفسه فقط، غير ملموسٍ وغير لامسٍ.

رأى جاد عبر الطريق، محزَّماً في معطفه الأخضر الكبير، ووجهه تائهاً في الظل الذي تلقيه قبعة الفرو. بدا وهو يقف على مَرجته المجمَّدة أشبَه بتمثال، مجرد شيء ميت آخر في هذا الشَفَق الذي لا يغرّد فيه أي طائر.

بدأ لويس يجتاز الشارع، ثم تحرَّك جاد - لوَّح له لكي يرجع. وصرخ شيئاً لم يستطع لويس سماعه في النحيب المنتشِر للرياح. تراجَع لويس إلى الوراء، مُدركاً فجأة أن نحيب الرياح أصبح أكثر عمقاً وحدّةً. بعد لحظة صدحَ بوق هوائي وزأرت شاحنة أورينكو وهي تمرّ عن قرب بما فيه الكفاية لجعل بنطلونه وسترته يرفرفان. اللعنة حقاً فهو كان سيسير أمام ذلك الشيء تماماً.

تحقَّق من الاتجاهين هذه المرة قبل أن يجتاز الطريق. لم يكن هناك

سوى الأضواء الخلفية للناقلة وهي تتلاشى في الشَفَق.

"ظننتُ أن شاحنة أورينكو تلك ستنال منك"، قال جاد. "كن حذراً يا لويس". حتى من هذه المسافة القريبة، لم يستطع لويس رؤية وجه جاد، واستمر شعور الانزعاج بأن هذا كان يمكن أن يكون أي شخص... أي شخص على الإطلاق.

"أين نورما؟"، سأل، وهو لا يزال لا يُخفض نظره إلى حزمة الفرو الممدَّدة عند قدمَي جاد.

"ذهَبت إلى احتفال يوم الشُكر"، قال. "أظن أنها ستبقى هناك حتى العشاء، رغم أنني لا أعتقد أنها ستأكل شيئاً". عصفت الرياح، دافعةً القبعة إلى الخلف للحظة، ورأى لويس أنه جاد بالفعل – ومَن سيكون غيره؟ "إنه مجرد عذر لتجتمع النساء مع بعضهن"، قال جاد. "لا يأكلن كثيراً سوى شطائر بعد وجبة الطعام الكبيرة عند الظهر. ستعود عند حوالي الثامنة".

ركع لويس لينظر إلى القط. *أرجو ألا يكون تشرش*، راح يتمنّى بحماسة بينما أداره بلطف بأصابع مكسوة بقفّاز. *أرجو أن يكون قط شخص آخر، أرجو أن يكون جاد مخطئاً*.

لكنه بالطبع كان تشرش. لم يكن مشوَّهاً بأي طريقة؛ كما لو أن إحدى الناقلات الكبيرة التي تجوب الطريق 15 لم تدهسه (*ماذا كانت شاحنة أورينكو تلك تفعل على الطريق يوم الشُكر؟* تساءل عشوائياً). كانت عينا تشرش نصف مفتوحتين، وتلمعان مثل بِليتين خضراوين. وهناك بعض الدم الذي خرج من فمه، الذي كان مفتوحاً أيضاً. ليس مقداراً كبيراً من الدم؛ فقط ما يكفي لتلطيخ المريلة البيضاء على صدره.

"قطكم يا لويس؟".

"نعم"، وافَق وتنهَّد.

أدرك للمرة الأولى أنه يحبّ تشرش - ربما ليس بنفس حماسة إيليه لكن بطريقته الخاصة. في الأسابيع التي تلت إخصاءه، تغيَّر تشرش، أصبح بديناً وبطيئاً، واعتمد روتيناً نقَّله بين سرير إيليه والأريكة وطبقه، لكن نادراً خارج المنزل. بعد وفاته الآن، بدا للويس أنه عاد تشرش القديم. الفم، الصغير والدموي، والمليء بأسنان حادّة جداً، كان مجمَّداً في زمجرةٍ غاضبةٍ. وبدت العينان الميتتان حانقتين. كان كما لو أنه بعد فترة الغباء القصيرة والهادئة من حياته كحيوانٍ مخصيٍ، أعاد تشرش اكتشاف طبيعته الحقيقية عند موته.

"نعم، هذا تشرش"، قال. "اللعنة عليَّ إن كنتُ أعرف كيف سأُخبر إيليه هذا".

خطرت فكرة بباله فجأة. سيدفن تشرش في مقبرة الحيوانات من دون شاهد أو إحدى تلك الحماقات. ولن يقول شيئاً لإيليه عنه هذه الليلة على الهاتف؛ وسيذكر لها غداً بنبرة عادية أنه لم يره في الأرجاء؛ وسيقترح بعد الغد أنه ربما تاه في تجواله. القطط تفعل هذا أحياناً. ستحزن إيليه بالتأكيد، لكن لن يكون هناك أي حسمٍ نهائيٍ للأمر... لا تكرار لرفض رايتشل المزعج بالتعامل مع الموت... مجرد ذبول...

جبان، تلفَّظ جزءٌ من ذهنه.

نعم... لا جدال. لكن مَن يحتاج إلى هذه المشاحنة؟

"تحبّ هذا القط كثيراً، أليس كذلك؟"، سأل جاد.

"نعم"، قال لويس بذهن شارد. حرَّك رأس تشرش مرة أخرى. بدأ القط يتصلَّب، لكن رأسه لا يزال يتحرَّك بسهولة أكثر بكثير مما يجب. العنق مكسور. أجل. نظراً لهذا، فكَّر أنه يمكنه فهم ما حصل. كان تشرش يجتاز الطريق - لسبب مجهول تماماً - ودهسته سيارة أو شاحنة، فكسرت له عنقه ورمته جانباً على مَرجة جاد كراندال. أو ربما

انكسر عنق القط عندما ارتطم بالأرض المجمَّدة. لا يهمّ. فالنتيجة هي نفسها في الحالتين. لقد مات تشرش.

رفع نظره إلى جاد ليُخبره استنتاجاته، لكن جاد كان يشيح بنظره نحو خط الضوء البرتقالي المتضائل في الأفق. سقطت قبعة معطفه عن رأسه قليلاً، وبدا وجهه مستغرقاً في التفكير وصارماً... وحتى قاسياً.

أخرجَ لويس كيس النفايات الأخضر من جيبه وفتحه، وأمسك به بقوة لمنع الرياح من أن تطيّره من يده. بدا أن صوت فرقعة الكيس أعادت جاد إلى أرض الواقع.

"نعم، أظنها تحبّه كثيراً"، قال جاد. بدا استخدامه لصيغة المضارع مُوحِشاً قليلاً... المكان بأكمله، مع الضوء المتضائل والبرد والرياح، أشعره أن الجو مُوحِش وقوطيّ.

ها هو هيثكليف على الأرض البور المُقفرة، فكَّر لويس في سرّه، وهو يكشِّر بوجه البرد. *استعدّ لتضع قط العائلة في كيس كبير. مدهش.*

أمسَك ذيل تشرش، وفتح فم الكيس، ورفع القط. اشمأزَّ وجهه واكفهرَّ من الصوت الذي أحدثته جثة القط عندما سحَبها من الصقيع الذي كان قد حلَّ عليها. بدا القط ثقيلاً بشكل لا يُصدَّق، كما لو أن الموت استقرَّ عليه مثل وزن جسديّ. *يا للهول، وزنه مثل دلو رمل.*

أمسك جاد الطرف الآخر للكيس، وأفلَت لويس تشرش فيه، مسروراً من تخلّصه من ذلك الوزن الغريب البغيض.

"ماذا ستفعل به الآن؟"، سأل جاد. بدا وجهه محفوراً تقريباً داخل قبعة المعطف. لكن عينيه ركَّزتا على عينَي لويس بقوة.

"أظن أنني سأضعه في المرأب"، قال لويس. "وأدفنه في الصباح".

"في مقبرة الحيوانات؟".

هزَّ لويس كتفيه. "أظن ذلك".

"ستُخبر إيليه؟".

"ع... عليَّ التفكير ملياً بهذا".

بقي جاد صامتاً للحظات، ثم بدا أنه توصَّل إلى قرار. "انتظر هنا لدقيقة أو دقيقتين يا لويس".

ابتعَد جاد، من دون أن ينتبه إلى أن لويس قد لا يريد انتظار دقيقة في هذا الليل المرير. ابتعَد بثقة وبتلك الرشاقة التي كانت غريبة لدى رجل في سنّه. ووجَد لويس أنه ليس لديه شيء ليقوله على أي حال. لم يكن يشعر أنه على طبيعته كثيراً. راقَب جاد يذهب، مسروراً جداً لوقوفه هنا.

رفع وجهه في الرياح بعد أن أُغلق الباب، وكيس النفايات الذي يحتوي على جثة تشرش يلوح بين قدمَيه.

مسرور.

نعم، كان مسروراً. لأول مرة منذ أن انتقلوا إلى ماين، شَعَر أنه في موقعه، أنه في منزله. واقفاً هنا بمفرده في الشَفَق الغريب، واقفاً على حافة الشتاء، شَعَر بالحزن لكن بابتهاج غريب وشامل – شامل بطريقة لم يختبرها من قبل، أو لا يستطيع أن يتذكَّرها، منذ الطفولة.

شيءٌ ما سيحصل هنا يا بوبا. أظنه شيئاً غريباً جداً.

أمال رأسه إلى الخلف ورأى نجوم الشتاء البارد في سماء متّشحة بالسواد.

لم يعرف لكم من الوقت بقي واقفاً هكذا، رغم أنه لا يمكن أن يكون طويلاً من حيث الثواني والدقائق. ثم شعشعَ ضوءٌ على شرفة جاد، تمايَل، اقترب من باب الشرفة، ونزل السلالم. كان جاد خلف مشعل كهربائي كبير، ويُمسك في يده الأخرى ما ظنّه لويس في البدء علامة X كبيرة... ثم رأى أنها مِعوَل ومجرفة.

أعطى لويس المجرفة، الذي أخذها بيده الحرة.

"ماذا تنوي أن تفعل يا جاد؟ لا يمكننا دفنه هذه الليلة".

"بلى، يمكننا. وسنفعل ذلك". كان وجه جاد ضائعاً خلف الدائرة الساطعة للمشعل الكهربائي.

"جاد، الجو مظلم. والوقت متأخر. والبرد –"

"بالله عليك"، قال جاد. "دعنا نُنهي المسألة".

هزَّ لويس رأسه وحاوَل أن يبدأ من جديد، لكن الكلمات خرجت جامدة – كلمات الشرح والتبرير. بدت بلا معنى أمام الزعيق المنخفض للرياح، والنجوم في السماء السوداء.

"يمكنه الانتظار حتى الغد عندما يمكننا رؤية –"

"هل تحبّ القط؟".

"نعم، لكن –"

صوت جاد، هادئ ومنطقي نوعاً ما: "وهل تحبّها؟".

"بالطبع أحبّها، إنها إبنتـ –"

"هيا إذاً".

مشى لويس.

مرتين – وربما ثلاث مرات – خلال الصعود إلى مقبرة الحيوانات تلك الليلة حاوَل لويس أن يتكلَّم مع جاد، لكن جاد لم يُجبه. استسلَم لويس. ذلك الشعور بالاطمئنان، الغريب رغم الظروف لكنه حقيقة صافية، استمر. بدا أنه يأتي من كل مكان. حتى الألم المتواصل في عضلاته من حمل تشرش في يدٍ والمجرفة في اليد الأخرى كان جزءاً منه. الرياح، الباردة جداً والتي تُخدِر البشرة المكشوفة، كانت جزءاً منه؛ بقيت تهبّ باستمرار في الأشجار. بعدما وصلا إلى الغابة، لم يكن

هناك ثلج يُذكَر. كان الضوء المتمايل لمشعل جاد الكهربائي جزءاً منه، يشعّ مثل شعلة بدائية تسير إلى مكان أعمق وأعمق في الغابة. شَعَر بالحضور المنتشِر، المغنطيسي، الذي لا يمكن إنكاره، لسرٍ ما. سرٍ دفينٍ.

ضَمَرت الظلال وملأه شعور بالمساحة. لمعَ الثلج بشحوب.

"لنسترح هنا"، قال جاد، ووضع لويس الكيس أرضاً. مسَح العرق عن جبهته بذراعه. *لنسترح* هنا؟ لكنهما *كانا* هنا. بإمكانه رؤية الشواهد في الحركة العشوائية لضوء جاد بينما جلَس جاد على الثلج الرقيق ووضع وجهه بين ذراعيه.

"جاد؟ هل أنت بخير؟".

"بخير. أحتاج فقط إلى التقاط أنفاسي قليلاً".

جلَس لويس بجانبه وراح يأخذ عدة أنفاسٍ عميقةٍ.

"أتعرف؟"، قال، "أشعر أنني أفضل مما كنتُ عليه منذ ست سنوات تقريباً. أعرف أنه من الجنون قول شيء كهذا عندما تدفن قط إبنتك، لكنها الحقيقة دون موارية يا جاد. أشعر أنني بحالة جيدة".

أخذ جاد أنفاساً عميقةً مرة أو مرتين هو أيضاً. "أجل أعرف"، قال. "هكذا يكون الحال بين الحين والآخر. لا تختار الأوقات التي تشعر فيها أنك بحالة جيدة، تماماً مثلما لا تختار الأوقات التي تشعر فيها أنك بحالة سيئة. وللمكان علاقة بهذا أيضاً، لكنك لا تريد أن تثق بهذا. الهيروين يجعل المدمن يشعر أنه بحالة جيدة عندما يضعه على ذراعه، لكنه يسمّمه طوال الوقت. يسمِّم له جسمه وطريقة تفكيره. بإمكان هذا المكان أن يكون هكذا يا لويس، ولا تنسَ هذا أبداً. آمل أنني أفعل الصواب. أعتقد ذلك، لكن لا يمكنني أن أكون أكيداً. يتشوَّش ذهني أحياناً. أظن أن الخَرَف قادم".

"لا أعرف عما تتكلّم".

"لهذا المكان طاقة يا لويس. ليست قوية هنا، لكن... في المكان الذي نذهب إليه".

"جاد –"

"هيا بنا"، قال جاد وكان على قدمَيه مرة أخرى. أضاء شعاع المشعل الكهربائي الأشجار الساقطة. كان جاد يسير نحوها. تذكَّر لويس فجأة سيره أثناء نومه. ماذا قال باسكاو في الحلم الذي رافَقه؟

لا تذهب أبعد من هناك، مهما شعرتَ أنك بحاجة إلى فعل ذلك أيها الطبيب. لم يُصنَع الحاجز لكي يُكسر.

لكن ذلك الحلم أو التحذير أو مهما كان بدا الآن، هذه الليلة، بعيداً عنه مقدار سنوات وليس أشهراً. شَعَر لويس أنه حيّ ومليء بالحيوية، جاهز ليتعامل مع أي شيء، لكن التساؤل يغمره. خطَر بباله أن *هذا* يشبه حلماً كثيراً.

ثم استدار جاد نحوه، وبدت قبعة المعطف كأنها تحيط فراغاً، وتخيَّل لويس للحظةٍ أن باسكاو نفسه هو الذي يقف أمامه الآن، أن الضوء اللامع سينعكس ويشعّ على جمجمة مبتسمة مكسوة بالفرو، وعاد خوفه مثل دفعة ماء بارد.

"جاد"، قال، "لا يمكننا أن نتسلّق هذه. سيكسر كل واحد منا رِجله ثم قد نتجمَّد حتى الموت بينما نحاول العودة".

"فقط اتبعني"، قال جاد. "اتبعني ولا تُخفِض نظرك. لا تتردَّد ولا تُخفِض نظرك. أعرف الطريق، لكن يجب اجتيازه بسرعة وثقة".

بدأ لويس يظنّ أنه ربما حلمٌ، أنه لم يستيقظ أبداً من قيلولته بعد الظهر. *لو كنتُ مستيقظاً*، فكَّر في سرّه، *لكان احتمال تسلّقي هذه الأشجار الساقطة موازياً لاحتمال تناولي الشراب حتى الثمالة ثم ذهابي للقفز بالمظلة. لكنني سأتسلّقها. أظن هذا حقاً. لذا... لا بدّ أنني*

أحلم. صح؟

تحرَّك جاد يساراً قليلاً، بعيداً عن وسط الأشجار الساقطة. وتركَّز شعاع الضوء بشكل ساطع على الكومة الملخبطة من

(العظام)

الأشجار والأغصان القديمة الساقطة. أصبحت دائرة الضوء أصغر وأكثر سطوعاً بينما اقتربا. من دون أي توقف أبداً، من دون حتى نظرة سريعة ليطمئن نفسه أنه في المكان الصحيح، بدأ جاد يتسلَّق. لم يزحف؛ لم يتسلَّق منحنياً، مثلما سيتسلَّق المرء تلةً صخريةً أو منحدراً رملياً. صعَد فقط، كما لو أنه يتسلّق سلالم. فالرجل الذي يصعد السلالم لا يكترث أن يُخفِض نظره لأنه يعرف تماماً مكان وجود كل درجة. كان جاد يصعد مثل رجل يعرف من أين تأتي خطوته التالية.

تبَعه لويس بنفس الطريقة.

لم يُخفِض نظره أو يبحث عن مواطئ قدمَيه. شعَر بيقين غريب لكن شامل أن الأشجار الساقطة لا تستطيع أن تأذيه إلا إذا سمح لها بذلك. كان شعوراً غبياً بالطبع، مثل الثقة الغبية لرجلٍ مقتنعٍ أنه من الآمن كلياً أن يقود سيارته ثملاً بالكامل طالما أنه يرتدي قميصه الجالب للحظ.

لكنه نجح.

لم ينكسر أي غصن تحت رِجليه مُحدثاً صوتاً يشبه صوت طلقة المسدس، ولم يسقط في هوّة مليئة بشظايا ناتئة بيَّض الطقس لونها وكل واحدة منها جاهزة لتمزّقه وتشوّهه. لم ينزلق حذاؤه (خفّ منزلي بالكاد يُنصَح به لتسلّق كومة أشجار ساقطة) على الطحلب الجاف القديم الذي نما على العديد من الأشجار الساقطة. كما لم يمِل إلى الأمام أو الخلف. كانت الرياح تغنّي بقوة في أشجار الشوح التي من حولهما.

للحظة رأى جاد واقفاً على قمة الأشجار الساقطة، ثم بدأ ينزل على الجهة الأخرى، وربلتاه تختفيان عن الأنظار، ثم فخذاه، ثم ورِكاه وخصره. كان الضوء ينعكس عشوائياً عن أغصان الأشجار على الجهة الأخرى للـ... الحاجز. نعم، هذا ما كان عليه، لماذا يحاول أن يدَّعي خلاف ذلك؟ الحاجز.

وَصَل لويس إلى القمة أيضاً وتوقف هناك لبرهة، قدمه اليمنى مزروعة على شجرة ساقطة قديمة كانت مائلة صعوداً عند زاوية خمس وثلاثين درجة، وقدمه اليسرى على شيء ليِّن أكثر - شبكة أغصان شوح قديمة؟ لم يُخفض نظره ليرى، بل فقط بدَّل كيس القمامة الثقيل الذي يحوي جثة تشرش من يده اليمنى إلى اليسرى، ناقلاً إليها المجرفة الأخف وزناً. رفع رأسه في الرياح وشَعَر بها تلفحه في تيار لانهائي، ترفع له شعره. كانت باردة جداً، نظيفة جداً... *ثابتة جداً*.

متحرِّكاً بشكل عادي جداً، يمشي الهُوَينى تقريباً، بدأ ينزل مرة أخرى. انكسر تحت قدمه بصخب غصنٌ شَعَر أنه بسماكة معصم رجل مفتول العضلات، لكنه لم يقلق أبداً - وتوقفت قدمه الغارقة على غصن أسمك تحتها بعشرة سنتيمترات. بالكاد ترنَّح لويس. افترَض أنه يمكنه أن يفهم الآن كيف تمكَّن قادة السرايا في الحرب العالمية الأولى من التنزّه عند أعلى الخنادق والرصاص يئزّ من حولهم، يصفِّر لحن "تيبيراري". كان الأمر مجنوناً، لكن الجنون بحدّ ذاته جعَله مُبهِجاً جداً.

نزَل وهو ينظر إلى الأمام مباشرة نحو الدائرة الساطعة لضوء جاد. كان جاد يقف هناك، ينتظره. ثم وَصَل إلى الأسفل، وملأه الابتهاج مثل رشّة زيت على جمرات.

"نجحنا!"، صرَخ. وَضَع المجرفة أرضاً وربَّت على كتف جاد. تذكَّر اجتيازه حاملة سكة حديدية في تحدٍ عندما كان صغيراً؛ تذكَّر تسلّقه

شجرة تفاح إلى قمتها حيث تمايَلت في الرياح مثل صاري السفينة. لم يشعر بهذا الشباب أو بهذه الحيوية منذ عشرين سنة أو أكثر. "لقد نجحنا يا جاد!".

"وهل كنتَ تعتقد أننا لن ننجح؟"، سأل جاد.

فتَح لويس فمه ليقول شيئاً - *تعتقد أننا لن ننجح؟ نحن محظوظان أننا لم نقتل أنفسنا!* - ثم أغلقه مرة أخرى. لم يشكّك أبداً في الواقع، ليس من لحظة اقتراب جاد من الأشجار الساقطة. ولم يكن قلقاً بشأن عبورها مرة أخرى.

"لا أظن"، قال.

"هيا بنا. لا تزال أمامنا بعض المسافة لنقطعها. خمسة كيلومترات تقريباً".

سارا. استمرّ المسار بالفعل. بدا عريضاً جداً في بعض الأماكن، رغم أن الضوء المتحرّك كشف القليل بوضوح؛ كان في الأغلب شعورٌ بالمساحة، شعورٌ بأن الأشجار تراجعت إلى الخلف. رفع لويس نظره مرة أو مرتين ورأى النجوم تدور بين الحدود الداكنة المحتشِدة للأشجار. تبختر شيءٌ على المسار أمامهما، وأظهَرَ الضوء انعكاس عينين خضراوين - هناك ثم اختفتا.

وفي أوقات أخرى، أطبَق المسار عليهما إلى أن أصبحت الخميلة تخدش أصابع صلبة على كتفَي معطف لويس. بقي يبدِّل الكيس والمجرفة بين يديه في أغلب الأحيان، لكن الألم في كتفَيه أصبح متواصلاً الآن. وَقَع في إيقاع سير وأصبح كأنه منوَّم مغنطيسياً. توجد طاقة هنا، نعم، شَعَر بها. تذكَّر مرةً في السنة المدرسية الأخيرة ذهب فيها مع صديقته إلى منطقة ريفية نائية وانتهى بهما الأمر يقبّلان بعضهما في نهاية طريق ترابي مسدود بالقرب من محطة طاقة. لم يمض وقت طويل

على وجودهما هناك عندما قالت صديقته إنها تريد العودة إلى المنزل، أو على الأقل إلى مكان آخر، لأن كل أسنانها (كل التي تحتوي على حشوات، على أي حال، وكانت معظمها) تؤلمها. كان لويس مسروراً من مغادرة ذلك المكان، فالهواء حول محطة الطاقة جَعَله يشعر بالتوتّر وأنه يقظ جداً. هذا كان مماثلاً، لكنه أقوى. أقوى لكن ليس بغيضاً أبداً. كان –

توقَف جاد عند أسفل منحدر طويل واصطدم لويس به.

استدار جاد نحوه. "كدنا نصل إلى حيث نحن ذاهبان الآن"، قال بهدوء. "المسافة التالية تشبه الأشجار الساقطة – عليك أن تسير بهدوء واسترخاء. فقط اتبعني ولا تُخفِض نظرك. هل شعرت أننا ننزل؟".

"نعم".

"هذه حافة ما كان أفراد قبيلة الميكماك يسمّونه مستنقع الملك الصغير. وتجّار الفراء الذين اجتازوه سمّوه مستنقع الرجل الميت، ومعظمهم الذين جاءوا إليه مرةً وخرَجوا منه لم يعيدوا زيارته أبداً".

"هل هناك رمال متحركة؟".

"آه، نعم، الكثير من الرمال المتحركة! جداول تزبد من تحت كمية كبيرة من رمال الكوارتز التي خلّفتها المُجلَّدة وراءها. رمال السيليكا، هكذا نسمّيها دائماً، رغم أنه يوجد إسم ملائم لها على الأرجح".

نظَرَ جاد إليه، وللحظة ظنَّ لويس أنه رأى شيئاً مشعّاً وغير لطيف بالكامل في عينَي العجوز. كان قوياً ومشحوناً، مثل الهواء حول محطة الطاقة في تلك الليلة المدرسية منذ زمن بعيد.

ثم حرَّك جاد المشعل الكهربائي واختفت النظرة.

"هناك الكثير من الأمور المضحكة أمامنا يا لويس. الهواء أثقل...

كهربائي أكثر... أو شيء".

جفلَ لويس.

"ما الأمر؟".

"لا شيء"، قال لويس.

"قد ترى شرر سانت إلمو - ما يسمّيه البحّارة أضواء الصحون الطائرة. يعطي أشكالاً مضحكةً، لكنه لا شيء. إذا رأيت بعض تلك الأشكال وأزعجتك، أشح بنظرك فقط. وقد تسمع أصواتاً تبدو بشريةً، لكنها الطيور الغوّاصة جنوباً نحو بروسبكت. الصوت ينتقل بشكل مضحك".

"الطيور الغوّاصة؟"، قال لويس بارتياب. "في هذا الوقت من السنة؟".

"آه، نعم"، قال جاد مرة أخرى، وكان صوته خافتاً بشكل رهيب وغير مفهوم كلياً. للحظة تمنّى لويس بيأس لو يمكنه رؤية وجه العجوز مرة أخرى. تلك النظرة -

"جاد، إلى أين نذهب؟ ماذا نفعل هنا في هذا المكان اللعين في آخر الدنيا؟".

"سأُخبِرك عندما نصل إلى هناك". استدار جاد. "انتبه للأعشاب الأجميّة".

استأنفا السير، والتدرّج من رابية عريضة إلى التالية. لم يتلمَّس لويس طريقه عليها. بدا أن قدمَيه تجدانها تلقائياً، من دون جهد منه. انزلَق مرةً واحدةً فقط، فقد اخترقت فردة حذائه اليسرى طبقة رفيعة من الجليد وغطست في مياه باردة وراكدة مقزِّزة بطريقة ما. أخرجها بسرعة وتابع سيره خلف ضوء جاد المتمايل. أعاد له ذلك الضوء، العائم عبر الغابة، ذكريات حكايات القراصنة التي كان يحبّ قراءتها في صغره.

رجال أشرار يخرجون في ضوء القمر لطمر نقود ذهبية... وبالطبع سيسقط أحدهم فوق الصندوق في الحفرة، ورصاصة في قلبه، لأن القراصنة يصدِّقون - أو هكذا يدّعي مؤلفو تلك الحكايات الشنيعة - أن شبح رفيقهم الميت ستبقى هناك لتحرس الغنيمة.

ما عدا أننا لم نأتِ لنطمر كنزاً. فقط قط إبنتي المخصي.

شَعَر بموجة ضحك جامح تتراكم في داخله فكبتها.

لم يسمع أي "أصوات تبدو بشرية"، كما لم ير شرر سانت إلمو، لكن بعد عبوره فوق نصف دزينة أعشاب أجميّة، أخفَض نظره ورأى أن قدمَيه وربلتَيه ورُكبتَيه وفخذَيه السفليين اختفت في ضباب أرضي ناعم تماماً، أبيض تماماً، وكامد تماماً. كان الأمر أشبه بالسير في أخف تراكم ثلجي في العالم.

بدا الهواء خفيفاً الآن، وهو مستعد أن يحلف أنه بدا أكثر دفئاً. يمكنه رؤية جاد أمامه، يتحرَّك بثبات، والطرف الكليل للمِعوَل معقوفاً فوق كتفه. المِعوَل عزَّز وهم نيّة رجلٍ على طمر كنزٍ.

استمرّ حسّ الابتهاج المجنون ذاك، وتساءل فجأة إن كانت رايتشل ربما تحاول الاتصال به؛ إن كان الهاتف في المنزل يرنّ ويرنّ، مُصدِراً صوته العاقل الركيك. إذا -

كاد يصطدم بظهر جاد مرة أخرى. فقد توقف العجوز في وسط المسار، مُميلاً رأسه إلى إحدى الجهتين. كان فمه مزموماً ومتوتّراً.

"جاد؟ ما -"

"صه!".

سكَتَ لويس، وهو ينظر حوله بانزعاج. كان ضباب الأرض هنا أرقّ، لكنه لا يزال غير قادر على رؤية حذائه. ثم سمِع خميلةً تفرقع وأغصاناً تتكسَّر. شيءٌ ما يتحرَّك هناك - شيءٌ كبيرٌ.

فتَح فمه ليسأل جاد إن كان موظاً (*دباً* هي الفكرة التي خطرت بباله في الواقع)، ثم أغلقه مرة أخرى. الصوت ينتقل، قال جاد.

أمال رأسه إلى إحدى الجهتين في تقليد غير مقصود لجاد، غير مُدركٍ أنه يفعل ذلك، وراح يستمع. بدا الصوت بعيداً في البدء، ثم قريباً جداً؛ يبتعد عنهما ثم يقترب منهما بشكل منذر بسوء. شَعَر لويس بالعرق على جبهته بدأ يتقطَّر نزولاً على خدّيه المتشقِّقين. نقل الكيس الثقيل جداً الذي يحوي جثة تشرش من يد إلى الأخرى. لقد ترطَّبت راحة يده، وبدا البلاستيك الأخضر دهنياً ويريد أن ينزلق من قبضته. والشيء هناك بدا قريباً جداً الآن لدرجة أن لويس توقَّع رؤية شكله في أي لحظة، يرتفع على ساقَين، ربما، ويحجب النجوم عن الأنظار بجسمه الهائل الأشعث الذي لا يخطر على بال.

لم يعد *الدب* هو ما يفكِّر به.

لم يعد يعرف الآن بماذا كان يفكِّر.

ثم ابتعَد واختفى.

فتَح لويس فمه مرة أخرى، وكانت الكلمات *ماذا كان ذلك؟* على لسانه من قبل. ثم خرجت ضحكة حادّة مجنونة من الظلمة، ترتفع وتنخفض في دورات هستيرية، صاخبة، ثاقبة، مُقشعِرة. شَعَر لويس أن كل مِفصَل في جسمه تجمَّد وأن وزنه ازداد بطريقة أو بأخرى، ازداد كثيراً لدرجة أنه إذا استدار ليركض سيسقط أرضاً ويختفي عن الأنظار في الأرض المستنقعية.

ارتفعت الضحكة، وانقسمت إلى قوقأة جافة مثل صخرة عفِنة هشّة فوق عدة فوالق زلزالية؛ ووَصَلت إلى حدود الصراخ، ثم غرِقت في ضحكة حَلْقية خافتة ربما أصبحت شهقات قبل أن تتلاشى كلياً.

كانت هناك قطرات ماء في مكان ما وفوقها، مثل نهر هادئ في

السماء، النحيب الرتيب للرياح. ما عدا ذلك، كان مستنقع الملك الصغير صامتاً.

بدأ لويس يرتجف كلياً. وبدأت بشرته - بالأخص على الجزء السفلي لبطنه - تقشعرّ. نعم، تقشعرّ هي الكلمة الصحيحة؛ بدا لحمه في الواقع وكأنه يتحرَّك على جسمه. كان فمه جافاً كلياً. وبدا كأنه لم يبق فيه أي لعاب. ومع ذلك فقد استمرّ شعور الابتهاج ذاك، جنون راسخ.

"ما هذا؟"، همَس لجاد بصوت أجش.

استدار جاد لينظر إليه، وشعَر لويس أن العجوز بدا في الضوء الخافت وكأنه في المئة والعشرين من عمره. لم يعد هناك أثر لذلك الضوء الغريب المتراقص في عينيه. كان وجهه مرهقاً، وهناك رعب شديد في عينيه. لكن عندما تكلَّم، كان صوته هادئاً كفاية. "مجرد طائر غوّاص"، قال. "هيا بنا. كدنا نصل".

تابعا سيرهما. أصبحت الأعشاب الأجميّة أرضاً صلبةً مرة أخرى. وشعَر لويس بالفضاء المفتوح للحظات، رغم أن ذلك التوهُّج الخافت في الهواء تلاشى الآن، وكان هذا كل ما لديه ليميِّز طيف جاد على بُعد متر أمامه. كان العشب تحت قدمَيه قصيراً قاسياً مجمَّداً، وينكسر كالزجاج مع كل خطوة. ثم عادا بين الأشجار من جديد. استطاع أن يشمّ عطر الشوح، ويحسّ بوخز إبره. ويخدشه غصنٌ من وقت لآخر.

فَقَد لويس كل إحساس بالوقت أو الاتجاه، لكنهما لم يسيرا طويلاً قبل أن يتوقف جاد مرة أخرى ويستدير نحوه.

"الدرجات هنا"، قال. "محفورة في الصخر. اثنتان وأربعون أو أربعة وأربعون، لا أذكر بالضبط. فقط اتبعني. وصلنا إلى القمة ونحن هناك".

بدأ يتسلّق مرة أخرى، ومرة أخرى تبَعه لويس.

كانت الدرجات الصخرية عريضة كفاية، لكن الإحساس بأن الأرض تنخفض كان مُقلِقاً. وراح حذاؤه يحفّ هنا وهناك على الحصى والحجارة.

اثنتا عشرة... ثلاث عشرة... أربع عشرة...

كانت الرياح أكثر حدّة وبرودة، وتخدَّر وجهه بسرعة. *هل نحن فوق خط الأشجار؟* تساءل. رفع نظره ورأى مليار نجمة، أضواء باردة في الظلمة. طوال حياته لم تجعله النجوم يشعر أنه صغير وبلا معنى إلى هذا الحدّ. سأل نفسه السؤال القديم - *هل هناك أي شيء ذكي هناك؟* - وبدلاً من التساؤل، أثارت لديه الفكرة شعوراً بارداً بغيضاً، كما لو أنه سأل نفسه كيف سيكون لو أكل حفنة حشرات مفرفِرة.

ست وعشرون... سبع وعشرون... ثماني وعشرون...

مَن نحت هذه، على أي حال؟ الهنود؟ أفراد قبيلة الميكماك؟ هل كانوا هنوداً ذوي أدوات؟ عليَّ أن أسأل جاد. فكرة "هنود ذوي أدوات" ذكَّرته بـ "الحيوانات ذوات الفراء"، وهذا ذكَّره بذلك الشيء الذي كان يقترب منهما في الغابة. تعثّرت إحدى قدمَيه، وخدشَ يداً مكسوةً بقفّاز على الجدار الصخري الذي على يساره ليحافظ على توازنه. بدا الجدار قديماً، مهترئاً، مخدَّداً، مجعَّداً. *مثل البشرة الجافة المنَهكة تقريباً*، فكَّر في سرّه.

"هل أنت بخير يا لويس؟"، همسَ جاد.

"أنا بخير"، قال، رغم أن أنفاسه كادت تنقطع ونبضَت عضلاته من وزن تشرش في الكيس.

اثنتان وأربعون... ثلاث وأربعون... أربع وأربعون...

"خمس وأربعون"، قال جاد. "لقد نسيتُ. أظن أنني لم أصعد إلى هنا منذ اثنتي عشرة سنة. لا أظن أنه سيكون لديَّ أي سبب لآتي إلى

هنا مرة أخرى. هيا... اصعد إلى هنا".

أمسَك ذراع لويس وساعده على صعود الدرجة الأخيرة.

"لقد وصلنا"، قال جاد.

راح لويس ينظر حوله. يمكنه أن يرى بشكل جيد بما فيه الكفاية؛ بفضل ضوء النجوم الخافت لكن الملائم. كانا يقفان على صفيحة صخرية مليئة بالحصى ناتئة من الأرض الرقيقة أمامهما مباشرة مثل لسان داكن. ويمكنه في الاتجاه الآخر رؤية أعالي أشجار الشوح التي عبراها لكي يصلا إلى الدرجات. يبدو أنهما تسلَّقا إلى أعلى هضبةٍ غريبةٍ مسطَّحة القمة، شواذ جيولوجي كان ليبدو طبيعياً أكثر بكثير في أريزونا أو نيو مكسيكو. لأن القمة العشبية للهضبة – أو التلة، أو الجبل المبتور، أو مهما كانت – عارية من الأشجار، فقد أذابت الشمس الثلج هنا. عند استدارته نحو جاد، رأى لويس أعشاباً جافةً تنحني أمام الرياح الهادئة التي تهبّ ببرودة على وجهه، ورأى أنها تلة، وليست هضبة منعزلة. ارتفعت الأرض أمامهما نحو الأشجار مرة أخرى. لكن هذا التسطّح كان واضحاً وغريباً جداً في تلال نيو إنغلاند المنخفضة والمتعَبة بطريقة أو بأخرى –

هنود ذوو أدوات، قال له ذهنه فجأة.

"هيا بنا"، قال جاد وقاده خمسة وعشرين متراً نحو الأشجار. كانت الرياح تهبّ بقوة هنا، لكنها نظيفة. رأى لويس عدة أشكال تحت الظلال الكئيبة للأشجار – الأشجار التي كانت أقدم وأطول أشجار شوح رآها في حياته. الجو العام لهذا المكان الشاهق الوحيد هو الفراغ – لكنه فراغٌ يهتزّ.

كانت الأشكال الداكنة معالمَ حجريةً.

"غطّى أفراد قبيلة الميكماك أعلى التلة هنا بالرمل"، قال جاد. "لا

أحد يعرف كيف، مثلما أن أحداً لا يعرف كيف بنى شعب المايا أهرامهم. وقد نسي أفراد قبيلة الميكماك أنفسهم، تماماً مثلما نسي شعب المايا أنفسهم".

"لماذا؟ لماذا فعلوا ذلك؟".

"هذه كانت مقبرتهم"، قال جاد. "أحضَرتُك إلى هنا لكي تتمكن من دفن قط إيليه هنا. لم يكن أفراد قبيلة الميكماك يميِّزون، لعِلمك. فقد دفنوا حيواناتهم الأليفة إلى جانب مالكيها".

هذا ذكَّر لويس بالمصريين القدامى، الذين كانوا يذهبون في هذا خطوةً إضافيةً: فكانوا يذبحون الحيوانات الأليفة الملَكية لكي تذهب أرواحها إلى حيثما تذهب روح سيدها. وتذكَّر أنه قرأ ذات مرة عن ذبح أكثر من عشرة آلاف حيوان أليف وحيوان منزلي بعد وفاة إبنة أحد الفراعنة - وهذا شملَ حسب السجلات ستمئة خروف وألفَي طاووس. تم تعطير الخراف بعطر الورد، وهو العطر المفضَّل لدى السيدة المتوفّاة، قبل أن تُذبح أعناقها.

وَبنوا الأهرام أيضاً. لا أحد يعرف على وجه التأكيد الغاية من أهرام شعب المايا - يقول البعض إنها للملاحة وقياس الوقت، مثل ستونهنج - لكننا نعرف جيداً أن غاية الأهرام المصرية هي أن تكون نُصُباً تذكاريةً رائعةً للموت، أكبر شواهد قبور في العالم. هنا يرقد رمسيس الثاني. كان مُطيعاً، فكَّر لويس في سرّه وقوقأ قوقأةً عاجزةً.

نظَرَ جاد إليه، غير متفاجئ.

"هيا وادفن حيوانك"، قال. "سأدخِّن سيجارة. يمكنني أن أساعدك، لكن عليك أن تفعل ذلك بنفسك. كل واحد يدفن حيوانه. هكذا كانت تتم الأمور هنا".

"جاد، حول ماذا يدور كل هذا؟ لماذا أحضرتني إلى هنا؟".

"لأنك أنقذت حياة نورما"، قال جاد، ورغم أنه بدا صادقاً - وكان لويس متأكداً أنه يعتبر نفسه صادقاً - تملّكه شعور طاغٍ فجأة أن الرجل يكذب... أو كُذبَ عليه وهو يمرِّر الكذبة إلى لويس. تذكَّر تلك النظرة التي رآها، أو ظنَّ أنه رآها، في عينَي جاد.

لكن هنا لا شيء من ذلك بدا مهماً. الرياح مهمة أكثر، فهي تهبّ بحرية حوله في ذلك النهر الهادئ، ترفع شعره عن حاجبيه وأذنيه.

جلَس جاد مُسنداً ظهره إلى إحدى الأشجار، وكوَّر يديه حول عود ثقاب، وأشعل سيجارة تشسترفيلد.

"هل تريد أن تستريح قليلاً قبل أن تبدأ؟".

"لا، أنا بخير"، قال لويس. كان بإمكانه أن يواصل طرح الأسئلة، لكنه وجَد أنه لا يكترث لها حقاً. شعَر أن هذا خطأ لكنه شعَر أنه صحيح أيضاً، وقرَّر الاكتفاء بهذا القدر... في الوقت الحاضر. كان هناك حقاً شيء واحد فقط احتاج إلى معرفته. "هل سأتمكن حقاً من حَفر قبرٍ؟ تبدو التربة رقيقة". أومأ لويس برأسه نحو المكان حيث تنتأ الصخرة من الأرض عند حافة الدرجات.

أومأ جاد برأسه ببطء. "نعم"، قال. "التربة رقيقة فعلاً. لكن التربة العميقة كفاية لكي ينمو فيها العشب تكون عادة عميقة كفاية للدفن فيها يا لويس. والناس يدفنون هنا منذ زمن طويل جداً. لكنك لن تجد المسألة سهلة جداً".

ولم يجدها سهلة. كانت الأرض صخرية وصلبة، وسرعان ما رأى أنه سيحتاج إلى المِعوَل ليحفر القبر عميقاً كفاية لوضع تشرش فيه. لذا بدأ يبدِّل، مستخدماً المِعوَل أولاً لكي تتراخى التربة الصلبة والأحجار، ثم المجرفة ليحفر ما أرخاه منها. بدأت يداه تؤلمانه. وبدأت حرارة جسمه ترتفع مرة أخرى، وشَعَر بحاجة ماسّة إلى القيام بعمل جيد. بدأ

يهمهم همساً، وهو شيء يفعله أحياناً عندما يخيط جرحاً. يصطدم المِعوَل أحياناً بصخرة صلبة كفاية لتتطاير بعض الشرارات، وينتقل الارتعاش صعوداً على المقبض الخشبي فتهتزّ يداه. بإمكانه أن يشعر ببثور تتشكّل على راحتَي يديه ولم يكترث، رغم أنه، كمعظم الأطباء، يعتني بيديه عادة. فوقه وحوله، غنّت الرياح وغنّت وهي تعزف لحناً ثلاثي النغمات.

ممتزجاً بهذا كان صوت الضرب الناعم للصخور. نظَر خلفه ورأى جاد مقرفصاً يستخرج الصخور الكبيرة التي حفَرها، ويصنع كومة منها.

"لمَعلَمك الحجري"، قال عندما رأى لويس ينظر إليه.

"آه"، قال لويس وعاد إلى العمل.

حفَرَ القبر بعرض ستين سنتيمتراً وطول متر – قبرٌ قصرٌ لقطٍ لعينٍ، فكّر في سرّه – وعندما أصبح بعمق خمسة وسبعين سنتيمتراً تقريباً وأصبحت الشرارات تتطاير مع كل ضربة من المِعوَل تقريباً، قَذَفه جانباً مع المجرفة وسأل جاد إن كانت نتيجة جهده مقبولةً.

نهض جاد وألقى نظرة سريعة. "يبدو لي ممتازاً"، قال. "على أي حال، رأيك هو المهم".

"هلاّ أخبرتني الآن حول ماذا يدور هذا؟".

ابتسم جاد قليلاً. "كان أفراد قبيلة الميكماك يعتقدون أن هذه التلة مكانٌ عجيبٌ"، قال. "اعتقدوا أن هذه الغابة بأكملها، من المستنقع في الشمال والشرق، عجيبةٌ. صنعوا هذا المكان، ودفنوا فيه موتاهم، بعيداً عن كل شيء آخر. وراحت القبائل الأخرى تتحاشاه – قال أفراد قبيلة البينوبسكوت إن هذه الغابات مليئة بالأشباح. ولاحقاً، بدأ صيّادو الفراء يقولون الشيء نفسه تقريباً. أظن أن بعضهم رأى أضواء الصحون الطائرة في مستنقع الملك الصغير واعتقدوا أنهم يرون أشباحاً".

ابتسم جاد، وفكَّر لويس في سرّه: *هذا ليس ما تعتقده أبداً.*

"لاحقاً، حتى أفراد قبيلة الميكماك أنفسهم لم يعودوا يأتون إلى هنا. وادّعى أحدهم أنه رأى ويندیغو هنا، وأن الأرض أصبحت كريهة. عقدوا اجتماعاً كبيراً بشأنه... أو هكذا سمِعتُ الحكاية في سنواتي الخضراء يا لويس، لكنني سمِعتُها من العجوز ستاني بي مدمن الشراب - والذي ندعوه كلنا ستانلي بوشارد - وما كان ستاني بي لا يعرفه، كان يؤلّفه".

لويس، الذي عرَف فقط أن الويندیغو يُفترَض أن يكون روحاً من الريف الشمالي، قال، "هل تعتقد أن الأرض أصبحت كريهة؟".

ابتسم جاد - أو على الأقل أمال شفتيه. "أعتقد أن المكان خطير"، قال بلطف، "لكن ليس للقطط أو الكلاب أو فئران الهمستر الأليفة. هيا ادفن حيوانك يا لويس".

أنزل لويس الكيس الثقيل في الحفرة وراح يجرف التربة فوقه ببطء. كان يشعر بالبرد والتعب الآن. بدا صوت ارتطام التربة بالبلاستيك مسبِّباً للكآبة، وبينما لم يندم على الصعود إلى هنا، كان ذلك الشعور بالابتهاج يتضاءل، وبدأ يتمنى لو تنتهي هذه المغامرة. لا يزال طريق العودة إلى المنزل طويلاً.

بدأ يخفّ صوت ارتطام التربة بالكيس، ثم توقف - لم يعد هناك سوى صوت سقوط تربة على مزيد من التربة. كَشَط آخر بقايا التربة إلى الحفرة بواسطة شفرة مجرفته (لا يوجد ما يكفي أبداً، فكَّر في سرّه متذكّراً شيئاً قاله له عمّه الحانوتيّ منذ ألف سنة على الأقل، ما يكفي أبداً لإعادة ملء الحفرة من جديد) ثم استدار إلى جاد.

"مَعلَمك الحجري"، قال جاد.

"اسمع يا جاد، أنا مُتعَب جداً و-"

"إنه قط إيليه"، قال جاد، وكان صوته شرِساً رغم نعومته. "ستريد منك أن تفعل هذا بالشكل الصحيح".

تنهَّد لويس. "أظنها ستريد ذلك"، قال.

احتاج إلى عشر دقائق أخرى لكي يكوِّم الصخور التي سلَّمه إياها جاد، الواحدة تلو الأخرى. عندما انتهى، كانت هناك كومة مخروطية منخفضة من الأحجار على قبر تشرش، وشعَر لويس حقاً ببعض المتعة المُتعَبة. بدا ذلك صحيحاً، بطريقة أو بأخرى، صاعداً مع البقية نحو ضوء النجوم. افترَض أن إيليه لن تراه أبداً – ففكرة أخذها عبر ذلك المستنقع حيث توجد الرمال المتحركة ستجعل شعر رايتشل يبيَضّ – لكنه رآه، وكان جيداً.

"معظم هذه سقطت"، قال لجاد وهو يقف وينفض الغبار عن رُكبتَي بنطلونه. كان يرى بوضوح أكثر الآن، ويمكنه أن يميِّز الأحجار المبعثرة في عدة أماكن. لكن جاد تأكَّد من بنائه المَعلَم الحجري من الأحجار المأخوذة من القبر الذي حفره بنفسه فقط.

"نعم"، قال جاد. "لقد أخبرتُك: المكان قديم".

"هل انتهينا الآن؟".

"نعم". ربَّت على كتف لويس. "أحسنت يا لويس. كنتُ متأكداً من هذا. هيا نعود إلى المنزل".

"جاد –" بدأ يتكلَّم مرة أخرى، لكن جاد أمسَك المِعوَل وسار نحو الدرجات. أمسَك لويس المجرفة، واضطر أن يخبَّ لكي يلحق به، ثم وفَّر أنفاسه للسير. اِلتفَت إلى الوراء مرةً، لكن المَعلَم الحجري فوق قبر قط إبنته ونستون تشرشل تلاشى في الظلال، ولم يتمكن من رؤيته.

عرضنا الفيلم عكسياً فقط، فكَّر لويس في سرِّه مُتعباً بينما خرَجا

من الغابة إلى الحقل الذي يطلّ على منزله بعد بعض الوقت. لم يعرف كم مرَّ من وقت، فقد خلع ساعته عندما استلقى لكي يكبو بعد ظهر ذلك اليوم، ولا تزال هناك على عتبة النافذة قرب سريره. يعرف فقط أنه مُنهَك، مستنفَد، مُنتهٍ. لا يمكنه تذكُّر هذا الشعور بالإنهاك منذ يومه الأول في طاقم التخلّص من القمامة في صيف ثانوية شيكاغو منذ ست عشرة أو سبع عشرة سنة.

عادا على نفس الطريق الذي ذهبا عليه، لكن لا يمكنه تذكُّر سوى القليل من الرحلة. تعثَّر على الأشجار الساقطة، تذكَّر ذلك – التطوُّح إلى الأمام والتفكير بشكل سخيف بـ پيتر پان – *يا إلهي، لقد فقدتُ أفكاري السعيدة وها أنا أهبط* – ثم كانت يد جاد هناك، صلبة وحازمة، وبعد بضع لحظات كانا يجتازان بتثاقل المثوى الأخير لـ سْماكي وتريكسي ومارتا أرنابتنا الأليفة ويعودان إلى المسار الذي سار عليه مرة واحدة ليس مع جاد فقط بل مع عائلته كلها.

بدا له أنه بطريقةٍ مُنهَكةٍ ما فكَّر ملياً بحلم فيكتور باسكاو، الحلم الذي قاده إلى السير أثناء نومه، لكن أي رابطٍ بين تلك النزهة الليلية وهذه تملَّص منه. خطر بباله أيضاً أن المغامرة بأكملها كانت خطيرة – ليس بأي معنى ميلودرامي على طريقة ويلكي كولينز، بل بمعنى حقيقي جداً. أن يديه تقرَّحتا بشكل شنيع بينما كان في شبه حالة سير أثناء النوم هو أقل ما يمكن قوله حقاً. كان من الممكن أن يقتل نفسه على الأشجار الساقطة. أن يقتلا نفسيهما. من الصعب موازنة هكذا سلوك مع الرصانة. في إنهاكه الحالي، كان مستعداً أن ينسُبه إلى الإرباك والإنزعاج العاطفي بسبب موت حيوان أليف أحبّته العائلة كلها.

وبعد بعض الوقت، عادا إلى المنزل مرة أخرى.

سارا نحوه معاً، صامتين، وتوقفا مرة أخرى في الممر الخاص لمنزل

لويس. أنَّت الرياح وانتحَبت. أعاد لويس المِعوَل إلى جاد دون أن ينطق ببنت شفة.

"الأفضل لي أن أعود إلى منزلي"، قال جاد أخيراً. "لويلا بيسون أو رُوثي بيركس ستُحضر نورما إلى المنزل وستتساءل عن مكاني".

"هل تعرف كم الساعة؟"، سأل لويس متفاجئاً أن نورما لم تعد إلى المنزل بعد. كان يشعر في عضلاته أن منتصف الليل لا بدّ أن يكون قد حلَّ.

"آه، نعم"، قال جاد. "أحتفظ بساعتي طالما أنا مرتدٍ ملابسي ثم أدعها وشأنها".

أخرجَ ساعةً من جيب بنطلونه ونقفَ الغطاء عن وجهها.

"إنها الثامنة والنصف"، قال وأعاد إغلاق الغطاء مرة أخرى.

"الثامنة والنصف؟"، كرَّر لويس بغباء. "فقط؟".

"كم تظن أننا تأخرنا؟"، سأل جاد.

"أكثر من هذا"، قال لويس.

"أراك غداً يا لويس"، قال جاد وبدأ يبتعد.

"جاد؟".

استدار نحو لويس، مستفهِماً بلطف.

"جاد، ماذا فعلنا هذه الليلة؟".

"دفنّا قط إبنتك".

"هل هذا كل ما فعلناه؟".

"لا شيء سوى ذلك"، قال جاد. "أنت رجل طيب يا لويس، لكنك تسأل أسئلة كثيرة. على الأشخاص أحياناً أن يفعلوا الأشياء التي تبدو صواباً. أقصد التي تبدو صواباً في قلوبهم. وإذا فعلوا تلك الأشياء ولم تبدُ صواباً لهم، وملأتهم الأسئلة وشعروا كما لو أنهم يعانون

من عسر هضم، فقط داخل رؤوسهم وليس أحشائهم، يعتقدون أنهم ارتكبوا خطأً. هل تفهم قصدي؟".

"نعم"، قال لويس وهو يفكِّر في سرّه أن جاد كان بلا شك يقرأ أفكاره بينما نزلا التلة عبر الحقل وسارا نحو أضواء المنزل.

"ما لا يعتقدونه هو أنه عليهم ربما أن يشكّوا بمشاعر الارتياب تلك قبل أن يشكّوا بقلوبهم"، قال جاد وهو ينظر إليه عن كثب. "ما رأيك يا لويس؟".

"أعتقد"، قال لويس ببطء، "أنك قد تكون محقاً".

"والأشياء الموجودة في قلب الرجل، لا يستفيد كثيراً من تكلّمه عنها، أليس كذلك؟".

"حسناً -"

"لا"، قال جاد، كما لو أن لويس وافَقه الرأي. "لا يستفيد". وبصوته الهادئ الذي كان مؤكَّداً جداً وشرِساً جداً، بذلك الصوت الذي أصاب لويس بالقشعريرة بطريقة أو بأخرى، قال: "إنها أشياء سرية. يُفترَض بالنساء أن يكنَّ الجيدات في الاحتفاظ بالأسرار، وأظن أنهن يحتفظ ببعضها، لكن كل امرأة تعرف أي شيء على الإطلاق ستُخبِرك أنها لم تتفحّص أبداً قلب أي رجل. تربة قلب الرجل حجرية أكثر يا لويس - مثل التربة هناك في مقبرة الميكماك القديمة. قريبة من صخر الأديم. يزرع الرجل ما يستطيع... ويعتني به".

"جاد -"

لا تسأل يا لويس. اقبل ما جرى واتبع قلبك".

"لكن -"

"لكن لا شيء. *اقبل ما جرى يا لويس، واتبع قلبك*. فعلنا الصواب هذه المرة... على الأقل، آمل من كل قلبي أنه كان صواباً.

مرة أخرى يمكن أن يكون خطأ - خطأ تماماً".

"هلاّ أجبتَ على سؤال واحد على الأقل؟".

"حسناً، لنسمعه أولاً ثم نرى".

"كيف عرفت بوجود ذلك المكان؟". خطر هذا السؤال ببال لويس أيضاً في طريق العودة، إلى جانب الشك بأن جاد نفسه قد يكون من سلالة الميكماك جزئياً - رغم أنه لا يبدو كذلك؛ يبدو كما لو أن كل أسلافه من الأنجلو مئة بالمئة.

"من ستاني بي"، قال متفاجئاً.

"أخبَرك هكذا بكل بساطة؟".

"لا"، قال جاد. "إنه ليس من صنف الأماكن التي تُخبِر أحدهم عنها هكذا بكل بساطة. لقد دفنتُ كلبي سپوت هناك عندما كنتُ في العاشرة. كان يطارد أرنباً، وداس على سلكٍ شائكٍ صدئٍ. الجروح أصابته بالالتهاب وقتلته".

كان هناك شيء خطأ في ذلك، شيء لا يتلاءم مع ما قيل للويس سابقاً، لكنه كان مُتعَباً جداً لكي يستوضح. لم يقل جاد أي كلمة إضافية؛ بل اكتفى بالنظر إليه بعينيه العجوزتين الغامضتين.

"تصبح على خير يا جاد"، قال لويس.

"تصبح على خير".

اجتاز العجوز الطريق، حاملاً مِعوَله ومجرفته.

"شكراً!"، صاح لويس بتهوّر.

لم يستدر جاد؛ بل رفعَ يداً فقط ليشير إلى أنه سمِعه.

وفي المنزل، فجأة، بدأ الهاتف يرنّ.

رَكَض لويس، جافلاً من الأوجاع التي انتشرت تدريجياً في فخذَيه

العلويين وأسفل ظهره، لكن حين وصل إلى المطبخ الدافئ، كان الهاتف قد رنَّ ست أو سبع مرات. توقَف عن الرنين لحظة وضعه يده عليه. رَفَعه على أي حال وقال ألو، لكن لم تكن هناك إلا همهمة الخط المفتوح.

هذه كانت رايتشل، فكَّر في سرّه. *سأعيد الاتصال بها*.

لكنه شَعَر فجأة أنه يحتاج إلى جهد كبير ليطلب الرقم ويرقص بشكل أخرق مع أمها - أو أسوأ، مع أبيها الملوِّح بدفتر الشيكات - قبل أن يتمكن من التحدّث معها... ثم مع إيليه. ستكون إيليه لا تزال مستيقظة بالطبع؛ فالتوقيت في شيكاغو يسبق التوقيت هنا بساعة. وستسأله إيليه عن تشرش.

عظيم، إنه بخير. دهسته شاحنة أورينكو. أنا متيقِّن تماماً بطريقة أو بأخرى أنها كانت شاحنة أورينكو. أي شيء آخر سيفتقر للتماسك الدراماتيكي، إذا كنتِ تفهمين ما أقصد. لا؟ حسناً، لا تهتمي. قتلته الشاحنة لكنها بالكاد تركت أي آثار عليه. جاد وأنا زرعناه في مقبرة الميكماك القديمة - نوعٌ من ملحق لمقبرة الحيوانات، إذا كنتِ تفهمين ما أقصد. النزهة مدهشة يا حبيبتي. سآخذك إلى هناك يوماً ما وسنضع زهوراً على شاهده - اعذريني، مَعلَمه الحجري. بعد أن تتجمَّد الرمال المتحركة، طبعاً، وتنام الدببة لفصل الشتاء.

أعاد السمّاعة إلى مكانها، وسار إلى المغسلة، وملأها بماء ساخن. خلع قميصه واغتسل. كان متعرِّقاً كثيراً رغم البرد، ورائحته نتنة جداً.

وجدَ بقايا رغيف لحم في البرّاد. قطَّعها لويس إلى شرائح، ووضعها على شرحة خبز، وأضاف جولتين سميكتين من بصل برمودا. راح يتأمل هذا للحظات ثم غطَّسه بالكاتشاب قبل أن يخبط شرحة خبز أخرى فوقه. لو كانت رايتشل وإيليه هنا، لكانتا جعَّدتا أنفيهما في إيماءة متماثلة دلالةً على النفور والقرف.

حسناً، *لقد فاتكما هذا أيتها السيدتان*، فكَّر لويس في سرّه برضى لا ريب فيه وازدرَد شطيرته. كان مذاقها رائعاً. تذكَّر قول كونفوشيوس *مَن تكون رائحته نتنة يأكل كالذئب* وابتسم. طارَد الشطيرة بعدة بلعات طويلة من الحليب من العبوة مباشرة - وهي عادة أخرى تعبس منها رايتشل بشدة - ثم صعد إلى الطابق العلوي، خلع ملابسه، وأوى إلى السرير دون حتى أن ينظّف أسنانه. تلاشت أوجاعه وآلامه إلى خفقان منخفض كان مريحاً تقريباً.

كانت ساعته هناك حيث ترَكها، ونظَرَ إليها. التاسعة وعشر دقائق. هذا مذهل حقاً. من الآن وكل هذا بدا حلماً - حالة سير أثناء النوم أخرى.

أطفأ لويس الأنوار، واستدار على جنبه، ونام.

استيقَظ بعد الثالثة في الصباح التالي وجرَّ قدمَيه إلى الحمّام. كان يقف هناك يبوِّل، وعيناه تطرفان كالبومة في ضوء الحمّام الفلوري الأبيض الساطع، عندما توضَّح له التناقض فجأة في ذهنه، واتّسعت عيناه - كانتا كما لو أنهما قِطعتان من شيء يجب أن تتلاءما مع بعضهما تماماً لكنهما ارتطمتا ببعضهما البعض بدلاً من ذلك وارتدّتا.

أخبَره جاد هذه الليلة أن كلبه مات عندما كان في العاشرة - مات من الالتهاب بعد أن جرحه سلك شائك صدئ. لكن في أواخر الصيف عندما صعدوا كلهم إلى مقبرة الحيوانات، قال جاد إن كلبه مات من الشيخوخة ودفنه هناك - حتى إنه أشار إلى الشاهد، رغم أن السنوات محت الكتابة عنه.

شطَف لويس المرحاض، وأطفأ النور، وعاد إلى السرير. هناك شيء آخر غير صحيح، أيضاً - وأدركه سريعاً. لقد وُلد جاد في مطلع

القرن، وذلك اليوم في مقبرة الحيوانات أخبَر لويس أن كلبه مات خلال السنة الأولى من الحرب العُظمى. أي عندما كان جاد في الرابعة عشرة، إذا قصَدَ عندما بدأت الحرب في أوروبا فعلياً. أو عندما كان في السابعة عشرة، إذا قصَدَ عندما دخلت أميركا الحرب.

لكنه قال هذه الليلة إن سپوت مات عندما كان في العاشرة.

حسناً، إنه عجوز، والعجائز يخلطون في ذكرياتهم، فكَّر في سرّه بانزعاج. *قال بنفسه إنه لاحَظ دلالات على ازدياد كثرة النسيان لديه – يجهد ليتذكّر الأسماء والعناوين التي كان يتذكّرها بسهولة، وأحياناً ينهض في الصباح ولا يتذكّر الأعمال التي خطَّط أن يفعلها في الليل. الحالة بسيطة بالنسبة لرجل في عمره... الخَرف في حالته كلمة قوية جداً على الأرجح؛ كثرة النسيان أفضل في الواقع، دقيقة أكثر. لا شيء مفاجئ كثيراً في أن ينسى رجلٌ كم كان عمره عندما مات كلبه منذ حوالي سبعين سنة. أو الظروف التي مات فيها. انسَ هذه المسألة يا لويس.*

لكنه لم يكن قادراً على أن يغفو مرة أخرى فوراً؛ بقي مستيقظاً لفترة طويلة، واعياً جداً للمنزل الفارغ والرياح التي تنتحب حول طُنُف السقف خارجه.

نام في مرحلة ما دون حتى أن يُدرك أنه تخطى الحافة؛ لا شك أن هذا ما حصل، لأنه بينما كان ينزلق، أحسَّ أنه سمِع قدمَين عاريتين تصعدان الدرجات ببطء وأنه فكَّر في سرّه، *دعني وشأني يا باسكاو، دعني وشأني، ما جرى قد جرى وما مات قد مات* – وتلاشت الخطوات.

ورغم أن أشياء عديدة أخرى يُتعذَّر تفسيرها حصلت مع أُفُول تلك السنة، إلا أن شبح فيكتور باسكاو لم يزعج لويس مرة أخرى أبداً، سواء في اليقظة أو في الحلم.

الفصل 23

استيقظ عند التاسعة في الصباح التالي، وأشعة الشمس الساطعة تتدفّق عبر النوافذ الشرقية لغرفة النوم. كان الهاتف يرنّ. وَصَل إليه لويس واختطفه. "ألو؟".

"مرحباً!"، قالت رايتشل. "هل أيقظتك؟ آمل ذلك".

"لقد أيقَظتني أيتها الحقيرة"، قال مبتسماً.

"آههِهِ، يا لها من لغة بغيضة، أيها الدب العجوز الشرير"، قالت. "حاوَلتُ الاتصال بك ليلة أمس. كنتَ في منزل جاد؟".

تردَّد لأقصر لحظة فقط.

"نعم"، قال. "تناولت بعض شراب الشعير معه. كانت نورما في عشاءٍ ليوم الشُكر. فكَّرتُ بالاتصال بك، لكن... تعرفين".

"نعم"، قالت، "أعرف".

دردَشا قليلاً. أطلعته رايتشل على آخر أخبار عائلتها، وهو شيء كان بإمكانه الاستغناء عنه، رغم أنه شَعَر ببعض الرضى من خبرها بأن البقعة الصلعاء على رأس أبيها تتوسَّع بشكل أسرع.

"تريد التكلم مع غايدج؟"، سألت رايتشل.

ابتسم لويس. "نعم، أظن ذلك"، قال. "لا تدعيه يُغلق السمّاعة مثلما فعل تلك المرة".

الكثير من الخشخشة على الطرف الآخر للخط. وسِمع رايتشل تتملَّق الولد بشكل خافت لكي يقول مرحبا يا بابا.

أخيراً قال غايدج، "مرحبا بابا".

"مرحبا يا غايدجّ"، قال لويس بابتهاج. "كيف حالك؟ كيف أحوالك؟ هل ركنتَ بجانب رف غليون جَدّك مرة أخرى؟ آمل هذا

حقاً. ربما ستتمكن هذه المرة من إتلاف تشكيلة طوابعه أيضاً".

ثرثَر غايدج بسعادة لحوالي ثلاثين ثانية، مرصِّعاً ثرثرته بكلمات قليلة ممكن تمييزها من معجمه المتزايد - *ماما، إيليه، جَدّي، جَدّتي، سيارة، شاحلة، وبراز.*

أخيراً، انتزعت رايتشل سمّاعة الهاتف من غايدج، مثيرةً عويلاً ساخطاً لديه وارتياحاً كبيراً لدى لويس - يحبّ إبنه ويفتقده كثيراً، لكن إجراء محادثة مع طفل لم يُكمل عامه الثاني كان أشبه بمحاولة لعب الكريبج مع مجنون؛ ستبقى أوراق اللعب تتطاير في كل مكان وستجد نفسك أحياناً تسير إلى الوراء.

"إذاً كيف الأحوال لديكم؟"، سألت رايتشل.

"جيدة"، قال لويس، من دون تردّد أبداً هذه المرة - لكنه كان يُدرك أنه اجتاز خطاً، عندما سألته رايتشل إن ذهب إلى منزل جاد ليلة أمس وأخبرَها أنه فعل ذلك. في ذهنه سمِع جاد كراندال فجأة يقول: *تربة قلب الرجل حجرية أكثر يا لويس... يزرع الرجل ما يستطيع... ويعتني به.* "حسناً... الحق يُقال، مملة قليلاً. مشتاق لك".

"تقصد أن تُخبرني أنك لا تستمتع بعطلتك من هذا السيرك؟".

"آه، أحبّ الهدوء"، قال موافقاً، "بالتأكيد. لكن الوضع يصبح غريباً بعد الساعات الأربعة والعشرين الأولى تقريباً".

"هل يمكنني أن أكلِّم بابا؟". كانت هذه إيليه في الخلفية.

"لويس؟ إيليه هنا".

"حسناً، دعيني أكلِّمها".

تكلَّم مع إيليه لحوالي خمس دقائق. ثرثَرت عن الدمية التي أحضرتها لها جَدّتها، وعن رحلتها مع جَدّها إلى الزرائب ("يا للهول كم رائحتها كريهة يا بابا"، قالت إيليه، وفكَّر لويس في سرّه: *جَدّك ليس*

أفضل حالاً يا حبيبتي)، وكيف ساعَدت في صنع الخبز، وكيف فرَّ غايدج من رايتشل بينما كانت تغيِّر له حفاضه. ركض غايدج في الرواق وتبرَّز عند مدخَل مكتب الجَدّ بالضبط (*شاطر يا غايدج!* فكَّر لويس في سرّه، راسماً ابتسامةً كبيرةً على وجهه).

اعتقَد في الواقع أنه سيفلت - على الأقل لهذا الصباح - وكان يستعد أن يطلب من إيليه إعادة السمّاعة إلى أمها لكي يودِّعها عندما سألته إيليه، "كيف حال تشرش يا بابا؟ هل يفتقدني؟".

تلاشت الابتسامة عن وجه لويس، لكنه أجاب ببساطة وبأفضل نبرة عادية: "إنه بخير، أظن. أعطيتُه بقايا يخنة لحم البقر من ليلة أمس ثم وضعته في الخارج. لم أره هذا الصباح، لكنني استيقظتُ للتو".

يا للهول، كنتَ لتشكِّل قاتلاً رائعاً - رابط الجأش هادئ السلوك. أيها الطبيب كريد، متى رأيت الميت لآخر مرة؟ دخَل لتناول العشاء. أكل طبق يخنة لحم بقر، في الواقع. لم أره منذ ذلك الوقت.

"حسناً، قبِّله عني".

"هذا مقرف، قبِّلي قطك بنفسك"، قال لويس، وقهقهت إيليه.

"تريد أن تتكلَّم مع ماما مرة أخرى يا بابا؟".

"بالتأكيد. أعطِها السمّاعة".

ثم انتهت المحادثة. تكلَّم مع رايتشل لدقيقتين أخريين؛ لم يتم التطرّق لموضوع تشرش. تبادَل وزوجته عبارات الحبّ، وأغلق لويس السمّاعة.

"وهذا فصل الختام"، قال للغرفة المشمسة الفارغة، وربما أسوأ شيء في المسألة هو أنه لم يشعر بالذنب أبداً.

الفصل 24

اتصل ستيف ماسترتون حوالي التاسعة والنصف وسأل إن كان لويس يودّ أن يأتي إلى الجامعة ويلعب بعض كُرة المضرب – المكان مهجورٌ، قال بمرح، ويمكنهما أن يلعبا طوال اليوم اللعين إن أرادا.

يستطيع لويس فهم الانشراح – عندما تغصّ الجامعة بالطلاب، تكون لائحة الانتظار لاستخدام ملعب كُرة المضرب بطول يومين أحياناً – لكنه رفَض رغم ذلك، مُخبراً ستيف أنه يريد العمل على مقال يكتبه لـ *مجلة طب الكلّية*.

"أنت متأكد؟"، سأل ستيف. "عمل فقط ولا متعة يجعلان جاك فتىً مملاً، لعِلمك".

"كرِّر العرض لاحقاً"، قال لويس. "ربما أقبله".

قال ستيف إنه سيفعل ذلك وأغلق الخط. لم يُخبره لويس إلا نصف كذبة هذه المرة؛ كان ينوي العمل على مقاله بالفعل، الذي يُعنى بعلاج العلل المُعدية مثل جدري الماء وكثرة الوحيدات في بيئة المشفى، لكن السبب الرئيسي لرفضه عرض ستيف هو أنه كتلة أوجاع وآلام. اكتشَف هذا حالما أنهى المكالمة مع رايتشل ودخَل الحمّام لينظّف أسنانه. أصدرت عضلات ظهره صريراً، وكان كتفاه متقرّحَين من حَمل القط في كيس النفايات اللعين ذاك، وشَعَر أن أوتار باطن رُكبتَيه مثل أوتار غيتار تم توليفها بثلاثة جوابات أكثر من درجتها العادية. *يا إلهي*، فكَّر في سرّه، *وكانت لديك الفكرة الغبية بأن لياقتك البدنية جيدة*. كان ليبدو لطيفاً وهو يحاول لعب كُرة المضرب مع ستيف، فيركض بتثاقل في الملعب مثل عجوز مُصاب بالتهاب المفاصل.

وبالحديث عن العجائز، لم يقم بتلك النزهة في الغابة لوحده الليلة

الماضية؛ بل قام بها مع رجل يقترب سنّه من الخامسة والثمانين. تساءل إن كان جاد يتألم كثيراً مثله هذا الصباح.

أمضى ساعة ونصف يعمل على مقاله، لكن الأمور لم تجر جيداً جداً. فقد بدأ الفراغ والصمت يثيران أعصابه، لذا كدَّس أخيراً دفتره الأصفر والنُسخ المطبوعة التي طلبها من جونز هوبكنز على الرف فوق آلته الكاتبة، ارتدى معطفه، واجتاز الطريق.

لم يكن جاد ونورما هناك، بل عثر على مغلف معلَّق على باب الشرفة مكتوب إسمه على جهته الأمامية. أخذه وفتحه بإبهامه.

لويس،

الزوجة الصالحة وأنا ذهبنا إلى باكسبورت لنقوم ببعض التسوّق وننظر إلى خزانة وَلْش في متجر غالوريوم التي تضع نورما عينها عليها منذ حوالي مئة سنة. سنتناول الغداء على الأرجح في مطعم ماكلاود بينما نكون هناك ونعود في وقت متأخر من بعد الظهر. تعال لنحتسي بعض شراب الشعير هذه الليلة، إذا كنتَ تريد.

عائلتك هي عائلتك. لا أريد أن أكون "متطفّلاً"، لكن لو كانت إيليه إبنتي، لما أسرعتُ وأخبرتُها أن قطها قُتل على الطريق العام – لماذا لا تدعها تستمتع بإجازتها؟

بالمناسبة يا لويس، لن أتكلَّم عما فعلناه ليلة أمس أيضاً، ليس في أرجاء شمالي لادلو. هناك أشخاص آخرون يعرفون عن مقبرة الميكماك القديمة تلك، وهناك أشخاص آخرون في البلدة دفنوا حيواناتهم هناك... يمكنك القول إنها جزء آخر من "مقبرة الحيوانات". صدّق أو لا تصدّق، هناك حتى ثور مدفون فوق! زاك ماكغفرن، الذي كان يعيش على طريق ستاكبول، دفنَ ثوره

العزيز هانراتي في مقبرة الميكماك في العام 1967 أو 1968. ها، ها! أخبَرني أنه وولديه أخذوا ذلك الثور إلى هناك وضحِكتُ إلى أن شعرتُ أنني سأمزّق نفسي! لكن الناس هنا لا يحبّون التكلّم عن ذلك، ولا يحبّون الأشخاص الذين يعتبرونهم "دخلاء" أن يعرفوا عنه، ليس لأن بعض تلك المعتقدات الخرافية القديمة تعود إلى ثلاثمئة سنة أو أكثر (رغم صحة ذلك)، لكن لأنهم يصدّقون تلك المعتقدات الخرافية نوعاً ما، ويعتقدون أن أي "دخيل" يعرف عنهم ذلك سيسخر منهم بلا شك. هل يبدو هذا منطقياً؟ لا أظن، لكن هكذا هو الحال. لذا اعمل لي معروفاً ولا تتكلّم عن هذا الموضوع، اتفقنا؟

سنتكلّم أكثر عن هذا، هذه الليلة على الأرجح، ووقتها ستفهم أكثر، لكنني أريد إخبارك في هذه الأثناء أنك يجب أن تفخر بنفسك. أعرف أنك فخور بنفسك.

جاد

ملاحظة نورما لا تعرف ماذا تتضمن هذه الرسالة – قلتُ لها شيئاً مختلفاً – وسألتزم بما قلْته لها. لقد كذبتُ على نورما أكثر من مرة في السنوات الثمانية والخمسين لزواجنا، وأظن أن معظم الرجال يكذبون على زوجاتهم بذكاء، لكن بإمكان معظمهم الوقوف في المحكمة وأداء اليمين والاعتراف بها دون أي خجل.

حسناً، تعال هذه الليلة وسنتناول بعض الشراب المنعش.

ج.

وَقَف لويس على الدرجة العليا التي تؤدي إلى شرفة جاد ونورما –

الخالية الآن، وأثاثها المريح من خيزران الروطان مخزَّن بانتظار ربيع آخر - عابساً من هذه الرسالة. لا تُخبِر إيليه أن قطها قُتل - لم يُخبرها. حيوانات أخرى مدفونة هناك؟ معتقدات خرافية تعود إلى ثلاثمئة سنة؟

...ووقتها ستفهم أكثر.

لمس هذا السطر بخفة بإصبعه، وللمرة الأولى سمح لذهنه أن يعود عن قصد إلى ما فعلاه الليلة الماضية. كان ضبابياً في ذاكرته، وذا طبيعة مشابهة للطبيعة الذائبة لغزل البنات أو لنشاطات اليقظة التي تُنفَّذ تحت ضباب خفيف من المخدرات. يمكنه أن يتذكَّر تسلّق الأشجار الساقطة ونوعية السطوع الغريب للضوء في المستنقع - بالإضافة إلى الحرارة التي بدت أكثر دفئاً هناك بعشر أو عشرين درجة - لكن كل ذلك كان مثل المحادثة التي تجريها مع طبيب التخدير قبل أن يُطفئك مثل لمبة.

وأظن أن معظم الرجال يكذبون على زوجاتهم بذكاء...

على زوجاتهم وبناتهم أيضاً، فكَّر لويس في سرّه - لكنها مُوحِشة الطريقة التي بدا بها أن جاد يعلم تقريباً ما دار هذا الصباح، سواء على الهاتف أو في ذهنه.

أعاد طيّ الرسالة ببطء، التي كُتبَت على ورقة مسطَّرة مثل التي تجدها في دفاتر الطلاب، وأعادها إلى مغلفها. وَضَع المغلف في جيبه واجتاز الطريق مرة أخرى.

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل 25

كانت الساعة حوالي الواحدة بعد ظهر ذلك اليوم عندما عاد تشرش مثل القط في أغنية الأطفال. كان لويس في المرأب، حيث بقي يعمل بشكل متقطّع في الأسابيع الستة الماضية على مجموعة طموحة نوعاً ما من الرفوف؛ فقد أراد وضع كل الأمور الخطيرة في المرأب مثل زجاجات سائل تنظيف الزجاج الأمامي، والسائل المقاوِم للتجمُّد، والأدوات الحادّة على تلك الرفوف، حيث ستكون بعيدة عن متناول غايدج. كان يطرق مسماراً عندما دخلَ تشرش متهادياً، رافعاً ذيله في الهواء. لم يفلت لويس المطرقة أو حتى يخبط إبهامه - اضطرب قلبه في صدره لكنه لم يجفل؛ وشعَر أن سلكاً حاراً توهّج للحظة في معدته ثم برد فوراً، مثل فتيل لمبة توهَّج بشكل قوي للحظة ثم احترق. كان ذلك كما لو أنه، حسبما أخبَر نفسه لاحقاً، أمضى صباح ذلك الجمعة المشمس بأكمله ما بعد يوم الشُكر منتظراً عودة تشرش؛ كما لو أنه عرَف في ناحية عميقة بدائية من ذهنه ما كانت الغاية من نزهتهما الليلية إلى مقبرة الميكماك.

وَضَع المطرقة من يده بحذر، وبصَق المسامير التي كان يُمسكها في فمه على راحة يده، ثم ألقاها في جيب مئزره. ذهَب إلى تشرش وحمله.

وزن حيّ، فكّر في سرّه بنوع من الإثارة العليلة. *وزنه مماثل لما كان عليه قبل دهسه. هذا وزن حيّ. كان أثقل في الكيس. كان أثقل عندما كان ميتاً.*

اضطرب قلبه بقوة أكبر هذه المرة - كاد يقفز من مكانه - وبدا المرأب للحظة أنه يسبح أمام ناظريه.

أرجعَ تشرش أذنيه وسمح أن يُحمَل. أخرجه لويس إلى نور الشمس

وجلس على الدرجات الخلفية. حاوَل القط النزول عندها، لكن لويس مسدَّه وأبقاه على حُضنه. بدا أن قلبه عاد إلى خفقانه الطبيعي الآن.

تلمَّس بلطف الفرو الكثيف على عنق تشرش، متذكِّراً الطريقة المقزِّزة الخالية من العظام التي دار بها رأسه حول عنقه المكسور ليلة البارحة. لم يشعر بشيء الآن سوى عضلات وأوتار سليمة. رفعَ القط عالياً ونظَرَ إلى خطمه عن كثب. ما رآه هناك جعله يفلت القط على العشب بسرعة ويغطي وجهه بيده، مُغمضاً عينيه. كان العالم بأكمله يسبح الآن، وشَعَر بترنّح في رأسه، بدوارٍ مُغثٍ - كان من صنف الشعور الذي يمكنه تذكُّره من النهاية المريرة لجلسات الثمالة الطويلة، قبل بدء التقيؤ مباشرة.

كان هناك دم جاف على فوهة تشرش، ولمحَ على شواربه الطويلة بقعتَي بلاستيك أخضر صغيرتين جداً. من الكيس الثقيل.

سنتكلّم أكثر عن هذا ووقتها ستفهم أكثر...

يا إلهي، فهِم أكثر مما أراد الآن.

أعطني فرصةً، فكَّر لويس في سرّه، وسأفهم بنفسي في أقرب مأوى للأمراض العقلية.

ترك تشرش يدخل المنزل، وأحضر له طبقه الأزرق، وفتح عبوة عشاء قطط مؤلفة من طون وكبد. بينما كان يُفرغ الطعام الرمادي البنّي من العبوة بملعقة، خرخَر تشرش بشكل متقطّع وراح يفرك نفسه ذهاباً وإياباً على كاحلَي لويس، مما أثار لديه القشعريرة، وجعله يكزّ على أسنانه بتجهّم ليمنع نفسه من ركله. شَعَر أن جانبيه المكسوَين بالفراء زلقَين جداً، سميكين جداً نوعاً ما - بكلمة واحدة، كريهَين. وجَد لويس أنه لا يكترث إن لم يلمس تشرش مرة أخرى في حياته كلها.

عندما انحنى ووضع الطبق على الأرض، تجاوزه تشرش مندفعاً ليصل إليه، وكان بمقدور لويس أن يحلف أنه شمَّ رائحة التربة الحامضة - كما لو أن فرو القط تشبَّع بها.

وَقَف جانباً يراقب القط يأكل. يمكنه سماعه يتمطّق - هل تمطَّق هكذا سابقاً عند تناوله الطعام؟ ربما، ولويس لم يلاحظ ذلك أبداً. في الحالتين، كان صوتاً مثيراً للإشمئزاز. مقرفاً، مثلما كانت إيليه لتقول.

استدار لويس فجأة وصعد إلى الطابق العلوي. بدأ بالسير بوتيرة عادية، لكنه حين وصل إلى الرواق العلوي، كان يركض تقريباً. خلع ملابسه، ورماها كلها في سلة الغسيل رغم أنه ارتداها نظيفةً ذلك الصباح. ملأ المغطس بماء ساخن بقدر ما يستطيع تحمّله، ونزل فيه.

ارتفع البخار من حوله، واستطاع أن يشعر بالماء الساخن يؤثر على عضلاته، يرخيها. كان يؤثر على رأسه أيضاً، ويرخيه كذلك. حين بدأ الماء يبرد، كان يشعر بالنعاس وأنه بخير من جديد.

لقد عاد القط، تماماً مثل القط في أغنية الأطفال، حسناً، وما الضرر في ذلك، مسألة غير مهمة.

كان كل شيء مجرد خطأ. ألم يقل لنفسه مساء البارحة أن جسم تشرش بدا سليماً بشكل ملحوظ ولا يدلّ على أن سيارة دهسته؟

تذكَّر كل المراميط والقطط والكلاب التي رأيتَها متناثرة في كل أرجاء الطريق العام، فكَّر في سرّه، *أجسامها مبقورة، وأحشاؤها في كل مكان. بالألوان، على حد تعبير لاودون واينرايت حول هذه النقطة مع الظربان الميت.*

الأمر واضح الآن. لقد دُهس تشرش بقوة فتعرَّض لصعقة. وقد نُقل إلى مقبرة الميكماك القديمة فاقد الوعي وليس ميتاً. ألا يقولون إن القطط بتسعة أرواح؟ الحمد لله أنه لم يقل شيئاً لإيليه! لن تضطر أبداً

إلى معرفة كم كان تشرش قريباً من الموت.

الدم على فمه وعنقه... الطريقة التي استدار بها عنقه...

لكنه ليس طبيباً بيطرياً. وقد أجرى تشخيصاً خاطئاً – هذا كل ما في الأمر. بالكاد كان في أفضل الظروف ليُجري فحصاً دقيقاً، حيث كان مقرفصاً على مَرجة جاد في حرارة 6- درجات مئوية وبالكاد هناك ضوء في السماء، وكان يرتدي قفازات. يمكن أن يكون ذلك –

ارتفع ظل مشوّه منتفخ على جدار الحمّام المبلّط، مثل رأس تنين صغير أو أفعى شنيعة؛ شيء لمسَ كتفه العارية بخفة وانزلق. ارتعَش لويس كأنه تلقى صدمة كهربائية، راشاً بعض الماء من المغطس ومبلّلاً حصيرة الحمّام. استدار، منكمشاً على نفسه في الوقت نفسه، وحدّق في العينين الصفراوين الخضراوين الموحِلتين لقط إبنته، الذي كان جاثماً على غطاء مقعد المرحاض المغلق.

كان تشرش يتمايل ببطء ذهاباً وإياباً كما لو أنه ثمل. راح لويس يراقبه باشمئزاز، وبالكاد تمكّن من كبت صرخةٍ في فمه عبر كزّ أسنانه. لم يبدُ تشرش هكذا أبداً – لم *يتمايل* أبداً، مثل أفعى تحاول تنويم فريستها مغنطيسياً – ليس قبل أن يتم إصلاحه وليس بعد ذلك. للمرة الأولى والأخيرة تسلّى بفكرة أن هذا قطٌّ مختلفٌ، قطٌّ يبدو مشابهاً تماماً لقط إيليه، قطٌّ صدف ودخل مرأبه بينما كان يشيّد تلك الرفوف، وأن تشرش الحقيقي لا يزال مدفوناً تحت ذلك المَعلَم الحجري في الغابة. لكن العلامات هي نفسها... والأذن المتعرّجة... والكفّ ذا المظهر الممضوغ المضحك. فقد خَبَطت إيليه الباب الخلفي لمنزلهم الصغير في الضواحي على ذلك الكفّ عندما كان تشرش مجرد قط صغير.

هذا تشرش، فعلاً.

"اخرج من هنا"، همَس له لويس بصوت أجش.

حدَّق فيه تشرش للحظات - يا للهول، كانت عيناه مختلفتين، مختلفتين بطريقة ما - ثم وَثَب عن مقعد المرحاض. حطَّ بلا الكياسة الغريبة التي تُظهِرها القطط عادة. ترنَّح بشكل مُربك، ووركاه يُصدران صوتاً مكتوماً على المغطس، ثم خرج.

شيء، فكَّر لويس في سرّه. *ليس حيواناً؛ شيئاً. تذكَّر أنه أُخصيَ.*

خرَج من المغطس وجفَّف نفسه بسرعة، بتشنّج. حلق ذقنه وكاد ينتهي من ارتداه ملابسه عندما رنَّ الهاتف، بشكل صاخب في المنزل الفارغ، مما أجفله وجعل يديه ترتفعان في الهواء. أخفَضهما ببطء. كان قلبه ينبض بسرعة. وشَعَر أن عضلاته مليئة بالأدرينالين.

كان ستيف ماسترتون يسأل عن كُرة المضرب، ووافَق لويس أن يلاقيه في النادي الرياضي بعد ساعة. لا يمكنه تحمّل إضاعة هذا القدر من الوقت، وكانت كُرة المضرب آخر شيء في العالم يرغب في فعله الآن، لكن عليه أن يخرج. أراد أن يبتعد عن القط، عن ذلك القط الغريب الذي لا يحق له أن يتواجد هنا أبداً.

راح يُسرع، مرتدياً قميصه تحت سرواله بسرعة، وحاشراً شورتاً وقميصاً تائياً ومنشفةً في حقيبته، ونزل الدرجات مهرولاً.

كان تشرش مستلقٍ على الدرجة الرابعة من الأسفل. تعثَّر به لويس وكاد يسقط. تمكَّن من التمسّك بالدرابزين وبالكاد أنقذ نفسه مما كان يمكن أن يكون سقوطاً بغيضاً.

وَقَف عند أسفل الدرجات، يتنفّس بشكل متقطّع، وقلبه ينبض بسرعة، والأدرينالين يدور بشكل بغيض في كل أنحاء جسمه.

نهض تشرش، وتمطَّط... وبدا أنه يبتسم له.

غادر لويس. عرَف أنه كان عليه أن يضع القط في الخارج، لكنه لم يفعل ذلك. فلم يستطع في تلك اللحظة أن يُجبر نفسه على لمسه.

الفصل 26

أشعَل جاد سيجارة بعود ثقاب خشبي، وهزّه ليطفئه، ثم قذفه في منفضة من الصفيح مطلي على قعرها إعلان بالكاد مقروء لشراب اسكتلندي.

"نعم، ستانلي بوشارد هو الذي أخبَرني عن مقبرة الميكماك القديمة"، كرَّر للويس.

كانا في مطبخ جاد، وكوبان من شراب الشعير بالكاد ملموسين يقفان أمامهما على القماش المشمَّع ذي المربعات الذي يغطي طاولة المطبخ. غرغَرت أسطوانة الكاز المثبَّتة بالجدار خلفهما ثلاث مرات، عن قصد، وهدأت. كان لويس قد تناول عشاءً مرتجَلاً مع ستيف: شطيرة غواصة في مطعم وكر الدب المهجور في الأغلب. وقد عرَف مسبقاً أنك إذا طلبتَ شطيرة هوغي أو مطحنة أو جيرو في ماين، فلن يعرفوا عما تتكلَّم. اطلب غواصةً أو برغر إيطالية، وستنال طلبك. بعد وضع بعض الطعام في معدته، بدأ لويس يشعر بتحسّن تجاه عودة تشرش، وشَعَر أن لديه أشياء أكثر أهمية، لكنه كان لا يزال غير مستعجل ليعود إلى منزله المظلم الفارغ حيث يمكن أن يكون القط – لنواجه الأمر يا جماعة – في أي مكان.

جلَست نورما معهما لمدة لا بأس بها، تشاهد التلفزيون وتطرِّز قطعة تُظهِر الشمس تغيب خلف صالة اجتماعات مقاطعة صغيرة، مُلقيةً ظلاً أسود على عارضة السقف. شيءٌ للبيع، قالت، في معرض دار العبادة قبل أسبوع من احتفال الشتاء. هذا حدث كبير دائماً. كانت أناملها تتحرَّك جيداً، فتدفع الإبرة في قطعة القماش، وترفعها عبر الدائرة الفولاذية. بالكاد يمكن ملاحظة التهاب مفاصلها هذه

الليلة. افترَض لويس أن السبب قد يكون الطقس، الذي كان بارداً لكن جافاً جداً. لقد استعادت عافيتها جيداً من نوبتها القلبية، وفي ذلك المساء قبل أقل من عشرة أسابيع من نوبة قلبية ثانية ستقتلها، شَعَر أنها بدت أقل إنهاكاً وأصغر سناً في الواقع. استطاع في ذلك المساء أن يرى الفتاة التي كانت عليها.

تمنَّت لهما ليلة سعيدة عند العاشرة إلا ربعاً، وبقي يجلس هناك مع جاد، الذي كان قد توقَّف عن الكلام وبدا أنه يلاحق دخان سيجارته فقط، مثل ولد يراقب سارية الحلاّق ليرى أين تذهب التقليمات.

"ستاني بي"، قال لويس بهدوء.

طرفت عينا جاد وبدا يعود إلى نفسه. "آه، نعم"، قال. "الجميع في لادلو - في محيط باكسبورت وبروسبكت وأورينغتون أيضاً، أظن - نادوه ستاني بي. في تلك السنة مات كلبي سپوت - أقصد 1910، عندما مات لأول مرة - كان ستاني عجوزاً ومجنوناً كثيراً من قبل. كان هناك آخرون قرب تلك الأنحاء يعرفون عن وجود مقبرة الميكماك، لكنني سمِعتُ عنها من ستاني بي، وهو عرَف عنها من أبيه وأبوه من جدّه. كانوا عائلة بأكملها من الكنديين الفرنسيين الأصيلين".

ضحِك جاد وارتشف شراب شعيره.

"لا يزال بإمكاني سماعه يتكلَّم بتلك اللكنة الإنكليزية المكسَّرة. وجَدني جالساً خلف إسطبل العربات الذي كان قائماً على الطريق 15 - ما عدا أنه كان وقتها طريق بانغور-باكسبورت فقط - تماماً حيث يقف مصنع أورينكو الآن. لم يكن سپوت قد مات بعد لكنه على وشك أن يموت، وقد أرسلني أبي لأتفقَّد بعض عَلَف الدجاج، الذي كان العجوز يوركي يبيعه وقتها. كنا نحتاج إلى عَلَف الدجاج بقدر ما تحتاج البقرة إلى سبّورة، وكنتُ أُدرك لماذا أرسَلني إلى هناك".

"كان سيقتل الكلب؟".

"عرَف مدى تعلّقي بـ سبوت، لذا أبعدني عن المنزل بينما يفعل ذلك. استفسرتُ عن عَلَف الدجاج، وبينما كان العجوز يوركي يعرضه لي، ذهَبتُ إلى الخلف وجلستُ على حجر الرحى القديم الذي كان هناك ورحت أزعق".

هزَّ جاد رأسه ببطء ولطف، وهو لا يزال يبتسم قليلاً.

"ومرَّ ستاني بي"، قال. "نصف سكان البلدة يعتبرونه لطيفاً، والنصف الآخر يعتبرون أنه قد يكون خطيراً. كان جَدّه صيّاد وتاجر فراء كبير في أوائل القرن التاسع عشر، ويقطع كل المسافات من المقاطعات البحرية الكندية وصولاً إلى بانغور ودِيري، ويصل أحياناً إلى سكاوهيغن جنوباً لكي يشتري الفراء، حسبما سِمعتُ. كان يقود عربة كبيرة مليئة بجلود غير مدبوغة كما لو أنها شيء مأخوذ من عرض طبي، ومغطاة بحِكم وأقوال مأثورة قديمة، لأنه كان مقتنعاً بهكذا أمور ويدعو الناس إلى التوبة عندما يكون ثملاً كفاية - هذا ما قاله ستاني، كان يحبّ أن يتكلَّم عن جَدّه - لكنه يضع رموزاً هنديةً وثنيةً أيضاً لأنه مقتنعٌ أن كل الهنود، مهما تكن قبيلتهم، ينتمون إلى قبيلة كبيرة واحدة شاملة. قال إنه مقتنعٌ أن كل الهنود ملعونون، لكن سحرهم نفعَ بطريقة غريبة لعينة.

"بقي جَدّ ستاني يشتري من أفراد قبيلة الميكماك ويتاجر معهم لفترة طويلة بعد توقف معظم الصيّادين والتجّار الآخرين عن ذلك أو انتقالهم غرباً لأنه تاجَر معهم بأسعار عادلة ولأنه، حسبما قال ستاني، يحفظ الحِكم القديمة عن ظهر القلب، وأفراد قبيلة الميكماك يحبّون سماعه يقول لهم الكلمات التي كان أصحاب الرداء الأسود يقولونها لهم في الماضي".

صمتَ. انتظَر لويس.

"أخبَر أفراد قبيلة الميكماك جَدّ ستاني بي عن المقبرة التي لم يعودوا يستخدمونها لأن الويندیغو أتلفَ الأرض، وعن مستنقع الملك الصغير، والدرجات، وكل الباقي. كانت قصة الويندیغو في تلك الأيام شيئاً يمكنك سماعه في كل أنحاء الريف الشمالي. كانت قصة يحتاجون إلى أن تكون من تراثهم، مثلما نحتاج نحن إلى وجود بعض القصص الشعبية في تراثنا. ستحتجّ نورما إذا سمِعتني أقول هذا، لكنها الحقيقة يا لويس. أحياناً، إذا كان الشتاء طويلاً وقاسياً والطعام غير وافر، ينزل بعض هنود الريف الشمالي أخيراً إلى المكان السيئ حيث البرد قارس أو... أو يفعلون شيئاً آخر".

"أكل لحوم بشر؟"، سأل لويس.

هزَّ جاد كتفيه. "ربما. ربما يختارون شخصاً عجوزاً ومستنفداً، ثم تصبح لديهم يخنة لبعض الوقت. والقصة التي ينشرونها هي أن الويندیغو مَرّ في قريتهم أو معسكرهم بينما كانوا نياماً ولمسهم. ومن المفترَض أن كل مَن يلمسه الويندیغو يعطيه استحساناً لمذاق لحم جنسه".

أومأ لويس برأسه. "محاولة الإفلات من الملامة بالقول إن الشيطان جَعَلهم يفعلون ذلك".

"بالتأكيد. أظن أن أفراد قبيلة الميكماك في هذه الأرجاء اضطروا إلى فعل ذلك في مرحلة ما ودفنوا عظام كل شخص أكلوه – شخص واحد أو شخصين، وربما حتى عشرة – هناك في مقبرتهم".

"ثم قرَّروا أن الأرض أصبحت كريهة"، تمتم لويس.

"ثم جاء ستاني بي إلى الجهة الخلفية للإسطبل ليحتسي شرابه، أظن"، قال جاد، "كان شبه ثمل من قبل. ربما كانت قيمة جَدّه مليون دولار عندما مات – أو هكذا قال الناس – ولم يكن ستاني بي سوى

جامع الخردة المحلي. سألني ما الخطب، وأخبَرتُه. رأى أنني أزعق، فأخبَرني أن هناك وسيلة يمكنني حلّ بها هذه المسألة، إذا كنتُ شجاعاً ومتأكداً أنني أريد حلّها.

"قلتُ له إنني سأعطي أي شيء لكي يصبح سپوت بخير من جديد، وسألتُه إن كان يعرف طبيباً بيطرياً يستطيع فعل ذلك. 'لا أعرف أي طبيب بيطري، أنا'، قال ستاني، 'لكنني أعرف كيفية إصلاح كلبك يا فتى. عد إلى المنزل الآن وقل لأبيك أن يضع ذلك الكلب في كيس حبوب، هو، لكنك لن تدفنه، لا! ستجرّه إلى مقبرة الحيوانات وتضعه في الظل قرب كومة الأشجار الساقطة الكبيرة تلك. ثم ستعود وتقول إن الأمر انتهى'".

"سألتُه ما نفع ذلك، وأخبَرني ستاني أن أبقى مستيقظاً تلك الليلة وأخرج عندما يرمي حجراً على نافذتي. 'وسيكون منتصف الليل يا فتى، لذا إذا نسيتَ ستاني بي وخلدتَ إلى النوم، سينساك ستاني بي، ووداعاً للكلب، هو، دعه يذهب إلى الجحيم مباشرة!'".

نظَرَ جاد إلى لويس وأشعلَ سيجارة أخرى.

"جرت الأمور تماماً مثلما رسمها ستاني. عندما عدتُ، قال أبي إنه وضع رصاصة في رأس سپوت ليريحه من أي معاناة إضافية. لم أضطر حتى إلى قول أي شيء عن مقبرة الحيوانات؛ سألني أبي إن كنتُ أعتقد أن سپوب كان ليريدني أن أدفنه هناك، وقلتُ إنني أظن ذلك. لذا صعدتُ إلى هناك وأنا أجرّ كلبي في كيس حبوب. سألني أبي إن كنتُ أريد أي مساعدة، وقلتُ لا لأنني تذكَّرتُ ما قاله ستاني بي".

"بقيتُ مستيقظاً تلك الليلة، إلى الأبد؛ هكذا بدا لي. أنت تعرف كيف هو مفهوم الوقت لدى الأولاد. سيبدو لي أنني بقيتُ مستيقظاً حتى الصباح، ثم تدقّ الساعة مُعلنةً أنها العاشرة أو الحادية عشرة فقط.

كدتُ أغفو مرتين، لكنني جفلتُ وأستيقظتُ بكامل وعيي من جديد. كان ذلك كما لو أن شخصاً هزّني وقال، *استيقظ يا جاد! استيقظ!* كما لو أن شيئاً أراد التأكد من بقائي مستيقظاً".

رفعَ لويس حاجبَي عينيه مستغرباً، وهزَّ جاد كتفيه كما لو أنه يعرف أن هذا جنون.

"عندما دقَّت الساعة في الطابق السفلي معلنةً أنها الثانية عشرة، نهضتُ وجلستُ على سريري مرتدياً ملابسي ونور القمر يسطع عبر النافذة. ثم وجدتُ الساعة تدقّ نغمة مرور نصف ساعة، ثم تدقّ معلنةً أنها الساعة الواحدة، ولم يظهر ستاني بي. قلتُ لنفسي إن ذلك الفرنسي المغفَّل نسيني كلياً، ورحتُ أستعد لأخلع ملابسي من جديد عندما ارتطمت حصاتان بزجاج نافذتي، بقوة لعينة كافية لتكسره. أحدثت إحداها تشقّقاً في أحد الألواح، لكنني لم ألاحظه حتى صباح اليوم التالي، ولم تراه أمي حتى الشتاء التالي، واعتقَدت وقتها أن الصقيع تسبَّب به. لحسن حظي".

"طرتُ إلى تلك النافذة ورفعتُ نصفها السفلي لأفتحه. أطلقت صريراً على الإطار، مثلما يبدو أن النوافذ تفعل فقط عندما تكون ولداً وتريد الخروج بعد منتصف الليل –"

ضحِك لويس، رغم أنه لا يمكنه أن يتذكَّر أنه أراد يوماً الخروج من المنزل في ساعةٍ مظلمةٍ عندما كان في العاشرة من عمره. ومع ذلك، لو أنه أراد فعل ذلك، لكان أكيداً أن النوافذ التي لم تُصدر صريراً أبداً خلال النهار ستُصدر صريراً وقتها.

"تخيلّتُ أن والديَّ سيظنان أن سارقاً يحاول اقتحام المنزل، لكن عندما هدأ قلبي استطعتُ سماع أبي لا يزال يشخر بصوتٍ عالٍ في غرفة النوم في الطابق الأول. نظرتُ إلى الخارج ورأيتُ ستاني بي واقفاً في ممرنا

الخاص ينظر إلى فوق، ويتمايل كما لو أن هناك رياحاً عاتيةً عندما لم يكن هناك أكثر من نسيم خفيف. لا أعتقد أنه كان ليأتي يا لويس لولا أنه بلغ تلك المرحلة من الثمالة حيث تكون مستيقظاً بقوة مثل بومة تعاني من إسهال ولا يهمّك أي شيء في الدنيا. وصاح بي بأعلى صوته - لكنني أظن أنه اعتقَد أنه كان يهمس لي - 'هل ستنزل يا فتى، أم عليَّ أن أصعد لإحضارك بالقوة؟'".

"'صه!'، قلتُ له، خائفاً حتى الموت من أن يستيقظ أبي ويُطعمني أقوى ضرب مبرِّح في حياتي اليافعة. 'ماذا قلتَ؟'، صاح ستاني حتى بصوتٍ صاخبٍ أكثر من قبل. لو كان والداي في الغرفة المجاورة للطريق يا لويس، لقُضي عليَّ. لكنهما كانا في غرفة نومنا نورما وأنا الآن، التي تطلّ على النهر".

"أنا أكيد أنك نزَلت تلك الدرجات بأسرع ما يمكنك"، قال لويس. "هل لديك زجاجة شراب شعير أخرى يا جاد؟". كان قد شرب مسبقاً زجاجتين أكثر من حدّه الاعتيادي، لكن هذا الأمر بدا مقبولاً هذه الليلة. هذا الأمر بدا إلزامياً تقريباً هذه الليلة.

"لديَّ، وأنت تعرف أين أضعها"، قال جاد وأشعلَ سيجارةً جديدةً. انتظَر إلى أن عاد لويس وجلس مرة أخرى. "لا، لما كنتُ تجرّأتُ واستخدمتُ السلالم. فهي تمرّ بجانب غرفة نوم والديَّ. نزلتُ على تعريشة اللبلاب مستخدماً يديَّ، بأسرع ما يمكنني. كنتُ خائفاً بالطبع، لكنني أعتقد أنني كنتُ خائفاً من أبي أكثر من خوفي من الصعود إلى مقبرة الحيوانات مع ستاني بي".

سحَق سيجارته.

"صعدنا إلى هناك، كلانا، وأظن أن ستاني بي سقط أرضاً ست مرات. كان في دنيا أخرى حقاً؛ ورائحته تفوح كما لو أنه سقط في

حوض ذرة. كاد في إحدى المرات يُقحم عصا لعينة في حنجرته. لكن كان معه مِعوَل ومجرفة. عندما وصلنا إلى مقبرة الحيوانات، كنتُ أتوقع أن يرمي لي المِعوَل والمجرفة ويُغمى عليه بينما أحفر لوحدي".

"بدلاً من ذلك، بدا وكأنه استفاق من الثمالة قليلاً. أخبَرني أننا سنتسلّق كومة الأشجار الساقطة ونغوص أعمق في الغابة، حيث توجد مقبرة أخرى. نظَرتُ إلى ستاني، الذي كان ثملاً لدرجة أنه بالكاد يستطيع البقاء واقفاً على قدمَيه، ونظَرتُ إلى تلك الأشجار الساقطة، وقلتُ، 'لا يمكنك أن تتسلّق هذه يا ستاني بي، ستكسر عنقك'".

"وقال، 'لن أكسر عنقي، أنا، وأنت أيضاً. يمكنني أن أسير ويمكنك أن تجرّ كلبك'. وكان محقّاً. أبحَر فوق تلك الأشجار الساقطة بسلاسة مطلقة، دون حتى أن يُخفِض نظره، وجررتُ سپوت إلى قمة الكومة، رغم أن وزنه كان بلا شك حوالي خمسة عشر كيلوغراماً ووزني حوالي أربعين كيلوغراماً فقط. لكنني أريد إخبارك يا لويس أنني أُصبتُ ببعض التقرّحات والتشنّجات في اليوم التالي. كيف تشعر اليوم؟".

لم يُجبه لويس، بل أومأ برأسه فقط.

"سرنا وسرنا"، قال جاد. "بدا لي أننا سنسير إلى الأبد. كانت الغابة مرعِبة أكثر في تلك الأيام. وأعداد الطيور التي تصدح من الأشجار أكبر، وأنت لا تعرف ما هي. وهناك حيوانات تتنقَّل حولك. غزلان، على الأرجح، لكن وقتها كانت هناك حيوانات موظ أيضاً ودببة وأسود جبال. جررتُ سپوت. بدأت بعد حين تخطر ببالي فكرة مضحكة بأن ستاني بي العجوز اختفى وأنني أتبع هندياً سيستدير نحوي في لحظة ما، مبتسماً وبعينين سوداوين ووجهٍ محزَّزٍ بذلك الطلاء النتِن الذي يصنعونه من شحم الدب؛ وسيحمل توماهوكاً من خشب الأردواز ورمحاً من خشب الدردار مربوطَين ببعضهما بقطعة جلد غير

مدبوغ، وسيُمسكني من عنقي ويضرِب رأسي ضربةً عنيفةً مقتلِعاً شعري - مع أعلى جمجمتي. لم يعد ستاني يترنَّح أو يسقط؛ بل يسير بشكل مستقيم وسهل، رافعاً رأسه، وهذا ساعد في تعزيز الفكرة لديَّ نوعاً ما. لكن عندما وصلنا إلى حافة مستنقع الملك الصغير واستدار ليكلّمني، رأيتُ أنه ستاني فعلاً، وسبب توقّفه عن الترنّح أو السقوط هو لأنه كان خائفاً. خائفاً إلى درجة إيقاظ حواسه من حالة الثمالة.

"أخبَرني نفس الأشياء التي أخبَرتُك إياها ليلة أمس - عن الطيور الغوّاصة، وشرر سانت إلمو، وكيف أنه لا يجب أن أكترث لأي شيء أراه أو أسمعه. وأهم شيء قاله هو أنه لا يجب أن أتكلَّم مع أي شيء إذا تكلَّم معي. ثم بدأنا نجتاز المستنقع. ورأيتُ شيئاً. لن أُخبرك ما هو، فقط أنني صعدتُ إلى هناك حوالي خمس مرات منذ تلك المرة عندما كنتُ في العاشرة، ولم أر أي شيء مثله مرة أخرى أبداً. ولن أرى يا لويس، لأن رحلتي إلى قبر الميكماك ليلة أمس كانت الأخيرة".

أنا لا أصدِّق كل هذا، أليس كذلك؟ سأل لويس نفسه بنبرة تحادثية تقريباً - ساعدته زجاجات شراب الشعير الثلاثة على تخيّل تلك النبرة. *أنا لا أصدِّق قصة مقابر قدامى الفرنسيين والهنود هذه وشيئاً يدعى الوينديغو وحيوانات تعود إلى الحياة، أليس كذلك؟ بالله عليك، لقد تلقّى القط صدمةً، فقط لا غير،* دهسته سيارة وتلقّى *صدمةً - لا شيء مهم. هذا مجرد هذيان عجوز خرِف.*

ما عدا أنه لم يكن، ولويس يعرف ذلك، وثلاث زجاجات شراب شعير لم تكن ستداوي تلك المعرفة، ولا حتى ثلاث وثلاثين زجاجة.

لقد مات تشرش، هذا شيءٌ؛ وهو حيّ الآن وهذا شيءٌ آخر؛ هناك أمرٌ مختلفٌ في الصميم، أمرٌ خطأٌ في صميمه، وهذا شيءٌ ثالثٌ. أمرٌ ما حصل. لقد وفى جاد دَيناً شَعَر أنه يَدين به لي... لكن الدواء

المتوفر في مقبرة الميكماك ربما ليس دواءً جيداً إلى هذا الحدّ، ولويس رأى الآن شيئاً في عينَي جاد أخبَره أن العجوز يعرف ذلك. فكَّر لويس في سرّه بما رآه - أو ظنَّ أنه رآه - في عينَي جاد ليلة البارحة. ذلك الشيء المرِح المغتبط. تذكَّر شعوره أن قرار جاد بأخذ قط لويس وإيليه في تلك الرحلة الليلية بالذات لم يكن قراره لوحده كلياً.

إذا لم يكن قراره، فقرار مَن كان؟ سأله ذهنه. ولأنه لم يملك جواباً، غضَّ لويس النظر عن السؤال المزعج.

"دفنتُ سبوت وبنيتُ المَعلَم الحجري"، تابع جاد كلامه بصوتٍ خافتٍ، "وحين انتهيتُ، كان ستاني بي مستغرقاً في نومه. اضطررتُ إلى هزّه بعنف لكي يصحو ويتحرَّك من جديد، لكن حين نزَلنا تلك الدرجات الأربعة والأربعين –"

"الخمسة والأربعين"، همسَ لويس.

أومأ جاد برأسه. "أجل، هذا صحيح، أليس كذلك؟ خمسة وأربعون. حين نزَلنا تلك الدرجات الخمسة والأربعين، كان يسير بثبات كما لو أنه لم يعد ثملاً أبداً. اجتزنا المستنقع والغابة وكومة الأشجار الساقطة، وأخيراً اجتزنا الطريق وعدنا إلى منزلي. بدا لي كما لو أن عشر ساعات مرَّت، لكن الجو كان لا يزال مظلماً بالكامل.

"'ماذا يحصل الآن؟'، سألتُ ستاني بي. 'الآن تنتظر وترى ماذا قد يحصل'، قال ستاني ثم انصرف، مترنِّحاً ومتطوِّحاً من جديد. أعتقد أنه نام في الجهة الخلفية للإسطبل تلك الليلة، وحسب مجرى الأمور، تبيَّن أن كلبي سبوت عاش أكثر من ستاني بي بسنتين. فقد تلف كبده وسمَّمه، وعثر عليه ولدان صغيران على الطريق في 4 يوليو 1912، متيبّساً مثل قطعة حطب.

"لكنني تسلَّقتُ نبتة اللبلاب تلك الليلة وأويتُ إلى السرير

وغفوتُ حالما لمس رأسي الوسادة تقريباً".

"لم أستيقظ في الصباح التالي قبل الساعة التاسعة تقريباً، وكانت أمي تناديني وقتها. كان أبي يعمل في السكة الحديدية، ويغادر منذ السادسة صباحاً". توقف جاد لبرهة وراح يفكّر. "لم تكن أمي تناديني فقط يا لويس. كانت تصرخ لي".

ذهَب جاد إلى البرّاد، وأحضَر لنفسه زجاجة شراب شعير، وفتحها على مقبض الجارور تحت صندوق الخبز والمحمصة الكهربائية. بدا وجهه أصفر تحت ضوء السقف، بلون النيكوتين. أفرغ نصف شراب شعيره، وتجشأ بصوتٍ عالٍ، ثم ألقى نظرة سريعة على القاعة نحو الغرفة حيث تنام نورما. ثم اِلتفَت إلى الوراء نحو لويس.

"من الصعب عليَّ التكلّم عن هذا"، قال. "بقيتُ أدوّره في ذهني لسنوات عديدة، لكنني لم أُخبر أي شخص عنه أبداً. وعرَف الآخرون ماذا حصل، لكنهم لم يكلّموني عنه أبداً. أظن أن هذا مماثل لموضوع المضاجعة. وأنا أُخبِرك يا لويس لأن لديك حيواناً أليفاً من نوع مختلف الآن. ليس بالضرورة حيواناً خطيراً، لكن... مختلفاً. هل تصدِّق هذا؟".

تذكَّر لويس تشرش يقفز بشكل غريب عن مقعد المرحاض، ووركاه يُصدران صوتاً مكتوماً على جانب المغطس؛ تذكَّر تلك العينين الموحِلتين اللتين كانتا غبيتين تقريباً لكن ليس كلياً تحدِّقان فيه.

أومأ برأسه أخيراً.

"عندما نزلتُ إلى الطابق السفلي، وجدتُ أمي ملتصقة بالزاوية في حجرة المؤن بين ثلاجتنا والطاولة، ومجموعة أمور بيضاء على الأرض – ستائر كانت تنوي تعليقها. ورأيتُ كلبي سپوت واقفاً عند مدخَل حجرة المؤن. كان هناك تراب على كل جسمه ووحل على قوائمه، والفرو على بطنه قذر ومتشابك ببعضه. كان يقف هناك فقط – لا

يزمجر أو يفعل أي شيء آخر – فقط يقف هناك، لكن من الواضح أنه سبب التصاقها بالزاوية، سواء قصَدَ ذلك أم لا. كانت مرتعبةً يا لويس. لا أعرف كيف كانت مشاعرك تجاه والدَيك، لكنني أعرف كيف كانت مشاعري تجاه والديَّ: أحبَبتُهما كثيراً. ومعرفة أنني فعلتُ شيئاً أرعبَ أمي أزال أي فرح ربما شَعَرتُ به عندما رأيتُ سپوت يقف هناك. حتى إنني لم أتفاجأ من وجوده هناك".

"أعرف الشعور"، قال لويس. "عندما رأيتُ تشرش هذا الصباح، شعرتُ... بدا شيئاً –". صمتَ لبرهة. *طبيعياً جداً*؟ هاتان هما الكلمتان اللتان خطرتا بباله فوراً، لكنهما لم تكونا الكلمتين الصحيحتين. "شيئاً من *المفترض* أن يحصل".

"نعم"، قال جاد. أشعلَ سيجارةً جديدةً بيدين ترتعشان قليلاً. "ورأتني أمي هناك، لا أزال في ملابسي الداخلية، وصَرَخت عليَّ، 'أطعِم كلبك يا جاد! كلبك يحتاج إلى الطعام، وأخرجه من هنا قبل أن يوسِّخ الستائر!'".

"لذا وجَدتُ له بعض فضلات الطعام وناديتُه، ولم يأتِ في البدء، بدا في البدء كما لو أنه لم يعرف إسمه، وقلتُ لنفسي فوراً، حسناً، هذا ليس سپوت أبداً، بل مجرد كلب شارد يشبه سپوت، هذا كل –"

"نعم!"، صاح لويس فجأة لدرجة أنه أجفل نفسه.

أومأ جاد برأسه. "لكنه أتى عندما ناديتُه للمرة الثانية أو الثالثة. أتى إليَّ وهو يهتزّ نوعاً ما، وعندما قدتُه إلى الشرفة، كدتُ أرتطم بالباب وأسقط أرضاً. لكنه أكَل فضلات الطعام، وبنَهَم. كنتُ قد تخطيتُ وقتها رعبي الأول، وبدأت تتكوَّن لديَّ فكرة عما حصل. ركعتُ على رُكبتيَّ واحتضنتُه، مسروراً جداً من رؤيته. خفتُ للحظة أو لحظتين من احتضانه، ثم – أظن أنني ربما تخيّلتُ ذلك، لكنني أعتقد أنه

- زمجر. لثانيةٍ فقط. ثم لعَق وجهي، و..."

ارتعشَ جاد وأنهى شراب شعيره.

"لويس، كان لسانه *بارداً*. أن يلعقك سبوت كان أشبه بفرك وجهك بسمكة شبّوط ميتة".

لم ينطق أحدهما للحظة، ثم قال لويس، "أكمِل".

"عندما أنهى طعامه، أحضرتُ مغطساً قديماً كنا نحتفظ به له تحت الشرفة الخلفية، وحمّمتُه. لطالما كرِه سبوت أن يتحمَّم، حيث أحتاج عادة إلى مساعدة من أبي لكي أفعل ذلك، وتصبح ثيابنا في النهاية مبلَّلة بالكامل، فيبدأ أبي بالشتم ويبدو سبوت خجِلاً، بالطريقة التي تبدو بها الكلاب خجِلةً. وغالباً ما يتمرمغ في التراب بعد ذلك مباشرةً ويركض ليقف قرب حبل غسيل أمي لينفض جسمه وتتطاير الأوساخ على كل الملاءات التي تكون قد نشرتها فتبدأ بالصراخ علينا وتهدِّدنا أنها ستُطلق النار على الكلب عما قريب.

"لكن في ذلك اليوم، جلس سبوت في المغطس وتركني أحمِّمه بهدوء دون أن يتحرَّك أبداً. لم يعجبني ذلك. كان كما لو أنني... أنظِّف قطعة لحم. أحضرتُ منشفة قديمة بعد الانتهاء من تحميمه وجفَّفته. استطعتُ رؤية الأماكن التي جرحه فيها السلك الشائك - لم يكن هناك فرو في كل تلك الأماكن، وبدا اللحم منقوراً، مثلما يبدو الجرح القديم بعد مرور خمس سنوات أو أكثر على شفائه، إذا كنتَ قد رأيتَ هكذا جرح يوماً ما".

أومأ لويس برأسه. فطبيعة عمله تدعه يرى هكذا أشياء من وقت لآخر. لا يبدو أن مكان الجرح يمتلئ بالكامل أبداً، وهذا ذكَّره بالقبور وأيام تدرّبه على مهنة الحانوتيّ، وكيف أنه لا توجد تربة كافية أبداً لإعادة ملئها من جديد.

"ثم رأيتُ رأسه. كانت توجد نقرة أخرى بالقرب من أذنه، لكن الفرو عاد ونما أبيض اللون في دائرة صغيرة هناك".

"حيث أطلق أبوك النار عليه"، قال لويس.

أومأ جاد برأسه. "أجل".

"إطلاق النار على رأس رجل أو حيوان ليس أمراً مؤكَّد النجاح مثلما يبدو يا جاد. هناك أشخاص حاولوا الانتحار يقبعون في أجنحة الغيبوبة التامة تتم تغذيتهم عبر أنابيب، أو أشخاص أحياء معافون بالكامل لم يعرفوا أن بإمكان الرصاصة أن تخترق الجمجمة وتدور حولها في نصف دائرة، وتخرج من الجهة الأخرى دون حتى أن تخترق الدماغ. لقد رأيتُ شخصياً حالةً أطلق فيها رجلٌ النار على نفسه فوق أذنه اليمنى ومات لأن الرصاصة التفَّت حول رأسه ومزَّقت وريده الوداجي على الجهة الأخرى... في عنقه. بدا مسار تلك الرصاصة مشابهاً لخريطة طرقات المقاطعة".

ابتسم جاد وأومأ برأسه. "أتذكَّر قراءة شيء من هذا القبيل في إحدى صحف نورما، *النجم* أو *المستفسِر*. لكن إذا كان أبي قد قال إن سپوت رحل، يكون رحل يا لويس".

"حسناً"، قال لويس.

"هل رحل قط إبنتك؟".

"كنتُ متأكداً من ذلك"، قال لويس.

"يجب أن تفعل أفضل من هذا. أنت طبيب".

"تقول هذا وكأنك تقصد 'يجب أن تفعل أفضل من هذا يا لويس، أنت تعرف الغيب'. حسناً، أنا لا أعرف الغيب. كان الجو مظلماً –"

"بالتأكيد، كان مظلماً، واستدار رأسه حول عنقه كما لو أنه

مليء بأسناد كروية، وعندما حرَّكتَه، خرجَ من الصقيع يا لويس – بدا الصوت مثل قطعة شريط لاصق ينفصل عن رسالة. الأشياء الحيّة لا تفعل هذا. تتوقف ببساطة عن إذابة الصقيع الذي تستلقي عليه عندما تكون ميتاً".

في الغرفة الأخرى، دقَّت الساعة العاشرة والنصف.

"ماذا قال أبوك عندما عاد إلى المنزل ورأى الكلب؟"، سأل لويس بحشرية.

"كنتُ في الخارج على الممر الخاص لمنزلنا، أُطلق بضع بِليات على التراب، بانتظار عودته تقريباً. شَعَرتُ مثلما أشعر دائماً عندما أكون قد ارتكبتُ خطأً وأعرف أنني سأُعاقب على الأرجح. وصلَ حوالي الساعة الثامنة، مرتدياً رداءه السروالي وقبعته المخطَّطة... هل رأيتَ إحدى تلك القبعات يوماً؟".

أومأ لويس برأسه، ثم كبتَ تثاؤباً بالجهة الخلفية ليده.

"صح، تأخر الوقت"، قال جاد. "علينا إنهاء هذا".

"لم يتأخر كثيراً"، قال لويس. "تناولتُ بضع زجاجات شراب شعير أكثر من عادتي فقط لا غير. أكمِل يا جاد. خذ وقتك. أريد سماع هذا".

"كان لدى أبي صفيحة طعام قديمة يأخذها معه إلى العمل"، قال جاد، "ويدخل من البوابة ملوِّحاً بها، فارغة، من مقبضها. يصفِّر شيئاً. كان قد بدأ يحلّ الظلام، لكنه رآني هناك في الظُلمة وقال، 'مرحبا يا فتى!' على عادته، ثم، 'أين –'"

"كان قد قطع تلك المسافة عندما خرج سپوت من الظلمة، دون أن يركض مثلما كان يفعل عادة، جاهزاً ليقفز عليه مسروراً من رؤيته، بل يسير فقط، ويهزّ ذيله، وأسقطَ أبي تلك الصفيحة وتراجَع إلى

الوراء. لا أعرف إن كان سيستدير ويبدأ بالركض ما عدا أن ظهره اصطدم بالسور ثم بقي يقف هناك ينظر إلى الكلب. وعندما قفز سپوت فعلاً، التقط أبي كفَّيه وأمسكهما، مثلما تُمسك يدَي سيدة تستعد للرقص معها. بقي ينظر إلى الكلب لوقت طويل ثم نظَرَ إليَّ وقال، 'يحتاج إلى حمّام يا جاد. رائحته نتنة من الأرض التي دفنته فيها'. ثم دخَل المنزل".

"ماذا فعلتَ؟"، سأل لويس.

"حمَّمتُه مرة أخرى. بقي هادئاً في المغطس وتقبَّل المسألة من جديد. وعندما دخَلتُ المنزل، كانت أمي قد خلدت إلى النوم، رغم أنها لم تكن الساعة التاسعة حتى. قال أبي، 'علينا أن نتكلّم يا فتى'. وجلستُ مقابله وكلَّمني كرجلٍ لأول مرة في حياتي، ورائحة العسلة قادمة من الجهة الأخرى للطريق حيث يقف منزلك الآن ورائحة الورد البري من منزلنا". تنهَّد جاد كراندال. "لطالما شعرتُ أنه من الجيد لو يكلِّمني بهذه الطريقة، لكنني كنتُ مخطئاً. لم يكن جيداً أبداً. كل ما حصل هذه الليلة يا لويس – يشبه عندما تنظر في مرآة وُضعت مقابلها مرآةٌ أخرى، ويمكنك أن ترى نفسك تتكرَّر في نفق طويل من المرايا. أتساءل كم مرة تم فيها تناقل هذه القصة؟ قصة هي نفسها ما عدا الأسماء؟ وهذا شيء يشبه مسألة المضاجعة أيضاً، أليس كذلك؟".

"كان أبوك يعرف كل شيء عن ذلك المكان".

"نعم. 'مَن الذي أخذك إلى هناك يا جاد؟'، سألني، وأخبَرتُه. أومأ برأسه فقط كما لو أنه كان ما توقّعه بالضبط. أظن ذلك، رغم أنني عرَفتُ لاحقاً أن هناك ستة أو ثمانية أشخاص في لادلو في ذلك الوقت كان بإمكانهم أخذي إلى هناك. أظن أنه عرَف أن ستاني بي هو الوحيد المجنون كفايةً ليفعل ذلك فعلاً".

"هل سألتَه لماذا لم يأخذك يا جاد؟".

"أجل"، قال جاد. "سألتُه ذلك في لحظة ما خلال ذلك الحديث الطويل. وقال إنه مكان سيئ، على العموم، وإنه في أغلب الأحيان لم ينفع الأشخاص الذين فقدوا حيواناتهم أو الحيوانات نفسها. سألني إن أعجبني سپوت بصيغته الجديدة، ووجدتُ صعوبة كبيرة في الإجابة يا لويس... ومن المهم أن أُخبِرك مشاعري حول ذلك، لأنك ستسألني عاجلاً أم آجلاً لماذا أخذتُك إلى هناك مع قط إبنتك بما أنه عمل سيئ. أليس كذلك؟".

أومأ لويس برأسه. ماذا ستقول إيليه عن تشرش عندما تعود؟ كان هذا يشغل باله كثيراً بينما كان يلعب كُرة المضرب مع ستيڤ ماسترتون بعد ظهر ذلك اليوم.

"ربما فعلتُ ذلك لأن الأولاد يحتاجون إلى معرفة أن الموت أفضل أحياناً"، قال جاد ببعض الصعوبة. "هذا شيء إبنتك إيليه لا تعرفه، وأظن أنها ربما لا تعرفه لأن زوجتك لا تعرفه. أخبرني الآن إن كنتُ مخطئاً، وسننسى المسألة".

فتَح لويس فمه ثم عاد وأغلقه.

أكمَل جاد، وراح يتكلّم ببطء شديد الآن، وبدا أنه ينتقل من كلمة إلى أخرى مثلما انتقلا من رابية إلى أخرى في مستنقع الملك الصغير ليلة البارحة.

"لقد رأيتُ هذا يحصل مرات عديدة على مرّ السنوات"، قال. "أظن أنني أخبَرتُك أن لستر مورغان دفنَ ثوره هناك. ثور أنغوس أسود يدعى هانراتي. أليس هذا إسماً سخيفاً لثورٍ؟ مات من أحد أنواع القرحة الداخلية، وجرَّه لستر كل تلك المسافة إلى هناك على مزلجة. كيف فعل ذلك - كيف تخطّى الأشجار الساقطة لا أعرف - لكنه قيل إن ما

تعقد العزم على فعله، يمكنك أن تفعله. وفيما يتعلق بتلك المقبرة على الأقل، أقول إن هذا صحيح.

"وقد عاد هانراتي، لكن لسْتر أطلق عليه النار بعد أسبوعين. فقد أصبح ذلك الثور دنيئاً، دنيئاً حقاً. لكنه الحيوان الوحيد الذي سمِعتُ أنه أصبح هكذا. معظمها تبدو... غبية قليلاً... بطيئة قليلاً... و..."

"ميتة قليلاً؟".

"أجل"، قال جاد. "ميتة قليلاً. غريبة قليلاً. كما لو أنها كانت... في مكان ما... وعادت... لكن ليس بالكامل. الآن، لن تعرف إبنتك ذلك يا لويس. ليس أن سيارة دهست قطها وقتلته، ثم عاد. لذا يمكنك أن تقول إنه لا يمكنك تعليم ولدٍ درساً إلا إذا كان الولد يعرف أن هناك درساً يمكن تعلّمُه. ما عدا..."

"ما عدا أنه يمكنك ذلك أحياناً"، قال لويس لنفسه أكثر مما لجاد.

"نعم"، وافَقه جاد، "يمكنك ذلك أحياناً. ربما سترى أن هناك خطباً وأن تشرش كان أفضل في السابق. ربما ستتعلَّم شيئاً عن ماهية الموت حقاً، وهو المكان الذي يتوقف عنده الألم وتبدأ الذكريات الجيدة. ليس نهاية الحياة، بل نهاية الألم. لا تُخبِرها تلك الأشياء؛ ستكتشفها بنفسها".

"وإذا كانت مثلي ولو قليلاً، ستواصل حُبها لحيوانها الأليف. لن يصبح وحشياً، أو يعضّ، أو أي شيء من هذا القبيل. ستواصل حُبه... لكنها ستستنتج استنتاجاتها الخاصة... وستتنفس الصعداء عندما يموت أخيراً".

"لهذا السبب أخذتني إلى هناك"، قال لويس. شَعَر بتحسّن الآن. أصبح لديه تفسير. كان مُسهَباً قليلاً، وغير منطقي كثيراً، لكنه وجَد أنه يمكنه قبوله في هذه الظروف. وهذا عَنَى أنه يمكنه نسيان التعبير

الذي اعتقَد أنه رآه على وجه جاد لبرهةٍ ليلة أمس – ذلك الانشراح المغتبط الداكن. "حسناً، هذا –"

فجأة، وبشكل مروِّع تقريباً، غطّى جاد وجهه بيديه. ظنَّ لويس للحظة أنه شَعَر بألم مفاجئ، فنهض جزئياً، قلقاً، إلى أن رأى التنهّد المتشنِّج للصدر وأدرك أن العجوز يكافح لكي لا يبكي.

"لهذا السبب، لكن ليس تماماً"، قال بصوتٍ مخنوقٍ. "فعلتُ ذلك لنفس السبب الذي جعل ستاني بي يفعله ولنفس السبب الذي جعل لسْتر مورغان يفعله. لسْتر أخذ ليندا لافسك إلى هناك بعد أن دُهس كلبها على الطريق. أخذها إلى هناك رغم أنه اضطر إلى إراحة ثوره اللعين من بؤسه لمطاردته الأولاد في مرعاه كالمجنون. وقد فعلَ ذلك على أي حال، فعلَ ذلك *على أي حال* يا لويس"، قال جاد وهو يئنّ تقريباً، "بالله عليك، ماذا تفهم من هذا!".

"عما تتكلّم يا جاد؟"، سأل لويس بقلق.

"لسْتر فعلَ ذلك وستاني فعلَ ذلك لنفس السبب الذي جعلني أفعله. أنتَ تفعله لأنه يتملّكك. تفعله لأن ذلك القبر مكانٌ سريٌّ وتريد أن تشارك السر، وعندما تجد سبباً يبدو جيداً كفاية، عندها...". أبعدَ جاد يديه عن وجهه ونظَرَ إلى لويس بعينين بدتا قديمتين بشكل لا يُصدَّق، مُنهَكتين بشكل لا يُصدَّق. "عندها تفعله دون تردّد. تخترع أسباباً... تبدو لك أسباباً وجيهةً... لكنك تفعله في الأغلب لأنك تريد أن تفعله. أو لأن عليك أن تفعله. لم يأخذني أبي إلى هناك لأنه سمِع عنه لكنه لم يره *أبداً*. ستاني بي صعد إلى هناك... وأخذني... ومرَّت سبعون سنة... ثم... فجأة..."

هزَّ جاد رأسه وسعَلَ بجفاف في راحة يده.

"اسمع"، قال. "اسمع يا لويس. ثور لسْتر هو الحيوان اللعين الوحيد

الذي أصبح دنيئاً حقاً. وأظن أن كلب السيدة لاڤسك الصغير ربما عضَّ ساعي البريد مرةً، فيما بعد، وسمِعتُ بضعة أشياء أخرى... حيوانات أصبحت بغيضة قليلاً... لكن سپوت كان كلباً طيباً دائماً. بقيت رائحته كرائحة التربة دائماً، مهما حمّمتُه من مرات – لكنه كان كلباً طيباً. لم تعد أمي تلمسه أبداً بعد ذلك، لكنه بقي كلباً طيباً. لكن إذا أردتَ أخذ قطك هذه الليلة وقتله يا لويس، لن أتفوّه بكلمة أبداً.

"ذلك المكان... يتملّكك فجأة... وتخترع أعذب الأعذار في العالم... لكن قد أكون مخطئاً يا لويس. هذا كل ما أقوله. قد يكون لسْتر مخطئاً. قد يكون ستاني بي مخطئاً. تباً، أنا لا أعرف الغيب. لكن إعادة الميت إلى الحياة... هذا مخالف للطبيعة تماماً، أليس كذلك؟".

فتَح لويس فمه مرة أخرى، ثم عاد وأغلقه. ما كان سيخرج منه كان سيبدو خاطئاً، خاطئاً ووحشياً: *جاد، لم أخضع لكل هذا لكي أقتل القط اللعين من جديد.*

أفرغ جاد شراب شعيره ثم وضعه جانباً بعناية مع بقية الزجاجات الفارغة. "أظن ذلك"، قال. "لم يعد لديَّ أي كلام آخر".

"هل يمكنني أن أسألك سؤالاً آخر؟"، سأل لويس.

"أظن ذلك"، قال جاد.

قال لويس: "هل دفنَ أحدهم *شخصاً* هناك ذات يوم؟".

ارتعَشت ذراع جاد بتشنّج؛ وسقطت زجاجتان من زجاجات شراب الشعير عن الطاولة، وتحطَّمت إحداهما.

"يا إلهي"، قال للويس. "*لا!* ومَن سيفعل هذا؟ أنت لا تريد حتى أن تتكلّم عن هكذا أمور يا لويس!".

"كنتُ فضولياً فقط"، قال لويس بانزعاج.

"لا نفع من أن يكون المرء فضولياً بشأن بعض الأمور"، قال جاد كراندال، ولأول مرة بدا عجوزاً حقاً وغير مستقر بالنسبة للويس كريد؛ كما لو أنه يقف على مقربة من قبره المحضَّر حديثاً.

ولاحقاً، في المنزل، خطر بباله شيء آخر عن المظهر الذي بدا به جاد في تلك اللحظة.

بدا كأنه يكذب.

الفصل 27

لم يعرف لويس حقاً أنه ثمل إلى أن عاد إلى مرأبه.

كان ضوء النجوم يشعّ في الخارج وقشرة القمر قارسة. لم يكن النور كافياً ليُلقي ظلاً، لكنه كافٍ للرؤية. بعدما وصل إلى المرأب، أصبح أعمى. كان هناك زر ضوء في مكان ما، لكن اللعنة عليه إن كان يمكنه أن يتذكَّر مكانه بالضبط. راح يتلمَّس طريقه ببطء، وهو يجرّ قدمَيه على الأرض، ورأسه يسبح في الهواء، ويتوقّع ضربةً مؤلمةً على ركبته أو أن يتعثَّر بلعبة فيخيف نفسه بصوت تحطّمها، وربما تُسقطه أرضاً. دراجة إيليه الهوائية الصغيرة ذات عجلات التدريب الحمراء. تمساح غايدج الزاحف.

أين القط؟ هل أطعمَه؟

تاه عن طريقه بطريقة أو بأخرى واصطدم بالجدار. همَست شظيةٌ في راحة يده وصرَخ "تباً!" بالظلمة، وأدرك بعد أن نطق الكلمة أنها خرجت بدافع الخوف أكثر مما خرجت بدافع الغضب. بدا المرأب بأكمله وكأنه قام بنصف استدارة متخفّية. لم يعد الأمر يقتصر الآن على زر الضوء فقط؛ بل أصبح لا يعرف الآن المكان *اللعين* لكل شيء، وهذا شمل الباب الذي يؤدي إلى المطبخ.

بدأ يسير مرة أخرى، يتحرَّك ببطء، وراحة يده تلسعه. *هذا هو الشعور أن تكون أعمى*، فكَّر في سرّه، وهذا ذكَّره بحفلة موسيقية لستيفي واندر حضرها مع رايتشل – متى؟ منذ ست سنوات؟ لا بدّ أن هذا القدر الكبير من الوقت قد مرّ رغم استحالة هذا. كانت حاملاً بإيليه وقتها. قاد شابان واندر إلى مكانه على المسرح خلف جهاز توليفه الأنغام، وساعداه على تخطي الأسلاك الموضوعة على الأرض

لكي لا يتعثَّر بها. ولاحقاً، عندما نهض ليرقص مع إحدى المغنيات المساعدات، قادته بعناية إلى مكانٍ خالٍ على المسرح. رقَص جيداً، تذكَّر لويس يقول لنفسه. رقَص جيداً، لكنه احتاج إلى يد تقوده إلى المساحة حيث يمكنه أن يفعل ذلك.

ما رأيك الآن بيد تقودك إلى باب مطبخك؟ فكَّر في سرّه... وارتجف فجأة.

إذا خرَجت يدٌ من الظلمة الآن لتقوده، كم سيصرخ - يصرخ ويصرخ ويصرخ.

جمُد في أرضه وقلبه يخفق بقوة في صدره. *بالله عليك*، قال لنفسه. *توقف عن هذا الهراء، هيا، هيا -*

أين القط اللعين؟

ثم ارتطم بشيء، مخفِّف الصدمات الخلفي لسيارته الستايشن، وأدمعت عيناه من الألم الذي غمرَ جسمه من قصبه ساقه. أمسَك رِجله وفركها، واقفاً على رِجل واحدة مثل مالك الحزين، لكنه أصبح على الأقل يعرف أين هو الآن، وأصبحت جغرافيا المرأب راسخة في ذهنه مرة أخرى، وبالإضافة إلى ذلك، كان يستعيد بصره الليلي، بصره الأرجواني العزيز. لقد ترَك القط في المنزل، تذكَّر ذلك الآن، فلم يرغب أن يلمسه حقاً، لكي يرفعه ويضعه في الخارج و-

وفي تلك اللحظة لمس جسم تشرش الحار المكسو بالفراء كاحله مثل دوّامة منخفضة من الماء الساخن، وتبعه ذيله الكريه، ملتفّاً حول ربلته مثل أفعى قابضة، وعندها صرخَ لويس فعلاً؛ فتَح فمه بالكامل وصرَخ.

الفصل 28

"*بابا!*"، صَرَخت إيليه.

رَكَضت نحوه على جسر الخروج من الطائرة، وهي تشقّ طريقها بين الركاب مثل لاعب هجوم بين المدافعين. تنحّى معظمهم جانباً، مبتسماً. شعَر لويس ببعض الإحراج من حماستها، لكنه وجد ابتسامةً كبيرةً غبيةً ترتسم على وجهه.

كانت رايتشل تحمل غايدج على ذراعيها، ورأى لويس عندما صرَخت إيليه. "*باياا!*"، صاح بحيوية وبدأ يتلوّى على ذراعَي رايتشل. ابتسمت (بتثاقل، فكَّر لويس في سرّه) وأنزلته ليقف على قدمَيه. بدأ يركض خلف إيليه، ورِجلاه تضخّان نشاطاً. "*باياا! باياا!*".

تسنّى للويس أن يلاحظ أن غايدج يرتدي كنزة لم يرها أبداً من قبل – بدت له أنها من صنع الجَدّ. ثم اندفَعت إيليه نحوه وتسلَّقته مثل شجرة.

"مرحبا يا بابا!"، صاحت وقبَّلت خده بقوة لدرجة أن أذنه بقيت ترنّ طوال الدقائق الخمسة عشرة التالية.

"مرحبا يا حبيبتي"، قال وانحنى ليلتقط غايدج. رَفَعه على ذراعه وعانَقهما معاً. "تسرّني رؤيتكما".

ظَهَرت رايتشل عندها، وحقيبة سفرها معلَّقة بإحدى ذراعيها، وكيس حفاضات غايدج (مطبوع عليه "سأصبح فتىً كبيراً قريباً"، وهي جملة رافعة للمعنويات موجَّهة للأهل على الأرجح أكثر مما هي موجَّهة للطفل الذي يستخدم الحفاضات) معلَّقاً بالرذاع الأخرى. بدت كأنها مصوِّرة فوتوغرافية محترفة في نهاية مهمة تصوير طويلة مرهِقة.

انحنى لويس بين ولدَيه وطبعَ قبلةً على فمها. "مرحبا".

"مرحبا أيها الطبيب"، قالت، وابتسمت.

"تبدين مُنهكَة".

"أنا منهكة *فعلاً*. وصلنا إلى بوسطن بلا أي مشكلة. وغيَّرنا الطائرة بلا أي مشكلة. أقلعنا بلا أي مشكلة. لكن بينما مالت الطائرة فوق المدينة، أخفض غايدج نظره وقال، 'جميل، جميل'، ثم تقيأ على نفسه".

"يا إلهي".

"غيَّرت له ملابسه في المرحاض"، قالت. "لا أعتقد أنه فيروس أو شيء من هذا القبيل. كان فقط مُصاباً بدوار الجو".

"هيا بنا إلى المنزل"، قال لويس. "لديَّ بعض اللحم بالفلفل الحار على الموقد".

"*فلفل حار! فلفل حار!*"، صَرَخت إيليه في أذن لويس، بابتهاج وإثارة.

"*فلفل حال! فلفل حال!*"، صَرَخ غايدج في أذن لويس الأخرى، وهذا وازَن الرنين على الأقل.

"هيا بنا"، قال لويس. "هيا نُحضر حقائبكم ونغادر هذا المكان".

"بابا، كيف حال تشرش؟"، سألت إيليه عندما وضعها أرضاً. كان سؤالاً توقَّعه لويس، لكن ليس وجه إيليه المتهلِّف فجأة، وخط القلق العميق الذي ظهر بين عينيها الزرقاوين الداكنتين. عبس لويس ثم ألقى نظرة سريعة على رايتشل.

"استيقَظت وهي تصرخ في نهاية الأسبوع"، قالت رايتشل بهدوء. "رأت كابوساً".

"حلَمتُ أن تشرش دُهس"، قالت إيليه.

"أظن أن هذا بسبب تناولك عدداً كبيراً من شطائر لحم الديك

الرومي بعد اليوم الحافل"، قالت رايتشل. "تعرَّضت لنوبة إسهال أيضاً. أرِح لها بالها يا لويس، وهيا نغادر هذا المطار. لقد رأيتُ ما يكفي من مطارات في الأسبوع الفائت لخمس سنوات على الأقل".

"تشرش بخير يا حبيبتي"، قال لويس ببطء.

نعم، إنه بخير. يبقى قرب المنزل طوال اليوم وينظر إليك بتلك العينين الغريبتين الموحِلتين - كما لو أنه رأى شيئاً أطاح بمعظم الذكاء الذي يملكه أي قط. إنه بخير. لقد وضعتُه خارجاً في الليل باستخدام مكنسة لأنني لا أحبّ أن ألمسه. أكنسّه بها نوعاً ما فيخرج. وذلك اليوم عندما فتحتُ الباب يا إيليه، كانت معه فأرة - أو ما بقي منها. وقد نثَر أحشاءها على مساحة كبيرة. لا داعي للقول إنني لم أتناول الفطور في ذلك الصباح. ما عدا ذلك -"

"إنه بخير".

"آه"، قالت إيليه، وهدأ ذلك الثَلم بين عينيها. "آه، هذا جيد. عندما رأيتُ ذلك الحلم، كنتُ متأكدة أنه مات".

"حقاً؟"، سأل لويس، وابتسم. "الأحلام مضحكة، أليس كذلك؟".

"*أحمام!*"، صاح غايدج - فقد وَصَل إلى مرحلة الببغاء تلك التي يتذكَّرها لويس عندما كانت إيليه تكبُر. "*أحماااام!*". شدَّ شعر لويس بكل قوته مما جعل عينَيه تدمعان.

"هيا يا جماعة"، قال لويس، ثم توجّهوا إلى منطقة الأمتعة.

كانوا قد وصلوا إلى سيارة الستايشن في مرأب السيارات عندما بدأ غايدج يقول "جميل، جميل"، بصوتٍ غريبٍ متحَوزِقٍ. تقيأ على لويس هذه المرة، الذي كان قد ارتدى سروالاً فضفاضاً جديداً لمناسبة اللقاء في المطار. يبدو أن غايدج اعتقَد أن كلمة *جميل* هي شيفرة تعني

عليَّ أن أتقيأ الآن، آسف جداً، ليبتعد الجميع.

تبيَّن أنه مُصاب بفيروس في النهاية.

حين قطعوا الكيلومترات السبعة والعشرين من مطار بانغور إلى منزلهم في لادلو، بدأ غايدج يُظهِر علامات حمى ويكبو كَبوَات غير مريحة. ركنَ لويس في المرأب، ولمح بطرف عينه تشرش ينسَلّ عند أحد الجدران، رافعاً ذيله، ومثبِّتاً عينيه الغريبتين على السيارة. اختفى في التوهُّج المتلاشي للنهار، وبعد لحظة رأى لويس فأرة أخرى منزوعة أحشاؤها بجانب أربع عجلات صيفية مكدسة فوق بعضها - كان قد ركَّب العجلات الشتوية أثناء غياب رايتشل والولدَين. توهَّجت أحشاء الفأرة الزهرية النيئة في ظُلمة المرأب.

نزل لويس من السيارة بسرعة وصدَمَ كدسة العجلات عن قصد. سقطت العجلتان العلويتان وغطّتا الفأرة. "آه، عذراً"، قال.

"أنت أخرق يا بابا"، قالت إيليه، بنبرة غير قاسية.

"هذا صحيح"، قال لويس بنوع من الابتهاج الصاخب. شَعَر كما لو أنه يقول *جميل، جميل* ويرمي بقالته فوق كل شيء. "بابا أخرق". لا يمكنه أن يتذكَّر أن تشرش قتلَ أي جرذ قبل إحيائه الغريب؛ كان يحاصر الفئران أحياناً ويلعب معها بطريقة القطط المميتة تلك التي تنتهي بالدمار في نهاية المطاف، لكنه كان يتدخَّل أو إيليه أو رايتشل قبل النهاية دائماً. وهو يعرف أنه بعدما يتم إصلاح القطط، قلّة منها ستفعل أكثر من مجرد رمق الفأرة باهتمامٍ عابرٍ، على الأقل طالما أنها تُطعَم جيداً.

"هل ستقف هناك تحلم أم ستساعدني مع هذا الولد؟"، سألت رايتشل. "عد من كوكب مونغو أيها الطبيب كريد، فسكان الأرض

يحتاجون إليك". بدت مُتعَبةً ونَزِقة.

"آسف يا حبيبتي"، قال لويس. اقترب ليحمل غايدج، الذي كان حاراً الآن مثل قطعة فحم في موقد.

لذا ثلاثتهم فقط أكلوا اللحم بالفلفل الحار الشهير في المناطق الجنوبية تلك الليلة؛ فقد استلقى غايدج على أريكة غرفة الجلوس، محموماً ولامبالٍ، يشرب زجاجةً معبأةً بحساء دجاج فاتر ويشاهد رسوماً متحركةً على التلفزيون.

بعد العشاء، ذهَبت إيليه إلى باب المرأب ونادت تشرش. أمَل لويس، الذي كان يغسل الأطباق بينما أفرغت رايتشل الحقائب في الطابق العلوي، ألا يأتي القط، لكنه أتى - دخَل يتطوَّح بمشيته البطيئة الجديدة، وأتى حالاً تقريباً، كما لو أنه كان يختبئ هناك منتظراً. *يختبئ*. خطرت الكلمة بباله فوراً.

"تشرش!"، صاحت إيليه. "مرحبا يا تشرش!". حملت القط وعانَقته. راح لويس يراقبها بطرف عينه؛ وجمدت يداه اللتان كانتا تتلمَّسان أسفل المغسلة بحثاً عن أي أوانٍ فضيةٍ لا تزال قابعة هناك. رأى وجه إيليه السعيد يتغيَّر ببطء إلى حيرة. فقد بقي القط هادئاً بين ذراعيها، وأذناه مائلتان إلى الخلف، وعيناه على عينيها.

بعد لحظة طويلة - بدت طويلة *جداً* للويس - وَضَعت تشرش أرضاً. مشى القط نحو غرفة الطعام دون أن يلتفت إلى الوراء. *جلّاد الفئران الصغيرة*، فكَّر لويس في سرّه عشوائياً. *يا إلهي، ماذا فعلنا تلك الليلة؟*

حاوَل أن يتذكَّر حقاً، لكن المسألة بدت بعيدةً جداً، مظلمةً وبعيدةً، مثل الموت الفوضوي لفيكتور باسكاو على أرضية غرفة استقبال المشفى. يمكنه أن يتذكَّر رياحاً تهبّ في السماء والتلألؤ الأبيض للثلج

في الحقل الخلفي الذي يؤدي إلى الغابة. هذا كل شيء.

"بابا؟"، قالت إيليه بصوتٍ منخفضٍ مُخضَعٍ.

"ماذا يا إيليه؟".

"رائحة تشرش مضحكة".

"أليس كذلك؟"، سأل لويس، بصوتٍ محايدٍ بعنايةٍ.

"نعم!"، قالت إيليه، مستغيثةً. "نعم! لم تكن رائحته هكذا أبداً من قبل! رائحته تشبه... تشبه رائحة *البراز!* ".

"حسناً، ربما تدحرَج في شيء كريه يا حبيبتي"، قال لويس. "مهما تكن تلك الرائحة الكريهة، ستزول عنه".

"*آمل* ذلك بالطبع"، قالت إيليه بصوت أرملة هزلي. وانصرفت.

وجَد لويس الشوكة الأخيرة، فغسلها، وسحَب سدادة منفذ المياه. بقي واقفاً قرب المغسلة، يتأمل الليل بينما نزل الماء والصابون في البالوعة بصوت ضحكة خافتة.

عندما توقف الصوت من البالوعة، أصبح بإمكانه سماع الرياح في الخارج، ضعيفة وجامحة، قادمة من الشمال مُحضرةً معها الشتاء، وأدرَك أنه خائف، خائف ببساطة وغباء، بالطريقة التي تخاف فيها عندما تمرّ سحابة فجأة أمام الشمس وتسمع في مكان ما صوت تكتكة لا يمكنك تعليله.

"أربعون؟"، سألت رايتشل. "يا إلهي! هل أنت متأكد يا لُو؟".

"إنه فيروس"، قال لويس. حاوَل عدم السماح لصوت رايتشل، الذي بدا اتهاميّاً تقريباً، يزعجه. كانت مُتعَبة بعد هذا اليوم الطويل الذي اجتازت فيه نصف البلاد مع ولدَيها. والساعة هنا الحادية عشرة، واليوم لم ينته بعد. كانت إيليه مستغرقة في النوم في غرفتها. وكان

غايدج على سريرهما في حالةٍ يمكن وصفها في أفضل الأحوال بأنها شبه فقدان للوعي. بدأ لويس يعطيه باراسيتامول منذ ساعة. "الأسبرين سيُخفض له حرارته عند حلول الصباح يا حبيبتي".

"ألن تعطيه أمبيسيلين أو أي شيء؟".

قال لويس بصبر، "سأفعل إذا كان مُصاباً بالإنفلونزا أو عدوى بكتيريا. لكنه غير مُصاب بإحداهما. لديه فيروس، والأمبيسيلين لا ينفع أبداً مع الفيروسات، بل سيجعل أنفه يسيل ويجفِّف جسمه أكثر".

"هل أنت *متأكد* أنه فيروس؟".

"حسناً، إذا كنتِ تريدين رأياً ثانياً"، قال لويس بحدّة، "لا تتردَّدي".

"لا داعي لأن تصرخ عليَّ!"، صرَخت رايتشل.

"لم أكن أصرخ!"، صرَخ لويس بدوره.

"*بلى*"، بدأت رايتشل، "كنتَ تص-تص-تصرخ -"، ثم بدأ فمها يرتجف ووَضَعت يدها على وجهها. رأى لويس أن هناك جيوباً رماديةً بنّيةً عميقةً تحت عينيها وشَعَر بالخجل من نفسه.

"آسف"، قال، وجلس بجانبها. "يا إلهي، لا أعرف ما بالي. أعتذر يا رايتشل".

"لا تشتكي أبداً، لا تشرحي أبداً"، قالت، مبتسمةً بفتور. "أليس هذا ما قلته لي ذات يوم؟ كانت الرحلة موتِّرة. وكنتُ خائفة أن تغضب جداً عندما تنظر إلى جوارير خزانة ملابس غايدج. أظن أن عليَّ إخبارك الآن، بينما أنك تُشفِق عليَّ".

"لماذا سأغضب؟".

ابتسمت بفتور. "اشترى له أبي وأمي عشر قطع ملابس جديدة. كان يرتدي إحداها اليوم".

"لاحَظتُ أنه يرتدي شيئاً جديداً"، قال بعد قليل.

"لاحَظتُك تلاحظ"، رَدَّت ورسمت تجهّماً هزلياً جَعَله يضحك، رغم أنه لم يشعر برغبة بالضحك. "وستة فساتين جديدة لإيليه".

"ستة فساتين!"، قال وهو يخنق رغبته بالصياح. شَعَر بالخنق فجأة - بخنق وجرح كبير لا يمكنه شرحهما. "رايتشل، *لماذا*؟ لماذا تركته يفعل ذلك؟ لا نحتاج إلى... يمكننا أن نشتري..."

وصمتَ. غضبه جَعَله عاجزاً عن الإفصاح، وللحظة رأى نفسه يحمل قط إيليه الميت عبر الغابة، وينقِّل الكيس البلاستيكي من يد إلى أخرى... بينما كان إروين غولدمان، ذلك العجوز القذر اللعين من لايك فوريست، مشغولاً في ذلك الوقت في محاولة شراء مَوَدّة إبنته عبر دفتر شيكاته المشهور عالمياً وقلم حبره المشهور عالمياً.

شَعَر للحظةٍ أنه على شفير الصراخ: *اشترى لها ستة فساتين وأعدتُ قطها اللعين من الموت، لذا مَن يحبها أكثر؟*

لكنه بلعَ الكلمات. لن يقول أي شيء من هذا القبيل أبداً. *أبداً*.

لمَست عنقه بلطف. "لويس"، قالت. "كلاهما فعلا ذلك. حاول أن تفهم رجاءً. *رجاءً*. إنهما يحبّان الأولاد، ولا يريانهما كثيراً. وهما يتقدَّمان في السنّ. بالكاد ستتعرَّف على أبي يا لويس. حقاً".

"سأتعرَّف عليه"، تمتم لويس.

"رجاءً يا حبيبي. حاول أن تفهم. حاول أن تكون طيباً. هذا لن يؤذيك".

نظَرَ إليها لوقت طويل. "لكنه يؤذي"، قال أخيراً. "ربما لا يجب أن يؤذيني، لكنه يفعل ذلك".

فتَحت فمها لتردّ، ثم سُمع إيليه تنادي من غرفتها: "*بابا! ماما! أحدٌ!*".

بدأت رايتشل تنهض، وشدَّها لويس لكي تجلس. "ابقي مع غايدج. أنا سأذهب". اعتقَد أنه يعرف ما المشكلة. لكنه وَضَع القط خارجاً، تباً؛ بعد أن خلدت إيليه إلى النوم، وجده في المطبخ يشمّ طبقه وأخرجه من المنزل. لم يرغب أن ينام القط معها. ليس بعد الآن. فقد خطرت بباله أفكار غريبة عن المرض، ممزوجةً بذكريات جنازة العمّ كارل، عندما تخيَّل تشرش نائماً على سرير إيليه.

ستعرف أن هناك خطباً ما وأن تشرش كان أفضل في السابق.

كان قد أخرجَ القط، لكن عندما دخَل، وجد إيليه مستويةً جلوساً على السرير، نائمةً أكثر مما هي مستيقظة، وتشرش ممدَّداً على اللحاف، كخفّاشٍ. كانت عينا القط مفتوحتين وتلمعان بغباء في الضوء القادم من الردهة.

"أخرجه يا بابا"، قالت إيليه بتأوه تقريباً. "رائحته نتنة *جداً*".

"صه يا إيليه، عودي إلى النوم"، قال لويس، مندهشاً من الهدوء الذي في صوته. ذكَّره هذا بالصباح بعد حادثة سيره أثناء النوم، بعد يوم من وفاة باسكاو. الوصول إلى المشفى وتواريه في الحمّام لينظر إلى نفسه في المرآة، مُقتنِعاً أن مظهره مريع بلا شك. لكنه بدا بخير. كان ذلك كافياً لجعلك تتساءل عن عدد الأشخاص من حولك الذين يخفون أسراراً مُرعِبةً في داخلهم.

ليس سراً، اللعنة! إنه فقط القط!

لكن إيليه كانت محقّة. رائحته نتنة كثيراً.

أخرجَ القط من غرفتها وحمله إلى الطابق السفلي، محاولاً أن يتنفس من فمه. كانت هناك روائح أسوأ؛ البراز مثلاً، إذا أردتَ أن تكون فظّاً تماماً. خزّان الصرف الصحي الذين خاضوا جولةً معه منذ شهر، ومثلما قال جاد عندما أتى ليراقب موظفي شركة "يافر وأبناؤه"

يضخّون محتوياته، "هذا ليس عطر شانيل الرقم خمسة، أليس كذلك يا لويس؟". رائحة جرح مصاب بالغنغرينا - ما كان الطبيب العجوز برايسرمان في كلية الطب يسمّيه "لحم ساخن" - كانت أسوأ أيضاً. حتى الرائحة التي صدرت عن محوِّل المحفِّز في سيارة السيفيك عندما بقيت مركونة في المرآب لبعض الوقت كانت أسوأ.

لكن هذه الرائحة اللعينة كانت سيئة جداً. وكيف دخل القط المنزل على أي حال؟ لقد أخرجه سابقاً، حيث كنّسه بالمكنسة بينما كان ثلاثتهم - أفراد عائلته - في الطابق العلوي. كانت هذه أول مرة يحمل فيها القط منذ عودته، قبل أسبوع تقريباً. كان حاراً على ذراعيه، مثل مرض هامد، وتساءل لويس، *أي ثقب وجدتَ أيها الوغد؟*

تذكَّر فجأة حلمه تلك الليلة - باسكاو يخترق الباب بين المطبخ والمرأب بكل بساطة.

ربما لم يكن هناك ثقب. ربما اخترق الباب، مثل شبحٍ.

"اصطد هذا"، همَس بصوتٍ عالٍ، وكان صوته أجش قليلاً.

أصبح لويس متأكداً فجأة أن القط سيبدأ بالمقاومة على ذراعيه، أنه سيخدشه. لكن تشرش بقي هادئاً كلياً، يشعّ تلك الحرارة الغبية وتلك الرائحة الكريهة، وينظر إلى وجه لويس كما لو أنه قادر على قراءة أفكاره.

فتَح الباب ورمى القط في المرأب، ربما بقسوة قليلاً. "هيا، اذهب"، قال. "اقتل فأرة أخرى أو شيئاً ما".

حطَّ تشرش بشكل مُربك، وانطوى ردفاه تحته للحظة. بدا أنه يُطلق نظرة كره بشع نحو لويس. ثم ابتعد بترنّح واختفى عن الأنظار.

تباً يا جاد، فكّر في سرّه، *كم أتمنى لو أبقيتَ فمك مغلقاً.*

ذهَب إلى المغسلة وغسل يديه وساعديه بنشاط، كما لو أنه يفرك

تحضيراً لعملية جراحية. تفعله لأنه يتملّكك... تخترع أعذاراً... تبدو أعذاراً وجيهةً... لكنك تفعله في الأغلب لأنك صعدتَ إلى هناك، إنه مكانك، وأنت تنتمي إليه... وتخترع أعذب الأعذار في العالم.

لا، لا يمكنه لَوْم جاد. فقد ذهب بملء إرادته ولا يمكنه لَوْم جاد.

أغلق حنفية الماء وبدأ يجفِّف يديه وذراعيه. فجأة توقفت المنشفة عن التحرّك وراح يحدِّق أمامه مباشرة، ناظراً إلى القطعة الصغيرة من الليل المؤطَّرة في النافذة فوق المغسلة.

هل هذا يعني أنه مكاني الآن؟ مكاني أنا أيضاً؟ لا .

لا . ليس إذا كنتُ لا أريده أن يكون مكاني.

علَّق المنشفة فوق الرف وصعد إلى الطابق العلوي.

كانت رايتشل في السرير، وقد سحبت الغطاء وصولاً حتى ذقنها، وكان غايدج مستلقٍ بجانبها. نظَرَت إلى لويس نظرةً اعتذاريةً. "هل تمانع يا حبيبي؟ لهذه الليلة فقط؟ أفضِّل أن يكون معي. حرارته عالية جداً".

"لا"، قال لويس. "لا بأس. سأفتح الأريكة السريرية في الطابق السفلي".

"لا تمانِع حقاً؟".

"لا. هذا لن يؤذي غايدج، وسيطمئن بالك". صمتَ قليلاً، ثم ابتسم. "لكنك ستلتقطين عدوى فيروسه. هذا شبه مؤكَّد. لا أفترض أنك ستغيِّرين رأيك، صح؟".

ابتسمت بدورها وهزَّت رأسها. "مما كانت جلبة إيليه؟".

"تشرش. أرادتني إخراجه".

"*إيليه* أرادت إخراج تشرش؟ هذا تحوُّل عجيب".

"أجل"، وافقها لويس ثم أضاف، "قالت إن رائحته كريهة، ولم

أجد أن رائحته عطِرة ولو قليلاً. ربما تمرغَ في كومة مِهاد أحدهم، أو شيء من هذا القبيل".

"هذا مؤسف جداً"، قالت رايتشل، ثم استدارت إلى جنبها. "أعتقد حقاً أن إيليه اشتاقت إلى تشرش بقدر ما اشتاقت إليك".

"آه"، قال لويس. انحنى وقبّل فمها بلطف. "نامي يا رايتشل".

"أحبك، لُو. أنا مسرورة من عودتي إلى المنزل. وآسفة بشأن الأريكة. سنفعل شيئاً غداً، اتفقنا؟ شيئاً جامحاً".

"اتفقنا"، قال لويس، وأطفأ النور.

كدَّس وسائد الأريكة في الطابق السفلي، وأخرجَ الأريكة السريرية، وحاوَل تحضير نفسه ذهنياً لليلة يضغط فيها القضيب الحديدي تحت الفِراش الرقيق على أسفل ظهره. على الأقل هناك ملاءة على السرير، ولن يضطر إلى تجهيزه من الصفر. أحضرَ لويس بطانيتين من الرف العلوي في خزانة القاعة الأمامية ونشرهما على السرير. بدأ يخلع ملابسه، ثم توقف.

هل تظن أنه عاد ودخل من جديد؟ حسناً. تمشَّ في الأرجاء والق نظرة. مثلما قلتَ لرايتشل، هذا لن يؤذي. وحتى إنه قد يفيد. والتحقّق من أن مزلاج كل باب مغلقٌ لن يصيبك بعدوى فيروسٍ.

قام بجولة تفقدية في الطابق السفلي بأكمله، متحققاً من أقفال كل الأبواب والنوافذ. لقد فعلَ كل شيء بشكل صحيح في المرة الأولى، ولم يجد تشرش في أي مكان.

"ممتاز"، قال. "دعنا نراك تدخل هذه الليلة، أيها القط المغفَّل". وأتبَع هذا بأمنية ذهنية بأن يتجمَّد تشرش كقطعة ثلج.

أطفأ الأضواء وأوى إلى السرير. بدأ القضيب الحديدي يضغط

على ظهره تقريباً فوراً، وكان لويس يقول لنفسه إنه سيبقى مستيقظاً نصف الليل عندما غفا. غفا مستلقياً على جنبه بشكل مزعج على الأريكة السريرية، لكن عندما استيقَظ كان -

- في المقبرة الموجودة ما وراء مقبرة الحيوانات من جديد. كان لوحده هذه المرة. لقد قَتل تشرش بنفسه هذه المرة ثم قرّر لسبب مجهول إعادته إلى الحياة لمرة ثانية. لكنه دفَن تشرش في حفرة أعمق هذه المرة، ولن يستطيع تشرش إخراج نفسه منها. كان بإمكان لويس سماع القط يصيح من مكان ما تحت الأرض، مُصدراً صوتاً يشبه صوت ولد يبكي. مرّ الصوت عبر مسام الأرض، عبر لحمها الصخري؛ الصوت والرائحة، تلك الرائحة المريعة للعفن والتحلّل. مجرد شمّها يُشعره بثقلٍ في صدره، كما لو أن هناك وزناً عليه.

البكاء... البكاء...

... كان البكاء لا يزال مستمراً...

... وكان الوزن لا يزال على صدره.

"*لويس!*". إنها رايتشل، وبدت قلقة. "*هل يمكنك أن تأتي يا لويس؟*".

بدت أكثر من قلقة؛ بدت خائفة، وكان البكاء من النوع المختنِق اليائس. إنه غايدج.

فتَح عينيه وحدَّق في عينَي تشرش الخضراوين الصفراوين اللتين تبعدان أقل من عشرة سنتيمترات عن عينيه. كان القط على صدره، مكوَّراً هناك بشكل أنيق مثل شيء مأخوذ من حكاية الزوجات القديمة عن سرقة الأنفاس. كانت الرائحة الكريهة تنبعث منه في موجات بغيضة بطيئة. كان يخرخر.

صرخ لويس صرخة قرف وتفاجؤ. رفع يديه في إيماءة صَدٍّ بدائية.

قفز تشرش عن السرير، وحطَّ على جنبه، وابتعَد في تطوُّحه المتعثِّر.

يا إلهي! يا إلهي! كان عليَّ! يا إلهي، كان عليَّ مباشرةً!

لم يكن يمكن أن يكون قرفه أكبر لو استيقظ ووجدَ عنكبوتاً في فمه. اعتقَد للحظة أنه سيتقيأ.

"*لويس!*".

رفَع البطانيات عنه وتعثّر وهو يُسرِع في صعود السلالم. رأى ضوءاً باهتاً ينسكب من غرفة نومهما. كانت رايتشل تقف عند أعلى السلالم في قميص نومها.

"لويس، إنه يتقيأ مرة أخرى... ويختنق به... أنا خائفة".

"أنا هنا"، قال ووصل إليها وهو يفكّر في سرّه: *لقد دخل. دخل بطريقة أو بأخرى. من القبو، على الأرجح. ربما هناك نافذة مكسورة في القبو. في الواقع لا بدّ أن هناك نافذة مكسورة في القبو. سأتفحّصه غداً عندما أعود إلى المنزل. تباً، قبل أن أذهب إلى العمل. سوف* –

توقَف غايدج عن البكاء وبدأ يُصدِر صوت غرغرة واختناق بشعَين.

"*لويس!*"، صَرَخت رايتشل.

تحرَّك لويس بسرعة. كان غايدج على جنبه والقيء يتقاطر من فمه على منشفة قديمة نشَرتها رايتشل بجانبه. كان يتقيأ، نعم، لكن ليس كفايةً. بقي معظمه في الداخل، وكان غايدج يتورَّد مع بداية الاختناق.

أمسَك لويس الفتى من تحت ذراعيه، ولاحظ كم كان إبطا إبنه ساخنين تحت بذلة الطبيب دنتون، ووضعه على كتفه كما لو أنه يريده أن يتجشأ. ثم رمى لويس نفسه إلى الوراء، فارتعش غايدج معه. ارتجّ عنق غايدج مُطلِقاً سعالاً صاخباً لم يكن تجشؤاً بالضبط، وتطاير قيء صلب تقريباً من فمه على الأرض وخزانة الملابس. بدأ غايدج يبكي

مرة أخرى، بصوت صياحٍ مُحكمٍ كان كالموسيقى على أذنَي لويس. فأن تبكي هكذا يعني أنك تحصل على كمية غير محدودة من الأكسجين.

ارتخت رُكبتا رايتشل وانهارت على السرير وهي تسند رأسها على يديها. كانت ترتجف بقوة.

"كاد يموت، أليس كذلك يا لويس؟ كان يخت-يخت-يخت – يا إلهي –"

راح لويس يسير في الغرفة حاملاً إبنه على ذراعيه. وبدأ بكاء غايدج يضمحل إلى أنين؛ كان نائماً تقريباً من جديد.

"الأرجح أنه كان سيُفرِّغ ذلك بنفسه يا رايتشل. لقد ساعدتُه فقط".

"لكنه كان وشيكاً"، قالت. رفعت نظرها إليه، وكانت عيناها المطوَّقتان بالأبيض مذهولتين وغير مصدِّقتين. "كان *قريباً* جداً يا لويس".

تذكَّر فجأة صراخها عليه في المطبخ المشمس: *لن يموت، لا أحد سيموت هنا...*

"حبيبتي"، قال لويس، "كلنا قريبون. طوال الوقت".

كان الحليب بلا شك الذي سبَّب جولة التقيؤ الجديدة. فقد استيقظ غايدج عند منتصف الليل تقريباً، قالت، بعد حوالي ساعة من نوم لويس، وراح يبكي "بكاء جوعه"، فحضَّرت له رايتشل زجاجةً. وقد غفت مرة أخرى بينما كان لا يزال يشربها. بعد حوالي ساعة، بدأت لعنة الاختناق.

لا مزيد من الحليب، قال لويس، ووافَقته رايتشل، بتواضع تقريباً. لا مزيد من الحليب.

عاد لويس إلى الطابق السفلي عند حوالي الثانية والرُبع وأمضى خمس عشرة دقيقة يبحث عن القط. خلال بحثه، وجَد الباب الذي يفصل بين المطبخ والقبو مفتوحاً جزئياً، مثلما شكَّ. تذكَّر أمه تُخبره عن قط أصبح خبيراً جداً في فتح المزاليج القديمة الطراز بكفّه، مثل ذلك الموجود على باب قبوهم. كان القط يتسلَّق حافة الباب، حسب قولها، ويضغط على صفيحة المزلاج بكفّه إلى أن ينفتح الباب. خدعة لطيفة جداً، فكَّر لويس في سرّه، لكنها ليست واحدةً ينوي أن يسمح لتشرش بأن يتمرَّن عليها كثيراً. فهناك، في النهاية، قفل على باب القبو، أيضاً. وجَد تشرش نعِساً تحت الموقد ورماه خارج الباب الأمامي من دون مراسم. في طريق عودته إلى الأريكة السريرية، أغلَق باب القبو مرة أخرى.

وأقفلَ القفل هذه المرة.

الفصل 29

في الصباح، كانت حرارة غايدج عادية تقريباً. كان خدّاه متشقِّقَين، لكن عينيه مُشرِقتان وصحته جيدة. فجأة، وفي غضون أسبوعٍ، بدا أن تمتمته الخالية من أي معنى تحوّلت إلى عدد كبير من الكلماتٍ؛ فأصبح يقلِّد أي شيء تقوله تقريباً. وما أرادته إيليه أن يقوله هو "براز".

"قل براز يا غايدج"، قالت إيليه وهي تتناول دقيق شوفانها.

"براز يا غايدج"، أجاب غايدج بسرور وهو يتناول طبق حبوبه. كان لويس قد سمحَ بالحبوب على شرط أن يأكلها غايدج مع قليل من السكر فقط. وكالعادة، بدا أن غايدج يستحمّ بها بدلاً من أكلها في الواقع.

راحت إيليه تقهقه.

"قل ضراط يا غايدج"، قالت.

"ضرات يا غايدج"، قال غايدج، وهو يبتسم بين دقيق الشوفان الذي يملأ وجهه. "ضرات وبراز".

انفجر لويس وإيليه ضحكاً. كان من المستحيل عدم فعل ذلك.

لم تستمتع رايتشل كثيراً. "أعتقد أن هذا كلامٌ سوقيٌّ كافٍ في صباح واحدٍ"، قالت وهي تسلِّم لويس طبق بيضه.

"براز وضرات وبراز"، راح غايدج يغنّي بانشراح، وأخفت إيليه قهقهاتها بيديها. زمَّت رايتشل فمها قليلاً، ووجد لويس أنها تبدو أفضل مئة بالمئة رغم راحتها المتقطِّعة. افترَض لويس أن أغلب ذلك كان ارتياحاً نفسياً. فحال غايدج أفضل وهي عادت إلى منزلها.

"لا تقل هذا يا غايدج"، قالت رايتشل.

"جميل"، قال غايدج كتغيير للوتيرة، وتقيأ كل الحبوب التي أكَلها في وعائه.

"آه، هذا مقرف!"، صَرَخت إيليه وفرّت عن الطاولة.

عندها انفجر لويس ضاحكاً بالكامل. لم يكن قادراً على منع نفسه من فعل ذلك. بقي يضحك إلى أن سالت دموعه، وسالت دموعه إلى أن عاد يضحك من جديد. راحت رايتشل وغايدج يحدِّقان فيه كما لو أنه جُنَّ.

لا، كان بإمكان لويس أن يقول لهما. *كنتُ مجنوناً، لكنني أعتقد أنني سأكون بخير الآن. أعتقد هذا حقاً.*

لم يعرف إن انتهت نوبة التقيؤ أم لا، لكن *بدا* أنها انتهت؛ ربما هذا سيكون كافياً.

وكانت كذلك لبعض الوقت، على الأقل.

الفصل 30

بقي فيروس غايدج لأسبوع، ثم زال. أُصيب بعد أسبوع بالتهاب في الشُعُب الهوائية. وأُصيبت إيليه به أيضاً ثم رايتشل؛ خلال الفترة التي سبقت احتفال الشتاء، بقي ثلاثتهم يسعلون ويصفرون مثل كلاب صيد عجوزة جداً. لم يلتقطه لويس، وبدا أن رايتشل تحقد عليه بسبب ذلك.

كان أسبوع الحصص الأخير في الجامعة صاخباً للويس وستيف وسورندرا وشارلتون. لم تكن هناك إنفلونزا – على الأقل ليس بعد – لكن كان هناك الكثير من التهاب الشُعُب الهوائية وعدة حالات من كثرة الوحيدات والالتهاب الرئوي. وقبل يومين من توقف الدراسة استعداداً لاحتفال الشتاء، أُحضِر ستة فتيان ثملين من الأخوية يئنّون من قِبل أصدقائهم القلقين. مرّت لحظات قليلة من الإرباك الحافل بالذكريات الشنيعة من حالة باسكاو. فقد حشرَ كل الستة المغفَّلين أنفسهم على مزلقة متوسطة الطول (جلس السادس في الواقع على كتفَي الفتى الذي في المؤخرة، مما استطاع لويس أن يستنتجه) وانزلقوا على التلة التي فوق مصنع البخار. مُضحك. ما عدا أنهم بعد ازدياد سرعتهم كثيراً، انحرفت المزلقة إلى خارج المسار وارتطمت بأحد مدافع الحرب الأهلية. كانت النتيجة ذراعين مكسورتين، معصماً مكسوراً، ما مجموعه سبعة أضلاع مكسورة، ارتجاجاً في الدماغ، زائد كدمات عديدة جداً لإحصائها. فقط الفتى الذي كان يركب على كتفَي الفتى الذي في المؤخرة نجا من الحادث سليماً معافى، فقد طار ذلك المحظوظ فوق المدفع وحطَّ برأسه في ركام ثلجي. لم يكن تنظيف الحُطام البشري ممتعاً، وقد قرَّع لويس كل الفتيان بسخاء بينما كان يخيِّطهم ويضمّدهم

ويحدِّق في بؤبؤاتهم، لكنه بقي يضحك إلى أن سالت دموعه بينما كان يُخبر رايتشل عن ذلك لاحقاً. نظَرَت إليه رايتشل باستغراب، فلم تفهم ما المضحك في الأمر، ولم يستطع لويس إخبارها: كان حادثاً غبياً، وقد تأذّى بعض الأشخاص، لكنهم سيشفون منه كلهم. كان ضحكه نابعاً عن ارتياحٍ جزئي، لكنه نابعٌ عن انتصار أيضاً - لقد فزتَ هذا اليوم يا لويس.

بدأت حالات التهاب الشُعُب الهوائية في عائلته تزول بالقرب من الوقت الذي أغلقت فيه مدرسة إيليه أبوابها في 16 ديسمبر تحضيراً لفترة الاحتفال، واستعدّ أربعتهم لقضاء احتفال شتاء ريفيّ سعيد قديم الطراز. المنزل في شمالي لادلو، الذي كان قد بدا غريباً جداً في ذلك اليوم من أغسطس عندما ركنوا سيارتهم في الممر الخاص (بدا غريباً بل عدائياً، فجرحت إيليه نفسها في جهته الخلفية وتعرّض غايدج للسعة نحلة في الوقت نفسه تقريباً)، بدا حميمياً أكثر من أي وقت مضى.

بعد أن نام الولدان أخيراً ليلة احتفال الشتاء، انسلَّ لويس ورايتشل من العليّة إلى الطابق السفلي مثل لصَّين، وذراعاهما محمَّلتان بصناديق زاهية الألوان - علبة سيارات ماتشبوكس لغايدج، الذي اكتشَف مؤخراً فرحة السيارات اللعبة، ودميتَي باربي وكين لإيليه، مع كل مستلزماتهما من ملابس ودرّاجة ثلاثية العجلات أكبر من المعتاد، وفرن ذي لمبة داخلية، وأمور أخرى.

جلسا جنباً إلى جنب في توهُّج أضواء الشجرة، وراحا يرتّبان الهدايا معاً، رايتشل في بيجاما حريرية ولويس في ردائه. لا يمكنه أن يتذكّر أمسيةً لطيفةً أكثر من هذه. كانت النار مشتعلة في الموقد، وينهض أحدهما بين الحين والآخر ليرمي قطعة حطب أخرى.

حفَّ ونستون تشرشل نفسه بلويس ذات مرة، فدفَع القط بعيداً

عنه بحركة نفور لاواعية تقريباً - تلك الرائحة. ثم رأى تشرش يحاول أن يستقرّ بجانب رِجل رايتشل، فدفعته هي أيضاً بحركة تنمّ عن قلة صبر. بعد لحظة، رأى زوجته تفرك راحة يدها على أحد فخذَيها المكسوَين بالحرير، بالطريقة التي تفرك بها أحياناً عندما تشعر أنك لمستَ شيئاً بغيضاً أو مليئاً بالجراثيم. لم يعتقد أن رايتشل كانت حتى تُدرك أنها تفعل ذلك.

مشى تشرش متمهلاً إلى موقد الطوب وانطوى أمام النار بفظاظة. بدا أن القط لا يملك أي كياسة الآن؛ لقد فقَدَها كلها في تلك الليلة التي نادراً ما يسمح لويس لنفسه بتذكّرها. كما فقَدَ شيئاً آخر أيضاً. كان لويس يُدرك ذلك، لكنه احتاج إلى شهر كامل ليحدِّده بدقة. لم يعد القط يخرخر أبداً، علماً أنه كان يملك أحد المحرِّكات الأكثر صخباً، بالأخص خلال نومه، حيث كان لويس يضطر في بعض الليالي إلى النهوض وإغلاق باب غرفة إيليه لكي يستطيع أن ينام هو أيضاً.

أما الآن فالقط ينام كصخرةٍ. كميتٍ.

لا، ذكَّر نفسه، هناك استثناء واحد. الليلة التي استيقظ فيها على الأريكة السريرية ووجد تشرش مكوَّراً على صدره مثل بطانية نتِنة... كان تشرش يخرخر تلك الليلة. كان يُصدِر صوتاً ما، على أي حال.

لكن مثلما كان جاد كراندال يعرف - أو يخمِّن - لم تكن كل المسألة سيئةً. فقد وجَد لويس نافذةً محطَّمةً في القبو خلف الفرن، وعندما أصلح الزجّاج، وفَّر عليهم بعض الأموال ثمناً لوقود التسخين المُهدَر. للفت انتباهه إلى اللوح المكسور، والذي لم يكن ليكتشفه قبل أسابيع عديدة - وربما أشهراً - افترَض أنه يَدين لتشرش بالشكر.

لم تعد إيليه تحبّذ أن ينام تشرش معها، هذه حقيقة، لكن أحياناً عندما تشاهد التلفزيون، تدع القط ينام على حُضنها (لكن بنفس

القدر، فكَّر في سرّه وهو يبحث في كيس القِطع البلاستيكية الذي يُفترَض أن يحوي درّاجة الرجل الوطواط الخاصة بإيليه، تدفعه عنها بعد بضع دقائق قائلةً، "اذهب عني يا تشرش، رائحتك كريهة")؛ كانت تُطعمه بشكل دوري وبمحبة، وحتى غايدج لم يكن يتوانى عن شدّ ذيله بين الحين والآخر... بدافع الملاطفة أكثر مما بدافع الدناءة، حسب قناعة لويس؛ كان مثل ناظر مدرسة صغير يشدّ حبل جرس مكسو بالفراء. في تلك الأوقات، يزحف تشرش بِوهن تحت أحد المشعاعات حيث لا يستطيع غايدج الوصول إليه.

ربما كنا لنلاحظ فروقاً أكثر لو كان تشرش كلباً، فكَّر لويس في سرّه، *لكن القطط حيوانات لعينة مستقلة على أي حال. مستقلة وغريبة. وحتى مستبصِرة.* لم يفاجئه أن الفراعنة أرادوا تحنيط قططهم ودفنها معهم في قبورهم المثلثية لكي تكون مرشداً لهم في العالم الآخر. القطط غريبة الأطوار.

"كيف حال درّاجة الرجل الوطواط معك أيها الزعيم؟".

رفعَ المنتَج النهائي في الهواء. "ما رأيك؟".

أشارت رايتشل إلى الكيس، الذي لا يزال يحوي ثلاث أو أربع قِطع بلاستيكية. "ما هذه؟".

"قِطع غيار"، قال لويس، مبتسماً بشكل مُذنِب.

"من الأفضل لك أن تكون قِطع غيار. ستكسر الطفلة عنقها الصغير العَفِن".

"هذا يأتي لاحقاً"، قال لويس بخُبث. "عندما تصبح في الثانية عشرة وتتباهى على لوح تزحلقها الجديد".

تأوهت. "بالله عليك أيها الطبيب، كن طيب القلب!".

نهض لويس، ووضع يديه على أسفل ظهره، وفتلَ جذعه. فرقَع

عموده الفقري. "انتهيتُ من كل الألعاب".

"وكلها مجمَّعة. هل تتذكَّر العام الماضي؟" قهقهت وابتسم لويس. كان كل شيء اشترياه العام الماضي بحاجة إلى تجميع، وبقيا مستيقظَين حتى الرابعة فجر يوم احتفال الشتاء، وكلاهما حانق ومُنهَك. وعند منتصف بعد الظهر في يوم احتفال الشتاء، قرَّرت إيليه أن الصناديق ممتعة أكثر من الألعاب.

"*هذا مقرف!*"، قال لويس، مقلِّداً إيليه.

"حسناً، هيا إلى السرير"، قالت رايتشل، "وسأعطيك هدية مُبكرة".

"يا امرأة"، قال لويس وهو ينهض ويمطِّط جسمه بالكامل، "هذا حقي الطبيعي".

"لا تحلم كثيراً"، قالت وضحِكت واضعةً يديها على فمها. بدت في تلك اللحظة تشبه إيليه بشكل كبير... وغايدج.

"مهلاً"، قال. "هناك شيء آخر عليَّ أن أفعله".

أسرعَ إلى خزانة القاعة الأمامية وأحضَر أحد أحذيته. أزال الحاجز الشبكي من أمام النار المُحتضَر.

"لويس، ماذا –"

"سترين".

انطفأت النار على الجهة اليسرى للموقد وأصبحت هناك طبقة سميكة من الرماد الزغِب. ضغطَ لويس الحذاء عليها، مخلِّفاً أثراً عميقاً فيها. ثم طبَعَ الحذاء على أحجار القرميد الخارجية كما لو أنه ختم مطاطي كبير.

"ها هي"، قال بعد أن أعاد الحذاء إلى الخزانة. "هل أعجبتك؟".

قهقهت رايتشل مرة أخرى. "لويس، ستُصاب إيليه بالذهول".

خلال الأسبوعين الفائتين من المدرسة، سمعت إيليه إشاعةً مُقلِقةً في روضة الأطفال تقول إن سانتا كلوز هو الأهل في الواقع. وقد تعزّزت هذه الفكرة بوجود سانتا نحيل في مركز بانغور التجاري، وقد لمحته إيليه في متجر بوظة ديرينغ منذ بضعة أيام. كان سانتا يجلس على كرسي بلا ظهر ولا ذراعين وراء المنضدة، وقد سحَب لحيته جانباً لكي يمكنه أكل تشيزبرغر. هذا أزعج إيليه كثيراً (بدا انزعاجها بسبب التشيزبرغر، إلى حد ما، حتى أكثر من اللحية المزيَّفة)، رغم تأكيدات رايتشل أن سانتا في كل مركز تسوّق هو في الواقع "مساعِد" أرسله سانتا الحقيقي المقيم في القطب الشمالي لأنه مشغول جداً في إنهاء جردة الألعاب وقراءة رسائل الأولاد في اللحظة الأخيرة، ولا يملك الوقت ليجوب العالم في رحلات علاقات عامة.

أعاد لويس الحاجز الشبكي إلى مكانه أمام النار بعناية. هناك الآن أثران واضحان لحذاءٍ على موقدهم، واحد في الرماد وواحد على الموقد. وكلاهما يشيران نحو شجرة احتفال الشتاء، كما لو أن سانتا نزل من المدخنة على قدم واحدة وخرَج فوراً ليضع الهدايا لأسرة كريد. كان الوهم مثالياً إلا إذا صدفَ ولاحظت أن الطبعتين للقدمِ اليسرى... وشكَّ لويس أن إيليه ستكون تحليلية إلى هذا الحدّ.

"لويس كريد، أحبك"، قالت رايتشل وقبَّلته.

"لقد تزوَّجتِ عبقرياً يا عزيزتي"، قال لويس، وابتسم بصدق. "ابقي معي وسأجعلك نجمةً".

"ستجعلني نجمةً الليلة، لا شكّ في ذلك".

بدأا يصعدان السلالم. أشار إلى الطاولة الصغيرة التي أعدَّتها إيليه أمام التلفزيون واضعةً عليها بسكويتاً من دقيق الشوفان وقِطعتَي حلوى بالشوكولا. وكذلك عبوة شراب شعير. "لكَ يا سانتا"، قالت الملاحظة

بخط إيليه الكبير. "هل تريدين بسكويتاً أم حلوى بالشوكولا؟".

"حلوى بالشوكولا"، قالت وأكلت نصفها. فرقَع لويس غطاء عبوة شراب الشعير وشرب نصفها.

"شراب شعير في هذا الوقت المتأخر سيسبِّب لي حرقةً في المعدة"، قال.

"هُراء"، قالت بابتهاج. "بالله عليك أيها الطبيب".

وَضَع لويس عبوة شراب الشعير وأمسك فجأة جيب ردائه كما لو أنه نسي شيئاً – رغم أنه كان يُدرك وجود تلك الرزمة الصغيرة الوازنة طوال المساء.

"هاكِ"، قال. "هذا لك. يمكنك فتحه الآن. لقد تجاوزنا منتصف الليل. احتفال شتاء سعيد يا حبيبتي".

قلبت الصندوق الصغير، الملفوف بورقة فضية والمعقود بشريط حريريّ أزرق عريض، في يديها. "ما هذا يا لويس؟".

هزَّ كتفيه. "صابونة. عيّنة شامبو. نسيتُ بالضبط".

فتَحته على السلالم، ورأت علبة تيفاني، وزعَقت. أزالت الحشوة القطنية ثم وَقَفت فاغرة الفم قليلاً.

"إذاً؟"، سأل بقلق. لم يشتر لها أبداً قطعة مجوهرات حقيقية من قبل، وكان متوتراً. "هل أعجبتك؟".

أخرجت السلسلة الذهبية بأصابعها النحيلة، ثم رفعت الياقوتة الزرقاء الصغيرة إلى ضوء القاعة، فاستدارت بكسل مطلقةً أشعة زرقاء جميلة.

"آه يا لويس، إنها رائعة جداً –". رآها تبكي قليلاً فشَعَر بالتأثر والقلق في آن.

"مهلاً يا حبيبتي، لا تفعلي هذا"، قال. "ارتديه".

"لويس، لا يمكننا تحمّل - لا يمكنك تحمّل -"

"صه"، قال. "أدّخرتُ بعض المال بشكل متقطّع منذ احتفال الشتاء الفائت... والمبلغ ليس كبيراً بقدر ما تظنين".

"كم ثمنه؟".

"لن أخبِرك هذا أبداً يا رايتشل"، قال بوقار. "جيش من المعذِّبين الصينيين لن يستطيعوا إخراج هذه المعلومة مني. ألفا دولار".

"*ألفا دولار -!*". عانَقته فجأة وبقوة لدرجة أنه كاد يسقط على السلالم. "لويس، أنت *مجنون*!".

"ارتديه"، قال مرة أخرى.

ففعلت. ساعَدها بالمشبك، ثم استدارت لتنظر إليه. "أريد أن أصعد إلى فوق وأنظر إليه"، قالت. "أعتقد أنني أريد أن أتأنّق".

"تأنّقي"، قال. "سأُخرِج القط وأُطفئ الأضواء".

"عندما نفعل ذلك"، قالت وهي تنظر إلى عينيه مباشرة، "أريد أن أخلع كل شيء ما عدا هذا".

"تأنَّقي على عجل، إذاً"، قال لويس، وضحِكت.

أمسَك تشرش وطرحه فوق ذراعه - لم يعد يتكبَّد عناء استخدام المكنسة هذه الأيام. افترَض أن كاد يعتاد على القط من جديد. ذهَب نحو باب المدخَل، مُطفئاً الأضواء أثناء سيره. عندما فتَح الباب الفاصل بين المطبخ والمرأب، دارت دوّامة هواء بارد حول كاحلَيه.

"أتمنى لك احتفال شتاء سعيداً يا تش -"

سكت فجأة. رأى غراباً ميتاً على حصيرة الترحيب، غراباً كبيراً شُوِّه رأسه، ونُزع أحد جناحَيه ورُميَ خلف جسمه مثل ورقة متفحِّمة. قفز تشرش عن ذراعَي لويس فوراً وبدأ يمرِّغ خطمه في الجثة المجمَّدة بتلهّف. بينما راقَبه لويس، اندفع رأس القط إلى الأمام، مُرجعاً أذنيه إلى

الوراء، وقبل أن يتمكَّن من أن يشيح بوجهه، مزَّق تشرش إحدى عينَي الغراب الحليبيّتين المتجمِّدتين.

تشرش يضرب من جديد، فكَّر لويس في سرّه ببعض الاشمئزاز، وأدار رأسه - لكن ليس قبل أن يرى المحجر الدموي الفارغ حيث كانت عين الغراب. *لا يجب أن يزعجني هذا، لا يجب، فقد رأيتُ أسوأ، آه نعم، باسكاو، مثلاً، كان باسكاو أسوأ، أسوأ بكثير -*

لكنه أزعجه. انقبضت معدته. وتلاشى التراكم الدافئ للإثارة الجنسية فجأة. *يا للهول، هذا الطائر اللعين بنفس حجمه تقريباً. لا شكّ أنه اصطاده على غفلة منه. على غفلة كبيرة.*

يجب تنظيف هذا. لا أحد يحتاج إلى هذا النوع من الهدايا صباح احتفال الشتاء. وهذه مسؤوليته، أليس كذلك؟ بالتأكيد. مسؤوليته ولا أحد سواه. لقد أدرك ذلك بطريقة لا شعوريّة حتى في مساء عودة عائلته، عندما أسقطَ العجلات عن قصد فوق الجثة الممزَّقة للفأرة التي قتلها تشرش.

تربة قلب الرجل حجرية أكثر يا لويس.

كانت هذه الفكرة واضحة جداً، ثلاثية الأبعاد وسمعية بطريقة أو بأخرى لدرجة أن لويس ارتعَش قليلاً، كما لو أن جاد ظهر خلفه فجأة وتكلَّم بصوتٍ عالٍ.

يزرع الرجل ما يستطيع... ويعتني به.

كان تشرش لا يزال محدَّباً بطمع فوق الطائر الميت، ويعمل على الجناح الآخر الآن. سمع خشخشةً وحشيةً بينما راح تشرش يجرّ الجثة يميناً ويساراً، يميناً ويساراً. لم يرفعها عن الأرض أبداً يا أورڤيل. هذا صحيح يا ويلبر، الطائر اللعين ميت تماماً مثل براز كلب، من الأفضل إطعامه للقط، من الأفضل -

ركل لويس تشرش فجأة، ركله بقوة. ارتفع ردفا القط وحطّ على الأرض مسطَّح القوائم. ابتعَد وهو يرمقه بنظرة أخرى من نظراته الصفراوية الخضراوية البشعة. "تباً لك"، هسهَس له لويس على طريقة القطط.

"لويس؟"، جاء صوت رايتشل خافتاً من غرفة نومهما. "هل ستأوي إلى السرير؟".

"قادم حالاً"، ردَّ عليها. *لديَّ فقط هذه الفوضى الصغيرة لأنظِّفها يا رايتشل، مفهوم؟ لأنها فوضاي أنا.* بحَث بارتباك عن الزر الذي يتحكَّم بضوء المرأب. وعاد بسرعة إلى الخزانة تحت مغسلة المطبخ وأحضَر كيساً كبيراً أخضر... لم يغفل عن الشبه مع ما فعله تلك الليلة. عاد بالكيس إلى المرأب وأنزلَ المجرفة عن مسمارها على جدار المرأب. كَشَط الغراب ورماه في الكيس. ثم جرَف الجناح الممزَّق ورماه في الكيس أيضاً. عقدَ عقدةً في أعلى الكيس ورماه في سلة النفايات على الجانب البعيد للسيفيك. حين انتهى، كان كاحلاه خَدِرين.

رأى تشرش يقف عند مدخَل المرأب، فقام لويس بإيماءة تهديد للقط بواسطة المجرفة، فاختفى من أمامه مثل دوّامة ماء.

في الطابق العلوي، كانت رايتشل مستلقية على سريرها، لا ترتدي شيئاً سوى الياقوتة الزرقاء على سلسلتها... مثلما وعدته. ابتسمت له بكسل. "ما الذي أخرَّك أيها الزعيم؟".

"كان الضوء فوق المغسلة مُطفأً"، قال لويس. "غيَّرتُ اللمبة".

"تعال إلى هنا"، قالت وشدَّته بلطف نحوها. ليس بيده. "يعرف إن كنتَ نائماً"، غنّت بلطف؛ وارتسمت ابتسامة صغيرة عند أطراف شفتيها. "يعرف إن كنتَ مستيقظاً... آه، ما هذا يا عزيزي لويس؟".

"أظنه شيئاً استيقظ للتو"، قال لويس وهو يرمي الرداء عنه. "ربما يجب أن نرى إن كنا نستطيع جعله ينام قبل وصول سانتا، ما رأيك؟".

نهضت على مِرفق واحد؛ شَعَر بأنفاسها، دافئة وعذبة.

"يعرف إن كنتَ شقياً أو مؤدَّباً... لذا تأدَّب... من فضلك... هل كنتَ فتىً مؤدَّباً يا لويس؟".

"أظن ذلك"، قال. لم يكن صوته هادئاً جداً.

"دعنا نرى إن كان مذاقك طيباً مثل مظهرك"، قالت. "ممم...".

بدا أن مذاقه كان طيباً.

كان الجِماع جيداً، لكن لويس لم يجد نفسه يغفو بسهولة على عادته عندما يكون الجِماع جيداً - يغفو بسهولة مع نفسه، زوجته، حياته. بقي ممدَّداً في ظلمة صباح احتفال الشتاء، يستمع إلى أنفاس رايتشل البطيئة والعميقة، وتذكَّر الطائر الميت على عتبة الباب. هدية تشرش له في احتفال الشتاء.

تذكَّرني أيها الطبيب كريد. لقد كنتُ حيّاً ثم كنتُ ميتاً والآن أنا حيّ من جديد. لقد قمتُ بالجولة وأنا هنا لأُخبرك أنك تخرج من الجهة الأخرى مع علبة خرخرتك محطَّمة ولديك شغف بالصيد. أنا هنا لأُخبرك أن الرجل يزرع ما يستطيع... ويعتني به. لا تنسَ هذا أيها الطبيب كريد. أنا جزء مما سيزرعه قلبك الآن، هناك زوجتك وإبنتك وإبنك... وهناك أنا. تذكَّر السر، واعتنِ بحديقتك جيداً.

في مرحلة ما، غفا لويس.

الفصل 31

انقضى شتاؤهم. عادت إيليه لتصدِّق قصة سانتا كلوز – مؤقتاً على الأقل – بفضل آثار الأقدام على الموقد. فتَح غايدج هداياه بشكل رائع، متوقفاً بين الحين والآخر ليمضغ قطعة من ورقة التغليف تبدو شهية. وفي تلك السنة، قرَّر الولدان في منتصف بعد الظهر أن الصناديق ممتعة أكثر من الألعاب.

أتى الزوجان كراندال عشية بداية السنة الجديدة لتناول شراب بيض رايتشل، ووجَد لويس نفسه يتفحَّص نورما في ذهنه. كانت شاحبة وشفافة نوعاً ما، وقد رأى هذا المظهر من قبل. كانت جدّته لتقول إن نورما بدأت "ترسب"، وربما هذه ليست كلمة سيئة. فجأة بدت يداها، المتورّمتان والمشوَّهتان من التهاب المفاصل، ممتلئتين بنمش الشيخوخة. وبدا شعرها أرفع. عاد الزوجان كراندال إلى منزلهما حوالي العاشرة، وشاهد الزوجان كريد احتفال السنة الجديدة معاً على التلفزيون. كانت هذه آخر مرة تأتي فيها نورما إلى منزلهما.

كانت معظم عطلة لويس الدراسية قذرة وماطرة. وبالنسبة لتكاليف التدفئة، كان ممنوناً من فترة الذوبان الطويلة، لكن الطقس بقي كئيباً ومسبِّباً للكآبة. عمِل حول المنزل مشيِّداً رفوف كتب وخزائن لزوجته. وحين استؤنفت الدراسة في 23 يناير، شَعَر لويس بالسعادة من العودة إلى الجامعة.

وصلت الإنفلونزا أخيراً – تفشَّت بشكل خطير نوعاً ما في الحرم الجامعي بعد أقل من أسبوع من بدء الفصل الدراسي الربيعي، وأصبح مشغولاً للغاية – وجَد نفسه يعمل عشر ساعات وأحياناً اثنتَي عشرة ساعة في اليوم، ويعود إلى المنزل مُنهكاً تماماً... لكن غير حزين حقاً.

انتهت فترة الدفء الجميلة بقوة في 29 يناير. فقد هبَّت عاصفة ثلجية تبَعها أسبوع طقسٍ مُخدِرٍ بحرارة تحت الصفر. كان لويس يفحص درجة شفاء الذراع المكسورة لشابٍ كان يأمل بيأس - ودون جدوى، برأي لويس - أن يكون قادراً على لعب البيسبول ذلك الربيع عندما أطلَّت إحدى الممرضتين المتطوِّعتين برأسها وأخبرَته أن زوجته على الهاتف.

دخَل لويس مكتبه ليتلقى المكالمة. كانت رايتشل تبكي، وشَعَر بالقلق فوراً. *إيليه*، فكَّر في سرّه. *لقد سَقَطت عن مزلجتها وكسرت ذراعها. أو شقَّت جمجمتها*. تذكَّر مرتعباً فتيان الأخوية المخبولين ومزلقتهم.

"ليس أحد الولدَين، أليس كذلك؟"، سأل. "رايتشل؟".

"لا، لا"، قالت وهي تبكي بحدّة أكثر. "ليس أحد الولدَين. إنها نورما يا لُو. نورما كراندال. تُوفِّيت هذا الصباح. حوالي الساعة الثامنة، بعد الفطور مباشرة، هكذا قال جاد. أتى ليرى إن كنتَ هنا وأخبرَتُه أنك غادرتَ منذ نصف ساعة. كان... آه يا لُو، بدا مشوَّشاً ومذهولاً... بدا *عجوزاً* جداً... الحمد لله أن إيليه كانت قد غادرت وغايدج صغير جداً لكي يفهم..."

عبَسَ لويس، ووجَد أن ذهنه، رغم هذا الخبر الفظيع، يركِّز على رايتشل، يسعى إليها، يحاول إيجادها. لأن الأمر يتكرَّر مرة أخرى. لا شيء يمكنك أن تضع إصبعك عليه بوضوح، لأنه مأزقٌ موقفيٌّ بالإجمال. الموت سر، رعب، ويجب إخفاؤه عن الأولاد، أهمّ شيء أن يُخفى عن الأولاد، بالطريقة التي كان السادة والسيدات الفيكتوريون يصدِّقون الحقيقة البغيضة الكريهة بأنه يجب إخفاء العلاقات الجنسية عن الأولاد.

"يا إلهي"، قال. "هل كان قلبها؟".

"لا أعرف"، قالت. لم تعد تبكي، لكن صوتها كان مختنِقاً وأجش. "هل يمكنك أن تأتي يا لويس؟ أنت صديقه، وأعتقد أنه يحتاج إليك".

أنت صديقه.

حسناً *أنا صديقه*، فكَّر لويس في سرّه ببعض التفاجؤ. *لم أتوقع أبداً أن يكون لديَّ صديق في الثمانين من عمره، لكن هذا هو الواقع.* ثم خطَر بباله أنه من الأفضل أن يكونا صديقين، وفقاً لما كان بينهما. ووفقاً لذلك، افترَض أن جاد عرَف أنهما صديقان قبل فترة طويلة من معرفة لويس ذلك. فقد وَقَف جاد بجانبه في تلك المرة، ورغم ما حصل منذ تلك الليلة، رغم الفئران والطيور، شَعَر لويس أن قرار جاد كان صحيحاً على الأرجح... أو، إذا لم يكن صحيحاً، فهو قرار رحيم على الأقل. سيفعل ما بوسعه لجاد الآن، ولو تطلَّب ذلك أن يكون يده اليمنى في وفاة زوجته.

"في طريقي"، قال وأغلق الخط.

الفصل 32

لم تكن نوبة قلبية. كان حادثاً في المخّ، مفاجئاً وغير مؤلم على الأرجح. عندما اتصل لويس بستيف ماسترتون بعد ظهر ذلك اليوم ليُخبره ما جرى، قال ستيف إنه لا يمانِع من رحيله بهذه الطريقة.

"الحياة تماطل أحياناً"، قال ستيف، "وأحياناً أخرى تشير إليك بإصبعها وتُخبِرك أن تعلّق مظلّتك".

لم ترغب رايتشل أن تتكلّم عن المسألة أبداً، ولم تسمح للويس أن يكلّمها عنها.

لم تنزعج إيليه بقدر ما تفاجأت واهتمّت – وقد اعتبر لويس ردّة فعلها طبيعيةً تماماً لفتاة في الخامسة من عمرها. لقد أرادت معرفة إن ماتت السيدة كراندال مُغمضةً أو فاتحةً عينيها. قال لويس إنه لم يعرف.

تقبَّل جاد الأمر بأفضل مما كان متوقعاً، بناءً على حقيقة أن السيدة بقيت تشاركه سريره وطعامه لستين سنة تقريباً. وجَد لويس العجوز – وقد بدا في هذا اليوم أشبه بعجوز في الثالثة والثمانين – جالساً لوحده إلى طاولة المطبخ، يدخّن سيجارة تشسترفيلد، ويشرب زجاجة شراب شعير، ويحدِّق في غرفة الجلوس بلا أي تعبير.

رفع نظره عندما دخَل لويس وقال، "لقد رحلت يا لويس". قال ذلك بنبرة شفافة وواقعية لدرجة أن لويس اعتبر أن الفكرة لم تترسَّخ بعد في ذهنه – لم تُصبه بعد حيث يعيش. ثم بدأ فم جاد يعمل وغطّى عينيه بإحدى ذراعيه. اقترب منه لويس ووضع ذراعه حوله، واستسلم جاد وبكى. لقد ترسَّخت الفكرة فعلاً. وفهِم جاد تماماً حقيقة أن زوجته تُوفِّيت.

"هذا جيد"، قال لويس. "هذا جيد يا جاد، أظنها كانت لتريدك

أن تبكي قليلاً. وربما كانت لتغضَب لو لم تفعل ذلك". بدأ يبكي قليلاً هو أيضاً. عانَقه جاد بقوة، وعانَقه لويس بدوره.

بكى جاد لحوالي عشر دقائق، ثم هدأت العاصفة. استمَع لويس إلى الأشياء التي قالها جاد باهتمام كبير – استمَع إليه كطبيب وكصديق أيضاً. ترقَّب أي دائرية في حديث جاد؛ استمَع ليرى إن كان استيعاب جاد لـ متى واضحاً (لا داعي للتحقّق من أين؛ فهذا لن يبرهن شيئاً لأن الـ أين لجاد كراندال لطالما كانت لادلو، ماين)؛ راح يستمع ليترقَّب أي استخدام لإسم نورما في صيغة المضارع. لكنه لم يجد أي دلالة على أن جاد يفقد سيطرته على زمام الأمور. كان لويس يُدرك أنه لم يكن من غير المألوف أن يموت شخصان متزوجان منذ مدة طويلة في نفس الفترة تقريباً، فلا يفصل بينهما سوى شهر أو أسبوع أو حتى يوم واحد. وافترَض أن الصدمة، أو ربما حتى رغبة داخلية عميقة باللحاق بالشخص الراحل (هذه فكرة لم تكن لتخطر بباله قبل تشرش؛ وجَد أن العديد من أفكاره بخصوص العالم الروحي وعالم الخوارق شهدَ تغييراً هادئاً لكن عميقاً). وكان استنتاجه أن جاد حزين بقوة لكنه لا يزال – على الأقل في الوقت الحاضر – سليم العقل. لم يشعر بأي أثر لتلك الهشاشة الشفافة التي بدا أنها تحيط بنورما عشية بداية السنة الجديدة، عندما جلس أربعتهم في غرفة جلوس كريد، يشربون شراب البيض.

أحضَر له جاد شراب شعير من البرّاد، ووجهه لا يزال أحمر وملطَّخاً من الدموع.

"الوقت مُبكر قليلاً لهذا"، قال، "لكن الشمس تغيب في مكان ما في العالم وفي ظل هذه الظروف..."

"لا تقل المزيد"، أخبَره لويس وفتح زجاجة شراب الشعير. نظَرَ إلى جاد. "هلاّ شربنا لها؟".

"أظن أنه من الأفضل لنا أن نفعل ذلك"، قال جاد. "كان يجب أن تراها عندما كانت في السادسة عشرة يا لويس، وهي عائدة من دار العبادة وقد فكّت أزرار كنزتها النظيفة والناصعة البياض... كانت عيناك لتقفزان من محجريهما. كان بإمكانها أن تجعل أكبر مدمن شراب يُقسِم أنه سيُقلع عن الشرب. لحسن حظي أنها لم تطلب مني ذلك أبداً".

أومأ لويس برأسه ورفعَ زجاجة شراب شعيره قليلاً. "لنورما"، قال.

طرقَ جاد زجاجته بزجاجة لويس. كان يبكي مرة أخرى لكنه كان يبتسم أيضاً. أومأ برأسه. "لترقد بسلام، وليختفي التهاب المفاصل اللعين حيثما هي الآن".

"بالفعل"، قال لويس، وشرِبا.

كانت هذه المرة الوحيدة التي رأى فيها لويس جاد يتخطى حدود الثمالة الخفيفة، وحتى عندها لم يصبح عاجزاً. استرجَع ذكرياته؛ دفقٌ متواصلٌ من الذكريات الدافئة والروايات، غنية بالألوان وصافية وأحياناً لافتة للنظر. ومع ذلك فقد تعامَل جاد بين قصص الماضي مع الحاضر بطريقة لم يستطع لويس إلا إبداء إعجابه بها؛ لو كانت رايتشل مَن تُوفِّيت بعد تناولها الفطور، تساءل إن كان قادراً على أن يتصرَّف بنصف هذه القوة.

اتصل جاد بدار دفن بروكينغز-سميث في بانغور وأنهى العديد من الترتيبات التي يستطيع إنهاءها عبر الهاتف؛ وأخذ موعداً في اليوم التالي ليذهب ويُنهي الباقي. نعم، طلب أن تُحنَّط؛ أرادها أن ترتدي فستاناً، سيزوِّده بنفسه؛ نعم، سيختار الملابس الداخلية؛ لا، لا يريدهم أن يزوِّدوا الحذاء الخاص الذي يُعقَد برباط في الخلف. هلاّ طلبوا من

أحدهم أن يغسل شعرها؟ سأل. لقد غسَلته لآخر مرة ليلة الاثنين، لذا كان قذراً عندما تُوفِّيت. راح يُنصت، وعرَف لويس، الذي كان عمّه في تلك المهنة التي يسمّيها العاملون فيها "التجارة الهادئة"، أن الحانوتيّ يُخبِر جاد أن الغسل الأخير جزءٌ من الخدمة التي يقدّمها. أومأ جاد برأسه وشَكَر الرجل الذي كان يتكلَّم معه، ثم أنصتَ مرة أخرى. نعم، قال، يريدها أن تتبرَّج، لكن بمقدار خفيف. "إنها ميتة والناس يعرفون ذلك"، قال وهو يُشعل سيجارة تشسترفيلد. "لا داعي لطلسها". سيكون التابوت مغلقاً خلال الجنازة، أخبَر الحانوتيّ بحزم هادئ، لكن مفتوحاً خلال ساعات الزيارة في اليوم الذي يسبقها. يجب دفنها في مقبرة جبل الأمل، حيث اشتريا قطعتَي أرض في العام 1951. كانت الأوراق في يده وأعطى الحانوتيّ رقم قطعة الأرض لكي يمكنه بدء التحضيرات هناك: H-101. وهو نفسه يملك الرقم H-102، هكذا أخبَر لويس لاحقاً.

أغلق السمّاعة، ونظَرَ إلى لويس، وقال، "أجمل مقبرة في العالم موجودة هناك في بانغور، بالنسبة لي. افتح لنفسك زجاجة شراب شعير أخرى، إذا كنتَ تريد يا لويس. كل هذا سيستغرق بعض الوقت".

كان لويس على وشك أن يرفض – كان يشعر ببعض الثمالة – عندما تراءت له صورة متنافرة: جاد يسحب جثة نورما على حمّالة عبر الغابة. نحو مقبرة الميكماك ما وراء مقبرة الحيوانات.

كان تأثيراً أشبه بصفعة على وجهه. نهض من دون أي كلمة وأحضرَ زجاجة شراب شعير أخرى من البرّاد. أومأ له جاد برأسه واستخدم الهاتف مرة أخرى. عند الثالثة بعد ظهر ذلك اليوم، عندما ذهَب لويس إلى المنزل ليتناول شطيرةً ووعاء حساء، كان جاد قد قطع شوطاً كبيراً في تنظيم الشعائر الأخيرة لزوجته؛ حيث راح ينتقل من

شيء إلى آخر مثل رجل يخطِّط لعشاء مهم. اتصل بدار شمالي لادلو الميثودية، حيث ستُقام الجنازة الفعلية، ومكتب إدارة المقبرة في جبل الأمل؛ كان الحانوتيّ في بروكينغز-سميث سيُجري هاتين المكالمتين، لكن جاد سبقه بالاتصال لياقةً. كانت هذه خطوة قلّة من الثكلين يفكّرون فيها... أو إذا فكّروا فيها، نادراً ما يقومون بها بأنفسهم. وهذا زاد من إعجاب لويس بجاد. اتصل لاحقاً بأنسباء نورما القليلين الذين لا يزالون أحياء وأنسبائه، متصفّحاً دفتر عناوين قديماً ممزّقاً ذا غطاء جلدي ليجد الأرقام. وبين كل مكالمة وأخرى، يشرب بعض شراب الشعير ويتذكّر الماضي.

شَعَر لويس بإعجاب كبير تجاهه... وحبّ؟

نعم، قلبه أكّد له ذلك. وحبّ.

عندما نزلت إيليه تلك الليلة مرتديةً بيجاماتها لكي تُقبَّل، سألت لويس إن كانت السيدة كراندال ستصعد إلى السماوات. طرحت السؤال على لويس همساً تقريباً، كما لو أنها فهِمت أنه من الأفضل لو لا يُسمَعهما أحد. كانت رايتشل في المطبخ تُعدّ فطيرة دجاج تنوي أن تأخذها إلى جاد في اليوم التالي.

في الجانب المقابل للشارع، كانت الأضواء في منزل كراندال مُضاءة، وهناك سيارات مركونة في ممره الخاص وعلى جانبَي الطريق العام في تلك الجهة لثلاثين متراً في الاتجاهين. ستكون ساعات الزيارة الرسمية غداً، في مكتب الدفن، لكن الناس أتوا هذه الليلة لمواساة جاد بقدر ما يستطيعون، ولمساعدته على التذكّر، وتكريماً لانتقال نورما – ما أشار إليه جاد بعد ظهر ذلك اليوم بـ "المراسم السابقة". بين ذلك المنزل ومنزله، هبّت رياح فبراير باردة. وترقَّع الطريق بجليد أسود. لقد حلَّ

عليهم الآن أبرد جزء من شتاء ماين.

"لا أعرف حقاً يا حبيبتي"، قال لويس وهو يضع إيليه على حُضنه. كان التلفزيون ينقل تبادلاً لإطلاق نار يجري الآن. استدار رجلٌ وسقط أرضاً، دون أن يلحظه أحدهما. كان لويس يُدرك – إلى حد مزعج – أن إيليه تعرف على الأرجح عن رونالد ماكدونالد والرجل العنكبوت وبرغر كينغ أكثر بكثير مما تعرف عن الأمور الدينية. كانت إبنة امرأة يهودية لا تؤدّي شعائرها الدينية ورجل ميثودي غير ملتزم، وافترَض أن كل أفكارها عن الآخرة غامضة؛ ليست خرافات، ليست أحلاماً، بل أحلام أحلامٍ. *لقد فات الأوان لذلك*، فكَّر في سرّه عشوائياً. *إنها في الخامسة فقط، لكن الأوان فات لذلك. يا إلهي، فات الأوان بسرعة كبيرة.*

لكنها كانت تنظر إليه، وعليه أن يقول شيئاً.

"الناس يصدِّقون كافة أصناف الأشياء عما يحدث لنا عندما نموت"، قال. "يظنّ البعض إننا نصعد إلى السماوات أو ننزل إلى الجحيم. ويظنّ البعض إننا نُولد من جديد كأطفال –"

"آه، تعمُّص. هذا ما حصل لـ أودري روز في ذلك الفيلم على التلفزيون".

"أنت لم تشاهدي هذا الفيلم أبداً!". وفكَّر في سرّه أن رايتشل ستُصاب بسكتة دماغية إذا ظنّت أن إيليه شاهدت *أودري روز*.

"أخبَرتني ماري في المدرسة"، قالت إيليه. كانت ماري قد نصَّبت نفسها أعزّ صديقات إيليه؛ فتاة صغيرة قذرة تعاني من سوء التغذية وتبدو دائماً كما لو أنها على حافة الإصابة بالحَصَف أو القوباء الحَلْقية، أو ربما حتى عوز الفيتامين سي. وقد شجَّع لويس ورايتشل هذه الصداقة بقدر ما يستطيعان، لكن رايتشل اعترَفت ذات مرة للويس أنه

بعد مغادرة ماري، كانت تشعر دائماً بإلحاح لفحص رأس إيليه ووجهها بحثاً عن قمل الرأس. وقد ضحِك لويس وأومأ برأسه.

"والدة ماري تدعها تشاهد كل البرامج". كان هناك انتقاد ضمني في هذه الجملة اختار لويس تجاهله.

"حسناً، يسمّى تقمُّصاً، لكنني أظن أنك فهمت الفكرة. هناك مكان بين السماوات والجحيم يسمّيه البعض الأعراف، والبعض الآخر المَطهَر، والبعض الآخر السكينة –"

كان هناك ظل على جدار غرفة الطعام. رايتشل. إنها تُنصت.

أكمل لويس حديثه بشكل أبطأ.

"هناك أمور أكثر من هذا بكثير. لكن الخلاصة يا إيليه هي التالي: لا أحد يعرف وجهة الشخص بعد وفاته. *يقول* الناس إنهم يعرفون، لكن عندما يقولون ذلك يقصدون أنهم واثقون بسبب إيمانهم. هل تعرفين ما هو الإيمان؟".

"في الواقع..."

"ها نحن نجلس على كرسي"، قال لويس. "هل تعتقدين أن كرسي سيظل هنا غداً؟".

"أجل، طبعاً".

"إذاً أنت واثقة أنه سيكون هنا. وأنا مثلك أيضاً. الإيمان هو الثقة بأن شيئاً سيكون. هل فهمتِ؟".

"نعم". أومأت إيليه برأسها إيجابياً.

"لكننا لا نعرف أن الكرسي سيكون هنا. ففي النهاية، قد يقتحم سارق كراسٍ مخبولٌ منزلنا ويأخذه، صح؟".

قهقهت إيليه. ابتسم لويس.

"لدينا فقط ثقة أن هذا لن يحصل. الإيمان شيء رائع، لكن

المشكّكين يعتبرون أنه عندما نموت، يمكن أن يحصل أحد أمرين. إما تنتقل أرواحنا إلى السماوات أو إلى الجحيم أو تختفي من الوجود وكأنها لم تكن. نقطة على السطر".

"مثل الخلود إلى النوم؟".

فكَّر بهذا ثم قال، "أعتقد أنه أشبه بالأثير".

"وما هو موقفك من هذا يا بابا؟".

تحرّك الظل على الجدار ثم استكان من جديد.

خلال معظم حياته الراشدة - منذ أيام الكلّية، افترَض - كان يعتبر أن الموت هو النهاية. وقد شهد عدة حالات موت شخصياً ولم يشعر أبداً بالروح تخرج في طريقها إلى... وجهتها النهائية؛ ألم تخطر بباله هذه الفكرة بالذات عند موت فيكتور باسكاو؟ لقد كان متّفِقاً مع ما قاله أستاذ عِلم النفس في الكلّية بأن أخبار الحياة-بعد-الحياة التي تُنشَر في المجلات العلمية ثم تُبسَّط في الصحافة الشعبية تحدِّد على الأرجح موقفاً ذهنياً حتى النَفَس الأخير ضد الموت - الذهن البشري المُبدِع إلى ما لا نهاية، يدرأ الجنون حتى آخر لحظة بتشييده هلوسةً حول الخلود. كما كان متّفِقاً بشكل مماثل أيضاً مع أحد معارفه في مبنى الطلبة الذي قال، خلال جلسة مناقشة امتدت الليل طوله خلال سنته الجامعية الثانية في شيكاغو، إن الزمن القديم كان يزخر بأعاجيب توقَّفت بالكامل تقريباً خلال العصور الحديثة ("توقَّفت كلياً"، قال في البدء لكنه اضطر إلى التراجع خطوة واحدة على الأقل بعد أن علَّق آخرون بأنه لا يزال هناك الكثير من الأمور الغريبة التي تجري؛ جيوب صغيرة من الارتباك في عالم أصبح على العموم مكاناً نظيفاً مضاءً جيداً - خذوا مثلاً ادّعاء أحدهم أنه عاد من الموت، قال ذلك الشخص الذي من معارفه - والذي أصبح طبيب توليد مشهور في ديربورن،

ميشيغن. "لا مانع لديَّ. وإذا كان عليَّ تصديق ذلك، فسأصدِّقه. أعني، إذا كان عليَّ الاقتناع بمفهوم أن جنين أحد التوأمين يبتلع أحياناً الجنين الآخر في الرحم، كما لو أنه آكل لحوم بشر لم يُولد بعد، ثم تظهر أسنان في خصيتيه أو يظهر شعر في رئتيه بعد عشرين أو ثلاثين سنة لبرهنة أنه فعلَ ذلك، وأظن أنني إذا كنتُ قادراً على تصديق ذلك فبإمكاني تصديق أي شيء. لكنني أريد رؤية شهادة الوفاة، هل تفهم ما أقول؟ أنا لا أشكّك أنه خرَج من القبر. لكنني أريد رؤية شهادة الوفاة الأصلية. أنا من صنف الناس الذي لا يصدِّق شيئاً إلا إذا رآه بنفسه ووضع إصبعه عليه شخصياً".

لا، لم يصدِّق أبداً البقاء بعد الزوال حقاً. على الأقل، ليس قبل تشرش.

"أعتقد أننا نواصل الوجود"، قال لإبنته ببطء. "لكن في أي صيغة، ليس لديَّ أي رأي. قد تكون الصيغة مختلفة لكل شخص. ربما يحصل الشخص على ما بقي يصدِّقه طوال حياته. لكنني أعتقد أننا نواصل الوجود، وأعتقد أن السيدة كراندال في مكان ما يمكنها أن تكون سعيدة فيه".

"لديك ثقة في هذا"، قالت إيليه. لم يكن سؤالاً. بدت مرتعبة.

ابتسم لويس، مسروراً قليلاً ومُحرَجاً قليلاً. "أفترض ذلك. ولديَّ ثقة أن الوقت حان لتخلدي إلى النوم. منذ عشر دقائق".

قبَّلها مرتين، مرةً على خدّها ومرةً على أنفها.

"هل تعتقد أن الحيوانات تواصل الوجود؟".

"نعم"، قال، من دون تفكير، وكاد يضيف أيضاً: *بالأخص القطط*. ارتعَشت الكلمات على شفتيه للحظة في الواقع، وشَعَر بقشعريرة على بشرته.

"حسناً"، قالت وانزلقت عن حضنه. "عليَّ أن أقبّل ماما".

"طبعاً".

راقَبها تبتعد. استدارت عند مدخَل غرفة الطعام وقالت، "كنتُ ساذجةً حقاً بشأن تشرش ذلك اليوم، أليس كذلك؟ أن أبكي هكذا".

"لا يا حبيبتي"، قال. "لا أعتقد أنك كنتِ ساذجة".

"إذا مات الآن، يمكنني تقبّل الأمر"، قالت ثم بدا عليها أنها تفكِّر بما قالته للتو، كما لو أنها جفلت قليلاً. ثم قالت، كما لو أنها توافق نفسها: "بالتأكيد يمكنني تقبّله". وذهَبت لتبحث عن رايتشل.

لاحقاً، في السرير، قالت رايتشل، "سمِعتُ ما كنتَ تتكلَّم عنه معها".

"ولا توافقين على ما قلتُه؟"، سأل لويس. قرّر أنه ربما من الأفضل بتّ هذا الموضوع، إذا كان هذا ما أرادته رايتشل.

"لا"، قالت رايتشل، بتردّد لم يكن مألوفاً منها. "لا يا لويس، المسألة ليست هكذا. كنتُ فقط... خائفة. وأنت تعرفني. عندما أخاف، أصبح دفاعية".

لم يستطع لويس أن يتذكَّر أبداً أن رايتشل كلَّمته يوماً بهكذا جهد، وشَعَر فجأة بحذر أكبر مما شعَره مع إيليه سابقاً. شَعَر أنه في حقل ألغام.

"مما أنتِ خائفة؟ من الموت؟".

"ليس *لنفسي*"، قالت. "بالكاد عدتُ أفكِّر في هذا. لكن عندما كنتُ طفلةً، كنتُ أفكِّر فيه كثيراً. وكان يؤرقني كثيراً. كنتُ أحلم بوحوش قادمة لتأكلني على سريري، وبدا لي أن كل تلك الوحوش تشبه أختي زيلدا".

نعم، فكَّر لويس في سرّه. ها هو؛ أخيراً، بعد مرور كل هذا الوقت على زواجنا، ها هو.

"أنتِ لا تتكلَّمين عنها كثيراً"، قال.

ابتسمت رايتشل ولمست وجهه. "أنت لطيف يا لويس. أنا لا أتكلَّم عنها أبداً. أحاول عدم التفكير فيها أبداً".

"لطالما افترضتُ أن لديكِ أسبابك".

"أجل. لديَّ أسبابي".

صمتت لبرهة، وهي تفكِّر.

"أعرف أنها ماتت... التهاب السحايا الفقري..."

"التهاب السحايا الفقري"، كرَّرت، ورأى أنها على شفير البكاء. "لم تعد لها صور في المنزل".

"هناك صورة لفتاة يافعة في –"

"في مكتب أبي. نعم، نسيتُ تلك الصورة. وأعتقد أن أمي لا تزال تحمل واحدةً في محفظتها. كانت أكبر مني بسنتين. التقَطته... وكانت في غرفة النوم الخلفية... كانت في غرفة النوم الخلفية مثل سر قذر يا لويس، كانت تحتضر هناك، تُوفِّيت أختي في غرفة النوم الخلفية وهذا ما كانت عليه، سر قذر – كانت دائماً سراً قذراً!".

انهارت رايتشل بالكامل فجأة، وفي خضم شهقاتها الصاخبة المتصاعدة، شَعَرَ لويس ببداية نوبة هستيريا وشَعَر بالقلق. مدَّ يده إليها ولمس كتفاً سُحب منه فوراً. كان بإمكانه أن يشعر بهمسات قميص نومها الحريري تحت رؤوس أصابعه.

"رايتشل – حبيبتي – لا –"

سيطرت على شهقاتها بطريقة ما. "لا تقل لي لا"، قالت. "لا تمنعني يا لويس. أملك فقط القوة لأروي هذا مرةً واحدةً، ثم لا أريد أن

أتكلَّم عنه أبداً مرة أخرى. لن أنام هذه الليلة على الأرجح".

"هل كان رهيباً إلى هذا الحد؟"، سأل وهو يعرف الجواب مسبقاً. هذا فسَّر الكثير، وحتى الأشياء التي لم يربطها أبداً من قبل أو فقط اشتبه بها تراءت له فجأة في ذهنه. أدرَك أنها لم تحضر معه جنازةً أبداً من قبل - ولا حتى جنازة آل لوك، طالب الطب الزميل الذي قُتل عندما اصطدمت السيارة التي كان يستقلّها بشاحنة نفايات. كان آل زائراً دورياً لشقتهما، وكانت رايتشل تُسَرّ بزياراته. نعم لم تحضر جنازته.

كانت مريضة في ذلك اليوم، تذكَّر لويس فجأة. *من الإنفلونزا أو شيء آخر. بدت حالتها خطيرةً. لكنها كانت بخير في اليوم التالي.*

بعد الجنازة أصبحت بخير من جديد، صحَّح لنفسه. تذكَّر يقول لنفسه وقتها إن مرضها قد يكون نفسجسمياً فقط.

"كان رهيباً، نعم. أسوأ مما يمكنك أن تتخيَّل. لويس، شاهدناها تنحلّ يوماً بعد يوم، ولم يكن بوسع أحد أن يفعل لها أي شيء. كانت تعاني من ألم متواصل. بدا جسمها يذبل... يتقوقع على نفسه... احدودب كتفاها وتهدَّل وجهها إلى أن أصبح كالقناع. وأصبحت يداها مثل قدمَي طير. كان عليَّ إطعامها أحياناً. كنتُ أكره ذلك، لكنني فعلتُه ولم أعترض عليه أبداً. عندما أصبح الألم لا يُطاق، بدأوا يعطونها مخدرات - خفيفة في البدء ثم مخدرات كانت لتجعلها مدمنةً لو عاشت. لكن الجميع عرَف بالطبع أنها لن تعيش. أظن لهذا السبب هي... سر كبير لنا كلنا. لأننا *أردناها* أن تموت يا لويس، *تمنّينا* لو تموت، ولم يكن ذلك فقط لكي لا تتعذَّب هي بعد الآن، بل لكي لا نتعذَّب نحن بعد الآن، كان لأنها بدأت تشبه وحشاً، وكانت بدأت تصبح وحشاً... يا إلهي أعرف كم يبدو هذا الكلام مريعاً..."

أخفت وجهها في يديها.

لمَسها لويس بلطف. "رايتشل، هذا لا يبدو مريعاً أبداً".

"بلى!"، صاحت. "بلى!".

"يبدو حقيقياً فقط"، قال. "أغلب ضحايا الأمراض المزمنة يصبحون وحوشاً بغيضةً متطلِّبةً. فكرة المريض الصبور على الأذى هي خرافة عاطفية كبيرة. حين تظهر مجموعة التقرّحات الأولى على عَقِب المريض المطروح في الفراش، يبدأ بالتذمّر ونشر البؤس. لا يقدرون على منع أنفسهم من فعل ذلك، لكن هذا لا يساعد الأشخاص حولهم".

نظَرَت إليه، مندهشةً... متفائلةً تقريباً. ثم عادت الريبة إلى وجهها. "أنت تلفّق هذا".

ابتسم بتجهّم. "هل تريدنني أن أُريك الكتب التعليمية؟ ماذا بشأن إحصائيات الانتحار؟ هل تريدين رؤيتها أيضاً؟ في العائلات التي تعتني بمريض مزمن في المنزل، تحلِّق إحصائيات الانتحار عالياً بعد ستة أشهر من وفاة المريض".

"*انتحار!*".

"يبتلعون حبوباً، أو يختنقون بالغاز، أو يفجّرون أدمغتهم. كرههم... إرهاقهم... قرفهم... حزنهم...". هزَّ كتفيه وأطبَقَ قبضتيه على بعضهما بلطف. "يبدأ الناجون يشعرون كما لو أنهم ارتكبوا جريمة قتل. لذا يُسرعون الخطى".

تسلَّل ارتياحٌ مجنونٌ مجروحٌ إلى وجه رايتشل المنتفخ. "كانت تطالب... بحقد. وتبوّل في سريرها عن قصد أحياناً. تسألها أمي إن كانت تريد مساعدة للوصول إلى الحمّام... ولاحقاً، عندما لا يعود بإمكانها النهوض، إن كانت تريد قصرية السرير... وتقول زيلدا لا... ثم تبوِّل في السرير لكي تضطر أمي أو أمي وأنا إلى تغيير الملاءة... وتقول إنه حادث، لكن يمكنك *رؤية* الابتسامة في عينيها يا لويس.

كانت الغرفة تعبق دائماً برائحة البول ومخدراتها... كانت لديها بعض زجاجات المخدرات التي تشبه رائحتها دواء السعال الكرزيّ وكانت تلك الرائحة تفوح هناك دائماً... كنتُ أستيقظ في بعض الليالي... حتى الآن أستيقظ وأشعر أنه يمكنني شمّ رائحة دواء السعال الكرزيّ... وأتساءل... إن كنتُ مستيقظة حقاً... وأقول 'هل تُوفِّيت زيلدا بعد؟ هل تُوفِّيت؟'... أتساءل..."

التقَطت رايتشل أنفاسها. أمسك لويس يدها وضغطت على أصابعه بقوة همجية.

"عندما نغيِّر لها الملاءة، كان يمكننا رؤية الطريقة التي ينفتل بها ظهرها. قُبيل النهاية يا لويس، قُبيل النهاية بدت كما لو أن... كما لو أن مؤخِّرتها ارتفعت بطريقة أو بأخرى إلى وسط ظهرها".

اتّخذت عينا رايتشل الرطبتين الآن النظرة المذعورة لولدٍ يتذكَّر كابوساً متكرراً فظيعاً.

"وأحياناً تلمسني بـ ... يديها... يديها العصفوريتين... وأوشك على الصراخ أحياناً والطلب منها عدم فعل ذلك، ومرةً سكَبتُ بعض حساءها على ذراعي عندما لَمَست وجهي فأحرَقتُ نفسي، وقد صرختُ *وقتها*... وبكيتُ وأمكنني رؤية الابتسامة في عينيها، أيضاً".

"قُبيل النهاية، توقفت المخدرات عن إفادتها. كان دورها في الصراخ وقتها، ولا أحد منا أصبح قادراً على أن يتذكَّر كيف كانت من قبل، حتى أمي. كانت مجرد ذلك *الشيء* الكريه، الحقود، الصارخ في غرفة النوم الخلفية... سرنا القذر".

بلَعت رايتشل ريقها. وأصدرت حنجرتها صوت طقطقةٍ.

"كان والديَّ خارج المنزل عندما أخيراً... عندما... أنت تعرف..."

نطقتها رايتشل بجهد فظيع، موجِع.

"عندما *ماتت*، كان والديَّ خارج المنزل. كانا خارج المنزل لكنني كنتُ معها. كانت فترة احتفال الربيع، وقد خرَجا لبرهة لرؤية بعض الأصدقاء. لبضع دقائق فقط. كنتُ أقرأ مجلةً في المطبخ. حسناً، كنتُ أنظر إليها، على أي حال. كنتُ أنتظر أن يحين وقت إعطائها المزيد من الأدوية لأنها كانت تصرخ. بقيت تصرخ منذ أن خرج والداي، تقريباً. لم أستطع أن أقرأ وهي تصرخ بتلك الطريقة. ثم... ما حصل أن... حسناً... توقفت زيلدا عن الصراخ. كنتُ في الثامنة يا لويس... أحلام مزعجة كل ليلة... كنتُ قد بدأتُ أعتقد أنها تكرهني لأن ظهري مستقيمٌ، لأنني لا أعاني من ألم متواصل، لأنه يمكنني السير، لأنني كنتُ سأعيش... بدأتُ أتخيَّل أنها تريد قتلي. إلا أنني، حتى هذه الليلة يا لويس، لا أعتقد حقاً أن كل ذلك كان من خيالي. أعتقد أنها كانت تكرهني *فعلاً*. لا أعتقد حقاً أنها كانت لتقتلني، لكن لو كان بمقدورها أن تستولي على جسمي بطريقة ما... أن تُخرجني منه كما لو أننا في قصة خرافية، أعتقد أنها كانت ستفعل ذلك. لكن عندما توقَفت عن الصراخ، دخَلتُ لأرى إن كان كل شيء على ما يرام... لأرى إن سقَطت على جنبها أو انزلَقت عن وساداتها. دخلتُ ونظَرتُ إليها واعتقَدتُ أنها ابتلعت لسانها بلا شك وستختنق حتى الموت. لويس" - ارتفع صوت رايتشل مرة أخرى، دامِعاً وطفولياً بشكل مخيف، كما لو أنها تعاود عيش التجربة. "لويس، لم أعرف ماذا عليَّ أن أفعل! كنتُ في الثامنة!".

"بالطبع لن تعرفي"، قال لويس. استدار إليها وعانَقها، وأمسَكته بالقوة المذعورة لسبّاحٍ سيئ انقلب زورقه فجأة في وسط بحيرة كبيرة. "هل ضايقكِ أحدهم بشأن ذلك يا حبيبتي؟".

"لا"، قالت، "لا أحد لامَني. لكن لا أحد يستطيع أن يجعل الوضع أفضل أيضاً. لا أحد يستطيع أن يغيِّره. لا أحد يستطيع إلغاء ما حصل يا لويس. لم تبلع لسانها. بدأت تُصدر صوتاً، نوعاً ما، لا أعرف – غااااا – هكذا –"

في تذكّرها المستغيث لأحداث ذلك اليوم، قدَّمت أكثر من مجرد تقليدٍ جديرٍ بالثناء لصوت أختها زيلدا، وعادت ذاكرة لويس إلى فيكتور باسكاو. اشتدّت قوة احتضانه لزوجته.

"– وكان هناك لعاب، لعاب يسيل على ذقنها –"

"رايتشل، هذا يكفي"، قال، ليس بحزمٍ كافٍ. "أُدرك العوارض".

"إنني أشرح"، قالت بعناد. "إنني أشرح لماذا لا يمكنني الذهاب إلى جنازة نورما المسكينة، بادئ ذي بدء، ولماذا تشاجرنا ذلك الشجار الغبي في ذلك اليوم –"

"صه، لقد نسيتُه".

"أنا لم أنسه"، قالت. "أتذكَّره جيداً يا لويس. أتذكَّره بوضوح مثلما أتذكَّر أختي زيلدا تختنق حتى الموت في سريرها يوم 14 أبريل 1965".

ساد الصمت في الغرفة للحظة طويلة.

"أدرتُها على بطنها ورحتُ أضربها بقوة على ظهرها"، أكملت رايتشل كلامها أخيراً. "هذا كل ما كنتُ أعرف فعله. كانت قدماها ترتفعان وتنخفضان بعنف... ورِجلاها المفتولتان... وأتذكَّر أنني سمعتُ صوتاً يشبه إخراج ريح... اعتقَدتُ أنها تُخرِج ريحاً أو أنا التي تُخرجه، لكنه كان صوت الدرزات تحت ذراعَي بلوزتي تتمزَّق عندما أدرتُها على بطنها. بدأت... تتشنَّج... ورأيتُ أن وجهها استدار جانبياً نحو الوسادات، وقلتُ لنفسي، آه، إنها تختنق، زيلدا تختنق، وسيعودون إلى

المنزل ويقولون إنني قَتَلْتُها عبر خنقها، سيقولون كنتِ *تكرهينها يا رايتشل*، وهذا صحيح، وسيقولون *أردتِها أن تموت*، وهذا صحيح أيضاً. لأن أول فكرة خطرت ببالي يا لويس عندما بدأت ترتفع وتنخفض بتلك الطريقة على السرير، أتذكَّر ذلك جيداً، كانت *آه جيد، زيلدا تختنق أخيراً وسينتهي هذا*. لذا أدرتُها مرة أخرى ورأيت أن وجهها أصبح *أسود*، وأن عينيها منتفختان وعنقها متورِّمٌ. ثم ماتت. تراجعتُ في الغرفة. أظن أنني أردتُ الخروج من الباب، لكنني اصطدمتُ بالجدار وسقَطت صورةٌ، كانت صورة من أحد كتب أوز التي كانت زيلدا تحبّها قبل أن تمرض بالتهاب السحايا، عندما كانت بخير، كانت صورة أوز الكبير والرهيب، لكن زيلدا لطالما سمّته أوز الكبيل واللهيب لأنها كانت تلثغ بحرف الراء. أخذت أمي تلك الصورة وأطَّرتها لأنها... لأنها كانت المفضَّلة لدى زيلدا... أوز الكبيل واللهيب... وسقَطت على الأرض وتحطَّم زجاج الإطار وبدأتُ أصرخ لأنني عرَفتُ أنها ماتت واعتقَدتُ... أظنني اعتقَدتُ أن شبحها عاد ليقضي عليَّ، وعرَفتُ أن شبحها سيكرهني مثلما كانت تكرهني، لكن شبحها لن يكون عالقاً في السرير، لذا صَرَختُ... صَرَختُ وركضتُ إلى خارج المنزل وأنا أصرخ 'زيلدا ماتت! زيلدا ماتت! زيلدا ماتت!'. وجاء الجيران ونظروا... ورأوني أركض إلى آخر الشارع وبلوزتي ممزَّقة تحت الذراعين... كنتُ أصيح 'زيلدا ماتت!'. أظن أنهم اعتقَدوا أنني أبكي لكنني أعتقد... أعتقد أنني كنتُ أضحك يا لويس. أعتقد ربما أن هذا ما كنتُ أفعله".

"إذا كنتِ تضحكين، فأنا أحيّيك عليه"، قال لويس.

"لكنكَ لستَ جدّياً في قولك هذا"، قالت رايتشل بيقين شخصٍ انتهى من نقطةٍ وانتهى منها وانتهى منها. لم يعلّق على الموضوع.

اعتقَد أنها قد تتخلَّص في نهاية المطاف من هذه الذاكرة المريعة النتِنة التي بقيت تنتابها لمدة طويلة – معظمها، على أي حال – لكن ليس هذا الجزء أبداً. ليس بالكامل أبداً. لم يكن لويس كريد طبيباً نفسياً، لكنه يعرف أن هناك أشياء نصف مدفونة في أرض أي حياة، وأن البشر يبدون مضطرين للعودة إلى تلك الأشياء وسحبها، رغم أنهم يجرحون أنفسهم. هذه الليلة سحَبت رايتشل ذلك الشيء بالكامل تقريباً، مثل سنٍ عَفِنٍ، بتاجه الأسود، وأعصابه الفاسدة، وجذوره النتِنة. أصبح في الخارج. ليبقى ذلك التجويف الضارّ الأخير؛ ولنأمل أن يبقى راقداً ما عدا في أعمق أحلامها. من المدهش جداً أنها كانت قادرةً على إزالة هذا القدر منه – وهذا أظهَر مدى شجاعتها الكبيرة. شَعَر لويس بالرهبة. شَعَر بالابتهاج.

استوى جالساً الآن وأشعَل النور. "نعم"، قال، "أنا أحيّيك عليه. وإذا احتجتُ إلى سبب آخر لكي... لكي أكره أمك وأباك حقاً، فقد أصبح لديَّ الآن. لم يكن يجب أبداً تركك معها لوحدك يا رايتشل. *أبداً*".

مثل طفلة – الطفلة في الثامنة التي كانت عليها عندما حصل هذا الشيء القذر غير المعقول – أنّبته: "لُو، كانت فترة احتفال الربيع –"

"لا يهمّني"، قال لويس بنبرة همجية مفاجئة وجشّاء جعلتها تتراجع قليلاً. كان يتذكّر الممرضتين الطالبتين، تلك الممرضتين المتطوّعتين التعيستَي الحظ لكي تكونا حاضرتين في صباح إحضار باسكاو المُحتضَر. إحداهما، سيدة صغيرة صلبة تدعى كارلا شايفرز، عادت في اليوم التالي وعمِلت بشكل جيد لدرجة أثارت إعجاب حتى شارلتون. أما الأخرى فلم تظهر مرة أخرى أبداً. لم يتفاجأ لويس ولم يلُمها.

أين كانت الممرضة؟ كان يجب أن تكون هناك ممرضة مرخَّصة...

لقد خرَجا، خرَجا في الواقع وتركا طفلةً في الثامنة من عمرها مع أختها المُحتضَرة التي كانت قد أصبحت وقتها مجنونة سريرياً على الأرجح. لماذا؟ لأنها كانت فترة احتفال الربيع. ولأن دوري غولدمان الأنيقة لم تستطع تحمّل الرائحة الكريهة ذلك الصباح بالذات وكان عليها الابتعاد عنها لوقت قصير فقط. لذا كُلِّفت رايتشل بالمهمة. أليس هذا صحيحاً أيها الأصدقاء والجيران؟ رايتشل كُلِّفت بالمهمة. في الثامنة من عمرها، بضفائر، وبلوزة بحّار. رايتشل كُلِّفت بالمهمة. رايتشل كُلِّفت بالمهمة اللعينة. تستطيع رايتشل البقاء وتحمُّل الرائحة الكريهة. لماذا يرسلونها إلى المخيَّم في فيرمونت لستة أسابيع كل سنة، إن لم يكن لتحمُّل الرائحة الكريهة لأختها المجنونة المُحتضَرة؟ عشرة قمصان وسترات جديدة لغايدج وستة فساتين جديدة لإيليه وسأدفع مصاريفك في كلّية الطب إذا بقيتَ بعيداً عن إبنتي... لكن أين كان دفتر شيكاتك الفائض عندما كانت إبنتك تموت من التهاب السحايا الفقري وإبنتك الأخرى لوحدها معها، أيها الوغد؟ أين كانت الممرضة المرخَّصة اللعينة؟

استوى لويس جالساً، ونهض عن السرير.

"إلى أين تذهب؟"، سألت رايتشل بقلق.

"لأُحضِر لك حبة فاليوم".

"أنت تعرف أنني لا –"

"هذه الليلة بلى"، قال.

أخذت الحبة ثم أخبرَته الباقي. بقي صوتها هادئاً طوال الوقت. كان مهدئ الأعصاب يفعل فعله.

أخرَجت الجارة الملاصِقة رايتشل ذات السنوات الثمانية من خلف شجرة حيث كانت تربض وتصرخ "زيلدا ماتت!" مراراً وتكراراً. كان

أنفها ينزف، والدم يغطيها كلها. اتصلت نفس تلك الجارة بالإسعاف ثم بوالدَيها؛ وبعدما أوقفت نزيف أنفها وهدّأت لها أعصابها بكوب شاي ساخن وقرصَي أسبرين، تمكّنت من معرفة مكان والدَيها منها – كانا يزوران السيد والسيدة كابرون على الطرف الآخر للبلدة؛ كان بيتر كابرون محاسباً في شركة أبيها.

في ذلك المساء، حدثت تغييرات كبيرة في أسرة غولدمان. فقد رحلت زيلدا. نُظِّفَت غرفتها وطُهِّرَت بالبخار. وتم التخلّص من كل الأثاث. أصبحت الغرفة صندوقاً عارياً. أصبحت لاحقاً – وبوقت طويل – غرفة خياطة لدوري غولدمان.

بدأت كوابيس رايتشل من تلك الليلة، وعندما استيقَظت عند الثانية فجراً وراحت تصرخ لأمها، ذُعرَت من اكتشافها أنه بالكاد يمكنها النهوض من السرير. كان ظهرها يؤلمها كثيراً. لقد أجهدته عند تحريكها زيلدا. ففي فورة الأدرينالين في جسمها، رفعت زيلدا بقوة كافية لكي تتمزَّق بلوزتها.

حقيقة أنها أجهدت نفسها في محاولةٍ لمنع زيلدا من الاختناق كانت بسيطةً، واضحةً، بديهيةً يا عزيزي واطسون. للجميع، طبعاً، ما عدا لرايتشل نفسها. كانت رايتشل متأكدةً أن ذلك هو انتقام زيلدا من قبرها. كانت زيلدا تعرف أن رايتشل مسرورة من وفاتها؛ تعرف أنه عندما اندفعت رايتشل من المنزل وهي تصرخ *زيلدا ماتت، زيلدا ماتت* بأعلى صوتها، كانت تضحك ولا تصرخ؛ تعرف أنها قُتلَت وأنها نقلت التهاب السحايا الفقري إلى رايتشل، وقريباً سيبدأ ظهر رايتشل ينفتل ويتغيَّر وستضطر إلى ملازمة السرير، وتتحوَّل ببطء لكن بثبات إلى وحش، وتنعقف يداها على شكل مخالب.

ستبدأ بعد حين بالصراخ من الألم، مثلما كانت زيلدا تفعل، ثم

ستبدأ بتبليل السرير، وأخيراً ستختنق بلسانها حتى الموت. كان هذا هو انتقام زيلدا.

لم يستطع أحد إقناع رايتشل بعدم صحة هذا الاعتقاد - ليس أمها، ولا أباها، ولا حتى الطبيب موراي، الذي شخَّص أن لديها التواءً طفيفاً في الظهر ثم طلب منها بفظاظة (بوحشية، قد يقول البعض - لويس، مثلاً) أن تتوقف عن التصرّف بهذا الشكل السيئ. عليها أن تتذكّر أن أختها ماتت للتو، هذا ما قاله لها الطبيب موراي؛ والدها محزونان وهذا ليس الوقت المناسب لكي تتصرَّف بطفولية لتجلب الانتباه إلى نفسها. فقط الألم المنحسِر ببطء تمكَّن من إقناعها أنها لم تكن ضحية انتقام زيلدا الخارق، وأن ذلك ليس عقاباً سماوياً لها. لأشهرٍ بعد ذلك (أو هكذا أخبَرت لويس؛ كانت في الواقع سنوات، ثمانية تحديداً) بقيت تستيقظ من كوابيس تموت فيها أختها مراراً وتكراراً، فتمدّ رايتشل يديها إلى ظهرها في الظلمة لتتأكد أنه بخير. من العواقب المخيفة لتلك الأحلام أنها ظنَّت في أغلب الأحيان أن باب الخزانة سيُفتَح بقوة وستتطوَّح منها زيلدا، زرقاء ومفتولة، بعينين لامعتين بيضاوين بالكامل، ولسان أسود متدلٍّ من شفتيها، ويدين معقوفتين على شكل مخالب لكي تقتل القاتلة المنكمشة في سريرها بيديها العالقتين عند أسفل ظهرها...

لم تحضر جنازة زيلدا أو أي جنازة منذ ذلك الوقت.

"لو أخبرتني هذا من قبل"، قال لويس، "لكان فسَّر لي الكثير".

"لم أستطع يا لُو"، قالت ببساطة. بدت نعسانة جداً الآن. "منذ ذلك الوقت وأنا... أظن مُصابة بالرُهاب قليلاً من هذا الموضوع".

مُصابة بالرُهاب قليلاً فقط، فكَّر لويس في سرّه. *نعم، صحيح.*

"يبدو أن هذا... خارج عن إرادتي. أعرف أنك محقّ، وأن الموت

طبيعي تماماً، وحتى جيد - لكن ما يعرفه ذهني وما يجري... داخلي..."

"نعم"، قال.

"انفجرتُ بوجهك ذلك اليوم"، قالت، "كنتُ أعرف أن إيليه تبكي فقط من الفكرة... كطريقة للاعتياد عليها... لكنني لم أكن قادرةً على منع نفسي من فعل ذلك. آسفة يا لويس".

"لا داعي للاعتذار"، قال وهو يمسِّد لها شعرها. "لكن تباً، أقبله على أي حال، إذا كان سيجعلك تشعرين بتحسّن".

ابتسمت. "يُشعرني بتحسّن، صحيح. أشعر كما لو أنني سئمتُ شيئاً سمَّم جزءاً مني لسنوات".

"ربما سئمتِ منه فعلاً".

أغمضت رايتشل عينيها ثم أعادت فتحهما... ببطء. "ولا تُلقي كل اللوم على أبي يا لويس. رجاءً. كانت تلك الفترة فظيعة عليه. كانت الفواتير - فواتير زيلدا - باهظة جداً. وفاتت أبي فرصة التوسّع إلى الضواحي، ولم تكن المبيعات في متجر وسط المدينة جيدة. وفوق كل ذلك، كانت أمي نصف مجنونة نفسها.

"حسناً، سار كل شيء بشكل جيد. كان كما لو أن موت زيلدا هو الإشارة لعودة الأوقات الجيدة. حصل ركودٌ، لكن المال توفَّر بعدها وحصل أبي على قرضه، ومنذ ذلك الوقت لم يلتفت إلى الوراء أبداً. لكن لهذا السبب كانا دائماً تملّكيين تجاهي، أعتقد. ليس فقط لأنني الوحيدة الباقية -"

"إنه الذنب"، قال لويس.

"نعم، أظنك محقّ. ولن تغضب مني إذا كنتُ مريضةً يوم دفن نورما؟".

"لا يا حبيبتي، لن أغضب". صمتَ قليلاً ثم أمسك يدها. "هل

يمكنني أخذ إيليه معي؟".

انقبضت يدها في يده. "آه يا لويس، لا أعرف"، قالت، وعاد الخوف إلى صوتها. "إنها صغيرة جداً -"

"أصبحت تعرف من أين يأتي الأطفال منذ سنة أو أكثر"، ذكَّرها مرة أخرى.

بقيت صامتة لوقت طويل، تنظر إلى السقف وتعضّ شفتيها. "إذا كنتَ تعتقد أن هذا هو الأفضل"، قالت أخيراً. "إذا كنتَ تعتقد أنه لن... لن يؤذيها".

"تعالي إلى هنا يا رايتشل"، قال، وناما تلك الليلة وظهرها ملتصق ببطنه على جانبه من السرير، وعندما استيقَظت مرتعشةً في منتصف الليل، وقد زال مفعول الفاليوم، هدّأ أعصابها بيديه وهمَس في أذنها أن كل شيء على ما يرام، ونامت من جديد.

الفصل 33

"لأن الرجل - والمرأة - هو كالزهور في الوادي، التي تُزهِر اليوم وتُلقى غداً في الأتون: زمن الرجل ليس سوى فصل في السنة؛ يأتي، ثم يزول. هيا نتضرَّع".

إيليه، الزاهية في فستان أزرق بحري تم شراؤه خصيصاً للمناسبة، أخفضت رأسها فجأة لدرجة أن لويس، الجالس بجانبها على المقعد الخشبي الطويل، سمِع عنقها يُصدر صريراً. كانت إيليه قد دخلت بضعة دور عبادة، وهذه كانت بالطبع جنازتها الأولى؛ التركيبة أرعبتها إلى حدود صمتٍ غير معهودٍ.

أما بالنسبة للويس، فهذه كانت فرصة نادرة للتواجد مع إبنته. لقد أعماه حبّه لها، وكذلك حبّه لغايدج، في الأغلب ومنعه من مراقبتها بطريقة حيادية؛ لكنه اعتقَد اليوم أنه يرى ما تُعدّ تقريباً حالةٌ نموذجيةٌ لولدٍ يقترب من نهاية مرحلة النمو الكبير الأولى في حياته؛ كائنٌ عضويٌ ذو حشرية خالصة تقريباً، يخزِّن المعلومات بجنون في دارات لانهائية تقريباً. كانت إيليه هادئة على غير عادتها، حتى عندما انحنى جاد، الذي بدا غريباً لكن رائعاً في بذلته السوداء وحذائه ذي الرباط (أدرك لويس أنها أول مرة يراه فيها يرتدي أي شيء غير خفّ أو حذاء مطاطي أخضر)، وقبّلها، وقال: "يسرّني قدومك يا حبيبتي. وأنا أكيد أن نورما مسرورة أيضاً".

راحت إيليه تحدِّق فيه، بعينين مُبرقتين، وقد خانتها الكلمات. لم تكن هذه حالة اعتيادية مألوفة بالنسبة لها.

ثم بدأ الموقَّر لافلين يتمنى أن تكون هذه خاتمة أحزانهم وأن يحلّ عليهم السلام.

"هلاّ تقدَّم حاملو النعش رجاءً؟"، سأل.

بدأ لويس ينهض، فأوقَفته إيليه بأن شدّت ذراعه باضطراب. بدت خائفة. "بابا!"، همست له. "إلى أين تذهب؟".

"أنا أحد حاملي النعش يا حبيبتي"، قال لويس وعاود الجلوس بجانبها للحظة ووضع ذراعه حول كتفَيها. "هذا يعني أنني سأساعد في نقل نورما إلى الخارج. نحن أربعة - أنا واثنان من أبناء أخ جاد وأخ نورما".

"أين سأجدك؟". كان وجه إيليه لا يزال متوتراً وخائفاً.

ألقى لويس نظرة سريعة إلى الأمام. كان حاملو النعش الثلاثة الآخرون قد تجمَّعوا هناك، إلى جانب جاد. وبقية الحاضرين يخرجون، بعضهم يبكي. رأى مِيسِي داندريدج، لا تبكي في الواقع لكن عينيها حمراوين، فرفعت يدها له، كتحيّة سريعة.

"إذا نزلتي السلالم في الخارج فقط، سألاقيك هناك"، قال. "اتفقنا يا إيليه؟".

"نعم"، قالت. "فقط لا تنساني".

"لا، لن أنساك".

نهض مرة أخرى، وشدَّت يده مرة أخرى.

"بابا؟".

"ماذا يا حبيبتي؟".

"لا تُوقعها"، همَست إيليه.

انضم لويس إلى الآخرين، وعرَّفه جاد على إبنَي أخيه، اللذين كانا في الواقع نسيبَين من الدرجة الثانية أو الثالثة... متحدّرَين من عمّ جاد. كانا شابين ضخمين في العشرينات من عمرهما يشبهان بعضهما كثيراً.

كان أخ نورما في أواخر خمسيناته تقريباً، على حسب تقدير لويس، ورغم أن التوتر الناجم عن حالة موت في العائلة كان بادياً على وجهه، إلا أنه يتحمَّل ذلك بشكل جيد.

"سعيد بلقائكم جميعاً"، قال لويس. شَعَر بتفاهة غير مريحة – فهو دخيل في دائرة العائلة.

أومأوا له برؤوسهم.

"هل إيليه بخير؟"، سأل جاد وأومأ لها برأسه. كانت تتلكَّأ في الردهة، تراقب.

بالتأكيد – تريد فقط التأكد أنني لن أتبخَّر، فكَّر لويس في سرّه وكاد يبتسم. لكن تلك الفكرة استدعت عندها فكرة أخرى: *أوز الكبيل واللهيب*. وتلاشت الابتسامة.

"نعم، أعتقد ذلك"، قال لويس ورفع يده لها. رفعت يدها بالمقابل وخرجت في دوَّامة فستان أزرق بحري. تفاجأ لويس للحظة كم بدت راشدة. كان من صنف الوهم، مهما يكن قصير المدة، الذي يمكنه جعل الرجل يتوقف قليلاً ليتأمل.

"هل أنتم جاهزون؟"، سأل أحد إبنَي الأخ.

أومأ لويس برأسه؛ وكذلك فعل أخ نورما الأصغر.

"على مهلكم عليها"، قال جاد بصوتٍ أصبح خشناً. ثم انصرَف وسار ببطء في الرِواق مطأطئاً رأسه.

انتقل لويس إلى الزاوية اليسرى الخلفية للتابوت الرمادي الداكن الذي اختاره جاد لزوجته. أمسَك مقبضه وأخرجَ أربعتهم تابوت نورما ببطء إلى برد فبراير. كان أحدهم – وصيّ دار العبادة، افترَض – قد نثر طبقةً جيدةً من الرماد فوق المسار الزلق ذي الثلج المرصوص. وعند حافة الرصيف، كانت عربة نقل الموتى الكاديلاك تنتظرهم وعادمها

ينفث دخاناً أبيض في هواء الشتاء. والحانوتيّ وإبنه الضخم يقفان بجانبها، يراقبانهم، وجاهزان لمد يد العون إذا انزلق أحدهم (أخوها، ربما) أو أشار لهما.

وقف جاد بجانبه وراح يراقب التابوت ينزلق داخل العربة.

"وداعاً يا نورما"، قال وأشعَل سيجارة. "سأراك بعد فترة، يا عزيزتي".

وضع لويس ذراعه حول كتفَي جاد، ووَقَف أخ نورما قربه من الجانب الآخر، حاجباً الحانوتيّ وإبنه في الخلف. وكان إبنا الأخ (أو النسيبان من الدرجة الثانية، أو مهما كانت صفتهما) القويا البنية قد هربا من قبل، بعد أن أدّيا مهمتهما البسيطة بالرفع والحمل. لقد كبُرا بعيدَين عن هذا الجزء من العائلة؛ ولا يعرفان وجه المرأة إلا من الصور الفوتوغرافية وبعض زيارات الواجب القليلة ربما - فترات بعد ظهر طويلة أمضياها في قاعة الاستقبال يأكلان كعكات نورما ويشربان شراب شعير جاد، وربما لا يتذكّران حقاً القصص القديمة للأوقات التي لم يعيشاها والأشخاص الذين لم يعرفاهم، لكنهما يُدركان الأشياء التي كان بإمكانهما فعلها في ذلك الوقت (سيارة يمكن غسلها وتلميعها، حصة تمرين على بولينغ الدوري، وربما مجرد الجلوس أمام التلفزيون ومشاهدة مباراة ملاكمة مع بعض الأصدقاء)، ويشعران بالسرور من الانصراف بعد انتهاء هذا الواجب.

بالنسبة لهما، كان جزء جاد من العائلة في الماضي الآن؛ كان أشبه بكويكب متآكل انجرف بعيداً عن الكتلة الرئيسية، وبدأ يتضاءل، ولم يعد أكثر من بقعة في الفضاء. الماضي. صور في ألبوم. قصص قديمة تُروى في غُرف ربما بدت حارة جداً لهما - لم يكونا عجوزَين؛ لم يكن هناك التهاب في مفاصلهما؛ ولم يرقّ دمهما. كان الماضي

مقابض يجب إمساكها وحملها ثم إفلاتها لاحقاً. في النهاية، إذا كان الجسم البشري مغلفاً للروح البشرية خلال حياتها على الأرض، فالتابوت مجرد مغلف للجسم البشري، وبالنسبة لهذين النسيبَين الضخمين اليافعين، كان الماضي مجرد رسالة ميتة يجب حفظها في الأرشيف.

وأسفاه على الماضي، فكَّر لويس في سرّه، وارتعَش لا لسبب وجيه – ما عدا لذلك اليوم الذي سيأتي ويصبح فيه غريباً عن لحمه ودمه، أولاد أخيه، أحفاده إذا أنجبت إيليه أو غايدج وعاش ليراهم. ينتقل التركيز إلى مكان آخر. تضمحل خطوط العائلة. وجوه يافعة تنظر إلى صور فوتوغرافية قديمة.

وأسفاه على الماضي، فكّر في سرّه مرة أخرى، وشدّ قبضته حول كتفَي العجوز.

وضعَ الحُجّاب الزهور في الجهة الخلفية لعربة نقل الموتى. وارتفع زجاج النافذة الخلفية الكهربائي للعربة إلى الحد الأقصى ودخلَ في فتحته. عاد لويس إلى حيث كانت إبنته، وسارا إلى سيارة الستايشن معاً، وهو يُمسك ذراعها لكي لا تنزلق في حذائها الجيد ذي النعل الجلديّ. بدأت محرّكات السيارات تشتغل.

"لماذا يُضيئون أضواء سياراتهم يا بابا؟"، سألت إيليه ببعض التعجّب. "لماذا يُضيئون أضواء سياراتهم في وسط النهار؟".

"يفعلون هذا"، بدأ لويس يقول وسمِع الغلاظة في صوته، "احتراماً للميت يا إيليه". وسحب المسكة التي تُشعِل الأضواء الأمامية لسيارته السيفيك. "هيا بنا".

كانا يعودان إلى المنزل أخيراً، بعد انتهاء المراسم عند القبر

(أُجريت في الواقع في المعبد الصغير لمقبرة جبل الأمل؛ لن يُحفَر قبرٌ لنورما قبل الربيع)، عندما أجهشت إيليه بالبكاء فجأة.

ألقى لويس نظرة سريعة عليها، متفاجئاً لكن ليس قلقاً. "ما الأمر يا إيليه؟".

"لا كعكات بعد الآن"، شهِقت إيليه. "كانت تُعدّ أطيب كعكات دقيق الشوفان التي أكلتُها في حياتي. لكنها لن تُعدّها بعد الآن لأنها *ماتت*. بابا، لماذا على الناس أن يموتوا؟".

"لا أعرف حقاً"، قال لويس. "أظن لتوفير مكان لكل الناس الجدد. الناس الصغار مثلك ومثل أخيك غايدج".

"لن أتزوج أبداً أو أُنجب أطفالاً!"، صرَّحت إيليه وهي تبكي بقوة أكبر من أي وقت مضى. "وعندها ربما لن يحدث لي هذا أبداً! هذا *مريع*! هذا *د-د-دنيء*!".

"لكنه نهاية للمعاناة"، قال لويس بهدوء. "وبصفتي طبيباً فأنا أرى الكثير من المعاناة. أحد الأسباب التي جعلتني أريد الوظيفة في الجامعة هو لأنني سئمتُ من رؤيتها يوماً بعد يوم. يتعرَّض الشباب في كثير من الأحيان للألم... لألم سيئ، حتى... لكن هذا لا يُقارَن بالمعاناة".

صمتَ قليلاً.

"صدّقي أو لا تصدّقي يا حبيبتي، عندما يكبُر الأشخاص في السنّ كثيراً، لا يبدو الموت سيئاً أو مخيفاً كثيراً مثلما يبدو لك. ولا تزال السنوات عديدة أمامك".

بكت إيليه، ثم شخرت، وتوقَفت. قبل أن يصلا إلى المنزل، سألته إن كان يمكنها تشغيل الراديو. قال لويس نعم، ووجَدت شايكن ستيفنز يغني "هذا المنزل القديم" على محطة WACZ. وسرعان ما راحت تغنّي معه. عندما وصلا إلى المنزل، ذهَبت إلى أمها وأخبرتها عن الجنازة؛

يُحسَب لرايتشل أنها استمَعت لها بهدوء، بودّ، وتعاطف... رغم أن لويس شَعَر أنها بدت شاحبة وشاردة الذهن.

ثم سألتها إيليه إن كانت تعرف كيفية صنع كعكات دقيق الشوفان، فوضَعت رايتشل قطعة الحياكة التي كانت تعمل عليها من يدها ونهضت حالاً، كما لو أنها كانت تنتظر هذا أو شيئاً مماثلاً. "نعم"، قالت. "هل تريدين أن نصنع بعضاً منها؟".

"أجل!"، صرَخت إيليه. "هل يمكننا حقاً يا ماما؟".

"يمكننا إذا وافق أبوك على الاعتناء بغايدج لساعة".

"سأعتني به"، قال لويس. "بكل سرور".

أمضى لويس المساء في قراءة مقال طويل في مجلة ديوكاين الطبية وتدوين ملاحظات عنه؛ لقد بدأت المناظرة القديمة بخصوص الغُرَز الجراحية مرة أخرى. في العالم الصغير لأولئك البشر القلائل نسبياً على كوكب الأرض القلقين من خياطة الجروح الطفيفة، يبدو أنها لن تنتهي مثل ذلك النقاش النفسي القديم، الطبيعة مقابل الرعاية.

كان ينوي كتابة رسالة مخالِفة هذه الليلة، ليبرهن أن آراء الكاتب الرئيسية خادعة، وأمثلة عن الحالات التي قدَّمها تخدم مصالحه الذاتية، وبحثه غير متقن جنائياً تقريباً. باختصار، كان لويس يتطلّع - بروح دعابة عالية - ليخفي ذلك الغبي الأحمق عن وجه الأرض. كان يبحث في خزانة الكتب في مكتبه عن نسخته من كتاب تراوتمان "معالجة الجروح" عندما وقفت رايتشل في منتصف السلالم.

"هل ستصعد يا لُو؟".

"بعد قليل". ألقى نظرة سريعة عليها. "كل شيء على ما يرام؟".

"كلاهما نائم نوماً عميقاً".

نظَرَ لويس إليها عن كثب. "كلاهما، أجل. وأنتِ لا".

"أنا بخير. كنتُ أقرأ".

"أنتِ بخير؟ حقاً؟".

"نعم"، قالت وابتسمت. "أحبك يا لويس".

"أحبّك أيضاً يا حبيبتي". ألقى نظرة سريعة على خزانة الكتب، ووجد تراوتمان، تماماً حيث يضعه دائماً. وَضَع لويس يده على الكتاب.

"أحضَر تشرش جرذاً إلى المنزل بينما كنتَ وإيليه غائبَين"، قالت وحاولت أن تبتسم. "مقرف، يا لها من فوضى".

"يا للهول يا رايتشل، آسف". أمَل ألا يكون صوته قد بدا مذنباً مثلما شَعَر في تلك اللحظة. "هل كان الأمر سيئاً؟".

جلَست رايتشل على الدرجات. بدت طفلةً في قميص نومها الزهري، ووجهها المنظَّف من الماكياج وجبهتها اللامعة، وشعرها المربوط في ذيل حصان قصير بحزام مطاطي. "تدبّرتُ المسألة"، قالت، "لكن هل تعرف أنني اضطررتُ إلى طرد ذلك القط المغفَّل عبر الباب بواسطة عصا المكنسة الكهربائية قبل أن يتوقف عن حماية... الجثة؟ لقد زمجر عليَّ. تشرش لم يزمجر عليَّ أبداً من قبل. بدا مختلفاً مؤخراً. هل تعتقد أنه ربما مُصاب بحمّى الكلاب أو شيء مماثل يا لويس؟".

"لا"، قال لويس ببطء، "لكنني سآخذه إلى الطبيب البيطري، إذا كنتِ تريدين".

"لا بأس"، قالت ثم نظَرَت إليه وكأنها تعرّيه. "لكن هل ستصعد؟ أنا فقط... أعرف أنك تعمل، لكن..."

"بالطبع"، قال، ونهض كما لو أنه لم يكن شيئاً مهماً أبداً. ولم يكن شيئاً مهماً حقاً – ما عدا أنه عرَف الآن أن الرسالة لن تُكتَب أبداً، لأن للحياة طريقة في مواصلة مجرياتها، وغداً ستُحضر له شيئاً

جديداً. لكنه اشترى ذلك الجرذ، أليس كذلك؟ الجرذ الذي أحضَره تشرش، معلّقاً بالتأكيد بأشرطة دموية، وأمعاؤه ناتئة منه، ورأسه ربما غير موجود. نعم. لقد اشتراه. كان جرذه.

"هيا بنا ننام"، قال وأطفأ الأضواء. صعد ورايتشل السلالم معاً. وَضَع لويس ذراعه حول خصرها وأحبّها بأقصى ما يمكنه... لكن حتى عندما دخل فيها، بقوة وصلابة، كان يستمع إلى نحيب الشتاء خارج النوافذ المثلجة، ويتساءل أين تشرش، القط الذي كان مُلك إبنته والآن أصبح مُلكه، وماذا يطارد أو يقتل. *تربة قلب الرجل حجرية أكثر*، فكّر في سرّه، وغنّت الرياح أغنيتها السوداء المرّة، وعلى بُعد كيلومترات غير عديدة، كانت نورما كراندال، التي حاكت ذات يوم قبعتين متطابقتين لإبنته وإبنه، ممدَّدة في تابوتها الرمادي الداكن على لوح حجري في سرداب جبل الأمل؛ وستكون قِطع القطن البيضاء التي استخدمها الحانوتيّ ليحشو بها خدّيها قد أصبحت سوداء الآن.

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل 34

أصبحت إيليه في السادسة. عادت إلى المنزل من روضة الأطفال في ذكرى ولادتها وهي ترتدي قبعة ورقية مائلة على رأسها، ومعها عدة صور عنها رسمها أصدقاؤها (في أفضلها، تشبه إيليه فزّاعةً ودودةً)، وقصص مُهلِكة عن ضرب الأرداف في فناء المدرسة خلال فترة الاستراحة. مرَّ وباء الإنفلونزا. واضطروا إلى إرسال طالبَين إلى مركز ماين الشرقية الطبي في بانغور، وأنقذ سورندرا هاردو على الأرجح حياة طالب سنة أولى مريض على نحو يُرثى له يحمل إسماً فظيعاً هو بيتر همبرتون، تقيأ بينما كان مستلقياً على ظهره على سريره في المشفى وكاد يختنق. وطوَّرت رايتشل افتتاناً طفيفاً بفتى توضيب المشتريات في أكياس في السوبرماركت وكانت تحكي للويس بذهول خلال الليل عن مدى الاكتظاظ في سرواله الجينز. "إنه مجرد ورق مرحاض على الأرجح"، أضافت. "اضغطيه أحياناً"، اقترَح لويس. "إذا صرخ، لا يكون ورق مرحاض على الأرجح". ضحِكت رايتشل إلى أن أدمعت. مرَّ الموسم القصير الأزرق ذو درجة الحرارة تحت الصفر في فبراير، وحلَّت محله أمطار متناوبة وصقيع في مارس، وحُفر، وتلك اللافتات البرتقالية التي بجانب الطريق التي تقدِّم إجلالاً للمطبات. الحزن المباشر، الشخصي، والأكثر عذاباً لجاد كراندال مرَّ، ذلك الحزن الذي يقول الأطباء النفسيون إنه يبدأ بعد حوالي ثلاثة أيام من وفاة حبيب ويستمر بقوة من أربعة إلى ستة أسابيع في معظم الحالات – مثل تلك الفترة الزمنية التي يسمّيها سكان نيو إنغلند أحياناً "شتاء عميق". لكن الوقت يمرّ، والوقت يلحِّم إحدى حالات المشاعر البشرية بحالة أخرى إلى أن تصبحان شيئاً يشبه قوس قزح. الحزن القوي يصبح حزناً ناعماً ناضجاً

أكثر؛ والحزن الناضج يصبح حداداً؛ والحداد أخيراً يصبح ذكرى - وهذه عملية قد تستغرق من ستة أشهر إلى ثلاث سنوات وستظل تُعتبر عادية. حلَّ يوم قصّ شعر غايدج لأول مرة ومرَّ، وعندما رأى لويس شعر إبنه ينمو داكناً أكثر، مزحَ بشأنه وقام بحداده الخاص - لكن فقط في قلبه.

حلَّ الربيع، وبقي لبرهة.

الفصل 35

بات لويس كريد مقتنعاً أن آخر يوم سعيد حقاً في حياته كان 24 مارس 1984. فالأشياء التي تلته، المتأهِّبة فوقه مثل وزنٍ مقابلٍ قاتلٍ، كانت لا تزال تبعد أكثر من سبعة أسابيع في المستقبل، لكن عند فحصه تلك الأسابيع السبعة، لم يجد أي شيء يبرز بنفس اللون. افترَض أنه حتى ولو لم يحصل أيٌّ من تلك الأشياء الفظيعة، فإنه كان سيتذكَّر اليوم إلى الأبد. وقال لنفسه إن الأيام التي تبدو جيدة بحقّ – جيدة بالكامل – نادرة كفاية على أي حال. قد يكون مجموع الأيام الجيدة حقاً أقل من شهر في حياة أي رجل عادي في أفضل الظروف. وبدأ لويس يشعر أن توزيع الألم بين الناس يتم بكرم أكبر بكثير.

ذلك اليوم كان يوم سبت، وكان في المنزل يعتني بغايدج بعد الظهر بينما ذهبت رايتشل وإيليه لشراء البقالة. ذهبتا مع جاد في شاحنته IH القديمة الصاحبة موديل 1959 ليس لأن السيفيك معطّلة بل لأن العجوز كان يحبّ رفقتهما بحقّ. سألت رايتشل لويس إن كان لا يمانع من الاعتناء بغايدج، وأخبرَها أنه لا يمانع بالتأكيد. كان مسروراً من رؤيتها تخرج؛ بعد شتاءٍ في ماين، معظمه في لادلو، اعتبر أنها تحتاج إلى كل الخروج الذي يمكنها الحصول عليه. كانت لطيفة جداً بشأن ذلك، لكنها بدت له مضطربة قليلاً.

استيقظ غايدج من قيلولته حوالي الساعة الثانية، معكَّر المزاج. اكتشَف سنّ السنتين الفظيع واستغلّه إلى أقصى الحدود. لجأ لويس إلى عدة مناورات غير ناجعة لكي يسلّي الولد، وقد رفضها غايدج كلها. ولجعل المسائل أسوأ، كانت لدى الولد الحقير حركة أمعاء هائلة، ونوعيتها الفنية لم تُزد من إعجاب لويس عندما رأى بِلية زرقاء تجلس

في وسطها. كانت إحدى بِليات إيليه، وكان بإمكانها أن تخنق الولد. فقرَّر إن البِليات يجب أن تختفي – فكل شيء يضع غايدج يده عليه يذهب إلى فمه مباشرة – لكن رغم أن هذا القرار جدير بالثناء بلا شك، إلا أنه لم يساعد أبداً في تسلية الولد إلى حين عودة أمه.

استمَع لويس إلى رياح أوائل الربيع تهبّ حول المنزل، مرسلةً أضواء وامضة كبيرة وظلالاً على حقل جارتهم السيدة ڤينتون، وتذكَّر فجأة طائرة النسر التي اشتراها خلال نزوة قبل خمسة أو ستة أسابيع، خلال عودته من الجامعة. هل اشترى خيوطاً أيضاً؟ بالتأكيد!

"غايدج!"، قال. وجَد غايدج قلم كرايولا أخضر تحت الأريكة وكان يخربش حالياً على أحد كتب إيليه المفضَّلة – شيء آخر سيغذّي نار التنافس بين الأخوين، فكَّر لويس في سرّه وكشَّر. إذا حنقت إيليه حقاً بشأن الخربشات التي تمكَّن غايدج من وضعها على *أين هي الأشياء المتوحشة* قبل أن يتمكّن لويس من إبعاده عنه، فإن لويس سيذكر فقط الكنز الفريد الذي كشَفه في حفاض غايدج.

"ماذا!"، أجاب غايدج بذكاء. كان يتكلَّم جيداً جداً الآن؛ قرَّر لويس أن الولد قد يكون نصف ذكي في الواقع.

"هل تريد الخروج؟".

"أريد الخروج!"، وافَق غايدج بحماسة. "أريد الخروج. أين فذائي يا بابا؟".

هذه الجملة، إذا أُعيد إنتاجها لفظياً بالكامل، ستكون ترجمتها الصحيحة هي *أين حذائي الرياضي يا بابا؟* كان لويس يتفاجأ في أغلب الأحيان من كلام غايدج، ليس لأنه جذاب، بل لأنه يعتبر أن كل الأولاد الصغار يبدون كأنهم مهاجِرين يتعلّمون لغة أجنبية بطريقة عشوائية لكن لطيفة نوعاً ما. كان يعرف أن الأطفال يُصدرون *كل*

الأصوات التي تستطيع الحنجرة البشرية إصدارها... الزغردة الصوتية الرخيمة التي تكون صعبة جداً على طلاب الفرنسية في سنتهم الأولى، النخرات والطقطقات المزماريّة لشعوب الأدغال الأستراليين، الأحرف الساكنة السميكة المفاجئة في الألمانية. لكنهم يخسرون قدرتهم كلما تعلَّموا الإنكليزية، وتساءل لويس الآن (وهذه ليست المرة الأولى) إن لم تكن الطفولة مجرد فترة نسيان أكثر مما هي فترة تعلّم.

عُثر على فذاء غايدج أخيراً... كان تحت الأريكة أيضاً. أحد معتقدات لويس الأخرى هو أنه في العائلات التي تضم أولاداً صغاراً، تبدأ المنطقة تحت أرائك غرفة الجلوس بعد حين بتطوير قوة كهرومغنطيسية قوية وغامضة تمتصّ في نهاية المطاف كافة أصناف النفايات - كل شيء من زجاجات الرضاعة ودبابيس حفاضات الأطفال إلى أقلام كرايولا الخضراء وأعداد قديمة من مجلة *شارع السمسم* مع طعام متناثر بين الصفحات.

لكن سترة غايدج لم تكن تحت الأريكة - كانت في منتصف السلالم. وإيجاد قبعته لفريق ريد سوكس، والتي رفَض غايدج مغادرة المنزل من دونها، كان الأصعب بين الكل لأنها كانت حيث يجب أن تكون - في الخزانة. فذلك المكان كان، بالطبع، آخر مكان بحثا فيه.

"أين ذاهبون يا بابا؟"، سأل غايدج بشكل أنيس، وهو يعطي أباه يده ليُمسكها.

"إلى حقل السيدة ڤينتون"، قال. "سنطيِّر طائرة ورقية يا رجلي".

"ورققية؟"، سأل غايدج بارتياب.

"ستعجبك"، قال لويس. "مهلاً لحظة يا صغيري".

كانا في المرأب الآن. وجَد لويس حمّالة مفاتيحه، وفتح خزانة التخزين الصغيرة، وأشعل الضوء. فتَّش في الخزانة وعثر على طائرة

النسر، لا تزال في كيس المتجر والفاتورة مدبَّسة بها. لقد اشتراها في منتصف فبراير، عندما تضرَّعت نفسه لبعض الأمل.

"ما؟"، سأل غايدج. هذه كانت طريقة غايدج ليقول *أي شيء معك هنا يا بابا؟*

"إنها الطائرة الورقية"، قال لويس وأخرجها من الكيس. راقَب غايدج باهتمام بينما فتح لويس النسر، فانتشرت أجنحتها فوق حوالي متر ونصف من البلاستيك الصلب. راحت عيناه المنتفختان الحمراوان كالدم تحدِّقان من رأسه الصغير فوق عنقه الزهري العاري الهزيل.

"تائر!"، صاح غايدج. "تائر يا بابا! لدينا تائر!".

"أجل، إنه طائر"، وافَق لويس وهو يُزلق العُصي في جيوبها في الجهة الخلفية للطائرة الورقية ويفتِّش مرة أخرى عن المئة وخمسين متراً من خيوط الطائرة الورقية التي اشتراها في اليوم نفسه. اِلتفَت إلى الوراء فوق كتفه وكرَّر لغايدج: "ستعجبك هذه أيها الشاب الكبير".

أعجَبته لغايدج.

أخذا الطائرة الورقية إلى حقل السيدة ڤينتون وطيّرها لويس في سماء أواخر مارس العاصِفة من المحاولة الأولى، رغم أنه لم يطيِّر طائرةً ورقيةً منذ أن كان... كم؟ في الثانية عشرة من عمره؟ منذ ثلاث وعشرين سنة؟ يا إلهي، هذا رهيب.

كانت السيدة ڤينتون امرأة بعمر جاد تقريباً، لكنها أضعف منه بكثير. تعيش في منزل من القرميد في أعلى حقلها (ما أصبح يسمّى حقل ڤينتون منذ زمن طويل، حسبما أخبرَ جاد لويس مرةً)، لكنها نادراً ما تظهر الآن. ينتهي الحقل خلف المنزل وتبدأ الغابة – الغابة التي تؤدّي إلى مقبرة الحيوانات أولاً ثم إلى مقبرة الميكماك بعدها.

"الطائرة الورقية تتير يا بابا!"، صَرَخ غايدج.

"أجل، انظر إليها تحلّق!"، ردَّ عليه لويس ضاحكاً ومتحمِّساً. أرخى حبل الطائرة الورقية بسرعة كبيرة فارتفعت حرارته وحرقَ خيطاً رفيعاً على راحة يده. "انظر إلى هذه الطائرة النسر يا غايدج! ستهزم الرياح شرّ هزيمة!".

"شرّ هزيمة!"، صاح غايدج وضحِك، بصوتٍ عالٍ فرِحٍ. أبحَرت الشمس من خلف سحابة ربيع رمادية سميكة، وبدا أن الحرارة ارتفعت حوالي خمس درجات فوراً. وَقَفا في الدفء الساطع غير الجدير بالثقة لشهر مارس الذي يجهد لكي يصبح شهر أبريل على العشب الميت المرتفع لحقل السيدة ڤينتون؛ حلَّقت الطائرة النسر عالياً فوقهما نحو السماء الزرقاء، ناشرةً أجنحتها البلاستيكية المشدودة في ذلك التيار الهوائي الهادئ، إلى أعلى أكثر، ومثلما فعل عندما كان فتىً، شَعَر لويس بنفسه يرتفع إليها، يدخلها، يحدِّق نزولاً إلى العالم الذي أخذ شكله الفعلي، إلى العالم الذي لا شك أن رسامي الخرائط يرونه في أحلامهم؛ حقل السيدة ڤينتون، الأبيض والساكن مثل بيوت عناكب تلاحق انسحاب الثلج، ليس مجرد حقل الآن بل متوازي أضلاع كبير محاط بجدران صخرية على جهتَين من جهاته، ثم الطريق في الأسفل، درزة سوداء مستقيمة، ووادي النهر - رأت الطائرة النسر كل ذلك بعينيها المحلّقتين الحمراوين كالدم. رأت النهر كحزام رمادي بارد من الفولاذ، لا تزال قِطع من الجليد تعوم فيه؛ وعلى الجهة الأخرى رأت هامبدن، نيوبورغ، وينتربورت، مع سفينةٍ في المرسى؛ وربما رأت مطحنة سانت ريجيس في باكسبورت تحت سحابة دخانها العابق بالبخار، أو حتى طرف الأرض نفسها، حيث يلطم الأطلسي الصخرة العارية بقوة.

"انظر إليها تذهب يا غايدج!"، صاح لويس، ضاحكاً.

كان غايدج يميل كثيراً إلى الخلف لدرجة أنه أصبح في خطر السقوط. وغطّت ابتسامة كبيرة وجهه. كان يلوِّح للطائرة الورقية.

شَعَر لويس ببعض التراخي في الحبل فقال لغايدج أن يمدّ إحدى يديه. فعل غايدج ذلك، دون حتى أن ينظر حوله. لم يستطع إبعاد عينيه عن الطائرة الورقية، التي كانت تلوح وترقص في الرياح وتسابق ظلها ذهاباً وإياباً على الحقل.

لفَّ لويس حبل الطائرة الورقية مرتين حول يد غايدج الذي أخفض نظره الآن، مندهشاً بشكل هزلي من الشدّ القوي.

"ما!"، قال.

"أنتَ تطيّرها"، قال لويس. "المطرقة معك يا ريّس. إنها طائرتك الورقية".

"غايدج يتيّرها؟"، قال غايدج، كما لو أنه لا يسأل أبيه بل نفسه لتأكيد ذلك. سحَب الحبل اختبارياً؛ وأومأت الطائرة الورقية برأسها في السماء العاصفة. شدَّ غايدج الحبل أكثر، فانقضَّت الطائرة الورقية. ضحِك لويس وإبنه معاً. مدَّ غايدج يده الحرة متلمّساً، فأمسكها لويس بيده. وَقَفا معاً بهذه الطريقة في وسط حقل السيدة ڤينتون، ينظران إلى الطائرة النسر في السماء.

كانت لحظة مع إبنه لم ينسها لويس أبداً. مثلما ارتفع ودخلَ الطائرة الورقية عندما كان فتىً، شَعَر الآن بنفسه يدخل غايدج، إبنه. شَعَر بنفسه ينكمش إلى أن أصبح داخل منزل غايدج الصغير جداً، ينظر من النافذتين اللتين كانتا عينيه - ينظر إلى عالمٍ ضخمٍ وساطعٍ جداً، عالمٍ حجم حقل السيدة ڤينتون فيه يوازي حجم مسطحات ملح بونڤيل تقريباً، حيث تحلّق الطائرة الورقية على ارتفاع كيلومترات فوقه، والخيط يقرع في قبضته مثل شيء حيّ بينما الرياح تهبّ من حوله،

تبعثر له شعره.

"الطائرة الورقية تتير!"، صرَخ غايدج لأبيه، ووَضَع لويس ذراعه حول كتفَي غايدج وقبّل خده، الذي أزهَرت عليه الرياح وردةً بريةً.

"أحبّك يا غايدج"، قال - كان هذا بينهما، ولا بأس بذلك.

وغايدج، الذي كان لديه الآن أقل من شهرين ليعيش، ضحِك بصوتٍ حادٍ فرِحٍ. "*الطائرة الورقية تتير! الطائرة الورقية تتير يا بابا!*".

كانا لا يزالان يطيّران الطائرة الورقية عندما عادت رايتشل وإيليه إلى المنزل. كانا قد رفعاها عالياً جداً لدرجة أن الخيط كاد ينفد لديهما ووجه الطائرة النسر يختفي؛ لم تعد سوى صورة ظليّة سوداء صغيرة في السماء.

كان لويس مسروراً من رؤيتهما، وزأر ضاحكاً عندما أفلَتت إيليه الخيط للحظة وراحت تطارده في العشب، والتقطته قبل أن تستسلم البكرة المتدحرجة ويتحرّر طرف الخيط منها. لكن وجودهما معه غيَّر الأشياء قليلاً أيضاً، ولم يتذمّر كثيراً من الدخول عندما قالت رايتشل بعد عشرين دقيقة إنها تعتقد أن غايدج نال ما يكفي من الرياح. كانت تخشى أن يُصاب بنزلة برد.

لذا سُحبَت الطائرة الورقية نزولاً، وهي تحارب للبقاء في السماء مع كل لفّة للحبل، ثم استسلمت أخيراً. حشرها لويس، بأجنحتها السوداء، وعينيها الحمراوين كالدم، وكل شيء، تحت ذراعه وسجنها في خزانة التخزين مرة أخرى. تلك الليلة تناول غايدج عشاءً ضخماً من النقانق والحبوب، وبينما كانت رايتشل تُلبسه بيجامته ليخلد إلى النوم، أخذ لويس إيليه جانباً وأجرى معها حواراً من القلب إلى القلب عن تركها البِليات مرمية هنا وهناك. في ظروف أخرى، كان لينتهي به

المطاف أن يصرخ عليها، لأن بإمكان إيليه أن تصبح متغطرسة جداً - وحتى مهينة - عندما تُتَّهم بارتكاب خطأ ما. كانت هذه طريقتها بالتعامل مع الانتقاد، لكن ذلك لم يمنع لويس من أن يغتاظ عندما تتملَّقه كثيراً أو عندما يكون مُتعَباً جداً. لكن تطيير الطائرة الورقية هذه الليلة تركه في مزاج جيد، وكانت إيليه ميّالة إلى العقلانية. وافَقت على أن تكون يقظة أكثر، ثم نزلت إلى الطابق السفلي لتشاهد التلفزيون حتى الساعة 8:30، وهذا دلال خاص بأيام السبت عزيز على قلبها. *حسناً، هذا موضوع انتهينا منه، وحتى قد ينفعنا*، فكَّر لويس في سرّه، دون أن يعرف أن البِليات ليست المشكلة حقاً، وأن نزلات البرد ليست المشكلة حقاً، وأن شاحنة أورينكو كبيرةً ستكون المشكلة، أن الطريق سيكون المشكلة... مثلما حذَّرهم جاد كراندال في يومهم الأول هنا في أغسطس الفائت.

صعد إلى الطابق العلوي تلك الليلة بعد حوالي خمس عشرة دقيقة من إيواء غايدج إلى السرير. وجَد إبنه هادئاً لكن لا يزال مستيقظاً، يشرب آخر ما بقي من زجاجة حليبه ويتأمل السقف.

أمسك لويس إحدى قدمَي غايدج بيده ورفعها. قبَّلها، ثم أخفضها. "تصبح على خير يا غايدج"، قال.

"الطائرة الورقية تتير يا بابا"، قال غايدج.

"طارت حقاً، أليس كذلك؟"، قال لويس، وشَعَر بعينيه تغرورقان بدون أي سبب. "حتى السماء يا ريّس".

"الطائرة الورقية تتير"، قال غايدج. "حتى الثماء".

استدار على جنبه، وأغمض عينيه، وغفا. هكذا بكل بساطة.

بدأ لويس يخرج إلى الردهة عندما ألقى نظرة سريعة إلى الخلف

ورأى عينين صفراوين خضراوين بلا جسد تحدِّقان فيه من خزانة غايدج. كان باب الخزانة مفتوحاً... بمقدار طفيف فقط. قفز قلبه إلى حنجرته، وانخفض فمه في تكشيرة.

فتَح باب الخزانة وهو يفكِّر في سرّه

(زيلدا إنها زيلدا في الخزانة لسانها الأسود منتفخ بين شفتيها)

لم يكن متأكداً، لكنه تشرش بالطبع، كان القط في الخزانة، وعندما رأى لويس، حدَّب ظهره مثل قط على بطاقة هالووين. هسهَس عليه، فاتحاً فمه جزئياً، وكاشفاً عن أسنانه الحادّة جداً.

"اخرج من هنا"، همَس لويس.

هسهَس تشرش مرة أخرى. لم يتحرَّك.

"قلتُ لك اخرج". رَفَع أول شيء وصلت إليه يده بين ألعاب غايدج، وكان قطاراً بلاستيكياً ساطعاً بدا في هذا الضوء الخافت باللون الكستنائي للدم الجاف. لوَّح به مهدداً تشرش، الذي بقي واقفاً لا يتزحزح لكنه هسهَس مرة أخرى.

فجأة، ومن دون حتى أن يفكِّر، رمى لويس اللعبة على القط، ليس بقصد أن يلعب معه، ليس بقصد أن يتسلى معه؛ رماها عليه بأقوى ما يستطيع، حانقاً، وخائفاً أيضاً، من اختبائه هنا في الخزانة المظلمة لغرفة إبنه ورفضه الخروج منها، كما لو أن لديه الحق ليتواجد هناك.

أصاب القطار القط إصابةً مباشرةً. زعقَ تشرش وفرّ، مُظهِراً كياسته الاعتيادية عبر ارتطامه بالباب وكاد يسقط في طريقه للخروج.

تحرَّك غايدج على سريره، وتمتم شيئاً، وعدَّل طريقة تمدّده، ثم هدأ من جديد. شعَر لويس ببعض الاشمئزاز. بدأت نقاط العرق تظهر على جبهته.

"لويس؟"، صاحت رايتشل بنبرة قلق من الطابق السفلي. "هل سقط غايدج عن مَهده؟".

"إنه بخير يا حبيبتي. أوقَعَ تشرش بعض ألعابه".

"آه، حسناً".

شَعَر - بغير عقلانية أو شيء من هذا القبيل - بالشعور المماثل الذي كان سيشعر به لو نظَرَ إلى إبنه ووجد أفعى تزحف عليه أو جرذاً كبيراً يجثم على رف الكتب فوق مَهده. *بالطبع* هذا شعور غير عقلاني. لكن عندما هسهَس عليه من الخزانة بتلك الطريقة...

(زيلدا هل اعتقدتَ أنها زيلدا هل اعتقدتَ أنه أوز الكبيل واللهيب؟)

أغلَق باب خزانة غايدج، وتركه يدفع عدداً من الألعاب إلى داخلها بحركته. استمَع إلى النقرة الخافتة للمزلاج. بعد لحظة أخرى من التردّد، أدار قفل الخزانة اليدوي.

عاد إلى مَهد غايدج. بتشقلبه، ركلَ الولد بطانيتيه نزولاً حتى مستوى رُكبتَيه. حرَّرهما لويس، وسحَبهما إلى أعلى، ثم وَقَف هناك، يراقب إبنه، لوقت طويل.

الجزء الثاني

مقبرة الميكماك

الفصل 36

من الخطأ على الأرجح الاعتقاد أنه يمكن أن يكون هناك أي حدّ للرعب الذي يمكن أن يعاني منه الذهن البشري. على العكس تماماً، يبدو أن بعض التأثير يبدأ بالتضاعف أكثر فأكثر مع حلول الظلام - رغم عدم رغبتنا الكبيرة في الإقرار بذلك، إلا أن الخبرة البشرية تميل، بطرق عديدة، إلى دعم فكرة أنه عندما يُظلِم الكابوس كفاية، فإن الرعب يفرِّخ رعباً، وأن ذلك الشر العَرَضي يلِد شروراً أخرى، مقصودة أكثر في أغلب الأحيان، إلى أن يبدو السواد أخيراً وقد غطى كل شيء. وأكثر سؤال مُرعِب بين كل الأسئلة قد يكون فقط عن مقدار الرعب الذي يستطيع الذهن البشري تحمّله ويبقى محافظاً على سلامته ويقظته. غني عن القول تقريباً إن لهكذا أحداث سخافةً خاصةً بها من طراز رُوب غولدبرغ. ثم يبدأ كل شيء يصبح مضحكاً في مرحلة من المراحل. قد تكون هذه هي النقطة التي تبدأ عندها سلامة العقل إما بإنقاذ نفسها أو بالتقوقع والانهيار؛ تلك النقطة التي تبدأ عندها فكاهة المرء تطفو على السطح من جديد.

ربما أخفى لويس كريد هكذا أفكار إذا كان يفكِّر بعقلانية بعد جنازة إبنه، غايدج ويليام كريد، في 17 مايو، لكن أي فكرة منطقية - أو محاولة التفكير بعقلانية - توقَّفت عند ردهة دار الدفن، حيث أدّى عراكٌ بالأيدي مع حميه (سيئ كفاية) إلى حدث فظيع أكثر حتى، مشهد أخير من ميلودراما قوطية شنيعة كفاية للقضاء على أي ذرة من ضبط النفس الهشّ الذي كان قد بقي لدى رايتشل. لم تكتمل الأحداث المُرعِبة لذلك اليوم إلا عندما سُحبَت، وهي تصرخ، من الغرفة الشرقية لدار دفن بروكينغز-سميث، حيث كان غايدج ممدَّداً في

تابوته المُغلق، وسَكَّن سورندرا هاردو ألمها في البهو.

سخرية المسألة هي أنها لم تكن لتشهد تلك الحلقة الأخيرة أبداً، ذلك الرعب *المُفرِط*، يمكن القول، لو حصل ذلك العراك بين لويس كريد والسيد إروين غولدمان من ديربورن خلال ساعات الزيارة الصباحية (10 إلى 11:30 صباحاً) وليس خلال ساعات الزيارة بعد الظهر (2 إلى 3:30 مساءً). لم تكن رايتشل حاضرةً في ساعات الزيارة الصباحية؛ فهي لم تكن قادرة على القدوم ببساطة. بل بقيت في المنزل مع جاد كراندال وستيف ماسترتون. لم تكن لدى لويس أي فكرة كيف كان بإمكانه تمضية الساعات الثمانية والأربعين السابقة من دون جاد وستيف.

كان جيداً للويس - جيداً لأفراد العائلة الثلاثة المتبقين - أن ستيف جاء فوراً، لأن لويس كان غير قادر، مؤقتاً على الأقل، على اتخاذ أي نوع من القرارات، حتى قرار بسيط مثل إعطاء زوجته حقنةً لكتم حزنها العميق. حتى إن لويس لم يلاحظ أن رايتشل كانت تنوي على ما يبدو الذهاب إلى فترة المعاينة الصباحية في معطفها المنزلي، الذي أخطأت في ترتيب أزراره. كان شعرها غير ممشَّط، غير مغسول، متشابك ببعضه. وعيناها، مَداران بنّيان فارغان، منتفختان من محجرَين غائرين لدرجة أنهما أصبحتا تقريباً عينَي جمجمة حيّة. كان لحمها شاحباً ومترهّلاً على وجهها. جلَست إلى طاولة الفطور ذلك الصباح، تمضغ خبزاً محمَّصاً غير مدهون بالزبدة وتتكلَّم بجمل مفكَّكة بدت غير منطقية أبداً. وقد قالت فجأة في لحظة من اللحظات، "بشأن ذلك الوينباغو الذي تريد شراءه يا لُو -". كانت آخر مرة تحدّث فيها لويس عن شراء وينباغو في العام 1981.

اكتفى لويس بالإيماء برأسه وأكملَ تناول فطوره. كان يأكل وعاء

رقائق ذرة بالكاكاو، وهي كانت أحد أصناف الحبوب المفضّلة لدى غايدج، وقد أرادها لويس هذا الصباح. كان مذاقها مروِّعاً، لكنه أرادها رغم ذلك. بدا أنيقاً في أفضل بذلة لديه - ليست سوداء، لم يكن يملك بذلة سوداء، لكنها رمادية داكنة على الأقل. وقد حَلَق، واستحمّ، ومشَّط شعره. بدا لائقاً، رغم أنه كان تائهاً من الصدمة.

كانت إيليه ترتدي سروال جينز أزرق وبلوزة صفراء. وقد أحضَرت معها صورةً إلى طاولة الفطور، رفضت أن تتخلّى عنها. كانت الصورة، وهي تكبير لصورة پولارويد التقطتها رايتشل بواسطة الكاميرا SX-70 التي أهداها إياها لويس والولدان في ذكرى ولادتها الأخير، تُظهِر غايدج يبتسم من أعماق معطفه السيرز ويجلس على مزلجتها بينما تجرّه بنفسها. التقَطت رايتشل إيليه وهي تلتفت إلى الوراء من فوق كتفها وتبتسم لغايدج. وكان غايدج يبتسم لها بدوره.

حَمَلت إيليه الصورة، لكنها لم تتكلّم كثيراً. كان كما لو أن وفاة أخيها على الطريق أمام المنزل قد قضت على معظم مفرداتها.

لم يكن لويس قادراً على رؤية حالة زوجته أو إبنته؛ أكَل فطوره وبقي ذهنه يعيد عرض الحادث مراراً وتكراراً، ما عدا أن الخاتمة في هذا الفيلم الذهني كانت مختلفة. كان أسرع في الفيلم الذهني، وكل ما حصل هو تلقّي غايدج صفعةً لعدم توقفه عندما صاحا به.

ستيف هو الذي رأى في الواقع حالة رايتشل وإيليه أيضاً. منَع رايتشل من الذهاب إلى فترة المعاينة الصباحية (رغم أن المعاينة كانت حقاً كلمةً مغلوطةً لأن التابوت مُغلق؛ فلو كان مفتوحاً، فكَّر لويس في سرّه، لركضوا كلهم من الغرفة وهم يصرخون، وأنا ضمنهم) ومنعَ إيليه من الذهاب كلياً. احتجّت رايتشل. وبقيت إيليه جالسةً فقط، صامتةً وكالحةً، ومُمسكةً صورة وغايدج بيدها.

ستيف هو الذي أعطى رايتشل الحقنة التي احتاجت إليها والذي أعطى إيليه ملعقةً صغيرةً من سائل عديم اللون لكي تشربه. كانت إيليه تنتحب عادة وتحتجّ عند تناولها أي نوع من الأدوية، لكنها شرِبت ذلك بصمت ودون أي تكشيرة. عند الساعة العاشرة في ذلك الصباح كانت نائمة في سريرها (وصورتها وغايدج لا تزال في يدها) وكانت رايتشل تجلس أمام التلفزيون تشاهد برنامج *عجلة الحظ*. كانت أجوبتها على أسئلة ستيف بطيئة وهادئة. بدت جامدة كصخرة، لكن وجهها فَقَد نظرة الجنون العميقة التفكير تلك التي أقلقت – وأخافت – مساعد الطبيب عندما دخَل ذلك الصباح عند الثامنة والربع.

جاد، بالطبع، أجرى كل الترتيبات. وقد أجراها بنفس الفعالية الهادئة التي أجرى بها الترتيبات لزوجته قبل ثلاثة أشهر. لكن ستيف ماسترتون هو الذي أخذ لويس جانباً قبل أن يغادر لويس إلى دار الدفن.

"سأحرص على ذهابها إلى هناك بعد ظهر اليوم، إذا بدت قادرةً على تحمّل الأمر"، أخبرَ لويس.

"حسناً".

"سيكون مفعول الحقنة قد زال وقتها. يقول صديقك السيد كراندال إنه سيبقى مع إيليه خلال ساعات المعاينة بعد الظهر –"

"صحيح".

"– ويلعب المونوبولي أو شيء آخر معها –"

"آه".

"لكن –"

"صحيح".

توقَّف ستيف. كانا يقفان في المرأب، مرتع تشرش، المكان الذي

يُحضِر إليه طيوره وجرذانه الميتة. كانت أشعة شمس مايو تغمر الخارج، واندفَع عصفور أبو الحنّاء في الممر الخاص للمنزل، كما لو أن لديه شيئاً مهماً يفعله في مكان ما.

"لويس"، قال ستيف، "عليك أن تتمالك نفسك".

نظَرَ لويس إلى ستيف مستفهماً بتهذيب. فقد استوعب جزءاً بسيطاً فقط مما قاله ستيف - كان يفكّر أنه لو كان أسرع قليلاً لاستطاع على الأرجح إنقاذ حياة إبنه.

"لا أعتقد أنك لاحَظت"، قال ستيف، "لكن إيليه لا تتكلّم. ورايتشل تلقّت صدمة قوية لدرجة أن مفهوم الوقت لديها تشوّه كلياً".

"صحيح!"، قال لويس. بدا ردّه يحمل قوةً أكثر. لم يكن متأكداً من السبب.

وَضَع ستيف يده على كتف لويس. "لُو"، قال، "تحتاجان إليك الآن أكثر من أي وقت مضى في حياتهما. رجاءً يا رجل... يمكنني أن أعطي زوجتك حقنةً، لكن... أنت... يا لويس، عليك أن... آه، يا إلهي، يا لهذه الكارثة الفظيعة اللعينة!".

رأى لويس بشيء من الإنذار أن ستيف على وشك أن يبكي. "بالتأكيد"، قال، وتراءى له غايدج يركض على المَرجة نحو الطريق، وهما يصيحان به ليعود، لكنه لم يعد. كانت اللعبة مؤخراً الهروب من ماما- بابا، ثم يطاردانه، وسرعان ما ابتعد لويس عن رايتشل، لكن غايدج كان متقدماً بمسافة بعيدة، ويضحك، ويركض بعيداً عن أبيه، هذه كانت اللعبة، وكان لويس يقصِّر المسافة لكن ببطء شديد، وأصبح غايدج يركض الآن على المنحدر الخفيف للمَرجة إلى شفير الطريق 15، وتمنّى لويس من كل قلبه أن يتعثّر غايدج ويقع، فهذا ما يحصل *دائماً* عندما يركض الأولاد الصغار بسرعة، لأن المرء لا يسيطر على رِجليه

جيداً حقاً إلى أن يصبح في السابعة أو الثامنة. تمنّى لويس من كل قلبه أن يقع غايدج، أن يقع، نعم، يقع، يدمّي أنفه، يصدِّع جمجمته، يحتاج إلى غُرَز، إلى أي شيء، لأن بإمكانه الآن سماع هدير شاحنة قادمة نحوهم، إحدى تلك الشاحنات الكبيرة ذات العجلات العشرة التي تمرّ ذهاباً وإياباً إلى ما لا نهاية بين بانغور ومصنع أورينكو في باكسبورت، وصَرَخ إسم غايدج عندها، واعتقد أن غايدج سمِعه وحاوَل أن يتوقف. بدا أن غايدج أدرك أن اللعبة انتهت، وأن والدَيك لا *يصرخان* عليك عندما تكون مجرد لعبة، وحاوَل أن يدوس الفرامل، وكان صوت الشاحنة وقتها صاخباً *جداً*، حيث ملأ الدنيا كلها. كان مدوّياً. رمى لويس نفسه إلى الأمام بخطوات كبيرة، وظلّه يتعقّب الأرض تحته مثلما تعقَّب ظلُ الطائرة النسر العشبَ الأبيض لأواخر الشتاء في حقل السيدة ڤينتون ذلك اليوم في مارس، واعتقد (لكن غير أكيد) أن رؤوس أصابعه لمست في الواقع الجهة الخلفية للسترة الخفيفة التي كان غايدج يرتديها، ثم اندفاع غايدج إلى الأمام نقله إلى الطريق، وكانت الشاحنة هي الرعد، كانت الشاحنة هي ضوء الشمس على الكْروم اللامع، كانت الشاحنة هي الزعيق الجهير لبوق هوائيّ، وحصل كل ذلك يوم السبت، منذ ثلاثة أيام.

"أنا بخير"، قال لستيف. "عليّ أن أذهب الآن".

"إذا كنتَ تستطيع أن تستجمع قواك وتساعدهما"، قال ستيف وهو يمسح عينيه بذراع سترته، "ستكون تساعد نفسك أيضاً. عليكم أنتم الثلاثة تخطّي هذه المحنة معاً يا لويس. هذه هي الطريقة الوحيدة. أي شخص يعرف هذا".

"أنت محقّ"، وافَقه لويس، وفي ذهنه بدأ كل شيء يحصل مرة أخرى، سوى أنه وَثَب هذه المرة نصف متر إضافي في النهاية، وأمسك

الجهة الخلفية لسترة غايدج، ولم يحصل أي شيء من هذا.

المشهد في الغرفة الشرقية لدار دفن بروكينغز-سميث فات إيليه، لكنه لم يفت رايتشل. ففي وقت حصوله، كانت إيليه تدفع حجرها في لعبة المونوبولي بلا هدف محدَّد - وبصمت - على اللوحة مع جاد كراندال. خضَّت نردها بيدٍ وتمسّكت بصورة البولارويد التي تجرّ فيها غايدج على مزلجتها باليد الأخرى.

قرَّر ستيف ماسترتون أنه من الأفضل لرايتشل أن تحضر جلسة المعاينة بعد الظهر - لكنه ندم كثيراً على قراره هذا في ضوء التطوّرات اللاحقة.

سافر أفراد عائلة غولدمان إلى بانغور من شيكاغو ذلك الصباح وأقاموا في نُزُل العيد على طريق أودلِن. اتصل أبوها أربع مرات قبل الظهر، واضطر ستيف أن يكون صارماً أكثر - مهدِّداً تقريباً، في الاتصال الرابع - مع العجوز. قال إروين غولدمان إنه يريد الوقوف بجانب إبنته في محنتها ولا تستطيع كل كلاب الجحيم منعه من ذلك. أجابه ستيف أن رايتشل تحتاج إلى هذا الوقت قبل الذهاب إلى دار الدفن لكي تتغلّب على أكبر قدر ممكن من صدمتها الأولية. وأخبره أنه لا يعرف عن كل كلاب الجحيم، لكنه يعرف مساعِد طبيب واحد سويدي-أميركي لا يملك أي نيّة للسماح لأي شخص بدخول منزل عائلة كريد إلى أن تظهر رايتشل إلى العلن، بكامل إرادتها. بعد جلسة المعاينة بعد الظهر، قال ستيف، سيكون أكثر من سعيد ليسمح لنظام دعم الأنسباء بأن يبدأ دوره. حتى ذلك الوقت، أراد أن تُترك لوحدها.

شتمه العجوز باللهجة اليدية وخَبَط سمّاعة الهاتف من طرفه، قاطعاً الاتصال. انتظَر ستيف ليرى إن كان غولدمان سيأتي بالفعل،

لكن يبدو أن غولدمان قرَّر الانتظار. بدت رايتشل أفضل قليلاً عند الظهر. كانت على الأقل مُدركة للإطار الزمني الذي تتواجد فيه، وذهبت إلى المطبخ لترى إن كان يتم إعداد بعض الشطائر أو أي شيء لما بعد. فالناس سيريدون العودة إلى المنزل على الأرجح، أليس كذلك؟ سألت ستيف.

أومأ ستيف برأسه.

لم يكن هناك سجق بولونيا أو قِطع لحم بقر مشوية باردة، لكن كان هناك ديك رومي باتربول في الثلاجة، فوَضَعته على لوحة تصريف الماء لكي يذوب. نظرَ ستيف إلى المطبخ بعد بضع دقائق ورآها واقفة عند المغسلة، ونظرها مثبَّت على الديك الرومي وتبكي.

"رايتشل؟".

نظرت إلى ستيف. "كان غايدج يحبّ هذه حقاً. كان يحبّ اللحم الأبيض بشكل خاص". ابتسمت ابتسامةً شاحبةً رهيبةً. "خطر ببالي للتو أنه لن يأكل ديكاً رومياً آخر أبداً".

أرسَلها ستيف إلى الطابق العلوي لتغيِّر ملابسها - اختبارٌ أخيرٌ لقدرتها على التأقلم، حقاً - وعندما نزلت مرتديةً فستاناً أسود بسيطاً معقوداً عند خصرها وتحمل حقيبة سوداء صغيرة (حقيبة مساء، في الواقع)، قرَّر ستيف أنها بخير، ووافَقه جاد.

قادها ستيف إلى البلدة. وَقَف مع سورندرا هاردو في ردهة الغرفة الشرقية وراح يراقبها تنجرف مثل شبح في الرِواق نحو التابوت المزيَّن بالزهور.

"كيف الأجواء يا ستيف؟"، سأل سورندرا بهدوء.

"فظيعة لعينة"، قال ستيف بصوتٍ أجش منخفضٍ. "كيف كنتَ تعتقدها؟".

"كنتُ أعتقد أنها فظيعة لعينة على الأرجح"، قال سورندرا وتنهّد.

بدأت المتاعب حقاً في فترة المعاينة الصباحية، عندما رفَض إروين غولدمان أن يصافح صِهره.

رؤيته عدداً كبيراً من الأصدقاء والأنسباء أخرجَ لويس من الصدمة قليلاً في الواقع، وأجبره على أن يلاحظ ما كان يجري. لقد وَصَل إلى تلك المرحلة من الحزن الطيِّع المعتاد عليه الحانوتيون كثيراً لدرجة أنه يمكنهم الاستفادة منه إيجابياً. كان يتم تحريك لويس مثل بيدق الشطرنج.

خارج الغرفة الشرقية يوجد بهو صغير يستطيع فيه الناس التدخين والجلوس على كراسٍ مريحةٍ. بدت الكراسي كما لو أنها أتت مباشرة من معرض نادٍ إنكليزيٍ قديمٍ يبيع بأسعار مخفَّضة بسبب إفلاسه. وبجانب الباب الذي يؤدي إلى غرفة المعاينة توجد حاملة صغيرة، معدنية سوداء مطرَّزة بالذهب، عليها لافتة صغيرة تقول فقط "غايدج ويليام كريد". إذا اجتزتَ هذا المبنى الأبيض الفسيح المضلِّل لشبهه بمنزل قديم مريح، ستصل إلى بهو مماثل، يتواجد هذا خارج الغرفة الغربية، حيث تقول اللافتة على الحاملة "ألبيرتا بورنهام نيدو". تتواجد الغرفة المطلّة على النهر في الجهة الخلفية للدار. كانت الحاملة على يسار الباب بين البهو وهذه الغرفة فارغةً؛ لم تكن تُستخدَم في صباح هذا الثلثاء. وفي الطابق السفلي توجد صالة عرض التوابيت، حيث كل طراز مُضاء بضوء كشّاف صغير مركَّب على السقف. إذا رفعتَ نظرك – لويس فعل ذلك، وقد عبَس به الحانوتيّ بقوة لفعله ذلك – سيبدو لك كما لو أن عدداً كبيراً من الحيوانات الغريبة تجثم هناك.

رافقه جاد يوم الأحد، بعد يوم من وفاة غايدج، لاختيار تابوتٍ. نزلا إلى الطابق السفلي، وبدلاً من الاستدارة إلى اليمين فوراً نحو صالة عرض التوابيت، تابَع لويس المذهول سيره بشكل مستقيم في الرواق نحو باب متأرجح أبيض عادي، من النوع الذي تراه يفصل بين غُرف طعام المطعم والمطبخ. قال جاد والحانوتيّ بسرعة وفي الوقت نفسه، "ليس في هذا الاتجاه"، فأطاعهما لويس وتبَعهما بعيداً عن ذلك الباب المتأرجح. لكنه كان يعرف ماذا يوجد خلف ذلك الباب. فقد كان عمّه حانوتيّاً.

كانت الغرفة الشرقية مرصوصة بصفوف منظَّمة من كراسٍ قابلة للطيّ – من الصنف الغالي الثمن ذي المقاعد والظهور الفخمة. وعند الجهة الأمامية، في ناحية بدا أنها تركيبة من قاعة رسمية وكوخ ريفي، كان تابوت غايدج. اختار لويس الطراز المصنوع من خشب الورد، والمسمّى "الراحة الأبدية". كان مبطَّناً بحرير زهري فخم. وافَق الحانوتيّ على أنه تابوت جميل حقاً واعتذر أنه لم يكن لديه واحد ذو بطانة زرقاء. أجاب لويس أنه ورايتشل لم يكترثا لهكذا تمييز أبداً. أومأ الحانوتيّ برأسه، ثم سأل لويس إن فكَّر كيف سيدفع نفقات جنازة غايدج. إذا لم يفكِّر في ذلك، قال، يمكنه أن يأخذ لويس إلى مكتبه ويستعرض معه بسرعة ثلاثة من خططهم الشعبية أكثر –

في ذهن لويس، أعلنَ مُذيعٌ فجأة بابتهاج: *حصلتُ على تابوت إبني مجاناً، مقابل قسائم رالي!*

قال وهو يشعر كأنه في حلمٍ، "سأدفع كل شيء ببطاقة الماستركارد".

"حسناً"، قال الحانوتيّ.

لم يكن التابوت أطول من متر ورُبع – تابوت قزم. ومع ذلك فاق سعره الستمئة دولار بقليل. افترَض لويس أنه يستريح على حاملتين

مزدوجتَي الأرجل، لكن الزهور جَعَلت من الصعب رؤية ذلك، ولم يرغب أن يقترب كثيراً. فرائحة كل تلك الزهور تجعلك تريد أن تكمّ أنفك.

في آخر الرِواق، مباشرة بعد الباب الذي يؤدي إلى البهو-الصالة، يوجد كتاب موضوع على منصة، وهناك قلم حبر جاف موصول بالمنصة بسلسلة. في هذا المكان أوقفَ الحانوتيّ لويس، لكي يستطيع أن "يستقبل أصدقاءه وأنسباءه".

كان يُفترَض بالأصدقاء والأنسباء أن يدوّنوا أسماءهم وعناوينهم في الكتاب. لم يفهم لويس أبداً الغاية من هذه العادة المجنونة، ولم يسأل. افترَض أنه عندما تنتهي الجنازة، سيحتفظ ورايتشل بالكتاب. بدا له هذا أكثرَ شيء مجنون في كل هذه المسألة. لديه في مكان ما كتاب سنوي للمدرسة وكتاب سنوي لكلّية الطب؛ وهناك أيضاً كتاب للعرس، مختوم على جلده المزيَّف بأحرف ذهبية "يوم عرسي"، ويبدأ بصورة لرايتشل تجرّب خِمار فستان عرسها أمام المرآة ذلك الصباح بمساعدة أمها وينتهي بصورة حذاءين خارج باب فندق مُغلق. وهناك أيضاً كتاب طفل لإيليه - لكنهما ضجرا من الإضافة إليه بسرعة؛ ذلك الكتاب، بفراغاته المخصَّصة لـ "من قصّة شعري الأولى (أضف خصلةً من شعر الطفل)" و"آه! (أضف صورة الطفل يسقط على مؤخِّرته)"، كان لطيفاً جداً بلا رحمة.

والآن سيُضاف هذا الكتاب إلى كل الكتب الأخرى. ماذا نسمّيه؟ تساءل لويس بينما وَقَف بشكل خَدِر بجانب المنصة منتظراً بدء الحفلة. *كتاب موتي؟ تواقيع الجنازة؟ اليوم الذي زرعنا فيه غايدج؟* أو ربما شيئاً مفخَّماً أكثر، مثل *موت في العائلة*؟

أدار الكتاب إلى غلافه، الذي كان جلده مزيَّفاً مثل غلاف كتاب يوم عرسي.

كان الغلاف فارغاً.

بشكل متوقّع تقريباً، كانت مِيسِي داندريدج أول الواصلين ذلك الصباح، مِيسِي الطيبة القلب التي جالست إيليه وغايدج عشرات المرات. تذكَّر لويس فجأة أن مِيسِي هي التي أخذت الولدَين مساء اليوم الذي تُوفِّيَ فيه فيكتور باسكاو. أخذت الولدَين، وضاجع رايتشل، أولاً في المغطس، ثم على السرير.

كانت مِيسِي تبكي، بكاءً مرّاً، وعند رؤيتها وجه لويس الهادئ الجامد، سالت دموعٌ جديدةٌ على خدَّيها واقتربت منه - بدت كأنها تتحسّس بحثاً عنه. عانَقها لويس، مُدركاً أن هكذا تتم الأمور، أو هكذا يُفترَض بها أن تتم، على أي حال - نوعٌ من هجوم بشري ينتقل ذهاباً وإياباً، فيُرخي التربة الصلبة للخسارة، ينفِّسها، يفتّت التكتلات الصخرية للصدمة بحرارة الحزن.

هذا مؤسف جداً، كانت مِيسِي تقول وهي تُرجِع شعرها الأشقر الداكن عن وجهها الشاحب. كم كان فتىً صغيراً عذباً. أحبَبتُه كثيراً يا لويس، هذا مؤسف جداً، يا له من طريق مريع، آمل أن يسجنوا سائق تلك الشاحنة إلى الأبد، كان يقود بسرعة عالية جداً، كان عذباً جداً، لطيفاً جداً، ذكياً جداً، لماذا يحصل هكذا أمر لغايدج، لا أعرف، لا يمكننا أن نفهم، هل يمكننا؟ لكن هذا مؤسف، مؤسف، مؤسف جداً.

واساها لويس، احتضنها وواساها. شَعَرها بدموعها على ياقته، بضغط صدرها عليه. أرادت معرفة مكان رايتشل، وأخبَرها لويس أن رايتشل تستريح. وعَدته مِيسِي أن تذهب لرؤيتها، وأنها ستجالس إيليه في أي وقت، طالما كانا بحاجة إليها. شَكَرها لويس.

بدأت تهمّ بالانصراف، وهي لا تزال تكفكف دموعها، وعيناها

أكثر احمراراً من أي وقت مضى فوق منديلها الأسود. كانت تسير نحو التابوت عندما ناداها لويس. أخبَره الحانوتيّ، الذي لم يستطع لويس أن يتذكَّر إسمه، أن يجعلهم يدوّنون في الكتاب، وتبأ له إذا لم يكن سيجعلهم يفعلون ذلك.

أيها الضيف السريّ، دوِّن إسمك رجاءً، فكّر في سرّه وكاد ينفجر في ضحك هستيري.

عينا مِيسِي المثيرتان للأسى والحزينتان جداً هما اللتان أبعدتا الضحك عنه.

"مِيسِي، هلاّ دوَّنتِي في الكتاب؟"، سألها، ولأنه شَعَر بالحاجة إلى قول شيء آخر، أضاف، "كرمى لرايتشل".

"بالطبع"، قالت. "مسكين لويس ومسكينة رايتشل". وعرَف فجأة ماذا كانت ستقول بعدها، ولسبب من الأسباب أرعبه ذلك؛ لكنه كان سيأتي، لا يمكن تجنّبه، مثل رصاصة سوداء ذات عيار ثقيل من بندقية قاتلٍ، وعرَف أن تلك الرصاصة ستصيبه مراراً وتكراراً في الدقائق التسعين القادمة اللانهائية، ثم مرة أخرى بعد الظهر، بينما لا تزال جروح الصباح تنزف دماً:

"الحمد لله أنه لم يتألم يا لويس. على الأقل تم الأمر بسرعة".

نعم، تم الأمر بسرعة، فكّر في أن يقول لها – آه، كم سيحطِّم لها ذلك وجهها مرة أخرى، وشَعَر برغبة عارمة لأن يفعل ذلك، لأن يرشّ الكلمات في وجهها. *تم الأمر بسرعة، لا ريب في ذلك، لهذا السبب التابوت مُغلق، لم يكن بالإمكان فعل أي شيء لغايدج حتى ولو وافَقتُ ورايتشل على إلباس أنسبائنا المتوفين أفضل حلّة لديهم مثل دمى عرض الأزياء في مركز التسوّق ووضعنا مساحيق تجميل على*

وجوههم. تم الأمر بسرعة يا عزيزتي مِيسِي، في لحظةٍ كان هناك على الطريق وفي اللحظة التالية كان ممدَّداً عليه، لكن على مسافة بعيدة قرب منزل عائلة رينغرز. صدمَتْه وقتلَته ثم جرَّته ومن الأفضل لك أن تصدِّقي أنه تم بسرعة. مئة متر أو أكثر، هكذا قال الجميع، بطول ملعب كُرة قدم. ركَضتُ خلفه يا مِيسِي، رحتُ أصرخ إسمه مراراً وتكراراً، كما لو أنني أتوقَّع أنه لا يزال حيّاً، أنا، الطبيب. ركَضتُ عشرة أمتار ورأيتُ قبعة البيسبول الخاصة به وركَضتُ عشرين متراً ورأيتُ إحدى فردتَي حذائه الرياضي من فيلم حرب النجوم، وركَضتُ أربعين متراً وكانت الشاحنة وقتها قد فرّت عن الطريق والصندوق منطوياً في ذلك الحقل الواقع بعد حظيرة عائلة رينغرز. بدأ الناس يخرجون من منازلهم وبقيتُ أصرخ إسمه يا مِيسِي، وعند خط الخمسين متراً رأيتُ كنزته، كانت مقلوبة إلى جهتها الداخلية، وعلى خط السبعين متراً رأيتُ فردة الحذاء الأخرى، ثم رأيتُ غايدج.

اسودَّت الدنيا فجأة. واختفى كل شيء. كان بإمكانه الشعور بزاوية منصة الكتاب تنكز راحة يده بشكل خفيف، لكن هذا كان كل شيء.

"لويس؟". صوت مِيسِي. من بعيد. الصوت الغامض للحمام في أذنيه.

"لويس؟". أقرب الآن. قلِق.

سبحَ العالم عائداً إلى ناظرَيه.

"هل أنت بخير؟".

ابتسم. "بخير"، قال. "أنا بخير يا مِيسِي".

دوَّنت عن نفسها وعن زوجها – السيد والسيدة دايفد داندريدج – بخط مستدير على طريقة بالمر؛ ثم أضافت عنوانهما، الصندوق

الريفيّ 67، طريق باكسبورت القديم، ثم رفعت عينيها إلى عينَي لويس وأنزلتهما بسرعة، كما لو أن عنوانها على الطريق حيث تُوفِّيَ غايدج شكَّل جريمةً.

"أراك بخير يا لويس"، همَست.

صافَحه دايفد داندريدج وتمتم شيئاً غير واضح، محرِّكاً جوزة حلقه الناتئة إلى أعلى وأسفل. ثم تبَع زوجته على عجل في الرِواق ليؤدّي شعائر فحص التابوت الذي صُنع في ستوريفيل، أوهايو، وهو مكان لم يزره غايدج أبداً وليس معروفاً فيه.

جاء الكل بعد عائلة داندريدج، يجرّون أقدامهم الواحد تلو الآخر، واستقبل لويس مصافحاتهم، عناقهم، دموعهم. أصبحت ياقته والكُمّ العلوي لسترة بذلته الرمادية الداكنة رطبة جداً. بدأت رائحة الزهور تصل حتى إلى الجهة الخلفية للغرفة وتخترق المكان برائحة الجنازة. كانت رائحة تذكَّرها من طفولته - تلك الرائحة المميزة لزهور دُور الدفن. قيل للويس اثنتين وثلاثين مرة، حسب عدّه الداخلي في سرّه، إن عليه أن يحمد الله أن غايدج لم يتألم. وقيل له خمس وعشرين مرة إنه لا يجب علينا الاعتراض على القضاء والقدر. وقيل له اثنتَي عشرة مرة إن غايدج في السماوات الآن.

بدأ كل هذا يوتّره. وبدلاً من أن تفقد تلك الأقوال المأثورة الصغيرة معناها الهامشي (على غرار فقدان إسمك معناه وهويته إذا كرَّرتَه مراراً وتكراراً)، بدأت تحفر عميقاً أكثر فأكثر كل مرة، متوجِّهةً نحو الأعضاء الحيوية. وحين ظهرت حماته وحموه ظهورهما المحتوم، كان قد بدأ يشعر كما لو أنه مقاتِل يُشار إليه بالبنان.

كانت فكرته الأولى هي أن رايتشل كانت محقّة، وكيف أن إروين

غولدمان كبُر في السنّ فعلاً. كان – كم؟ في الثامنة والخمسين، في التاسعة والخمسين؟ – كان يناهز السبعين اليوم. بدا سخيفاً برأسه الأصلع ونظّاراته ذات العدستين السميكتين. أخبَرته رايتشل أنه كبُر في السنّ عندما عادت من رحلتها في فترة الاحتفالات بيوم الشُكر، لكن لويس لم يتوقع هذا. بالطبع، فكَّر في سرّه، ربما لم يكن وضعه بهذا السوء يوم الشُكر. فالعجوز لم يفقد أحد حفيدَيه يوم الشُكر.

سارت دوري بجانبه، بوجهها غير المرئي تقريباً تحت طبقتين – وربما ثلاث طبقات – من وشاح مشبّك أسود سميك. كان شعرها أزرق جداً، وهو اللون المفضَّل لدى مسنّات الطبقة الراقية في المجتمع الأميركي. كانت تتأبط ذراع زوجها. وكل ما استطاع لويس رؤيته حقاً خلف ذلك الحجاب هو لمعان دموعها.

قرَّر فجأة أنه حان الوقت ليقول عفا الله عما مضى. لا يمكنه مواصلة حقده القديم. فجأة أصبح ثقيلاً جداً. ربما كان الوزن التراكمي لكل تلك الأقوال المبتذَلة.

"إروين. دوري"، همس. "شكراً لقدومكما".

قام بإيماءة بذراعيه، كما لو أنه يريد أن يصافح والد رايتشل ويُعانِق أمها في الوقت نفسه، أو ربما حتى معانقتهما معاً. في كلا الحالتين، شَعَر بدموعه تنهمر للمرة الأولى، وخطرت بباله للحظة فكرة مجنونة أنه يمكنهم هدم كل أسوارهم، أن غايدج سيفعل هذا القدر الكبير في مماته، كما لو أن هذا يجري في روايةٍ عاطفيةٍ للسيدات دخلَ فيها حيث عاقبة الموت هي حلّ الخلافات، وحيث يمكنه أن يسبّب شيئاً بنّاءً أكثر من هذا الوجع الغبي الذي لا ينتهي أبداً.

بدأت دوري تتوجَّه نحوه، وتقوم بإيماءة، وتبدأ، ربما، بمدّ ذراعيها. قالت شيئاً – "آه يا لويس..." وشيئاً آخر غير مفهوم – ثم شدَّ

غولدمان زوجته إلى الخلف. بقي ثلاثتهم يقفون للحظة في مشهد لم يلاحظه أحد سواهم (ما عدا الحانوتيّ ربما، الذي كان واقفاً بشكل غير متطفِّل في الزاوية البعيدة للغرفة الشرقية، رأى - افترَض لويس أن العمّ كارل كان ليرى)، لويس مادّاً ذراعيه جزئياً، وإروين ودوري غولدمان واقفين جامدين ومستقيمين مثل عروسين على قالب حلوى عرس.

رأى لويس عندها عدم وجود دموع في عينَي حميه؛ كانتا صافيتين وتلمعان بالكره (*هل يظن أنني قَتلتُ غايدج لكي أغيظه؟* تساءل لويس). بدت تلك العينين تقيسان لويس، تجدانه نفس الرجل الصغير والعديم الفائدة الذي خطف إبنته وأخذها إلى هذا الحزن... ثم تنبذانه. تحرَّكت عيناه إلى يسار لويس - إلى تابوت غايدج، في الواقع - وعندها فقط أصبحتا ليّنتين.

ومع ذلك قام لويس بمحاولة أخيرة. "إروين"، قال. "دوري. رجاءً. علينا أن نتكاتف في هذا".

"لويس"، قالت دوري مرة أخرى، بلطف، فكَّر لويس في سرّه، ثم كانا قد تجاوزاه، ربما إروين غولدمان يشدّ زوجته وراءه، دون أن ينظر يساراً أو يميناً، وبالطبع دون أن ينظر إلى لويس كريد. اقتربا من التابوت، وأخرَج غولدمان بارتباك طاقيّة سوداء صغيرة من جيب سترة بذلته.

لم تدوّن في الكتاب، فكَّر لويس في سرّه، ثم ارتفع تجشؤ صامت ذو محتوى حمضي خبيث في جهازه الهضمي لدرجة جعل وجهه يلتوي ألماً.

انتهت فترة المعاينة الصباحية أخيراً. اتصل لويس بالمنزل. ردَّ عليه جاد وسأله كيف سارت الأمور. لا بأس، قال لويس. ثم سأل جاد إن كان يمكنه التكلم مع ستيف.

"إذا كان باستطاعتها أن ترتدي بنفسها، فسأسمح لها بالذهاب بعد ظهر اليوم"، قال ستيف. "هل توافق؟".

"نعم"، قال لويس.

"كيف حالك يا لُو؟ بلا لفّ ودوران - كيف حالك؟".

"بخير"، قال لويس باقتضاب. "أتأقلم". *جعلتهم كلهم يدوّنون في الكتاب. كلهم ما عدا دوري وإروين، ولن يدوّنوا.*

"حسناً"، قال ستيف. "اسمع، هل سنلاقيك للغداء؟".

الغداء. لقاء للغداء. بدت هذه الفكرة غريبة جداً لدرجة أنها ذكّرت لويس بروايات الخيال العلمي التي كان يقرأها في مراهقته - روايات تأليف روبرت هاينلاين، موراي لينستر، غوردون ديكسون. *لدى السكان الأصليين هنا على كوكب كوارك عادة غريبة عندما يموت أحد أولادهم أيها الملازم أبيلسون: "يلتقون للغداء". أعرف كم يبدو هذا متنافراً وبربرياً، لكن تذكّر أن هذا الكوكب لم يُستصلح بعد.*

"بالتأكيد"، قال لويس. "أيٌ من المطاعم جيد لاستراحةٍ بين فترات المعاينة خلال جنازةٍ يا ستيف؟".

"هوِّن عليك يا لُو"، قال ستيف، لكنه لم يبدُ منزعجاً كلياً. في هذه الحالة من الهدوء المجنون، شَعَر لويس أنه قادر على رؤية نفسية الأشخاص بشكل أفضل من أي وقت مضى في حياته. ربما هذا وهمٌ، لكنه يعتقد الآن أن ستيف يعتبر أن حتى فَيض مفاجئ من السخرية، مبخوخ مثل عُصارة مفاجئة من المرارة، مفضّلٌ على حالته السابقة من الانفصال عن الواقع.

"لا تقلق"، قال لستيف الآن. "ما رأيك بمطعم بنيامين؟".

"بالتأكيد"، قال ستيف. "بنيامين سيكون ممتازاً".

كان قد أجرى المكالمة من مكتب الحانوتيّ. الآن، ومع مرور

لويس بجانب الغرفة الشرقية في طريقه للخروج، رأى أن الغرفة فارغة تقريباً، لكن إروين ودوري غولدمان جالسان في الصف الأمامي، وقد حنيا رأسيهما. بدَوا للويس كما لو أنهما قد يجلسان هناك إلى الأبد.

كان مطعم بنيامين الخيار الصحيح، لأن بانغور بلدة يتناولون فيها الغداء باكراً، وتكون مهجورة تقريباً حوالي الساعة الواحدة. جاء جاد مع ستيف ورايتشل، وتناول أربعتهم دجاجاً مقلياً. في لحظة من اللحظات ذهَبت رايتشل إلى حمّام السيدات وبقيت هناك لوقت طويل أقلقَ ستيف. كان على وشك أن يطلب من النادلة تفقُّدها عندما عادت إلى طاولتها، بعينين حمراوين.

أكلَ لويس دجاجه بدون شهية وشرِب الكثير من شراب الشعير. وجاراه جاد زجاجةً تلو الزجاجة، دون أن يتكلم كثيراً.

رُفعَت أطباقهم الأربعة عن الطاولة غير مأكولة تقريباً، ومع بصيرته الخارقة للطبيعة، رأى لويس النادلة، فتاة بدينة ذات وجه جميل، تناقش نفسها إن كانت ستسألهم عما إذا لم يكن الطعام لذيذاً، وألقت أخيراً نظرة أخرى على عينَي رايتشل الحمراوين وقرَّرت أنه سيكون السؤال الخطأ. خلال شرب القهوة، قالت رايتشل شيئاً مفاجئاً وحزيناً لدرجة أنه صدمهم كلهم - بالأخص لويس، الذي بدأ ينعس أخيراً بسبب شراب الشعير. "سأعطي ملابسه لجمعية جيش الخلاص الخيرية".

"حقاً؟"، قال ستيف بعد لحظة.

"نعم"، قالت رايتشل. "لا تزال حالتها جيدة. كل ستراته... سراويله المضلَّعة... قمصانه. شخصٌ ما سيسرّه الحصول عليها. كلها نافعة جداً. ما عدا التي كان يرتديها، بالطبع. فهي قد... تلفت".

أصبحت الكلمة الأخيرة اختناقاً بائساً. حاوَلت أن تشرب

القهوة، لكن هذا لم ينفع. بعد لحظة كانت تبكي في يديها.

مرَّت عندها لحظة غريبة. فقد ظهرت خطوط توتّر، وبدت أنها كلها تركِّز على لويس. شَعَر بهذا بنفس البصيرة الخارقة للطبيعة التي تمتّع بها طوال هذا اليوم، ومن بينها كلها، كانت هذه الأكثر وضوحاً وتأكيداً. حتى النادلة شَعَرت بخطوط الإدراك المتقاربة تلك. رآها تتوقف بجانب طاولة قريبة من الجهة الخلفية للمطعم حيث كانت تمدّ مفارش وأطباق. احتار لويس للحظة، ثم فهِم: كانوا ينتظرون منه أن يواسي زوجته.

لم يستطع أن يفعل ذلك. أراد أن يفعله. فهِم أنها مسؤوليته أن يفعله. لكنه لم يستطع رغم ذلك. القط هو الذي اعترض طريقه. فجأة ومن دون أي سبب. القط. القط اللعين. تشرش مع فئرانه الممزَّقة والطيور التي حطَّت على الأرض إلى الأبد. عندما كان يجدها، كان لويس ينظِّف الفوضى بحزم، من دون شكوى أو تعليق، وبالطبع من دون احتجاج. فهو، في النهاية، الذي اشتراها. لكن هل اشترى هذا؟

رأى أصابعه. رأى لويس أصابعه. رأى أصابعه تتزحلق بخفة على الجهة الخلفية لسترة غايدج. ثم اختفت سترة غايدج. ثم اختفى غايدج.

نظرَ إلى كوب قهوته وترك زوجته تبكي بجانبه، دون مواساة.

بعد لحظات – على أساس توقيت قصير جداً على الأرجح، لكنه بدا طويلاً وقتها وعند استعادة الأحداث لاحقاً – وَضَع ستيف ذراعه حولها وعانَقها بلطف. كانت عيناه على لويس عاتِبتين وغاضبتين. أشاح لويس بنظره عنهما نحو جاد، لكن جاد كان قد أخفض نظره، كما لو أنه يشعر بالخِزي. لم يجد مساعدة هناك.

الفصل 37

"عرَفتُ أن شيئاً كهذا سيحصل"، قال إروين غولدمان. هكذا بدأت المشكلة. "عرَفتُ ذلك عندما تزوَّجتكَ. 'ستنالين كل الحزن الذي يمكنك تحمّله وأكثر'، قلتُ. وانظر إلى هذه. انظر إلى هذه... هذه *الفوضى*".

نظَرَ لويس حوله ببطء إلى حميه، الذي ظهر أمامه مثل عفريت علبة خبيث في طاقيّةٍ؛ ثم نظَرَ حوله، غريزياً، إلى حيث كانت رايتشل، قرب الكتاب على المنصة - نوبة بعد الظهر كانت نوبتها بشكل افتراضي - لكن رايتشل كانت قد اختفت.

كانت معاينة بعد الظهر أقل ازدحاماً، وبعد حوالي نصف ساعة، ذهب لويس إلى صف المقاعد الأمامية وجلس هناك في الرِواق، مُدركاً قليلاً جداً (مُدركاً سطحياً فقط الرائحة الكريهة المُتخِمة للزهور) ما عدا حقيقة أنه كان مُتعَباً جداً ونعساناً. افترَض أن شراب الشعير هو أحد أسباب ذلك. كان ذهنه جاهزاً أخيراً ليتوقف عن العمل. وهذا شيء جيد على الأرجح. ربما بعد اثنتي عشرة ساعة أو ست عشرة ساعة من النوم، سيكون قادراً على مواساة رايتشل قليلاً.

غرق رأسه بعد حين إلى أن أصبح ينظر إلى يديه، مشبوكتين بشكل غير مُحكم بين رُكبتَيه. كانت همهمة الأصوات بالقرب من الجهة الخلفية مهدِّئة للأعصاب. وشَعَر بالارتياح عند رؤيته أن إروين ودوري لم يكونا هنا عندما عاد أربعتهم من الغداء، لكن كان عليه أن يعرف أن استمرار غيابهم هو شيء جيد جداً ليكون صحيحاً.

"أين رايتشل؟"، سأله لويس الآن.

"مع أمها. حيث يجب أن تكون". تكلَّم غولدمان بنبرة الانتصار

المدروسة لرجلٍ أتمّ عقد صفقة مهمة. كانت هناك رائحة شراب اسكتلندي في أنفاسه. الكثير منه. وَقَف أمام لويس كما لو أنه محامي مقاطعة صغيرة مشاكس يقف أمام رجلٍ في قفص الاتهام، رجلٍ مذنبٍ بشكل واضح. كان غير مستقر على قدمَيه.

"ماذا قلتَ لها؟"، قال لويس وهو يشعر ببداية غضب الآن. كان يعرف أن غولدمان قال شيئاً. كان ذلك بادياً على وجه الرجل.

"لا شيء سوى الحقيقة. أخبَرتُها أن هذا ما يصيبك عندما تتزوّجين خلافاً لمشيئة والدَيك. أخبَرتُها –"

"هل قلتَ ذلك؟"، سأل لويس بارتياب. "لم تقل هذا حقاً، أليس كذلك؟".

"هذا وأكثر"، قال إروين غولدمان. تكلّم بعجرفة رجلٍ اكتشف أين يقع اللوم. "لطالما عرَفتُ أن الأمور ستؤول إلى هذا – هذا أو شيء مماثل. عرَفتُ صنف الرجال الذي أنت عليه من أول لحظة رأيتُك فيها". مال إلى الأمام، وهو يزفر سُحُب دخان شراب اسكتلندي. تكلّم الآن بنبرة رجلٍ يكشف سراً كبيراً. "رأيتُ حقيقتك، أيها المختال الحقير في رداء طبيب. لقد أغريتَ إبنتي إلى زواج عقيم غبي ثم حوّلتها إلى خادمة غسل أطباق وتركتَ إبنها يُدهَس على الطريق العام مثل... سنجاب".

مرَّ معظم هذا في ذهن لويس. كان لا يزال متوقفاً عند فكرة أن هذا الرجل التافه الغبي يمكن أن –

"*قلتَ* لها هذا؟" كرَّر. "*قلتَه*؟".

"آمل أن تتعفَّن في الجحيم!"، قال غولدمان، واستدارت رؤوسٌ بحدّة نحو صوته. بدأت الدموع تنهمر من عينَي إروين غولدمان البنيتين المُحتقِنتين بالدم. وتوهَّج رأسه الأصلع تحت الأضواء الفلورية المكتومة.

"لقد جعلتَ إبنتي الرائعة خادمة غسل أطباق... دمَّرت مستقبلها... وأقصيتَها... وتركتَ حفيدي يموت ميتةً قذرةً على طريق ريفيّ".

ارتفع صوته إلى صراخ تغطرس.

"أين كنتَ؟ تجلس على مؤخّرتك بينما يلعب على الطريق؟ تفكّر بمقالاتك الطبية الغبية؟ ماذا كنتَ تفعل أيها الحقير؟ أيها الحقير النتِن! يا قاتل الأولاد! يا قا –"

كانا هناك. كانا هناك عند الجهة الأمامية للغرفة الشرقية. كانا هناك، ورأى لويس ذراعه ترتفع. رأى كُمّ سترة بذلته يتراجع عن ثنية قميصه الأبيض. رأى البريق المصقول لأحد أزرار كُمّه – كانت رايتشل قد أهدته إياها في الذكرى الثالثة لزواجهما، دون أن تعرف أبداً أن زوجها سيرتديها يوماً ما في جنازة إبنهما الذي لم يكن قد وُلد بعد. كانت قبضته مجرد شيء مربوط بطرف ذراعه. اتصَلت بفم غولدمان، وشَعَر بشفتَي العجوز تنهرسان وترجعان إلى الخلف. كان شعوراً مُقرفاً، حقاً؛ يشبه هَرس يرقةٍ بقبضتك. لم ينتج عنه أي رضى. استطاع الشعور بطقم الأسنان الاصطناعية الصلبة تحت لحم شفتَي حميه.

تعثَّر غولدمان إلى الخلف. ونزلت ذراعه على تابوت غايدج، وخبطته بشكل مائل. سقطت إحدى المزهريات، الثقيلة في جزئها العلوي من الزهور، مُحدثةً صوت تحطّم قوي. صَرَخت إحداهن.

كانت رايتشل، تكافِح مع أمها، التي كانت تحاول إمساكها. بدا الأشخاص الذين كانوا هناك – عشرة أو خمسة عشر بالإجمال – مجمَّدين بين الرعب والإحراج. كان ستيڤ قد أعاد جاد إلى لادلو، وشَعَر لويس ببعض الامتنان لذلك. فهذا لم يكن مشهداً يريد أن يراه جاد. كان غير لائق.

"لا تؤذه!"، صَرَخت رايتشل. "لويس، لا تؤذ أبي!".

"تحبّ ضرب العجائز، أليس كذلك؟"، صرَخ إروين غولدمان ذو دفتر الشيكات الفائض بصوتٍ حادٍ. كان يبتسم بفم مليء بالدم بلون الياقوت. "تحبّ ضرب العجائز؟ لستُ متفاجئاً أيها الوغد النتِن. هذا لا يفاجئني أبداً".

استدار لويس نحوه، وضرَبه غولدمان على عنقه. كانت ضربة جانبية خرقاء، لكن لويس لم يكن مستعداً لها. تفجَّر ألمٌ مُشِلٌ في حنجرته سيصعّب عليه البلع طوال الساعتين القادمتين. وانتفض رأسه إلى الخلف، ووَقَع على ركبته في الرِواق.

أولاً الزهور، والآن أنا، فكَّر في سرّه. ماذا تقول فرقة الرامونز؟ *يا مَن هنا، هيا بنا!* اعتقَد أنه أراد أن يضحك، لكنه لم يجد ضحكاً فيه. ما خرَج من حنجرته المتألمة هو تأوه بسيط.

صَرَخت رايتشل مرة أخرى.

إروين غولدمان، بفمه النازف، ركلَ لويس على كُليتيه. كان الألم مِشعلاً ساطعاً من العذاب. وَضَع يديه على السجادة الطويلة الضيقة ليمنع نفسه من التخبُّط على بطنه.

"أنت فاشل حتى ضد العجائز يا ولد!"، صاح غولدمان بإثارة معتوهة. ركلَ لويس مرة أخرى، ولم يُصب الكُليَة هذه المرة، بل أصاب الجزء المرتفع من الردف اليسرى بحذاء عجوزٍ أسود. نخَر لويس من الألم، وسقط على السجادة هذه المرة. ارتطم ذقنه مُحدِثاً فرقعةً مسموعةً. عضَّ لسانه.

"ها هي!"، صاح غولدمان. "ها هي الركلة على المؤخِّرة التي كان عليَّ أن أوجِّهها لك عندما رأيتُك لأول مرة أيها الوغد. ها هي!". وركلَ مؤخِّرة لويس مرة أخرى، على الردف الأخرى هذه المرة. كان يبكي ويكشِّر. رأى لويس لأول مرة أن غولدمان غير حليق – دلالة

على الحداد. أسرعَ الحانوتيّ نحوهما. وتملّصت رايتشل من قبضة السيدة غولدمان وأسرعت نحوهما أيضاً، وهي تصرخ.

تدحرَج لويس بشكل أخرق على جنبه واستوى جالساً. وجَّه حموه ركلة أخرى نحو وأمسك لويس حذاءه بيديه - أحدثَ صوت صفعة قوية في راحتَي يديه مثل كُرة قدم التُقطَت بشكل جيد - ودفَعَه إلى الخلف بأقوى ما يستطيع.

صاح غولدمان وهو يطير إلى الوراء بشكل مائل، وراح يدوِّر ذراعيه في الهواء ليحافظ على توازنه. وَقَع على نعش الراحة الأبدية لغايدج، الذي صُنع في بلدة ستوريفيل، أوهايو، والذي لم يكن رخيصاً.

أوز الكبيل واللهيب سقط للتو على تابوت إبني، فكَّر لويس في سرّه بذهول. سقط النعش عن الحاملة المزدوجة الأرجل مُحدثاً صوت تحطّم قوي. سقط الطرف الأيسر أولاً، ثم الأيمن. تهشَّم المزلاج. حتى مع أصوات الصرخات والبكاء، حتى مع صيحات غولدمان، الذي كان في النهاية مجرد ولد عجوز يلعب لعبة "لنضع دبوس اللَوْم على الحمار" في حفلة أولاد، سمِع لويس صوت تهشُّم القفل.

لم ينفتح التابوت في الواقع ويُوقِع بقايا غايدج المتألمة الحزينة على الأرض لكي يحدِّق فيها الجميع ببلاهة، لكن لويس أدرك باشمئزاز أنهم نجوا من ذلك بفضل طريقة سقوط التابوت - على قعره وليس على جنبه. كان من الممكن أن يسقط بتلك الطريقة الأخرى بكل سهولة. ومع ذلك في تلك اللحظة قبل أن ينغلق الغطاء بقوة على مزلاجه المحطَّم من جديد، رأى لمحة لون رمادي - البذلة التي اشتروها لوضعها على الأرض حول جسم غايدج - وبعض اللون الزهري. يد غايدج.

جالساً هناك على الأرض، وَضَع لويس يديه على وجهه وبدأ

يكي. لقد فَقَد كل اهتمامه بحميه، بالقذيفة الطائرة، بالغُرَز الجراحية الدائمة مقابل الغُرَز الجراحية المضمحلة، بحرارة موت الكون. في تلك اللحظة، تمنى لويس كريد لو كان ميتاً. فجأة، وبشكل غريب، تراءت له صورة: غايدج يضع أذنيَ ميكي ماوس، غايدج يضحك ويصافح بندق في الشارع الرئيسي في عالم ديزني. رأى هذا بوضوح تام.

سقطت إحدى الحاملتين المزدوجتَي الأرجل؛ وانحنت الأخرى باستهتار ثمِل على المنبر المنخفض حيث قد يقف المرء ليقدِّم تأبيناً. كان غولدمان ممدَّداً بين الزهور، يبكي أيضاً. والماء يتقاطر من المزهريات المقلوبة. وأطلقَت الزهور، بعضها مسحوق ومشوَّه، رائحتها الفوّاحة بحدّة أكثر حتى.

كانت رايتشل تصرخ وتصرخ.

لا يستطيع لويس أن يردّ على صرخاتها. كانت صورة غايدج بأذنيَ ميكي ماوس تتلاشى، لكن ليس قبل أن يسمع صوتاً يُعلن أنه ستكون هناك ألعاب نارية في وقت لاحق من ذلك المساء. جلَس بوجهه بين يديه، فلم يعد يريدهم أن يروه بعد الآن، أن يروا وجهه الملطَّخ بالدموع، خسارته، ذنبه، ألمه، خِزيه، وأهم شيء ألا يروا أمنيته الجبانة بأن يكون ميتاً وخارج هذا السواد.

قاد الحانوتيّ ودوري غولدمان رايتشل إلى الخارج. كانت لا تزال تصرخ. لاحقاً، وفي غرفة أخرى (غرفة افترَض لويس أنها مخصَّصة للمحزونين جداً – ردهة نوبات البكاء، ربما)، أصبحت صامتة جداً. لويس نفسه، مذهولاً لكن عاقلاً ومسيطراً على نفسه، أعطاها الحقنة المهدِّئة هذه المرة، بعد إصراره أن يُتركا لوحدهما.

في المنزل، قادها إلى السرير في الطابق العلوي وأعطاها حقنة

أخرى. ثم سحب الملاءة إلى ذقنها، ونظرَ إلى وجهها الشاحب.

"آسف يا رايتشل"، قال. "أنا مستعد أن أعطي أي شيء في العالم لأتراجع عن ذلك".

"لا بأس"، قالت بصوت غريب خافت ثم استدارت إلى جهتها من السرير، بعيداً عنه.

سمِع السؤال القديم الممل *هل أنتِ بخير؟* يصعد إلى شفتيه ودفَعَه إلى الخلف. لم يكن سؤالاً حقيقياً؛ لم يكن ما أراد معرفته حقاً.

"كم حالتك سيئة؟"، سأل أخيراً.

"سيئة جداً يا لويس"، قالت ثم نطَقت صوتاً كان يمكن أن يكون ضحكةً. "فظيعة جداً، في الواقع".

بدا أن هناك حاجة إلى شيء أكثر، لكن لويس لا يستطيع تزويده. شعَر بامتعاض منها فجأة، من ستيف ماسترتون، من مِيسِي داندريدج وزوجها وجوزة حلقه، من الطاقم اللعين كله. لماذا عليه أن يكون المزوِّد الأبدي؟ أي نوع من الهراء هذا؟

أطفأ الضوء وخرج. وجَد أنه لا يمكنه إعطاء إبنته أكثر.

للحظةٍ جامحةٍ، وهو ينظر إليها في غرفتها المليئة بالظلال، اعتقَد أنها غايدج – جاءته فكرة أن كل هذا مجرد كابوس بشع، مثل حلمه بباسكاو يقوده في الغابة، وتمسَّك بها ذهنه المُتعَب للحظة. ساعدته الظلال – كان هناك فقط الضوء المتنقّل للتلفزيون المحمول الذي أصعده لها جاد لتمضّي الوقت بمشاهدته. لتمضّي وقتاً طويلاً جداً.

لكنه لم يكن غايدج، بالطبع؛ كانت إيليه، التي لم تعد تقبض على الصورة التي تُظهِرها تجرّ غايدج على المزلجة فحسب الآن، بل أصبحت تجلس على كرسيه أيضاً. أخذته من غرفته ووضعته في غرفتها. كان كرسي مخرج صغير ذو مقعد قماشي وشريط قماشي على ظهره.

ومكتوب على ذلك الشريط "غايدج". كانت رايتشل قد اشترت أربعة من تلك الكراسي بالبريد. فحصل كل فرد من أفراد العائلة على كرسي خاص به مكتوب إسمه على ظهره.

كانت إيليه كبيرة جداً لتتّسع على كرسي غايدج. فحشرت نفسها عليه، وانتفَخ المقعد القماشي نزولاً بشكل خطير. كانت تحضن صورة البولارويد على صدرها وتحدِّق في التلفزيون، حيث يُعرَض أحد الأفلام.

"إيليه"، قال وهو يُطفئ التلفزيون، "حان وقت النوم".

تدبّرت أمرها لتنهض عن الكرسي، ثم طوته. يبدو أنها أرادت أن تأخذ الكرسي معها إلى السرير.

تردَّد لويس، فقد أراد أن يقول شيئاً عن الكرسي، ثم اكتفى أخيراً بقول، "هل تريدني أن أغطّيك؟".

"نعم، رجاءً"، قالت.

"هل تريدين... أن تنامي مع ماما هذه الليلة؟".

"لا، شكراً".

"أنتِ متأكدة؟".

ابتسمت قليلاً. "نعم. إنها تسرق الأغطية".

ابتسم لويس بدوره. "هيا إذاً".

بدلاً من محاولتها وضع الكرسي معها على السرير، فتَحته إيليه قرب رأس السرير، وتراءت صورة منافية للعقل للويس - هنا غرفة المعاينة لأصغر طبيب نفسي في العالم.

خلعت ملابسها، واضعةً صورتها وغايدج على وسادتها لكي تفعل ذلك، وارتدت بيجامتها البابي دول، ورفعت الصورة، ودخَلت الحمّام، ووضعتها من يدها لكي تغتسل، وتنظّف أسنانها، وتأخذ حبّة الفلوريد الخاصة بها. ثم رَفَعتها مرة أخرى وأوت إلى السرير معها.

جلَس لويس بجانبها وقال، "أريدك أن تعرفي يا إيليه أننا إذا استمرينا نحبّ بعضنا البعض، يمكننا تخطّي هذا".

كانت كل كلمة مثل نقل عربة يد محمَّلة برزم رطبة، والجهد الإجمالي جعل لويس يشعر بالإنهاك.

"سأتمنى من كل قلبي"، قالت إيليه بهدوء، "وأصلّي لكي يعود غايدج".

"إيليه، هذه الأشياء لا تحصل"، قال لويس بانزعاج، وتراءت له صورة تشرش يجلس القرفصاء على الغطاء المُغلق للمرحاض وهو يحدِّق فيه بعينيه الموحِلتين بينما كان لويس ممدَّداً في المغطس.

"بلى تحصل"، قالت. "في مدرسة الأحد أخبَرنا الأستاذ عن ذلك الشاب لعازر. كان ميتاً، وأُعيد إلى الحياة.

"حصل ذلك منذ وقت طويل جداً يا إيليه".

"سأُبقي الأشياء جاهزة له"، قالت. "معي صورته، وسأجلس على كرسيه –"

"إيليه، أنتِ كبيرة جداً لتتّسعي على كرسي غايدج"، قال لويس وهو يُمسك يدها الساخنة المحمومة. "ستكسريه".

"بإذن الله لن ينكسر"، قالت إيليه. كان صوتها هادئاً، لكن لويس لاحظ الانتفاخ البني تحت عينيها. النظر إليها أوجَع له قلبه كثيراً لدرجة أنه استدار عنها. ربما عندما ينكسر كرسي غايدج، ستبدأ بفهم ما حصل بشكل أفضل قليلاً.

"سأحمل الصورة وأجلس على كرسيه"، قالت. "سآكل فطوره أيضاً". كان غايدج وإيليه يتناولان صنفين مختلفين من حبوب الفطور؛ وقد ادّعت إيليه مرةً أن مذاق حبوب فطور غايدج يشبه مخاطاً ناشفاً. ولو كانت رقائق الذرة بالكاكاو هي الحبوب الوحيدة المتوفرة في المنزل،

لأكلت إيليه بيضة مسلوقة أحياناً... أو لا شيء على الإطلاق. "سآكل الفاصوليا رغم أنني أكرهها، وسأقرأ كل كتبه المصوَّرة كما... كما... أنت تعرف... سأجهِّز الأشياء... في حال..."

كانت تبكي الآن. لم يحاول لويس أن يواسيها بل اكتفى فقط بتمسيد شعرها عن جبهتها. ما كانت تتكلَّم عنه بدا منطقياً إلى حد مخبول. إبقاء الخطوط مفتوحة. إبقاء الأشياء محدَّثة. إبقاء غايدج في صيغة الحاضر، في لائحة أفضل مئة أغنية، ورَفْض تركه ينحسِر؛ هل تتذكَّر عندما فعل غايدج هذا... أو ذاك... أجل، كان ذلك رائعاً... غايدج العزيز، يا له من ولد. عندما يصبح هذا الموضوع غير مؤلم، سيصبح غير ذي أهمية. لقد فهِمت، ربما، فكَّر لويس في سرّه، كم هو سهل ترك غايدج يصبح ميتاً.

"إيليه، توقفي عن البكاء"، قال. "هذا ليس إلى الأبد".

لقد بكت إلى الأبد... لخمس عشرة دقيقة. غفت في الواقع قبل أن تتوقف دموعها. لكنها نامت في نهاية المطاف، ودقَّت الساعة العاشرة في الطابق السفلي للمنزل الهادئ.

أبقه حيّاً يا إيليه، إذا كان هذا ما تريدينه، فكَّر في سرّه وقبَّلها. *سيقول الأطباء النفسيون على الأرجح أن هذا غير صحي أبداً، لكنني أؤيّده. لأنني أعرف أنه سيأتي يوم – ربما هذا الجمعة حتى – عندما تنسين حمل الصورة وسأراها ممدَّدة على سريرك في هذه الغرفة الفارغة بينما تركبين درّاجتك على الممر الخاص أو تسيرين في الحقل خلف المنزل أو تزورين كاثي ماكغاون في منزلها لتصنعي بعض الملابس على آلة الخياطة اللعبة التي لديها. لن يكون غايدج معك، وعندها سيخرج غايدج من لائحة أفضل مئة أغنية التي تتواجد في قلوب الفتيات الصغيرات ويبدأ يصبح شيئاً حصل في العام 1984. ذكرى من الماضي.*

خرج لويس من الغرفة ووَقَف للحظة عند أعلى السلالم وهو يفكِّر - ليس جدياً - بالخلود إلى النوم.

عرَف ما يحتاج إليه. فنزل إلى الطابق السفلي للحصول عليه.

شَرَع لويس ألبرت كريد في الثمالة بطريقة منهجية. يوجد في القبو خمسة صناديق شراب شعير خفيف. لويس يشرب شراب الشعير، جاد يشربه، ستيف ماسترتون يشربه، مِيسِي داندريدج تشرب عبوة أو عبوتين من وقت لآخر بينما تراقب الولدَين (*الولد*، ذكَّر لويس نفسه وهو ينزل سلالم القبو). حتى شارلتون، في زياراتها القليلة إلى منزلهم، تفضّل شراب الشعير - طالما أنه شراب شعير خفيف - على شراب العنب. لذا ذهبت رايتشل ذات يوم في الشتاء الفائت واشترت كمية مذهِلة هي عشرة صناديق عندما عُرِضت حسومات على شراب الشعير الخفيف في السوبرماركت في برُوْور. *توقف عن الهرولة إلى متجر خوليو في أورينغتون كلما زارنا أحدهم*، قالت له. *وأنت دائماً تقتبس لي روبرت پاركر يا حبيبي - أي شراب شعير في البرّاد بعد إغلاق المتاجر أبوابها هو شراب شعير جيد، صح؟ لذا اشرب هذا وفكِّر بالمال الذي توفّره*. الشتاء الفائت. عندما كانت الأمور بخير. *عندما كانت الأمور بخير*. مضحكة السرعة والسهولة التي يُجري فيها ذهنك ذلك الانقسام الحاسم.

أحضَرَ لويس صندوق شراب شعير ووضع العبوات في البرّاد. ثم أخذ عبوةً، وأغلق باب البرّاد، وفتحها. أتى تشرش وهو يسير ببطء ووهن من حجرة المؤن عند سماعه صوت باب البرّاد وراح يحدِّق في لويس بنظرات استفسار. لم يقترب القط كثيراً؛ فالأرجح أن لويس ركله مرات عديدة.

"لا شيء لك"، قال للقط. "لقد أكلتَ علبة طعامك لليوم. إذا كنتَ تريد شيئاً آخر، اذهب واقتل عصفوراً".

بقي تشرش يقف هناك وينظر إليه. شرِب لويس نصف عبوة شراب الشعير وشعَر بتأثيرها على دماغه فوراً تقريباً.

"أنت حتى لا تأكلها، صح؟"، سأل. "مجرد قتلها كافٍ لك".

تمشّى تشرش إلى غرفة الجلوس، فقد قرَّر على ما يبدو أنه لن يكون هناك طعام له، وبعد لحظة تبَعه لويس.

فكَّر في سرّه عشوائياً مرة أخرى، *يا مَن هنا، هيا بنا*.

جلَس لويس على كرسيه ونظَرَ إلى تشرش مرة أخرى. كان القط متكئاً على السجادة قرب منضدة التلفزيون، يراقب لويس بحذر، جاهزاً على الأرجح ليهرب إذا أصبح لويس عدوانياً فجأة وقرَّر توظيف رِجله الراكلة.

بدلاً من ذلك رفعَ لويس شراب شعيره. "لغايدج"، قال. "لإبني، الذي كان يمكن أن يكون فناناً أو سبّاحاً أولمبياً أو رئيس الولايات المتحدة اللعين. ما رأيك أيها الحقير؟".

نظَرَ إليه تشرش بتلك العينين المملتين الغريبتين.

شرِب لويس بقية شراب شعيره بجرعات كبيرة أوجعت حنجرته الطرية، ونهض، وذهَب إلى البرّاد، وأحضر عبوة ثانية.

حين أنهى لويس عبوة شراب الشعير الثالثة، شَعَر أن لديه نوعاً من التوازن لأول مرة في ذلك اليوم. وحين أنهى أول حزمة سداسية العبوات، شَعَر أن النوم قد يكون ممكناً في الواقع بعد ساعة تقريباً. عاد من البرّاد حاملاً عبوته الثامنة أو التاسعة (كان قد تاه في العدّ حقاً وقتها وأصبح يسير على الحافة)، ووقعت عيناه على تشرش، الذي كان يكبو - أو يتظاهر بذلك - على السجادة الآن. جاءته الفكرة بشكل

طبيعي لدرجة أنها بلا شك كانت هناك منذ البداية، تنتظر فقط وقت خروجها المناسب من باطن عقله:

متى ستفعل ذلك؟ متى ستدفن غايدج في مقبرة الحيوانات؟

وفي أعقاب ذلك:

لعازر عاد إلى الحياة.

صوت إيليه النعسان:

قال الأستاذ إن الشاب لعازر كان ميتاً، وأُعيد إلى الحياة.

أصابته قشعريرة قوية في الصميم لدرجة أن لويس أمسَك نفسه عندما ارتجف كل جسمه. وجَد نفسه يتذكَّر فجأة اليوم الأول لإيليه في المدرسة، وكيف غفا غايدج على حُضنه بينما كان ورايتشل يستمعان إلى ثرثرة إيليه عن *العجوز ماكدونالد* والسيدة بيريمان؛ قال فقط دعيني *أضع الطفل في السرير*، وعندما أخذ غايدج إلى الطابق العلوي أصابه هاجس رهيب، والآن فهِمه: في سبتمبر الماضي، جزء منه عرَف أن غايدج سيموت قريباً. جزء منه عرَف أن أوز الكبيل واللهيب على مقربة منهم. كان ذلك هُراءً، كان عفناً، كان كلاماً فارغاً من أسخف الخرافات... وكان حقيقياً. لقد عَرف ذلك. انسكَب بعض شراب شعيره على قميصه، ورفع تشرش نظره إليه بحذر ليرى إن كانت هذه إشارة بأن احتفالات ركل القط في هذا المساء على وشك أن تبدأ.

تذكَّر لويس فجأة السؤال الذي طرحه على جاد؛ وتذكَّر الطريقة التي ارتعشت بها ذراع جاد، موقعةً زجاجتَي شراب شعير فارغتين عن الطاولة، ومحطِّمةً إحداهما. *أنت لا تريد حتى أن تتكلَّم عن هكذا أمور يا لويس!*

لكنه يريد أن يتكلَّم عنها – أو على الأقل أن يفكِّر فيها. مقبرة الحيوانات. وما يوجد بعدها. أصبحت للفكرة جاذبية مميتة. وولَّدت

توازناً منطقياً من المستحيل إنكاره. لقد قُتل تشرش على الطريق؛ وقد قُتل غايدج على الطريق. ها هو تشرش - تغيَّر طبعاً، وبشكل كريه في بعض النواحي - لكنه هنا. وقامت علاقة ناجحة بينه وبين إيليه وغايدج ورايتشل. صحيح أنه قَتَل طيوراً، وقلبَ ما بداخل بضع فئران إلى الخارج، لكن قتل الحيوانات الصغيرة هو ما تفعله القطط عادة. لم يتحوَّل تشرش بأي شكل من الأشكال إلى قطشتاين. بل بقي، في نواحٍ عديدةٍ، مثلما كان من قبل.

أنتَ تبرِّر، همَس له صوتٌ. *ليس مثلما كان من قبل. إنه مخيف. الغراب يا لويس... هل تتذكَّر الغراب؟*

"يا إلهي"، قال لويس بصوتٍ عالٍ متزعزعٍ مشتت الذهن كان بالكاد قادراً على التعرّف عليه بأنه صوته.

شَعَر كما لو أنه يعيش رواية عن الأشباح أو مصّاصي الدماء. بالله عليك بماذا تفكِّر؟ كان يفكّر بشيء مرفوض نهائياً لدرجة أنه غير قادر كلياً على تصديقه حتى الآن. والأسوأ من ذلك هو أنه يكذب على نفسه. لا يبرِّر فقط، بل *يكذب* بلا وجل.

ما الحقيقة إذاً؟ تريد الحقيقة من كل جوارحك، ما الحقيقة؟

أن تشرش لم يعد قطاً أبداً في الواقع، ابدأ بهذا. إنه يشبه قطاً، ويتصرَّف كقط، لكنه مجرد تقليد سيئ حقاً. لا يستطيع الأشخاص رؤية ذلك التقليد في الواقع، لكن يمكنهم *الشعور* به. تذكَّر ليلةً زارتهم فيها شارلتون في المنزل. كانت المناسبة عشاءً صغيراً قبل احتفال الشتاء. كانوا يجلسون هنا، يتكلَّمون بعد وجبة الطعام، وقفز تشرش إلى حُضنها. دفَعت شارلتون القط عنها فوراً، وعلت تكشيرة نفور سريعة وغريزية فمها.

لم تكن مسألة مهمة. وحتى لم يعلِّق عليها أحد. لكنها...

كانت هناك. شَعَرت شارلتون ما لم يكنه القط. أنهى لويس شراب شعيره وعاد ليُحضر عبوةً أخرى. إذا عاد غايدج متغيِّراً بهكذا طريقة، فإن ذلك سيكون مُجوناً.

فرقَع فتحة العبوة وشرِب كمية كبيرة منها. كان ثملاً الآن، ثملاً جداً، وسينتظره وجع رأس كبير غداً. *كيف ذهبتُ إلى جنازة إبني ولديَّ صُداع ما بعد الثمالة* بقلم لويس كريد، مؤلف *كيف لم أكن موجوداً له في اللحظة الحاسمة* وعدة أعمال أخرى.

ثمل. بالتأكيد. وشكٌّ الآن أن السبب الذي جعله يثمل هو لكي يمكنه التفكير بهذه الفكرة المجنونة برصانة.

رغم كل شيء، فإن للفكرة تلك الجاذبية المميتة، ذلك البريق المقزِّز، ذلك *الإغراء*. نعم، هذا أكثر من أي شيء آخر - لها *إغراءٌ*.

عاد جاد ليتكلَّم في ذهنه:

تفعله لأنه يتملّكك. تفعله لأن ذلك القبر مكانٌ سريٌّ وتريد أن تشارك السر... تخترع أعذاراً... تبدو أعذاراً وجيهةً... لكنك تفعله في الأغلب لأنك تريد ذلك. أو لأن عليك فعله.

صوت جاد، منخفضٌ ومتشدّقٌ بلكنة اليانكي، صوت جاد يُثلِج بشرته، يُصيبها بالقشعريرة، يُوقف الشعر القصير على الجهة الخلفية لعنقه.

هذه أشياء سرية يا لويس... تربة قلب الرجل حجرية أكثر... مثل التربة في مقبرة الميكماك القديمة. يزرع الرجل ما يستطيع... ويعتني به.

بدأ لويس يستعرض الأشياء الأخرى التي أخبَره إياها جاد عن مقبرة الميكماك. بدأ يرتّب البيانات، يفرزها، يضغطها - أكمَل بنفس الأسلوب تماماً الذي كان يعتمده عند تهيئة نفسه للامتحانات الكبيرة.

الكلب. سپوت.

استطعتُ رؤية الأماكن التي جرحه فيها السلك الشائك - لم يكن هناك فرو في كل تلك الأماكن، وبدا اللحم منقوراً.

الثور. فُتح ملف آخر في ذهن لويس.

دفنَ لشتر مورغان ثوره هناك. ثور أنغوس أسود يدعى هانراتي... جرّه لشتر كل تلك المسافة إلى هناك على مزلجة... أطلق عليه النار بعد أسبوعين. فقد أصبح ذلك الثور دنيئاً، دنيئاً حقاً. لكنه الحيوان الوحيد الذي سمِعتُ أنه أصبح هكذا.

أصبح دنيئاً.

تربة قلب الرجل حجرية أكثر.

أصبح دنيئاً حقاً.

هو الحيوان الوحيد الذي سمِعتُ أنه أصبح هكذا.

تفعله في الأغلب لأنك صعدتَ إلى هناك، إنه مكانك.

بدا اللحم منقوراً.

هانراتي، أليس هذا إسماً سخيفاً لثورٍ؟

يزرع الرجل ما يستطيع... ويعتني به.

إنها جرذاني. وطيوري. لقد اشتريتُ اللعينين.

إنه مكانك، مكان سري، وينتمي إليك، وأنت تنتمي إليه.

أصبح دنيئاً، لكنه الحيوان الوحيد الذي سمِعتُ أنه أصبح هكذا.

ما الشيء التالي الذي تريد شراءه يا لويس، عندما تعصف الرياح في الليل ويُلقي القمر مساراً أبيض عبر الغابة إلى ذلك المكان؟ هل تريد تسلّق تلك الدرجات مرة أخرى؟ عندما يشاهدون فيلم رعب، يعرف الجميع أن البطل أو البطلة غبيٌّ كفاية ليصعد تلك الدرجات، لكن الناس يفعلون ذلك في الحياة الحقيقية دائماً - يدخّنون، لا يضعون أحزمة الأمان، ينقلون عائلاتهم إلى منازل بجانب طريق عام مزدحم

تقطعه شاحنات كبيرة ذهاباً وإياباً طوال الليل والنهار. لذا ماذا تقول يا لويس؟ هل تريد تسلّق الدرجات؟ هل تريد الاحتفاظ بإبنك الميت أو تأخذ ما يوجد خلف الباب رقم واحد، أو الباب رقم اثنين، أو الباب رقم ثلاثة؟

يا مَن هنا، هيا بنا.

أصبح دنيئاً... الحيوان الوحيد... بدا اللحم... رجل... ينتمي إليك... ينتمي إليه...

أفرغ لويس بقية شراب الشعير في المغسلة، وقد شَعَر فجأة أنه سيتقيأ. كانت الغرفة تدور حوله بحركات دائرية كبيرة.

سِمع قرعاً على الباب.

بقي لوقت طويل - بدا وقتاً طويلاً، على أي حال - يظن أنه في رأسه فقط، أنه هلوسةٌ. لكن القرع استمر بدون انقطاع، بصبر، بشراسة. وفجأة وجَد لويس نفسه يتذكَّر قصة كفّ القرد، وحلَّ عليه رعب بارد. بدا أنه يشعر به بواقعِ جسديٍ تامٍ - كان مثل يد ميتة تُركَت في برّاد، يد ميتة امتلأت حياةً فجأة بلا جسد وانسدَّت داخل قميصه لتُمسك اللحم الذي فوق قلبه. كانت صورة ساذجة، مُغثية وساذجة، لكن آه، لم يشعر أنها ساذجة. لا.

ذهَب لويس إلى الباب على قدمَين لا يمكنه الشعور بهما ورفعَ المزلاج بأصابع واهنة. وفكَّر في سرّه بينما كان يفتَحه: سيكون باسكاو. مثلما قالوا عن جيم موريسون، العائد من الموت وأكبر من أي وقت مضى. باسكاو واقفٌ هناك في شورت هرولته، كبيرٌ كالحياة ومتعفِّنٌ مثل خبزٍ مخبوزٍ من شهر، باسكاو برأسه المُتلَف بشكل رهيب، باسكاو ينقل له التحذير مرة أخرى: لا تصعد إلى هناك. ماذا تقول تلك الأغنية القديمة لفرقة ذي أنيملز؟ حبيبتي، *لا تذهبي رجاءً*، حبيبتي

لا تذهبي رجاءً، تعرفين أنني أحبك كثيراً، حبيبتي، لا تذهبي رجاءً.

فتح الباب ورأى جاد كراندال واقفاً هناك على عتبة منزله في الظلام الحالك لمنتصف هذا الليل، بين يوم الزيارة في دار الدفن وبين يوم دفن إبنه. كان شعره الأبيض الخفيف يتطاير عشوائياً في الظلام القارس.

"ابن الحلال عند ذكره يبان"، قال لويس بصوتٍ غليظٍ، ثم حاوَل أن يضحك. بدا له أن الزمن دار بذكاء على نفسه، وأصبح يوم الشُكر مرة أخرى. قريباً سيضعان جثة ونستون تشرشل، قط إيليه، المتيبّس والمتضخّم بشكل غير طبيعي في كيس نفايات بلاستيكي وينطلقان. *آه، لا تسأل ما الأمر؛ هيا نذهب ونقوم بزيارتنا.*

"هل يمكنني أن أدخل يا لويس؟"، سأل جاد. أخرج علبة سجائر تشسترفيلد من جيب قميصه وحشر واحدةً في فمه.

"بصراحة"، قال لويس، "الوقت متأخر وقد شربتُ الكثير من شراب الشعير".

"نعم، يمكنني شمّ رائحته عليك"، قال جاد. أشعلَ عود ثقاب. أطفأته الرياح. أشعلَ واحداً آخر مكوِّراً يديه حوله، لكن اليدين ارتعشتا وخانته واستسلم عود الثقاب للرياح مرة أخرى. أخرجَ عود ثقاب ثالث واستعدّ ليُشعله، ثم رفع نظره إلى لويس الواقف عند المدخَل. "لا أستطيع إشعال هذا الشيء"، قال جاد. "هل ستدعني أدخل أم لا يا لويس؟".

تنحّى لويس جانباً وترك جاد يدخل.

الفصل 38

جلَسا إلى طاولة المطبخ يشربان شراب شعير - *أول مرة نشرب منه في مطبخنا*، فكّر لويس في سرّه، متفاجئاً قليلاً. في منتصف الطريق إلى غرفة الجلوس، صرَخت إيليه في نومها، وجمُد كلاهما كتمثالين في لعبة أولاد. لم تتكرّر الصرخة.

"حسناً"، قال لويس، "ماذا تفعل هنا في الثانية عشرة والربع فجر يوم دفن إبني؟ أنت صديق يا جاد، لكنك تبالغ".

شرِب جاد، مسَح فمه بيده، ونظر إلى لويس مباشرة. كان هناك شيء حاد وأكيد في عينيه، وأخفَض لويس نظره منه أخيراً.

"أنتَ تعرف لماذا أنا هنا"، قال جاد. "أنتَ تفكّر في أشياء لا يجب التفكير فيها يا لويس. والأسوأ أيضاً هو أنني أخشى أنك تأخذها على محمل الجدّ".

"لم أكن أفكّر في شيء سوى الخلود إلى النوم"، قال لويس. "لديَّ دفنٌ يجب أن أحضره غداً".

"أنا مسؤول عن ألم في قلبك أكثر مما يجب أن تشعر به هذه الليلة"، قال جاد بلطف. "كل ما أعرفه هو أنني قد أكون حتى المسؤول عن وفاة إبنك".

رفع لويس نظره، جافلاً. "ماذا - ؟ جاد، لا تكن مجنوناً!".

"أنتَ تفكّر في محاولة وضعه هناك"، قال جاد. "لا تنكر أن الفكرة خطرت ببالك يا لويس".

لم يردّ لويس.

"إلى أي مدى يصل تأثيره؟"، قال جاد. "هل يمكنك أن تُخبِرني؟ لا. لا يمكنني الإجابة على هذا السؤال أنا أيضاً، وقد عشتُ حياتي

كلها في هذه البقعة من العالم. أعرف عن أفراد قبيلة الميكماك، وأنهم لطالما اعتبروا ذلك المكان مبجَّلاً... لكن ليس بطريقة جيدة. ستاني بي أخبَرني هذا. وأبي أخبَرني إياه أيضاً - لاحقاً. بعد موت سپوت للمرة الثانية. الآن يتجادل أفراد قبيلة الميكماك وولاية ماين وحكومة الولايات المتحدة في المحكمة عمَن يملك تلك الأرض. مَن يملكها؟ لا أحد يعرف حقاً يا لويس. ليس بعد الآن. فقد طالَب بها أشخاص مختلفون في وقت أو في آخر، لكن لا أحد منهم فاز بمُلكيتها. أنسون لادلو، حفيد إبن مؤسِّس هذه البلدة، مثلاً. كان إدعاؤه الأفضل على الأرجح بالنسبة لرجل أبيض، بما أن الشيخ جوزيف لادلو حصل على الأرض كلها هِبةً من الملك جورجي العزيز في الأيام الخوالي عندما كانت ماين مجرد إقليم كبير تابع لمستعمرة خليج ماساتشوستس. لكن حتى عندها كان ليخوض معركة قضائية طاحنة لأنه كانت هناك ادعاءات مقابلة بمُلكية الأرض من فرد آخر من أفراد عائلة لادلو، ومن رجل يدعى بيتر ديمارت ادّعى أنه يمكنه أن يبرهن بما لا يقبل الشك أنه من عائلة لادلو من علاقة غير شرعية. وكان الشيخ جوزيف لادلو فقيراً مادياً لكن غنياً بالأراضي قبيل نهاية حياته، وبين الحين والآخر يُهدي أحدهم مئتَي أو أربعمئة فدان عندما يكون ثملاً".

"ألم يكن أيٌ من تلك الصُكوك مسجَّلاً؟"، سأل لويس، مفتوناً رغماً عن نفسه.

"آه، لم يكن أجدادنا منظَّمين أبداً في مسألة تسجيل الصُكوك"، قال جاد وهو يُشعِل سيجارة جديدة من عَقِب السيجارة السابقة. "يقول سند المُلكية الأصلي لأرضك شيئاً كالتالي". أغمض جاد عينيه واقتبسَ، "من شجرة القيقب القديمة التي تقف عند أعلى كوينسبيري ريدج حتى شفير نهر أورينغتون؛ وبالتالي تغطي المسلك من الشمال إلى

الجنوب". ابتسم جاد من دون فكاهة كبيرة. "لكن لنفترض أن شجرة القيقب القديمة سقَطت في العام 1882، وتعفَّنت إلى طحلب في العام 1900، وامتلأ نهر أورينغتون بالطمي وتحوَّل إلى مستنقع في السنوات العشرة بين نهاية الحرب العُظمى وانهيار البورصة، مُحدثاً فوضى لطيفة في النهاية. انتهى المطاف بعدم اهتمام أنسون العجوز بها، على أي حال. وقد قُتل بضربة برق في العام 1921، تماماً حيث تتواجد المقبرة".

حدَّق لويس في جاد. رَشَف جاد شراب شعيره.

"لا يهمّ. هناك أماكن كثيرة يتشابك فيه تاريخ المُلكية بشكل كبير بحيث أن الأمور لا تتوضَّح أبداً، وفقط المحامون يجنون المال في النهاية. تباً، كان ديكنز يعرف ذلك. وأظن أن الهنود سيستعيدونها في النهاية، وأعتقد أن هذا ما يجب أن يحصل. لكن هذا لا يهمّ حقاً يا لويس. لقد أتيتُ إلى هنا هذه الليلة لأخبرك عن تيمي باترمان وأبيه".

"مَن تيمي باترمان؟".

"كان تيمي باترمان أحد الفتيان العشرين تقريباً من عائلة لادلو الذين ذهبوا إلى ما وراء البحار لمحاربة هتلر. رحل في العام 1942، وعاد في صندوق عليه عَلَم في العام 1943. مات في ايطاليا. أبوه، بيل باترمان، عاش حياته كلها في هذه البلدة. أُصيب بالجنون عندما تلقى البرقية... ثم هدأ فوراً. كان يعرف عن مقبرة الميكماك. وقرَّر أن هذا ما سيفعله".

عادت القشعريرة. بقي لويس يحدِّق في جاد لوقت طويل، محاولاً قراءة الكذبة في عينَي العجوز. لم يجدها. لكن توقيت ظهور هذه القصة الآن بالذات كان مناسباً تماماً.

"لماذا لم تخبرني عن هذا تلك الليلة؟"، قال أخيراً. "بعد أن... بعد أن دفنّا القط؟ عندما سألتُك إن دفنَ أحدهم شخصاً هناك، قلتَ

لا أحد فعل ذلك أبداً".

"لأنك لم تحتج إلى معرفة ذلك"، قال جاد. "الآن تحتاج".

بقي لويس صامتاً لوقت طويل. "هل كان الوحيد؟".

"الوحيد الذي أعرف عنه شخصياً"، قال جاد بقلق بالغ. "الوحيد الذي جرَّب فعل ذلك؟ أشكّ في ذلك يا لويس. أشكّ كثيراً. لا أظن أن هناك أي شيء جديد تحت الشمس. آه، أحياناً البريق الذي تنثره فوق أحد الأشياء يتغيَّر، لكن هذا كل ما في الأمر. وما قد جُرِّب مرةً جُرِّب مرةً من قبل... وقبل... وقبل".

أخفَض نظره إلى يديه المنقَّطتين. دقَّت الساعة في غرفة الجلوس بلطف مُعلنةً أنها الثانية عشرة والنصف.

"قرَّرتُ أن رجلاً في مهنتك معتادٌ على النظر إلى العوارض ورؤية الأمراض الكامنة خلفها... وقرَّرتُ أن عليَّ أن أكلِّمك بصراحة عندما أخبَرني مورتونسون في دار الدفن أنك طلبتَ صندوقاً أسمنتياً بدلاً من حاوية مُحكمة الإغلاق".

بقي لويس ينظر إلى جاد لوقت طويل، ولا يقول شيئاً. تورَّد جاد خجلاً بقوة لكنه لم يشح بنظره.

أخيراً قال لويس: "يبدو أنك قمتَ ببعض التجسّس عليَّ يا جاد. يؤسفني هذا".

" لم أسأله ماذا اشتريتَ".

"ليس بشكل مباشر، ربما".

لكن جاد لم يردّ، ورغم أن تورّده خجلاً ازداد حدّة - بدأت بشرته تشبه لون الخوخ الآن - لم ترتعش عيناه.

أخيراً، تنهَّد لويس. كان يشعر بتعب لا يوصف. "آه، تباً. لا يهمّني. ربما أنت محقّ. ربما خطرَ ببالي ذلك. وإن خطرَ، فكان ذلك

على الجانب السلبي للمسألة. لم أفكّر كثيراً بما كنتُ أطلبه. كنتُ أفكّر بغايدج".

"أعرف أنك كنتَ تفكّر بغايدج. لكنك كنتَ تعرف الفرق بينهما. فعمّك كان حانوتيّاً".

نعم، كان يعرف الفرق. فالحاوية المُحكمة الإغلاق شيءٌ يُفترَض به أن يدوم لفترة طويلة جداً. يُصَبّ الأسمنت في قالب مستطيل معزَّز بقضبان فولاذية، ثم بعد انتهاء مراسم الدفن عند القبر، تُنزل عليه رافعةٌ غطاءً أسمنتياً منحنياً قليلاً. ثم يُختَم الغطاء بمادة تشبه تلك التي يستخدمها عمّال صيانة الطرقات العامة لملء الحُفر. العمّ كارل أخبَر لويس بأن مانع التسرّب يولِّد قبضةً مخيفةً بعد وضع كل ذلك الوزن عليه لبعض الوقت.

العمّ كارل، الذي كان يحبّ أن يروي حكايات مثل أي شخص آخر (على الأقل عندما يكون مع أترابه، ولويس، الذي عمِل معه لعدة فصول صيف، أصبح مؤهَّلاً ليكون حانوتيّاً متدرِّباً)، أخبَر إبن أخيه عن أمرٍ بنبش قبرٍ تلقاه ذات يوم من مكتب المدّعي العام لمقاطعة كُوك. خرَج العمّ كارل إلى غروفلاند ليُشرف على عملية النبش. وقال إنه يمكنها أن تكون عملية حسّاسة - فالأشخاص الذين جاءت معلوماتهم عن عمليات نبش القبور من أفلام الرعب تلك بطولة بوريس كارلوف في دور الطبيب فرانكشتاين ودوايت فراي في دور إيغور لديهم انطباع خاطئ كلياً. لأن فتح حاوية مُحكمة الإغلاق ليس عملاً يؤدّيه رجلان بواسطة معاول ومجارف - إلا إذا كانت لديهم ستة أسابيع لإنهاء المهمة. تمت تلك العملية بشكل جيد... في البدء. فقد فُتح القبر، وتشبَّثت الرافعة بغطاء الحاوية. ما عدا أن الغطاء لم يرتفع مثلما يُفترَض أن يحصل. الحاوية بأكملها، بما أن جهاتها الأسمنتية

كانت قد أصبحت رطبة قليلاً من قبل وفسُدت ألوانها، بدأت ترتفع كلها من داخل الأرض. صَرَخ العمّ كارل لعامل الرافعة بأن يتوقف، فقد أراد أن يعود إلى مكتب الدفن ليحصل على مادةٍ ستُضعِف قبضة مانع التسرّب قليلاً.

إما أن عامل الرافعة لم يسمع أو أراد الذهاب إلى الحد الأقصى، مثل ولدٍ صغيرٍ يلعب بالرافعة اللعبة ذات الجوائز التافهة في صالات الألعاب. قال العمّ كارل إن المغفَّل اللعين كاد يُخرجه أيضاً. فقد ارتفعت الحاوية ثلاثة أرباع المسافة واستطاع مع مساعِده سماع الماء يرتطم بالتربة من الجانب السفلي للحاوية إلى أرضية القبر - كان أسبوعاً رطباً في شيكاغو وضواحيها - عندما انقلبت الرافعة وسقطت في القبر. اصطدم عامل الرافعة بالزجاج الأمامي وكسر أنفه. أحداث ذلك اليوم كلَّفت مقاطعة كُوك حوالي 2,100$ - 3,000$ أكثر من الكلفة الاعتيادية لهكذا أعمال. المغزى الحقيقي للقصة بالنسبة للعمّ كارل هو أنه تم انتخاب عامل الرافعة رئيساً لنقابة سائقي الشاحنات المحلية في شيكاغو بعد ست سنوات.

كان الصندوق الأسمنتي أبسط بكثير. فهو مجرد صندوق متواضع من الأسمنت مفتوح أعلاه، ويوضع في القبر صباح يوم الجنازة. بعد انتهاء المراسم، يُنزَل التابوت فيه. ثم يُحضَر جزؤه العلوي، الذي يكون عادة من قسمَين أو ثلاثة أقسام. تُنزَل تلك الأقسام عمودياً عند أطراف القبر، حيث تقف مثل مساند الكتب. تُوضع حلقات حديدية في الأسمنت عند أطراف كل قسم، ثم تُمرَّر سلاسل عبرها وتُنزَل بلطف فوق الصندوق الأسمنتي. يزن كل قسم سبعة وعشرين وربما ثلاثين كيلوغراماً - خمسة وثلاثين، كحد أقصى. ولا تُستخدَم أي مادة إغلاق.

من السهل على الرجل فتح صندوق أسمنتي؛ هذا ما كان جاد يلمِّح إليه.

من السهل على رجل أن ينبش جثة إبنه ويدفنها في مكان آخر.

صههههه... صههههه. لن نتكلَّم عن هكذا أشياء. هذه أشياء سرية.

"نعم، أظن أنني كنتُ أعرف الفرق بين حاوية مُحكمة الإغلاق وبين صندوق أسمنتي"، قال لويس. "لكنني لم أكن أفكِّر في... ما تظن أنني كنتُ أفكِّر فيه".

"لويس –"

"تأخر الوقت"، قال لويس. "تأخر الوقت، وأنا ثمل، وقلبي يؤلمني. إذا شعرتَ أن عليك إخباري هذه القصة، أخبِرني إياها إذاً ولننتهي من هذه المسألة". *ربما كان عليَّ أن أتناول شراب البذور البيضاء بدلاً من شراب الشعير*، فكَّر في سرّه. *وعندها كان يمكنني أن أكون مغمياً عليَّ بأمان عندما أتى يقرع الباب.*

"حسناً يا لويس. شكراً".

"فقط تكلَّم".

صمتَ جاد لبرهة يفكِّر، ثم بدأ يتكلَّم.

الفصل 39

"في تلك الأيام - أعني خلال الحرب - كان القطار لا يزال يتوقف في أورينغتون، وقد أحضَر بيل باترمان عربة إلى محطة تحميل القطار لينقل جثة إبنه تيمي. أنزَلَ أربعة رجال من السكة الحديدية التابوت. وكنتُ أحدهم. كان هناك جندي من الجيش على متن القطار مُرسلاً من دائرة القبور والتسجيل - وهذه تعادل الحانوتيين لدى الجيش في زمن الحرب يا لويس - لكنه لم ينزل من القطار أبداً. بل بقي يجلس ثملاً في عربة نقل لا تزال تحتوي على اثنَي عشر تابوتاً".

"وَضَعنا تيمي في الجهة الخلفية لكاديلاك مكتب الدفن - في تلك الأيام كان لا يزال شائعاً سماع أشياء مثل 'عربات الإسراع' لأن الهمّ الرئيسي في الأيام الخوالي كان دفن الجثة قبل أن تتعفَّن. وَقَف بيل باترمان جانباً، بوجهٍ صخريٍ وإلى حد ما... لا أعرف... إلى حد ما جافٍ، أظن أنه يمكنك القول. لم يبكِ أبداً. كان هيوي غاربر يقود القطار في ذلك اليوم، وقال إن الجندي قام بجولة كبيرة أيضاً، فقد طار مع عدد كبير من تلك التوابيت إلى لايمستون في پرَسك آيل، حيث استقلّت التوابيت وحارسها القطار جنوباً.

"اقترب الجندي من هيوي سيراً على الأقدام، وأخرَجَ قارورة شراب الجاودار من بلوزة زيّه، وقال بصوته الجنوبي الناعم المتشدِّق، 'هل تعرف يا سيدي المهندس أنك تقود قطاراً غامضاً اليوم؟'".

"هزَّ هيوي رأسه".

"حسناً، أصبحتَ تعرف الآن. على الأقل، هذا ما يُطلقونه على قطار الجنازة في ألاباما، وهو المكان الذي آتي منه'. قال هيوي إن الجندي أخرَجَ لائحةً من جيبه وحَوَل عينيه فيها. 'سنبدأ بإنزال تابوتين

في هولتون، ثم تابوت في باسادومكيغ، وتابوتين في بانغور، وتابوت في دِيري، وتابوت في لادلو، الخ. أشعر كما لو أنني موزِّع حليب لعين. هل تريد أن تشرب؟".

رفضَ هيوي الشراب من منطلق أن سكان بانغور وأروستوك نيِّقون جداً تجاه سائقي القطارات الذين تفوح رائحة شراب الجاودار من أنفاسهم، ولم يلُم الجندي من دائرة القبور والتسجيل هيوي على ذلك، مثلما أن هيوي لم يلُم الجندي على ثمالته. حتى إنهما تصافحا تعبيراً عن اتفاقهما الضمني هذا، قال هيوي.

"لذا انطلقوا، مُنزلين تلك التوابيت الملفوفة بأعلام كل محطة أو محطتين. الثمانية عشرة أو العشرون كلها. قال هيوي إنهم وصلوا حتى بوسطن، وكان هناك أنسباء يبكون ويعوِّلون في كل محطة ما عدا لادلو... وفي لادلو أُتحِفَ عند رؤية بيل باترمان، الذي بدا، حسبما قال، كأنه ميت داخلياً وينتظر فقط أن تفوح الرائحة الكريهة لروحه. عندما نزَل من ذلك القطار، قال إنه أيقظ ذلك الجندي، وقصدا بعض المقاصف - خمسة عشر أو عشرين - وأصبح هيوي ثملاً أكثر من أي وقت مضى في حياته، وذهَب إلى بائعة هوى، وهو شيء لم يفعله أبداً في حياته كلها، واستيقظ مع مجموعة من القمل الكبير الحجم والدنيء لدرجة أنه أُصيب بالارتعاش منها، وقال إنه إذا كان هذا ما يسمّونه قطاراً غامضاً، فهو لن يريد أن يقود قطاراً غامضاً مرة أخرى أبداً.

"أُخذت جثة تيمي إلى دار دفن غرينسبان في شارع السرخس - كان يتواجد على الجهة المقابلة لمكان تواجد مصبغة فرانكلين الجديدة الآن - ودُفن بعد يومين في مقبرة پليزنتفيو بجنازة عسكرية".

"دعني أُخبِرك يا لويس: كانت السيدة باترمان قد ماتت قبل ذلك بعشر سنوات، إلى جانب الولد الثاني الذي حاوَلت إحضاره إلى

هذا العالم، وكان لذلك علاقة كبيرة بما حصل. فوجود ولدٍ ثانٍ كان ليساعد في تخفيف الألم كثيراً، ألا تعتقد؟ كان الولد الثاني ليذكِّر بيل العزيز أن هناك آخرين يتألمون ويجب مساعدتهم والوقوف إلى جانبهم. أظنك محظوظاً أكثر بهذا المعنى - أقصد بوجود ولد آخر. إبنة وزوجة حيّتان وبصحة جيدة".

"وفقاً للرسالة التي تلقاها بيل من الملازم المسؤول عن فصيلة إبنه، أُسقِط تيمي على الطريق إلى روما في 15 يوليو 1943. شُحنَت جثته إلى الوطن بعد يومين، ووصلت إلى لايمستون في 19 يوليو. ووُضعَت على متن قطار هيوي غاربر الغامض في اليوم التالي. معظم الجنود الذين قُتلوا في أوروبا دُفنوا في أوروبا، لكن كل الفتيان الذين عادوا إلى الوطن على متن ذلك القطار كانوا مميزين - فقد مات تيمي وهو يهاجم مربضاً رشاشاً، وقد نال وسام النجمة الفضية بعد وفاته".

"دُفن تيمي - لا تُلزمني بهذا لكنني أعتقد أنه جرى في 22 يوليو. وبعد أربعة أو خمسة أيام، رأت مارجوري واشبورن، التي كانت ساعية البريد في تلك الأيام، تيمي يسير على الطريق نحو إسطبل عربات يورك. تباً، كادت مارجي تقود سيارتها إلى خارج الطريق، ويمكنك أن تفهم السبب. عادت إلى مكتب البريد، ورمت حقيبتها الجلدية بكل بريدها غير المسلَّم الذي لا يزال فيه على مكتب جورج أندرسون، وأخبرته أنها عائدة إلى المنزل وإلى السرير فوراً.

"'مارجي، هل أنت مريضة؟'، سألها جورج. 'لونك أبيض تماماً مثل جناح نورسٍ'".

"'صُدمتُ صدمة حياتي، ولا أريد أن أكلّمك عنها'، قالت مارجي واشبورن. 'لن أكلِّم براين عنها، أو أمي، أو أي شخص آخر. حتى بعد مماتي'. وخرجت من المكتب".

"كان الجميع يعرفون أن تيمي مات، وقد نُشرَ نعيه في صحيفة بانغور *الدايلي نيوز* وصحيفة إلزْورث *الأميركان* قبل أسبوع، مع صورته، وذهب نصف سكان البلدة إلى المدينة لحضور جنازته. وها هي مارجي تراه يسير على الطريق - *يتطوّح* على الطريق، أخبَرت جورج أندرسون العجوز أخيراً - لكن بعد عشرين سنة، وكانت على فراش الموت، وأخبَرني جورج أنه بدا عليها أنها تريد إخبار أحدهم بما رأته. قال جورج إنه بدا له أن هذا بقي يفترس ذهنها طوال الوقت.

"كان شاحباً، قالت، ويرتدي بنطلوناً قطنياً قديماً وقميص صيد باهتاً، رغم أن الحرارة كانت بلا شك اثنان وثلاثون في الظل ذلك اليوم. قالت مارجي إن كل شعره كان ناتئاً على رأسه كما لو أنه لم يستخدم مشطاً عليه منذ شهر أو أكثر. 'كانت عيناه مثل زبيبتين محشورتين في عجينة خبز. رأيتُ شبحاً في ذلك اليوم يا جورج. هذا ما أخافني جداً. لم أعتقد أبداً أنني سأرى شيئاً كهذا'".

"حسناً، تم تناقل هذا الخبر. وسرعان ما بدأ أشخاص آخرون يرون تيمي أيضاً. السيدة ستراتون - حسناً، نسمّيها 'السيدة'، لكن على حد علم أي شخص، ربما كانت عزباء أو مطلّقة أو أرملة - تعيش في منزل صغير ذي غرفتين عند تقاطع طريق بيدرسن وطريق هانكوك، ولديها الكثير من أسطوانات الجاز، وهي مستعدة أحياناً أن تقيم لك حفلة صغيرة إذا كانت معك عشرة دولارات لا تدري ماذا تفعل بها. حسناً، قالت إنها رأته من شرفتها يسير إلى حافة الطريق ويتوقف هناك".

"وَقَف هناك فقط، قالت، ويداه متدلّيتان على جنبَيه ورأسه مدفوعاً إلى الأمام قليلاً، لذا كان ذقنه يقوده كما لو أنه ملاكم جاهز ليأكل بعض القماش. وقالت إنها وَقَفت هناك على شرفتها، وقلبها

ينبض بسرعة ستين، خائفة جداً لكي تتحرَّك. ثم قالت إنه استدار، وكان ذلك أشبه بمشاهدة رجل ثمل يحاول أن يقوم باستدارة عسكرية إلى الخلف. امتدّت إحدى قدمَيه كثيراً إلى الخارج واستدارت القدم الأخرى، وسقط أرضاً. قالت إنه نظرَ إليها مباشرة وخارت كل القوة في يديها وأفلَتت سلة الغسيل التي كانت تحملها، وسقطت الملابس على الأرض وتوسّخت من جديد.

"قالت إن عينيه... قالت إنهما بدتا ميتتين ومليئتين بالتراب مثل بِليتين يا لويس. لكنه رآها... وابتسم... وقالت إنه كلَّمها. سألها إن كانت لا تزال تملك تلك الأسطوانات لأنه لا يمانِع أن يرقص معها. ربما تلك الليلة بالذات. عادت السيدة ستراتون إلى الداخل، ولم تخرج من منزلها لأسبوع تقريباً، وكانت المسألة قد انتهت وقتها على أي حال".

"كثير من الأشخاص رأوا تيمي باترمان. العديد منهم ميت الآن – السيدة ستراتون، مثلاً، وآخرون أكملوا طريقهم، لكن هناك بضعة عجائز مثلي سيخبرونك... إذا سألتهم الأسئلة الصحيحة".

"رأوه، سأُخبِرك بهذا، يسير ذهاباً وإياباً على طريق بيدرسن، على بُعد ميل شرق منزل أبيه وعلى بُعد ميل غربه. يسير ذهاباً وإياباً، ذهاباً وإياباً طوال اليوم، وقيل أيضاً طوال الليل. قميص غير موضوع داخل السروال، وجه شاحب، شعر ناتئ على شكل مسامير، سحّاب مفكوك أحياناً، وتلك النظرة على وجهه... تلك *النظرة*..."

صمتَ جاد لبرهة ليُشعل سيجارةً، وتكلَّم لويس للمرة الأولى.

"هل رأيتَه أنت؟".

هزَّ جاد عود الثقاب ليُطفئه ونظَرَ إلى لويس عبر ضباب الدخان الأزرق المنجرف. ورغم أن القصة كانت، بالطبع، مجنونة تماماً، لم يكن هناك كذبٌ في عينَي جاد.

"أجل، رأيتُه. مثلما تعلم، لديهم تلك القصص وتلك الأفلام – لا أعرف إن كانت حقيقية – عن الزومبي في هاييتي. يمشون ببطء شديد وطريقة خرقاء نوعاً ما في الأفلام، وعيونهم الميتة تحدِّق إلى الأمام مباشرة. كان تيمي باترمان هكذا يا لويس، مثل زومبي في فيلم، لكنه *لم يكن كذلك*. كان هناك شيء *أكثر*. كان هناك شيء يجري خلف عينيه، ويمكنك رؤيته أحياناً، وأحياناً أخرى لا يمكنك رؤيته. شيء *خلف عينيه يا لويس*. لا أعتقد أنني أريد اعتباره تفكيراً. لا أعرف ماذا أريد اعتباره".

"كان خبيثاً، هذا من جهة. مثل إخباره السيدة ستراتون أنه أراد الرقص معها. كان هناك شيء *يجري* داخله يا لويس، لكنني لا أعتقد أنه كان تفكيراً ولا أعتقد أنه كانت له علاقة كبيرة – ربما لا علاقة على الإطلاق – بتيمي باترمان. كان أشبه بـ ... إشارة راديو آتية من مكان ما. تنظر إليه وتقول لنفسك، 'إذا لمسني، سأصرخ'".

"يسير ذهاباً وإياباً، صعوداً ونزولاً على الطريق، وذات يوم بعد أن عدتُ إلى المنزل من عملي – لا شك أن هذا حصل، آه، سأقول 30 يوليو تقريباً – ووجدتُ جورج أندرسون، مسؤول البريد، لا تعرفه، جالساً على شرفتي الخلفية، يشرب شاياً مُثلَّجاً مع هنيبعل بنسون، الذي كان وقتها عضونا الثاني في البلدية، وآلان بورينتون، الذي كان رئيس قسم الإطفاء. كانت نورما جالسة هناك أيضاً لكنها لم تقل أي كلمة أبداً".

"بقي جورج يفرك ما تبقّى من أعلى رِجله اليمنى، حيث فَقَد معظم تلك الرِجل في عمله على السكة الحديدية، وما تبقّى منها كان يزعجه كثيراً في الأيام الحارة والرطبة. لكنه كان هناك، بائساً أم لا".

"'لقد تمادى هذا الأمر كفايةً'، قال لي جورج. 'لديَّ ساعية بريد

لن تسلِّم بريدها على طريق پيدرسن – هذا من جهة. وبدأت المسألة تُثير بلبلةً مع الحكومة، وهذا من جهة أخرى'".

"'ماذا تقصد، تُثير بلبلةً مع الحكومة؟'، سألتُه".

"قال هنيبعل إنه تلقى مكالمة من وزارة الدفاع. من ملازم يدعى كينسمان وظيفته إزالة الأذى الخبيث من الحماقة السخيفة. 'أربعة أو خمسة أشخاص كتبوا رسائل مجهولة إلى وزارة الدفاع'، قال هنيبعل، 'وقد بدأ ذلك الملازم كينسمان يقلق قليلاً. لو كان شخص واحد فقط مَن كتبَ له رسالة واحدة، لكان تخلَّص منها وهو يضحك. ولو كان شخص واحد فقط مَن كتبَ مجموعة كاملة من الرسائل، قال كينسمان إنه كان سيتصل بشرطة الولاية في دِيري باراكس ويُخبِرهم أنه ربما لديهم مضطربٌ نفسياً يكره عائلة باترمان في لادلو. لكن كل تلك الرسائل أتت من أشخاص مختلفين. قال إنه يمكنك إدراك ذلك من خط اليد، سواء كانت تتضمن إسماً أم لا، وكلها تقول الشيء المجنون نفسه – إنه إذا كان تيموثي باترمان ميتاً، فإن جثّته اللعينة حيوية جداً لكي تسير صعوداً ونزولاً على طريق پيدرسن بوجهه العاري عليها'".

"'سيرسل كينسمان زميلاً له أو سيأتي بنفسه إذا لم تهدأ هذه المسألة'، أنهى هنيبعل كلامه. 'يريدون معرفة إن كان تيمي ميتاً، أو غائباً عن الجيش بدون إذن، أو ماذا، لأنهم لا يحبّون أن تكون سجلاتهم غير دقيقة. كما يريدون معرفة مَن الذي دُفن في صندوق تيمي باترمان، إذا لم يكن هو'".

"حسناً، يمكنك رؤية نوع الفوضى التي سبَّبها ذلك يا لويس. جلَسنا هناك لحوالي ساعة، نشرب الشاي المُثلَّج ونناقش المسألة. سألتنا نورما إن كنا نريد شطائر، لكن لا أحد أراد واحدةً. يا للهول، القضية مع تيمي باترمان كانت تشبه عثورك على امرأة لديها ثلاث

حلمات... أنتَ تعرف أن ذلك ليس صحيحاً، لكن ماذا يمكنك أن تفعل بشأنه؟".

"بقينا نتناقش ونتناقش، وقرَّرنا أخيراً أن علينا الذهاب إلى هناك، إلى منزل باترمان. لن أنسى تلك الليلة أبداً، إلا إذا عشتُ ضعف عمري الآن. كان اليوم حاراً، كما لو أنك داخل فرن، والشمس تغيب مثل شخص بدين خلف السُحُب. لم يرغب أحد منا بالذهاب، لكن علينا أن نذهب. عرَفت نورما ذلك قبل أي واحد منا. نادتني إلى الداخل بحجّة ما وقالت، 'لا تدعهم يتردَّدون ويؤجّلون هذا يا جادسون. عليك الاهتمام بهذا. هذا رِجسٌ".

راح جاد يقيس لويس بعينيه.

"هذا ما سمَّته يا لويس. كانت كلمتها. رِجسٌ. وقد همسَتها في أذني، 'إذا حصل أي شيء يا جاد، اهرب فوراً. لا تهتمّ بهؤلاء الآخرين؛ عليهم الاهتمام بأنفسهم. تذكَّرني وشرِّع قدمَيك للريح واخرج من هناك إذا حصل أي شيء'".

"ذهبنا في سيارة هنيبعل بنسون - ذلك السافل يحصل على كل القسائم التي أرادها، لا أعرف كيف. لم يقل أحدٌ الكثير، لكن أربعتنا كنا ندخِّن بشكل متواصل. كنا خائفين يا لويس، إلى أقصى ما يمكنك أن تتخيَّل. لكن الوحيد الذي قال أي شيء حقاً كان آلان يورينتون. قال لجورج، 'بيل باترمان صعد إلى تلك الغابة شمالي الطريق 15، وأنا مستعد أن أشارطكم على ذلك'. لم يُجبه أحدٌ، لكنني أتذكَّر جورج يومئ برأسه".

"وصلنا إلى هناك، وقرَع آلان الباب، لكن لم يفتحه أحدٌ، لذا ذهَبنا إلى الجهة الخلفية ووجدناهما هناك. كان بيل باترمان يجلس هناك مع إبريق شراب شعير، وتيمي في الجهة الخلفية للفناء يحدِّق في تلك

الشمس الحمراء الدموية في مغيبها. كان وجهه برتقالياً بالكامل، كما لو أن جلده سُلخ حيّاً. وبيل... بدا كما لو أن الشيطان قبض عليه بعد سنوات كلامه الطنّان السبعة. كان يعوم في ملابسه، وقدَّرتُ أنه فَقَد عشرين كيلوغراماً من وزنه. تراجعت عيناه إلى الخلف في محجرَيهما إلى أن أصبحتا أشبه بحيوانين صغيرين في كهفَين... وبقي فمه يُصدر أصوات تكتكة على جهته اليسرى. بدا مثل شخص مُصاب بالسرطان يحفر في مكان ما داخه".

صمتَ جاد لبرهة، وبدا أنه يفكِّر، ثم أومأ برأسه بشكل غير ملحوظ. "لويس، بدا *ملعوناً*. ونظر إلينا تيمي وابتسم. مجرد رؤيته يبتسم جَعَلنا نريد أن نصرخ. ثم استدار وعاد لينظر إلى مغيب الشمس. قال بيل، 'لم أسمعكم تقرعون الباب يا شباب'، وهذه كانت كذبة واضحة، بالطبع، بما أن آلان خبطَ ذلك الباب بقوة كافية لإيقاظ... لإيقاظ رجل أصم".

"لم يبدُ أن أحداً سيقول شيئاً، لذا قلتُ، 'بيل، سمِعتُ أن إبنك قُتل في ايطاليا'".

"'كان ذلك خطأً'، قال وهو ينظر إليَّ مباشرة".

"'حقاً؟'، قلتُ".

"'أنت تراه واقفاً هناك، أليس كذلك؟'، قال".

"'إذاً مَن تظن موجود في ذلك التابوت الذي دفنتَه في پليزنتفيو؟'، سأله آلان پورينتون".

"'تباً إن كنتُ أعرف'، قال بيل، 'وتباً إن كنتُ أهتم'. ذهب ليُحضر سيجارةً وأوقعها كلها على الشرفة الخلفية، ثم مزَّق اثنتين أو ثلاثة وهو يحاول رفعها عن الأرض".

"'علينا نبش القبر على الأرجح'، قال هنيبعل. 'أنت تعرف ذلك،

أليس كذلك؟ تلقيتُ مكالمةً من وزارة الدفاع اللعينة يا بيل. يريدون معرفة إن دفنوا إبن أم أخرى تحت إسم تيمي'".

"'حسناً، وماذا يهمّني؟'، قال بيل بصوت صاخب. 'لا يهمّني أبداً، أليس كذلك؟ لقد حصلتُ على إبني. عاد تيمي إلى المنزل ذلك اليوم. وكان مصدوماً من أهوال الحرب أو شيء من هذا القبيل. أطواره غريبة قليلاً الآن، لكنه سيعود إلى طبيعته'".

"لنُقلع عن هذا يا بيل'، قلتُ، وشعرتُ بغضب شديد منه فجأة. 'إذا ومتى أخرجوا تابوت الجيش ذاك، سيجدونه فارغاً، إلا إذا تكبَّدتَ عناء ملئه بصخور بعد أن أخرجتَ إبنك منه، ولا أعتقد أنك فعلتَ ذلك. أنا أعرف ماذا حصل، وهنيبعل وجورج وآلان هنا يعرفون ماذا حصل، وأنت تعرف ماذا حصل أيضاً. كنتَ تعبث في الغابة يا بيل، وقد سبَّبت لنفسك ولهذه البلدة الكثير من المتاعب'".

"'أظن يا سادة أنكم تعرفون طريق الخروج'، قال. 'لستُ مُلزماً أن أبرِّر نفسي لكم، أو أي شيء من هذا القبيل. عندما تلقيتُ تلك البرقية، شعرتُ كما لو الحياة فارقتني. شَعَرتُها تفارقني، تماماً مثل البول الذي يسيل على رِجلي. حسناً، لقد استعدتُ إبني. لم يكن لديهم الحق ليأخذوه مني. كان في السابعة عشرة فقط. وهو كل ما بقي لديَّ من أمه العزيزة، وكان فعلهم اللعين غير قانوني. لذا تباً للجيش، وتباً لوزارة الدفاع، وتباً للولايات المتحدة الأميركية، وتباً لكم أيضاً. لقد استعدتُه. سيعود إلى طبيعته. وهذا كل ما لديَّ لأقوله. عودوا الآن من حيث أتيتم'".

"وفمه يُصدر أصوات تكتكة، والعرق يملأ جبهته بنقاط كبيرة، وعندها رأيتُ أنه مجنون. كان ذلك ليجعلني مجنوناً أيضاً. العيش مع ذلك... ذلك الشيء".

كان لويس يشعر بالغثيان في معدته. فقد شرب الكثير من شراب الشعير وبسرعة عالية جداً. وكل شيء سيخرج منه عما قريب. الشعور بالثقل في معدته أخبره أنه سيخرج قريباً.

"حسناً، لم يكن هناك الكثير لنفعله. فاستعدينا لنذهب. قال هنيبعل، 'بيل، ليكن الله في عونك'".

"فقال بيل، 'لا حاجة. لقد ساعَدتُ نفسي'".

"عندها اقترب تيمي منا. حتى إنه *سار* بشكل خاطئ يا لويس. سار مثل عجوزٍ جداً. يرفع قدماً عالياً في الهواء ثم يُنزلها ويجرّها نوعاً ما ثم يرفع الأخرى. كان ذلك أشبه بمشاهدة سلطعونٍ يسير. وكانت يداه تتدلّيان بجانب رِجليه. وعندما اقترب منا بما فيه الكفاية، أصبح بإمكاننا رؤية علامات حمراء على وجهه، مثل بثور أو حروق صغيرة. أظن أنها الأماكن الذي.أصابه فيها الرشاش الألماني. كاد يطيح له رأسه اللعين.

"وجسمه يفوح بالرائحة الكريهة للقبر. كانت رائحة شائنة، مثل كل شيء داخله، أسود ومتقيِّح ونتن. رأيتُ آلان پورينتون يرفع يده ليغطي أنفه وفمه. كانت النتانة مريعة. وتكاد تتوقع رؤية يرقات القبر تسرح في شعره –"

"توقف"، قال لويس بصوت أجش. "سمِعتُ ما فيه الكفاية".

"لا، ليس ما فيه الكفاية"، قال جاد. تكلَّم بجدّية مُنهَكة. "أجل، لم تسمع ما فيه الكفاية. ولا يمكنني حتى تصوير الأمر بالسوء الذي كان عليه. لا أحد يستطيع أن يفهم مدى السوء الذي كان عليه إلا إذا كان هناك. كان *ميتاً* يا لويس. لكنه كان حيّاً أيضاً. وكان... يعرف بعض الأشياء".

"يعرف بعض الأشياء؟".

"أجل. بقي ينظر إلى آلان لوقت طويل، مبتسماً نوعاً ما –

يمكنك رؤية أسنانه، على أي حال - ثم تكلَّم بذلك الصوت المنخفض؛ تشعر كما لو أن عليك الانحناء إلى الأمام لسماعه. بدا كما لو أنه توجد حصاة في بلعومه. 'زوجتك تضاجع ذلك الرجل الذي تعمل معه في الصيدلية يا بورينتون. ما رأيك بهذا؟ تصرخ عندما تصل إلى النشوة. ما رأيك بهذا؟'".

"بدأ آلان يلهث نوعاً ما، ويمكنك رؤية تأثره الكبير. إنه موجود في دار للمسنّين في غاردنر الآن، أو كان هناك حسب آخر ما سمِعتُ عنه - لا شك أنه يناهز التسعين. عندما حصل كل ذلك، كان في الخمسين تقريباً، وسرت بعض الشائعات عن زوجته الثانية. كانت نسيبته من الدرجة الثانية، وقد أتت لتعيش معه ومع زوجته الأولى، لوسي، قبل الحرب مباشرة. حسناً، ماتت لوسي، وبعد سنة ونصف تزوج آلان تلك الفتاة. لورين. لم تكن قد تخطت الرابعة والعشرين من عمرها عندما تزوَّجا. وسرت بعض الشائعات. كان الرجال يعتبرونها حرة وسهلة المعشر، لكن النساء اعتبرن أنها قد تكون طليقة. وربما كانت لدى آلان بعض الأفكار في ذلك الاتجاه أيضاً لأنه قال، 'اصمت! اصمت وإلا صرعتُك، مهما كنتَ!'".

"'اسكت الآن يا تيمي'، قال بيل، وبدا أسوأ من أي وقت مضى، كما لو أنه سيتقيأ أو يفقد الوعي ويموت، أو الاثنين معاً. 'اسكت يا تيمي'".

"لكن تيمي لم يأبه. نظَرَ إلى جورج أندرسون وقال، 'ذلك الحفيد الذي تعطيه أهمية كبرى ينتظر موتك أيها العجوز. المال هو كل ما يريده، المال الذي يظن أنك تدّخره في صندوق الأمانات في مصرف بانغور الشرقي. لهذا السبب يتودَّد لك، لكنه يسخر منك في غيابك، هو وأخته. العجوز ذو الرجل الخشبية، هذا ما يسمّونك'، قال تيمي،

وصوته يا لويس - تغيَّر. أصبح لئيماً. بدا مثل صوت حفيد جورج لو كانت الأشياء التي يقولها تيمي حقيقية.

"'العجوز ذو الرجل الخشبية'، قال تيمي، 'ألن يتلقّوا صدمة عمرهم عندما يعرفون أنك فقير مثل فأرة دار عبادة لأنك خسِرت كل شيء في العام 1938؟ ألن يتلقّوا صدمة عمرهم يا جورج؟ ألن يتلقّوا *صدمة عمرهم*؟'".

"خطا جورج عندها إلى الوراء، والتَوَت رِجله الخشبية تحته، وسقط على شرفة بيل موقعاً إبريق شراب شعيره، وكان وجهه أبيض مثل فانيلاتك يا لويس".

"عاد بيل ووقف على قدمَيه بطريقة أو بأخرى، وزعقَ بإبنه، 'تيمي، توقف عن ذلك! توقف عن ذلك!'، لكن تيمي لم يتوقف. قال شيئاً سيئاً عن هنيبعل، ثم قال شيئاً سيئاً عني أيضاً، وكان قد أصبح وقتها... يتكلَّم بحماسة، حسب رأيي. أجل، كان يتكلَّم بحماسة. يصرخ. وبدأنا نخطو إلى الوراء، ثم بدأنا نركض، ونحن نجرّ جورج بأفضل ما يمكننا بذراعيه لأن أربطة تلك الرِجل الاصطناعية انفتلت بطريقة أو بأخرى، وانقلبت إلى إحدى الجهتين مع استدارة الحذاء إلى الخلف وراحت تُجرّ على العشب".

"آخر ما رأيتُه من تيمي باترمان كان وقوفه على المَرجة الخلفية قرب حبل الغسيل، بوجهه الأحمر في شمس المغيب، وتلك العلامات بارزةً على وجهه، وشعره مجنون ومليء بالغبار... وكان يضحك ويزعق مراراً وتكراراً 'العجوز ذو الرجل الخشبية! العجوز ذو الرجل الخشبية! والزوج المخدوع! ومُعاشِر بائعات الهوى! وداعاً يا سادة! وداعاً! وداعاً!' ثم بدأ يضحك، لكنه كان صراخاً في الواقع... شيءٌ داخله... كان يصرخ... ويصرخ... ويصرخ".

صمتَ جاد. راح صدره يرتفع وينخفض بسرعة.

"جاد"، قال لويس. "الشيء الذي قاله لك تيمي باترمان... هل كان صحيحاً؟".

"كان صحيحاً"، تمتم جاد. "تباً! كان صحيحاً. كنتُ معتاداً أن أذهب إلى بيت دعارة في بانغور باكراً. لا شيء لا يفعله الرجال، رغم أنني أفترض أن الكثيرين نزيهون. كنتُ فقط أشعر بإلحاح – برغبة كبيرة، ربما – أن أُدخِله في لحم غريب بين الحين والآخر. أو أن أدفع لإمرأةٍ لكي تفعل أشياء لا يستطيع الرجل طلبها من زوجته. الرجال يعتنون بحدائقهم أيضاً يا لويس. لم يكن شيئاً فظيعاً، ما فعلتُه، وكل ذلك أصبح خلفي طوال السنوات الثمانية أو التسعة الأخيرة، ولم تكن نورما لتهجرني لو عرفَت. لكن شيئاً فيها كان ليموت إلى الأبد. شيء عزيز وعذب".

كانت عينا جاد حمراوين ومتورّمتين ومُتعَبتين حتى الإجهاد. دموع العجائز بشعة جداً، فكّر لويس في سرّه. لكن عندما تلمَّس جاد طريقه على الطاولة بحثاً عن يد لويس، أمسكها لويس بإحكام.

"أخبَرنا الأمور السيئة فقط"، قال بعد لحظة. "السيئة فقط. وطبعاً هناك ما يكفي منها في حياة أي إنسان، أليس كذلك؟ بعد يومين أو ثلاثة أيام، رحلت زوجة آلان بورينتون عن لادلو إلى الأبد، والناس في البلدة الذين رأوها قبل أن تستقلّ القطار قالوا إنها كانت تحمل رضّتين وأنفها محشو بالقطن. رفضَ آلان أن يتكلَّم عن الأمر نهائياً. مات جورج في العام 1950، وإذا ترَك أي شيء لذلك الحفيد والحفيدة، فأنا لم أسمع عنه أبداً. طُرد هنيبعل من منصبه بسبب شيء مشابه لما اتَّهَمه به تيمي باترمان. لن أُخبِرك ما كان بالضبط – لستَ بحاجة إلى معرفة ذلك – لكنني أظن أن إساءة استخدام أموال البلدة لمصلحته

الشخصية كافية لكي تفهم ماذا جرى. حتى إنه سرت شائعات عن توجيه تُهم اختلاس له، لكنه لم يُدان بشيء. شكَّل فقدان المنصب عقوبةً كافيةً له على أي حال؛ كانت حياته كلها تدور حول لعب دور الشخص المهم".

"لكن كانت هناك طيبة لدى أولئك الرجال أيضاً. هذا ما أقصده؛ هذا دائماً ما يجد الناس صعوبة كبيرة في تذكّره. هنيبعل هو الذي بدأ التمويل للمستشفى العام الشرقي، قبل الحرب مباشرة. وكان آلان پورينتون أحد أكرم الرجال الخيّرين الذين عرفتهم في حياتي. والعزيز جورج أندرسون أراد فقط أن يواصل إدارة مكتب البريد إلى الأبد.

"لكنه أراد أن يتكلَّم عن الأمور السيئة فقط. كان يريدنا فقط أن نتذكَّر الأمور السيئة لأنه كان سيئاً... ولأنه عرَف أننا نشكِّل خطراً عليه. تيمي باترمان الذي ذهب إلى الحرب كان شاباً عادياً لطيفاً يا لويس، مملاً قليلاً ربما لكن طيب القلب. الشيء الذي رأيناه تلك الليلة، الناظر إلى تلك الشمس الحمراء... كان وحشاً. ربما كان زومبياً أو عفريتاً. ربما لا يوجد إسمٌ لشيء مثله، لكن أفراد قبيلة الميكماك كانوا ليعرفوا ما هو، سواء كان له إسم أم لا".

"ماذا؟"، قال لويس بشكل خَدِر.

"شيء لمسه الويندِيغو"، قال جاد بهدوء. أخذ نَفَساً عميقاً، حبسه للحظة، ثم زفره، ونظرَ إلى ساعته.

"واأسفاه. تأخر الوقت يا لويس. لقد تكلَّمتُ تسعة أضعاف ما كنتُ أنوي أن أتكلَّمه".

"أشكّ بذلك"، قال لويس. "كنتَ بليغاً جداً. أخبِرني كيف آلت الأمور في النهاية".

"شبَّ حريقٌ في منزل باترمان بعد ليلتين"، قال جاد. "حرقه بالكامل. قال آلان بورينتون إنه لا يشكّ ولو قليلاً أن الحريق مفتعل. فقد تم رشّ الكاز من أحد طرفَي ذلك المنزل الصغير إلى الطرف الآخر. يمكنك شمّ رائحته الكريهة لثلاثة أيام بعد أن انطفأت النار".

"لذا احترق الاثنان داخله".

"آه، نعم، احترَقا. لكنهما كانا ميتين مسبقاً. فقد تلقى تيمي طلقتين في صدره من مسدَّس كولت قديم امتلكه بيل باترمان. وجَدوه في يد بيل. ما جرى، أو هكذا بدا، هو أنه قتل إبنه، ثم مدَّده على السرير، ثم سكب ذلك الكاز. ثم جلَس على كرسيه المريح قرب الراديو، وأشعلَ عود ثقاب، ثم أكل ماسورة ذلك الكولت 45".

"يا إلهي"، قال لويس.

"كانا متفحِّمَين جداً، لكن الطبيب الشرعي للمقاطعة قال إنه بدا له أن تيمي باترمان كان ميتاً منذ أسبوعين أو ثلاثة أسابيع".

صمت صارخ.

نهض جاد. "لم أكن أبالغ عندما قلتُ إنني ربما قتلتُ إبنك يا لويس، أو كانت لي يد في موته. لقد عرَف أفراد قبيلة الميكماك ذلك المكان، لكن هذا لا يعني بالضرورة أنهم جَعَلوه على ما هو عليه. لم يكن أفراد قبيلة الميكماك هنا دائماً. أتوا ربما من كندا، وربما من روسيا، وربما من آسيا في الأصل. مكثوا هنا في ماين لألف سنة، أو ربما ألفَين – من الصعب التحديد، لأنهم لم يتركوا آثارهم عميقاً في الأرض. والآن رحلوا مرة أخرى... بنفس الطريقة التي سنرحل بها، يوماً ما، رغم أنني أظن أن آثارنا ستكون أعمق، إيجاباً أو سلباً. لكن المكان سيبقى مهما يكن هنا يا لويس. فالمسألة ليست كما لو أن شخصاً امتلكه ويستطيع أخذ سره معه عندما يرحل. إنه مكان شرير، ولم يكن يحقّ لي

أن آخذك إلى هناك لتدفن ذلك القط. أعرف هذا الآن. للمكان طاقة عليك أن تحذر منها إذا كنتَ تعرف صالح عائلتك وصالحك. أنا لم أكن قوياً كفاية لأحاربها. لقد أنقذتَ حياة نورما، وأردتُ أن أفعل شيئاً لك، وذلك المكان حوَّل رغبتي الطيبة إلى هدفه الشرير. للمكان طاقة... وأعتقد أن تلك الطاقة تمرّ عبر مراحل، مثل القمر تماماً. مرَّ بمرحلة طاقة قصوى من قبل، وأخشى أنه عائد إلى طاقته القصوى مرة أخرى. أخشى أنه استخدَمني للوصول إليك من خلال إبنك. هل تفهم ما أحاول قوله يا لويس؟". توسَّلت عيناه لويس.

"أعتقد أنك تقول إن المكان عرَف أن غايدج سيموت"، قال لويس.

"لا، أنا أقول إن المكان ربما *جَعَل* غايدج يموت لأنني قدَّمتُك إلى طاقته. أنا أقول إنني ربما قتلتُ إبنك بنيّة طيبة يا لويس".

"لا أصدِّق هذا"، قال لويس أخيراً، بتزعزع. لم؛ لن. *لا* يستطيع.

أمسَك يد جاد بشكل محكم. "سندفن غايدج غداً. في بانغور. وسيبقى في بانغور. لا أنوي أن أصعد إلى مقبرة الحيوانات أو ما وراءها مرة أخرى أبداً".

"هل تعدُني!"، قال جاد بحدّة. "عِدني".

"أعِدُك"، قال لويس.

لكن التأمل بقي في باطن عقله؛ بصيص وعد مرتعش لن يزول بسهولة.

الفصل 40

لكن أياً من تلك الأمور حصل.

كلها – شاحنة أورينكو الهادرة، الأصابع التي لمست مؤخرة سترة غايدج ثم اختفاؤه، استعداد رايتشل للذهاب إلى المعاينة في معطفها المنزلي، حمل إيليه لصورة غايدج ووضع كرسيه بجانب سريرها، دموع ستيف ماسترتون، الشجار مع إروين غولدمان، قصة جاد كراندال الفظيعة عن تيمي باترمان – كلها تواجدت في ذهن لويس كريد فقط خلال الثواني القليلة التي انقضت بينما كان يسابق إبنه الضاحك إلى الطريق. خلفه، رايتشل تصرخ مرة أخرى – *غايدج، عُد، لا تركض!* – لكن لويس لم يوفّر أنفاسه. الأمور وشيكة، وشيكة جداً، ونعم، أحد تلك الأشياء حصل فعلاً: من مكان ما على الطريق يمكنه سماع هدير الشاحنة المقترِبة وفي مكان ما داخله فُتِحَت دارة ذاكرة ويمكنه سماع جاد كراندال يتكلَّم مع رايتشل في ذلك اليوم الأول في لادلو: *عليك مراقبتهما قُرب الطريق يا سيدة كريد. إنه طريق سيئ للأولا د والحيوانات.*

الآن كان غايدج يركض نزولاً على المنحدر اللطيف للمَرجة التي تندمج مع الحافة الناعمة للطريق 15، رِجلاه الصغيرتان الضخمتان ترتفعان وتنخفضان، وبكل قوانين الطبيعة كان عليه أن يسقط متعثّراً لكنه أكمل ركضه والآن أصبح صوت الشاحنة صاخباً بالفعل، كان صوت ذلك الشخير المنخفض الذي يسمعه لويس أحياناً من سريره عندما يقترب من حافة نومه. ثم بدا الصوت مريحاً، لكنه أرعَبه الآن.

يا إلهي، يا إلهي، دعني أمسكه، لا تدعه يصل إلى الطريق!

أضاف لويس اندفاعةً أخيرةً ووَثَب، رامياً نفسه بشكل متوازٍ مع الأرض مثل لاعب كُرة قدم يريد أن يعرقل اللاعب الخصم؛ يمكنه رؤية

ظله يسير على العشب تحته في أدنى محيط بصره، وتذكَّر الطائرة الورقية، النسر، تطبع ظلها على طول حقل السيدة ڤينتون، وتماماً مثلما أن حركة غايدج إلى الأمام أخذته إلى الطريق، لمست أصابع لويس مؤخرة سترته... ثم أمسكه.

شدَّ غايدج إلى الخلف وحطَّ على الأرض في اللحظة نفسها، وارتطم وجهه بالحصاة الخشنة لحافة الطريق، وسال الدم من أنفه. أشار منفرج ساقيه إلى ألم أقوى بكثير - *آه، لو كنتُ أعرف أنني سألعب كُرة القدم، كنتُ ارتديتُ رباطي الرياضي* - لكن الألم في أنفه وخصيتيه تلاشى من الارتياح عند سماع عويل غايدج من الألم والغضب عندما حطَّت مؤخرته على حافة الطريق ووَقَع عكسياً وارتطم رأسه بحافة المَرجة. بعد لحظة طغى هدير الشاحنة المارّة وزعيق بوقها الهوائي القوي على عويله.

تمكَّن لويس من النهوض رغم استقرار كُرة الرصاص أسفل معدته واحتضَن إبنه بذراعيه. وصَلت إليهما رايتشل بعد لحظة، وهي تبكي أيضاً وتصرخ على غايدج، "لا تركض إلى الطريق أبداً يا غايدج! أبداً، أبداً، أبداً! الطريق سيئ! *سيئ!*". وكان غايدج مندهشاً جداً من هذه المحاضرة الدامعة لدرجة أنه امتَنَع عن البكاء وراح يحملِق في أمه.

"لويس، أنفك ينزف"، قالت ثم عانقته فجأة وبقوة لدرجة أنه بالكاد كان قادراً على أن يتنفّس خلال تلك اللحظة.

"هذا ليس أسوأ ما في الأمر"، قال. "أعتقد أنني أصبحتُ عقيماً يا رايتشل. آه من الألم".

وضحِكت بطريقة هستيرية لدرجة أنه خاف عليها لبضع لحظات، وخطرت الفكرة بباله: *لو قُتل غايدج حقاً، أظن أن ذلك كان ليدفعها إلى الجنون فعلاً.*

لكن غايدج لم يُقتَل؛ كل ذلك كان مجرد لحظة خيال مفصَّلة بشكل شرير بينما سَبَق لويس موت إبنه على مَرجة خضراء بعد ظهر يوم مُشرِق من أيام مايو.

ذهَب غايدج إلى مدرسة النحو، وفي سنّ السابعة بدأ يذهب إلى مخيَّمات، حيث أظهَرَ براعة مدهشة في السباحة. كما أعطى والدَيه مفاجأة كئيبة عبر برهنته أنه قادر أن يتحمّل انفصالاً عنهما لمدة شهر دون إظهار أي عوارض صدمة نفسية ملحوظة. وحين أصبح في العاشرة، كان يمضي الصيف كله بعيداً في مخيَّم أغاوام في ريموند، وفي سنّ الحادية عشرة فاز بشريطين أزرقين وشريط أحمر في ماراثون السباحة الذي أنهى نشاطات الصيف. ازداد طوله، ومع ذلك بقي طوال ذلك الوقت غايدج نفسه، العذب والمتفاجئ من الأشياء التي يقدِّمها العالم... وبالنسبة لغايدج، لم تكن الفاكهة مرّة أو عَفِنة أبداً.

كان طالباً مجتهداً في المدرسة الثانوية وعضواً في فريق السباحة في مدرسة جون بابتست الضيقة النظر التي أصرَّ على ارتيادها بسبب مرافق السباحة التي فيها. وقد انزعجت رايتشل، ولويس لم يتفاجأ كثيراً عندما أعلَن غايدج، في السابعة عشرة، عن نيّته ليتحوَّل إلى معتقد آخر. اعتقدت رايتشل أن كل ذلك بسبب الفتاة التي كان غايدج يواعدها؛ رأت زواجاً في مستقبله القريب ("إذا لم تكن تلك الحقيرة الصغيرة حاملة ميدالية سانت كريستوفر تضاجعه، سآكل شورتك يا لويس"، قالت)، ودمار خططه لدخول الكلّية وآماله الأولمبية، وتسعة أو عشرة أولاد صغار يركضون حين يصبح غايدج في الأربعين. سيكون قد أصبح وقتها (وفقاً لرايتشل، على أي حال) سائق شاحنة يدخّن سيجاراً وذا بطن كبير من شراب الشعير، يسير بلا هوادة نحو غياهب النسيان من أزمة قلبية.

اعتبر لويس أن دوافع إبنه نقية أكثر، ورغم أن غايدج بدَّل معتقده (وفي اليوم الذي أجرى فيه المراسم الفعلية، أرسَل لويس بطاقة بريدية بغيضة دون خجل إلى إروين غولدمان تقول، *ربما سيصبح لديك حفيد بمعتقد مختلف عنك. صِهرك غير اليهودي، لويس*)، إلا أنه لم يتزوَّج الفتاة اللطيفة (وغير الحقيرة بلا أدنى شك) التي كان يواعدها معظم فترات سنته المدرسية الأخيرة.

انتسب إلى جامعة جونز هوبكنز، وانضم إلى فريق السباحة الأولمبي، وبعد ظهر يومٍ طويلٍ مُبهِرٍ فخورٍ بشكل لا يُصدَّق بعد ست عشرة سنة من تسابق لويس مع شاحنة أورينكو على حياة إبنه، شاهدَ مع رايتشل - التي أصبحت الآن رمادية كلياً تقريباً، رغم أنها تغطّيه بغسولٍ - إبنهما يفوز بميدالية ذهبية للولايات المتحدة الأميركية. وعندما قرَّبت كاميرات NBC المشهد عليه لتُظهرَه واقفاً رافعاً رأسه الأملس والمتساقط منه الماء، وعيناه مفتوحتان وهادئتان وثابتتان على العَلَم أثناء عزف النشيد الوطني، والشريط حول عنقه، والذهب مستلقٍ على بشرة صدره الناعمة، بكى لويس. بكى هو ورايتشل معاً.

"أظن أن هذا يختم كل شيء"، قال بصوت مبحوح واستدار ليعانق زوجته. لكنها كانت تنظر إليه برعب واضح، وبدا كأن وجهها تقدَّم في العمر أمام ناظرَيه كما لو أنه خُفق بأيام وأشهر وسنوات من زمن شرير؛ خفُت صوت النشيد الوطني وعندما عاد لويس والتفَت إلى التلفزيون رأى فتىً مختلفاً هناك، فتىً أسود رأسه مليء بلفائف مشدودة لا تزال جواهر الماء تلمع عليها.

هذا يختم كل شيء.

قبعته.

قبعته...

... يا إلهي، قبعته مليئة بالدم.

استيقَظ لويس في الضوء الميت البارد للساعة السابعة ليومٍ ماطرٍ، مُمسكاً وسادته بين ذراعيه. ورأسه يطرق بقوة شنيعة مع نبضات قلبه؛ والوجع يزداد وينخفض، يزداد وينخفض. تجشّأ حمضاً بدا مذاقه مثل شراب شعير قديم، وانتفخت معدته ببؤسٍ. وجد أنه كان يبكي؛ فالوسادة رطبة بدموعه كما لو أنه دخلَ بطريقة أو بأخرى في إحدى أغاني الرثاء المبتذَلة تلك في نومه. حتى في الحلم، فكَّر في سرّه، عرَف جزءٌ منه الحقيقة وبكى منها.

نهض ومشى مترنّحاً إلى الحمّام، وقلبه ينبض بسرعة في صدره، ووعيه محطَّم بشراسة صُداعه ما بعد الثمالة. بالكاد وَصَل إلى وعاء المرحاض في الوقت المناسب قبل أن يتقيأ كمية كبيرة من شراب شعير ليلة أمس.

ركَع على الأرض، مُغمضاً عينيه، إلى أن شَعَر أنه قادر على الوقوف على قدمَيه فعلاً. تحسَّس بحثاً عن المقبض وشطَف المرحاض. ذهَب إلى المرآة ليرى مدى سوء احتقان الدم في عينيه، لكن الزجاج كان مغطّى بقماش ملاءة. ثم تذكَّر. منطلقةً عشوائياً تقريباً من ماضٍ زعمت أنها بالكاد تتذكَّره، غطّت رايتشل كل المرايا في المنزل، وخلعت حذاءها قبل الدخول عبر الباب.

لا فريق سباحة أولمبي، فكَّر لويس في سرّه برتابة بينما سار عائداً إلى سريره وجلس عليه. المذاق الحامض لشراب الشعير غطى فمه وحنجرته، وأقسَمَ (ليست المرة الأولى أو الأخيرة) أنه لن يلمس هذا السم مرة أخرى أبداً. لا فريق سباحة أولمبي، لا 3.0 في الكلّية، لا حبيبة صغيرة أو تحوُّل في المعتقد، لا مخيَّم أغاوام، لا شيء. كان حذاؤه

الرياضي ممزّقاً؛ وقُلبَت كنزته إلى جهتها الداخلية؛ وجسمه الصغير العذب، القوي والمتين، كادت تتقطّع أوصاله. كانت قبعته مليئةً بالدم.

جالساً الآن على سريره تحت تأثير صُداعه المُخدِر لما بعد الثمالة، ومياه الأمطار تنسكب في مساراتها الكسولة على النافذة التي بجانبه، أتاه حزنه بكامل قوته، مثل مُشرِفٍ رماديٍ من العنبر رقم تسعة في سجنٍ مُظلمٍ. أتاه وأذابه، نزعَ الرجولة منه، أزال كل دفاعاته المتبقية، فوَضَع وجهه بين يديه وبكى، وراح يهتزّ يميناً ويساراً على سريره، وهو يفكّر أنه سيفعل أي شيء ليحصل على فرصة ثانية، أي شيء على الإطلاق.

الفصل 41

دُفن غايدج عند الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم. كان المطر قد توقف وقتها. وبقايا السُحُب لا تزال تملأ السماء، ووصل معظم المشيِّعين حاملين مظلاّت سوداء زوّدها الحانوتيّ.

بناءً على طلب رايتشل، قرأ الحانوتيّ، الذي تولّى مراسم الدفن المحايدة عند القبر، كلمةً بدأت بـ "دعوا الأولاد يأتون إليه". نظرَ لويس، الواقف عند إحدى جهات القبر، إلى حميه الواقف عند الجهة المقابلة له. للحظة نظرَ إليه غولدمان بدوره، ثم أخفض نظره. لم يعد هناك شجار في داخله اليوم. بدا الانتفاخ تحت عينيه الآن أشبه بحقائب بريد، وتطاير شعره الرفيع الأبيض عشوائياً في النسيم مثل شبكة عنكبوت ممزَّقة حول طاقيّته الحريرية السوداء. وبدا بلحيته الرمادية السوداء أشبه بمدمن شراب عنب أكثر من أي وقت مضى. أعطى لويس الانطباع بأنه رجل لم يعرف حقاً أين هو. حاوَل لويس، لكنه وجد أنه لا يزال غير قادر على إيجاد أي شفقة في قلبه تجاهه.

جلس تابوت غايدج الأبيض الصغير، بمزلاجه المُصلَح افتراضياً، على مسندَين مطليين بالكْروم فوق الصندوق الأسمنتي. كانت حافات القبر قد كُسيَت بعشب اصطناعي ذي لون أخضر قوي لدرجة أنه أزعج عينَي لويس. وقد وُضعَت عدة سلال زهور فوق ذلك السطح الاصطناعي والفرِح بشكل غريب. نظَرَ لويس فوق كتف الحانوتيّ إلى تلة منخفضة مليئة بقبورٍ، وقِطع أراضٍ لعائلاتٍ، ونصبٍ تذكاريٍ روماني الطراز منقوش عليه الإسم فيبس. استطاع رؤية بعض الأصفر فوق السقف المنحدِر لنصب فيبس التذكاري مباشرة. نظَرَ لويس إلى هذا وراح يفكِّر فيه ملياً. تابَع ينظر إليه حتى بعدما قال الحانوتيّ،

"لنحني رؤوسنا في لحظة خشوع صامت". احتاج لويس إلى عدة دقائق، لكنه فهِم. إنها جرّافة. جرّافة مركونة فوق التلة بعيداً عن أنظار المشيِّعين. وعندما تنتهي مراسم الجنازة، يسحق أوز سيجارته بكَعب حذاء عمله اللهيب، ويضعها في الحاوية التي يحملها معه (كان حراس المقابر الذين يُقبَض عليهم يرمون أعقاب سجائرهم على الأرض يُطرَدون تقريباً دائماً - فتصرّفهم هذا يبدو سيئاً؛ كما أن العديد من الزبائن ماتوا من سرطان الرئة)، ويقفز إلى الجرّافة، ويشغِّل تلك الآلة البلهاء، ويُبعد إبنه عن الشمس إلى الأبد... أو على الأقل إلى يوم الإحياء.

الإحياء... آه، هذه كلمة -

(يجب أن تُخرجها من عقلك اللعين وأنتَ تعرف ذلك)

عندما أنهى الحانوتيّ كلامه، أمسك لويس ذراع رايتشل وقادها بعيداً. همسَت رايتشل بعض الاحتجاج - أرادت أن تبقى قليلاً بعد، رجاءً يا لويس - لكن لويس كان حازماً. اقتربوا من السيارات. رأى الحانوتيّ يستعيد المظلاّت المطبوع إسم دار الدفن بتكتّم على مقابضها من المشيِّعين الذين مرّوا وسلّموها إلى مساعِدٍ. وضعها المساعِد في منصة مظلّات بدت غريبة وسريالية، واقفةً هناك على المضمار النَدِيّ. أمسك ذراع رايتشل بيده اليمنى ويد إيليه التي ترتدي قفازاً أبيض بيده اليسرى. كانت إيليه ترتدي نفس الفستان الذي ارتدته في جنازة نورما كراندال.

اقترب جاد بينما ساعد لويس سيدتَيه على ركوب السيارة. بدا جاد أيضاً كما لو أنه أمضى ليلة صعبة.

"أنت بخير يا لويس؟".

أومأ لويس برأسه.

انحنى جاد لينظر إلى داخل السيارة. "كيف حالك يا رايتشل؟"،

سأل.

"أنا بخير يا جاد"، همَست.

لمَس جاد كتفها بلطف ثم نظَرَ إلى إيليه. "وأنتِ يا عزيزتي؟".

"أنا بخير"، قالت إيليه ورسمت ابتسامةً بشعةً مليئةً بالأسنان لتُظهِر له كم هي بخير.

"ما هذه الصورة التي تحملينها؟".

اعتقد لويس للحظة أنها ستتمسّك بها، وترفض أن تُريه إياها، لكنها مرَّرتها إلى جاد بخجل مؤلم. حملها بأصابعه الكبيرة، أصابع متباعدة وخرقاء المظهر إلى حد ما، أصابع بدت ملائمة في الأغلب للعبث بناقلات الحركة في العربات الكبيرة أو لإجراء وصلات في مصنع - لكنها كانت أيضاً أصابع سحَبت إبرة نحلةٍ من عنق غايدج بكل المهارة المرتجَلة لساحرٍ... أو جرّاحٍ.

"آه، صورة جميلة حقاً"، قال جاد. "تجرّينه على مزلجة. أنا أكيد أنه أحبَّ ذلك، أليس كذلك يا إيليه؟".

أومأت إيليه برأسها وقد بدأت تبكي.

بدأت رايتشل تقول شيئاً، لكن لويس ضغط على ذراعها - *اهدأي لبرهة*.

"كنتُ معتادةً على جرّه كثيراً"، قالت إيليه باكيةً، "وكان يضحك ويضحك. ثم ندخل المنزل وتُعدّ لنا ماما الكاكاو وتقول، 'ضعا الأحذية بعيداً'، فيُمسِكها غايدج ويصرخ 'أحذية! أحذية!' بصوتٍ صاخبٍ يؤلم أذنيك. هل تتذكّرين هذا يا ماما؟".

أومأت رايتشل برأسها.

"نعم، أنا أكيد أنها كانت أوقاتاً سعيدةً"، قال جاد وهو يعيد لها الصورة. "وقد يكون ميتاً الآن يا إيليه، لكن يمكنك الاحتفاظ

بذكرياتك عنه".

"سأفعل ذلك"، قالت وهي تمسح وجهها. "كنتُ أحبّ غايدج يا سيد كراندال".

"أعرف هذا يا عزيزتي". انحنى وقبَّلها، وعندما تراجع، تفحَّصت عيناه لويس ورايتشل بشكلٍ خالٍ من أي تعبير. التقت عينا رايتشل بعينيه، وبدتا محتارتين ومتألمتين قليلاً، لا تفهمان. لكن لويس فهِم بما فيه الكفاية: *ماذا تفعل لها؟* سألت عينا جاد. *إبنك مات، لكن إبنتك لم تمت. ماذا تفعل لها؟*

أشاح لويس بنظره. لم يكن هناك شيء يستطيع أن يفعله لها، ليس بعد. عليها أن تسبح في حزنها بأفضل ما يمكنها. كانت أفكاره منشغلة كثيراً بإبنه.

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل 42

بحلول المساء كان رف جديد من السُحُب قد دخل وبدأت رياح غربية قوية تهبّ. ارتدى لويس سترته الخفيفة، وأغلق سحّابها، وأخذ مفاتيح السيفيك عن الوتد على الجدار.

"إلى أين أنت ذاهب يا لُو؟"، سألت رايتشل. تكلَّمت من دون اهتمام كبير. بعد العشاء، بدأت تبكي مرة أخرى، ورغم أن بكاءها كان هادئاً، إلا أنها بدت غير قادرة على إيقافه. أجبَرها لويس على أخذ حبة فاليوم. جلَست الآن طاويةً الصحيفة عند الكلمات المتقاطعة التي بالكاد بدأت بحلّها. في الغرفة الأخرى، جلَست إيليه تشاهد *كوخ في البراري* بصمت وصورة غايدج على حُضنها.

"فكَّرتُ بإحضار بيتزا".

"ألم تأكل كفايةً سابقاً؟".

"لم أشعر بالجوع وقتها"، قال صادقاً ثم أضاف كذبةً: "أنا جائع الآن".

بعد ظهر ذلك اليوم، بين الثالثة والسادسة، جرت الشعيرة الأخيرة من شعائر جنازة غايدج في منزل لادلو. كانت شعيرة الطعام. أتى ستيف ماسترتون وزوجته ومعهما همبرغر وكاسرولة معكرونة. وجاءت شارلتون ومعها طبق كيش ("سيستمر إلى أن تريديه، إذا لم يؤكل كله"، قالت لرايتشل. "الكيش سهل التسخين"). وحضَر زوجا دانيكر من أعلى الطريق ومعهما لحم مشوي. وظهر زوجا غولدمان – كلاهما لا يكلِّمان لويس أو حتى يقتربان منه، وهو أمر لم يأسف عليه – ومعهما تشكيلة لحوم باردة وأجبان. كما أحضَر جاد جبنةً أيضاً – عجلة كبيرة من صنفه المفضَّل، السيد جرذ. وأحضَرت مِيسِي داندريدج فطيرة لايم

بلدي. وأحضَر سورندرا هاردو تفاحاً. على ما يبدو أن شعيرة الطعام تتجاوَز الفروق في المعتقدات.

هذه كانت حفلة الجنازة، ورغم أنها كانت هادئة، إلا أنها لم تكن متخشّعة تماماً. كان مقدار الشرب فيها أقل مما هو في الحفلة العادية، لكنه كان موجوداً. بعد بضع عبوات شراب شعير (البارحة فقط حلَف أنه لن يلمس هذا الصنف من الأمور مرة أخرى أبداً، لكن في ضوء بعد الظهر البارد، بدت ليلة أمس قد مضت منذ زمن طويل إلى حد لا يُصدَّق) فكَّر لويس في تمرير بعض الروايات الجنائزية الصغيرة التي أخبَره إياها عمّه كارل - أنه في الجنازات الصقليّة، النساء غير المتزوجات يقصصنَ أحياناً قطعةً من كَفَن المتوفى وينمنَ بعد وضعها تحت وساداتهن، معتقِدات أن هذا يجلب لهنّ الحظّ في الحبّ؛ وأنه في الجنازات الإيرلندية، تُجرى أعراس زائفة أحياناً، وتُربَط أصابع قدمَي الميت ببعضها بسبب اعتقاد سلتيّ قديم بأن هذا يمنع شبح المتوفى من السير. قال العمّ كارل إن عادة وضع وسوم على أصابع أقدام الجثث بدأت في نيويورك، وبما أن كل أوائل حرّاس المشارح كانوا إيرلنديين، فهو يعتقد أن ذلك حصل تماشياً مع ذلك المعتقد الخرافي القديم. ثم عند النظر إلى وجوههم، قرَّر أنهم سيسيئون فهم تلك الحكايات.

انهارت رايتشل مرة واحدة فقط، وكانت أمها هناك لتواسيها. تشبَّثت رايتشل بدوري غولدمان وراحت تبكي على كتفها بطريقة صريحة من النوع "فرّغي كل شيء" الذي كان مستحيلاً جداً عليها مع لويس، ربما لأنها اعتبرت أن كليهما مذنبان في موت غايدج، أو ربما لأن لويس، التائه في عالم أوهامه الغريبة، لم يشجِّع حزنها. في كلا الحالتين، لجأت إلى أمها للراحة، وكانت دوري هناك لتوفّرها لها، مازجةً دموعها بدموع إبنتها. وَقَف إروين غولدمان خلفهما، واضعاً يده على

كتف رايتشل، وناظراً نظرة انتصار مريض عبر الغرفة إلى لويس.

راحت إيليه تدور على الحاضرين حاملةً صينية فضية مليئة بمقبلات ولفّات صغيرة منكوز في كل واحدة منها عود تخليل مريَّش. كانت صورتها مع غايدج مثبَّتة بإحكام تحت ذراعها.

تلقَّى لويس التعازي. أومأ برأسه وشَكَر المعزّين. وإذا بدت عيناه شاردتين، وسلوكه بارداً قليلاً، افترَض الأشخاص أنه يفكِّر في الماضي، في الحادث، في حياته الخالية من غايدج؛ لا أحد منهم (وربما ليس حتى جاد) اشتبه في أن لويس بدأ يفكِّر في استراتيجيات سرقة القبر... لكن بطريقة أكاديمية، بالطبع؛ لم يكن ينوي أن *يفعل* شيئاً. كانت هذه مجرد وسيلة ليُلهي ذهنه المشغول.

لم يكن الأمر كما لو أنه ينوي أن *يفعل* شيئاً.

ذهب لويس إلى متجر ناصية أورينغتون، واشترى صندوقَي شراب شعير بارد سداسيَي العبوات، واتصل مسبقاً بمطعم نابولي ليطلب بيتزا بالبيبيروني والفطر.

"هلاّ أعطيتني إسماً لهذه الطلبية يا سيدي؟".

أوز الكبيل واللهيب، فكَّر لويس في سرّه.

"لُو كريد".

"حسناً يا لُو، نحن مشغولون حقاً، لذا ستستغرق طلبيتك حوالي خمس وأربعين دقيقة – هل لديك مانع؟".

"لا"، قال لويس وأغلق الخط. عندما عاد إلى السيفيك وشغَّل المحرِّك، خطَر بباله أنه رغم وجود عشرين متجر بيتزا في بانغور، إلا أنه اختار المتجر الأقرب إلى پليزنتفيو، حيث دُفن غايدج. *حسناً، وإن يكن؟* فكَّر في سرّه بانزعاج. *إنهم يعدّون بيتزا لذيذة. العجينة* غير

مجمّدة. يرمونها في الهواء ويلتقطونها بقبضاتهم، أمامك مباشرة حيث يمكنك مشاهدتهم، وكان غايدج يضحك -

قطعَ تلك الفكرة فوراً.

قاد سيارته متجاوزاً مطعم ناپولي إلى پليزنتفيو. افترَض أنه عرَف أنه سيفعل ذلك، لكن أين الضرر؟ لا ضرر.

رَكَن عند الجانب المقابل للشارع واجتاز الطريق إلى بوابات الحديد المطاوع، التي تلألأت في الضوء الأخير لليوم. فوقها، في نصف دائرة، كانت أحرفٌ مصنوعةٌ من حديد مطاوع تقول پليزنتفيو*. لم يكن المنظر، برأي لويس، لطيفاً أو بغيضاً. كانت المقبرة تتضمن عدة تلال جميلة؛ وهناك أروقة طويلة من الأشجار (آه، لكن في تلك الدقائق القليلة الأخيرة من ضوء النهار، بدت الظلال التي تلقيها تلك الأشجار متجمّعة جداً وبغيضة باكتئاب مثل مياه المقلع الساكنة) وبضع أشجار صفصاف باكية منعزلة. لم يكن هادئاً. كان الطريق الرئيسي قريباً - يُسمَع هدير حركة المرور في الرياح الهادئة الباردة - والتوهُّج في السماء المظلمة كان من مطار بانغور الدولي.

مدَّ يده إلى البوابة، وهو يقول لنفسه *ستكون مُقفلة*، لكنها لم تكن مُقفلة. ربما كان الوقت مُبكراً جداً لقفلها، وإن كانوا يُقفلونها من الأصل فذلك فقط لحماية المكان من الثملين والمخرِّبين والعشّاق المراهقين. أيام رجال الإحياء الديكنزيين

(هذه الكلمة مرة أخرى)

قد ولَّت. فُتحَت البوابة اليمنى بصرير خافت، ودخل لويس بعد

---

* معناها "منظر لطيف".

إلقائه نظرةً سريعةً إلى الوراء ليتأكد أنه غير مراقَب. أغلَق البوابة خلفه وسمِع نقرة المزلاج.

وَقَف في هذه الضاحية المتواضعة للموتى، وراح ينظر حوله.

مكان فاخر وخاص، فكَّر في سرّه، *لكن لا أحد، أعتقد، يعانق هناك*. مَن؟ أندرو مارفل؟ ولماذا يخزِّن الذهن البشري هكذا ترّهات مدهشة، على أي حال؟

سمِع عندها صوت جاد في ذهنه، قلقاً و– خائفاً؟ نعم. خائفاً.

ماذا تفعل هنا يا لويس؟ إنك تبحث عن طريق لا تريد سلوكه.

دفَع الصوت جانباً. إذا كان يعذِّب أي شخص، فهو يعذِّب نفسه فقط. لا يحتاج أحدٌ إلى معرفة أنه أتى إلى هنا مع بدء تلاشي ضوء النهار وحلول الظلمة.

بدأ يسير نحو قبر غايدج، سالكاً أحد المسارات المتعرّجة. وجد نفسه بعد لحظات في ممر أشجار تُصدر أوراقها الجديدة حفيفاً غامضاً فوق رأسه. كان قلبه ينبض بصخب في صدره. ورأى القبور والنُصُب التذكارية في صفوف غير منظَّمة. في مكان ما سيكون مبنى الوكيل، وسيجد فيه خريطة فدادين پليزنتفيو العشرين تقريباً، مقسَّمة بشكل أنيقٍ وعاقلٍ إلى أرباع دوائر، وكل رُبع دائرة منها يعرض القبور المشغولة وقِطع الأرض غير المُباعة. للبيع. شقق ذات غرفة واحدة. للنوم.

لا تشبه مقبرة الحيوانات كثيراً، فكَّر في سرّه، وهذا جعله يتوقف ويفكِّر للحظة، متفاجئاً. لا، لا تشبهها. فقد أعطته مقبرة الحيوانات انطباعاً بوجود تنظيمٍ صاعدٍ بشكل مجهول تقريباً من الفوضى. تلك الدوائر المتحدة المركز التقريبية من الداخل إلى الوسط؛ الصخور الفظّة، والشواهد المصنوعة من ألواح. كما لو أن الأولاد الذين دفنوا حيواناتهم الأليفة هناك أنشأوا النمط من لاوعيهم الجماعي، كما لو أن...

للحظة رأى لويس مقبرة الحيوانات كأنها إعلان... إغراء، مثل ذلك الذي يقدّمونه لك في زقاق المخلوقات العجيبة الخلقة في الكرنفال. يُخرجون آكل النار وعليك مشاهدة عرضه مجاناً لأن المالكين يعرفون أنك لن تشتري شريحة اللحم إلا إذا رأيتَ الطشيش، لن تبصق النقود إذا لم ترَ الوميض –

تلك القبور، تلك القبور في دوائرها الدرويدية تقريباً.

القبور في مقبرة الحيوانات تقلِّد أقدم رمز تاريخي: تشير الدوائر المتناقِصة إلى لولبٍ يقود نزولاً، ليس إلى نقطةٍ ما، بل إلى اللانهاية؛ نظام من فوضى أو فوضى من نظام، بناءً على الاتجاه الذي يعمل فيه ذهنك. كان رمزاً حفره المصريون على قبور الفراعنة، رمزاً رسمه الفينيقيون على عربات ملوكهم الراحلين؛ عُثر عليه على جدران الكهوف في ميسينا القديمة؛ وأنشأه ملوك ستونهنج كساعةٍ لتوقيت الكون.

كان اللولب أقدم علامة للقوة في العالم، أقدم رموز الإنسان لذلك الجسر الملتوي الذي قد يتواجد بين العالم والهاوية.

وَصَل لويس إلى قبر غايدج أخيراً. كانت الجرّافة قد رحلت. وقد أُزيل العشب الاصطناعي، لفَّه عاملٌ يصفِّر وهو يفكِّر بشراب شعيرٍ بعد العمل في مقصف فيرماونت، وخزَّنه في حظيرة معدّات في مكان ما. المكان الذي كان غايدج مستلقٍ فيه يُظهِر مستطيلاً مُتقَناً من تربة محروفة، ربما مساحتها متر بمتر ونصف. لم يُنصَب شاهد القبر بعد.

ركَع لويس. هبّت الرياح وجعلت شعره يتطاير. كانت السماء داكنة كلياً تقريباً الآن. وتتسابق مع السُحُب.

لم يصوِّب أحدٌ ضوءاً في وجهي ويسألني ماذا أفعل هنا. لم ينبح أي كلب حراسة. لم تكن البوابة مُقفلة. أيام رجال الإحياء ولّت. إذا أتيتُ إلى هنا ومعي مِعول ومجرفة –

عاد إلى رشده برعشةٍ. كان يلعب فقط لعبة ذهنية خطيرة مع نفسه إذا افترَض أن پليزنتفيو ستبقى بلا حراسة خلال ساعات الليل. ماذا لو قبض عليه الوكيل أو الحارس غارقاً حتى مستوى بطنه في قبر إبنه الجديد؟ قد لا يُذكَر ذلك في الصحف، لكنه قد يُذكَر. وقد يُتَّهم بارتكاب جريمة. أي جريمة؟ سرقة القبور؟ غير محتمل. تهمة التخريب المتعمّد مرجَّحة أكثر. وسينتشر الخبر سواء عبر الصحف أو بعيداً عنها. سيتكلَّم الناس؛ فالقصة مثيرة جداً لكي لا تتناقلها الألسن. القبض على طبيب محلي يحفر قبر إبنه ذي السنتين، الذي قُتل مؤخراً في حادث طريق مأساوي. سيخسر وظيفته. حتى ولو لم يخسرها، ستتأثر رايتشل نفسياً بهكذا روايات، وقد تتعرَّض إيليه للمضايقة في المدرسة بسببها إلى أن تصبح حياتها بؤساً. وقد يكون هناك إذلال إخضاعه لاختبار سلامة العقل مقابل إسقاط التُهم عنه.

لكن يمكنني إعادة غايدج إلى الحياة! بإمكان غايدج أن يعيش من جديد!

هل يصدِّق ذلك حقاً؟

الحقيقة هي أنه يصدِّقه. لقد أخبَر نفسه مراراً وتكراراً، قبل موت غايدج وبعده، أن تشرش لم يمت حقاً، بل تعرَّض لصعقة فقط. أن تشرش حفرَ طريق خروجه بنفسه وعاد إلى المنزل. قصة للأطفال ذات إيحاءات مستترة شنيعة - ويني الدبدوب. المالك يكوِّم أحجاراً عن غير قصد فوق حيوان حيّ. الوحش المخلص يحفر ليُخرج نفسه ويعود إلى المنزل. ممتاز. ما عدا أن ذلك لم يكن صحيحاً. فقد *مات* تشرش. وقد أعادته مقبرة الميكماك إلى الحياة.

جلَس قرب قبر غايدج، وحاول أن يضع كل المكوّنات المعروفة في ترتيب منطقي بقدر ما يسمح به هذا السحر الأسود.

تيمي باترمان، الآن. أولاً، هل صدَّق القصة؟ وثانياً، هل يُحدِث ذلك فرقاً؟

رغم توقيتها المناسب، صدَّق معظمها. لا يمكن إنكار أنه إذا تواجد مكانٌ مثل مقبرة الميكماك (وهي موجودة) وإذا عرَف الناس به (مثل قلّة من قدامى سكان لادلو)، فسيحاول أحدهم اختباره عاجلاً أم آجلاً. الطبيعة البشرية مثل لويس تفهم أنه من الصعب تصديق أن المسألة توقفت عند بضعة حيوانات أليفة وحيوانات ذات سلالة قيّمة.

حسناً - هل صدَّق أيضاً أن تيمي باترمان تحوَّل إلى نوعٍ من العفاريت العليمة بكل شيء؟ هذا سؤال أصعب، وكان حذِراً منه لأنه لم يرغب أن يصدِّقه، وقد رأى نتائج ذلك النوع من العقلية سابقاً.

لا، لم يرغب أن يصدِّق أن تيمي باترمان أصبح عفريتاً، لكنه لن يسمح - لا يستطيع أن يسمح على الإطلاق - لما يريده أن يؤثّر على قراره.

تذكَّر لويس الثور هانراتي. هانراتي، قال جاد، أصبح دنيئاً. وهكذا أصبح تيمي باترمان، بطريقته الخاصة. وقد "قُتل" هانراتي لاحقاً من قِبل نفس الرجل الذي جرّه بطريقة ما إلى مقبرة الميكماك على مزلجة. كما "قُتل" تيمي باترمان من قِبل أبيه.

لكن لأن هانراتي أصبح دنيئاً، هل يعني ذلك أن كل الحيوانات أصبحت دنيئة؟ لا. هانراتي لا يبرهن الحالة العامة؛ كان هانراتي في الواقع *استثناءً* للحالة العامة. انظر إلى الحيوانات الأخرى - سپوت كلب جاد، ببغاء العجوز، تشرش نفسه. عادوا كلهم متغيِّرين، وكان التغيير ملحوظاً في جميع الحالات، لكن في حالة سپوت، على الأقل، لم يكن التغيير كبيراً جداً لدرجة أن جاد امتنَع عن التوصية بعملية... (الإحياء)

نعم، *الإحياء* لصديقٍ بعد سنوات عديدة. بالطبع، حاوَل التبرير لاحقاً وتردَّد وتلعثم، وقال الكثير من الكلام الفارغ المرتبك المُنذِر بالسوء الذي لا يمكن اعتباره فلسفةً حتى عن حق.

كيف يمكنه أن يرفض اغتنام الفرصة المتوفرة له - هذه الفرصة التي لا تُصدَّق - بناءً على قصة تيمي باترمان؟ زهرة واحدة لا تصنع ربيعاً.

أنت تحرِّف كل الأدلة لصالح الاستنتاج الذي تريده، احتجّ ذهنه. *على الأقل قل لنفسك الحقيقة اللعينة عن التغُّير الذي طرأ على تشرش. حتى ولو أردتَ استبعاد الحيوانات - الفئران والطيور - ماذا بشأن سلوكه؟ مشوَّش... هذه أفضل كلمة لوصفه. اليوم الذي خرجنا فيه مع الطائرة الورقية. هل تتذكَّر كيف كان غايدج في ذلك اليوم؟ كيف كان حيوياً ونشيطاً، يتفاعل مع كل شيء؟ أليس من الأفضل تذكّره بتلك الطريقة؟ هل تريد إحياء زومبي من فيلم رعب من الدرجة الثانية؟ أو حتى شيء ركيك مثل فتى صغير متخلِّف؟ فتى يأكل بأصابعه ويحدِّق في الصور على شاشة التلفزيون بشكل خالٍ من أي تعبير، فتى لن يتعلَّم أبداً كيف يكتب إسمه؟ ماذا قال جاد عن كلبه؟ "كان كما لو أنني أنظِّف قطعة لحم". هل هذا ما تريده؟ قطعة لحم؟ وحتى لو كنتَ قادراً على الاقتناع بذلك، كيف ستشرح عودة إبنك من الموت لزوجتك؟ لإبنتك؟ لستيف ماسترتون؟ للعالم؟ ماذا سيحدث عندما تدخل مِيسِي داندريدج في الممر الخاص لمنزلك لأول مرة وترى غايدج يركب درّاجته الثلاثية العجلات في الفناء؟ ألا يمكنك سماعها تصرخ؟ ألا يمكنك رؤيتها تنهش وجهها بأظافرها؟ ماذا ستقول للمراسِلين الصحفيين؟ ماذا ستقول عندما يأتي فريق تصوير برنامج "أشخاص حقيقيون" إلى عتبة بابك، يريدون تصوير فيلم عن إبنك المُحيا؟*

هل إحدى هذه المسائل تهمّ حقاً، أو كان مجرد صوت جبن؟ هل

يصدِّق أنه لا يمكن التعامل مع تلك الأشياء؟ أن رايتشل ستستقبل إبنها الميت بدموع فرح فقط لا غير؟

نعم، افترَض أن هناك احتمالاً حقيقياً بأن غايدج قد يعود... حسناً... متناقِصاً. لكن هل هذا سيغيِّر نوعية حبّه له؟ فالأهل يحبّون الأولاد الذين يُولدون عمياناً، الأولاد الذين يُولدون كتوائم سيامية، الأولاد الذين يُولدون ولديهم انحراف جنسي. ويتضرَّع الأهل للرحمة القضائية أو عفو الدولة نيابة عن الأولاد الذين كبروا وارتكبوا جريمة اغتصاب أو قتل أو تعذيب للبريء.

هل يصدِّق أنه سيكون من المستحيل عليه أن يحبّ غايدج حتى ولو بقي غايدج يرتدي حفاضات أطفال حتى سنّ الثامنة؟ إذا لم ينجح في الصف المدرسي الأول إلى أن يصبح في الثانية عشرة؟ إذا لم ينجحه أبداً؟ هل يمكنه نبذ إبنه واعتباره مجرد... إحباط سماوي، عندما يكون هناك ملجأ آخر؟

لكن يا للهول يا لويس، المرء لا يعيش في فراغ! سيقول الناس –

أوقَف تلك الفكرة بقوة غاضبة فظّة. من بين كل الأشياء التي لا يجب التفكير فيها الآن، كان رأي الناس أولها على الأرجح.

ألقى لويس نظرة سريعة على التربة المحروفة لقبر غايدج وشَعَر بموجة رهبة ورعب تتملّكه. تحرّكت أصابعه من تلقاء نفسها ورسمت نمط دوائر متحدة المركز في التربة – لقد رسم لولباً.

جرف أصابع يديه على التربة، مُمحياً النمط. ثم غادر پليزنتفيو، مُسرعاً، وهو يشعر أنه تعدّى على ممتلكات الغير، أنهم سيرونه، ويوقفونه، ويستجوبونه في كل انعطافة من المسار.

تأخر في استلام البيتزا التي طلبها، ورغم أنها تُرِكَت فوق أحد

الأفران الكبيرة، إلا أنها كانت نصف باردة ودهنية ولذيذة المذاق مثل طين مطبوخ. أكَل لويس قطعةً واحدةً ثم رمى الباقي خارج النافذة، العلبة وكل شيء، بينما توجَّه عائداً إلى لادلو. لم يكن مُلقي نفايات بطبيعته، لكنه لم يرغب أن ترى رايتشل بيتزا غير مأكول أغلبها في سلة المهملات في المنزل. قد يجعلها ذلك تتساءل أن البيتزا لم تكن حقاً ما دار في ذهنه عندما ذهَب إلى بانغور.

بدأ لويس الآن يفكِّر بالوقت والظرف.

الوقت. قد يكون الوقت ذا أهمية كبيرة، وحتى حاسمة. فقد بقي تيمي باترمان ميتاً لفترة طويلة قبل أن يتمكّن أبوه من أخذه إلى مقبرة الميكماك. *أُطلق النار على تيمي في التاسع عشر... دُفن تيمي - لا تُلزمني بهذا لكنني أعتقد أنه جرى في 22 يوليو. وبعد ذلك بأربعة أو خمسة أيام، رأته مارجوري واشبورن... يسير على الطريق.*

حسناً، لنقل إن بيل باترمان فعل ذلك بعد أربعة أيام من الدفن الأصلي لإبنه... لا. إذا كان سيُخطئ، دعه يُخطئ من باب الحيطة. لنقل ثلاثة أيام. لنفترض جدلاً أن تيمي باترمان عاد من الموت في 29 يوليو. هذا يعني مرور عشرة أيام بين موت الفتى وعودته، وهذا تقدير مُحافِظ. ربما كانت المدة اثني عشر يوماً. بالنسبة لغايدج، مرَّ الآن أربعة أيام. لقد أفلت منه الوقت إلى حدّ ما، لكنه لا يزال ممكناً اختصار زمن بيل باترمان عند النصف. إذا...

إذا أمكنه إيجاد ظروف مشابهة لتلك التي جَعَلت إحياء تشرش ممكناً. لأن تشرش مات في أفضل وقت ممكن، أليس كذلك؟ كانت عائلته مسافرة عندما دُهس تشرش وقُتل. لا أحد كان أكثر حكمة، ما عداه وجاد.

كانت عائلته في شيكاغو.

بالنسبة للويس، فقد سقطت القطعة الأخيرة في مكانها الصحيح مع صوت نقرة صغيرة مُتقَنة.

"تريدنا *ماذا*؟"، سألت رايتشل، وهي تحدِّق فيه مندهشةً.

كانت العاشرة والربع. وقد أوت إيليه إلى السرير. وأخذت رايتشل حبة فاليوم أخرى بعد تنظيفها حطام حفلة الجنازة ("حفلة الجنازة" هي جملة أخرى من تلك الجمل الرهيبة المليئة بالتناقض غير المُعلَن، مثل "ساعات الزيارة"، لكن لا يبدو أن هناك جملة أخرى لوصف طريقة تمضيتهم بعد الظهر) وبدت مذهولةً وهادئةً منذ أن عاد من بانغور... لكن هذا اخترق حاجز هدوئها.

"أن تعودا إلى شيكاغو مع أمك وأبيك"، كرَّر لويس بصبر. "سيرحلان غداً. إذا اتصلتِ بهما الآن وبشركة دلتا بعد ذلك مباشرةً، قد تكونين قادرةً على ركوب نفس الطائرة معهما".

"لويس، هل فَقَدتَ *عقلك*؟ بعد شجارك مع أبي –"

وجَد لويس نفسه يتكلَّم بطلاقة كانت غريبة عنه كلياً. وفَّر له ذلك نوعاً من الابتهاج غير السار. شَعَر كأنه لاعب بديل في مباراة لكُرة القدم يتلقّى الكُرة فجأة ويسجِّل هدفاً بعد ركضه سبعين متراً، وهو يتمايل متجاوزاً الخصوم، ومتفوّقاً في الذكاء على المعرقلين المحتملين بسهولة هذيانية لمرة واحدة فقط. لم يكن بارعاً أبداً في الكذب، ولم يخطِّط لهذه المواجهة بأي تفصيل أبداً، لكن تدفَّقت منه الآن سلسلة كذبات مُقنِعة وتبريرات مُلهَمة.

"الشجار الذي نشب بيننا هو أحد أسباب رغبتي بعودتك وإيليه معهما. لقد آن الأوان لكي نختم هذا الجرح يا رايتشل. عرَفتُ هذا... شَعَرت به... في ردهة دار الدفن. عندما بدأ الشجار، كنتُ أحاول

ترقيع الأمور".

"لكن هذه الرحلة... لا أعتقد أنها فكرة جيدة أبداً يا لويس. نحتاج إليك. وتحتاج إلينا". راحت عيناها تحملقان فيه بارتياب. "على الأقل، *آمل* أن تكون بحاجة إلينا. وكلانا ليس في أي حالة لـ –"

"– في أي حالة للبقاء هنا"، قال لويس بنشاط. شَعَر كما لو أنه قد يكون مُصاباً بالحمى. "أنا مسرور أنك تحتاجين إليَّ، وأنا أحتاج إليك وإلى إيليه. لكن هذا المكان اللعين هو الأسوأ لك في العالم الآن يا حبيبتي. غايدج في كل مكان في هذا المنزل، خلف كل زاوية. لك ولي، بالتأكيد. لكنه حتى أسوأ لإيليه، أعتقد".

رأى الألم في عينيها وعرَف أنه أثَّر فيها. شَعَر جزءٌ منه بالخِزي من هذا الانتصار الرخيص. كل الكتب التعليمية التي قرأها حول موضوع الموت أخبَرته أن الرغبة القوية الأولى للثكلان هي بالابتعاد عن مكان حصوله... وأن الاستسلام لهكذا رغبة قد يكون أكثر خطوة مؤذية لأنه يوفِّر للثكلان الرفاهية المريبة برَفْض التصالح مع الواقع الجديد. قالت الكتب إنه من الأفضل أن تبقى حيث كنتَ، أن تحارب الحزن على أرضه إلى أن يهمد ويتحوَّل إلى ذكرى. لكن لويس لم يجرؤ على إجراء الاختبار مع عائلته في المنزل. عليه أن يتخلّص منهما، لبعض الوقت على الأقل.

"أعرف"، قالت. "لكنه... يصيبك في كل مكان. لقد نقَلتُ الأريكة بينما كنتَ في بانغور... اعتقَدتُ أن استخدام المكنسة الكهربائية سيُلهيني عن... الأمور... ووجَدتُ أربعة من سياراته الماتشبوكس الصغيرة تحتها... كما لو أنها كانت تنتظر عودته لكي... يلعب بها...". تقطَّع صوتها، المرتعش من قبل. سالت الدموع على خدّيها. "وعندها أخذتُ حبة الفاليوم الثانية لأنني بدأتُ أبكي من

جديد، مثلما أبكي الآن... آه يا له من مسلسل تلفزيوني طويل لعين... عانقني يا لُو، هلاّ عانقتني؟".

عانقها، وفعلَ ذلك ببراعة، لكنه شَعَر أنه دجّال. راح ذهنه يستعرض الطرق لتحويل تلك الدموع لصالحه. *يا له من شاب لطيف جداً. يا مَن هنا، هيا بنا.*

"لكم من الوقت سيطول هذا؟"، صاحت. "هل سينتهي يوماً ما؟ فقط لو يمكننا استعادته يا لويس، أُقسِم أنني سأنتبه إليه بشكل أفضل، لن يحصل أبداً، وفقط لأن ذلك السائق كان يقود بسرعة كبيرة لا يُعفيني – يُعفينا – من الذنب. لم أظن أنه يمكن أن يكون هناك ألم مثل هذا أبداً، وهذه هي الحقيقة. يعاودني الألم، مراراً وتكراراً، ويؤلمني *كثيراً* يا لويس، ولا راحة منه حتى عندما أنام، عندما أنام *أحلم* به، مراراً وتكراراً، أراه يركض إلى الطريق... وأصرخ عليه..."

"صه"، قال. "رايتشل. صههه".

رَفَعت وجهها المنتفخ إليه. "حتى إنه لم يكن يتصرَّف بشقاوة يا لويس. كانت مجرد لعبة له... الشاحنة أتت في الوقت الخطأ... واتصلت مِيسِي داندريدج بينما كنتُ لا أزال أبكي... وقالت إنها قرأت في صحيفة إلزورث *الأميركان* أن السائق حاوَل قتل نفسه".

"ماذا؟".

"حاوَل شنق نفسه في مرأبه. إنه يعاني من صدمة واكتئاب عميق، قالت الصحيفة..."

"من المؤسف جداً أنه غير بارع في ذلك"، قال لويس بشراسة، لكن صوته بدا بعيداً بالنسبة لأذنيه، وشَعَر بقشعريرة تنتشر في كل جسمه. *للمكان طاقة يا لويس... مَرَّ بمرحلة طاقة قصوى من قبل، وأخشى أنه عائد إلى طاقته القصوى مرة أخرى.* "مات إبني وهو خرجَ

بكفالة ألف دولار وسيبقى يشعر بالاكتئاب وبرغبة بالانتحار إلى أن يجمِّد قاضٍ ما رخصة قيادته لتسعين يوماً ويعطيه غرامةً أشبه بصفعة على المعصم".

"تقول مِيسِي إن زوجته أخذت الأولاد وهجرته"، قالت رايتشل برتابة. "لم تعرف ذلك من الصحيفة، بل من أحدٍ يعرف شخصاً في إلزْورث. لم يكن ثملاً. لم يكن منتشياً من المخدرات. ليست لديه أي مخالفات سرعة سابقة. قال إنه عندما وصل إلى لادلو، شَعَر فقط برغبة أن يدوس دوّاسة الوقود إلى أقصى حد ممكن. قال إنه حتى لا يعرف السبب. لذا انطلقت وانطلقت".

شَعَر فقط برغبة أن يدوس دوّاسة الوقود إلى أقصى حد ممكن.
للمكان طاقة...

دفع لويس تلك الأفكار بعيداً. أمسَك ساعد زوجته بلطف. "اتصلي بأمك وأبيك. افعلي هذا الآن. لا داعي لأن تبقي وإيليه في هذا المنزل ليوم آخر. ليس ليوم آخر".

"ليس من دونك"، قالت. "لويس، أريدنا... *أحتاج* إلينا أن نتعاضد معاً".

"سأتبعك بعد ثلاثة أيام - أربعة بالحد الأقصى". إذا سارت الأمور على ما يرام، قد تعود رايتشل وإيليه إلى هنا بعد ثمانٍ وأربعين ساعة. "عليَّ أن أجد شخصاً يملأ مكاني، بدوام جزئي على الأقل، في الجامعة. لديَّ أيام إجازة مرضية وأيام عطلتي قادمة، لكنني لا أريد رمي كل المسؤولية على كاهل سورندرا. يستطيع جاد الانتباه للمنزل في غيابنا، لكنني أريد قَطْع الكهرباء وتخزين محتويات الثلاجة في مكان ما. لدى عائلة داندريدج مثلاً".

"مدرسة إيليه..."

"تباً لها. ستنتهي الدراسة بعد ثلاثة أسابيع، على أي حال. سيتفهمون ظروفنا. سيرتِّبون خروجاً مُبكراً لها. سيسير كل شيء –"

"لويس؟".

سكتَ. "ماذا؟".

"ماذا تُخفي؟".

"أُخفي؟". نظَرَ إليها بصراحة، بوضوح. "لا أعرف عما تتكلّمين".

"حقاً؟".

"لا. لا أعرف".

"لا تهتمّ. سأتصل بهما الآن... إذا كان هذا ما تريده حقاً".

"إنه كذلك"، قال، وبدا صدى الكلمات يتردَّد في ذهنه بقرقعة حديد.

"حتى إن هذا قد يكون الأفضل... لإيليه". نظَرَت إليه بعينيها الحمراوين، اللتين لا تزالان متجمِّدتين قليلاً من الفاليوم. "تبدو محموماً يا لويس. كما لو أنك ستُصاب بشيء".

ذهَبت إلى الهاتف واتصلت بالفندق الصغير الذي يقيم فيه والداها قبل أن يتمكن لويس من الرد عليها.

شَعَر أفراد عائلة غولدمان بسعادة غامرة من اقتراح رايتشل. ولم يشعرا بنفس السعادة من فكرة انضمام لويس إليهم بعد ثلاثة أو أربعة أيام، لكن لا داعي لهما لكي يقلقا من ذلك في النهاية، بالطبع. فلم تكن لدى لويس أي نيّة للذهاب إلى شيكاغو. واعتبر أنه إذا كانت ستطرأ أي عقبةٍ، فهي ستكون حجز تذاكر السفر في هكذا توقيت متأخر. لكن الحظ كان معه في ذلك أيضاً. فلا تزال هناك مقاعد شاغرة على متن رحلة دلتا من بانغور إلى سينسيناتي، وقد أظهَرَ فحصٌ

سريعٌ إلغاءين على متن رحلة سينسيناتي إلى شيكاغو. وهذا يعني أن رايتشل وإيليه ستكونان قادرتين على السفر مع عائلة غولدمان حتى سينسيناتي فقط، لكنهما ستصلان إلى شيكاغو بعدهما بأقل من ساعة.

الأمر أشبه بأعجوبة، فكّر لويس في سرّه، وهو يُغلق سمّاعة الهاتف، وأجابه صوت جاد بحزم: *مرّ بمرحلة طاقة قصوى من قبل، وأخشى...*

آه، اغرب عني، قال لصوت جاد بفظاظة. *لقد تعلّمتُ تقبُّل أشياء عديدة غريبة أخرى في الأشهر العشرة الفائتة يا صديقي العزيز – لو أخبرتني نصفها، لقلتُ لك إن ذهني قد ينفجر تحت الضغط. لكن هل أنا جاهز لأصدّق أن رقعة أرض مسكونة بالأشباح تستطيع التأثير على تذاكر الطيران؟ لا أعتقد.*

"عليّ توضيب الأمتعة"، قالت رايتشل. كانت تنظر إلى معلومات الرحلة التي دوّنها لويس على الدفتر قرب الهاتف.

"خذي حقيبة السفر الكبيرة فقط"، قال لويس.

نظَرت إليه بعينين مُبرقّتين، جافلتين قليلاً. "لكلينا؟ أنت تمزح يا لويس".

"حسناً، خذي حقيبتين قماشيتين أيضاً. لكن لا تُرهقي نفسك بتوضيب ملابس مختلفة للأسابيع الثلاثة القادمة"، قال وهو يفكّر: *خاصة وأنك قد تعودين إلى لادلو قريباً جداً.* "خذي ما يكفي لأسبوعٍ، عشرة أيام. معك دفتر الشيكات وبطاقات الإئتمان. اشتري ما تحتاجين إليه".

"لكن لا يمكننا تحمّل –"، بدأت تقول بارتياب. بدت مرتابةً من كل شيء الآن، طيّعةً، مرتبكةً بسهولة. تذكّر تعليقها البارد عن الوينباغو الذي تكلّم بخمول ذات مرة عن شرائه.

"لدينا المال"، قال.

"حسناً... أظن أنه يمكننا استخدام أموال كلّية غايدج إذا احتجنا إلى ذلك، رغم أنه سيلزم يومٌ أو يومين لمعالجة حساب التوفير وأسبوعٌ لقبض فواتير وزارة المالية -"

بدأ وجهها يتجعّد ويتلاشى من جديد. احتضنها لويس. *إنها محقّة. يستمر بضربك مراراً وتكراراً، ولا يخفّ أبداً.* "رايتشل، لا"، قال. "لا تبكي".

لكنها بكت بالطبع - كان عليها أن تبكي.

بينما كانت توضّب الأمتعة في الطابق العلوي، رنَّ الهاتف. هرع لويس إليه، معتقداً أنه سيكون شخصاً من شركة دلتا يقول إنه حصل خطأ في التذاكر ولا توجد رحلات متوفرة. *كان يجب أن أعرف أن كل شيء سار بسلاسة كبيرة.*

لكن المتصل لم يكن من شركة دلتا. كان إروين غولدمان.

"سأنادي رايتشل"، قال لويس.

"لا". لم يكن هناك شيء آخر للحظة، مجرد صمت. *الأرجح أنه جالس هناك يحاول أن يقرّر أي إسم سيناديك به أولاً.*

عندما تكلَّم غولدمان مرة أخرى، كان صوته متوتراً. بدا أنه يدفع الكلمات خارج فمه مقاوِماً قوةً داخليةً كبيرةً. "أنت مَن أريد التكلم معه. أرادتني دوري أن أتصل وأعتذر عن... عن سلوكي. أظن... لويس، أظن أنني أردتُ أن أعتذر أيضاً".

آه يا إروين! يا لتواضعك! يا للهول، أظن أنني بلَّلتُ بنطلوني!

"لا داعي لأن تعتذر"، قال لويس. كان صوته جافاً وميكانيكياً.

"لا يمكن تبرير ما فعلتُه"، قال غولدمان. لم يبدُ الآن أنه يدفع

الكلمات خارج فمه بالقوة؛ بدا أنه *يبصقها* بصقاً. "اقتراحك أن تأتي رايتشل وآيلين إلينا جَعَلني أرى مدى شهامتك تجاه هذا... وكم كنتُ وضيعاً".

كان هناك شيء مألوف جداً في هذا النقد القاسي، شيء مألوف بشكل مُوحِش -

ثم عرَفه، وانقبض فمه فجأة في زمّ مشدود، كما لو أنه عضَّ ليمونة صفراء ممتلئة. طريقة رايتشل - كان لويس متأكداً أنها غير مُدركة لها بتاتاً - في قولها بندم: *آسفة يا لويس أنني كنتُ نذلةً هكذا* بعد أن تكون نذالتها قد حقَّقت لها ما أرادته حقاً. وها هو ذلك الصوت، مسروق من حيوية رايتشل ومَرَحها، صحيح، لكن نفس ذلك الصوت يقول، *آسف أنني كنتُ وغداً هكذا يا لويس.*

كان العجوز يستعيد إبنته وحفيدته؛ كانتا تهربان من المنزل في ماين إلى بابا. بفضل دلتا ويونايتد، كانتا تعودان إلى حيث انتمتا، إلى حيث أرادهما إروين غولدمان. يمكنه الآن أن يتحمّل أن يكون شهماً. وعلى حد عِلم إروين العجوز، فقد فاز. *لذا دعنا ننسى أنني لكمْتك فوق جثة إبنك الميت يا لويس، أو أنني ركلْتك عندما كنتَ على الأرض، أو أنني أوقعتُ تابوته وتهشّم المزلاج لكي تتمكن من رؤية - أو تظنّ أنك رأيتَ - تلك الومضة الأخيرة من يد ولدك. دعنا ننسى كل ذلك. عفا الله عما مضى.*

رغم فظاعة كل هذا يا إروين، أيها الوغد الحقير، أتمنى أن تسقط ميتاً في هذه اللحظة بالذات، إن لم يكن ذلك سيُفشِل لي خططي.

"لا بأس يا سيد غولدمان"، قلتُ بهدوء. "كان... حسناً... يوماً عاطفياً لنا كلنا".

"لا، لا"، أصرَّ، وأدرَك لويس - رغم أنه لم يرغب بذلك - أن

غولدمان لم يكن سياسياً فقط، لم يكن يقول فقط إنه آسف من أنه كان وغداً الآن وقد حصل على مراده. كان الرجل يبكي تقريباً، وكان يتكلَّم بإلحاح بطيءٍ مرتعشٍ. "كان يوماً *فظيعاً* لنا كلنا. بفضلي. بفضل عجوز عنيد غبي. أذيتُ إبنتي عندما كانت بحاجة إلى مساعدة مني... أذيتُك، وربما كنتَ بحاجة إلى مساعدة مني أيضاً يا لويس. أن تفعل هذا... تتصرّف بهذه الطريقة... بعد أن تصرَّفتُ *بتلك* الطريقة... يجعلني أشعر أنني حقير يا لويس. وأعتقد أن هكذا يجب أن أشعر".

آه دعه يتوقف عن هذا، دعه يتوقف قبل أن أبدأ بالصراخ عليه وألغي الاتفاقية بأكملها.

"ربما أخبرَتك رايتشل يا لويس، أنه كانت لدينا إبنة أخرى –"

"زيلدا"، قال لويس. "نعم، أخبرَتني عن زيلدا".

"كان صعباً"، قال غولدمان بذلك الصوت المرتعش. "صعباً علينا كلنا. والأصعب على رايتشل، ربما، نعم، كانت رايتشل هناك عندما ماتت زيلدا، لكن صعبٌ على دوري وعليَّ أنا أيضاً. كادت دوري تُصاب بإنهيار –"

وبماذا تظن أن رايتشل أُصيبت؟ أراد لويس أن يصيح. *هل تعتقد أن طفلةً لا يمكن أن تُصاب بإنهيار عصبي؟ مرّت عشرون سنة وهي لا تزال تجفل من ظل الموت. والآن يحصل هذا. هذا الشيء البائس المريع. إنها لأعجوبة صغيرة أنها ليست في المستشفى اللعين، يتم إطعامها عبر أنبوب وريدي. لذا لا تكلّمني كم كان صعباً عليك وعلى زوجتك، أيها الوغد.*

"منذ أن ماتت زيلدا، ونحن... أظن أنها تشبَّثنا برايتشل... أردنا دائماً حمايتها... والتعويض عليها. التعويض عن المشاكل التي عانتها في... في ظهرها... لسنوات بعد ذلك. التعويض عن غيابنا لحظتها".

نعم، كان العجوز يبكي حقاً. لماذا عليه أن يبكي؟ هذا صعَّب على لويس التمسّك بكرهه الصافي له. صعَّبه، لكن لم يجعله مستحيلاً. تقصَّد أن يستذكر صورة غولدمان يمدّ يده إلى جيب سترته ليُخرِج دفتر شيكاته... لكنه فجأة رأى زيلدا غولدمان في الخلفية، شبح مضطرب على سرير نتِن، بوجهها الرديء المليء بالغيظ والعذاب، ويديها المنقبضتين على شكل مخالب. شبح غولدمان. أوز الكبيل واللهيب.

"رجاءً"، قال. "رجاءً يا سيد غولدمان. إروين. كفى. دعنا لا نجعل الأمور أسوأ مما عليها أن تكون، اتفقنا؟".

"أصدِّق الآن أنك رجل طيب وأنني أخطأتُ في تقديرك يا لويس. آه، اسمع، أعرف ماذا تظن. هل أنا غبي إلى هذا الحدّ؟ لا. غبي، لكن ليس *إلى هذا الحدّ*. تظن أنني أقول كل هذا لأنه يمكنني قوله الآن، تقول لنفسك إنه يحصل على ما يريده وقد حاوَل ذات يوم رشوتي، لكن... لكن يا لويس، أُقسِم..."

"كفى"، قال لويس بلطف. "لا يمكنني... لا يمكنني حقاً تحمُّل المزيد". بدأ صوته يرتعش أيضاً. "اتفقنا؟".

"حسناً"، قال غولدمان وتنهَّد. ظنَّ لويس أنه تنهُّد ارتياح. "لكن دعني أقول مرة أخرى إنني أعتذر. لستَ مضطراً إلى قبوله. لكن هذا ما اتصلتُ لكي أقوله يا لويس. أعتذر".

"حسناً"، قال لويس. أغمضَ عينيه. كان رأسه يهدر. "شكراً يا إروين. اعتذارك مقبول".

"شكراً"، قال غولدمان. "وشكراً... لسماحك لهما بالمجيء. ربما هذا ما تحتاجان إليه. وسننتظرهما في المطار".

"ممتاز"، قال لويس، وخطرت له فكرة فجأة. كانت مجنونة وجذّابة في منطقها. سيقول لنفسه عفا الله عما مضى... وسيدع غايدج

يرتاح في قبره في پليزنتفيو. بدلاً من محاولة إعادة فتح بابٍ أُغلِق، سيُقفله بقفل مزدوج ويرمي المفتاح بعيداً. سيفعل بالضبط ما أخبَر زوجته أنه سيفعله: ترتيب شؤونهم هنا ويستقلّ طائرةً إلى شايتاون. سيمضون الصيف بأكمله هناك على الأرجح، هو وزوجته وإبنته الطيبة القلب. سيذهبون إلى حديقة الحيوانات والقبّة الفلكية ويستقلّون زورقاً على البحيرة. سيأخذ إيليه إلى أعلى برج سيرز ويُريها الغرب الأوسط الممتدّ أمامها مثل لوحة لعبة مسطَّحة كبيرة، غنية وحالمة. ثم عندما ينتصف أغسطس، سيعودون إلى هذا المنزل الذي بدا حزيناً جداً وغامضاً جداً الآن، وربما سيكون ذلك أشبه بالبدء من جديد. ربما يمكنهم بدء النَسْج من خيط جديد. ما يتواجد على نَول كريد الآن كان بشعاً، ملطَّخاً بدم يجفّ.

لكن هذا لن يكون مماثلاً لقتل إبنه؟ قتله للمرة الثانية؟

حاوَل صوتٌ داخله أن يجادل أن الوضع ليس هكذا، لكنه رفض أن يستمع له. كتمَ الصوت برشاقة.

"إروين، عليَّ أن أذهب الآن. أريد التأكد أن رايتشل حصلت على ما تحتاج إليه ثم أساعدها على الإيواء في السرير".

"حسناً. مع السلامة يا لويس. ومرة أخرى –"

إذا قال إنه يعتذر مرة أخرى، سأصرخ بأعلى صوتي.

"مع السلامة يا إروين"، قال وأغلق الخط.

كانت رايتشل غارقة في كومة ملابس عندما صعد إلى الطابق العلوي. بلوزات على الأسرّة، حمّالات صدر معلّقة على ظهور الكراسي، سراويل فضفاضة على شمّاعات عُلِّقَت على مسكة الباب، وأحذية مصفوفة مثل جنود تحت النافذة. بدا أنها توضِّب ببطء لكن

بكفاءة. استطاع لويس رؤية أنها ستحتاج إلى ثلاث حقائب سفر على الأقل (وربما أربع)، لكنه لم يستطع أيضاً إيجاد أي معنى لمجادلتها بشأن ذلك. فتقدَّم بدلاً من ذلك وساعدها.

"لويس"، قالت بينما كانا يُغلقان حقيبة السفر الأخيرة (اضطر أن يجلس عليها قبل أن تتمكن رايتشل من إغلاق مزلاجَيها)، "هل أنت متأكد أنه لا يوجد شيء تريد إخباري إياه؟".

"بالله عليك يا حبيبتي، ما *هذا*؟".

"لا أعرف ما هذا"، رَدَّت بهدوء. "لهذا السبب أسألك".

"ماذا تعتقدين أنني سأفعل؟ أتسلَّل إلى ماخورٍ؟ انضم إلى السيرك؟ ماذا؟".

"لا أعرف. لكنني أشعر بخطب ما. أشعر كما لو أنك تحاول التخلّص منا".

"رايتشل، هذا *مضحك!*"، قال هذا بحدّة كان سُخطاً جزئياً. حتى في هكذا مضائق، شعَر ببعض الاستياء من رؤية حقيقة أفكاره بهذه السهولة.

ابتسمت بفتور. "لم تكن أبداً بارعاً في الكذب يا لُو".

بدأ يحتجّ مرة أخرى، فقاطعته.

"حلَمت إيليه أنك متَّ"، قالت. "ليلة أمس. استيقَظت تبكي، وذهبتُ إليها. نمتُ معها لساعتين أو ثلاث ثم عدتُ إليك. قالت إنك كنتَ تجلس إلى طاولة المطبخ في حلمها وعيناك مفتوحتين، لكنها عرَفت أنك ميت. قالت إنها سمعت صوت سيارات إطفاء وشمَّت رائحة شيء يحترق. وقالت إنها سمعت ستيف ماسترتون يصرخ".

نظَرَ إليها لويس، مرتعِباً. "رايتشل"، قال أخيراً، "أخوها مات للتو. من الطبيعي جداً أن تحلم أن أفراداً آخرين من عائلتها –"

"نعم، خمَّنتُ هذا القدر بمفردي. لكن الطريقة التي أخبَرتني بها... العناصر... بدا لي أنه يحمل صفات توقّعٍ للمستقبل".

ضحِكت بضعف.

"أو ربما كان عليك أن تكون هناك".

"نعم، ربما"، قال لويس.

رغم نبرته العقلانية، شعَر بالقشعريرة تغطي جسمه كله. وتصلَّبت جذور شعره.

بدا لي أنه يحمل صفات توقّعٍ للمستقبل.

"هيا نأوي إلى السرير"، قالت رايتشل. "زال مفعول الفاليوم، ولا أريد أن آخذ المزيد منه. لكنني خائفة. كنتُ أرى أحلاماً أنا أيضاً..."

"أحلام عن ماذا؟".

"عن زيلدا"، قالت فقط. "في الليالي القليلة الفائتة منذ أن مات غايدج، عندما أنام، تكون زيلدا هناك، تقول إنها قادمة من أجلي، وستنال مني هذه المرة. أنها وغايدج سينالان مني. لأنني تركتُهما يموتان".

"رايتشل، هذا –"

"أعرف. مجرد حلم. طبيعي كفاية. لكن هيا معي إلى السرير وأبعِد عني الأحلام إذا كنتَ تستطيع يا لويس".

استلقيا معاً في الظلمة.

"رايتشل؟ هل لا تزالين مستيقظة؟".

"نعم".

"أريد أن أسألك سؤالاً".

"تفضَّل".

تردَّد، لأنه لم يرغب أن يسبِّب لها مزيداً من الألم، لكنه يحتاج إلى

معرفة الجواب.

"هل تتذكَّرين الخوف الذي عانينا منه عندما كان سنّه تسعة أشهر؟"، سأل أخيراً.

"نعم. نعم، بالطبع أتذكَّر. لماذا؟".

حين كان سنّ غايدج تسعة أشهر، أصبح لويس قلقاً جداً بشأن حجم جمجمة إبنه. كان حجمها خارج مخطط بيرتيرييه، الذي يُظهِر النطاق العادي لأحجام رأس الرضيع على مقياس شهريّ. في سنّ أربعة أشهر، بدأ حجم جمجمة غايدج يميل نحو الجزء العلوي من المنحنى، ثم بدأ يزداد أكثر من ذلك حتى. لم يكن يجد صعوبة في رفع رأسه – كان ذلك ليشكِّل دلالةً واضحةً لا لبس فيها – لكن لويس أخذه إلى جورج تارديف، الذي كان على الأرجح أفضل طبيب أمراض عصبية في الغرب الأوسط. أرادت رايتشل معرفة ما الخطب، وأخبرَها لويس الحقيقة: كان قلقاً من أن غايدج قد يكون مُصاباً باستسقاء الرأس. ابيضَّ وجه رايتشل بشكل كبير، لكنها بقيت هادئة.

"يبدو لي طبيعياً"، قالت.

أومأ لويس برأسه. "يبدو لي طبيعياً أيضاً. لكنني لا أريد تجاهل هذا يا حبيبتي".

"لا، لا يجب أن تتجاهله"، قالت. "لا يجب أن *نتجاهله*".

قاسَ تارديف جمجمة غايدج وعبَس. نكَز تارديف إصبعَين على وجه غايدج، بأسلوب *المهابيل الثلاثة*. جفلَ غايدج. ابتسم تارديف. هدأ قلب لويس قليلاً. أعطى تارديف غايدج كُرةً ليُمسكها. أمسكها غايدج لبرهة ثم أفلتها. رفع تارديف الكُرة عن الأرض ونطَّطها، وهو يراقب عينَي غايدج. تعقَّبت عينا غايدج الكُرة.

"سأقول إن احتمال إصابته باستسقاء الرأس خمسين بالمئة"، قال

تارديف للويس في مكتبه لاحقاً. "لا - الاحتمالات قد تكون أعلى من ذلك بقليل في الواقع. إذا كان الأمر كذلك، فالحالة طفيفة. يبدو يقظاً جداً. يجب أن تحلّ عملية تحويل السائل الجديدة المشكلة بسهولة... إذا كانت هناك مشكلة".

"عملية تحويل السائل تعني جراحةً في الدماغ"، قال لويس.

"جراحة *بسيطة* في الدماغ".

كان لويس قد درَس العملية بعد وقت قصير من بدء قلقه بشأن حجم رأس غايدج، وعملية تحويل السائل، المصممة لتفريغ كمية المائع الزائدة، لم تبدُ بسيطةً جداً *له*. لكنه أبقى فمه مغلقاً، مُخبراً نفسه أن عليه أن يكون ممنوناً لوجود العملية من الأصل.

"بالطبع"، أكملَ تارديف، "لا يزال الاحتمال كبيراً أن لولدك رأساً كبيراً حقاً بالنسبة لطفل سنّه تسعة أشهر. أعتقد أن المسح المقطعي هو أفضل مكان لننطلق منه. هل توافق؟".

وافَق لويس.

أمضى غايدج ليلةً في مستشفى أخواتنا الخيرية، وخضَع لتخديرٍ عامٍ، ووُضع رأسه النائم داخل جهاز بدا مثل مجفِّف ملابس عملاق. انتظَرت رايتشل ولويس في الطابق السفلي بينما أمضت إيليه يومها في منزل الجدّة والجدّ، تشاهد *شارع السمسم* بلا توقف على مسجِّل الفيديو الجديد للجدّ. بالنسبة للويس، كانت تلك الساعات طويلة كئيبة وجَد نفسه فيها يجمع أرقام بشاعةٍ مختلفةٍ ويقارن النتائج. الموت تحت التخدير العام؛ الموت خلال عملية تحويل السائل؛ تخلّف عقليّ طفيف نتيجة استسقاء الرأس، تخلّف عقليّ كارثي نتيجة نفس السبب؛ صَرَع، عمى... آه، كانت الاحتمالات من كافة الأصناف. *للحصول على كامل خريطة الكوارث*، تذكَّر لويس يفكِّر في سرّه، *راجع طبيبك*

المحلي.

جاء تارديف إلى صالة الانتظار حوالي الساعة الخامسة حاملاً ثلاثة سيجارات. أقحمَ واحداً في فم لويس، وواحداً في فم رايتشل (كانت مذهولة جداً لكي تحتجّ)، وواحداً في فمه.

"الولد بخير. لا استسقاء في الرأس".

"أشعِل لي هذا الشيء"، قالت رايتشل وهي تبكي وتضحك في الوقت نفسه. "سأدخّنه حتى أتقيأ".

مبتسماً، أشعلَ تارديف سيجاراتهم.

كان قَدَره يوفّره للطريق 15 أيها الطبيب تارديف، فكّر لويس في سرّه الآن.

"رايتشل، لو كان *مصاباً* باستسقاء الرأس، ولو لم تنجح عملية تحويل السائل... هل كنتِ ستظلين قادرة على حبّه؟".

"يا له من سؤال غريب يا لويس!".

"أجيبي عليه".

"نعم، بالطبع. كنتُ لأحبّ غايدج في كل الظروف".

"حتى ولو كان متخلّفاً؟".

"نعم".

"هل كنتِ ستريدين إرساله إلى مؤسسة رعاية خاصة؟".

"لا، لا أعتقد"، قالت ببطء. "أظن أنه بالمال الذي تجنيه الآن، يمكننا تحمّل ذلك... مكان جيد حقاً، أعني... لكنني أعتقد أنني سأريده معنا إذا استطعنا... لماذا تسأل يا لويس؟".

"أظن أنني كنتُ لا أزال أفكّر بأختك زيلدا"، قال. كان لا يزال مندهشاً من هذه الطلاقة المُوحِشة. "أتساءل إن كنتِ قادرة على معاودة اختبار ذلك مرة أخرى".

"لما كان الوضع هو نفسه"، قالت بنبرة بدت مستمتعة تقريباً. "كان غايدج... حسناً، غايدج كان غايدج. كان إبننا. وهذا كان ليُحدِث فرقاً كبيراً. أظن أن الوضع كان ليكون صعباً، لكن... هل كنتَ *أنتَ* ستريد إرساله إلى مؤسسة رعاية خاصة؟ مكان مثل پاينلاند؟".

"لا".

"هيا ننام".

"هذه فكرة جيدة".

"أشعر أنه يمكنني أن أنام الآن"، قالت. "أريد وضع هذا اليوم خلفي".

"بالفعل"، قال لويس.

بعد وقت طويل من ذلك، قالت بنعاس، "أنت محقّ يا لويس... مجرد أحلام وأوهام..."

"بالتأكيد"، قال، وقبَّل شحمة أذنها. "نامي الآن".

بدا لي أنه يحمل صفات توقّعٍ للمستقبل.

لم ينم لوقت طويل، وقبل أن يغفو، نظرت إليه العظمة المنحنية لقمر مايو المتلاشي عبر النافذة.

الفصل 43

كان اليوم التالي مظلماً لكن دافئاً جداً، وكان لويس يتعرَّق بشدة حين سجَّل أمتعة رايتشل وإيليه وحصل على تذكرتيهما من الكمبيوتر. افترَض أن مجرد القدرة على البقاء مشغولاً هي أشبه بهدية، وشَعَر فقط بمقارنة بسيطة مؤلمة مع آخر مرة وَضَع فيها عائلته على متن طائرة إلى شيكاغو، في يوم الشُكر. كانت تلك أول وآخر رحلة لغايدج في طائرةٍ.

بدت إيليه شاردة الذهن وغريبة الأطوار قليلاً. فقد نظرَ إليها لويس عدة مرات ذلك الصباح ورأى تعبير تخمين غريب على وجهها.

عقدة المؤامرة تعمل ساعات إضافية، أيها الفتى، أخبَر نفسه.

لم تقل شيئاً عندما قيل لها إنهما ذاهبتان إلى شيكاغو، هي وماما أولاً، ربما للصيف كله، وأكملت تناول فطورها (رقائق ذرة بالكاكاو) ببساطة. بعد الفطور، صعدت إلى الطابق العلوي بصمت وارتدت الفستان والحذاء اللذين كانت رايتشل قد جهّزتهما لها. أحضَرت صورتها تجرّ غايدج على المزلجة إلى المطار معها، وجلَست بهدوء على أحد المقاعد البلاستيكية في الردهة السفلية بينما وَقَف لويس في صف التذاكر، وأعلنَ مكبِّر الصوت معلومات الرحلات القادمة والمغادِرة.

ظَهَر السيد والسيدة غولدمان قبل أربعين دقيقة من موعد الرحلة. كان إروين غولدمان أنيقاً (وعلى ما يبدو بلا عرق) في معطف كشمير طويل رغم درجة الحرارة الثلاثينية؛ وذهب إلى مكتب أڤيس ليسجِّل سيارته بينما جلَست دوري غولدمان مع رايتشل وإيليه.

انضم لويس وإروين غولدمان إلى الآخرين في الوقت نفسه. كان لويس خائفاً قليلاً أنه قد تتكرَّر مسرحية *إبني إبني* القصيرة، لكنه نجا

منها. فقد اكتفى غولدمان بمصافحة ضعيفة وترحيب خافت. النظرة السريعة والمُحرَجة التي ألقاها على صِهره أكَّدت اليقين الذي استيقظ به لويس هذا الصباح: لا شك أن الرجل كان ثملاً.

صعدوا إلى الطابق العلوي على السُلَّم الكهربائي وجلسوا في استراحة الصعود إلى الطائرة، دون أن يتكلّموا كثيراً. راحت دوري غولدمان تتصفَّح بعصبية نسختها من رواية إيريكا جونغ لكنها لم تقرأها. بقيت تلقي نظرة سريعة، بعصبية قليلاً، على الصورة التي كانت إيليه تحملها.

سأل لويس إبنته إن أرادت السير معه إلى المكتبة واختيار شيء لتقرأه على الطائرة.

كانت إيليه تنظر إليه بتلك الطريقة التخمينيّة مرة أخرى. لم يرق ذلك للويس. فقد وتَّرته.

"هل ستُحسِنين التصرّف مع جَدّتك وجَدّك؟"، سألها حين ابتعدا.

"نعم"، قالت. "بابا، هل سيقبض عليَّ ضابط المتغيِّبين؟ آندي باسيوكا يقول إن هناك ضابطاً يقبض على المتغيِّبين عن المدرسة".

"لا تقلقي بشأن ضابط المتغيِّبين"، قال. "سأهتم بأمر المدرسة، ويمكنك البدء مرة أخرى في الخريف دون أي مشكلة".

"آمل أن أكون بخير في الخريف"، قالت إيليه. "لم أكن في صف مدرسي من قبل أبداً. فقط روضة الأطفال. لا أعرف ماذا يفعل الأولاد في الصفوف المدرسية. واجبات مدرسية، على الأرجح".

"ستكونين بخير".

"بابا، هل لا تزال غاضباً من جَدّي؟".

فغَر فمه. "لماذا تظنين أنني كنتُ... أنني لم أحبّ جَدّك يا إيليه؟".

هزَّت كتفيها كما لو أن الموضوع لا يهمّها أبداً. "عندما تتكلَّم عنه، تبدو غاضباً دائماً".

"لا تقولي هذا يا إيليه".

"آسفة".

رمقته بتلك النظرة المستبصِرة الغريبة ثم استدارت لتنظر إلى رفوف كتب الأولاد - ميرسر مير، موريس سنداك، ريتشارد سكاري، بياتريكس پوتر، وذلك المؤلف الاحتياطي القديم المشهور دكتور سُوس. *كيف يكتشفون هذه الأمور؟ أم يعرفونها فحسب؟ كم تعرف إيليه؟ وما تأثير ذلك عليها؟ إيليه، ماذا يوجد خلف هذا الوجه الصغير الشاحب؟ غاضباً منه - يا إلهي!*

"هل يمكنني الحصول على هذه يا بابا؟". كانت تحمل كتاباً للدكتور سُوس وكتاباً لم يره لويس منذ طفولته - *قصة سامبو الأسود الصغير* وكيف قبضت النمور على ملابسه ذات يوم.

يا للهول، اعتقَدتُ أنهم منعوا نشر هذا الكتاب، فكَّر لويس في سرّه مرتبكاً.

"نعم"، قال، ووَقَفا في صف قصير عند صندوق الدفع. "جَدّك وأنا نروق لبعضنا"، قال وتذكَّر قصة أمه مرة أخرى عن كيف أنه عندما تريد المرأة طفلاً حقاً، فهي "تعثر على" واحدٍ. تذكَّر وعوده الحمقاء لنفسه بأنه لن يكذب على أولاده أبداً. وشَعَر أنه تحوَّل إلى كذّاب واعد في الأيام القليلة الماضية، لكنه لن يدع نفسه يفكِّر بهذه المسألة الآن.

"آه"، قالت وصمتَت.

أربكه الصمت. ليكسره قال، "إذاً هل تعتقدين أنك ستمضين وقتاً ممتعاً في شيكاغو؟".

"لا".

"لا؟ لما لا؟".

نظرت إليه تلك النظرة المستبصِرة. "أنا خائفة".

وَضَع يده على رأسها. "خائفة؟ مما يا حبيبتي؟ لستِ خائفة من الطائرة، أليس كذلك؟".

"لا"، قالت. "لا أعرف مما أنا خائفة. بابا، حلَمتُ أننا في جنازة غايدج ورجل الجنازة فتح تابوته وكان فارغاً. ثم حلَمتُ أنني في المنزل ونظَرتُ إلى مَهد غايدج وكان فارغاً أيضاً. لكن كان هناك تراب فيه".

لعازر عاد إلى الحياة.

ثم لأول مرة منذ أشهر تذكَّر الحلم الذي حلمه بعد موت باسكاو - الحلم، ثم الاستيقاظ ليجد قدمَيه قذرتين وأسفل السرير مليء بإبر الصنوبر والقذارة.

تحرَّكت الشعرات عند قفا عنقه.

"مجرد أحلام"، قال لإيليه، وبدا صوته، لأذنيه على الأقل، عادياً تماماً. "ستزول".

"أتمنى لو كنتَ مسافراً معنا"، قالت، "أو أننا باقيتان هنا. هل يمكننا البقاء يا بابا؟ رجاءً؟ لا أريد الذهاب إلى منزل جَدّتي وجَدّي... أريد فقط العودة إلى المدرسة. موافق؟".

"لبعض الوقت فقط يا إيليه"، قال. "عليَّ أن..."، بلَع جملته، "...أفعل بضعة أمور هنا، ثم أكون معكما. يمكننا أن نقرِّر ماذا نفعل بعد ذلك".

توقَّع جدالاً، وربما حتى نوبة غضب نموذجية من إيليه. ربما كان ليرحِّب بها حتى؛ مقدارها معروف، على عكس تلك النظرة. لكن كان

هناك فقط ذلك الصمت الشاحب المُقلِق الذي بدا عميقاً جداً. كان يمكنه أن يسألها أكثر، لكنه وجد أنه لم يجرؤ؛ فقد أخبَرته مسبقاً أكثر مما أراد أن يسمع على الأرجح.

بعد أن عاد وإيليه إلى استراحة الصعود إلى الطائرة بقليل، نُودِيَ على الرحلة. أُخرجَت قسائم الصعود إلى الطائرة، ووقف أربعتهم في الطابور. عانَق لويس زوجته وقبَّلها بقوة. تشبَّثت به للحظة ثم تركته يذهب لكي يتمكن من حمل إيليه وتقبيل خدها.

حدَّقت فيه إيليه بوقار بعينَي عرّافة. "شفتاك باردتان جداً"، قالت. "لماذا يا بابا؟".

"لا أعرف"، قال، بارتباك أكثر من أي وقت مضى. أنزلها. "أحسني التصرّف يا قُرّة عيني".

"لا أريد أن أذهب"، قالت مرة أخرى، لكن بصوت منخفض لكي يسمعها لويس لوحده في ضجيج الركاب الصاعدين إلى الطائرة. "لا أريد أن تذهب ماما أيضاً".

"إيليه، هيا"، قال لويس. "ستكونين بخير".

"سأكون بخير"، قالت، "لكن ماذا عنك؟ ماذا عنك يا بابا؟".

بدأ الطابور يتحرَّك الآن. كان الأشخاص يسيرون على الجسر المتنقّل إلى الطائرة 727. شدَّت رايتشل يد إيليه وقاوَمت للحظة، مؤخِّرةً الطابور، ومركِّزةً عينيها على أبيها، ووجَد لويس نفسه يتذكَّر نفاد صبرها في المرة السابقة، وصرخاتها هيا بنا – هيا بنا – هيا بنا.

"بابا؟".

"اذهبي الآن يا إيليه. رجاءً".

نظَرت رايتشل إلى إيليه ورأت تلك النظرة الداكنة الحالِمة للمرة

الأولى. "إيليه؟"، قالت جافلةً، وشَعَر لويس أنها خائفة قليلاً. "أنتِ تؤخّرين الطابور يا عزيزتي".

ارتعَشت شفتا إيليه وابيضَّتا. ثم تركت نفسها تُقاد عبر الجسر المتنقّل. اِلتفَتت إلى الوراء صوبه، ورأى رعباً صافياً على وجهها. رفع لها يده في ابتهاج كاذب.

لم تلوِّح له إيليه بيدها.

الفصل 44

أثناء مغادرة لويس المطار، شَعَر وكأن عباءة باردة سقطت فوق ذهنه. أصبح يُدرك أنه كان ينوي تنفيذ ذلك. ذهنه، الذي كان حادّاً كفاية لكي يُنجحه في كلية الطب بفضل منحة تعليمية في الأغلب وبفضل ما كانت زوجته تجنيه من بيع القهوة والفطائر في نوبة عملها من الساعة 5 إلى 11 صباحاً ستة أيام في الأسبوع، أخذ المشكلة وقسّمها إلى مكوّناتٍ، كما لو أنها مجرد امتحان تمهيدي آخر - أكبر امتحان خضع له في حياته. وكان ينوي النجاح فيه بأعلى علامة، مئة بالمئة.

قاد من بانغور إلى برُوْور، المدينة الصغيرة على نهر بينوبسكوت. وجَد مكاناً لركن السيارة في الجانب المقابل للشارع من متجر واطسون للأجهزة.

"هل يمكنني مساعدتك؟"، سأله البائع.

"نعم"، قال لويس. "أريد مشعلاً كهربائياً ثقيلاً - من الصنف المربع - وشيء يمكنني تغطيته به".

كان البائع رجلاً نحيلاً صغيراً ذا جبهة عالية وعينين حادّتين. ابتسم الآن، لكن ابتسامته لم تكن جذابة كثيراً. "تنوي الصيد بطريقة غير قانونية يا صديقي؟".

"عفواً؟".

"تريد صيد بضعة غزلان هذه الليلة؟".

"أبداً"، قال لويس دون أن يبتسم. "ليست لديَّ رخصة للصيد".

طرفت عينا البائع ثم قرَّر أن يضحك. "بمعنى آخر، لا أتدَّخل بما لا يعنيني، أليس كذلك؟ حسناً، اسمع - لا يمكنك تغطية أحد تلك الأضواء الكبيرة، لكن يمكنك أخذ قطعة لبّاد وثَقب فجوة في وسطها.

وهكذا ينحصر الشعاع ليبدو مثل مصباح يدوي".

"يبدو هذا جيداً"، قال لويس. "شكراً".

"بالتأكيد. أي شيء آخر لك اليوم؟".

"نعم"، قال لويس. "أحتاج إلى مِعول ومجرفة ومسحاة. مجرفة ذات مقبض قصير ومسحاة ذات مقبض طويل. حبل سميك بطول ثلاثة أمتار. قفاز للعمل. قطعة قماش مشمَّع مساحتها حوالي ثمانية بثمانية".

"يمكنني فعل كل ذلك"، قال البائع.

"لديَّ خزّان صرف صحي أريد أن حَفر حفرة له"، قال لويس. "يبدو أنني أخالف قانون تقسيم المناطق، ولديَّ جيران فضوليون جداً. لا أعرف إن كانت تغطية ضوئي ستفيدني أم لا، لكن لا ضرر من المحاولة. قد أحصل على غرامة كبيرة جداً".

"آه"، قال البائع، "من الأفضل أن تأخذ ملقط غسيل لأنفك".

ضحِك لويس بدافع الواجب. دفَع ثمن مشترياته 58.60$ نقداً.

كانت السيفيك من النوع هاتشباك، وتوتَّر لويس بشأن العودة إلى لادلو واضعاً المِعول والمجرفة والمسحاة هناك. فعينَي جاد كراندال حادّتين، ولا خلل في دماغه أيضاً. سيعرف ماذا ينوي أن يفعل.

ثم خطَر بباله أنه لا يوجد أي سبب حقيقي للعودة إلى لادلو على أي حال. أعاد لويس اجتياز جسر تشامبرلاين إلى بانغور ونزلَ في كوخ سيارات هاورد جونسون على طريق أودلِن - مرة أخرى بالقرب من المطار، ومرة أخرى بالقرب من مقبرة پليزنتفيو حيث دُفن إبنه. نزلَ فيه تحت إسم دي دي رامون ودفعَ نقداً لغرفته.

حاوَل أن يأخذ قيلولة، من منطلق أنه سيكون مسروراً من الراحة

قبل صباح الغد. في كلمات بعض الروايات الفيكتورية أو غيرها من الروايات، كان عملٌ شرسٌ بانتظاره هذه الليلة - عملٌ شرسٌ كافٍ ليدوم عمراً بأكمله.

لكن دماغه رفض التوقف عن العمل بكل بساطة.

بقي ممدَّداً على سرير الفندق الصغير المجهول تحت صورة رخيصة رتيبة لزوارق خلاّبة راسية في مرسى بجانب رصيف قديم خلاّب في ميناء نيو إنغلاند خلاّب، مرتدياً كامل ملابسه ما عدا حذاءه، واضعاً محفظته وعملاته المعدنية ومفاتيحه على منضدة السرير بجانبه، ويديه خلف رأسه. لازمه ذلك الشعور بالبرودة؛ وشَعَر بعزلة تامة عن ناسه، وعن الأماكن التي أصبحت مألوفة جداً له، وحتى عن عمله. هذا يمكن أن يكون أي فندق في العالم - في سان دييغو أو دولوث أو بانكوك أو شارلوت أمالي. لم يكن في أي مكان، وأصابته بين الحين والآخر فكرة غريبة لا مثيل لها: قبل أن يرى أحد تلك الأماكن والوجوه المألوفة مرة أخرى، سيرى إبنه.

بقيت خطته تدور في ذهنه. نظَرَ إليها من كل الزوايا، نكزها، حَثَّها، بحث عن ثغرات أو أماكن ناعمة فيها. وشَعَر أنه يسير في الواقع على عارضة ضيقة فوق خليجٍ من الجنون. كان الجنون يحيط به من كل حدب وصوب، يرفرف بلطف كأن له جناحَي بوم ليلي ذي عينين ذهبيتين كبيرتين: كان يتوجَّه نحو الجنون.

تردَّد صدى صوت توم راش بأسلوب حالم في رأسه: *أيها الموت يداك دَبِقتان... أشعر بهما على رُكبتَي... أتيتَ وأخذتَ أمي... هلاّ عدتَ من أجلي؟*

جنون. جنون في كل حدب وصوب، قريب منه، يتصيَّده.

سار على عارضة التوازن الخاصة بالعقلانية؛ درَس خطته.

هذه الليلة، حوالي الساعة الحادية عشرة، سينبش قبر إبنه، ويُخرج الجثة من التابوت، ويلفّ غايدج بقطعة من القماش المشمَّع، ويضعها في صندوق السيفيك. سيعيد التابوت إلى مكانه ويعيد ملء القبر. سيقود إلى لادلو، ويُخرِج جثة غايدج من صندوق السيارة... ويتمشّى. نعم، سيتمشّى.

إذا عاد غايدج، سيكون هناك احتمالان. في الاحتمال الأول، رأى غايدج يعود كغايدج، ربما مذهولاً أو بطيئاً أو حتى متخلِّفاً (فقط في أعمق خبايا ذهنه سمحَ لويس لنفسه أن يأمل بأن يعود غايدج سليماً، ومثلما كان بالضبط - لكن بالتأكيد حتى ذلك ممكنٌ، أليس كذلك؟)، لكنه لا يزال إبنه، إبن رايتشل، أخ إيليه.

وفي الاحتمال الثاني، رأى وحشاً يخرج من الغابة التي خلف المنزل. لقد قَبِل هذا المقدار لدرجة أنه لم يتوقف عند فكرة الوحوش، أو حتى العفاريت، كائنات شريرة غير مادية من العالم الخارجي قد تتحكَّم بجسم أُعيد إحياؤه بعد أن فرّت الروح الأصلية منه.

في كلا الحالتين، سيكون وإبنه لوحدهما. وسوف...

سأُجري تشخيصاً.

نعم. هذا ما سيفعله.

سأُجري تشخيصاً، ليس لجسمه فقط بل لروحه. سآخذ بالاعتبار صدمة الحادث نفسه، والذي قد يتذكَّره أو لا يتذكَّره. ومع إبقاء مثال تشرش أمامي، سأتوقع تخلّفاً، ربما طفيفاً، ربما عميقاً. سأحكم على قدرتنا على إعادة دمج غايدج في عائلتنا على أساس ما أراه خلال فترة أربع وعشرين إلى اثنتين وسبعين ساعة. إذا كانت الخسارة كبيرة جداً - أو إذا عاد مثلما يبدو أن تيمي باترمان عاد، كشيء شرير - سأقتله.

اكتشف أنه تقدَّمَ حتى أكثر في هذين الاحتمالين.

بصفته طبيباً، شَعَر أنه يمكنه قتل غايدج بسهولة كبيرة إذا كان غايدج مجرد وعاء يحتوي على كائن آخر. لن يسمح لنفسه بأن يتأثر بتضرُّعاته أو حيله. سيقتله مثلما يقتل جرذاً يحمل الطاعون الدَبليّ. لن تشهد العملية أي ميلودراما. حبّة في محلول، وربما حبّتين أو ثلاث. وإذا لزم الأمر، طلقة. كان هناك مورفين في حقيبته. وفي الليلة التالية، سيعيد كتلة الطين الخالية من الحياة إلى پليزنتفيو ويعيد دفنها، متّكلاً على أن حظه سيُسعفه للمرة الثانية (*أنت لا تعرف حتى إن كان سُيسعفك للمرة الأولى*، ذكَّر نفسه). لقد فكَّر بالبديل الأسهل والأأمن وهو دفن غايدج في المرة الثانية في مقبرة الحيوانات، لكنه لن يقبل أن يُوضع إبنه هناك. لأسباب كثيرة. أي ولد يدفن حيوانه الأليف بعد خمس سنوات أو عشر سنوات أو حتى عشرين سنة قد يتعثَّر بالبقايا – هذا سببٌ واحدٌ. لكن أقوى سبب كان أبسط من ذلك بكثير. مقبرة الحيوانات قد تكون... قريبة جداً.

بعد انتهائه من إعادة الدفن، سيسافر إلى شيكاغو وينضم إلى عائلته. ولن تحتاج رايتشل أو إيليه إلى أن تعرف أي شيء عن اختباره الفاشل.

ثم، بتأمله أكثر بالاحتمال الأول – الاحتمال الذي أمَل من كل قلبه أن يتحقّق بكل حبّه لإبنه: سيغادر المنزل مع غايدج عندما تنتهي فترة الاختبار، سيغادران ليلاً. سيأخذ بعض الأوراق المحدَّدة معه ويقرِّر عدم العودة إلى لادلو مرة أخرى أبداً. سينزل وغايدج في فندق صغير – ربما هذا الفندق بالذات الذي ينزل فيه الآن.

وفي الصباح التالي سيفرِّغ كل حساباتهما، ويحوِّل كل الرصيد إلى شيكات سياحية من أميركان اكسبرس (*لا تغادر المنزل مع إبنك المُحيا*

من دونها، فكّر في سرّه وفرّت ضحكة خفيفة من شفتيه) وبعض النقود. سيسافر إلى مكان ما مع غايدج - فلوريدا، على الأرجح. وسيتّصل برايتشل من هناك، ويُخبِرها عن مكانه، ويطلب منها أن تأخذ إيليه وتستقلّ طائرة دون إخبار أمها وأبيها إلى أين تذهب. كان لويس واثقاً أنه يمكنه إقناعها بفعل ذلك. *لا تطرحي أي أسئلة يا رايتشل. فقط تعالي. تعالي الآن. في هذه اللحظة.*

سيُخبِرها عن مكانه (مكانهما). فندق صغير ما. ستصل مع إيليه في سيارة مستأجرة. ثم يُحضِر غايدج إلى الباب عندما تقرعانه. وربما سيكون غايدج مرتدياً ثوب سباحة.

ثم -

آه، لكنه لم يتجرّأ أن يذهب أبعد من ذلك؛ بل عاد إلى بداية الخطة وبدأ يستعرضها من جديد. افترَض أنه إذا سارت الأمور على ما يرام، فإن ذلك يعني تكديس التفاصيل الدقيقة للهوية في الحياة الجديدة كلها لكي لا يستطيع إروين غولدمان استخدام دفتر شيكاته الفائض ليتعقّبهم. هكذا أشياء يمكن القيام بها.

بالكاد تذكّر وصوله إلى منزل لادلو، متوتّراً، مُتعَباً، وخائفاً كثيراً، وتخيُّله مواصلة القيادة إلى أورلاندو وعمله كمُسعِفٍ في عالم ديزني. ربما لم يكن ذلك الحلم بعيد المنال في النهاية.

رأى نفسه، مرتدياً الأبيض، يُنعش امرأةً حاملاً ركبت بحماقة نزهة الجبل العجيب وأُغمي عليها. *ارجعوا إلى الخلف، ارجعوا إلى الخلف، أعطوها بعض الهواء*، سمِع نفسه يقول، وفتحت المرأة عينيها وابتسمت له بامتنان.

بينما كان ذهنه يتأمل هذا الخيال المخيف، غفا لويس. نام بينما

استيقظت إبنته في طائرةٍ في مكان ما فوق شلالات نياغارا، وهي تصرخ من كابوس يدَين تقبضان عليها وعينَين غبيتَين لكن عديمَتَي الرحمة؛ نام بينما أسرعت المضيفة في الرِواق لترى ما الخطب؛ نام بينما حاوَلت رايتشل، المتوتّرة كلياً، تهدئة أعصابها؛ نام بينما راحت إيليه تصرخ وتصرخ: *إنه غايدج! ماما! إنه غايدج! إنه غايدج! غايدج حيّ! غايدج أخذ السكين من حقيبة بابا! لا تدعيه ينال مني! لا تدعيه ينال من بابا!*

نام بينما هدأت إيليه أخيراً، واحتمت بصدر أمها وهي ترتجف، وعيناها متّسعتان وخاليتان من الدموع، وبينما فكَّر دوري غولدمان في سرّه أن كل ذلك كان مريعاً على إيليه، وكم ذكَّرت دوري برايتشل بعد وفاة زيلدا.

نام واستيقظ عند الخامسة والربع، وكان ضوء بعد الظهر قد بدأ يتلاشى إلى الليل القادم.

عملٌ شرسٌ، فكَّر بغباء ونهض.

الفصل 45

حين حطَّت رحلة يونايتد إيرلاينز 419 في مطار أوهير وأفرغت ركابها عند الثالثة وعشر دقائق، بالتوقيت القياسي المركزي، كانت إيليه كريد في حالة هستيريا خفيفة، ورايتشل خائفة جداً. لم تتمنَّ مرة أخرى لو كان لويس معها منذ أن أخذت الولدين إلى ماكدونالدز بمفردها وبدأ غايدج يختنق بقِطع البطاطا المقلية التي ملأ فمه بها.

إذا لمَست إيليه بلطف على كتفها، لجفلت وحدَّقت فيك بعينين جاحظتين، وارتجَف جسمها كله بثبات ودون انقطاع. كان كما لو أنها مشحونة بالكهرباء. فقد كان الكابوس على الطائرة سيئاً كفاية، لكن هذا... لم تعرف رايتشل ببساطة كيفية التعامل معه.

أثناء دخول محطة المطار، تعثَّرت إيليه بقدمَيها وسقَطت. لم تنهض بل بقيت ممدَّدة هناك على السجادة والأشخاص يمرّون حولها (أو ينظرون إليها بذلك الودّ الخفيف لكن الخالي من الاكتراث لأشخاصٍ يعبرون المطار ولا يستطيعون ترك شيء يزعجهم) إلى أن رَفَعتها رايتشل على ذراعيها.

"إيليه، ما خطبك؟"، سألت رايتشل.

لكن إيليه لم تردّ. سارتا في الردهة نحو دوَّامات الأمتعة، ورأت رايتشل أمها وأباها ينتظرانهما هناك. لوَّحت لهما بيدها الحرة، فاقتربا منهما.

"لقد أخبَرونا ألا نذهب إلى البوابة وننتظركما هناك"، قالت دوري، "لذا اعتقَدنا... رايتشل؟ كيف حال إيليه؟".

"ليست جيدة".

"هل هناك حمّام للسيدات يا ماما؟ أشعر أنني سأتقيأ".

"يا للهول"، قالت رايتشل بيأس وأخذتها بيدها. كان هناك حمّام للسيدات في الجهة الأخرى للردهة، وقادت إيليه نحوه بسرعة.

"رايتشل، هل آتي معكما؟"، نادت دوري.

"لا، أحضِرا الحقائب، تعرفان شكلها. نحن بخير".

لحسن حظهما أن حمّام السيدات كان فارغاً. قادت رايتشل إيليه إلى إحدى الحُجيرات، وبحثت بارتباك في جزدانها عن عشر سنتات، ثم رأت - لحسن الحظ - أن الأقفال على ثلاث منها مكسورة. وفوق قفلٍ مكسورٍ، كتبت إحداهن بقلم شمع: مرحاض لعين!

فتحت رايتشل الباب بسرعة؛ كانت إيليه تئنّ الآن وتُمسك معدتها. تقيأت مرتين، لكن لم يخرج أي قيء؛ كانت تتقيأ بشكل جاف بسبب استنزاف عصبي تام.

عندما أخبرَتها إيليه أنها تشعر بتحسّن قليلاً، أخذتها رايتشل إلى الأحواض وغسلت لها وجهها. كانت إيليه بيضاء بشكل بائس، وهناك دوائر تحت عينيها.

"ما *الخطب* يا إيليه؟ ألا يمكنك إخباري؟".

"لا أعرف ما الخطب"، قالت. "لكنني عرَفتُ أن هناك خطباً *ما* منذ أن أخبرَني بابا عن الرحلة. لأنه كان هناك خطب فيه".

ماذا تُخفي يا لويس؟ كنت تُخفي شيئاً. أستطيع رؤيته؛ حتى إيليه تستطيع رؤيته.

خطَر ببالها أنها كانت متوتّرة طوال اليوم أيضاً، كما لو أنها تنتظر ضربةً لتقع. شَعَرت مثلما تشعر قبل يومين أو ثلاثة أيام من دورتها الشهرية، متوتّرة وعصبية، جاهزة لتضحك أو تبكي أو تُصاب بصُداع سيخترقها مثل قطار سريع، ثم يزول بعد ثلاث ساعات.

"*ماذا؟*"، قالت الآن لانعكاس إيليه في المرآة. "حبيبتي، أي

خطب يمكن أن يكون قد أصاب بابا؟".

"لا أعرف"، قالت إيليه. "كان الحلم. شيءٌ عن غايدج. أو ربما كان تشرش. لا أتذكَّر. *لا أعرف*".

"إيليه، ما كان حلمك؟".

"حلَمتُ أنني في مقبرة الحيوانات"، قالت إيليه. "أخذني باكسكاو إلى مقبرة الحيوانات وكان بابا سيذهب إلى هناك وشيء فظيع سيحصل".

"باكسكاو؟". أصابها رعبٌ حادٌّ لكن غير محدَّد. ما هذا الإسم، ولماذا بدا مألوفاً؟ بدا لها أنها سمِعته – أو إسماً مشابهاً له – لكنها لا تستطيع أن تتذكَّر أين. "حلَمتِ شخصاً يدعى باكسكاو أخذك إلى مقبرة الحيوانات؟".

"نعم، هذا ما قال إنه يدعى. و–"، اتّسعت عيناها فجأة.

"هل تتذكَّرين شيئاً آخر؟".

"قال إنه أُرسِل *للتحذير* لكن لا يمكنه أن *يتدخّل*. قال إنه... لا أعرف... إنه كان قريباً من بابا لأنهما كانا معاً عندما كانت روحه تفا– تفا– *لا أستطيع أن أتذكَّر!*"، قالت نائحةً.

"حبيبتي"، قالت رايتشل، "أعتقد أنك حلَمتِ بمقبرة الحيوانات لأنك لا تزالين تفكِّرين بغايدج. وأنا أكيدة أن بابا بخير. هل تشعرين بأي تحسُّن الآن؟".

"لا"، همَست إيليه. "ماما، أنا خائفة. ألستِ خائفةً؟".

"لا، لا"، قالت رايتشل وهي تهزّ رأسها قليلاً وتبتسم – لكنها كانت خائفة؛ وذلك الإسم، باكسكاو، بقي يُقلِقها بألفته. شَعَرت أنها سمِعته في سياقٍ مُرعِبٍ منذ بضعة أشهر أو حتى سنوات، ولن يغادرها ذلك الشعور العصبي.

شَعَرت بشيء – شيء *حامل*، متورّم، ينتظر أن ينفجر. شيء فظيع يجب تفاديه. لكن ماذا؟ *ماذا؟*

"أنا أكيدة أن كل شيء بخير"، أخبَرت إيليه. "هل تريدين العودة إلى جَدّتك وجَدّك؟".

"أظن ذلك"، قالت إيليه بسأم.

مرَّت امرأة بورتوريكية تقود إبنها اليافع جداً إلى حمّام السيدات وهي توبِّخه. فقد انتشرت بقعة رطبة كبيرة على سرواله عند منفرج الساقَين، ووجَدت رايتشل نفسها تتذكَّر غايدج بنوعٍ من إثارة المشاعر المُشِلّة. كان هذا الحزن الحديث مثل النوفوكاين، يُخمِد نرفزتها.

"هيا بنا"، قالت. "سنتصل بأبيك من منزل جَدّك".

"كان يرتدي شورتاً"، قالت إيليه فجأة.

"مَن يا حبيبتي؟".

"باكسكاو"، قالت إيليه. "كان يرتدي شورتاً أحمر في حلمي".

هذا أعاد تسليط الضوء على الإسم للحظة، وشَعَرت رايتشل بذلك الخوف الموهن للرُكبتين مرة أخرى... ثم تلاشى.

لم تستطيعا الاقتراب من دوَّامة الأمتعة؛ فبالكاد استطاعت رايتشل رؤية أعلى قبعة أبيها، القبعة ذات الريشة. وكانت دوري غولدمان تحجز مقعدَين لهما عند الجدار وتلوِّح. ذهبت رايتشل وإيليه إليها.

"هل تشعرين بأي تحسُّن يا عزيزتي؟"، سألت دوري.

"قليلاً"، قالت إيليه. "ماما –"

استدارت إلى رايتشل وسكتت. كانت رايتشل تجلس منتصبةً، وقد أطبقَت يدها على فمها، ووجهها أبيض. لقد أصابها فجأة وبقوة فظيعة. بالطبع كان عليها أن تعرف حالاً، لكنها حاوَلت إبعاده عن

ذهنها. بالطبع.

"*ماما؟*".

استدارت رايتشل ببطء إلى إبنتها، واستطاعت إيليه سماع الأوتار في عنقها تُحدِث صريراً. أبعدت يدها عن فمها.

"هل أخبرك الرجل في حلمك عن إسمه الأول يا إيليه؟".

"ماما، هل أنت –"

"*هل أخبرك الرجل في حلمك عن إسمه الأول؟*".

كانت دوري تنظر إلى إبنتها وحفيدتها كما لو أنهما فقدتا صوابهما.

"نعم، لكن لا يمكنني أن أتذكَّر... ماما، أنت *تؤلمينني* –"

أخفَضت رايتشل نظرها ورأت أن يدها الحرة كانت تقبض على معصم إيليه مثل أصفادٍ.

"هل كان فيكتور؟".

أخذت إيليه نَفَساً حادّاً. "نعم، فيكتور! قال إن إسمه فيكتور! ماما، هل حلَمتِ به أنتِ أيضاً؟".

"ليس باكسكاو"، قالت رايتشل. "*باسكاو*".

"هذا ما *قلته*. باكسكاو".

"ما الخطب يا رايتشل؟"، قالت دوري. أمسكت يد رايتشل الحرة وجفَلت من برودتها. "وما خطب إيليه؟".

"ليس خطب إيليه"، قالت رايتشل. "إنه خطب لويس، أعتقد. خطبٌ ما حدث مع لويس. أو خطبٌ سيحدث. اجلسي مع إيليه يا ماما. أريد أن أتصل بالمنزل".

نهضت ومشت إلى الهواتف، وهي تنقِّب في جزدانها بحثاً عن قطعة رُبع دولار. أجرت مكالمةً على حساب المتصَل به، لكن لم يكن

هناك أحدٌ لقبول الكلفة. بقي الهاتف يرنّ فقط.

"هلاّ حاولتِ اتصالك لاحقاً؟"، سألها العامل.

"نعم"، قالت رايتشل وأغلقت الخط.

وَقَفت هناك، تحدِّق في الهاتف.

قال إنه أُرسِل للتحذير لكن لا يمكنه أن يتدخّل. قال إنه... إنه كان قريباً من بابا لأنهما كانا معاً عندما كانت روحه تفا- تفا- لا أستطيع أن أتذكّر!

"تفارقه"، همَست رايتشل. قبضت أصابعها على حقيبة يدها. "يا إلهي، هل هذه كانت الكلمة؟".

حاوَلت أن تستجمع أفكارها، أن ترتِّبها. هل يجري شيء هنا، شيء أبعد من انزعاجهم الطبيعي من موت غايدج وهذه الرحلة الغريبة التي كانت أشبه بفرارٍ؟ كم كانت إيليه تعرف عن الشاب الذي تُوفِّيَ في اليوم الأول للويس في الوظيفة؟

لا شيء، أجابها ذهنها بشكل لا يرحم. *لقد أخفيتِ الخبر عنها، مثلما حاولتِ إبقاء أي شيء يتعلق بالموت بعيداً عنها - حتى الموت المحتمل لقطّها، هل تتذكّرين ذلك الجدال المغفَّل الغبي الذي خضناه في المطبخ ذلك اليوم؟ لقد أخفيتِ الخبر عنها. لأنك كنتِ خائفةً وقتها وأنتِ خائفة الآن. كان إسمه باسكاو، فيكتور باسكاو، وكم هي الحالة يائسة الآن يا رايتشل؟ كم هي سيئة؟ ماذا يجري بالله عليكِ؟*

كانت يداها ترتعشان بقوة لدرجة أنها احتاجت إلى محاولتين لكي تعيد إدخال قطعة الربع دولار. اتصلت هذه المرة بمشفى الجامعة وتكلَّمت مع شارلتون، التي قبلت المكالمة، مُحتارةً قليلاً. لا، لم تر لويس وكانت لتتفاجأ إن أتى إلى عمله اليوم. بعد قولها ذلك، أبدَت تعاطفها مع رايتشل مرة أخرى. قَبِلتها رايتشل ثم طلب من شارلتون أن تجعل

لويس يتصل بها في منزل والدَيها إذا أتى إلى عمله فعلاً. نعم، معه الرقم، أجابت على سؤال شارلتون، لأنها لم ترغب أن تُخبر الممرضة (التي ربما تعرف على أي حال؛ كان لديها شعور بأن لا شيء يفوت شارلتون) أن منزل والدَيها يقع في النصف الآخر من القارة.

أغلقت الخط، وهي تشعر بالحرّ والرجفان.

لقد سمِعت إسم باسكاو في مكان ما، هذا كل ما في الأمر. يا إلهي، المرء لا يربّي ولداً في صندوق زجاج مثل... مثل فأر همستر أو شيء مماثل. لقد سمِعت خبراً عنه على الراديو. أو ذكره أمامها ولدٌ ما في مدرستها، وخزَّنه ذهنها. حتى الكلمة التي لم تتمكن من قولها – لنفترض أنها غير مفهومة مثل "تفارقه"، وإن يكن؟ هذا لا يبرهن شيئاً ما عدا أن العقل الباطني يشبه حقاً الورق المصمَّغ صائد الذباب حسبما يقولون.

تذكَّرت مدرِّس مادة علم النفس في الكلّية الذي جزم بأن ذاكرتك في الظروف الصحيحة تستطيع أن تتذكَّر أسماء كل شخص تعرَّفت عليه في حياتك، وكل وجبة طعام تناولتها في حياتك، والأحوال الجوية في كل يوم من أيام حياتك. وقد قدَّم لهم هذا الجزم غير المعقول بشكل مُقنِع، قائلاً إن الذهن البشري يشبه كمبيوتراً يحتوي على كمية مذهِلة من رقائق الذاكرة – ليس 16 كيلوبايت، أو 32 كيلوبايت، أو 64 كيلوبايت، بل ما يصل إلى *مليار كيلوبايت*: حرفياً، ألف مليون. وكم تستطيع كل واحدة من تلك "الرقائق" العضوية أن تخزِّن؟ لا أحد يعلم. لكنه قال إن عددها كبير لدرجة أنه لا داعي لجعل أي واحدة منها قابلة للمحو لكي يمكن إعادة استخدامها. في الواقع، لا يملك العقل الواعي ميزة إطفاء الأضواء على بعضها كحمايةٍ ضد الجنون المعلوماتي. "قد لا تكون قادراً على تذكّر أين تضع جواربك"، قال

مدرِّس مادة علم النفس، "إذا كان كامل محتوى الموسوعة البريطانية مخزَّناً في خلايا الذاكرة الاثنتين أو الثلاثة المجاورة".

دفعَ ذلك الطلاب إلى الضحك من باب المجاملة.

لكن هذه ليست حصة علم نفس تحت أضواء فلورية جيدة وكل ذلك الكلام المُبَهم المريح مكتوباً على السّبورة، وأستاذٌ مساعِدٌ متذاكٍ يمرِّر بابتهاجٍ خياليٍ آخر خمس عشرة دقيقة من حصته. هناك خطبٌ مُرعِب هنا وأنتِ تعرفين ذلك - تشعرين به. لا أعرف ما علاقة ذلك بباسكاو، أو غايدج، أو تشرش، لكن له علاقة بلويس. ماذا؟ إنه -

فجأة خطرت ببالها فكرةٌ باردةٌ مثل حفنة هلام. رَفَعت سمّاعة هاتفها مرة أخرى وراحت تتلمَّس فتحة القطع المعدنية المُرجَعة بحثاً عن عشر سنتاتها. هل كان لويس يفكِّر بالانتحار؟ ألهذا السبب تخلَّص منهما، إلى حدّ دفْعهما خارج الباب؟ هل تراءى لإيليه بطريقة أو بأخرى... آه... آه، تباً لعِلم النفس! هل تراءت لها ومضة نفسية من أحد الأصناف؟

أجرت المكالمة على حساب المتصَل به هذه المرة مع جاد كراندال. رنَّ الهاتف خمس... ست... سبع مرات. كانت على وشك أن تُغلق الخط عندما ردَّ صوته المنقطع الأنفاس. "ألو؟".

"جاد! جاد، أنا -"

"مهلاً لحظة يا سيدتي"، قال العامل. "هل تقبل مكالمةً على حسابك من السيدة لويس كريد؟".

"أيوه"، قال جاد.

"عفواً سيدي، هل هذه نعم أم لا؟".

"أظنني سآخذها"، قال جاد.

ساد صمت قصير مريب بينما ترجمَ العامل لكنة اليانكي إلى

الأميركية. ثم: "شكراً. تفضلي سيدتي".

"جاد، هل رأيت لويس اليوم؟".

"اليوم؟ لا يمكنني القول إنني رأيتُه يا رايتشل. لكنني كنتُ غائباً في برُوْور هذا الصباح، أُحضِر بقالتي. خرجتُ إلى الحديقة بعد ظهر اليوم، خلف المنزل. لماذا؟".

"آه، لا شيء على الأرجح، لكن إيليه حلَمت حلماً مزعجاً على الطائرة وقلتُ أن أريح لها بالها إن استطعتُ".

"الطائرة؟". بدا أن صوت جاد ازداد حدّة قليلاً. "أين أنتِ يا رايتشل؟".

"شيكاغو"، قالت. "عدتُ وإيليه لقضاء بعض الوقت مع والديّ".

"ولم يذهب لويس معكما؟".

"سينضم إلينا في نهاية الأسبوع"، قالت رايتشل، ووجدت صعوبة الآن في إبقاء صوتها هادئاً. كان هناك شيء لم يعجبها في صوت جاد.

"هل كانت فكرته أن عليكما الذهاب إلى هناك؟".

"حسناً... نعم. جاد، ما الخطب؟ هناك خطب ما، أليس كذلك؟ وأنتَ تعرف شيئاً عنه".

"ربما عليك إخباري حلم البنت"، قال جاد بعد صمت طويل. "أتمنى لو تخبرينني إياه".

الفصل 46

بعد انتهاء الكلام بينه وبين رايتشل، ارتدى جاد معطفه الخفيف - فقد بدا اليوم ملبَّداً بالغيوم وبدأت الرياح تهبّ - وتوجَّه إلى منزل لويس، متوقفاً عند جهته من الطريق لينتبه جيداً من الشاحنات قبل اجتيازه. فالشاحنات هي التي سبَّبت كل هذا. الشاحنات اللعينة.

ما عدا أنها لم تكن السبب.

يمكنه الشعور بمقبرة الحيوانات تشدّه - وشيء أبعد منها. بينما كان صوتها ذات يوم نوعاً من التهويدات المغرية، صوت راحةٍ ممكنةٍ ونوعاً حالِماً من الطاقة، كان الآن منخفضاً وأكثر من مُنذِرٍ بالسوء - كان مهدِّداً وضاراً. *لا تتدخَّل في هذا، أنت.*

لكنه يرفض ألا يتدخَّل. فمسؤوليته كبيرة جداً.

رأى أن سيارة لويس الهوندا سيفيك غير موجودة في المرأب. جرَّب الباب الخلفي للمنزل ووجده مفتوحاً.

"لويس؟"، نادى وهو يعلم أن لويس لن يجيبه، لكنه أراد أن يكسر الصمت الثقيل لهذا المنزل بطريقة أو بأخرى. آه، بدأ التقدُّم بالسنّ يصبح مزعجاً - شَعَر أن أطرافه ثقيله وخرقاء معظم الأوقات، وظهره معاناةٌ له بعد مجرد ساعتين في الحديقة، وشَعَر كما لو أن هناك مِثقَب براغي مزروعاً في وركه الأيسر.

بدأ يستعرض المنزل بطريقة منهجية، باحثاً عن العلامات التي عليه البحث عنها - *أكثر لص منازل مُسنّ في العالم*، فكَّر في سرّه دون أي ابتسامة وتابع بحثه. لم يجد أياً من الأشياء التي كانت لتزعجه كثيراً: صناديق ألعاب حُرم منها جيش الخلاص، ملابس فتى صغير وُضعَت جانباً خلف باب أو في خزانة أو تحت سريرٍ... ربما الأسوأ بين

كل ذلك هو إعادة فتح وتجهيز المَهد بعناية في غرفة غايدج. لم تكن هناك أيٌ من تلك العلامات على الإطلاق، لكن المنزل لا يزال يبعث في المرء شعور فراغ بغيضاً، كما لو أنه ينتظر أن يُملأ بـ ... شيء.

ربما يجب أن أقوم برحلة صغيرة إلى مقبرة پليزنتفيو. وأرى إن كان أي شيء يجري هناك. وقد اصطدم حتى بلويس كريد. يمكنني دعوته إلى العشاء، أو شيء من هذا القبيل.

لكن الخطر لم يكن في مقبرة پليزنتفيو في بانغور؛ كان الخطر هنا، في هذا المنزل، وما بعده.

غادر جاد مرة أخرى واجتاز الطريق إلى منزله. أخرَجَ حزمة شراب شعير سداسية العبوات من برّاد المطبخ وأخذها إلى غرفة الجلوس. جلَس أمام نافذة الخليج التي تطلّ على منزل عائلة كريد، وفتح عبوة شراب شعير، وأشعَل سيجارة. أمضى فترة بعد الظهر على هذا المنوال، مثلما فعلَ في أغلب هذه السنوات القليلة الماضية، ووجَد ذهنه يعود ويعود في دوّامة متّسعة، ولو علِم أفكار رايتشل كريد السابقة لكان استطاع أن يقول لها إن ما أخبرَها إياه أستاذ علم النفس كان الحقيقة على الأرجح، لكن عندما تكبُر في السنّ، تتراجع وظيفة الذاكرة شيئاً فشيئاً، على غرار تراجع كل شيء آخر في جسمك، وتجد نفسك تتذكّر أماكن ووجوهاً وأحداثاً بيقينٍ مُوحِشٍ. وتعود الذكريات البنّية الداكنة إلى السطوع من جديد، وتُشرق الألوان، وتفقد الأصوات ذلك الصدى الناشز مع الوقت وتعاود اكتساب رنينها الأصلي. لم يكن إنهياراً معلوماتياً أبداً، كان بإمكان جاد أن يُخبرها ذلك. الإسم الملائم للحالة هو الخَرَف.

في ذهنه، رأى جاد هانراتي ثور لسْتر مورغان مرة أخرى، وعينيه المحاطتين بالأحمر، وهجومه على كل شيء يقع نظره عليه، كل شيء

يتحرَّك. كان يهجم على الأشجار عندما تهزّ الرياح أوراقها. وقبل أن يستسلم لسْتر ويقرِّر وضع حدّ لهذه المسألة، كان هانراتي قد نطح كل شجرة في مَرجه المسوَّر بحنقه الغبي وأصبح قرناه مشظّيين ورأسه ينزف. عندما أردى لسْتر هانراتي، كان لسْتر قد سئم من الشعور بالرعب – مثلما يشعر جاد الآن.

بقي يشرب شراب الشعير ويدخِّن. تلاشى ضوء النهار. لم يُشعِل الضوء. تدريجياً أصبح رأس سيجارته بقعةً حمراء صغيرةً في الظلمة. بقي جالساً يشرب شراب الشعير ويراقب الممر الخاص لمنزل لويس كريد. كان قد قرَّر أنه عندما يعود لويس إلى منزله من أينما كان، سيذهب إليه ويتكلَّم معه قليلاً. لكي يتأكد أن لويس لا يخطِّط لأن يفعل شيئاً لا يجب عليه أن يفعله.

ومع ذلك فقد شعَر بالشدّ الناعم للطاقة المقيتة التي سكنت ذلك المكان الشيطاني، شعَر بها تمدّ أناملها من أحجارها المتعفِّنة المخادعة حيث بُنيَت كل تلك المعالم الحجرية.

لا تتدخَّل في هذا، أنت. لا تتدخَّل وإلا ستندم كثيراً. كان ذلك الصوت مثل مراسيل ضباب نابعة من قبرٍ مفتوحٍ.

تجاهله جاد بقدر ما يستطيع، وبقي جالساً يدخِّن ويشرب شراب الشعير. وينتظر.

الفصل 47

بينما كان جاد كراندال جالساً على كرسيه الهزّاز السُلَّمي الظهر يراقب عودته من نافذة الخليج، وبينما كانت رايتشل وإيليه تتوجَّهان عبر الطريق الرئيسي إلى منزل غولدمان (كانت رايتشل تعمل باستمرار على أظافرها، غير قادرة على إخماد شعورها بالخوف؛ جلست إيليه شاحبةً مثل حجرٍ)، كان لويس يأكل عشاءً كبيراً عديم النكهة في غرفة طعام فندقه.

كان الطعام وافراً وثقيلاً – تماماً ما بدا أن جسمه يريده. بدأ الظلام يحلّ في الخارج. وبدت الأضواء الأمامية للسيارات المارّة مثل أصابع تستطلع طريقها. راح يزدرد طعامه. شريحة لحم. بطاطا مشوية. طبق جانبي من الحبوب الخضراء الساطعة لم تتقصَّدها الطبيعة أبداً. قطعة فطيرة تفاح عليها بوظة تذوب في لعاب سلس. أكَل على طاولة في الزاوية، وهو يراقب الناس تأتي وتغادر، ويتساءل إن كان سيرى شخصاً يعرفه. شَعَر بطريقة غامضة أنه يأمل أن يحصل ذلك. فذلك سيقود إلى أسئلة – *أين رايتشل، ماذا تفعل هنا، كيف الحال؟* – وربما الأسئلة ستقود إلى تعقيدات، والتعقيدات هي ما أراده حقاً على الأرجح. طريقة للخروج.

وفي الواقع، دخَل زوجان يعرفهما بينما كان يُنهي فطيرة تفاحه وكوبه الثاني من القهوة. روب غرينَلّ، دكتورٌ في بانغور، وزوجته الجميلة باربرا. انتظرهما حتى يرياه، جالساً هنا في الزاوية إلى طاولةٍ لشخصٍ واحدٍ، لكن المضيفة قادتهما إلى الأكشاك الواقعة على الجانب البعيد للغرفة، ولم يعد لويس يراهما أبداً، ما عدا لمحة خاطفة عَرَضيّة لشعر غرينَلّ الذي أصبح رمادياً قبل أوانه.

أحضَرت النادلة الفاتورة للويس. وقَّع عليها، مدوِّناً رقم غرفته تحت توقيعه، وخرج من الباب الجانبي.

اشتدّت الرياح في الخارج إلى ما يشبه العاصفة. كان حضورها دندنةً متواصلةً جعلت الأسلاك الكهربائية تهمهِم بشكل غريب. لم يستطع رؤية أي نجوم، لكنه شعَر بالسُحُب تمرّ فوقه بسرعة عالية. وَقَف لويس على الرصيف للحظة، حاشراً يديه في جيبَيه، وموجِّهاً وجهه في تلك الرياح. ثم استدار وصعد إلى غرفته وشغَّل التلفزيون. كان الوقت مُبكراً جداً للقيام بأي شيء جدّي، وتلك الرياح الليلية زاخرة جداً بالاحتمالات. وتَّرته.

شاهد التلفزيون لأربع ساعات، ثمانية حلقات متتالية لبرامج كوميدية طول الواحدة منها نصف ساعة. أدرَك أنه مرَّ وقت طويل جداً منذ أن شاهد هذا القدر من التلفزيون بشكل متواصل هادئ. تذكَّر أن كل البطلات في برامج كوميديا الموقف كنَّ ما كان وأصدقاؤه في المدرسة الثانوية يلقبّوهن "مُغويات متمنِّعات".

في شيكاغو، كانت دوري غولدمان تنوح، "*تعودان*؟ حبيبتي، لماذا تريدان أن *تعودان*؟ لقد *وصلتما* للتو!".

في لادلو، جلَس جاد كراندال ساكناً قرب نافذته، يدخِّن ويشرب شراب الشعير، ويتفحَّص دفتر قصاصات حياته الماضية ذهنياً، وينتظر عودة لويس إلى منزله. عاجلاً أم آجلاً سيعود لويس إلى منزله، تماماً مثل لاسي في ذلك الفيلم القديم. كانت هناك طرق أخرى للصعود إلى مقبرة الحيوانات والمكان الذي بعدها، لكن لويس لا يعرفها. وإذا كان ينوي أن يفعل ذلك، سيكون عليه أن يبدأ من فنائه.

غير مُدرك لتلك الأحداث الأخرى، مثل مقذوفات بطيئة الحركة غير مصوَّبة إلى مكان تواجده، بل وفق أفضل تقاليد البالستيّات إلى

المكان الذي سيتواجد فيه، جلَس لويس يشاهد التلفزيون الملوّن في غرفته في الفندق. لم يكن قد شاهد أياً من تلك البرامج من قبل، لكنه سمِع إشاعات غامضة عنها: عائلة سوداء، عائلة بيضاء، ولد صغير أذكى من الراشدين الأغنياء الذين يعيش معهم، امرأة عزباء، امرأة متزوجة، امرأة مطلَّقة. ثم العيون المستقصية للفتيات الثلاثة اللواتي يُنجزن كل عملهن الاستقصائي مرتديات قمصاناً بحمّالات أعناق. شاهد كل ذلك، جالساً على كرسيه في الفندق وملقياً بين الحين والآخر نظرة سريعة على الليل العاصِف في الخارج.

عندما بدأت نشرة أخبار الساعة الحادية عشرة، أطفأ التلفزيون وخرَج ليفعل ما قرَّر أن يفعله ربما منذ لحظة رؤيته قبعة بيسبول غايدج مُلقاة على الطريق، غارقةً بالدم. حلَّت عليه البرودة مرة أخرى، أقوى من أي وقت مضى، لكن كان هناك شيء تحتها - جمرة لهفة، أو شغف، أو ربما شهوة. لا يهمّ. فقد حمته من البرد وحافظت على رباطة جأشه في الرياح. بينما شغَّل محرِّك الهوندا، فكَّر أن جاد ربما كان محقّاً بشأن الطاقة المتزايدة لذلك المكان؛ فهو يشعر بها حوله بالتأكيد الآن، تقوده (أو تدفعه)، وتساءل:

هل يمكنني أن أتوقف؟ هل يمكنني أن أتوقف حتى ولو أردتُ ذلك؟

قاد لويس سيارته.

الفصل 48

"ماذا تريدين؟"، سألت دوري مرة أخرى. "رايتشل... أنت منزعجة... غداً صباحاً ستشعرين..."

اكتفت رايتشل بهزّ رأسها. لا يمكنها أن تشرح لأمها لماذا عليها العودة. فقد لفحها الشعور مثلما تلفح الرياح الأرجاء – تحريكٌ مُبكرٌ للأعشاب، بالكاد يمكن ملاحظته؛ ثم يبدأ الهواء بالتحرّك بشكل أسرع وحادّ أكثر، ولا يبقى أي هدوء في المكان؛ ثم تصبح الهبَّات حادّة كفاية لإحداث ضجيج صارخٍ مُوحِش حول طُنُف السقف؛ ثم يهتزّ المنزل وتُدرِك أن هناك شيئاً يشبه إعصاراً وإذا أصبحت الرياح عاتية أكثر، ستبدأ الأشياء بالسقوط.

كانت الساعة السادسة في شيكاغو. وفي بانغور، كان لويس قد جلس للتو أمام وجبة طعامه الكبيرة العديمة المذاق. أما رايتشل وإيليه فبالكاد لمستا طعام عشائهما. بقيت رايتشل ترفع عينيها عن طبقها لتجد نظرات إبنتها العابسة عليها، تسألها ماذا ستفعل بشأن المتاعب التي يواجهها أبوها، تسألها ماذا ستفعل.

انتظَرت أن يرنّ الهاتف، أن يتصل جاد ويُخبِرها أن لويس عاد إلى المنزل، وعندما رنّ فعلاً – جفلت، وكادت إيليه توقع كوب حليبها – لكن المتصل كان مجرد سيدة من نادي بريدج دوري تريد أن تعرف إن عادت إلى منزلها بخير.

كانوا يتناولون قهوتهم عندما رمت رايتشل منديلها فجأة وقالت، "بابا... ماما... آسفة، لكن عليَّ أن أعود إلى المنزل. وإذا استطعتُ إيجاد طائرة، سأعود هذه الليلة".

فغَر فم أمها وأبيها، لكن إيليه أغمضت عينيها في إيماءة راشدين

تعبيراً عن ارتياحها - كان شكلها ليكون مضحكاً لو لم يكن شاحباً.

لم يفهما، ولم تعد رايتشل تستطيع أن تشرح أكثر مما شرحت كيف أن تلك الهبّات الصغيرة جداً من الرياح، الضعيفة بحيث بالكاد تستطيع تحريك أطراف الأعشاب القصيرة، يمكن أن تتزايد قوتها تدريجياً إلى أن يمكنها إسقاط مبنى فولاذي بالكامل. لم تصدِّق أن إيليه سمِعت خبراً عن موت فيكتور باسكاو وخزَّنته في لاوعيها.

"رايتشل. حبيبتي". تكلَّم أبوها ببطء، بلطف، بالطريقة التي قد يتكلَّم بها مع شخصٍ مُصاب بنوبة هستيريا مؤقَّتة لكن خطيرة. "هذه مجرد ردّة فعل على موت إبنك. ردّة فعلكما أنتِ وإيليه عنيفة تجاه ذلك، ومَن يستطيع أن يلومكما؟ لكنك ستنهارين ببساطة إذا حاولتِ -"

لم تُجبه رايتشل. بل ذهَبت إلى الهاتف في القاعة، ووجدت قسم شركات الطيران في الصفحات الصفراء وطلبت رقم شركة دلتا بينما وَقَفت دوري قربها تُخبرها أن عليها إعادة النظر بقرارها، ألا تعتقد ذلك، وأن عليهما مناقشته، وربما وضع لائحة... وخلفهما وقفت إيليه، بوجهها الذي لا يزال شاحباً - لكنه أُضيء الآن بأملٍ كافٍ لإعطاء رايتشل بعض الشجاعة.

"شركة طيران دلتا"، قال الصوت على الطرف الآخر بابتهاج. "معك كيم، هل يمكنني مساعدتك؟".

"آمل ذلك"، قالت رايتشل. "من المهم جداً أن أسافر من شيكاغو إلى بانغور هذه الليلة... أخشى أن الحالة طارئة. هل يمكنك التحقّق من الرحلات لي؟".

بارتياب: "نعم، سيدتي، لكن هذه المهلة قصيرة جداً".

"تحقَّق رجاءً"، قالت رايتشل بصوتٍ منكسرٍ قليلاً. "سأقبل بوضعي على لائحة الاحتياط، أي شيء".

"حسناً، سيدتي. انتظري رجاءً". أصبح الخط صامتاً بنعومة.

أغمضت رايتشل عينيها، وشعَرت بعد لحظة بيد باردة على ذراعها. فتَحت عينيها ورأت أن إيليه أصبحت بجانبها. وَقَف إروين ودوري بجانب بعضهما، يتكلمان بهدوء وينظران إليهما. *بالطريقة التي تنظر بها إلى الأشخاص الذين تشك أنهم مجانين،* فكَّرت رايتشل في سرِّها بتثاقل. ضغطت على نفسها لترسم ابتسامةً لإيليه.

"لا تدعيهما يمنعانك يا ماما"، قالت إيليه بصوتٍ منخفضٍ. "رجاءً".

"إطلاقاً، أيتها الأخت الكبيرة"، قالت رايتشل ثم جفَلت – كان هذا ما يناديانها منذ أن وُلد غايدج. لكنها لم تعد الأخت الكبيرة لأحدٍ الآن، أليس كذلك؟

"شكراً"، قالت إيليه.

"هذا مهم جداً، أليس كذلك؟".

أومأت إيليه برأسها.

"وهذا رأيي أيضاً يا حبيبتي. لكن يمكنك مساعدتي إن استطعتِ إخباري المزيد. هل هو مجرد الحلم؟".

"لا"، قالت إيليه. "هذا... هذا كل شيء الآن. يملأني كلياً الآن. ألا يمكنك أن تشعري به يا ماما؟ شيء كأنه –"

"شيء كأنه رياح".

تنهَّدت إيليه بتزعزع.

"لكنك لا تعرفين ما هو؟ ألا تتذكَّرين أي شيء آخر عن حلمك؟".

فكَّرت إيليه ملياً ثم هزَّت رأسها على مضض. "بابا. تشرش. وغايدج. هذا كل ما أتذكَّره. لكنني لا أتذكَّر كيف اجتمعوا معاً!".

عانقتها رايتشل بقوة. "ستكون الأمور بخير"، قالت، لكن الثقل على قلبها لم يخفّ.

"ألو سيدتي"، قال موظف الحجوزات.

"ألو؟"، شَدّت رايتشل قبضتها على إيليه والهاتف معاً.

"أعتقد أنه يمكنني إيصالك إلى بانغور يا سيدتي – لكنك ستصلين إلى هناك في وقت متأخر جداً".

"هذا لا يهمّ"، قالت رايتشل.

"هل لديك قلم؟ المسألة معقَّدة".

"نعم، معي هنا"، قالت رايتشل، وأخرجت عقب قلم رصاص من الجارور. وجَدت الجهة الخلفية لمغلفٍ لتكتب عليه.

استمَعت رايتشل بعناية، ودوَّنت كل شيء. عندما أنهى موظف شركة الطيران كلامه، ابتسمت رايتشل قليلاً ورسمت دائرة بإبهامها وسبابتها لإفهام إيليه أن الخطة ستنجح. ستنجح على الأرجح، عدَّلت حُكمها. فبعض الوصلات في الرحلة بدت... صعبة جداً... خاصة في بوسطن.

"احجزها لي كلها رجاءً"، قالت رايتشل. "وشكراً".

أخذ كيم إسم رايتشل ورقم بطاقة إئتمانها. أغلقت رايتشل الخط أخيراً، مترنّحةً لكن مرتاحةً. نظَرت إلى أبيها. "بابا، هلاّ أوصلتني إلى المطار؟".

"ربما عليَّ أن أرفض"، قال غولدمان. "أعتقد أن لديَّ مسؤولية أن أضع حدّاً لهذا الجنون".

"*إياك!*"، صاحت إيليه بصوتٍ حادٍ. "هذا *ليس* جنوناً!".

جفلَ غولدمان وتراجَع إلى الوراء من هذه الفورة الصغيرة لكن الضارية.

"أوصِلها يا إروين"، قالت دوري بهدوء في الصمت الذي تبع ذلك. "لقد بدأتُ أشعر بالتوتّر أنا أيضاً. سأشعر بتحسّن إذا عرفتُ أن لويس بخير".

حدَّق غولدمان في زوجته واستدار أخيراً إلى رايتشل. "سأوصلك، إذا كان هذا ما تريدينه"، قال. "أنا... رايتشل، سأسافر معك، إذا كنتِ تريدين ذلك".

هزَّت رايتشل رأسها. "شكراً يا بابا، لكنني حصلتُ على كل المقاعد المتبقية".

تنهَّد إروين غولدمان. بدا عجوزاً جداً في تلك اللحظة، وخطرَ ببال رايتشل فجأة أن أبيها بدا مشابهاً لجاد كراندال.

"لديك الوقت لتوضّبي حقيبةً، إذا أردتِ"، قال. "يمكننا أن نصل إلى المطار في أربعين دقيقة، إذا قدتُ بالطريقة التي كنتُ أقود بها في بداية زواجي من أمك. أحضري لها حقيبتك القماشية يا دوري".

"ماما"، قالت إيليه. استدارت رايتشل نحوها. كان وجه إيليه يزخر بعرق خفيف الآن.

"ما الأمر يا حبيبتي؟".

"كوني حذرةً يا ماما"، قالت إيليه. "كوني حذرةً، رجاءً".

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل 49

كانت الأشجار مجرد أشكال تتحرَّك في سماء غائمة يُنيرها توهُّج المطار غير البعيد جداً. رَكَن لويس الهوندا في شارع مايسون، المجاور لپليزنتفيو من الحدود الجنوبية، وهنا كانت الرياح قوية كفاية لتنزع باب السيارة من يده. اضطر أن يدفع بقوة لكي يُغلقه. عصفت الرياح على سترته عندما فتَح صندوق الهوندا، وطيَّرت طرف قطعة القماش المشمَّع التي قصَّها ولفّ أدواته بها.

كان في جناحٍ من الظلمة بين عمودَي إنارة، واقفاً على حافة الرصيف وحاملاً الحزمة الملفوفة بقطعة القماش على ذراعيه، ومتفحّصاً حركة المرور بحذر قبل أن يجتاز إلى السور الحديدي الذي يلفّ المقبرة. لم يرغب أن يراه أحدٌ أبداً، إن استطاع ذلك، ولا حتى شخصٌ قد يلاحظه وينساه في اللحظة التالية. تأوَّهت أغصان شجرة دردار قديمة بجانبه بلا هوادة في الرياح، مما ذكَّر لويس بعمليات الإعدام شنقاً بلا محاكمة. كان خائفاً جداً. لم يكن هذا عملاً شرساً؛ كان عملاً مجنوناً.

لا حركة مرور. على جهة شارع مايسون، سارت أعمدة الإنارة بعيداً في دوائر بيضاء مثالية، مُلقيةً أضواءها على الرصيف الذي يستخدمه الفتيان لركوب درّاجاتهم الهوائية والفتيات للقفز على الحبل ولعب لعبة الحَجْلة خلال الأيام بعد انتهاء الصفوف في مدرسة نحُو فيرماونت، دون أن يلاحظوا المقبرة القريبة أبداً، ما عدا ربما في الهالووين، عندما تكتسب المقبرة بعض الجاذبية المُجفِلة. ربما سيتجرّأون على اجتياز شارعهم الجانبي وتعليق هيكل عظمي ورقي على قضبان السور الحديدي المرتفع، وهم يقهقهون على النكات القديمة: *إنه أشهر مكان في البلدة؛ الناس يموتون للدخول إليه. لماذا لا يجب الضحك في المقبرة؟*

لأن جميع الذين يعيشون هناك في مزاج مميت دائماً.

"غايدج"، تمتم. كان غايدج هناك، خلف ذلك السور الحديدي، مسجون بغير عدل تحت بطانية تربة داكنة. *سأُخرجك يا غايدج،* فكَّر في سرّه. *سأُخرجك أيها البطل، أو أموت وأنا أحاول.*

اجتاز لويس الشارع حاملاً حزمته الثقيلة على ذراعيه، وصعد على الرصيف الآخر، وألقى نظرة سريعة أخرى في الاتجاهين، ورمى اللفّة القماشية فوق السور. خشخَشت بلطف عندما ارتطمت بالأرض على الجانب البعيد. نفضْ لويس الغبار عن يديه وابتعَد. لقد علَّم المكان في ذهنه. حتى ولو نسيه، كل ما عليه فعله حقاً هو اتباع السور عند الجهة الداخلية إلى أن يقف مقابل سيارته السيفيك، وسيجد اللفّة.

لكن هل ستكون البوابة مفتوحة في هذا الوقت المتأخر؟

سار في شارع مايسون إلى علامة التوقف، والرياح تطارده وتُزعِج كعبَيه. راحت ظلال متحرِّكة تتراقص وتتلوّى على قارعة الطريق.

انعطف إلى شارع بليزنت وهو لا يزال يتبع السور. غمرت الأضواء الأمامية للسيارات الشارع، وانحنى لويس خلف شجرة دردار بهدوء. رأى أنها لم تكن سيارة شرطة، بل مجرد شاحنة تتوجَّه نحو شارع هاموند ثم إلى الطريق الرئيسي على الأرجح. أكمل سيره عندما تجاوزته.

طبعاً ستكون مفتوحة. يجب أن تكون مفتوحة.

وَصَل إلى البوابة الحديدية الضخمة والنحيلة والجميلة في ظلال الرياح المتحرِّكة التي تلقيها أعمدة الإنارة. مدَّ يده وجرَّب.

مُقفلة.

أيها المغفَّل الغبي، بالطبع ستكون مقفلة - هل اعتقدتَ حقاً أن أي شخص سيترك مقبرةً داخل الحدود البلدية لأي مدينة أميركية مفتوحة بعد الساعة الحادية عشرة؟ لا أحد لديه هذه الثقة العمياء، يا

عزيزي، ليس بعد الآن. ماذا ستفعل الآن؟

عليه أن يتسلّق الآن ويأمل ألا يكون أي شخص قد أشاح بنظره عن برنامج كارسون لمدة كافية ليراه يتسلَّق السور الحديدي مثل أبطأ ولد عجوز في العالم.

ألو، الشرطة؟ لقد رأيتُ للتو أبطأ ولد عجوز في العالم يتسلَّق سور مقبرة پليزنتفيو. يبدو أنه كان يموت للدخول إلى هناك. أجل، بدت لي المسألة مميتة. هل أمزح؟ آه لا، أنا جدّي تماماً. ربما عليكم التعمّق في المسألة.

تابَع لويس سيره في شارع پليزنت وانعطف يميناً عند التقاطع التالي. سار السور الحديدي المرتفع بجانبه بلا هوادة. وبرَّدت الرياح نقاط العرق على جبهته وفي تجاويف صدغَيه وجفَّفتها. تناوَب ظله في ضوء أعمدة الإنارة. وبقي يلقي نظرة سريعة على السور بين الحين والآخر، ثم توقَف وأجبر نفسه على *النظر* إليه فعلاً.

ستتسلّق هذا يا عزيزي؟ لا تجعلني أضحك.

كان لويس كريد رجلاً طويلاً نوعاً ما، فيزيد طوله عن متر وثمانية وثمانين سنتيمتراً بقليل، لكن ارتفاع السور ثلاثة أمتار بكل سهولة، وكل قضيب حديدي ينتهي بسهم زخرفي. زخرفي إلى أن تزلّ قدمك بينما تلوِّح رِجلك فوقه وتدفعك قوة وزنك ذي التسعين كيلوغراماً الساقط فجأة نحو أحد تلك السهام لتغرسه في فخذك أو بين منفرج ساقيك. وستصبح عندها أشبه بخروف عُلِّق على سيخ شواء، وتبدأ بالصياح إلى أن يتصل أحدهم بالشرطة فيأتون ويسحبونك عنه ويأخذونك إلى المستشفى.

تابَع العرق يسيل عليه، مُلصِقاً قميصه بظهره. كان كل شيء صامتاً ما عدا من الهمهمة الخافتة لحركة المرور المتأخرة في شارع هاموند.

لا بدّ من وجود طريقة للدخول إلى هناك.

لا بدّ.

بالله عليك يا لويس، واجه الحقائق. قد تكون مجنوناً، لكنك لستَ مجنوناً إلى هذا الحدّ. ربما يمكنك الوصول إلى أعلى هذا السور، لكن يجب أن تكون لاعب جمباز مدرَّب لكي تلوّح نفسك فوق تلك السهام دون أن تغرّز نفسك بها. وحتى لو افترضنا أنه يمكنك الدخول، كيف ستُخرِج نفسك وجثة غايدج؟

أكمل سيره، وهو يُدرك بغموض أنه يدور حول المقبرة دون أن يفعل أي شيء بنّاء.

حسناً، هذا هو الجواب. سأرجع إلى المنزل في لادلو هذه الليلة وأعود غداً، في وقت متأخر من بعد الظهر. سأدخل عبر البوابة حوالي الساعة الرابعة وأجد مكاناً لأختبئ فيه حتى منتصف الليل أو بعده بقليل. بمعنى آخر، سأؤجّل إلى الغد ما كان يجب أن أكون ذكياً كفاية لأفكّر فيه اليوم.

فكرة جيدة، يا أيها العبقري لويس... وفي هذه الأثناء، ماذا أفعل بشأن تلك الحزمة الكبيرة التي رميتُها فوق الجدار؟ مِعول، مجرفة، مشعل كهربائي... لم يكن ينقصك إلا أن تكتب "معدّات سرقة قبور" على كل قطعة لعينة منها.

لقد حطّت في الأجمات. مَن سيجدها حقاً؟

بدا له هذا منطقياً. لكنه لم يكن يقوم بعملية معقولة، وأخبَره قلبه بهدوء وثقة أنه لا يمكنه العودة غداً. إذا لم يُنجز العملية هذه الليلة، فلن يُنجزها أبداً. لن يكون قادراً أبداً على دفع نفسه للقيام بهذا العمل المجنون مرة أخرى. هذه هي اللحظة المؤاتية، اللحظة الوحيدة التي سيحصل عليها في حياته كلها.

كان عدد المنازل أقل في هذه الناحية - حيث يلمع مربعٌ عَرَضيٌّ من ضوءٍ أصفر على الجهة الأخرى للشارع، ورأى ذات مرة الاضطراب الرمادي الأزرق لتلفزيونٍ أسود وأبيض - وعندما نظر عبر السور رأى أن القبور أقدم هنا، مستديرة أكثر، وتميل أحياناً إلى الأمام أو الوراء بسبب التجمّد والذوبان على مرّ السنوات. كانت هناك علامة توقف أخرى أمامه، وانعطافة أخرى إلى اليمين ستأخذه إلى شارعٍ موازٍ تقريباً لشارع مايسون، حيث بدأ. وماذا سيفعل عندما يعود إلى البداية؟ يقبض مئتَي دولار ويعيد الكَرّة من جديد؟ يتقبَّل الهزيمة؟

ظهرت الأضواء الأمامية لسيارةٍ في آخر الشارع، فاختبأ لويس خلف شجرة أخرى بانتظار أن تمرّ. كانت هذه السيارة تسير ببطء شديد، وبعد لحظات خرج ضوء كشّاف أبيض من جهة الراكب وراح يتنقَّل على السور الحديدي. انقبض قلبه بشكل مؤلم في صدره. كانت سيارة شرطة تتفحَّص المقبرة.

ضغَط نفسه بقوة على الشجرة، مُلصقاً لحاءها الخشن على خده، وكله أمل أن تكون كبيرة كفاية لتُخفيه كله. انتقل الضوء الكشّاف نحوه، فأخفَضَ لويس رأسه محاولاً حمايه وجهه من توهّجه. وصل الضوء إلى الشجرة، واختفى للحظة، ثم عاود الظهور على جهة لويس اليمنى. دار حول الشجرة لكي يبتعد قليلاً عن خط بصر السيارة. تمكَّن من إلقاء نظرة خاطفة على الفقاقيع الداكنة على سقف الطرّاد. انتظَر حتى تتوهَّج الأضواء الخلفية بلون أحمر أكثر إشراقاً، حتى تُفتَح الأبواب، حتى يعود الضوء الكشّاف إليه فجأة، ويتصيَّده مثل إصبع أبيض كبير. *أنتَ! أنتَ خلف تلك الشجرة! اخرج إلى حيث يمكننا رؤيتك، ونريد رؤية يديك الفارغتين! اظهر الآن!*

أكملت سيارة الشرطة سيرها. وَصَلت إلى الناصية، وانعطفت

يساراً. انهار لويس على الشجرة، وراح يتنفّس بسرعة، وشَعَر بحموضة وجفاف في فمه. افترَض أنهم سيمرّون بجانب سيارته الهوندا المركونة، لكن هذا لا يهمّ. فرَكن السيارات من السادسة مساءً وحتى السابعة صباحاً مسموحٌ في شارع مايسون. وهناك سيارات أخرى كثيرة مركونة معها. إنها سيارات سكّان المباني السكنية المتناثرة على الجهة الأخرى للشارع.

وجَد لويس نفسه يرفع نظره إلى الشجرة التي اختبأ خلفها.

إنها تتفرَّع فوق رأسه مباشرة. افترَض أنه يمكنه –

من دون أن يسمح لنفسه بالتفكير بالمسألة أكثر، مدَّ يديه إلى الغصن ورفع نفسه، وراح يدفع بحذائه الرياضي على الجذع، موقِعاً بعض اللحاء على الرصيف. تمكَّن من رفع إحدى رُكبتَيه، وبعد لحظة زرع إحدى قدمَيه على شجرة الدردار. إذا صدفَ وعادت سيارة الشرطة فإن ضوء رجالها الكشّاف سيجد طائراً غريباً جداً على هذه الشجرة. عليه أن يتحرَّك بسرعة.

رَفَع نفسه إلى غصنٍ أعلى، غصنٍ يعلو فوق السور. انتابه شعور سخيف بأنه عاد ولداً في الثانية عشرة من عمره. لم تكن الشجرة ثابتةً؛ بل تهتزّ بسهولة، بشكل مهدئ للأعصاب تقريباً، في الرياح المتواصلة. وأوراقها تُصدر أصوات حفيف وهمسات. قيَّم لويس الحالة ثم، وقبل أن يغيِّر رأيه، أخفَضَ جسمه في الفراغ، مطوّقاً الغصن بيديه الاثنتين. كان الغصن أسمك قليلاً على الأرجح من ساعد رجل مفتول العضلات. مع تدلّي حذائه الرياضي حوالي مترين ونصف فوق الرصيف، راح يجرّ نفسه يداً تلو الأخرى نحو السور. انحنى الغصن وتمايَل مع حركاته، لكنه لم يُظهِر أي دلالة على الانكسار. كان يُدرك أن ظله يتبعه على الرصيف الأسمنتي تحته. أثلجت الرياح إبطيه الساخنين، ووجَد نفسه يرتعش رغم

العرق الذي يسيل على وجهه وعنقه. راح الغصن ينحني أكثر فأكثر كلما اقترب من طرفه. بدأ يشعر بتعب في يديه ومعصميه، وخشيَ أن تنزلق راحتَي يديه المبلَّلتين بالعرق.

وَصَل إلى السور. تدلّى حذاؤه الرياضي حوالي ثلاثين سنتيمتراً تحت رؤوس السهام التي لم تبدُ كليلة أبداً من هذه الزاوية، بل حادّة جداً. حادّة أم لا، أدرَك فجأة أن فخذيه أو منفرج ساقيه لم يكونا الوحيدين في خطر الآن. فإذا وَقَع وأصاب أحد تلك السهام مباشرةً فإن وزنه سيكون كافياً لكي يخترق أحدها جسمه وصولاً إلى رئتَيه. وسيجد رجال الشرطة العائدين زخرفةً مُبكرةً ومروِّعةً جداً للهالووين على سور پليزنتفيو.

بدأ يتنفّس بسرعة، لكن دون أن يلهث، وراح يتحسَّس بحثاً عن سهام السور بقدمَيه، فهو بحاجة إلى بعض لحظات الراحة. بقي متدلّياً هناك للحظة، محرِّكاً قدمَيه بحرية في الهواء، وباحثاً لكن دون نجاح.

أصابه ضوءٌ وازداد سطوعاً.

يا إلهي، إنها سيارة؛ هناك سيارة قادمة-!

حاوَل جرَّ يديه إلى الأمام، لكن راحتَي يديه انزلقتا. وبدأت أصابعه المتشابكة تفترق عن بعضها.

مع استمرار بحثه عن موطئ قدم، أدار رأسه إلى اليسار، ونظر تحت ذراعه المُتعَبة. كانت سيارةً، لكنها اجتازت التقاطع إلى الشارع الآخر دون إبطاء. الحمد لله. لو كانت -

انزلَقت يداه مرة أخرى. وشَعَر ببعض اللحاء يسقط على شعره.

وجدت إحدى قدمَيه موطئ قدم، لكن رِجل بنطلونه الأخرى علقت الآن بأحد رؤوس السهام. يا للهول، لن يكون قادراً على التمسُّك لأطول من ذلك بكثير. هزَّ لويس رِجله بيأس. انحنى الغصن.

وانزلَقت يداه مرة أخرى. سمِع صوت تمزّق لباسٍ، ثم وجد نفسه يقف على اثنين من رؤوس السهام. حفَرا في نعلَي حذائه الرياضي، وسرعان ما أصبح الضغط مؤلماً، لكن لويس وَقَف عليهما على أي حال. كان الارتياح في يديه وذراعيه أكبر من الألم في قدمَيه.

يا لمنظري المضحك، فكَّر لويس في سرّه ببعض المزاح الكئيب. مُمسكاً الغصن بيده اليسرى، مسَح يده اليمنى بسترته. ثم مسَح يده اليسرى بينما أمسك الغصن بيده اليمنى.

وَقَف على رأسَي السهمين للحظة إضافية ثم جرَّ يديه إلى الأمام على الغصن. كان نحيلاً كفاية لكي يتمكن من شبك أصابعه ببعضها بشكل مريح الآن. لوَّح جسمه إلى الأمام مثل طرزان، رافعاً قدمَيه عن رأسَي السهمين. انحنى الغصن بشكل مخيف، وسمِع صوت انكسار مُنذِرٍ بالسوء. أفلت الغصن وهوى متّكلاً على حظه.

حطَّ بشكل سيئ، حيث ارتطمت إحدى رُكبتَيه بشاهد قبرٍ، مُرسلةً برق ألمٍ في فخذه. تدحرَج على العشب، مُمسكاً ركبته، وشادّاً شفتيه إلى الخلف في ما يشبه ابتسامةً، متمنّياً ألا يكون قد حطَّم رأسها. أخيراً بدأ الألم يخفّ قليلاً، ووجَد أنه يمكنه ثني المِفصَل. سيكون بخير إذا بقي يتحرَّك ولم يسمح لها أن تتيبَّس عليه. ربما.

وقف على قدمَيه وبدأ يسير على طول الجهة الخلفية للسور نحو شارع مايسون ومعدّاته. كانت ركبته سيئة في البداية، وراح يعرج، لكن الألم خفَّ مع الوقت. يوجد أسبرين في علبة الإسعافات الأولية في الهوندا. كان عليه أن يتذكَّر إحضارها معه. فات الأوان الآن. بقي يراقب اقتراب أي سيارة ويدخل عميقاً في المقبرة عندما تأتي واحدةٌ.

على جهة شارع مايسون، والتي كانت مناسبةً للعبور، بقي يسير مبتعداً عن السور إلى أن أصبح مقابل السيفيك. كان على وشك أن

يقترب من السور ويرفع حزمته من الأجمات عندما سمِع وقع أقدام على الرصيف وامرأة تضحك بصوتٍ منخفضٍ. جلَس خلف شاهد قبر كبير - ألمته ركبته كثيراً من القرفصة - وراقَب شخصين يسيران على الجهة البعيدة لشارع مايسون. كانا يسيران وكل واحد منهما يضع ذراعه على خصر الآخر، وشيءٌ في حركتهما من حوض ضوءٍ أبيض إلى الآخر ذكَّر لويس ببرنامج تلفزيوني قديم. تذكَّر إسمه فوراً: *ساعة جيمي دورانتي*. ماذا سيفعلان إذا نهض الآن كظلٍ متمايلٍ في مدينة الأموات الصامتة هذه، وصاح بهما بصوت أجوف: "تصبحين على خير يا سيدة كالاباش، أينما كنتِ!".

توقَفا في حوض الضوء الذي وراء سيارته مباشرة وتعانَقا. شَعَر لويس وهو يراقبهما بنوعٍ من التعجّب السقيم والكره للذات. ها هو يربض خلف شاهد قبرٍ مثل شخصية دون البشر في قصةٍ مصوَّرةٍ رخيصةٍ، يراقب حبيبَين. *هل الخيط رفيع جداً إذاً؟* تساءل، وبدت هذه الفكرة مألوفة أيضاً. *رفيع لدرجة أنه يمكنك العبور فوقه ببساطة بهذا القدر القليل من الهرج والمرج والفوضى والعناء؟ تسلَّق شجرةً، تقدَّم على غصنٍ، اهبط في مقبرةٍ، راقب حبيبين... احفر حفراتٍ؟ بهذه البساطة؟ هل هذا جنون؟ أمضيتُ ثماني سنوات لكي أصبح طبيباً، لكنني أصبحتُ لص قبور في خطوة بسيطة واحدة - ما أفترض أن الناس يسمّونه غُولاً*.

حشَر قبضتيه عند فمه ليمنع صوتاً من الخروج، وتلمَّس تلك البرودة الداخلية، ذلك الإحساس بالانفصال عن الواقع. كان هناك، وسحبه لويس حوله بامتنان.

عندما أكمل الحبيبان سيرهما أخيراً، راقَبهما لويس بنفاد صبر. صعدا سلالم أحد المباني السكنية. وبحث الرجل عن مفتاحٍ، وأصبحا

في الداخل بعد لحظة. عاد الشارع صامتاً من جديد ما عدا من الطَرْق المتواصل للرياح، يخشخش الأشجار ويبعثر شعره المبلَّل بالعرق فوق جبهته.

رَكَض لويس إلى السور، منحنياً، وراح يبحث عن حزمته بين الأجمة. وجدها، خشنةً تحت أصابعه. رَفَعها، مستمعاً إلى القعقعة المكتومة لمحتوياتها في الداخل. حَمَلها إلى الطريق العريض المرصوف بالحصى الذي يقود عبر البوابات وتوقف مؤقتاً ليوجِّه نفسه. مباشرة أمامك هنا، وانعطف يساراً عند التفرّع. لا مشكلة.

سار عند حافة الطريق، فقد أراد أن يكون قادراً على الدخول إلى ظل أشجار الدردار في حال كان هناك حارسٌ بدوام كامل فعلاً وإذا صدفَ وكان خارج حجرته. لم يتوقَّع لويس أي مشكلة من ذلك المكان - فهو مقبرةٌ في مدينة صغيرة في نهاية المطاف - لكن من غير الحكمة أن يخاطر.

انعطف يساراً عند التفرّع، مقترباً من قبر غايدج الآن، وأدرك فجأة، وبشكل مروِّع، أنه لا يمكنه أن يتذكَّر شكل إبنه. توقف مؤقتاً، وراح يحدِّق في صفوف القبور، في الواجهات العابسة للنُصُب التذكارية، وحاوَل أن يتذكَّر. تراءت له المميزات الفردية - شعره الأشقر، الذي كان لا يزال ناعماً وفاتح اللون، عينيه المائلتين، أسنانه البيضاء الصغيرة، الندبة الصغيرة على ذقنه من سقوطه على السلالم الخلفية لمنزلهم في شيكاغو. يمكنه رؤية تلك الأشياء، لكن لا يمكنه دمجها في وحدةٍ متماسكةٍ. رأى غايدج يركض نحو الطريق، يركض نحو موعده مع شاحنة أورينكو، لكنه كان قد أدار وجهه عنه. حاوَل استذكار غايدج مثلما كان في مَهده يوم تطيير الطائرة الورقية، ولم يستطع سوى رؤية ظلمة في تصوُّره.

غايدج، أين أنت؟

هل فكَّرت للحظة يا لويس أنك ربما لا تُسدي أي خدمة لإبنك؟ ربما هو سعيد حيث هو... ربما كل ذلك ليس الهراء الذي ظننتَه دائماً. ربما هو مع الملائكة أو ربما هو نائمٌ فقط. وإذا كان نائماً، هل تعرف حقاً ما الذي تريد إيقاظه؟

آه يا غايدج، أين أنت؟ أريدك أن تكون في المنزل معنا.

لكن هل كان يتحكَّم بأفعاله حقاً؟ لماذا لا يستطيع أن يستذكر وجه غايدج، ولماذا كان يعمل عكس تحذير الجميع - جاد، حلم باسكاو، ذعر قلبه المنزعج؟

تذكَّر شواهد القبور في مقبرة الحيوانات، تلك الدوائر الفظّة، التي تدور إلى أحضان الغموض، ثم شَعَر بالبرودة مرة أخرى. لماذا يقف هنا، محاولاً استذكار وجه غايدج على أي حال؟

فسوف يراه عما قريب.

كان شاهد القبر هنا الآن؛ قال ببساطة *غايدج ويليام كريد*، ثم تاريخَين. رأى أن شخصاً جاء إلى هنا اليوم ليودّعه؛ فهناك زهور نضِرة. مَن عساه يكون؟ مِيسِي داندريدج؟

خفَقَ قلبه بشدة لكن ببطء في صدره. حانت لحظة الحقيقة؛ إذا كان سيفعل ذلك، فمن الأفضل أن يبدأ به. لن يطول الليل كثيراً قبل أن يبزغ ضوء النهار.

ألقى لويس نظرة سريعة على قلبه مرة أخيرة ورأى أنه ينوي فعل ذلك حقاً. أومأ برأسه بشكل غير ملحوظ تقريباً وأخرجَ سكين جيبه. كان قد ربطَ حزمته بشريط لاصق، فقصَّه الآن. بَسَط القماش المشمَّع عند أسفل قبر غايدج مثل كيس نوم ثم رتَّب الأشياء تماماً مثلما كان

ليرتّب المعدّات لكي يخيط جرحاً أو يُجري عملية صغيرة في العيادة.

ها هو المشعل الكهربائي بعدسته الملبَّدة مثلما اقترح موظف متجر الأجهزة. كان اللبّاد مثبّتاً أيضاً بشريط عريض. كان قد أحدَثَ دائرة صغيرة في وسطها عبر وضع قطعة نقدية صغيرة على اللبّاد والقصّ حولها بمِبضَع. ها هو المِعول ذو المقبض القصير الذي لا يجب أن يضطر إلى استخدامه - وأحضَره معه من باب الاحتياط فقط. لن يكون هناك غطاء مختوم لكي يتعامل معه، ولا يجب أن يصطدم بأي صخور في قبرٍ مُلِئ حديثاً. ها هي المجرفة، المسحاة، الحبل، قفازات العمل. ارتدى القفازات، وأمسك المسحاة، وبدأ.

كانت الأرض ناعمةً، والحَفر سهلاً، وشكل القبر محدَّداً جيداً، والتربة التي يُخرجها أنعم من التربة التي حوله. أجرى ذهنه نوعاً من المقارنة التلقائية بين سهولة هذا الحفر وبين الأرض الصخرية غير المتسامحة للمكان الذي سيعيد دفن إبنه فيه لاحقاً تلك الليلة، إذا سار كل شيء على ما يرام. هناك فوق سيحتاج إلى المِعول. ثم حاوَل التوقف عن التفكير كلياً. فهذا يعيقه فحسب.

رمى التربة أرضاً على يسار القبر، وراح يعمل في إيقاع هادئ ازدادت صعوبة المحافظة عليه كلما تعمَّقت الحفرة. نزلَ إلى القبر، وشمّ ذلك العبير الشديد الرطوبة للتربة المقلوبة حديثاً، رائحة ذكَّرته بفصول صيفه مع العمّ كارل.

حفّار، فكَّر في سرّه وتوقف ليمسح العرق عن حاجبه. كان العمّ كارل قد أخبَره أنه لقب كل حارس مقبرة في أميركا.

عاود العمل من جديد.

توقَف مرة أخرى ليتفحّص ساعته فقط. كانت الثانية عشرة وعشرين دقيقة. شعَر بالوقت ينزلق من بين يديه مثل شيء تم تشحيمه.

بعد أربعين دقيقة، ارتطمت المسحاة بشيء، فكزَّ لويس أسنانه على شفته العليا بقوة كافية لكي ينزف الدم. أحضَرَ المشعل الكهربائي ووجَّه ضوءه نزولاً. كانت هناك تربة أكثر، ومتناثرة عليه في خط قطري رمادي فضي. إنه السطح العلوي للصندوق الأسمنتي. أبعَدَ لويس معظم التربة بأفضل ما يمكنه، لكنه كان حذِراً من عدم إحداث ضجة كبيرة، ولا شيء صاخب أكثر من مجرفةٍ تكشط أسمنتاً في هَدأة الليل.

عندما انتهى من إبعاد قدر ما يستطيع من التربة، تسلَّق إلى خارج القبر وأحضَرَ الحبل. مرَّره عبر الحلقات الحديدية الموجودة عند أحد نصفَي السطح العلوي المقسَّم للصندوق الأسمنتي. ثم خرَج من القبر مرة أخرى، ونشرَ القماش المشمَّع، واستلقى عليه، وأمسكَ أطراف الحبل.

لويس، أعتقد أنه حان وقت الجدّ. فرصتك الأخيرة.

أنت محقّ. هذه فرصتي الأخيرة وتباً لي إن لم أستغلّها جيداً.

لفَّ أطراف الحبل حول يديه وسحَب. ارتفع المربع الأسمنتي بسهولة، مُحدِثاً صريراً على الطرف المحور، ووَقَف بشكلٍ مستقيمٍ أنيقٍ فوق مربع سوادٍ، وأصبح الآن شاهد قبر عمودياً وليس غطاء قبر أفقياً.

سحَب لويس الحبل إلى خارج الحلقات ورماه جانباً. لن يحتاج إليه للنصف الآخر؛ فبإمكانه الوقوف على جوانب الصندوق الأسمنتي ورفعه.

نزَل القبر مرة أخرى، متحرِّكاً بعناية لأنه لم يرغب أن يقلب اللوح الأسمنتي الذي رفعه من قبل ويهرس أصابع قدمَيه أو يكسر اللوح اللعين الذي كان رفيعاً جداً. سقط بعض الحصى في الحفرة، وسمِع العديد منها تخشخِش بصوت أجوف على تابوت غايدج.

انحنى وأمسك النصف الآخر للسطح العلوي للصندوق الأسمنتي وسحَب صعوداً. بينما كان يفعل ذلك، شعَر بشيء ينسحق ببرودة

تحت أصابعه. عندما انتهى من جعل النصف الثاني للسطح العلوي يقف على طرفه (أصبح النصفان الآن أشبه بمسندَين للكتب)، أخفَض نظره إلى يده ورأى دودة أرض بدينة تتلوّى عليها بضعف. بصرخةٍ مختنِقةٍ من القرف، مسَحها لويس على الجدار الجانبي الترابي لقبر إبنه.

ثم سلّط ضوء مشعله الكهربائي نزولاً.

ها هو التابوت الذي رآه لأخر مرة يستريح على مسندَي الكْروم فوق القبر خلال مراسم الجنازة، مُحاطاً بذلك العشب الاصطناعي الأخضر الشنيع. هذا كان صندوق الأمانات الذي يُفترَض به أن يدفن كل آماله لإبنه. غمره حنقٌ، صافٍ وحارٌّ حتى البياض، نقيض برودته السابقة. أبله! كان الجواب لا!

تلمَّس لويس بحثاً عن المسحاة وعثر عليها. رفعها فوق كتفه وأنزلها على مزلاج التابوت مرةً، مرتين، ثلاث مرات، ثم أربع. كانت شفتاه مشدودتين إلى الخلف في ابتسامة حانقة.

سأُخرجك يا غايدج، كن على ثقة!

تشظّى المزلاج من الضربة الأولى، ولم تكن الضربات الأخرى ضرورية على الأرجح، لكنه أكمل ضرباته، فهو لم يرغب أن يفتح التابوت فحسب، بل أن يؤذيه. استعاد بعض رجاحة عقله في النهاية، وتوقَّف عن الضرب والمسحاة مرفوعةً في الهواء.

أصبحت الشفرة ملتوية ومخدوشة. رمى المسحاة جانباً وخرجَ من القبر على رِجلين ضعيفتين مرتخيتين. شَعَر بغثيان في معدته، وزال الغضب عنه بنفس سرعة حلوله عليه. عادت البرودة لتحلّ مكانه، ولم يشعر أبداً في حياته أنه بهذه الوحدة والعزلة عن العالم؛ شَعَر كما لو أنه رائد فضاء عامَ بعيداً عن سفينته خلال نشاطٍ خارج المركبة الفضائية

وبدأ ينجرف الآن في السواد العظيم، يتنفّس وقتاً مُستعاراً. *هل شَعَر بيل باترمان هذا الشعور؟* تساءل.

استلقى على الأرض، على ظهره هذه المرة، منتظراً ليرى إن كان تحت السيطرة وجاهزاً للمتابعة. عندما زال شعور الارتخاء عن رِجليه، استوى جالساً ونزَل القبر مرة أخرى. سلَّط المشعل الكهربائي على المزلاج ورأى أنه لم يكن محطَّماً فحسب، بل مدمَّراً. لقد لوَّح المسحاة في حنقٍ أعمى، لكن كل ضربةٍ سدَّدها أصابته بشكل مباشر، كما لو أنها موجَّهة. تشظّى الخشب الذي حوله.

حشر لويس المشعل الكهربائي تحت إبطه. ثم قرفص قليلاً. راحت يداه تتلمَّسان، مثل يدَي ملتقِطٍ في فرقة لاعبي بهلونيات في سيرك، بانتظار أن تنفِّذ دورها في إرساءٍ مميتٍ.

وجَد الأخدود على الغطاء، وأقحمَ أصابعه فيه. توقف للحظة – لا يحق للمرء اعتبار ذلك تردّداً – ثم فتَح تابوت إبنه.

الفصل 50

كادت رايتشل كريد تقوم برحلتها من بوسطن إلى پورتلاند. كادت. فقد أقلعت طائرة شيكاغو على الوقت (أعجوبة بحدّ ذاتها)، وسُمح لها بالهبوط في لاغوارديا فوراً (أعجوبة أخرى)، وغادرت نيويورك متأخرةً خمس دقائق فقط عن موعدها. وصلت إلى البوابة في بوسطن متأخرةً خمس عشرة دقيقة – عند 11:12 مساءً. وهذا ترك لها ثلاث عشرة دقيقة.

كانت ستظل قادرة على أن تستقلّ رحلتها التالية، لكن حافلة الركاب التي تقوم بجولة على المحطات في مطار لوغان تأخرت. انتظَرت رايتشل، وقد أصبحت الآن في ذعرٍ طفيفٍ ثابتٍ، وراحت تنقّل نفسها من قدم إلى أخرى كما لو أنها تحتاج إلى دخول الحمّام، وتبدّل حقيبة السفر التي أقرضتها إياها أمها من كتف إلى أخرى.

عندما لم تأت الحافلة عند الساعة 11:25، بدأت تركض. كان كعب حذائها منخفضاً لكن عالياً كفاية ليسبّب لها مشاكل. التوى أحد كاحلَيها بشكل مؤلم، وتوقفت لمدة كافية لتخلع حذاءها. ثم راحت تركض على جاربَيها الطويلين، متجاوزةً شركتَي الطيران أليغيني وإيسترن، وبدأت تتنفّس بصعوبة الآن، مع شعورها ببداية ألم في جنبها.

كانت أنفاسها حارّة في حنجرتها، وتلك الثنية في خاصرتها تزداد عمقاً وألماً. مرّت الآن بجانب محطة إنترناشيونال، ورأت أمامها مباشرةً شعار دلتا المثلثيّ. اندفعت عبر الأبواب، وكادت تُوقع إحدى فردتَي حذاءها، لكنها التقطتها في آخر لحظة. كان الوقت 11:37.

رفَع أحد الموظفَين المناوِبين نظره إليها.

"الرحلة 104"، قالت لاهثةً. "رحلة پورتلاند. هل غادرت؟".

ألقى الموظف نظرة سريعة على الشاشة خلفه. "مكتوب أنها لا تزال عند البوابة"، قال، "لكنهم نادوا آخر نداء للصعود إلى الطائرة منذ خمس دقائق. سأتصل بهم. هل لديكِ أي حقائب لتسجيلها؟".

"لا"، لهَثَت رايتشل وهي تُبعد شعرها المبلَّل بالعرق عن عينيها. كان قلبها يعدو في صدرها.

"إذاً لا تنتظري أن أتصل بهم. سأتصل بهم – لكنني أنصحك أن تركضي بسرعة كبيرة".

لم تركض رايتشل بسرعة كبيرة – فلم تعد قادرةً على ذلك. لكنها ركضت بأسرع ما يمكنها. كان قد تم إيقاف تشغيل السُلَّم الكهربائي لفترة الليل، وصعدت السلالم بقوة، وهي تتذوَّق طعم نحاسٍ في فمها. وَصَلت إلى نقطة التفتيش الأمنية ورمت حقيبتها القماشية إلى الحارسة الجافلة، ثم انتظَرت خروجها على الحزام الناقل، وهي تشدّ يديها وترخيهما. بالكاد خرجت من حجرة الأشعة السينية حتى انتزَعتها بحزامها وراحت تركض مرة أخرى، والحقيبة تتطاير خلفها وتضربها على وركها.

رفعت نظرها إلى إحدى الشاشات بينما كانت تركض.

الرحلة 104 بورتلاند مقرَّرة 11:25م البوابة 31 يجري الصعود إلى الطائرة

كانت البوابة 31 عند الطرف البعيد للباحة – وحتى عندما اختلست النظر إلى الشاشة، تغيَّرت الحالة **يجري الصعود إلى الطائرة** بأحرف جامدة إلى **تغادر**، بأحرف وامضة بسرعة.

انفجرت صرخة إحباط منها، واستدارت امرأةٌ سوداء كانت ترفع إبنها ليشرب من نافورة المياه، جافلةً. دخلت منطقة البوابة في الوقت المناسب لكي ترى ناطور البوابة يزيل الأشرطة التي تقول: **الرحلة 104 بوسطن–بورتلاند 11:25**.

"هل أقلعت؟"، سألت بارتياب. "هل أقلعت *حقاً*؟".

نظَرَ إليها الناطور بودّ. "ابتعدت عن الجسر المتنقّل تمام 11:40. آسف يا سيدتي. لقد قمتِ بمحاولة جيدة، إذا كان هذا يواسيكي". أشار إلى النوافذ الزجاجية العريضة. استطاعت رايتشل رؤية طائرة 727 كبيرة عليها شعار دلتا، وأضواؤها الأمامية تومض بقوة، وتبدأ عملية إقلاعها.

"يا إلهي، ألم يُخبِركم أي شخص أنني آتية؟"، صاحت رايتشل.

"عندما اتصلوا من الطابق السفلي، كانت 104 على مدرَجٍ جانبيٍ نشطٍ. وإذا استدعيتُها لتعود، كانت ستعلق في الموكب الخارج إلى المدرَج 30، وعندها كان الطيّار سينصب لي مشنقتي. ناهيك عن الركاب المئة تقريباً الذين على متنها. آسف جداً. لو وصلتِ قبل ذلك بأربع دقائق فقط –"

ابتعَدت، دون أن تستمع إلى الباقي. كانت قد قطعت منتصف الطريق إلى نقطة التفتيش الأمنية عندما غمرتها أمواج من الغثيان. مشت باضطراب إلى منطقة بوابة أخرى وجلست إلى أن زالت الظلمة. ثم أعادت ارتداء حذائها، نازعةً أولاً عَقِب سيجارة مهروسة عن النعل الممزَّق لأحد جاربَيها الطويلين. *قدماي قذرتان ولا يهمّني*، فكّرت في سرّها بخاطر منكسر.

عادت إلى المحطة.

حدَّق فيها حارس الأمن بودّ. "فاتتك؟".

"أجل فاتتني"، قالت رايتشل.

"إلى أين كنتِ متوجِّهة؟".

"بورتلاند. ثم بانغور".

"حسناً، لماذا لا تستأجرين سيارةً؟ إذا كنتِ مضطرة أن تكوني

هناك حقاً؟ أنصح الناس عادة بفندق قريب من المطار، لكن إذا رأيتُ في حياتي سيدةً تبدو حقاً أنها مضطرة أن تكون هناك، فهي أنتِ".

"أنا تلك السيدة، صحيح"، قالت رايتشل. ثم فكَّرت بالاقتراح. "نعم، أظن أنه يمكنني فعل ذلك، أليس كذلك؟ إن كانت هناك سيارة لدى إحدى الوكالات".

ضحِك حارس الأمن. "آه، ستكون لديهم سيارات. المرة الوحيدة التي لا تكون لديهم سيارات في لوغان هي عندما يغرق المطار في الضباب. وهذا يحصل كثيراً".

بالكاد سمِعته رايتشل. فقد كان ذهنها قد بدأ يحاول احتساب المسألة.

لا يمكنها الوصول إلى پورتلاند في الوقت المناسب لتستقلّ رحلة بانغور حتى ولو قادت بسرعة انتحارية على الطريق الرئيسي. لذا كم تستغرق القيادة إلى هناك مباشرةً؟ هذا يعتمد على المسافة. أربعمئة كيلومتر هو الرقم الذي تبادر إلى ذهنها. ربما شيءٌ قاله جاد. ستكون الساعة قد أصبحت 12:15 على الأقل قبل أن تنطلق، والأرجح 12:30 صباحاً. الطريق بأكمله طريق رئيسي. شَعَرت أن احتمال قطعها المسافة كلها بسرعة مئة كيلومتر بالساعة دون أن يوقفها أي شرطي لسرعتها الزائدة كبيرٌ إلى حد معقول. احتسبت الأرقام بسرعة في ذهنها، لتقسم أربعمئة على مئة. حوالي أربع ساعات. ستضطر إلى التوقف لمرةٍ واحدةٍ لكي تدخل الحمّام. ورغم أن النوم بدا بعيداً إلى حد لا يُصدَّق الآن، إلا أنها تعرف مواردها بشكل جيد بما فيه الكفاية لتثق أنها ستضطر إلى التوقف أيضاً لتشرب كوب قهوة سوداء كبير. ومع ذلك ستكون قادرة على الوصول إلى لادلو قبل بزوغ الفجر.

أثناء تفكيرها ملياً بكل هذا، توجَّهت إلى السلالم – كانت

مكاتب تأجير السيارات تحت الباحات بطابق واحد.

"حظاً سعيداً يا عزيزتي"، صاح حارس الأمن. "انتبهي لنفسك".

"شكراً"، قالت رايتشل. شَعَرت أنها تستحق بعض الحظ السعيد.

الفصل 51

أصابته الرائحة أولاً، فارتَدَّ لويس، مختنقاً. وقف عند حافة القبر، وراح يتنفّس بصعوبة، وفقط عندما ظنَّ أنه استعاد السيطرة على حلقه، خرجت وجبة طعامه الكبيرة العديمة المذاق في فورةٍ متنافرةٍ. تقيأ على الجانب البعيد للقبر ثم وضع رأسه على الأرض، وهو يلهث. بعد أن زال الشعور بالغثيان أخيراً، كزَّ على أسنانه، وأمسك المشعل الكهربائي من تحت إبطه ووجَّه ضوءه نزولاً على التابوت المفتوح.

غمره رعب عميق يكاد يكون رهبةً تامةً تقريباً - كان من صنف الشعور المخصَّص عادة لأسوأ الكوابيس، للكوابيس التي بالكاد يمكنك أن تتذكَّرها عندما تستيقظ.

كان رأس غايدج قد اختفى.

بدأت يدا لويس ترتعشان بعنف لدرجة أنه اضطر أن يحمل المشعل الكهربائي بيديه الاثنتين، أن يُمسكه مثلما يتم تدريب الشرطي على إمساك مسدَّسه في حقل الرماية. ومع ذلك فقد بقي شعاع الضوء يرتجف يميناً ويساراً، واحتاج إلى بضع لحظات قبل أن يتمكن من إعادة تسليط الشعاع النحيل على القبر.

هذا مستحيل، قال لنفسه، *فقط تذكَّر أن ما ظننتَ أنك رأيتَه مستحيل.*

رفعَ الشعاع الضيق ببطء على طول غايدج البالغ متراً، من الحذاء الجديد إلى بنطلون البذلة، المعطف الصغير (آه، يا إلهي، لا يجب لأي طفل ذي سنتين أن يرتدي بذلةً)، إلى الياقة المفتوحة، إلى -

علقت أنفاسه في صوتٍ قاسٍ كان غاضباً جداً ليكون لهاثاً، وعاد إليه كل حنقه من موت غايدج في فورة خوف غامر من الظواهر

الخارقة، وازداد يقينه بأنه دخلَ دولة الجنون.

بحثَ لويس عن منديله في جيبه الخلفي وأخرجه. ثم مُمسكاً الضوء بيدٍ، انحنى إلى القبر مرة أخرى، وكاد يتجاوز نقطة توازنه. إذا سقطَ أحد أقسام الصندوق الأسمنتي الآن، فسيكسر له عنقه بالتأكيد. استخدَم منديله بلطف ليزيل الطحلب الرطب الذي كان ينمو على بشرة غايدج - طحلب داكن لدرجة أنه كاد يخدعه ويجعله يظنّ أن رأس غايدج اختفى بالكامل.

كان الطحلب رطباً لكن مجرد طبقة. كان عليه أن يتوقع ذلك؛ فقد أمطرت، والصندوق الأسمنتي لم يكن مانعاً للماء. ملوِّحاً ضوءه إلى الجهتين، رأى لويس أن التابوت يجلس في بركة ضحِلة. ورأى إبنه تحت طبقة الوحل الخفيفة. الحانوتيّ، مُدركاً أن التابوت لا يمكن فتحه بعد هكذا حادث فظيع، قام رغم ذلك بأفضل ما يستطيع - هكذا يفعل الحانوتيون تقريباً دائماً. فالنظر إلى إبنه كان أشبه بالنظر إلى دمية مصنوعة بشكل سيئ. فقد انتفَخ رأس غايدج في اتجاهات غريبة. وغارت عيناه عميقاً خلف جفنَين مُغلقين. ونتأ شيء أبيض من فمه مثل لسان الأمهق، وظنَّ لويس في البدء أنه قد يكون سائلاً ما. ربما أكثروا من استخدام مائع التحنيط. كانت المسألة حسّاسة في أفضل الأحوال، ومع ولدٍ كان من المستحيل تقريباً معرفة الكمية التي يمكن اعتبارها كافيةً... أو أكثر من اللازم.

ثم أدرَك أنه مجرد قطن. مدَّ يده وأخرجه من فم الفتى. انغلقت شفتا غايدج، الرخوتان بشكل غريب واللتان بدتا بطريقة ما داكنتين جداً وعريضتين جداً، مع صوت خفيف لكن مسموع لسائلٍ يرتطم بسطحٍ صلبٍ! رمى القطن في القبر حيث عامَ في البركة الضحِلة ولمَعت بلونٍ أبيض كريهٍ. بدا أحد خدَّي غايدج الآن مجوّفاً مثل خدّ عجوزٍ.

"غايدج"، همَس، "سأُخرجك الآن، اتفقنا؟".

صلّى ألا يأتي أحدٌ الآن، حارسٌ يقوم بجولة الساعة 12:30 في أرجاء المقبرة، أو شيء من هذا القبيل. لكن المسألة لم تعد مجرد خشية من أن يقبض عليه أحدهم؛ فإذا سطع عليه مشعل كهربائي لشخص آخر بينما يقف هنا في القبر وهو يؤدّي عمله الكالح، سيرفع المسحاة ذات الندوب ويُدخلها في جمجمة المتطفّل.

مرَّر ذراعيه تحت غايدج. تدلّت الجثة من جهة إلى أخرى كأنها خالية من العظام، وحلَّ عليه يقين مفاجئ مريع: عندما يرفع غايدج، ستتهشَّم جثته ولن تبقى لديه سوى قِطع. سيجد نفسه واقفاً بقدمَيه على جوانب الصندوق الأسمنتي مع القِطع، وهو يصرخ بأعلى صوته. وهكذا سيجدونه.

هيا أيها الجبان، هيا افعلها!

ثبَّت ذراعيه تحت غايدج، مُدركاً الرطوبة النتِنة، ورفعه بتلك الطريقة، مثلما كان يرفعه في أغلب الأحيان من مغطسه المسائي. تدلّى رأس غايدج إلى الخلف طول المسافة إلى وسط ظهره، واختنق لويس مرة أخرى عندما رأى طَوق الغُرَز المبتسمة التي أبقت رأس غايدج على كتفَيه.

لاهثاً، ومعدته متشنّجة من الرائحة ومن الملمس الرخو المنزوع العظام لجسم إبنه المحطَّم ببؤس، صارَع لويس الجثة ليُخرجها من التابوت. جلَس أخيراً على حافة القبر والجثة على حُضنه، وقدماه متدلّيتان في الحفرة، ووجهه بلونٍ شاحبٍ رهيبٍ، وعيناه ثُقبان أسودان، وفمه مشدود نزولاً في قوس مرتعش من الرعب والشفقة والحزن.

"غايدج"، قال وبدأ يؤرجح الفتى على ذراعيه. كان شعر غايدج على معصم لويس بلا حياة مثل سلكٍ. "غايدج، ستكون الأمور بخير،

أُقسِم يا غايدج، ستكون الأمور بخير، هذا سينتهي، هذا مجرد ليل، رجاءً يا غايدج، أحبك، بابا يحبّك".

راح لويس يؤرجح إبنه.

عند الثانية والرُبع، أصبح لويس جاهزاً ليغادر المقبرة. في الواقع، التعامل مع الجثة كان أسوأ ما في الأمر - تلك كانت النقطة التي بدا فيها أن رائد الفضاء الداخلي ذاك، ذهنه، يعوم إلى أبعد مسافة في الفراغ. رغم ذلك، وهو يستريح الآن، وظهره يؤلمه جداً وعضلاته المنهكة تقفز وترتعش، شَعَر أنه قد يكون ممكناً العودة. العودة بالكامل.

وَضَع جثة غايدج على القماش المشمَّع ولفّها. ثم أوثَقها بإحكام بواسطة قِطع طويلة من الشريط العريض، ثم قصَّ الحبل إلى قسمَين وربط طرفيه بشكل أنيق. مرة أخرى قد تكون معه سجادة ملفوفة، فقط لا غير. أغلَق التابوت، ثم بعد لحظات من التفكير، أعاد فتحه ووضع فيه المسحاة الملتوية. لتأخذ پليزنتفيو هذا الأثر التاريخي؛ لكنها لن تأخذ إبنه. أغلَق التابوت ثم أنزَلَ نصف السطح العلوي للصندوق الأسمنتي. فكَّر بمجرد إسقاط النصف الآخر لكنه خشي أن يتحطَّم. بعد التفكير لبرهة، مرَّر حزامه عبر الحلقات الحديدية واستخدَمه ليُنزل المربع الأسمنتي إلى مكانه بهدوء. ثم استخدَم المجرفة ليملأ الحفرة. لم تكن هناك تربة كافية لتعبئتها حتى مستوى الأرض من جديد. التربة غير كافية دائماً. قد يكون المنظر الغائر للقبر ملفتاً للنظر. لكنه قد يلفت النظر ثم يتجاهله الناظر. لن يسمح لنفسه بأن يفكِّر في هذه المسألة، أو يقلق بشأنها هذه الليلة - لا يزال الكثير بانتظاره. المزيد من العمل الشرس. وكان مُتعَباً جداً.

يا مَن هنا، هيا بنا.

"بالفعل"، تمتم لويس. هبّت الرياح، وزعقت قليلاً في الأشجار، وجعلته ينظر حوله بانزعاج. وضع المجرفة، والمِعول الذي سيستخدمه لاحقاً، والقفازات، والمشعل الكهربائي بجانب الحزمة. شَعَر برغبة قوية باستخدام الضوء، لكنه قاوَمها. تاركاً الجثة والأدوات، سار لويس على المسار الذي جاء منه ووصل إلى السور الحديدي بعد حوالي خمس دقائق. هناك، عند الجانب المقابل للشارع، كانت سيارته السيفيك، مركونةً بشكل أنيق عند حافة الرصيف. قريبة جداً لكن بعيدة جداً.

نظَرَ إليها لويس للحظة ثم استدار وسار في اتجاه مختلف.

هذه المرة ابتعَد عن البوابة، وراح يسير على طول السور الحديدي إلى أن ابتعد عن شارع مايسون عند زاوية قائمة مُتقَنة. كان هناك خندق تصريف المياه، ونظرَ لويس إلى داخله. ما رآه جَعَله يرتجف. كانت هناك كتل زهور متعفِّنة، طبقة تلو الأخرى، جرفتها فصولٌ من المطر والثلج.

يا للهول.

أوز الكبيل واللهيب.

راح لويس يحدِّق في الخندق كما لو أنه منوَّم مغنطيسياً. أشاح بنظره أخيراً وهو يلهث قليلاً - لهاث شخصٍ استعاد رشده، أو استُدعي من نشوة مبهورٍ بالرقم الأخير في عدٍّ إلى عشرة.

أكمل سيره. لم يسر بعيداً قبل أن يجد ما كان يبحث عنه، وشكَّ أن يكون ذهنه قد خزَّن هذه المعلومة يوم دفن غايدج.

هنا، يلوح في الظلمة العاصفة، كان سرداب المقبرة.

تُخزَّن التوابيت هناك في الشتاء عندما يكون الطقس بارداً جداً حتى للجرّافات أن تحفر في التربة المتجمِّدة. كما يُستخدَم السرداب عندما تكون وتيرة العمل مرتفعة - نوعٌ من التخزين البارد للأشخاص.

كانت ترتفع وتيرة ما كان العمّ كارل يسمّيه أحياناً "عادة البرد"؛ ففي أي منطقة سكنية، تمرّ أوقاتٌ يموت فيها عدد كبير من الأشخاص بدون أي سبب يستطيع أي شخص فهمه.

"الأمور تتوازن دائماً"، أخبَره العمّ كارل. "إذا مرَّ أسبوعان في مايو لم يمت خلالهما أحدٌ يا لُو، يمكنني الاتكال على فترة أسبوعين في نوفمبر يُطلب مني خلالها إجراء عشر جنازات. لكن ذلك نادر في نوفمبر، ولا يحصل أبداً في فترة احتفال الشتاء، رغم أن الناس يظنون دائماً أنها الفترة التي يموت فيها الكثير من الأشخاص. وكل الكلام عن الإحباط خلال فترة احتفال الشتاء هو مجرد هراء. فقط اسأل أي حانوتيّ. معظم الأشخاص سعداء حقاً في فترة احتفال الشتاء، ويريدون أن يعيشوا. لذا يعيشون. فبراير عادة هو الذي يشهد انتفاخاً كبيراً. الإنفلونزا تقضي على الكبار في السنّ، وهناك الالتهاب الرئوي بالطبع – لكن هذا ليس كل شيء. سيكون هناك أشخاص يكافحون السرطان كأوغاد مجنونين طوال سنةٍ، أو ستة عشر شهراً. ثم يحلّ فبراير الشرير ويبدو كما لو أنهم تعبوا، فيلفّهم السرطان مثل سجادةٍ. يكونون في هَدأة يوم 31 يناير، ويشعرون كما لو أنهم معافون صحياً. لكنهم يُزرَعون في 24 فبراير. يُصاب الناس بنوبات قلبية في فبراير، سكتات دماغية في فبراير، فشل كَلَوي في فبراير. إنه شهر سيئ. الناس يتعبون في فبراير. نحن معتادون على ذلك في مهنتنا. لكن فجأة، وبدون أي سبب، يحصل الشيء نفسه في يونيو أو أكتوبر. لا يحصل أبداً في أغسطس. أغسطس شهر بطيء. فإذا لم ينفجر أنبوب غاز رئيسي أو تسقط حافلةٌ عن جسرٍ، لن يمتلئ سرداب المقبرة في أغسطس أبداً. لكن مرَّت علينا عدة أشهر فبراير كدَّسنا فيها النعوش على ارتفاع ثلاثة صفوف، آملين من كل قلبنا أن يذوب الثلج سريعاً لكي نتمكن من

زرع بعضهم قبل أن نضطر إلى استئجار شقة لعينة".

ضحِك العمّ كارل. وكذلك ضحِك لويس، بعد شعوره بالاطلاع على سر لا يعرفه حتى أساتذته في كلية الطب.

كانت الأبواب المزدوجة للسرداب تقع على تلة عشبية ذات شكل طبيعي جذّاب مثل أناقة صدر المرأة. تتواجد تلك التلة (التي شكَّ لويس أنها من صنع الإنسان وليست طبيعية) رُبع أو نصف متر فقط تحت رؤوس السهام الزخرفية للسور الحديدي، الذي بقي مستوياً عند أعلاه بدلاً من الصعود.

ألقى لويس نظرة سريعة حوله، ثم صعد المنحدر. رأى على الجهة الأخرى قطعة أرض مربعة فارغة، ربما مساحتها الإجمالية فدانين. لا... لم تكن فارغة تماماً. كان هناك بناءٌ ملحقٌ واحدٌ، مثل حظيرة منفصلة. *يخصّ المقبرة على الأرجح*، فكّر لويس في سرّه. ربما يضعون معدّاتهم الأرضية هناك.

سطعت أعمدة الإنارة عبر الأوراق المتحرّكة لحزامٍ من الأشجار – أشجار دردار وقيقب قديمة – كان يحجب هذه الناحية عن شارع مايسون. لم ير لويس أي حركة أخرى.

انزلق عائداً على عَقِبه، بسبب خوفه من أن يسقط ويعيد جرح ركبته، وعاد إلى قبر إبنه. كاد يتعثّر بلفّة القماش المشمَّع. رأى أنه سيحتاج إلى القيام برحلتين، واحدة مع الجثة وأخرى مع الأدوات. انحنى، وكشَّر من احتجاج ظهره، وحمل اللفّة القماشية المشدودة على ذراعيه. استطاع أن يشعر بتحرّك جثة غايدج داخها، وتجاهَل بعزمٍ ذلك الجزء من ذهنه الذي بقي يهمس له أنه فَقَد صوابه.

حَمَل الجثة إلى التلة التي تتضمن سرداب پليزنتفيو ببابيه المتحرِّكين الفولاذيين (جعلا منظره الغريب يبدو مثل مرأبٍ لسيارتين). رأى ما

الذي عليه فعله إذا كان سيُصعِد حزمته ذات العشرين كيلوغراماً على المنحدر المرهِق الآن بعدما زال حبله (تمنّى لو لم يقصّه) وتحضَّر ليفعله. تراجع إلى الوراء ثم ركَض نحو المنحدر، وهو يميل إلى الأمام لكي يساعده اندفاعه على قطع أطول مسافة ممكنة. وصل إلى القمة تقريباً قبل أن تنزلق قدماه من تحته على العشب القصير الزلق، وقَذَف اللفّة القماشية بأقصى ما يمكنه وهو يسقط. حطَّت عند أعلى التلة تقريباً. صعد بقية المسافة متعثّراً، ونظر حوله مرة أخرى، ولم ير أحداً، ووضع الحزمة الملفوفة بقطعة القماش عند السور. ثم عاد ليُحضر بقية أغراضه.

بلغَ أعلى التلة مرة أخرى، فارتدى القفازات، وكوَّم المشعل الكهربائي والمِعول والمجرفة بجانب اللفّة القماشية. ثم استراح، مُسنداً ظهره على قضبان السور، واضعاً يديه على رُكبتَيه. أبلغته الساعة الرقمية الجديدة التي أهدته إياها رايتشل في احتفال الشتاء أنها 2:01 الآن.

أعطى نفسه خمس دقائق ليستجمع قواه ثم رمى المجرفة فوق السور. سمِع ارتطامها بالعشب. حاوَل أن يحشر المشعل الكهربائي في بنطلونه، لكنه لم يتّسع فيه. مرَّره بين قضيبين من القضبان الحديدية واستمَع له يتدحرج إلى أسفل التلة، على أمل ألا يصطدم بحجر وينكسر. تمنّى لو أنه أحضر حقيبة ظهر معه.

أخرجَ الآن موزِّع الشريط اللاصق من جيب سترته وربط المِعول باللفّة القماشية عبر لفّ الشريط وشدّه حول رأسه ومقبضه المعدني. بقي يفعل ذلك إلى أن فرُغ الشريط لديه، ثم طوى الموزِّع الفارغ وأعاده إلى جيبه. حملَ الحزمة ورفعها فوق السور (صَرَخ ظهره احتجاجاً؛ شَعَر أنه سيدفع ثمن هذه الليلة طوال الأسبوع المقبل) ثم أفلتها، جافلاً من صوت ارتطامها الناعم.

لوَّح الآن إحدى رِجليه فوق السور، مُمسكاً اثنين من رؤوس

السهام الزخرفية، ولوَّح رِجله الأخرى فوقه. انزلَق إلى أسفل، وهو يضغط على التربة بين قضبان السور بطرفَي حذائه، ونزل إلى الأرض.

شقَّ طريقه نزولاً إلى الجهة البعيدة للتلة وراح يتلمَّس بين العشب. وجَد المجرفة فوراً – صامتةً مثل توهُّج أعمدة الإنارة عبر الأشجار، وعاكسةً بريقاً باهتاً من شفرتها. مرَّت عليه لحظات سيئة عندما لم يتمكن من إيجاد المشعل الكهربائي – كم يمكن أن يكون قد تدحرج في هذا العشب؟ نزَل على يديه ورُكبتَيه وراح يتلمّس بين الأجمة الكثيفة، وهو يسمع أنفاسه ونبضات قلبه الصاخبة في أذنيه.

لمحه أخيراً، ظلٌّ أسود رفيعٌ على بُعد متر ونصف تقريباً من المكان الذي توقَّع أن يجده فيه؛ مثل التلة التي تحجب سرداب المقبرة، اعتيادية شكله فضحت أمره. أمسَكه، وكوَّر يده فوق عدسته الملبَّدة، وضغط الحلمة المطاطية الصغيرة التي تُخفي زره. أُضيئت راحة يده لبرهة، ثم أطفأه لويس. كان المشعل الكهربائي سليماً.

استخدَم سكين جيبه ليحرِّر المِعول من اللفّة القماشية، وأخذ الأدوات عبر العشب إلى الأشجار. وَقَف خلف أكبرها، وراح ينظر في الاتجاهين على شارع مايسون. كان مهجوراً تماماً الآن. رأى ضوءاً واحداً فقط في الشارع كله – مربع نور أصفر ذهبي في غرفةٍ في طابق علوي. مُصاب بالأرق، على الأرجح، أو مريض.

متحرِّكاً بسرعة لكن دون أن يركض، خرَج لويس إلى الرصيف. بعد عتمة المقبرة، شَعَر أنه مكشوف بشكل رهيب تحت أعمدة الإنارة؛ ها هو يقف، على بُعد أمتار فقط من ثاني أكبر مقبرة في بانغور، حاملاً مِعولاً ومجرفةً ومحتضِناً مشعلاً كهربائياً على ذراعيه. إذا رآه أحدهم الآن، لن يجد صعوبة كبيرة في فهم ماذا كان يفعل.

اجتاز الشارع بسرعة، وكعباه يُصدران صوت نقر. ها هي سيارته

السيفيك، على بُعد خمسين متراً فقط في آخر الشارع. بدت المسافة للويس وكأنها خمسة كيلومترات. سار نحوها وكل جسمه مبللاً بالعرق، وكل حواسه متيقّظة لسماع صوت محرِّك سيارة يقترب، أو وقع قدمَين غير قدمَيه، أو ربما صرير نافذة تُفتح في مكان ما.

وصل إلى الهوندا، وأسندَ المِعول والمجرفة على جانبها، وبحَث عن مفاتيحه بارتباك - لم يجدها، في أي جيب. بدأ عرق حديث يسيل على وجهه، وبدأ قلبه يركض مرة أخرى، وكزَّ على أسنانه من الذعر الذي أراد أن يتحرَّر من داخله.

لقد أضاعها، على الأرجح عندما هبط من طرف الشجرة، وارتطمت ركبته بشاهد القبر، وتدحرَج أرضاً. كانت مفاتيحه مستلقية في مكان ما على العشب، وإذا كان قد وجد صعوبة في إيجاد مشعله الكهربائي، كيف يستطيع أن يأمل باسترجاع مفاتيحه؟ لقد انتهى كل شيء. حظ سيئ واحد وانتهى كل شيء.

انتظر لحظة، انتظر لحظة لعينة. ابحث في جيوبك مرة أخرى. الفكّة هناك - وإذا كانت الفكّة لم تسقط، فهذا يعني أن مفاتيحك لم تسقط أيضاً.

بحث في جيوبه بشكل أبطأ هذه المرة، مُخرجاً الفكّة، وحتى قلبَ داخل جيوبه إلى الخارج.

لا مفاتيح.

اتكأ لويس على السيارة، وراح يتساءل ماذا سيفعل الآن. افترَض أن عليه أن يعيد التسلّق. يترك إبنه حيث كان، يأخذ المشعل الكهربائي، يعيد التسلّق، ويُمضي بقية الليل في بحثٍ غير مثمرٍ عن -

لمعت فكرةٌ فجأة في ذهنه المُتعَب.

انحنى وحدَّق داخل السيفيك. ها هي مفاتيحه متدلّية من مفتاح

الإشعال.

فرَّت نخرةٌ هادئةٌ منه، ثم رَكَض إلى جهة السائق، فتح الباب بسرعة، وأخرَجَ المفاتيح. سمِع في ذهنه فجأة الصوت السلطوي لتلك الشخصية الأبوية القدوة المتجهِّمة كارل مولدن، صاحب الأنف الأحمر من كثرة تناول الشراب والقبعة القديمة ذات الحرف المزدوج: *اقفل سيارتك. خذ مفاتيحك. لا تساعد فتى مؤدَّباً على أن يصبح شقياً.*

ذهَب إلى الجهة الخلفية للسيفيك وفتح الصندوق. وَضَع المِعول والمجرفة والمشعل الكهربائي، ثم أغلقه. كان قد خطا عشرين أو ثلاثين خطوة على الرصيف عندما تذكَّر مفاتيحه. لقد ترَكها متدلّية من قفل الصندوق هذه المرة.

غبي! قال موبِّخاً نفسه. *إذا كنتَ ستتصرَّف بهذا الغباء اللعين، من الأفضل لك أن تنسى العملية بأكملها!*

عاد وأحضَر مفاتيحه.

كان قد حمل غايدج على ذراعيه وقطعَ معظم المسافة عائداً إلى شارع مايسون عندما بدأ كلبٌ ينبح في مكان ما. لا - لم يبدأ بالنباح للتو. بدأ يعوي، وقد ملأ صوته الفظّ الشارع. *عوووووو! عوووووووو!*

وَقَف خلف إحدى الأشجار، وتساءل ماذا يمكن أن يحصل بعد، تساءل ماذا يمكنه أن *يفعل* الآن. وَقَف هناك يتوقع اشتعال الأضواء في كل الشارع.

في الواقع، ضوء واحد فقط اشتعلَ، في منزلٍ يقع في الجهة المقابلة لمكان وقوف لويس في الظلال. بعد لحظة صاح صوت أجش، "اصمت يا فْرَد!".

عووووووو! أجاب فْرَد.

"أَسكِته يا سكانلون، وإلا فسأتصل بالشرطة!"، صاح شخصٌ من الجهة التي كان لويس يقف عندها، مما أجفله، وجعله يُدرِك كم هو مخادع وهمُ الفراغ. فقد كان هناك أشخاص يحيطون به من كل حدب وصوب، مئات العيون، وكان ذلك الكلب يهاجم النوم، صديقه الوحيد. *تباً لك يا فْرد*، فكَّر في سرّه. *آه، تباً لك*.

بدأ فْرَد جولة أخرى؛ لكن قبل أن يستطيع إكمال عوائه، سمع لويس صوت ضربة عنيفة تلتها سلسلة تذمُّرات ونباح منخفضة.

ثم ساد الصمت بعد خبطة خفيفة لبابٍ. بقي الضوء الذي على جهة منزل فْرَد مُضاءً للحظات، ثم انطفأ.

شَعَر لويس بمَيل شديد لأن يبقى في الظلال، أن ينتظر؛ بالتأكيد سيكون من الأفضل الانتظار إلى أن تهدأ الجَلَبة. لكن الوقت قصير.

"هيا بنا"، تمتمَ وانطلق.

اجتاز الشارع حاملاً حزمته وعاد إلى السيفيك، دون أن يرى أي أحد. لقد لزِم فْرَد الصمت. أمسَك حزمته بيدٍ، ومفاتيحه باليد الأخرى، وفتح صندوق السيارة.

لن يتّسع غايدج فيه.

حاوَل لويس وضع الحزمة عمودياً، ثم أفقياً، ثم قطرياً. صندوق السيفيك صغير جداً. بإمكانه لَيّ الحزمة وحشرها هناك - غايدج لن يمانع - لكن لويس لم يستطع أن يُجبِر نفسه على فعل ذلك.

هيا، هيا، هيا نخرج من هنا، دعنا لا نغامر أكثر من هذا.

لكن لم تعد لديه أي أفكار، فالحزمة التي على ذراعيه تحتوي على جثة إبنه. ثم سمِع صوت سيارة تقترب، ومن دون أي تفكير حقاً، أخذ الحزمة إلى جهة الراكب، وفتح الباب، ووضع الحزمة على المقعد، مع ثنيها عند الأماكن التي اعتبر أن رُكبتَي غايدج وخصره ستكونان عندها.

أغلق الباب، ورَكَض إلى الجهة الخلفية للسيفيك، وأغلق صندوقها.

سمِع لويس صيحات أصوات ثملة، فأسرع ليجلس خلف المِقوَد، وشغَّل محرّك سيارته، ومدَّ يده إلى زر الضوء الأمامي عندما خطرت بباله فكرة رهيبة. ماذا لو كان غايدج يجلس عكسياً، وبالتالي طُويت مفاصل رُكبتَيه ووركه في الاتجاه الخطأ، وعيناه الغائرتان تنظران إلى النافذة الخلفية وليس إلى الزجاج الأمامي؟

لا يهمّ، أجابه ذهنه بحنقٍ حادٍّ نابعٍ من الإرهاق. *هلاّ استوعبتَ هذا في ذهنك؟ لا يهمّ!*

لكنه يهمّ. يهمّ حقاً. فهذا غايدج في الداخل، وليس حزمة مناشف!

مدَّ يده وراح يضغطها بلطف على قطعة القماش المشمَّع، متلمّساً الكفافات تحتها. بدا كأنه رجل أعمى يحاول تحديد الغرض الذي يلمسه. وصل أخيراً إلى نتوءٍ لا يمكن إلا أن يكون أنف غايدج - موجَّهاً في الاتجاه الصحيح.

فقط عندها استطاع أن يُجبِر نفسه على تعشيق السيفيك وبدء رحلة الخمس وعشرين دقيقة إلى لادلو.

الفصل 52

عند الساعة الواحدة في ذلك الفجر، رنَّ هاتف جاد كراندال بقوة في المنزل الفارغ، مما أيقظه. كان يحلم في كبوته، ورأى في حلمه أنه عاد في الثالثة والعشرين من جديد، وكان جالساً على مقعدٍ في كوخ تبديل السكك الحديدية مع جورج تشابين ورينيه ميشو، وثلاثتهم يتبادلون زجاجة شراب اسكتلندي جورجيا تشارجر - زجاجة شراب غير شرعي عليها طابع إيرادات - بينما العاصفة في الخارج تفجِّر غضبها على العالم، وتكتُم صوت كل شيء يتحرَّك، بما في ذلك عربات القطارات. لذا جلَسوا يشربون حول جهاز التقطير ذي الكرش، ويراقبون التوهُّج الأحمر للفحم يتبدَّل ويتغيَّر خلف البلّور الغائم، مُلقياً ظلال لهب على شكل ألماس على الأرض، ويروون القصص التي يخبئها الرجال داخلهم لسنواتٍ مثل الكنوز الخردة التي يخبئها الفتيان تحت أسرّتهم، القصص التي يخزّنونها لهكذا ليالٍ. مثل توهُّج جهاز التقطير، كانت تلك القصص داكنة وفي وسطها توهُّج أحمر والرياح تغلّفها. كان في الثالثة والعشرين، وكانت نورما نابضة بالحياة (رغم أنها في السرير لوحدها الآن، بلا شكّ؛ لن تتوقّعه أن يعود إلى المنزل في هذا الليل الشرس)، وكان رينيه ميشو يروي قصةً عن بائع متجوّل في باكسبورت -

عندها بدأ الهاتف يرنّ وارتعَش على كرسيه، جافلاً من التصلّب في عنقه، وشَعَر بثقل كريه يسقط عليه مثل صخرة - كان، فكَّر في سرّه، كما لو أن كل تلك السنوات بين سنّه الثالثة والعشرين وسنّه الثمانين، بكل سنواتها السابعة والخمسين، سقطت عليه دفعةً واحدةً. وفكَّر أيضاً في أعقاب ذلك: *كنتَ نائماً يا فتى. لا توجد أي إمكانية لكي تُدير هذه السكة الحديدية... ليس الليلة.*

نهض، ضاغطاً على نفسه ليقف بشكل مستقيم رغم التصلّب الذي أصاب ظهره أيضاً، وتوجَّه نحو الهاتف.

كانت رايتشل.

"جاد؟ هل عاد إلى المنزل؟".

"لا"، قال جاد. "رايتشل، أين أنتِ؟ يبدو صوتك أقرب".

"أنا أقرب"، قالت رايتشل. ورغم أن صوتها *بدا* أقرب بطريقة ما، إلا أنه كانت هناك همهمة بعيدة على السلك. كان صوت الرياح، في مكان ما بين هنا وأينما كانت. كانت الرياح عاتية هذه الليلة. ذلك الصوت الذي يذكِّر جاد دائماً بأصوات الموتى، يتنهَّدون في جوقةٍ، يغنّون شيئاً ربما بعيداً قليلاً لكي يمكن تمييزه. "أنا في استراحة في بيدفورد على طريق ماين الرئيسي".

"بيدفورد!".

"لم أستطع أن أبقى في شيكاغو. كان يصيبني أنا أيضاً... مهما يكن ما أصاب إيليه، كان يصيبني أنا أيضاً. وتشعر به. في صوتك".

"نعم". أخرَج سيجارة تشسترفيلد من علبته ووضعها في زاوية فمه. أشعلَ عود ثقاب خشبي وراقَبه يترجرج بسبب ارتعاش يده. لم ترتعش يداه؛ ليس قبل أن يبدأ هذا الكابوس على أي حال. في الخارج، سمِع هبوب الرياح الداكنة تلك. أمسكت المنزل بيدها وهزَّته.

الطاقة تزداد. يمكنني الشعور بذلك.

رعب قاتم في عظامه الهرِمة. كان مثل الزجاج المغزول، رفيع وسريع العطب.

"جاد، أخبرني رجاءً ما الذي يجري!".

افترَض أن لديها الحق بأن تعرف – الحاجة لأن تعرف. وافترَض أنه سيُخبِرها. سيُخبِرها القصة بأكملها في نهاية المطاف. سيبيِّن لها

السلسلة التي صيغَت حلقةً حلقة. نوبة نورما القلبية، موت القط، سؤال لويس – هل دفن أحدهم *شخصاً* هناك؟ – موت غايدج... والله أعلم أي حلقة ربما يصيغها لويس الآن. سيُخبِرها في نهاية المطاف. لكن ليس عبر الهاتف.

"رايتشل، كيف يصدف أنكِ على الطريق الرئيسي وليس على متن طائرة؟".

شرَحت له كيف فاتتها الرحلة في بوسطن. "استأجرتُ سيارةً من أڤيس، لكنني لا أعوِّض الوقت مثلما ظننتُ. لقد تهتُ قليلاً وأنا آتية من لوغان نحو الطريق الرئيسي، ولم أصل إلا إلى ماين. لا أعتقد أنني أستطيع الوصول إلى هناك قبل الفجر. لكن يا جاد... رجاءً. أخبرني رجاءً ما الذي يجري. أنا خائفة جداً، ولا أعرف حتى *السبب*".

"اسمعيني يا رايتشل"، قال جاد، "قودي إلى پورتلاند وباتي ليلتك هناك، هل تسمعينني؟ اذهبي إلى فندق صغير هناك و –"

"جاد، لا يمكنني فعل –"

"– ونامي قليلاً. لا تقلقي يا رايتشل. هناك شيء قد يحدث هنا هذه الليلة، أو قد لا يحدث. إذا حدث – وكان ما أعتقده – فلن تريدي أن تكوني هنا على أي حال. يمكنني الاهتمام بالأمر، أعتقد. من الأفضل لي أن أكون قادراً على الاهتمام به لأن ما قد يحدث هو ذنبي. وإذا لم يكن شيء يحدث، فاحضري إلى هنا بعد ظهر اليوم، ولا بأس بذلك. أظن أن لويس سيكون مسروراً حقاً من رؤيتك".

"لا يمكنني النوم هذه الليلة يا جاد".

"نعم"، قال وهو يفكِّر أنه ظنَّ الشيء نفسه. "نعم، يمكنك. رايتشل، إذا كبَوتِ خلف مِقوَد تلك السيارة المستأجرة اللعينة وانحرفتِ عن الطريق وقتلتِ نفسك، ماذا سيحصل للويس عندها؟ وإيليه؟".

"أخبرني ما الذي يجري! إذا أخبرتني ذلك يا جاد، ربما سآخذ بنصيحتك. لكن عليَّ أن *أعرف*!".

"عندما تصلين إلى لادلو، أريدك أن تأتي إلى هنا"، قال جاد. "وليس إلى منزلك. تعالي إلى هنا أولاً. سأُخبِرك كل شيء أعرفه يا رايتشل. وأنا أترقّب عودة لويس".

"*أخبرني*"، قالت.

"لا يا سيدتي. ليس عبر الهاتف. لن أفعل ذلك. رايتشل، *لا أستطيع*. أكملي طريقك الآن. قودي إلى پورتلاند ونامي قليلاً".

ساد صمت طويل.

"حسناً"، قالت أخيراً. "لقد وجدتُ صعوبة في إبقاء عينيَّ مفتوحتين. ربما أنت محقّ. جاد، أخبرني شيئاً واحداً. أخبرني مدى سوء الأمر".

"يمكنني تولّيه"، قال جاد بهدوء. "الأمور ساءت بالقدر الذي ستسوء به".

في الخارج، ظهرت الأضواء الأمامية لسيارةٍ تسير ببطء. نهض جاد جزئياً، راقبها، ثم عاد وجلس عندما أسرعت متجاوزةً منزل عائلة كريد واختفت عن الأنظار.

"حسناً"، قالت. "أظن. بدت بقية هذه القيادة كصخرة على رأسي".

"دعي الصخرة تتدحرج عنك يا عزيزتي"، قال جاد. "رجاءً. وفّري نفسك للغد. ستكون الأمور بخير هنا".

"هل تعِدُني أنك ستُخبِرني القصة كلها؟".

"نعم. سنتناول شراب شعير وأُخبِرك كل شيء".

"وداعاً إذاً"، قالت رايتشل، "في الوقت الحاضر".

"في الوقت الحاضر"، وافَق جاد. "سأراكِ غداً يا رايتشل".
قبل أن تتمكن من قول أي شيء آخر، أغلق جاد الهاتف.

اعتقَد أنه توجد حبوب كافيين في خزانة الأدوية، لكنه لم يتمكن من إيجادها. أعاد وضع بقية شراب الشعير في البرّاد – ليس من دون ندم – واكتفى بكوب قهوة سوداء. أخذه إلى نافذة الخليج وجلس مرة أخرى، وراح يرشف ويراقب.

القهوة – والمحادثة مع رايتشل – أبقته مستيقظاً ومتيقّظاً لثلاثة أرباع الساعة، لكنه بدأ ينكس رأسه مرة أخرى.

لا نوم خلال الحراسة أيها العجوز. لقد تركتَه ينال منك؛ لقد اشتريتَ شيئاً، وعليك الآن دفع ثمنه. لذا لا نوم خلال الحراسة.

أشعلَ سيجارةً جديدةً، وأخذ نَفَساً عميقاً، وسعَلَ السعال الأجش لعجوزٍ. وَضَع السيجارة على أخدود المنفضة وفرَك عينيه بيديه. في الخارج، مرَّت شاحنة ذات عشر عجلات مسرعةً، وأضواؤها الأمامية ساطعة، تخترق الليل العاصف المضطرب.

قبض على نفسه يكبو من جديد، فجفل مستيقظاً، وصفَع نفسه على وجهه، براحة يده وظاهر يده، مما جعل أذنيه ترنّان. الآن استيقظ الرعب في قلبه، زائرٌ متخفٌّ اقتحَم ذلك المكان السري.

يدفعني إلى النوم... ينوّمني مغنطيسياً... شيءٌ. لا يريدني مستيقظاً. لأنه سيعود قريباً جداً. أجل، أشعر بذلك. ويريدني بعيداً.

"لا"، قال بتجهّم. "لا مجال أبداً. أتسمعني؟ سأضع حداً لهذا. لقد تمادى هذا الأمر كفايةً".

انتحَبت الرياح حول طُنُف السقف، وهزَّت الأشجار على الجهة الأخرى للطريق أوراقها في أنماط منوِّمة مغنطيسياً. عاد ذهنه إلى تلك

الليلة حول موقد جهاز التقطير في كوخ تبديل السكك الحديدية، الذي كان قائماً تماماً حيث يتواجد سوق أثاث إيفارتس في برُوْور الآن. بقوا يتكلَّمون الليل بطوله، هو وجورج ورينيه ميشو، وكان الوحيد الباقي الآن؛ سُحقَ رينيه بين عربتَي نقل في ليلة عاصفة في مارس 1939، وجورج تشابين مات من نوبة قلبية العام الماضي. كان الوحيد الباقي من كثيرين، والقدامى يصبحون أغبياء. الغباء يتنكّر أحياناً في زيّ لطفٍ، وأحياناً في زي افتخارٍ - حاجةٌ لكشف أسرارٍ قديمةٍ، لنقل أمور إلى الآخرين، للصَبّ من إناء قديم إلى إناء جديد، لـ ...

إذاً دخل البائع المتجوّل وقال معي شيءٌ لم تروه في حياتكم أبداً من قبل. هذه البطاقات البريدية، تبدو فقط مثل نساء يرتدين أثواب سباحة إلى أن تفركها بقطعة رطبة، ثم -"

نكس جاد رأسه. واستقرّ ذقنه ببطء، بلطف، على صدره.

"- ثم يصبحنَ عاريات مثل اليوم الذين وُلدنَ فيه! لكن عندما تنشف، تعود الملابس! وهذا ليس كل شيء! معي -"

رينيه يروي هذه القصة في كوخ تبديل السكك الحديدية، منحنياً إلى الأمام، مبتسماً، ويرفع جاد الزجاجة - يشعر بالزجاجة وتنقبض يده حولها في الهواء الرقيق.

في المنفضة، أصبح الرماد على طرف سيجارة العجوز أطول. أخيراً مالت السيجارة إلى الأمام في المنفضة وانطفأت، وذكَّر شكلها في لفّة الرماد المُتقَنة بحرف رّوني.

نام جاد.

وعندما وَمَضت الأضواء الخلفية في الخارج وقاد لويس سيارته الهوندا سيفيك إلى ممره الخاص بعد حوالي أربعين دقيقة وأَدخلها في المرأب، لم يسمع جاد، أو يتحرَّك، أو يستيقظ.

الفصل 53

وجَد لويس شريطاً لاصقاً جديداً في أحد جوارير المطبخ، وكانت هناك لفّة حبل في زاوية المرأب بالقرب من عجلات الثلج للشتاء الفائت. استخدَم الشريط ليربط المِعول والمجرفة ببعضهما في حزمة مُتقَنة، واستخدَم الحبل ليصنع ما يشبه المقلاع.

الأدوات في المقلاع. غايدج على ذراعيه.

رمى المقلاع فوق ظهره، ثم فتح باب الراكب في السيفيك، وأخرَج الحزمة. كان غايدج أثقل بكثير من تشرش. والأرجح أنه سيكون قد بدأ يزحف حين يوصل إبنه إلى مقبرة الميكماك - وسيبقى عليه أن يحفر القبر، في عراكٍ مع تلك التربة الصخرية غير المتسامحة.

حسناً، سيتمكن من إنجاز المهمة. بطريقة أو بأخرى.

خرَج لويس كريد من مرأبه، وتوقف ليُطفئ زر الضوء بمِرفقه، ثم وَقَف للحظة عند المكان الذي يستسلم فيه الأسفلت للعشب. يمكنه أن يرى أمامه المسار الذي يقود إلى مقبرة الحيوانات بشكل جيد بما فيه الكفاية رغم الظلمة؛ فالمسار، بعشبه القصير، يتوهَّج بنوعٍ من التلألؤ.

راحت الرياح تدفع وتمرِّر أصابعها في شعره، وللحظةٍ غمره الخوف الطفولي القديم من الظلمة، مما جعله يشعر أنه ضعيف وصغير ومرتعب. هل سيدخل الغابة حقاً وهذه الجثة على ذراعيه، ويمرّ تحت الأشجار حيث تهبّ الرياح، من ظلمةٍ إلى ظلمةٍ؟ ولوحده هذه المرة؟

لا تفكّر بالأمر. فقط افعله.

بدأ لويس يسير.

حين وصل إلى مقبرة الحيوانات بعد عشرين دقيقة، كانت ذراعاه

ورِجلاه قد بدأتا ترتعشان من الإرهاق، وانهار أرضاً واللفّة القماشية على رُكبتَيه، وراح يلهث. استراح هناك لعشرين دقيقة أخرى، وكاد يغفو، فلم يعد خائفاً – يبدو أن الإرهاق طرد الخوف.

أخيراً وقف على قدمَيه مرة أخرى، دون أن يكون واثقاً حقاً أنه يمكنه تسلّق الأشجار الساقطة، وعارفاً فقط بطريقةٍ خَدِرةٍ أن عليه أن يحاول. بدا وزن الحزمة على ذراعيه مئة كيلوغرام بدلاً من عشرين.

لكن ما حصل سابقاً حصل مرة أخرى؛ كان يشبه تذكّر حلمٍ بشكل فجائي وواضح. لا، ليس تذكُّره، بل *معاودة عيشه*. عندما وَضَع قدمه على أول جذع شجرة ميتة، غمره ذلك الإحساس الغريب مرة أخرى، وبدا ابتهاجاً تقريباً. لم يزُل الإرهاق عنه، لكنه أصبح مُحتَمَلاً – غير مهم، حقاً.

فقط اتبعني. اتبعني ولا تُخفض النظر يا لويس. لا تتردَّد ولا تُخفض النظر. أعرف الطريق، لكن علينا أن نقطعه بسرعة وثقة.

بسرعة وثقة، نعم – بنفس الطريقة التي نزع بها جاد إبرة اللسع.

أعرف الطريق.

لكن كان هناك طريق واحد فقط، فكَّر لويس في سرّه. إما يدعك تمرّ أو لا. لقد حاوَل تسلّق الأشجار الساقطة بنفسه من قبل ولم يتمكّن. صعد عليها بسرعة وثقة هذه المرة، مثلما فعل في الليلة التي أظهَرَ له فيها جاد الطريق.

صعوداً صعوداً، دون إخفاض النظر، وذراعاه تحتضنان جثة إبنه في كَفَنها القماشي. صعوداً إلى أن سرَّبت الرياح ممرات وحجرات سرية في شعره مرة أخرى، نفَشتْه، فرَّقته في الاتجاه الخطأ.

وَقَف عند الأعلى للحظة ثم انحدر بسرعة، كما لو أنه ينزل سلالم. خشخَش المِعول والمجرفة وارتطما بظهره برتابة. في أقل من

دقيقة، كان يقف مرة أخرى على أرض المسار الناعمة المغطاة بالإبر، والأشجار الساقطة عاليةً خلفه، أعلى مما كان عليه سور المقبرة.

صعد المسار مع إبنه، وهو يستمع إلى أنين الرياح في الأشجار. لم يعد الصوت يخيفه الآن. لقد أوشك عمل الليل على الانتهاء.

الفصل 54

مرَّت رايتشل كريد بجانب اللافتة التي تقول *المخرج 8 احفظ اليمين إلى بورتلاند وستبْرُوك*، وأضاءت ضوءها الوامض، ووجَّهت سيارتها الأڤيس شوفَتّ نحو منحَدَر المخرَج. كان يمكنها رؤية لافتة هوليداي إن خضراء بوضوح في سماء الليل. سرير، نوم. نهاية لهذا التوتّر المتواصل المُضني المجهول السبب. وكذلك نهاية – لبعض الوقت، على الأقل – لفراغها الحزين على الولد الذي لم يعد موجوداً. اكتشَفت أن ذلك الحزن يشبه قلع ضرس ضخم. تشعر بخَدَرٍ في البدء، لكن حتى تحت تأثير الخَدَر تشعر بالألم يتكوَّر مثل قط يهزّ ذيله، بالألم ينتظر أن يندلع. وعندما يزول مفعول النوفوكاين، يا للهول، لن يخيب أملك بالتأكيد.

أخبَرها أنه أُرسِل للتحذير... لكن لا يمكنه أن يتدخّل. أخبَرها أنه كان قريباً من بابا لأنهما كانا معاً عندما كانت روحه تفارقه.

جاد يعرف، لكنه لن يُخبِرها. شيءٌ ما يحدث. شيءٌ. لكن ماذا؟

انتحار؟ هل هو انتحار؟ ليس لويس: لا يمكنني تصديق ذلك. لكنه كان يكذب بشأن شيء. كان ذلك بادياً في عينيه... آه تباً، كان بادياً على كل وجهه، كما لو أنه أرادني أن أرى الكذبة... أن أراها وأضع حداً لها... لأن جزءاً منه كان خائفاً... خائفاً جداً...

خائفاً؟ لويس لا يخاف أبداً!

فجأة أدارت مِقوَد الشوفَتّ بقوة إلى اليسار، واستجابت السيارة بالمباغَتة المفاجئة التي تتميَّز بها السيارات الصغيرة، وأصدرت العجلات صريراً حاداً. اعتقَدت للحظة أنها ستنقلب على سقفها. لكنها استقامت، وأصبحت بعد لحظات تقود شمالاً مرة أخرى، والمخرج 8

بفندقه المريح خلفها. ظهرت لافتة جديدة، وطلاؤها العاكس يتلألأ بشكل مُوحِش.

المخرَج التالي الدرب 12 كمبرلاند

كمبرلاند سنتر جيروزالم لوت

فالموث واجهة فالموث

جيروزالم لوت، فكَّرت عشوائياً، يا له من إسم غريب. ليس إسماً لطيفاً، لسبب من الأسباب. *تعال ونَم في جيروزالم.*

لكن لن يكون هناك نوم لها هذه الليلة؛ رغم نصيحة جاد، فهي تنوي الآن أن تقود إلى النهاية مباشرة. جاد يعرف ما الخطب ووعدها أن يضع حداً له، لكن الرجل تخطّى الثمانين من عمره وفَقَد زوجته قبل ثلاثة أشهر فقط. لن تضع ثقتها في جاد. لم يكن يجب أن تسمح للويس أبداً أن يرحّلها عن المنزل بتلك الطريقة، لكنها كانت ضعيفة بسبب وفاة غايدج. إيليه وصورتها مع غايدج ووجهها المقروص – كان وجه ولدٍ نجا من إعصار أو غارة جوية مفاجئة في سماء زرقاء صافية. مرَّت عليها أوقات في ساعات الليل الحالكة تاقت فيها إلى أن تكره لويس على الحزن الذي سبَّبه داخلها، وعدم إعطائها المواساة التي احتاجت إليها (أو السماح لها بإعطاء المواساة التي احتاجت إلى إعطائها)، لكنها لم تستطع. كانت لا تزال تحبّه كثيراً، وكان وجهه شاحباً جداً... يقظاً جداً...

تخطّت إبرة عدّاد سرعة الشوفَتّ المئة كيلومتر في الساعة بقليل. حوالي كيلومتر ونصف في الدقيقة. ساعتان ورُبع إلى لادلو، تقريباً. ربما لا تزال قادرة على أن تهزم الشروق.

راحت تعبث بالراديو بارتباك إلى أن وجدت محطة روك أند رول تبثّ من بورتلاند. رَفَعت حجم الصوت وراحت تغني مع الراديو،

لتحاول إبقاء نفسها مستيقظة. بدأ صوت المحطة يخفت ويقوى بعد نصف ساعة، وعادت إلى محطةٍ تبثّ من أوغستا، وفتحت زجاج النافذة، وتركت هواء الليل المضطرب يلفح وجهها النعس.

تساءلت إن كان هذا الليل سينتهي.

الفصل 55

أعاد لويس اكتشاف حلمه وكان تحت رحمته؛ فكان يُخفِض نظره كل بضع لحظات ليتأكد أنه يحمل جثة في قماش مشمَّع وليس جثة في كيس أخضر. تذكَّر كيف أنه عندما استيقظ في الصباح التالي لذهابه مع جاد إلى هناك حاملاً تشرش بالكاد كان قادراً على تذكّر ما فعلاه - لكنه تذكَّر الآن أيضاً كم كانت تلك الأحاسيس قوية، كم بدت كل حاسة من حواسة حيّة، كيف بدت أنها تخرج منه وتلمس الغابة كما لو أنها حيّة، وكما لو أنه على نوعٍ من التواصل التخاطري مع نفسه.

تبَع المسار صعوداً ونزولاً، معيداً اكتشاف الأماكن التي بدا فيها عريضاً كالطريق 15، الأماكن التي يضيق فيها فيضطر إلى الاستدارة جانبياً لكي يمنع طرفَي حزمته من أن يعلقا بالخميلة، الأماكن التي يتعرَّج فيها المسار بين أشجار ضخمة. يمكنه أن يشمّ النكهة الحادة المميّزة لراتنج الصنوبر، ويمكنه أن يسمع ذلك الصوت الغريب لتهشّم الإبر تحت قدمَيه - صوتٌ هو في الواقع إحساسٌ أكثر مما هو صوتٌ.

أخيراً بدأ المسار ينحدر نزولاً بشكل حادّ أكثر. وبعد وقت قصير من ذلك، خاضت إحدى قدمَيه طبقةً رقيقةً من الماء وأصبحت طينية في الأشياء الموحِلة تحت... الرمال المتحركة، إن كان سيصدِّق أقوال جاد. أخفَض لويس نظره واستطاع رؤية المياه الراكدة بين كتل قصبات وأجمات بشعة منخفضة ذات أوراق عريضة لدرجة أنها تكاد تكون استوائية. تذكَّر أن الضوء بدا أكثر إشراقاً تلك الليلة أيضاً. كهربائياً أكثر.

المسافة التالية تشبه الأشجار الساقطة - عليك أن تسير بهدوء

واسترخاء. فقط اتبعني ولا تُخفض نظرك.

نعم، حسناً... وعلى فكرة، هل رأيتَ في حياتك نباتات مثل هذه في ماين؟ في ماين أو في أي مكان آخر؟ ماذا تسمّى اللعينة؟

لا تهتمّ يا لويس. فقط... هيا بنا.

بدأ يسير مرة أخرى، وهو ينظر إلى الخميلة المستنقعية الرطبة لمدة كافية لكي يرى أول عشب أجميّ ثم ينظر أمامه فقط، وقدماه تنتقلان من سنام عشبي إلى التالي - *الثقة هي قبول الجاذبية كواحدة من المسلّمات*، فكَّر في سرّه؛ لا شيء قيل له في مقرّر الفلسفة في الكلّية، لكنه شيء كَتَبه مدرِّس الفيزياء في الثانوية على السبّورة قبيل نهاية إحدى الحصص... وهو شيء لم ينسه لويس أبداً.

قَبِل قدرة مقبرة الميكماك على إعادة إحياء الموتى وسار في مستنقع الملك الصغير حاملاً إبنه على ذراعيه، دون أن يُخفِض نظره أو ينظر إلى الوراء. كان هذا القعر المستنقعي أكثر ضجةً الآن مما كان عليه في نهاية الخريف. الضفادع تنقّ بشكل متواصل في القصبات مشكِّلةً جوقةً حادّةً وجَدها لويس غريبة ومنفِّرة. وكان صوت ضفدعٍ يخنّ من وقت لآخر في مكان ما. بعد سيره عشرين خطوةً تقريباً في مستنقع الملك الصغير، انقضّ عليه شكلٌ... وطواطٌ، ربما.

بدأ الضباب يحوم حوله، فغطى حذاءه أولاً، ثم ساقيه، ثم حَصره أخيراً في كبسولة بيضاء متوهجة. بدا له الضوء أكثر إشراقاً، سطوعاً نابضاً، مثل نبضات قلبٍ غريبٍ. لم يشعر أبداً من قبل بقوة حضور الطبيعة كنوعٍ من قوة إئتلافية، كائن حقيقي... ربما عاطفي. كان المستنقع حياً، لكن ليس بصوت الموسيقى. إذا طُلب منه أن يعرِّف معنى أو طبيعة ذلك الطابع الحيّ، لما استطاع. لكنه كان زاخراً بالاحتمالات والقوة. داخله، شَعَر لويس أنه صغير جداً وفانٍ جداً.

ثم سمِع صوتاً، وتذكَّر ذلك من المرة الأخيرة أيضاً: ضحكة اِزدراد صاخبة أصبحت شهقةً. ساد الصمت للحظة ثم صدحت الضحكة مجدداً، وعَلَت هذه المرة إلى حدود زعيقٍ مجنونٍ جمَّد دم لويس. انجرَف الضباب بأسلوب حالم حوله. تلاشى الضحك، تاركاً فقط أزيز الرياح، الذي كان يسمعه لكن لم يعد يشعر به. بالطبع لا؛ لا بدّ أن هذا نوعٌ من كوب جيولوجي في الأرض. لو استطاعت الرياح اختراق هذا المكان، لكانت مزَّقت هذا الضباب كلياً... ولم يكن لويس متأكداً أنه يريد رؤية ما قد ينكشف له عندها.

قد تسمع أصواتاً تبدو بشريةً، لكنها الطيور الغوّاصة جنوباً نحو بروسبكت. الصوت ينتقل بشكل مضحك.

"الطيور الغوّاصة"، قال لويس وبالكاد تعرَّف على صوته المكسور، الشنيع إلى حد ما.

تردَّد للحظة ثم أكمل طريقه مرة أخرى. كما لو أنها أرادت معاقبته لتوقفه الوجيز، انزلَقت قدمه عن العشب الأجميّ التالي، وكاد يفقد فردة حذائه، وحرَّرها من الطين الجشع تحت الماء الضحِل.

الصوت - إذا كان ذلك صوتاً - صدرَ مرة أخرى، من اليسار هذه المرة. ثم صدرَ من خلفه بعد لحظات... بدا أنه صدرَ من خلفه *مباشرة*، كما لو أنه سيستدير ويرى كائناً مليئاً بالدم على بُعد أقل من رُبع متر خلفه، كل أسنانه مكشوفة وعينيه تبرقان... لكن لويس لم يُبطئ هذه المرة. بقي ينظر أمامه مباشرة وأكمل سيره.

فجأة فَقَد الضباب خفّته وأدرَك لويس أن هناك وجهاً معلَّقاً في الهواء أمامه، ينظر شزراً ويتمتم. كانت عيناه، المائلتان إلى أعلى مثل عينين في رسم صيني كلاسيكي، صفراوين رماديتين، غائرتين، لامعتين. والفم مشدود نزولاً في انفغارٍ؛ الشفة السفلية مقلوبة إلى الخارج، كاشفةً

عن أسنان ملطّخة بأسود بنيّ ومبلية تقريباً حتى جذورها. لكن ما صدمَ لويس كان الأذنان، اللتان لم تكونا أذنين أبداً بل قرنين منحنيين... لم تكونا مثل قرنَي الشيطان، بل مثل قرنَي الخروف.

بدا أن هذا الرأس العائم المروِّع يتكلّم - يضحك. فمه يتحرَّك، رغم أن تلك الشفة السفلية المقلوبة لم تعُد إلى شكلها ومكانها الطبيعيين أبداً. الأوردة فيها سوداء. وكان منخراه يتّسعان تدريجياً، كما لو من الأنفاس والحياة، ويزفران أبخرةً بيضاء.

عندما اقترَب لويس أكثر، تدلّى لسان الرأس العائم. كان طويلاً ومسنَّناً، ولونه أصفر قذراً. كان مغلّفاً بقشور مثل قشور السمك، وبينما راح لويس يراقبها، ارتفعت إحداها مثل فتحة مجرور وخرجت منها دودة بيضاء. انزلق طرف اللسان بكسل على الهواء في مكان ما تحت المكان الذي يجب أن تتواجد جوزة حلقه فيه... كان يضحك.

أمسَك غايدج بقوة أكبر، معانقاً إياه، كما لو أنه يريد حمايته، وتعثَّرت قدماه وبدأ ينزلق على الأعشاب الأجميّة حيث راحت تجرّه.

قد ترى شرر سانت إلمو، ما يسمّيه البحّارة أضواء الصحون الطائرة. يمكنه صنع أشكال مضحكة، لكنه لا شيء. إذا رأيت بعض تلك الأشكال وأزعجتك، أشح بنظرك فقط.

صوت جاد في ذهنه أعطاه بعض العزم. بدأ يسير إلى الأمام بثبات مرة أخرى، متطوّحاً في البدء، ثم وجد توازنه. لم يشح بنظره لكنه لاحَظ أن الوجه - إذا كان ذلك وجهاً وليس مجرد شكل صنعه الضباب وذهنه - بدا أنه بقي مبتعداً عنه نفس المسافة دائماً. وبعد بضع ثوانٍ أو دقائق، تلاشى ببساطة في ضبابٍ منجرفٍ.

هذا لم يكن شرر سانت إلمو.

لا، بالطبع لم يكن. هذا المكان يعجّ بالأرواح؛ كان مكفهراً بها.

يمكنك أن تنظر حولك وترى شيئاً يجعلك تهذي كالمجنون. لن يفكّر بالمسألة. لم يكن هناك داعٍ ليفكِّر بها. لم يكن هناك داعٍ لـ –

هناك شيء قادم.

توقف لويس عن الحراك كلياً، وراح يستمع إلى ذلك الصوت... ذلك الصوت المتصلّب، المقترب. فغر فمه، فقد استسلم كل وتر يُبقي فمه مغلقاً.

كان صوتاً لا يشبه شيئاً سمِعه في حياته – صوت حيّ، صوت كبير. في مكانٍ قريبٍ، يقترب أكثر فأكثر، كانت الأغصان تنقصم. كانت هناك فرقعة في الخميلة تتكسَّر تحت قدمَين غير ممكن تخيّلهما. وبدأت الأرض الهلامية تحت قدمَي لويس تهتزّ في اهتزاز ودّي. أصبح يُدرك أنه كان يئنّ

(يا إلهي، يا إلهي، ما هذا الشيء القادم عبر هذا الضباب؟)

ومرة أخرى شدَّ غايدج إلى صدره؛ أصبح يُدرك أن الضفادع صمتت كلياً، أصبح يُدرك أن الهواء الرطب عَبَق برائحة مُوحِشة مُقرفة مثل قطعة لحم حارة فاسدة.

مهما كان، كان ضخماً.

راح وجه لويس المتسائل المرتعب يميل صعوداً أكثر فأكثر، مثل رجلٍ يتبع مسار صاروخ بنظره. هَدَر الشيء نحوه، وسِمع الصوت المتزايد لشجرةٍ – ليس غصناً، بل شجرة بأكملها – تسقط في مكان قريب.

رأى لويس شيئاً.

تلطَّخ الضباب بلون رمادي ممل ضارب إلى الزُرقة للحظة، لكن هذه العلامة المائية المنتشرة غير المحدَّدة كانت على ارتفاع أكثر من عشرين متراً. لم تكن ظلاً، أو شبحاً واهياً؛ كان بإمكانه الشعور بالهواء المُزاح عن مسلكه، بإمكانه سماع الهدير العملاق لقدمَيه تضربان

الأرض، صوت امتصاص الوحل أثناء سيره.

صدَّق للحظة أنه رأى شرارتين توأمين صفراوين برتقاليتين فوقه على ارتفاعٍ عالٍ. شرارتان تشبهان عينين.

ثم بدأ الصوت يخبو. عندما تلاشى، نادى ضفدعٌ بتردّد. أجابه واحدٌ آخر. انضم ثالثٌ إلى المحادثة؛ وجَعَلها رابعٌ مناقشةً مرتجلةً؛ وجَعَلها خامسٌ وسادسٌ مؤتمر ضفادع. أصوات تقدّم الشيء (بطيء لكن ليس متهوِّراً؛ ربما هذا كان أسوأ ما فيه، ذلك الشعور بالتقدّم العاطفي) كان يبتعد شمالاً. قليلاً... أقل... زال.

أخيراً بدأ لويس يتحرَّك مرة أخرى. كان كتفاه وظهره ألماً مجمَّداً من العذاب. كان يرتدي طبقةً من العرق من عنقه حتى كاحلَيه. وجدته أولى بعوض هذه السنة، المفقَّسة حديثاً والجائعة، وانقضَّت على وجبة خفيفة متأخرة.

الويندیغو، يا للهول، هذا كان الويندیغو - المخلوق الذي يتنقّل في الريف الشمالي، المخلوق الذي يستطيع لمسك وتحويلك إلى آكل لحوم بشر. هذا هو. لقد مَرّ الويندیغو على بُعد ستين متراً عنّي.

قال لنفسه ألا يكون مثيراً للسخرية، أن يكون مثل جاد ويتجنَّب الأفكار عما يمكن رؤيته أو سماعه ما وراء مقبرة الحيوانات - كانت طيوراً غوّاصةً، كانت شرر سانت إلمو، كانت أعضاء منطقة التسخين لفريق نيويورك يانكيز. فلتكن أي شيء ما عدا مخلوقات تقفز وتزحف وتنزلق وتمشي بتثاقل في العالم الوسطي. فليكن هناك نور، فليكن هناك صباح، فليكن هناك رعاة مبتسمون بأثواب بيضاء لامعة... لكن لا تكون هناك تلك الأهوال المكفهرّة التي تمشي بتثاقل على الجانب المظلم من الكون.

تابع لويس سيره مع إبنه، وبدأت الأرض تتصلَّب تحت قدمَيه مرة

أخرى. ووصلَ بعد لحظات فقط إلى شجرة مقطوعة، وأعلاها مرئي في الضباب المتلاشي مثل معطف طويل رمادي أخضر رمته مدبّرة منزل عملاقة.

كانت الشجرة مبتورة - مشظّاة - حديثاً لدرجة أن اللبّ الأبيض الصفراوي لا يزال ينزف نُسغاً دافئاً على ملمس لويس وهو يتسلَّقها... وعلى الجهة الأخرى هناك فجوة ضخمة اضطر أن يندفع ويتسلَّقها، ورغم أن أجمات العرعر والغار المنخفضة ممهورة في التربة مباشرة، إلا أنه لم يسمح لنفسه أن يصدِّق أن ذلك أثر طبعة قدمٍ. كان بإمكانه أن يلتفت إلى الوراء ليرى إن كان لها هكذا تكوين بعدما تسلَّق فوقها وما بعدها، لكنه لن يفعل ذلك. بل أكمل سيره، وهو يشعر بالبرد، وفمه ساخن وقاحل، وقلبه يطير.

سرعان ما توقف انسحاق الوحل تحت قدمَيه. وعاد لبرهةٍ صوت إبر الصنوبر الذي يشبه صوت قرقشة حبوب الفطور. ثم ظهرت صخرةٌ. لقد أوشك على بلوغ النهاية.

بدأت الأرض ترتفع بشكل أسرع. ارتطمت ساقه بشكل مؤلم بمنكشف صخري. لكن هذه لم تكن مجرد صخرة. مدَّ لويس يده بشكل أخرق (سوار مِرفقه، الذي أصبح خَدِراً، صَرَخ لبرهة) ولمسها.

تقدَّم إلى هنا. اقلب الصخرة. فقط اتبعني. وصلنا إلى القمة ونحن هناك.

لذا بدأ يتسلّق وعاد له الشعور بالابتهاج، وقد هزمَ الإرهاق مرة أخرى... قليلاً على الأقل. احتسب ذهنه عدد الدرجات وهو يرتقي إلى القشعريرة، بينما عاد وتسلَّق إلى ذلك النهر المتواصل من الرياح، الأعتى الآن، الذي يموِّج ملابسه، جاعلاً اللفّة القماشية التي غايدج بداخلها تُصدِر أصوات طلقات نارية مثل شراع مرفوع في الريح.

أمال رأسه إلى الوراء مرةً ورأى التمدّد المجنون للنجوم. لم تكن هناك كوكبات تعرَّف عليها، وأشاح بنظره مرة أخرى، مضطرباً. بجانبه كان الجدار الصخري، ليس ناعماً بل مشظّى ومقلوعاً وهشّاً، وقد أخذ هنا شكل زورقٍ، هنا شكل غُرَير، هنا شكل وجه رجل ذي عينين عابستين مزدوجتَي الجفنين. فقط الدرجات التي تم نحتها من الصخور كانت ناعمة.

وصل لويس إلى القمة ووَقَف هناك مُخفضاً رأسه، وراح يتمايل، ويشهق ويزفر ملء رئتَيه. شَعَر كأنهما مثانتان مثقوبتان بوحشية، وبدا أن هناك شظيةً كبيرةً ملتصقةً بجنبه.

تغلغلت الرياح في شعره مثل راقصة، وزأرت في أذنيه مثل تنين.

كان الضوء أكثر إشراقاً هذه الليلة؛ حيث كان مظلماً تلك المرة، أو ربما لم يكن ينظر وقتها فحسب؟ لا يهمّ. لكن يمكنه أن يرى، وهذا كافٍ لبدء قشعريرة أخرى بالتكوُّن في أسفل ظهره.

كان الأمر مثل مقبرة الحيوانات بالضبط.

بالطبع كنتَ تعرف ذلك، همَس ذهنه بينما كان يتفحَّص كومات الصخور التي كانت معالم حجرية فيما مضى. *كنتَ تعرف ذلك – أو كان يجب أن تعرفه؛ ليست دوائر متحدة المركز بل اللولب –*

نعم. هنا فوق هذه الطاولة الصخرية، بوجهها المُدار إلى ضوء النجوم البارد وإلى المسافات السوداء بين النجوم، يوجد لولب هائل، صنعه ما سيسمّيه المحنّكون "أيدٍ مختلفةٍ". لكن لويس رأى أنه لم تكن هناك معالم حجرية حقيقية؛ كل واحد منها انفجر كأنه شيء مدفون وقد عاد إلى الحياة... وشقّ طريق خروجه بمخالبه. لكن الصخور نفسها سقطت بطريقة تجعل شكل اللولب واضحاً.

هل رأى أي شخص آخر هذا من الجو؟ تساءل لويس وتذكَّر

تلك الرسوم الصحراوية التي صنعتها قبائل الهنود في أميركا الجنوبية. *هل رآه أي شخص آخر من الجو، وإذا رأوه، أتساءل ماذا كان رأيهم؟*

ركَع ووضع جثة غايدج على الأرض مع تأوه ارتياح.

أخيراً بدأ وعيه يعود. استخدَم سكين جيبه ليقصّ الشريط الذي يُبقي المِعول والمجرفة معلّقين على ظهره. وَقَعا أرضاً مع خشخشةٍ. استلقى لويس للحظة، منفرِج الذراعين والساقين، ومحدِّقاً بالنجوم بشكل خالٍ من أي تعبير.

ما كان ذلك الشيء في الغابة؟ لويس، لويس، هل تعتقد حقاً أن أي شيء جيد يمكن أن يأتي في ذروة مسرحيةٍ حينما يكون شيءٌ من هذا القبيل بين الممثلين؟

لكن فات الأوان الآن للتراجع، وهو يعرف ذلك...

بالإضافة إلى ذلك، تمتمَ لنفسه، قد تسير الأمور على ما يرام، لا مكسب دون مخاطرة، وربما لا مخاطرة دون حبّ. لا تزال هناك حقيبتي، ليس الحقيبة الموجودة في الطابق السفلي بل الحقيبة الموجودة في حمّامنا على الرف العالي، الحقيبة التي أرسَلتُ جاد ليحضرها ليلة إصابة نورما بنوبتها القلبية. هناك محاقن، وإذا حصل شيء... مكروه... لا أحد بحاجة أن يعرف عدايَ.

تلاشت أفكاره إلى التمتمة غير المفهومة حتى بينما راحت يداه تتلمّسان بحثاً عن المِعول... وهو لا يزال راكعاً على رُكبتَيه، بدأ لويس يحفر في التربة. كلما ضربَ المِعول بالأرض، انهار فوق طرفه، مثل جندي روماني قديم يسقط على سيفه. لكن الحفرة بدأت تتشكّل وتتعمّق شيئاً فشيئاً. أخرجَ الصخور، ودفَع معظمها جانباً إلى جانب الكومة المتنامية للتربة الصخرية. لكنه وفّر بعضها.

للمَعلَم الحجري.

الفصل 56

صفَعت رايتشل وجهها إلى أن بدأ يخزّها، ومع ذلك بقيت تكبو. ذات مرة استيقظت بالكامل (كانت في بيتسفيلد الآن وكل الطريق الرئيسي لها وحدها)، وبدا لها لجزء من الثانية أن عشرات العيون الفضيّة العديمة الرحمة تنظر إليها، متلألئة مثل حريق بارد جائع.

ثم تجسَّدت على هيئة عاكسات صغيرة على أعمدة سور الحماية. لقد انجرَفت الشوفَتّ بعيداً إلى ممر توقف السيارات المتعطِّلة.

أدارت المِقوَد إلى اليسار مرة أخرى، وصدحَ عويل العجلات، وظنَّت أنها سِمعت تكتكةً خفيفةً! لا شكّ أنه مخفِّف صدماتها الأمامي الأيمن أثناء تقبيله أحد أعمدة سور الحماية. وَثَب قلبها في صدرها وبدأ يدويّ بقوة بين أضلاعها لدرجة أنها رأت بُقعاً صغيرةً أمام عينيها، تكبُر وتنكمش تزامناً مع نبضاتها. لكن بعد لحظة، ورغم كشطها الوشيك، ورعبها، وصراخ روبرت غوردون "الحار الأحمر" على الراديو، راحت تكبو مرة أخرى.

خطرت ببالها فكرة مجنونة ارتيابية. بدافع الإرهاق، لا شكّ أنه الإرهاق، لكنها بدأت تشعر أن شيئاً يحاول منعها من بلوغ لادلو هذه الليلة.

"ارتيابية فعلاً"، تمتمت مع موسيقى الروك أند رول. حاوَلت أن تضحك – لكنها لم تستطع. ليس تماماً. لأن الفكرة بقيت، واكتَسَبت، في عين الليل، طابعاً شبحيّاً من المصداقية. بدأت تشعر كأنها شخصية في فيلم رسوم متحركة اصطدمت بالحزام المطاطي لمقلاعٍ هائلٍ. المسكين يجد صعوبة أكبر وأكبر في التحرّك إلى الأمام، إلى أن تعادل الطاقة الكامنة للحزام المطاطي الطاقة الفعلية للعدّاء... فتصبح العَطالة...

ماذا؟... ألفباء الفيزياء... شيء يحاول إمساكها... *لا تتدخّل في هذا، أنت*... والجسم الساكن يميل إلى أن يبقى ساكناً... *جثة غايدج*، مثلاً... بعدما تبدأ بالتحرّك...

كان صراخ العجلات صاخباً أكثر هذه المرة، والكشط أقرب بكثير؛ للحظة سمعت صرير الشوفَتّ وهي تحفّ أسلاك سور الحماية، تكشط طلاءها عميقاً وصولاً إلى المعدن المتلألئ، وللحظة لم يتجاوب معها المِقوَد، ثم كانت رايتشل تقف بفضل الفرامل، وهي تبكي، فقد كانت نائمة هذه المرة، ولم تكن تكبو فقط بل *نائمة وتحلم* بسرعة مئة كيلومتر في الساعة، ولو لم يكن هناك سور حماية... أو لو كانت هناك دعامة معبر فوقي...

توقفت جانباً ووضعت مقبض تروس السيارة في وضعية الركن وراحت تبكي في يديها، مرتبِكةً وخائفةً.

هناك شيء يحاول إبقائي بعيدةً عنه.

عندما شَعَرت أنها استعادت سيطرتها على نفسها، استأنفت القيادة – لم يبدُ نظام توجيه السيارة الصغيرة قد تأثَّر، لكنها افترَضت أن موظف شركة أڤيس ستكون لديه بعض الأسئلة الجدّية عندما تعيد له السيارة غداً.

لا يهمّ. شيء واحد تلو الآخر. عليَّ إدخال بعض القهوة في دمي، هذا هو أول شيء.

عندما ظهر مخرَج بيتسفيلد، دخلته رايتشل. وبعد حوالي كيلومتر من ذلك، وصلت إلى أضواء ساطعة والهدير الهادئ لمحرِّكات ديزل. ركنت، وملأت خزّان الشوفَتّ ("سبَّب لها أحدهم انبعاجاً جيداً على جانبها"، قال موظف تعبئة الوقود بنبرة إعجاب تقريباً)، ثم دخَلت المطعم الصغير، العابق برائحة الشحوم والدهون والبيض... والحمد لله،

قهوة قوية.

تناولت رايتشل ثلاثة أكواب، الواحد تلو الآخر، كأنها دواء – سوداء ومحلاّة بكثير من السكر. كان هناك بضعة سائقي شاحنات يجلسون عند المنضدة أو في أكشاك، يمازحون النادلات، اللواتي تمكنَّ كلهنَ بطريقة أو بأخرى أن يبدونَ مثل ممرضات مُتعَبات مليئات بأخبار سيئة تحت تلك الأضواء الفلورية المحترقة في ساعات الفجر الأولى.

سدَّدت فاتورتها وخرجت عائدة إلى حيث رَكَنت الشوفَتّ. رفضت أن تشتغل. فعند إدارة المفتاح، يُصدِر الملف اللولبي صوت نقرٍ جافٍ، ولا يحدث شيء.

بدأت رايتشل تضرب المِقوَد بقبضتَيها ببطء وبلا قوة. هناك شيء يحاول إيقافها. لم يكن هناك سبب لتعطُّل هذه السيارة الجديدة التي سارت أقل من ثمانية آلاف كيلومتر حسب عدّاد مسافاتها، لكنها تعطَّلت بطريقة أو بأخرى، وها هي، مقطوعة السبل في بيتسفيلد، ولا تزال تبعد حوالي ثمانين كيلومتراً عن المنزل.

راحت تستمع إلى الهدير الهادئ للشاحنات الكبيرة، وخطر ببالها بيقين وحشي مفاجئ أن الشاحنة التي قتلت إبنها هنا بينها... لا تتمتم بل تضحك ضحكة خافتة.

أخفَضت رايتشل رأسها وراحت تبكي.

الفصل 57

تعثَّر لويس بشيء وسقط بكامل طوله على الأرض. ظنَّ للحظة أنه لن يكون قادراً على النهوض - كان النهوض بعيداً عن متناوله - بل سيكتفي بالاستلقاء هنا، يستمع إلى جوقة الضفادع من مستنقع الملك الصغير الموجود في مكان ما خلفه ويشعر بجوقة الأوجاع والآلام داخل جسمه. سيبقى مستلقياً هنا إلى أن ينام. أو يموت. الثاني على الأرجح.

يمكنه أن يتذكَّر وضع اللفّة القماشية في الحفرة التي حفَرها، وإعادة معظم التربة إلى الحفرة بيديه العاريتين. وصدَّق أنه يمكنه أن يتذكَّر تكديس الصخور، وبناء قاعدة عريضة إلى أن...

من وقتها حتى الآن لا يتذكَّر إلا القليل جداً. من الواضح أنه عاد ونزل الدرجات مرة أخرى وإلا لما كان هنا... أين؟ نظر حوله، واعتقَد أنه تعرَّف على أحد بساتين أشجار الصنوبر القديمة غير البعيد عن الأشجار الساقطة. هل يُعقَل أنه قام برحلة العودة بالكامل عبر مستنقع الملك الصغير دون معرفة ذلك؟ افترَض أن ذلك ممكنٌ. بالكاد.

هذا بعيد كفاية. سأنام هنا.

لكن هذه الفكرة، المريحة جداً بشكل كاذب، هي التي جعلته يقف على قدمَيه ويتحرَّك من جديد. لأنه إذا بقي هنا، فقد يجده ذلك الشيء... ذلك الشيء قد يكون في الغابة ويبحث عنه في هذه اللحظة بالذات.

فَرَك وجهه بيده، براحة يده أولاً، وتفاجأ بغباء من رؤية دم عليها... في مرحلة ما سبَّب لنفسه نزيفاً في الأنف. "لا يهمّني"، تمتم بصوت أجش، وراح يبحث حوله بلا مبالاة إلى أن وجَد المِعول والمجرفة.

بعد عشر دقائق، لاحت أمامه الأشجار الساقطة. تسلّقها لويس، متعثّراً بشكل متكرر لكن دون أن يسقط بطريقة أو بأخرى، إلى أن نزلها كلها تقريباً. ثم ألقى نظرة سريعة على قدمَيه، وانكسر غصنٌ بحزم (لا تُخفض نظرك، قال جاد)، وانقلبَ غصنٌ آخر، وانزلقت قدمه إلى الخارج، ووَقَع مع لطمةٍ على جنبه، وكادت تنقطع أنفاسه من الألم.

تباً إن لم تكن هذه ثاني مقبرة أسقط فيها هذه الليلة... وتباً إن لم تكن اثنتان كافيتين.

بدأ يتلمَّس حوله بحثاً عن المِعول والمجرفة مرة أخرى، ووقعت يداه عليهما أخيراً. تفحّص محيطه للحظة، المرئي بفضل ضوء النجوم. كان قريباً من قبر سْماكي. *كان مطيعن*، فكَّر لويس في سرّه بتثاقل. وتريكسي، *قوتلت على الطريق العام*. بقيت الرياح تهبّ بشدة، ويمكنه سماع الطرطقة الخافتة لقطعة معدنية - ربما كانت ذات يوم عبوة دِل مونتي، قصّها بجهدٍ مالك حيوانٍ أليفٍ حزينٍ بواسطة مجزّة أبيه ثم سطَّحها بواسطة مطرقة ومَسمرها على عصا - وذلك أعاد الخوف إليه مرة أخرى. كان مُتعَباً جداً الآن لكي يشعر به بتلك الطريقة الجافة الملتهبة؛ كان أشبه بنبضات قلب بطيئة ومُقرفة بطريقة أو بأخرى. لقد نجح. وتلك الطرطقة الهادئة الخارجة من الظلمة أعادته إليه أكثر من أي شيء آخر.

مَرّ عبر مقبرة الحيوانات، متجاوزاً قبر *مارتا أرنابتنا الأليفة* التي *ماتة 1 مارس 1965*، وبالقرب من رابية *الجنرال باتون*؛ عَبَر فوق القطعة المتعرّجة التي تشير إلى المثوى الأخير لـ *بولينيزيا*. كانت تكتكة المعدن صاخبة أكثر الآن، وتوقف مؤقتاً، مُخفضاً نظره. هنا، فوق لوحة مائلة قليلاً أُدخلَت في الأرض، كان مستطيل من القصدير، وقرأ لويس على ضوء النجوم، *رينغو الهمستر، 1964-1965*. قطعة القصدير هذه هي

التي كانت تتكتك بشكل متكرر على ألواح قوس مدخل مقبرة الحيوانات. انحنى لويس ليعيد ثني قطعة القصدير... ثم جمد مكانه، وشَعَر بقشعريرة على فروة رأسه.

شيءٌ يتحرَّك هناك. شيءٌ يتحرَّك على الجهة الأخرى للأشجار الساقطة.

ما سمِعه كان نوعاً متخفِّياً من الأصوات - التشقّق المستتر لإبر الصنوبر، الفرقعة الجافة لغُصَينٍ، خشخشة الخميلة. كاد الصوت يضيع في أنين الرياح عبر أشجار الصنوبر.

"غايدج؟"، نادى لويس بصوت أجش.

إدراكه لما كان يفعله - واقفاً هنا في الظلمة منادياً إبنه الميت - جعل فروة رأسه تنقبض وشعره يقف. بدأ يرتجف بعجز، كما لو أنه مُصاب بحمى قاتلة.

"غايدج؟".

تلاشت الأصوات.

ليس بعد؛ هذا مُبكر جداً. لا تسألني كيف أعرف، لكنني أعرف. ليس غايدج الذي هناك. إنه... شيء آخر.

تذكَّر فجأة إيليه تُخبره عن مناداة لعازر تحديداً ليعود إلى الحياة، لأنه لو لم تتم مناداته بإسمه، لعاد جميع مَن في المقبرة إلى الحياة.

على الجهة الأخرى للأشجار الساقطة، بدأت تلك الأصوات مرة أخرى. على الجهة الأخرى للحاجز. مخفية تقريباً - لكن ليس تماماً - تحت الرياح. كما لو أن شيئاً أعمى يطارده بغرائز قديمة. استحضَر دماغه المحفَّز بشكل فائق ومُرعِب صوراً رهيبةً مُقرفةً: خُلد عملاق؛ وطواط ضخم يتخبَّط في الخميلة بدلاً من أن يطير.

تراجَع لويس عن مقبرة الحيوانات، دون أن يُدير ظهره للأشجار

الساقطة – ذلك التلألؤ الشبحيّ، ندبةٌ غاضبةٌ للغاية على الظلمة – إلى أن نزل مسافة كافية على المسار. ثم بدأ يُسرِع، وربما قبل خمسمئة متر من نهاية جزء المسار الموجود داخل الغابة وقبل وصوله إلى الحقل الموجود خلف منزله، وجَد ما يكفي من قوة داخله لكي يركض.

علّق لويس المِعول والمجرفة كيفما كان داخل المرأب ووَقَف للحظة في أعلى الممر الخاص لمنزله، ونظر أولاً إلى الدرب الذي جاء منه ثم رفع نظره إلى السماء. كانت الرابعة والرُبع فجراً، وافترَض أن الفجر لا يمكن أن يكون بعيداً جداً. سيكون الضوء قد سطعَ من قبل على ثلاثة أرباع الأطلسي، لكن الليل في الوقت الحاضر لا يزال حالّاً على لادلو بقوة. هبّت الرياح بثبات.

دخَل المنزل، متلمّساً طريقه عند جهة المرأب وفتح قفل الباب الخلفي. مرَّ بالمطبخ دون أن يُضيء الضوء ودخلَ الحمّام الصغير الموجود بين المطبخ وغرفة الطعام. هنا أضاء الضوء، وأول شيء رآه كان تشرش، مكوّراً نفسه فوق خزّان المرحاض، محدِّقاً فيه بتلك العينين الموحِلتين الصفراوين الخضراوين.

"تشرش"، قال. "اعتقَدتُ أن أحدهم أخرجك".

اكتفى تشرش بالنظر إليه عن خزّان المرحاض. نعم، لقد أخرَج أحدهم تشرش؛ وهو الذي فعل ذلك. يتذكَّر هذا بوضوح تام. تماماً مثلما تذكَّر استبدال لوح النافذة في القبو تلك المرة ثم إخبار نفسه أنه اهتمّ بالمشكلة. لكن على مَن يمزح بالضبط؟ عندما يريد تشرش الدخول، تشرش يدخل. لأن تشرش كان مختلفاً الآن.

لا يهمّ. في هذه العواقب المنهكة المملة، بدا أن لا شيء يهمّ. شَعَر كما لو أنه شيء أقل من بشري الآن، أحد الزومبيات المتطوّحة

الغبية في فيلم لروميرو، أو ربما شخص هربَ من إحدى قصائد إليوت عن الرجال المجوَّفين. *كان يجب أن أكون زوج مخالب متعرّجة، أعدو في مستنقع الملك الصغير وصولاً إلى مقبرة الميكماك*، فكَّر في سرّه وضحِك ضحكة خافتة جافة.

"خوذة مليئة بالقش يا تشرش"، قال بصوت نعيب. كان يفكّ أزرار قميصه الآن. "هذا أنا. من الأفضل لك أن تصدِّق ذلك".

كانت هناك رضّة قوية على جنبه الأيسر، حوالي منتصف المسافة إلى قفصه الصدري، وعندما خلع بنطلونه رأى أن الركبة التي خبَطها بشاهد القبر تتورَّم مثل بالون، وقد تحوَّلت من قبل إلى لون أرجواني أسود عَفِن، وافترَض أنه حالما يتوقَف عن ثنيها، سيصبح المِفصَل يابساً بشكل مؤلم - كما لو أنه تم تغميسه في الأسمنت. بدت كأنها إحدى تلك الإصابات التي قد تريد التحدّث معه في الأيام الماطرة لبقية حياته.

مدَّ يده ليداعب تشرش، فقد أراد بعض الاسترخاء، لكن القط وَثَب عن خزّان المرحاض، منذهِلاً بتلك الطريقة الثملة وغير السِنَّوريّة بشكل غريب، وغادر إلى مكان آخر. ورمقَ لويس نظرةً مسطَّحةً صفراء أثناء ابتعاده.

وجد مرهماً للآلام في خزانة الأدوية. أغلق لويس مقعد المرحاض، وجلس عليه، ووضع مقداراً كبيراً على ركبته المتضرِّرة. ثم فَرَك بعض المزيد على أسفل ظهره - عملية خرقاء.

خرج من المرحاض وسار إلى غرفة الجلوس. أشعلَ ضوء القاعة ووَقَف هناك عند أسفل الدرجات للحظة، وهو ينظر حوله بغباء. كم بدا كل شيء غريباً! هنا حيث وَقَف ليلة احتفال الشتاء عندما قدَّم لرايتشل الياقوتة الزرقاء. كانت في جيب ردائه. وهناك كرسيه، حيث فعل ما بوسعه ليشرح حقائق الموت لإيليه بعد نوبة نورما كراندال القلبية

المميتة - وهي حقائق وجَدها غير مقبولة في نهاية المطاف لنفسه. وَقَفت شجرة احتفال الشتاء في تلك الزاوية، وديك إيليه الرومي الذي صنعته بورق التصميمات الإنشائية - الذي ذكَّر لويس بأحد أصناف الغراب في المستقبل - أُلصق ببعضه بشريط لاصق عند تلك النافذة، وقبل ذلك بكثير كانت الغرفة بأكملها فارغة ما عدا من صناديق شركة نقل الأثاث، المعبأة بممتلكات عائلتهم وشُحنت عبر نصف الدولة من الغرب الأوسط. تذكَّر انطباعه بأن أغراضهم بدت عديمة الأهمية كلياً، وهي مُعلَّبة بتلك الطريقة؛ حصنٌ صغيرٌ كفاية بين عائلته وبرودة كل العالم الخارجي حيث أسماؤهم وعادات عائلتهم غير معروفة.

كم بدا كل شيء غريباً... وكم تمنّى لو أنهم لم يسمعوا أبداً بجامعة ماين، أو لادلو، أو جاد ونورما كراندال، أو كل ذلك.

صعد إلى الطابق العلوي في ملابسه الداخلية، وفي الحمّام في الأعلى، أحضرَ الكرسي الذي بلا ظهر ولا ذراعين، ووَقَف عليه، وأنزلَ الحقيبة السوداء الصغيرة من فوق خزانة الأدوية. أخذها إلى غرفة النوم الرئيسية، جلس، وبدأ يفتِّش فيها. نعم، كانت هناك محاقن في حال احتاج إلى واحدة، وفي وسط لفّات الأشرطة الجراحية والمقصات الجراحية والخيط الجراحي الملفوف بشكل أنيق كانت عدة أمبولات أشياء مميتة جداً.

إذا دعت الحاجة.

أغلَق لويس الحقيبة ووضعها قرب السرير. أطفأ ضوء السقف، ثم استلقى، واضعاً يديه خلف رأسه. الاستلقاء هنا على ظهره للاستراحة كان أمراً رائعاً. عادت أفكاره إلى عالم ديزني مرة أخرى. رأى نفسه في زيّ أبيض عادي، يقود شاحنة بيضاء عليها شعار أذنَي الفأر - لا شيء على سطحها الخارجي يشير إلى أنها وحدة إنقاذ، بالطبع، لا

شيء سيخيف الزبائن.

كان غايدج يجلس بجانبه، بشرته مسمَرّة جداً، وبياض عينيه ضارب إلى الزُرقة من الصحة. هنا، مباشرة على اليسار، بندق يصافح فتىً صغيراً في نشوةٍ من الاندهاش. وهنا ويني الدبدوب يقف مع جَدّتين تضحكان في بذلتين لكي تتمكن جَدّة ثالثة تضحك من التقاط صورتهما؛ وهنا فتاة صغيرة في أفضل فستان لديها تصيح، "أحبك، نمّور! أحبك، نمّور!".

كان وإبنه في دورية. كان وإبنه الحرّاس في هذه الأرض العجيبة، ويجولان إلى ما لا نهاية في شاحنتهما البيضاء المُغطى الضوء الومضيّ الأحمر على لوحة قيادتها بشكل أنيق وعقلاني. لم يكونا يبحثان عن متاعب، ليس هما، لكنهما جاهزان لها في حال وقوعها. أنها كانت تختبئ حتى هنا، في مكان مكرَّس لهكذا مُتع بريئة، هو أمر لا يمكن إنكاره؛ رجلٌ مبتسمٌ يشتري فيلماً في الشارع الرئيسي يمكن أن يُمسك صدره أثناء إصابته بنوبة قلبية، امرأةٌ حاملٌ قد تشعر فجأة ببداية آلام المخاض أثناء نزولها الدرجات من عربة السماء، فتاةٌ مراهقةٌ جميلةٌ مثل غلافٍ لنورمان روكْوَل قد تنهار فجأة في نوبة صَرَع متخبِّطة، وخُفّها يخشخِش إيقاعاً فظاً على الأسمنت بينما الإشارات في دماغها متشابكة ببعضها. كانت هناك حالات ضربة شمس وسكتة دماغية، وربما في نهاية بعد ظهر يوم صيفي قائظ في أورلاندو قد تكون هناك حتى ضربة برق؛ وكان هناك، حتى، أوز الكبيل واللهيب نفسه هنا – قد يُلمَح يسير بالقرب من نقطة خروج القطار الأحادي السكة إلى المملكة العجيبة، أو يحدِّق نزولاً من أحد الأفيال دامبو الطائرة بنظراته البلهاء الغبية – هنا في هذا المكان أصبح لويس وغايدج يعرفانه مثل أي شخصية أخرى في مدينة الملاهي أمثال بندق أو ميكي أو نمّور أو

السيد بطوط الجدير بالاحترام. لكنه الوحيد الذي لم يرغب أحد أن يلتقط صورته معه، الوحيد الذي لم يرغب أحد أن يعرِّف إبنه أو إبنته عليه. كان لويس وغايدج يعرفانه؛ فقد التقيا به وواجَهاه في نيو إنغلاند، منذ بعض الوقت. كان ينتظر أن يجعلك تختنق على بِلية، أن يُخمدك بكيس تنظيف جاف، أن يرسلك إلى الأبدية برقصة كهربائية سريعة ومميتة - متوفرة الآن في أقرب لوحة بدّالات أو مقبس ضوء شاغر. كان هناك موت في رُبع كيس فول سوداني، في شريحة لحم، في علبة السجائر التالية. كان في الأرجاء طوال الوقت، يراقب كل نقاط التفتيش بين المميت والأبدي. إبر قذرة، خنافس سامة، أسلاك كهربائية منخفضة، حرائق غابات. زلاّجات ذات عجلات تدفع الأولاد الصغار الذين يدرسون كثيراً نحو تقاطعات مزدحمة. عندما تدخل حوض الاستحمام لتأخذ دُشاً، يدخل أوز معك أيضاً - دُشٌ مع صديقٍ. عندما تركب طائرةً، يأخذ أوز بطاقة صعودك إلى الطائرة. كان في الماء الذي تشربه، الطعام الذي تأكله. *مَن هناك؟* تصيح في الظلمة عندما تكون خائفاً ولوحدك، وجوابه هو الذي يأتيك: لا تخف، هذا أنا فقط. مرحباً، كيف حالك؟ لديك سرطان في الأحشاء، يا لها من مشكلة، هذا مؤثف جداً، يا عذيذي! تسمُّم الدم! سرطان الدم! تصلُّب الشرايين! الخُثار القلبي! التهاب الدماغ! التهاب العظم والنقي! يا مَن هنا، هيا بنا! مدمنٌ عند مدخَلٍ حاملاً سكيناً. مكالمةٌ هاتفيةٌ في منتصف الليل. دمٌ يُطبَخ في حمض بطارية على منحَدَر مخرَجٍ في كارولاينا الشمالية. حفناتٌ كبيرة من حبوب الأدوية، تمضغها. ذلك الأزرق الغريب في الأظافر الذي يلي حالة الاختناق - ففي كفاحه الشرس النهائي للنجاة، يأخذ الدماغ كل الأكسجين المتبقّي، حتى ذلك الموجود في الخلايا الحيّة تحت الأظافر. مرحباً، إسمي أوز الكبيل

واللهيب، لكن يمكنك مناداتي أوز إن أردت - تباً، لقد أصبحنا أصدقاء قدامى الآن. جئتُ فقط لكي أضربك بقصور قلب احتقاني خفيف أو جلطة دموية في الدماغ أو أي شيء؛ لا يمكنني البقاء، عليَّ رؤية امرأة على وشك أن تُنجب إبنها من مؤخرته وليس رأسه، ثم لديَّ وظيفة استنشاق دخان صغيرة لأقوم بها في أوماها.

وذلك الصوت الرفيع يصيح، "أحبك، نمّور! أحبك! أثق بك، نمّور! سأحبّك وأثق بك دائماً، وسأبقى يافعة، وأوز الوحيد الذي سيعيش في قلبي هو ذلك الدجّال اللطيف من نبراسكا! أحبك..."

نجول... إبني وأنا... لأن جوهر المسألة ليس حرباً أو علاقات حميمة بل فقط تلك المعركة المُقرفة، النبيلة، الميؤوس منها ضد أوز الكبيل واللهيب. هو وأنا، في شاحنتنا البيضاء تحت سماء فلوريدا الساطعة هذه، نجول. والضوء الومضيّ الأحمر مغطى، لكنه هناك في حال احتجنا إليه... ولا أحد يحتاج إلى أن يعرف بشأنه غيرنا. لأن تربة قلب الرجل حجرية أكثر؛ يزرع الرجل ما يستطيع... ويعتني به.

بتفكيره هكذا أفكار مزعجة في نصف يقظته، غفا لويس كريد، فاصلاً كل روابطه مع الواقع سلكاً سلكاً، إلى أن توقّفت كل الأفكار وجرّه الإنهاك إلى فقدان وعيٍ أسود خالٍ من أي أحلام.

مباشرة قبل أن تلمس خيوط الفجر الأولى السماء في الشرق، سُمعت خُطى على السلالم. كانت بطيئة وخرقاء لكن هادِفة. وتحرَّك ظلٌ في ظلال الردهة. ورافقته رائحةٌ - نتانةٌ. لويس، حتى في نومه الثقيل، تمتم واستدار بعيداً عن تلك الرائحة. كان هناك الشهيق والزفير الهادئان.

وَقَف الشكل خارج باب غرفة النوم الرئيسية لبعض الوقت، لا

يتحرَّك. ثم دخلَ. كان وجه لويس غارقاً في وسادته. امتدَّت يدان بيضاوان، وصدرَت نقرةٌ عندما فُتحَت حقيبة الطبيب السوداء الموضوعة قرب السرير.

خشخشة خافتة بينما تم تحريك الأشياء داخلها.

راحت اليدان تستكشفان، وتدفعان جانباً الأدوية والأمبولات والمحاقن دون اهتمام أبداً. وجَدتا الآن شيئاً ورفعتاه عالياً. في الضوء الخافت الأول كان هناك بريق فضة.

غادر الشيء المُبهَم الغرفة.

مكتبة
t.me/t_pdf

الجزء الثالث

أوز الكبيل واللهيب

الفصل 58

استيقظ جاد كراندال بارتعاش مفاجئ، وكاد يسقط عن كرسيه. لم تكن لديه أي فكرة لكم من الوقت نام؛ كان يمكن أن تكون خمس عشرة دقيقة أو ثلاث ساعات. نظَرَ إلى ساعته ورأى أنها الخامسة وخمس دقائق. انتابه شعورٌ بأن كل شيء في الغرفة نُقل من مكانه المعتاد بمهارة، ولمعَ خط ألم في ظهره من النوم جلوساً.

أيها العجوز الغبي، انظر ماذا فعلت!

لكنه كان أدرى من ذلك؛ في قلبه، كان أدرى من ذلك. لم يكن هو فقط. فلم ينم في نوبة حراسته ببساطة؛ بل نُوِّمَ.

هذا أخافه، لكن شيئاً واحداً أخافه أكثر: ما الذي أيقظه؟ تولَّد لديه انطباع بأنه سمِع صوتاً –

حبَسَ أنفاسه، وراح يُنصت إلى الحفيف الخفيف لقلبه.

هناك صوتٌ؛ ليس نفس الصوت الذي أيقَظه، لكن شيئاً. الصرير الخافت للمِفصَلات.

كان جاد يعرف كل صوت في هذا المنزل – الصرير الذي يصدر عن كل لوح أرضي، الصرير الذي يصدر عن كل درجة، الأماكن المناسبة في المزاريب لكي تُطلق الرياح صيحات استهزائها وغنائها عندما تكون قوية، وكانت قوية ليلة أمس. كان يعرف ذلك الصوت وكل الأصوات. فُتح للتو الباب الأمامي الثقيل الذي يفصل بين شرفته وردهته الأمامية. وبوجود هذه المعلومات بين يديه، تمكَّن ذهنه من تذكّر الصوت الذي أيقَظه. كان التوسّع البطيء للنابض على باب المنخل الذي يربط بين الشرفة والفناء الأمامي.

"لويس؟"، نادى لكن من دون أمل حقيقي. لم يكن لويس الذي

في الخارج. أياً يكن في الخارج فقد أُرسِل لمعاقبة عجوزٍ على كبريائه وغروره.

تحرّكت خُطى ببطء في الردهة نحو غرفة الجلوس.

"لويس؟"، حاوَل أن ينادي مرة أخرى، لكن لم يخرج منه في الواقع سوى نقيق خافت، لأنه يمكنه الآن أن يشمّ رائحة الشيء الذي دخلَ منزله هنا في نهاية الليل. كانت رائحة قذرة خفيفة تشبه رائحة الشواطئ الطينية المسمَّمة.

كان بإمكان جاد تمييز أشكال ضخمة في الظُلمة - *خزانة ملابس* نورما، خزانة وَلْش، الصِوان العالي - لكن دون تفاصيل. حاوَل النهوض على رِجلَين مرتخيتين، وذهنه يصرخ أنه بحاجة إلى مزيد من الوقت، أنه عجوز جداً ليواجه هذا مرة أخرى من دون مزيد من الوقت؛ كان تيمي باترمان شريراً كفاية، وكان جاد يافعاً وقتها.

فُتح الباب المتأرجح مُدخِلاً الظلال. كان أحد الظلال أكبر بكثير من البقية.

يا إلهي، يا لها من رائحة كريهة.

جرجرة أقدام في الظلمة.

"غايدج؟"، استعاد جاد قدمَيه أخيراً. من إحدى زوايا عينه رأى اللفّة المُتقَنة لرماد سيجارة في المنفضة. "غايدج، هل هذا أ -"

صدرَ صوت أنين بشع الآن، وللحظة أصبحت كل عظام جاد جليداً أبيض. لم يكن إبن لويس مَن عاد من القبر بل عفريتٌ بشعٌ -

لا. ليس غايدج أو عفريت.

كان تشرش، رابضاً عند مدخَل الردهة، هو الذي يُصدر ذلك الصوت. اتّسَعت عينا القط تدريجياً مثل مصباحَين قذرَين، ثم تحرَّكتا في الاتجاه الآخر وتركَّزتا على الشيء الذي دخلَ معه.

بدأ جاد يتراجع، محاولاً التقاط أفكاره، محاولاً تمالك نفسه أمام تلك الرائحة. آه، الجو باردٌ هنا - فقد أحضَر الشيء برده معه.

راح جاد يتأرجح بشكل متزعزع على قدمَيه - كان القط، يدور حول رِجليه، جعله يترنَّح. كان يخرخر. ركله جاد، مُبعداً إياه عنه. كشَّر عن أسنانه وراح يهسهس عليه.

فكِّر! فكّر، أيها العجوز الغبي، قد لا يكون الأوان قد فات، حتى الآن قد لا يكون قد فات... لقد عاد لكن يمكن قتله مرة أخرى... إذا كنتَ تستطيع فقط فعل ذلك... إذا كنتَ تستطيع فقط التفكير...

تراجَع نحو المطبخ، وتذكَّر فجأة جارور الأدوات بجانب المغسلة. هناك ساطور لحم في ذلك الجارور.

ارتطمت ساقاه النحيلتان بالباب المتأرجح الذي يؤدّي إلى المطبخ ودفَعه ليفتحه. كان الشيء الذي دخلَ منزله لا يزال غامضاً، لكن بإمكان جاد سماعه يتنفّس. يمكنه رؤية يد بيضاء واحدة تلوّح ذهاباً وإياباً - هناك شيء في تلك اليد، لكن لا يمكنه تمييزه. تأرجح الباب عائداً إلى مكانه عندما دخلَ المطبخ، وأدار جاد ظهره أخيراً وركَض إلى جارور الأدوات. فتحه بارتعاش وعثر على المقبض الخشبي الصلب للساطور الرثّ. أمسكه بسرعة واستدار نحو الباب مرة أخرى؛ حتى إنه خطا خطوة أو خطوتين نحوه. لقد عادت بعض شجاعته.

تذكَّر أنه ليس ولداً. قد يصرخ أو شيء من هذا القبيل عندما يرى أنك عرفتَه على حقيقته؛ وقد يبكي. لكن لا تدعه يخدعك. لقد خُدعتَ مرات عديدة من قبل أيها العجوز. هذه فرصتك الأخيرة.

فُتح الباب المتأرجح مرة أخرى، لكن لم يعبره إلا القط في البدء. تتبَّعته عينا جاد للحظة ثم رفعَ نظره مرة أخرى.

كان المطبخ مواجهاً للشرق، ودخَلت خيوط الفجر الأولى من

النوافذ، باهتةً وبيضاء حليبيّة. ليس بالضوء الكثير لكنه كافٍ. كثيراً.

دخَل غايدج كريد، مرتدياً بذلة دفنه. كان الطحلب ينمو على كتفَي البذلة وطيّات صدرها. الطحلب أفسدَ قميصه الأبيض. وشعره الأشقر الناعم ملطَّخ بالتربة. استدارت عينٌ واحدةٌ إلى الجدار، وراحت تحدِّق في الفراغ بتركيزٍ فظيعٍ. بينما كانت الثانية مركّزةً على جاد بحدّة.

كان غايدج يبتسم له.

"مرحباً يا جاد"، تحدَّث غايدج بصوتٍ طفوليٍ فيه صفير لكن مفهوماً تماماً. "لقد أتيتُ لأُرسل روحك العجوزة النتِنة العَفِنة إلى الجحيم مباشرة. لقد قضيتَ عليَّ سابقاً. هل اعتقدتَ أنني لن أعود عاجلاً أم آجلاً وأقضي عليك؟".

رفعَ جاد الساطور. "تعال إذاً وجرِّب حظك، أياً تكون. سنرى مَن يقضي على الآخر".

"نورما ماتت، ولن يكون هناك أحد ليندبك"، قال غايدج. "كم كانت حقيرةً. لقد ضاجعت كل أصدقائك يا جاد. تركَتهم يُدخلونه في مؤخِّرتها. تلك كانت وضعيتها المفضَّلة. إنها تحترق في الجحيم، بالتهاب مفاصلها وكل شيء. لقد *رأيْتها* هناك يا جاد. *رأيْتها* هناك".

تطوَّح خطوتين نحوه، وحذاؤه يترك بُقعاً موحِلة على مشمَّع الأرضية الرثّ. مدَّ يداً أمامه كما لو أنه يريد مصافحته؛ كانت اليد الأخرى مكوَّرةً خلف ظهره.

"اسمع يا جاد"، همَس – ثم بقي فمه مفتوحاً، كاشفاً عن أسنان حليب صغيرة، ورغم أن شفتيه لم تتحرَّكا، إلا أنهما أصدرتا صوت نورما.

"أيها الوغد الحقير. لطالما كرهتُك. لقد سخِرتُ منك! كلنا سخِرنا منك! آه كم كنا نضحككككككك –"

"توقف!"، قال والساطور يرتجف في يده.

"مارسناه في سرينا، هيرك وأنا مارسناه، ومارستُه مع جورج، مارستُه معهم كلهم. كنتُ أعرف عن كل بائعات هواك لكنك لم تعرف أبداً أنك تزوجتَ بائعة هوى وكم كنا نضحك يا جاد! كنا نمرح سويةً ونضحكككككك عليك –"

"توقف!"، صَرَخ جاد. هرع نحو الشكل المتمايل الصغير في بذلة دفنه القذرة، وعندها انقضَّ القط من الظلمة تحت الطاولة حيث كان يربض. كان يهسهس، وأذناه مشدودتين إلى الخلف على طول جمجمته، وجعلَ جاد يتعثَّر به. طار الساطور من يده، وانزلق على مشمَّع الأرضية المحدَّب والباهت، وراحت الشفرة والمقبض يتبادلان الأماكن بينما كان يدور بسرعة. ارتطم بنعل الجدار مُحدثاً قعقعةً خفيفةً وانزلق تحت البرّاد.

أدرَك جاد أنه خُدع مرة أخرى، وكانت تعزيته الوحيدة أن ذلك سيكون للمرة الأخيرة. كان القط على رِجليه، فمه مفتوحاً، وعيناه ملتهِبتين، ويهسهس مثل غلاية الشاي. ثم أصبح غايدج عليه، مبتسماً ابتسامةً سوداء سعيدةً، وعيناه محاطتين بدائرتين حمراوين، وظهرت يده اليمنى من خلف ظهره، ورأى جاد أن ما كان يحمله عندما دخَل كان مِبضَعاً من حقيبة لويس السوداء.

"يا للهول"، استطاع جاد أن يقول، ورفع يده اليمنى ليمنع الضربة. وحدثَ وهمٌ بصريٌ؛ لا شك أن ذهنه طاشَ لأنه بدا له أن المِبضَع كان على جهتَي راحة يده في الوقت نفسه. ثم بدأ شيءٌ دافئٌ يسيل على وجهه، وفهِم أنه لم يكن وهماً.

"سأقضي *عليك* أيها العجوز!"، قهقه الشيء الذي كان غايدج، لاهثاً أنفاسه المسمَّمة في وجهه. "سأقضي *عليك*! سأقضي عليكم

كلكم... *أريد*!".

لوَّح جاد يده وأمسك معصم غايدج، نازعاً جلده عنه مثل برشمان.

سقط المِبضَع من يده، تاركاً وراءه فماً عمودياً.

"*كلكم... أريد!*".

انخفَض المِبضَع مرة أخرى. وأخرى. وأخرى.

الفصل 59

"جرِّبي الآن يا سيدتي"، قال سائق الشاحنة. كان ينظر إلى محرِّك السيارة التي استأجرتها رايتشل.

أدارت المفتاح. زأر محرِّك الشوفَتّ واشتغل. خبطَ سائق الشاحنة الغطاء واقترب من نافذتها، وهو يمسح يديه بمنديل أزرق كبير. كان وجهه لطيفاً متورِّداً، وقد برم قبعة استراحة ديزارت لسائقي الشاحنات التي يرتديها على رأسه إلى الخلف.

"شكراً جزيلاً"، قالت رايتشل وهي على وشك أن تبكي. "لم أعرف ماذا كنتُ سأفعل".

"آه، أي ولد كان بمقدوره إصلاح ذلك"، قال سائق الشاحنة. "لكنه أمر مضحك. فأنا لم أر أبداً شيئاً مثل هذا يتعطَّل في هكذا سيارة جديدة، على أي حال".

"لماذا؟ ماذا كان العطل؟".

"أحد أسلاك بطاريتك خرج بالكامل من مكانه. لم يكن أحدٌ يعبث به، أليس كذلك؟".

"لا"، قالت رايتشل، وتذكَّرت مجدداً ذلك الشعور الذي انتابها، ذلك الشعور بأنها اصطدمت بالحزام المطاطي لأكبر مقلاع في العالم.

"لا بدّ أنه ارتخى من القيادة، أظن. لكنك لن تصادفي أي متاعب أخرى مع أسلاكك على أي حال. لقد ثبَّتُّها جيداً".

"هل يمكنني أن أعطيك بعض المال؟"، سألت رايتشل بخجل.

زأر سائق الشاحنة من الضحك. "ليس أنا يا سيدة"، قال. "نحن الشباب هنا فرسان الطريق، ألا تتذكَّرين؟".

ابتسمت. "حسناً... شكراً لك".

"على الرحب والسعة". أعطاها ابتسامة كبيرة، مليئة بغرابةٍ بأشعة الشمس في مثل هذه الساعة من الصباح.

ابتسمت رايتشل بدورها وقادت بحذر في مرأب السيارات نحو الطريق الفرعي. نظرت في الاتجاهين لتتفحَّص حركة المرور وأصبحت على الطريق الرئيسي بعد خمس دقائق، متوجِّهةً شمالاً. ساعدتها القهوة أكثر مما كانت تتوقَّع. فأصبحت تشعر أنها مستيقظة كلياً الآن، وغير نعسة أبداً، وعيناها كبيرتان مثل مقابض أبواب. لمستها ريشة القلق تلك مرة أخرى، ذلك الشعور المنافي للعقل بأنه يجري التلاعب بها. لقد انفصل سلك البطارية من مكانه هكذا بكل بساطة...

لكي يمكن تأخيرها لمدة كافية من أجل...

ضحِكت بعصبية. لمدة كافية من أجل ماذا؟

من أجل أن يحصل شيء مُبَرم لا يمكن إلغاؤه.

هذا أمر غبي. مضحك. لكن رايتشل بدأت رغم ذلك تزيد من سرعة السيارة الصغيرة.

عند الساعة الخامسة، وبينما كان جاد يحاول تفادي المِبضَع المسروق من الحقيبة السوداء لصديقه العزيز الدكتور لويس كريد، وبينما كانت إبنتها تستيقظ جافلةً في سريرها، وتصرخ من كابوسٍ لم تستطع لحسن حظها أن تتذكَّره، غادرت رايتشل الطريق الرئيسي، وقادت على الطريق المختصر لشارع هاموند قرب المقبرة حيث كانت مسحاةٌ الآن هي الشيء الوحيد المدفون في تابوت إبنها، واجتازت جسر بانغور-برُوْور. وعند الخامسة والربع، كانت على الطريق 15 متوجِّهةً إلى لادلو.

قرَّرت أن تذهب إلى منزل جاد مباشرة، وستفي بوعدها بهذا القدر على الأقل. لم تكن السيفيك في ممرهم الخاص، على أي حال،

ورغم أنها افترَضت أنها قد تكون في المرأب، إلا أن منزلهم بدا شاغراً نائماً. لم تشعر بأي حدس أن لويس قد يكون في المنزل.

رَكَنت رايتشل خلف شاحنة جاد وخرَجت من الشوفَتّ، وراحت تنظر حولها بعناية. كان العشب ثقيلاً بالندى، يتلألأ في هذا الضوء الجديد الصافي. غرَّد طائرٌ في مكان ما ثم صمتَ. في المناسبات القليلة منذ ما قبل سنوات مراهقتها عندما كانت تستيقظ ولوحدها في الفجر دون أن تكون لديها أي مسؤولية عليها إنجازها، كانت تشعر بالوحدة لكن بالتفاؤل - إحساسٌ متناقض من الحداثة والاستمرارية. لم تشعر هذا الصباح بأي شيء نظيف وجيد إلى هذا الحدّ. كان هناك فقط إحساس متواصل بالقلق لم تستطع أن تنسبه كلياً لساعاتها الأربعة والعشرين الأخيرة الفظيعة وفجيعتها الحديثة.

صعَدت درجات الشرفة ودخلت عبر باب المنخل، وهي تنوي استخدام الجرس القديم الطراز على الباب الأمامي. لقد أعجبها ذلك الجرس منذ أن أتت مع لويس لزيارتهما لأول مرة؛ تفتله باتجاه عقارب الساعة، فيُصدر صرخةً صاخبةً لكن موسيقيةً تنطوي على مفارقة تاريخية لكن سعيدة جداً.

مدَّت يدها إليه الآن، ثم أخفضت نظرها إلى أرضية الشرفة وعبَست. كانت هناك آثار موحِلة على الحصيرة. نظرت حولها ورأت أنها تقود من باب المنخل إلى هذا الباب. آثار قدمَين صغيرتين جداً. قدما ولد، بحسب مظهرها. لكنها كانت تقود طوال الليل، ولم يكن هناك مطر. حتى لم يكن هناك أي ضباب أرضيّ.

بقيت تنظر إلى الآثار لوقت طويل - طويل جداً، في الواقع - واكتشفت أن عليها إجبار يدها على العودة إلى الجرس الدائري. أمسكته... ثم سقطت يدها عنه مرة أخرى.

إنني أتوقَّع، هذا كل ما في الأمر. أتوقّع صوت ذلك الجرس في هذا السكون. الأرجح أنه نام في النهاية وسيوقظه جافلاً...

لكن ذلك لم يكن ما يخيفها. فقد كانت متوترّة، خائفة بطريقة عميقة ومنتشرة منذ أن وجَدت صعوبة كبيرة في البقاء مستيقظة، لكن هذا الخوف الحاد كان شيئاً جديداً، شيئاً له علاقة فقط بتلك الآثار الصغيرة. *آثار بحجم* –

حاوَل ذهنها منع هذا التفكير، لكنه كان مُتعَباً جداً، بطيئاً جداً.

– قدَمي غايدج.

آه توقفي عن هذا، ألا يمكنك أن تتوقفي عن هذا؟

مدَّت يدها وفتلت الجرس.

كان صوته صاخباً حتى أكثر مما تتذكَّر، لكن ليس موسيقياً كثيراً - كان صرخةً حادةً مختنِقةً في السكون. جفلت رايتشل، وضحكت ضحكة صغيرة متوتّرة خالية من الفكاهة كلياً. انتظَرت سماع صوت خُطى جاد، لكن خُطاه لم تأتِ. كان هناك صمتٌ، وصمتٌ، وبدأت تتناقش في ذهنها عما إذا كان بمقدورها إجبار نفسها على فتل ذلك الشكل الحديدي الذي يشبه الفراشة مرة أخرى، عندما جاء صوتٌ من خلف الباب، صوتٌ لم تكن تتوقعه في أعنف توقّعاتها.

واوو!... واوو!... واوو!

"تشرش؟"، سألت، جافلةً ومُحتارةً. انحنت إلى الأمام، لكن الرؤية إلى الداخل كانت مستحيلة بالطبع؛ كان لوح زجاج الباب الكبير مغطى بستارة بيضاء أنيقة. نِتاج نورما. "تشرش، هل هذا أنت؟".

واوو!

حاوَلت رايتشل فتح الباب. لم يكن مقفلاً. كان تشرش هناك، جالساً في الرواق وقد لفّ ذيله بشكل أنيق حول قدمَيه، وفروه محزَّز

بشيء داكن. وحل، فكَّرت رايتشل في سرّها، ثم رأت أن نقاط السائل العالقة على شواربه حمراء.

رفعَ كفّاً وبدأ يلعقه، وعيناه لم تتوقفا أبداً عن النظر إلى وجهها.

"جاد؟"، نادت، قلقةً حقاً الآن. دخلت الباب بخطوة واحدة.

لم يعطِ المنزل أي جواب؛ مجرد صمت.

حاوَلت رايتشل التفكير، لكن فجأة بدأت صور ضبابية لأختها زيلدا تتسلَّل إلى ذهنها. كيف كانت يداها مفتولتين. كيف كانت تخبط رأسها بالجدار أحياناً عندما تكون غاضبة – كان الورق ممزَّقاً هناك، والجصّ الذي تحته ممزَّق ومكسور. هذا ليس الوقت المناسب للتفكير بزيلدا، ليس عندما يكون هناك احتمال أن جاد تعرَّض للأذى. ماذا لو كان قد سقط عن السلالم؟ كان عجوزاً.

فكِّري بهذا، وليس بأحلامك عندما كنتِ طفلةً، أحلام فتح الخزانة وانقضاض زيلدا عليكِ بوجهها المُسَوَّد المبتسم، أحلام تواجدك في حوض الاستحمام ورؤية عيَني زيلدا تحدِّقان بك من البالوعة، أحلام اختباء زيلدا في القبو خلف الفرن، أحلام –

فتح تشرش فمه، كاشفاً عن أسنانه الحادة وصاح *واوو!* مرة أخرى.

كان لويس محقاً، ما كان علينا إصلاحه أبداً، لم يعد يبدو بخير منذ ذلك الوقت. لكن لويس قال إن ذلك سيزيل كل غرائزه العدوانية. كان مخطئاً بشأن ذلك، على أي حال؛ تشرش لا يزال يصطاد. إنه –

واوو! صاح تشرش مرة أخرى، ثم استدار وصعد الدرجات مندفِعاً.

"جاد؟"، نادت مرة أخرى. "هل أنت فوق؟".

واوو! صاح تشرش من أعلى الدرجات، كما لو أنه يريد تأكيد الحقيقة، ثم اختفى في القاعة.

كيف دخل إلى هنا، على أي حال؟ هل أدخله جاد؟ لماذا؟

نقلت رايتشل وزنها من قدم إلى الأخرى، وراحت تتساءل ماذا تفعل الآن. أسوأ ما في الأمر هو أن كل هذا بدا... بدا بطريقة أو بأخرى *منظَّماً*، كما لو أن شيئاً أرادها أن تكون هنا، و–

ثم سِمعت تأوهاً من الطابق العلوي، منخفضاً ومليئاً بالألم – صوت جاد، صوت جاد بالتأكيد. لقد سقَط في الحمّام أو تعثَّر ربما، وكسر رِجله، أو أذى وركه، ربما، فعظام العجائز هشّة جداً، وبالله عليكِ يا فتاة، ماذا تفعلين واقفةً هنا تتأرجحين يميناً ويساراً كما لو أنك تريدين دخول الحمّام، ذلك كان دماً على تشرش، *دماً*، لقد أذى جاد نفسه وأنتِ واقفة هنا لا تفعلين شيئاً! ما خطبك؟

"جاد!"، سِمعت التأوه مرة أخرى، وصعدت الدرجات راكضةً.

لم تصعد إلى فوق أبداً من قبل، ولأن النافذة الوحيدة في القاعة تطلّ غرباً، نحو النهر، كان المكان لا يزال مظلماً جداً. يمتدّ الرواق بشكل مستقيم وعريض بجانب السُلَّم ونحو الجهة الخلفية للمنزل، ودرابزين خشب الكرز يلمع بأناقة شجية. كانت هناك صورة للأكروبوليس على الجدار و

(إنها زيلدا كل تلك السنوات تلاحقك والآن جاء وقتها افتحي الباب الصحيح وستكون هناك بظهرها المحدَّب والمفتول وتعبق برائحة البول والموت إنها زيلدا إنه وقتها وأخيراً قبضت عليك)

سِمعت التأوه مرة أخرى، منخفضاً، من خلف الباب الثاني على اليمين.

بدأت رايتشل تسير نحو ذلك الباب، وكعب حذائها يطقطق على الألواح. بدا لها أنها تمرّ عبر نوعٍ من الانحراف – ليس انحرافاً في الزمن أو الفضاء بل انحرافاً في الحَجم. كان حجمها يصغُر. وصورة

الأكروبوليس تعوم إلى أعلى أكثر فأكثر، وسرعان ما ستصبح مسكة الباب الزجاجية المحفورة عند مستوى عينيها. امتدت يدها نحوها... وقبل أن تتمكن من حتى لمسها، فُتح الباب بقوة.

كانت زيلدا تقف هناك.

كانت محدَّبة ومفتولة، وجسمها مشوَّهاً بوحشية لدرجة أنها أصبحت في الواقع قزماً، لا يزيد طولها عن ستين سنتيمتراً؛ ولسبب من الأسباب كانت زيلدا ترتدي البذلة التي دفنوا غايدج بها. لكنها كانت زيلدا، نعم، وعيناها تبرقان بانشراح مجنون، ووجهها أرجواني مرهَق؛ كانت زيلدا تصرخ، *"عدتُ أخيراً لك يا رايتشل، سأفتل ظهرك مثل ظهري ولن تنهضي عن السرير مرة أخرى أبداً لن تنهضي عن السرير مرة أخرى أبداً لن تنهضي عن السرير مرة أخرى أبداً –"*

كان تشرش جاثماً على أحد كتفَيها وطفا وجه زيلدا وتغيَّر، ورأت رايتشل برعب مُقرف أنها لم تكن زيلدا أبداً، كيف أمكنها أن ترتكب هكذا خطأً غبي؟ كان غايدج. لم يكن وجهه أسود بل قذراً، ملطَّخاً بالدم. وكان متورّماً، كما لو أنه تعرَّض لأذى رهيب ثم أُعيد تركيبه من قِبل يدين بدائيتين غير مكترثتين.

صاحت إسمه وفتحت ذراعيها. ركَض إليها وتسلَّقهما، وطوال الوقت بقيت إحدى يديه خلف ظهره، كما لو أنها تحمل باقة زهور قطفها من مَرج أحدهم.

"أحضَرتُ لك شيئاً يا ماما!"، صاح. *"أحضَرتُ لك شيئاً يا ماما! أحضَرتُ لك شيئاً، أحضَرتُ لك شيئاً!"*.

الفصل 60

استيقظ لويس كريد والشمس ملتهِبة بالكامل في عينيه. حاوَل أن ينهض وكشَّر من الألم الذي في ظهره. كان هائلاً. عاد وسقط على الوسادة ونظرَ إلى نفسه. لا يزال يرتدي كامل ملابسه. يا إلهي.

بقي ممدَّداً هناك للحظة طويلة، وهو يستعدّ ذهنياً ليتغلّب على التصلّب الذي استقرّ في كل عضلاته، ثم استوى جالساً.

"آه، تباً"، همَس. بقيت الغرفة تتأرجَح بلطف لكن بشكل ملحوظ لثوانٍ معدودةٍ. كان ظهره ينبض مثل سن مسوَّس، وعندما حرَّك رأسه، شَعَر كما لو أن الأوتار في عنقه قد استُبدلَت بشفرات منشار حِزامي صدئ. لكن ركبته كانت الأسوأ حقاً. ومرهم الآلام لم يفعل لها شيئاً. كان عليه أن يعطي نفسه حقنة كورتيزون لعينة. كان بنطلونه مشدوداً جداً عند الركبة بسبب التورّم؛ بدا كما لو أنه يوجد بالون هناك.

"يا لبراعتي حقاً"، تمتم. "يا للهول كم أنا بارع".

طواها ببطء شديد لكي يتمكن من الجلوس على حافة السرير، وهو يزمّ شفتيه بقوة لدرجة أنهما ابيضَّتا. ثم بدأ يثنيها قليلاً، وهو يستمع إلى الألم يتكلَّم، محاولاً أن يقرِّر مدى تضرّرها حقاً، وإذا كان يمكنه –

غايدج! هل عاد غايدج؟

هذا جعله يقف على قدمَيه رغم الألم. تطوّح في الغرفة مثل رفيق ماتّ ديلون القديم تشستر. عَبَر الباب والقاعة نحو غرفة غايدج. نظرَ حوله بحدّة، وإسم إبنه يرتعش على شفتيه. لكن الغرفة كانت فارغة. عرَج إلى غرفة إيليه، التي كانت فارغة أيضاً، ثم إلى الغرفة الاحتياطية. تلك الغرفة، التي تطلّ على الطريق العام، كانت فارغة أيضاً. لكن –

كانت هناك سيارة غريبة على الطريق. مركونة خلف شاحنة جاد.

وما الضرر في ذلك؟

الضرر هو أن مركبةً غريبةً هناك يمكن أن تعني متاعب.

رفعَ لويس الستارة وتفحَّص المركبة عن كثب. إنها سيارة زرقاء صغيرة، شوفَتّ. ومكوِّراً نفسه فوقها، نائماً على ما يبدو، كان تشرش.

بقي ينظر لوقت طويل قبل أن يفلت الستارة. هناك ضيف في منزل جاد، هذا كل ما في الأمر، وما الضرر في ذلك؟ وربما من المُبكر جداً القلق عما كان سيحصل أو لن يحصل مع غايدج؛ فتشرش لم يعد إلا عند الظهر أو بعده بقليل، ولا تزال الساعة التاسعة الآن. التاسعة في صباح يوم مايو جميل. سينزل إلى الطابق السفلي ويُعدّ بعض القهوة، ويُحضِر وسادة التسخين ويلفّها حول ركبته، و-

-وماذا يفعل تشرش على سطح تلك السيارة؟

"آه، بالله عليك"، قال بصوتٍ عالٍ وبدأ يعرج عائداً عبر القاعة. القطط تنام في أي مكان وفي كل مكان؛ هذا من طبيعة الوحش -

ما عدا أن تشرش لم يعد يجتاز الطريق بعد الآن، هل تتذكَّر؟

"انسَ المسألة"، تمتم ووقف في منتصف الدرجات (التي كان ينزلها بشكل جانبي تقريباً). التكلم مع نفسه أمر سيئ. أمر -

ماذا كان ذلك الشيء في الغابة ليلة أمس؟

خطرت الفكرة بباله دون أن يطلبها، مما جعله يزمّ شفتيه على غرار ما فعله الألم في ركبته عندما لوَّحها خارج السرير. لقد حلَم بالشيء الموجود في الغابة ليلة أمس. وبدا أن أحلامه بعالم ديزني امتزجت بشكل طبيعي وسهولة مميتة مع أحلام ذلك الشيء. حلَم أنه لمَسه، مُفسِداً له كل أحلامه السعيدة إلى الأبد، معفِّناً كل النوايا الطيبة. كان الوينديغو، وقد حوَّله ليس إلى آكل لحوم بشر فحسب بل

إلى ملك آكلي لحوم البشر. كان في حلمه في مقبرة الحيوانات مرة أخرى، لكن ليس لوحده. كان بيل وتيمي باترمان هناك. وجاد كان هناك، يبدو شبحيّاً وميتاً، يُمسك كلبه سپوت برَسَن مصنوع من حبل ملابس. كان لسْتر مورغان هناك مع هانراتي الثور مربوطاً بسلسلة طولها مماثل لسلاسل قَطر السيارات. كان هانراتي مستلقٍ على جنبه، ينظر حوله بحنق غبي مخدَّر. ولسبب من الأسباب كانت رايتشل هناك أيضاً، وقد تعرَّضت لحادثٍ على طاولة العشاء - فقد سكبت زجاجة كاتشاب أو ربما طبق مربى عنبيّة كبير على نفسها، ربما، لأن فستانها كان ملطَّخاً ببُقع حمراء.

ثم، صاعداً من خلف الأشجار الساقطة إلى ارتفاع هائل، بشرته مثل بشرة الزواحف المتشقِّقة الصفراء، وعيناه مثل مصابيح الضباب الكبيرة المزدوجة الجفن، وأذناه ليستا أذنَين أبداً بل بوقَين مجعَّدين ضخمين، كان الويندیغو، وحشاً بدا كأنه سحلية وُلدت من امرأة. وجَّه إصبعه ذا الظفر المسنَّن إليهم كلهم بينما رفعوا أعناقهم صعوداً صعوداً لمراقبته...

"توقف"، همَس وارتجف من صوته. قرَّر أن يخرج إلى المطبخ، ويُعدّ فطوراً لنفسه كما لو أنه يوم عادي. فطور أعزب، مليء بالكوليسترول المريح. شطيرة بيضتين مقليتين مع مايونيز وشرحة بصل برمودا على كل واحدة. شمَّ رائحة عرقه الكريهة القوية، لكنه سيؤجِّل الدُش إلى وقت لاحق؛ فخلع الملابس الآن بدا أنه يتطلّب جهداً كبيراً، وخشيَ أنه قد يضطر إلى إخراج المِبضَع من حقيبته ويفتح بها رِجل بنطلونه لكي يسمح لركبته المنتفخة بالهروب. يا لها من طريقة لعينة لاستخدام الآلات الجيدة، لكن لا يوجد أي سكين في المنزل سيقصّ قماش سروال الجينز السميك، ومقص خياطة رايتشل لن يفي بالغرض أيضاً.

لكن الفطور أولاً.

لذا اجتاز غرفة الجلوس ثم انعطَف إلى المدخل الأمامي ونظر إلى السيارة الزرقاء الصغيرة المركونة في ممر جاد. كانت مغطاة بالندى، وهذا يعني أنها مركونة هناك منذ بعض الوقت. كان تشرش لا يزال على سقفها لكن غير نائم. بدا أنه يحدِّق في لويس مباشرة بعينيه الصفراوين البشعتين.

تراجَع لويس إلى الوراء على عجل، كما لو أن شخصاً قبض عليه يختلس النظر.

دخَل المطبخ، وأخرَج مقلاةً، ووضعها على الموقد، وأحضَرَ بيضاً من البرّاد. كان المطبخ ساطعاً ومتموِّجاً وصافياً. حاوَل أن يصفِّر، فالصفير سيعيد للصباح طابعه الملائم، لكنه لم يستطع. بدت الأمور صحيحة، لكنها لم تكن صحيحة. بدا المنزل فارغاً بشكل مُرعِب، وعمل ليلة أمس أثقل كاهله. كانت الأمور خاطئة، موروبة؛ شعَر بظل يحوم حوله، وانتابه الخوف.

عرَج إلى الحمّام وأخذ حبتَي أسبرين مع كوب عصير برتقال. كان عائداً إلى الموقد عندما رنَّ الهاتف.

لم يردّ عليه فوراً بل استدار ونظَرَ إليه، وهو يشعر بالبطء والغباء، كأنه أبله في لعبةٍ أدرك للتو أنه لا يفهمها أبداً.

لا تردّ، لن تريد أن تردّ عليه لأنه الخبر السيئ، لأنه طرف الرَسَن الذي يلتفّ حول الزاوية ويقود إلى الظلمة، ولا أعتقد أنك تريد رؤية ماذا يوجد على الطرف الآخر لذلك الرَسَن يا لويس، لا أعتقد ذلك حقاً، لذا لا تردّ على الهاتف، اركض، اركض الآن، السيارة في المرأب، اركبها وانطلق، لكن لا تردّ على الهاتف –

اجتاز الغرفة ورفع السمّاعة واقفاً هناك واضعاً يداً على المجفِّف

مثلما فعل مرات عديدة من قبل، وكان إروين غولدمان، وحتى عندما ألقى إروين التحية، رأى لويس الآثار التي تقود إلى المطبخ - آثار صغيرة موحِلة - وبدا أن قلبه تجمَّد في صدره، وصدَّق أنه يمكنه الشعور بمُقلتَي عينيه تتورّمان في رأسه، تنخلعان من محجريهما؛ صدَّق أنه لو استطاع رؤية نفسه في مرآة في تلك اللحظة لرأى وجهاً من كتاب هزلي رخيص. كانت آثار غايدج، غايدج هنا، *لقد جاء في الليل*، لكن أين هو الآن؟

"أنا إروين يا لويس... لويس؟ هل أنت معي؟ ألو؟".

"مرحباً يا إروين"، قال، وعرَف مسبقاً ماذا كان إروين سيقول. فهِم السيارة الزرقاء. فهِم كل شيء. الرَسَن... دخول الرَسَن في الظلمة... كان يسير بسرعة عليه الآن، يداً تلو الأخرى. آه، لو يمكنه إفلاته قبل أن يرى ماذا يوجد عند طرفه! لكنه كان رَسَنه. لقد اشتراه.

"اعتقَدتُ للحظة أن الخط انقطع"، كان غولدمان يقول.

"لا، سقطت السمّاعة من يدي"، قال لويس. كان صوته هادئاً.

"هل وصلت رايتشل إلى المنزل ليلة أمس؟".

"آه نعم"، قال لويس وهو يفكِّر بالسيارة الزرقاء، وتشرش الجاثم فوقها، السيارة الزرقاء التي كانت جامدة. تتبَّعت عيناه الآثار الموحِلة على الأرض.

"أودّ التكلّم معها"، قال غولدمان. "فوراً. عن إيليه".

"إيليه؟ ماذا بشأن إيليه؟".

"أعتقد حقاً أن رايتشل –"

"رايتشل ليست هنا الآن"، قال لويس بقسوة. "ذهبت إلى المتجر لإحضار الخبز والحليب. ماذا بشأن إيليه؟ بالله عليك يا إروين!".

"اضطررنا إلى أخذها إلى المستشفى"، قال غولدمان على مضض.

"حلَمت حلماً مزعجاً أو سلسلة كاملة منها. كانت هستيرية ولم تكن تخرج من تلك الحالة. إنها –"

"هل سكَّنوا ألمها؟".

"ماذا؟".

"تسكين الألم"، قال لويس بفارغ الصبر، "هل أعطوها مسكِّناً للألم؟".

"نعم، آه نعم. أعطوها حبةً، وعادت إلى النوم".

"هل قالت أي شيء؟ ما الذي أخافها إلى ذلك الحدّ؟". كان يُمسك سمّاعة الهاتف بمفاصل أصابع بيضاء الآن.

صمتٌ من طرف إروين غولدمان – صمتٌ طويلٌ. لم يقاطعه لويس هذه المرة، مثلما كان يودّ كثيراً.

"هذا ما أخافَ دوري كثيراً"، قال إروين أخيراً. "ثرثَرت كثيراً قبل أن... قبل أن تبدأ بالبكاء بشدة بحيث لم نعد نفهم عليها شيئاً. دوري نفسها كانت تقريباً... أنتَ تعرف".

"ماذا قالت؟".

"قالت إن أوز الكبير والرهيب قتلَ أمها. إلا أنها لم تقله بهذه الطريقة. قالت... قالت 'أوز الكبيل واللهيب'، وهي الطريقة التي كانت إبنتنا الأخرى تقولها دائماً. إبنتنا زيلدا. صدِّقني يا لويس عندما أقول إنني كنتُ أفضِّل كثيراً طرح هذا السؤال على رايتشل، لكن كم أخبرَتما إيليه عن زيلدا وعن طريقة موتها؟".

أغمضَ لويس عينيه؛ شعَر أن العالم يهتزّ بلطف تحت قدمَيه، واكتسب صوت غولدمان النوعية المفقودة لصوتٍ قادمٍ عبر غشاوة سميكة.

قد تسمع أصواتاً تبدو بشريةً، لكنها الطيور الغوّاصة جنوباً نحو

بروسبكت. الصوت ينتقل.

"لويس، هل أنت معي؟".

"هل ستكون بخير؟"، سأل لويس، وصوته بعيدٌ أيضاً. "هل ستكون إيليه بخير؟ هل حصلتَ على مآلٍ؟".

"صدمة متأخرة من الجنازة"، قال غولدمان. "جاء طبيبي الخاص. لاثروپ. رجل طيب. قال إن لديها درجة من الحمى وإنها قد لا تتذكَّر عندما تستيقظ بعد ظهر اليوم. لكنني أعتقد أن رايتشل يجب أن تعود. أنا خائف يا لويس. وأعتقد أنك يجب أن تعود أنت أيضاً".

لم يُجبه لويس. كانت عيناه مركِّزتين على تلك الآثار الموحِلة.

"لويس، غايدج مات"، كان غولدمان يقول. "أعرف أنه من الصعب تقبُّل ذلك - عليك وعلى رايتشل - لكن إبنتك حيّة كثيراً، وتحتاج إليكما".

نعم، أقبل هذا. قد تكون وغداً غبياً يا إروين، لكن ربما الكابوس الذي مَرَّ بين إبنَتيك في ذلك اليوم من أبريل 1965 علَّمك شيئاً عن الحساسية. إنها تحتاج إليَّ، لكن لا يمكنني القدوم، لأنني أخشى - أخشى كثيراً - أن يديَّ ملوَّثتان بدم أمها.

تمعَّن لويس بتلك اليدين. تمعَّن لويس بالتربة تحت أظافره، التي كانت مشابهة كثيراً للتربة التي تشكَّلت منها تلك الآثار على أرضية المطبخ.

"حسناً"، قال، "أفهم. سنكون هناك حالما نستطيع يا إروين. هذه الليلة، إن أمكن. شكراً".

"بَذَلنا قُصارى جهدنا"، قال غولدمان. "ربما نحن عجوزان جداً. ربما يا لويس، ربما لطالما كنا عجوزين".

"هل قالت أي شيء آخر؟"، سأل لويس.

كان رد غولدمان مثل قرع جرس جنازة على جدار قلبه. "الكثير، لكنني لم أفهم سوى شيء واحد آخر فقط: 'يقول باكسكاو إن الأوان فات".

أغلق سمّاعة الهاتف وعاد نحو الموقد مذهولاً، على ما يبدو أراد متابعة إعداد الفطور أو وضع الأشياء جانباً، لم يعرف أياً منهما سيفعل، وأصابته موجة غثيان بعد حوالي منتصف الطريق نحو المطبخ، وغطّى غشاء رمادي نظره، وسقط على الأرض مغمياً عليه - كانت "مغمياً عليه" هي الكلمة الصحيحة لأنه بدا أنها دامت إلى الأبد. سقَط أرضاً مخترقاً أعماقاً غائمةً؛ بدا له أنه تشقلب وتشقلب ودار عدة دورات كاملة. ثم خبطَ ركبته المتضرِّرة وأعادت له زوبعة الألم الكبير وعيه، ولم يسعه للحظات سوى أن يربض والدموع تسيل من عينيه.

تمكّن أخيراً من الوقوف على قدمَيه، وراح يتمايل. لكن ذهنه عاد صافياً من جديد. هذا كان شيئاً. أليس كذلك؟

عادت إليه الرغبة بالفرار، للمرة الأخيرة، أقوى من أي وقت مضى - شعَر في الواقع بالانتفاخ المريح لمفاتيح سيارته في جيبه. سيركب السيفيك ويقود إلى شيكاغو. سيأخذ إيليه ويتابعان طريقهما من هناك. بالطبع وقتها سيعلم غولدمان أن هناك خطباً ما، أن هناك شيئاً خاطئاً بشكل مُرعِب، لكنه سيأخذها على أي حال... يختطفها، إذا لزم الأمر.

ثم سقطت يده بعيداً عن انتفاخ المفاتيح. ما قتل رغبته لم يكن الإحساس بعدم الجدوى، لم يكن الشعور بالذنب، لم يكن اليأس أو الإرهاق العميق الذي في داخله. كان رؤية تلك الآثار الموحِلة على أرضية المطبخ. في تصوُّره يمكنه أن يراها ترسم مساراً عبر الدولة

بأكملها – إلى إيلينوي أولاً، ثم إلى فلوريدا – عبر العالم بأسره، إذا لزم الأمر. ما اشتريتَه أصبح ملكك، وما أصبح ملكك عاد إلى المنزل في نهاية المطاف بحثاً عنك.

سيأتي يومٌ يفتح فيه باباً ويجد غايدج أمامه، بنسخةٍ ساخرةٍ مخبولةٍ عن ذاته السابقة، يبتسم ابتسامةً غائرةً، وقد أصبحت عيناه الزرقاوان صفراوين غبيتين. أو تفتح إيليه باب الحمّام لتأخذ دُشها الصباحي، وتجد غايدج في المغطس، بجسمه المتقاطع بالندبات والانتفاخات الخافتة لحادثه المميت، بجسمه النظيف لكن النتِن برائحة القبر.

آه نعم، سيأتي ذلك اليوم – ليس لديه أي شكّ في ذلك.

"كيف استطعتُ أن أكون بهذا الغباء؟"، قال للغرفة الفارغة وهو يكلّم نفسه مرة أخرى، غير مكترث. "كيف؟".

الحزن، وليس الغباء يا لويس. هناك فرق... صغير لكن حيوي. البطارية التي تعيش عليها تلك المقبرة. تزداد طاقتها، قال جاد، وبالطبع كان محقّاً – وأنتَ جزء من طاقتها الآن. فقد تغذّت على حزنك... لا، أكثر من ذلك. ضاعَفته، كعّبته، رفعَته إلى أسٍ لانهائيٍ. وهي لا تتغذّى على الحزن فقط. بل على سلامة العقل. لقد أكَلت سلامة عقلك. العيب هو فقط عدم القدرة على تقبل الواقع، وهذا ليس شيئاً غير مألوف. لقد كلّفك ذلك زوجتك، وكلّفك بشكل مؤكَّد تقريباً أعز أصدقائك وكذلك إبنك. نعم، نعم. ما يأتي عندما تكون بطيئاً جداً في تمنّي ابتعاد الشيء الذي يقرع على بابك في منتصف الليل بسيطٌ كفاية: ظلمة دامسة.

سأنتحر الآن، فكَّر في سرّه، وأعتقد أنه يجب وضع ذلك في الحسبان، أليس كذلك؟ لديَّ المعدّات في حقيبتي. لقد دبَّر كل شيء، دبَّره من البداية. المقبرة، الويندیغو، مهما يكن. أجبَر قطّنا على الخروج

إلى الطريق، وربما أجبَر غايدج على الخروج إلى الطريق أيضاً، وأعاد رايتشل إلى المنزل، لكن فقط في الوقت المناسب له. بالتأكيد يُفترَض بي أن أفعل ذلك... وأريد أن أفعله.

لكن يجب وضع الأمور في موضعها الصحيح، أليس كذلك؟

نعم.

هناك غايدج يجب التفكير فيه. كان غايدج لا يزال هناك في الخارج. في مكان ما.

تبَع الآثار في غرفة الطعام وغرفة الجلوس وصعوداً على السلالم. كانت ملطَّخة هناك لأنه سار فوقها أثناء نزوله دون أن يراها. إنها تقود إلى غرفة النوم. كان هنا، فكَّر لويس في سرّه بتعجّب، كان *هنا بالضبط*، ثم رأى أن حقيبته الطبية مفتوحة.

المحتويات داخلها، التي يرتِّبها بأناقة دائماً، كانت ملخبطة الآن. لكن لم يحتج لويس إلى وقت طويل ليرى أن مِبضَعه مفقود، ووضع يديه على وجهه وبقي جالساً بهذه الطريقة لبعض الوقت، وحشرجةٌ خفيفةٌ يائسةٌ تخرج من حنجرته.

أخيراً فتَح الحقيبة مرة أخرى وبدأ يبحث فيها.

الطابق السفلي مرة أخرى.

صوت باب حجرة المؤن يُفتَح. صوت خزانة تُفتَح، ثم تُغلق بعنف. نحيب فتّاحة العلب. وأخيراً، صوت باب المرأب يُفتَح ويُغلَق. ثم أصبح المنزل فارغاً في أشعة شمس مايو، مثلما كان فارغاً في ذلك اليوم من أغسطس قبل سنة، منتظراً وصول أشخاص جدد... مثلما سينتظر وصول أشخاص جدد آخرين في المستقبل، عروسان يافعان

ربما، من دون أولاد (لكن كلهما أمل). عروسان يافعان مرحان يحبّذان شراب عنب مونداڤي وشراب شعير لوڤنبرُو؛ سيكون هو مسؤولاً عن قسم القروض في المصرف الشمالي الشرقي ربما، وستحمل هي شهادة في صحة الأسنان أو ربما تكون لديها خبرة ثلاث سنوات كمساعِدة طبيب عيون. سيحضِّر حطباً للموقد، وسترتدي بنطلوناً مضلَّعاً عالي الخصر وتدخل حقل السيدة ڤينتون لتجمع أعشاب نوفمبر لتزيِّن بها المائدة، وقد ربطت شعرها على شكل ذيل حصان، أسطع شيء تحت السماوات الرمادية، غير مُدركة كلياً بأن نسراً غير مرئي حامَ في تيارات الهواء فوقها. سيهنّئان نفسيهما على عدم تصديقهما الخرافات، وعلى عِنادهما في اقتناص المنزل رغم تاريخه - وسيُخبِران أصدقاءهما أن سعره كان منخفضاً جداً ويمزحان عن الشبح الذي يعيش في العليّة، وسيتناول الجميع كوباً آخر من لوڤنبرُو أو مونداڤي، وقد يلعبون طاولة النرد أو ميل بورن.

وربما سيكون لديهما كلب.

الفصل 61

توقف لويس عند حافة الطريق ليدع شاحنة أورينكو محمَّلة بسماد كيميائي تمرّ قربه محلّقةً، ثم اجتاز الشارع إلى منزل جاد، وهو يجرجر ظلّه إلى الغرب خلفه. كان يُمسك علبة طعام قطط مفتوحة في يدٍ.

رآه تشرش قادماً واستوى جالساً، بعينين يقظتين.

"مرحبا يا تشرش"، قال لويس وهو يتفحَّص المنزل الصامت. "هل تريد بعض الطعام؟".

وَضَع علبة طعام القطط على صندوق الشوفَتّ وأخذ يراقب تشرش يقفز بخفة عن سقفها ويبدأ الأكل. وَضَع لويس يده في جيب سترته. نظر إليه تشرش، متوتراً، كما لو أنه يقرأ أفكاره. ابتسم لويس وابتعَد عن السيارة. بدأ تشرش يأكل مرة أخرى، وأخذ لويس محقنة من جيبه. نزع الغطاء الورقي عنها وملأها بـ 75 ميلليغرام من المورفين. أعاد القارورة المتعددة الجرعات إلى سترته واقترب من تشرش، الذي نظر إليه بارتياب مرة أخرى. ابتسم لويس للقط وقال، "هيا، كُل يا تشرش. يا مَن هنا، هيا بنا، صح؟". مسَّد القط، وشَعَر بظهره يتقوَّس، وعندما عاد تشرش إلى وجبة طعامه من جديد، قبض عليه لويس عند بطنه النتِن وأغرَق الإبرة عميقاً في وركه.

أخذ تشرش يتلوّى بين يديه، يكافِحه، ويبصق ويخمش، لكن لويس أمسكه بقوة وضغط مكبس الإبرة إلى حدّها الأقصى. فقط عندها أفلته. قفز القط عن الشوفَتّ، وهو يهسهس مثل غلاية شاي، وعيناه الصفراوان شرستان ومُهلِكتان. تدلّت الإبرة والمحقنة من وركه بينما قفز، ثم سقطت وانكسرت. لم يكترث لويس لذلك. كان معه المزيد منها.

سار القط متوجِّهاً إلى الطريق، ثم عاد نحو المنزل، كما لو أنه تذكَّر شيئاً. قطعَ منتصف المسافة إلى هناك ثم بدأ يترنَّح. وصل إلى السلالم، وقفز إلى الدرجة الأولى، ثم سقط عنها. تمدَّد على جنبه عند الرقعة العارية أسفل سلالم الشرفة، وراح يتنفّس بضعف.

ألقى لويس نظرة سريعة على الشوفَتّ. لو كان بحاجة إلى تأكيد أكثر من الحجر الذي استبدَل قلبه، فقد ناله: جزدان رايتشل على المقعد، وشاحها، ومجموعة تذاكر سفر ناتئة من مجلد لشركة طيران دلتا.

عندما استدار مرة أخرى ليسير إلى الشرفة، كان جنب تشرش قد توقَّف عن حركته السريعة المضطربة. لقد مات تشرش. مرة أخرى.

عَبَر لويس فوقه وصعِد سلالم الشرفة.

"غايدج؟".

كان الجو بارداً في القاعة الأمامية. بارداً ومظلماً. سقطت الكلمة الوحيدة في الصمت مثل حجر في بئر عميق. رمى لويس واحدةً أخرى.

"غايدج؟".

لا شيء. حتى تكتكات الساعة في الردهة توقَّفت. لم يكن هناك أحد هذا الصباح لكي يعبئها.

لكن كانت هناك آثار على الأرض.

دخَل لويس غرفة الجلوس. شمَّ رائحة سجائر، بالية وطويلة منذ أن احترقت كلها. رأى كرسي جاد قرب النافذة. كان منحرفاً، كما لو أنه نهض عنه فجأة. وكانت هناك منفضة على عتبة النافذة، وفيها لفّة مُتقَنة من رماد سيجارة.

لقد جلَس جاد هنا منتظراً. ينتظر ماذا؟ ينتظرني بالطبع، ينتظر عودتي إلى المنزل. لكن عودتي فاتته. فاتته بطريقة أو بأخرى.

ألقى لويس نظرة سريعة على عبوات شراب الشعير الأربعة المصطفة في صف مُتقَن. غير كافية لكي تجعله ينام، لكنه نهض ربما ليدخل الحمّام. مهما يكن، كان الأمر جيداً جداً أكثر من المتوقع بقليل لكي يكون صدفةً، أليس كذلك؟

اقتربت الآثار الموحِلة من الكرسي الموضوع عند النافذة. ممزوجة بين الآثار البشرية كانت بضعة آثار قط متلاشية شبحيّة. كما لو أن تشرش داسَ وهو يدخل ويخرج على أوساخ القبر التي خلّفها حذاء غايدج الصغير. ثم توجَّهت الآثار نحو الباب المتأرجح الذي يقود إلى المطبخ.

بقلبٍ ينبض بسرعة، تبَع لويس الآثار.

فتَح الباب ورأى قدمَي جاد المتباعدتين، وسروال عمله القديم الأخضر، وقميصه ذا المربعات. كان العجوز ممدَّداً في حوض عريض من دم بدأ يجفّ.

وضع لويس يديه على وجهه، كما لو أنه أراد حجب بصره. لكن لم تكن هناك أي وسيلة لفعل ذلك؛ فقد رأى عينين، عينَي جاد، مفتوحتين، تتّهمانه، وربما حتى تتّهمان نفسه للتسبّب ببدء كل هذا.

لكن هل تسبَّب به؟ تساءل لويس. *هل فعل ذلك حقاً؟*

فقد علِم جاد بها من ستاني بي، وستاني بي علِم بها من أبيه، وأب ستاني بي علِم بها من أبيه، آخر تاجر مع الهنود، رجل فرنسي من الريف الشمالي في الأيام عندما كان فرانكلين پيرس رئيساً حياً.

"آه يا جاد، أنا آسف جداً"، همَس.

حدَّقت عينا جاد الفارغتين فيه.

"آسف جداً"، كرَّر لويس.

بدا له أن قدمَيه تتحرَّكان من تلقاء نفسيهما، وعاد بذاكرته فجأة

إلى آخر يوم شُكر، ليس إلى تلك الليلة عندما أخذ وجاد القط إلى مقبرة الحيوانات وما بعدها، بل إلى عشاء الديك الرومي الذي وَضَعته نورما على الطاولة، وكلهم يضحكون ويتكلّمون، الرجلان يشربان شراب الشعير ونورما كوب شراب عنب أبيض، وأخرجَت غطاء الطاولة الأبيض من الجارور السفلي مثلما كان يُخرجه الآن، لكنها وَضَعته على الطاولة ثم ثبَّتته بشمعدانات بيوتر جميلة، بينما هو –

راقَبه لويس ينتفخ نزولاً فوق جثة جاد كمظلّةٍ هابطةٍ، ثم يغطي بشكل رحوم ذلك الوجه الميت. تقريباً فوراً، بدأت بتلات ورود صغيرة جداً ذات لون قرمزي داكن جداً تتشكَّل على الغطاء الأبيض.

"آسف"، قال للمرة الثالثة. "جداً جد –"

ثم تحرَّك شيء فوقه، شيء مكشوط، وانقطعت الكلمة بين شفتيه. كان ناعماً، كان متخفّياً، لكنه كان *مقصوداً*. آه نعم، كان مقتنعاً بذلك. صوتٌ تقصَّد أن يُسمَع.

أرادت يداه أن ترتعشا، لكنه لم يسمح لهما. سار إلى طاولة المطبخ بغطائها المشمَّع ذي المربعات ومدَّ يده إلى جيبه. أخرجَ ثلاث محاقن بِكتون-ديكسون أخرى، ونزع أغلفتها الورقية، ووضعها في صف مُتقَن. أخرجَ ثلاث قوارير متعددة الجرعات أخرى وملأ كل محقنة بكمية كافية من المورفين لقتل حصان – أو هانراتي الثور، إذا وصل الأمر إلى هذا الحدّ. وَضَعها في جيبه مرة أخرى.

غادر المطبخ، ماراً بغرفة الجلوس، ووَقَف عند أسفل السلالم.

"غايدج؟"، نادى.

من مكان ما في الظلال فوق، أتت قهقهةٌ – ضحكةٌ باردةٌ وعديمة الشمس جَعَلت لويس يحسّ بوخزٍ في ظهره.

بدأ يصعد.

كانت المسيرة طويلة إلى أعلى تلك الدرجات. تخيَّل رجلاً مُداناً يتمشّى تقريباً نفس المسافة الطويلة (والقصيرة بشكل رهيب) إلى منصة سقالةٍ ويداه موثوقتان خلف ظهره، وهو يعرف أنه سيبوِّل عندما لا يعود قادراً على أن يصفِّر.

وَصَل إلى الأعلى أخيراً، واضعاً يداً واحدةً في جيبه، ومحدِّقاً فقط في الجدار. لكم من الوقت بقي واقفاً بهذه الطريقة؟ لم يعرف. يستطيع الآن الشعور بسلامة عقله وقد بدأت تُفسح المجال. هذا كان إحساساً فعلياً، شيئاً حقيقياً. كان مثيراً للاهتمام. تخيَّل أن شجرةً مُثقلةً بالثلوج في عاصفة فظيعة ستشعر بهذه الطريقة - إذا كان باستطاعة الأشجار أن تشعر بأي شيء - قُبيل سقوطها.

"غايدج، هل تريد الذهاب إلى فلوريدا معي؟"، نادى أخيراً.

تلك القهقهة مرة أخرى.

استدار لويس وحيّاه منظر زوجته، التي حملَ لها ذات يومٍ وردةً بين أسنانه، ممدَّدةً في منتصف القاعة، ميتةً. كانت رِجلاها متباعدتين تماماً مثل رِجلَي جاد، وظهرها ورأسها مائلين في زاويةٍ عند الجدار. بدت كإمرأة نامت بينما كانت تقرأ في السرير.

سار نحوها.

مرحبا يا حبيبتي، فكَّر في سرّه، *لقد عدتِ إلى المنزل*.

كان الدم قد لطَّخ ورق الجدران بأشكال حمقاء. لقد طُعنَت عشر مرات، عشرين مرة، مَن يعلَم؟ لقد فعل مِبضَعه هذا.

رآها فجأة، *رآها* حقاً، وبدأ لويس كريد يصرخ.

تردَّد صدى صرخاته وأحدَثت ضوضاءَ حادةً في أرجاء هذا المنزل الذي يسكن فيه الآن الموت فقط. راح يصرخ بعينين منتفختين، ووجه غاضب للغاية، وشعر يقف على أطرافه؛ خرجت الأصوات من

حنجرته المتورّمة مثل أجراس الجحيم، زعقاتٌ فظيعةٌ لم تحدِّد نهاية الحبّ بل سلامة العقل؛ كل الصور البشعة تحرَّرت في ذهنه دفعةً واحدةً فجأة. احتضار فيكتور باسكاو على سجادة المشفى، عودة تشرش مع نُتف بلاستيك أخضر على شواربه، جلوس قبعة بيسبول غايدج على الطريق، غارقة بالدم، لكن الأهم هو ذلك الشيء الذي رآه بالقرب من مستنقع الملك الصغير، الشيء الذي أسقطَ الشجرة، الشيء ذو العينين الصفراوين، الويندیغو، مخلوق الريف الشمالي، الشيء الميت الذي توقِظ لمسته شهيةً لا توصف.

لم تُقتَل رايتشل للتو.

هناك شيءٌ... شيءٌ عندها.

(! نقرة !)

كانت تلك النقرة في ذهنه. كانت صوت مُرحِّل ينصهر ويحترق إلى الأبد، صوت برق يحقِّق إصابةً مباشرةً، صوت باب يُفتَح.

رفع نظره بشكل خَدِر، والصرخة لا تزال ترتعش في حنجرته، وها هو غايدج أخيراً، فمه ملطَّخ بالدم، وذقنه ينزف، وشفتاه مشدودتان إلى الخلف في ابتسامة شريرة. كان يحمل مِبضَع لويس في يده.

بينما كان يُنزله، تراجع لويس إلى الخلف من دون أي تفكير حقيقي أبداً. ضرب المِبضَع الهواء أمام وجهه، وفَقَد غايدج توازنه. *إنه غير رشيق مثل تشرش*، فكَّر لويس في سرّه. ركلَ لويس قدمَيه من تحته، فوَقَع غايدج بشكل مُربك، وقفز لويس فوقه قبل أن يتمكّن من النهوض، مفرشخاً إياه، ومثبِّتاً ركبته على اليد التي تحمل المِبضَع.

"لا"، قال الشيء الذي تحته لاهثاً. راح وجهه يتلوّى. كانت عيناه مُهلِكتين، تشبهان عينَي حشرة في كرههما الغبي. "لا، لا، لا -"

قبض لويس يده على إحدى المحاقن وأخرجَها من جيبه. عليه أن

يكون سريعاً. فالشيء الذي تحته كان أشبه بسمكة مدهونة بزيت ولن يُفلِت المِبضَع مهما ضغط له على معصمه. وبدا أن وجهه يتموَّج ويتغيَّر حتى أثناء نظره إليه. كان وجه جاد، ميتاً ومحدِّقاً؛ كان الوجه المنبعِج المُتلَف لفيكتور باسكاو، وعيناه تتدحرجان بغباء؛ كان وجه لويس نفسه، كأنه ينظر إلى مرآة، شاحباً جداً ومجنوناً بشكل مُرعِب. ثم تغيَّر مرة أخرى وأصبح وجه ذلك المخلوق في الغابة - الحاجب المنخفض، العينان الصفراوان الميتتان، اللسان الطويل والمسنَّن والمتشعِّب، يبتسم ويهسهس.

"لا، لا، لا-لا-لا -"

قاوَمَ تحته. طارت المحقنة من يد لويس وتدحرَجت قليلاً في القاعة. راح يتحسَّس بحثاً عن واحدة أخرى، أخرجَها، وغرزها بشكل مستقيم في أسفل ظهر غايدج.

صَرَخ تحته، والجسم يجهد ويتلوّى، وكاد يُسقطه عنه. نخر لويس وأخرجَ المحقنة الثالثة وغرزها في ذراع غايدج، ضاغطاً المكبس إلى حدّه الأقصى. نهض عنه عندها وبدأ يتراجع ببطء في الرواق. نهض غايدج ببطء على قدمَيه وبدأ يترنّح نحوه. خمس خطوات وسقط المِبضَع من يده. ارتطمت شفرته بالأرض أولاً غارزةً نفسها في الخشب، وراح يهتزّ. عشر خطوات وبدأ ذلك الضوء الأصفر الغريب في عينيه يخبو. اثنتا عشرة خطوة وسقطَ على رُكبتَيه.

رفع غايدج نظره الآن وللحظة رأى لويس إبنه - إبنه الحقيقي - وجهه حزينٌ ومليءٌ بالألم.

"*بابا!*"، صاح، ثم سقط إلى الأمام على وجهه.

وَقَف لويس هناك للحظة، ثم اقترب من غايدج، بحذر، متوقعاً خدعةً ما. لكن لم تكن هناك خدعة، لا وثبة مفاجئة بيدَين منقبضتين

كمخلبَين. مرَّر أصابعه بخبرة على حنجرة غايدج، وعثر على النبض، وراح يقيسه. كان طبيباً للمرة الأخيرة في حياته، يراقب النبض، يراقب إلى أن لم يعد هناك شيء، لا شيء في الداخل، لا شيء في الخارج.

عندما زال أخيراً، نهض لويس ومشى الهُوَينى في القاعة إلى زاوية بعيدة. ربضَ هناك، وكوَّر نفسه، حاشراً نفسه في الزاوية، أضيق وأضيق. وجَد أنه يمكنه جعل نفسه أصغر إذا وَضَع إبهاماً في فمه، ففعل ذلك.

بقي على هذا المنوال لأكثر من ساعتين... ثم، شيئاً فشيئاً، جاءته فكرة داكنة ومُقنِعة جداً. سحَب إبهامه من فمه، فأحدثَ فرقعةً صغيرةً. دفعَ لويس نفسه

(يا مَن هنا، هيا بنا)

ليتحرَّك من جديد.

في الغرفة التي كان غايدج قد اختبأ فيها، نزع الملاءة عن السرير وأخذها إلى القاعة. لفّ جثة زوجته بها، بلطف، بحبّ. كان يهمهم لكنه لم يُدرِك ذلك.

وجَد بعض البنزين في مرآب جاد. خمسة غالونات في علبة حمراء بجانب جزّازة العشب. أكثر مما يحتاج إليه. بدأ في المطبخ حيث جاد لا يزال ممدَّداً تحت غطاء طاولة الشُكر. أشبعَ الغطاء، ثم انتقل إلى غرفة الجلوس حيث العلبة لا تزال مقلوبة، وراح يرشّ البنزين على السجادة، الأريكة، رف المجلات، الكراسي، منتقلاً إلى القاعة في الطابق السفلي ونحو غرفة النوم الخلفية. كانت رائحة البنزين قوية.

وجدَ أعواد ثقاب جاد فوق علبة سجائره قرب الكرسي الذي

أجرى منها مراقبته غير المثمرة. أخذها لويس. وقفَ عند الباب الأمامي ورمى عوداً مشتعلاً فوق كتفه وخرَج. كان عصف الحرارة فورياً وضارياً، مما جعل البشرة على عنقه تبدو صغيرة جداً. أغلق الباب بهدوء ووَقَف على الشرفة للحظة، يراقب ألسنة اللهب البرتقالية خلف ستائر نورما. ثم اجتاز الشرفة، توقف للحظة، وتذكَّر شراب الشعير الذي شربه مع جاد هنا منذ مليون سنة، وهو يستمع إلى أجيج النار المستعرة داخل المنزل.

ثم ابتعد.

الفصل 62

انعطف ستيف ماسترتون آخر منعطف قبل منزل لويس ورأى الدخان فوراً – ليس من منزل لويس، بل من منزل العجوز على الجانب المقابل للشارع.

لقد جاء هذا الصباح لأنه كان قلقاً بشأن لويس – قلقاً جداً. فقد أخبَرته شارلتون عن مكالمة رايتشل البارحة، وذلك جعله يتساءل عن مكان لويس... وعما كان يفعله.

كان قلقه غامضاً، لكنه أثار ريبته – لم يكن القلق سيزول إلى أن يذهب إلى هناك ويتأكد أن الأمور بخير... أو بخير بالقدر المناسب وفقاً للظروف.

كان الطقس الربيعي قد فرَّغ المشفى بشكل عجيب، وأبلغه سورندرا أنه يجدر به أن يذهب؛ يمكنه معالجة أي حالة تأتي. لذا قفَز ستيف إلى درّاجته النارية، التي كان قد حرَّرها من المرأب نهاية الأسبوع الفائت فقط، وتوجَّه نحو لادلو. ربما بالغ في سرعته أكثر من المسموح، لكن القلق كان حاضراً؛ مزعجاً. وقد رافقه الشعور المنافي للعقل بأن الأوان فات من قبل. شعور غبي، بالطبع، لكنه مماثل في أعماقه لذلك الشعور الذي انتابه الخريف الفائت عندما دخلَ ذلك الشاب باسكاو – شعور بتفاجؤ بائس وخيبة أمل ثقيلة. لم يكن ستيف رجلاً متديّناً على الإطلاق (كان في الكلّية عضواً في هكذا جمعية طوال فصلين دراسيين وانسحب منها فقط عندما أخبرَه مرشده – على انفراد وبشكل شخصي فقط – أن ذلك قد يقضي على فرصته بالحصول على منحة تعليمية في كلّية الطب لاحقاً)، لكنه افترَض أنه مشابه لكثير من الناس من حيث الهواجس، وقد بدا له أن موت باسكاو ضبط الوتيرة للسنة

التي تلته، بطريقة أو بأخرى. لم تكن سنة جيدة بأي شكل من الأشكال. فقد سُجن نسيبان لسورندرا في وطنه بتهمة سياسية، وأخبَره سورندرا أنه يظن أن أحدهما - عمٌّ يحبّه كثيراً - قد يكون مات الآن. بكى سورندرا، ودموع ذلك الهندي اللطيف عادة أخافت ستيف. كما أجرت والدة شارلتون عملية لاستئصال الثدي. لم تكن الممرضة القاسية متفائلة جداً من فرص انضمام أمها إلى نادي السنوات الخمسة. ستيف نفسه حضرَ أربع جنازات منذ موت فيكتور باسكاو - أخت زوجته، التي قُتلت في حادث سيارة؛ نسيبٌ قُتل في حادث غريب نتيجة رِهانٍ في مقصفٍ (تعرَّض لصدمة كهربائية بينما كان يبرهن أنه يستطيع التسلّق إلى أعلى عمود كهربائي)؛ جدّه؛ وبالطبع إبن لويس الصغير.

وكان لويس يروق له. أراد التأكد أن لويس بخير. فقد مرَّ لويس في أوقات صعبة جداً مؤخراً.

عندما رأى ألسنة الدخان، كانت فكرته الأولى أن هذا شيءٌ جديدٌ لإلقائه على عتبة فيكتور باسكاو، الذي بدا، في احتضاره، قد أزال نوعاً من الحاجز بين هؤلاء الأشخاص العاديين وحظ سيئ طالت مدته. لكن هذا غباءٌ، ومنزل لويس هو الدليل. فقد وَقَف هادئاً أبيض، قطعة صغيرة من هندسة نيو إنغلاند الجميلة في شمس منتصف الصباح.

كان الناس يركضون نحو منزل العجوز، وعندما أمال ستيف درّاجته على الطريق ودخل الممر الخاص لمنزل لويس، رأى رجلاً يندفع إلى شرفة العجوز، ويقترب من الباب الأمامي، ثم يتراجع. كان جيداً أنه فعل ذلك؛ فبعد لحظة انفجَر اللوح الزجاجي الذي في وسط الباب، وخرج اللهب من الفتحة. لو فتح المغفَّل الباب فعلاً، لكان الانفجار قد طبخه كما لو أنه كركند.

نزَل ستيف عن درّاجته وأسندها على مسندها، وقد نسي أمر لويس للحظة. كان منجذباً إلى السر القديم للنيران. ربما ستة أشخاص تجمَّعوا؛ حافظوا على مسافة محترَمة من المنزل ما عدا الراغب في أن يكون بطلاً، الذي تلكّأ على مَرجة عائلة كراندال. انفجَرت الآن النوافذ الواقعة بين الشرفة والمنزل، وتراقَص الزجاج في الهواء. اختبأ الراغب في أن يكون بطلاً. علَت ألسنة اللهب داخل الشرفة كأنها أيدٍ متلمّسةٍ، وراحت تلفح الطلاء الأبيض. بينما كان ستيف يراقب ما يحدث، احترق أحد كراسي خيزران الروطان المريحة من غير لهب ثم انفجر.

بين أصوات الفرقعة، سمِع الراغب في أن يكون بطلاً يصرخ بنبرة تفاؤل حادّة ومنافية للعقل: "سنخسرها! سنخسرها بالتأكيد! إذا كان جاد في الداخل، فقد قُضي عليه! لقد حذّرته من الكريوزوت في تلك المدخنة مئات المرات!".

فتَح ستيف فمه ليصيح له ويسأله إن اتصل أحدهم بمركز الإطفاء، لكنه سمِع لحظتها العويل الخافت لصفارات الإنذار وهي تقترب. الكثير منها. لقد تم استدعاؤها، لكن الراغب في أن يكون بطلاً كان محقاً: المنزل يهوي. خرجت ألسنة اللهب من ست نوافذ محطَّمة الآن، وولَّد طُنُف السقف الأمامي غشاءً شفافاً تقريباً من النيران فوق ألواحه الخشبية الخضراء الساطعة.

استدار عندها وقد تذكَّر لويس - لكن إذا كان لويس هنا، ألن يكون مع الآخرين على الجانب المقابل للشارع؟

لمحَ ستيف شيئاً عندها، مجرد لمحة سريعة من طرف عينه.

وراء الممر الخاص لمنزل لويس هناك حقل يمتدّ صعوداً على تلة طويلة. وأعشاب التيموثي، رغم أنها لا تزال خضراء، إلا أنها نمت عالياً مسبقاً في هذا المايو، لكن ستيف استطاع رؤية مسار، مجزوزٍ بشكل

أنيق تقريباً مثل ملعب غولف. كان يتلوّى صعوداً على منحدر الحقل، ويصعد ليلاقي غابةً بدأت، كثيفة وخضراء، تحت الأفق مباشرة. هناك، حيث يلتقي الأخضر الشاحب لأعشاب التيموثي بالأخضر الأكثر كثافة للغابة، لمح ستيف حركةً - ومضةَ شيءٍ أبيض ساطعٍ بدا أنه يتحرَّك. وقد اختفى حالما التقطته عينه تقريباً، لكن بدا له في تلك اللحظة الوجيزة أنه رأى رجلاً يحمل حزمةً بيضاء.

ذاك كان لويس، أخبَره ذهنه بيقين غير منطقي مفاجئ. *ذاك كان لويس، ومن الأفضل أن تصل إليه سريعاً لأن شيئاً سيئاً لعيناً قد حصل وسريعاً جداً سيحصل شيء سيئ لعين أكثر إذا لم توقفه.*

وَقَف بشكل غير حاسم في الممر الخاص، وراح ينقّل وزنه بنرفزة بين قدمَيه.

عزيزي ستيف، أنت مرتعب بالكامل الآن، أليس كذلك؟

نعم. هذا صحيح. كان مرتعباً بالكامل وبدون أي سبب أبداً. لكن كان هناك أيضاً بعض... بعض

(الانجذاب)

نعم، بعض الانجذاب هنا، شيءٌ في ذلك المسار، المسار الذي يسير صعوداً على التلة وربما يستمر داخل الغابة، بالتأكيد ذلك المسار يجب أن يوصل إلى مكان ما، أليس كذلك؟ نعم، بالطبع. كل المسارات توصل إلى مكان ما في نهاية المطاف.

لويس. لا تنسَ لويس، أيها الأحمق! لويس هو الرجل الذي جئت لتراه، هل تتذكّر؟ لم تأتِ إلى لادلو لكي تستكشف الغابة اللعينة.

"ماذا لديك يا راندي؟"، صاح الراغب في أن يكون بطلاً. صوته، الذي كان لا يزال حادّاً وبطريقة أو بأخرى متفائلاً، بدا جيداً.

حُجب رد راندي تقريباً لكن ليس تماماً بالعويل المتزايد لصفارات

إنذار سيارات الإطفاء. "قط ميت".

"محروق؟".

"لا يبدو محروقاً"، أعاد راندي. "يبدو فقط ميتاً".

وعاد ذهن ستيف بشراسة، كما لو أن الحديث في الجانب المقابل للشارع له علاقة بما رآه - أو بما اعتقَد أنه رآه: ذاك *كان* لويس.

بدأ يتحرَّك عندها، صعوداً على المسار نحو الغابة، تاركاً الحريق خلفه. أصبح متعرّقاً كثيراً حين وَصَل إلى حافة الغابة، وبدا الظل بارداً وجيداً. كان هناك العبير العذب للصنوبر والتنّوب، بلحائه ونُسغه.

بعدما أصبح في الغابة، شرَعَ يركض، دون أن يكون متأكداً لماذا يركض، ودون أن يكون متأكداً لماذا ينبض قلبه ضعف معدله الطبيعي. راحت أنفاسه تُحدِث صفيراً عند الشهيق والزفير. كان قادراً على زيادة سرعته إلى ركض سريع عند نزوله التلة - كان المسار سالِكاً بشكل رائع - لكنه وَصَل إلى القوس الذي يحدِّد مدخل مقبرة الحيوانات بسرعة لا تزيد عن مجرد خُطى سريعة. كان هناك ألم حاد عالياً في جنبه الأيمن، تحت الإبط مباشرة.

بالكاد لاحظت عيناه دوائر القبور - مربعات القصدير المطروق، وقِطع الأخشاب والأردواز. فقد كان نظره مركّزاً على المنظر الغريب في الجهة البعيدة للفسحة الدائرية. كان مركّزاً على لويس الذي كان يتسلَّق كومة أشجار ساقطة، بطريقة تبدو تحدياً صريحاً للجاذبية. فقد صعَد الكومة الشديدة الانحدار خطوةً خطوة، وعيناه تنظران إلى الأمام مباشرة، مثل رجل مبهور أو يسير في نومه. كان ذراعاه تحملان الشيء الأبيض الذي رآه ستيف بطرف عينه. من هذه المسافة القريبة، كان لا يمكن إنكار تكوينه - كان جثةً. وقد نتأت قدمٌ ترتدي حذاءً أسود ذا كَعب منخفض. وعرَف ستيف بيقين مفاجئ ومُقرف أن لويس يحمل

جثة رايتشل.

لقد ابيضَّ شعر لويس.

"لويس!"، صَرَخ ستيف.

لم يتردَّد لويس، لم يتوقف. وَصَل إلى أعلى الأشجار الساقطة وبدأ ينزل الجهة الأخرى.

سيقع، فكَّر ستيف بشكل غير متماسك. *كان محظوظاً جداً، محظوظاً بشكل لا يُصدَّق، لكنه سيقع قريباً جداً، وإذا كانت رِجله هي الشيء الوحيد الذي سيكسره* –

لكن لويس لم يقع. بل وَصَل إلى الجهة الأخرى للأشجار الساقطة، وأصبح خارج نطاق رؤية ستيف مؤقتاً، ثم عاود الظهور بينما سار نحو الغابة مرة أخرى.

"لويس!"، صاح ستيف مرة أخرى.

هذه المرة توقَف لويس واستدار.

وَقَف ستيف مشدوهاً مما رآه. فبالإضافة إلى الشعر الأبيض، كان وجه لويس عجوزاً جداً.

لم يتعرَّف في البدء على أيٍ من ملامح لويس. وقد بزغَت شيئاً فشيئاً، كما لو أن شخصاً يدير ناظم تيار في دماغه. كان فم لويس يرتعش. وأدرَك ستيف بعد حين أن لويس يحاول أن يبتسم.

"ستيف"، قال بصوت مكسور غير أكيد. "مرحبا يا ستيف. سأدفنها. أظن أن عليَّ فعل ذلك بيديَّ العاريتين. قد يستغرق ذلك إلى ما بعد حلول الظلام. التربة هناك صخرية جداً. لا أفترض أنك تريد مساعدتي؟".

فتَح ستيف فمه، لكن لم تخرج منه أي كلمات. رغم تفاجئه، رغم رعبه، أراد فعلاً مساعدة لويس. فذلك بدا بطريقة أو بأخرى، هنا

في الغابة، عين الصواب، بدا... طبيعياً جداً.

"لويس"، تمكَّن من أن يقول أخيراً، "ماذا حصل؟ يا إلهي، ماذا حصل؟ هل كانت... هل كانت في الحريق؟".

"انتظَرتُ طويلاً جداً مع غايدج"، قال لويس. "شيءٌ دخله لأنني انتظَرتُ طويلاً جداً. لكن الأمر سيكون مختلفاً مع رايتشل يا ستيف. أنا واثق".

ترنَّح قليلاً، ورأى ستيف أن لويس فَقَد عقله - رأى ذلك بوضوح تام. كان لويس مجنوناً ومُنهَكاً تماماً. لكن بطريقة أو بأخرى، فقط الجزء الثاني من كلامه بدا أن له وزناً في ذهنه المرتبِك.

"سأرحِّب ببعض المساعدة"، قال لويس.

"لويس، حتى ولو أردتُ مساعدتك، لا يمكنني أن أتسلّق كومة الأخشاب هذه".

"آه بلى"، قال لويس. "يمكنك. فقط تحرَّك بثبات ولا تُخفض نظرك. هذا هو السر يا ستيف".

استدار عندها، ورغم أن ستيف نادى إسمه، إلا أن لويس مشى في اتجاه الغابة. مرّت لحظات قليلة بقي ستيف خلالها قادراً على رؤية بياض الملاءة يهتزّ بين الأشجار. ثم اختفى.

رَكَض إلى الأشجار الساقطة وبدأ يتسلّقها دون أن يفكِّر أبداً، متلمِّساً في البدء بيديه ليتمسَّك جيداً، محاولاً أن يصعد زحفاً، ثم وقف على قدمَيه. بينما فعل ذلك، غمره ابتهاجٌ مجنونٌ متهوِّرٌ - كان الأمر أشبه بتنشّق أكسجين نقي. *صدَّق* أنه يستطيع أن يفعل ذلك - وقد فعله. راح يتحرَّك بسرعة وثقة، ووَصَل إلى الأعلى. وَقَف هناك للحظة، متمايلاً، وراح يراقب لويس يسير على المسار - المسار الذي استمر على الجانب البعيد للأشجار الساقطة.

استدار لويس ونظرَ إلى ستيف. كان يحمل زوجته، ملفوفةً في ملاءة دموية، على ذراعيه.

"قد تسمع أصواتاً"، قال لويس. "أصواتاً تبدو بشرية. لكنها مجرد الطيور الغوّاصة، جنوباً نحو بروسبكت. الصوت ينتقل بشكل مضحك".

"لويس –"

لكن لويس استدار وتابع طريقه.

للحظة كاد ستيف يتبعه – كان قريباً جداً.

يمكنني مساعدته، إذا كان هذا ما يريده... وأريد مساعدته، نعم. هذه هي الحقيقة، لأن ما يجري هنا أكثر مما تراه العين وأريد معرفة ما هو. يبدو... حسناً... مهماً جداً. يبدو سراً. يبدو لغزاً.

ثم انكسر غصنٌ تحت إحدى قدمَيه المائلتين مُصدراً صوتاً جافاً مليئاً بالغبار مثل مسدس إعلان انطلاق السباق. أعاده إلى حيث كان بالضبط، وإلى ما كان يفعله. غمره الرعب واستدار في دائرة خرقاء، مادّاً ذراعيه ليحافظ على توازنه، ولسانه وحنجرته زيتيان من الرعب، ووجهه يرسم الابتسامة المرتعِبة لرجلٍ استيقظ ليجد نفسه قد سار أثناء نومه إلى حافة ناطحة سحاب شاهقة.

إنها ميتة وأعتقد أن لويس ربما قتلها، لويس فَقَد عقله، أصبح مجنوناً كلياً، لكن –

لكن كان هناك شيء أسوأ من الجنون هنا – شيء أسوأ بكثير. كان كما لو أنه يوجد مغنطيس في مكان ما في تلك الغابات ويمكنه الشعور به يشدّ شيئاً في دماغه. يشدّه نحو ذلك المكان الذي كان لويس يأخذ رايتشل إليه.

بالله عليك يا رجل، سِر المسار... سِر المسار لترى إلى أين

يؤدي. لدينا أمور لُنريك إياها هنا، يا ستيڤيرينو، أمور لم يُخبروك عنها أبداً في جمعيتك في الكلّية في لايك فوريست.

ثم، ربما فقط لأنه اكتفى من كل أحداث هذا اليوم ليتغذّى عليها وفَقَد اهتمامه فيه، توقَّف نداء المكان في ذهنه ببساطة. خطا ستيف خطوتين غارقتين ثملتين نزولاً على الأشجار الساقطة. ثم انكسر مزيد من الأغصان بأصوات خشخشة عالية وغرقت قدمه اليسرى في الأغصان الميتة المتشابكة؛ أدّت شظايا حادّة إلى خلعه فردة حذائه ثم مزَّقت لحمه وهو يحرِّر نفسه منها. وَقَع إلى الأمام في مقبرة الحيوانات، وبالكاد تجنّب قطعة قفص برتقالي كان سيثقب معدته بسهولة.

وقف على قدمَيه، وراح يحدِّق حوله، مرتبِكاً، متسائلاً ماذا حصل له... أو إن كان *أي* شيء قد حصل له. وقد بدأ يبدو حلماً من قبل.

ثم، من الغابات العميقة التي خلف الأشجار الساقطة، الغابات العميقة لدرجة أن الضوء بدا أخضر وملطَّخاً حتى في أسطع الأيام، صدرَت ضحكة صاخبة. لم يستطع ستيف حتى أن يتخيَّل أي نوع من المخلوقات يستطيع أن يُصدِر هكذا صوت.

ركَض، مرتدياً فردة حذاء واحدة فقط، مثل الولد في أغنية الحضانة، محاولاً أن يزعق لكن دون أن ينجح في ذلك. كان لا يزال يركض عندما وَصَل إلى منزل لويس، وكان لا يزال يحاول أن يزعق عندما تمكّن أخيراً من تشغيل درّاجته النارية وانطلق إلى الطريق 15. كادت سيارة إطفاء قادمة من برُوْور تصدمه. وداخل خوذته، كان شعره واقفاً من القشعريرة.

حين عاد إلى شقته في أورونو، لم يستطع أن يتذكَّر تماماً ذهابه إلى لادلو. اتصل بالمشفى ليبلّغ عن غيابه عن العمل بسبب المرض، وأخذ حبةً، وأوى إلى السرير.

لم يتذكَّر ستيف ماسترتون ذلك اليوم أبداً في الواقع... ما عدا في أحلامه العميقة، تلك التي تأتي قُبيل الفجر. وكان يشعر في تلك الأحلام أن شيئاً ضخماً مرَّ بجانبه - شيئاً حاول لمسه... ثم سحبَ يده غير البشرية في اللحظة الأخيرة.

شيئاً ذا عينين صفراوين كبيرتين تلمَعان مثل مصابيح الضباب.

كان ستيف يستيقظ أحياناً وهو يزعق من تلك الأحلام، بعينين عريضتين منتفختين، ويفكِّر في سرّه: *تعتقد أنك تصرخ، لكنه فقط صوت الطيور الغوّاصة، جنوباً، في بروسبكت. الصوت ينتقل بشكل مضحك.*

لكنه لم يعرف، لم يستطع أن يتذكَّر، معنى هكذا تفكير. في السنة التالية، شغِلَ وظيفةً في الطرف الآخر من البلاد، في سانت لويس.

طوال المدة بين رؤيته لويس كريد لآخر مرة وبين رحيله إلى الغرب الأوسط، لم يذهب ستيف إلى بلدة لادلو مرة أخرى أبداً.

أتى رجال الشرطة في وقت متأخر بعد ظهر ذلك اليوم. سألوا أسئلة دون أن تكون لديهم أي شكوك. كان الرماد لا يزال ساخناً؛ ولم يكن قد تم جرفه بعد. أجاب لويس على أسئلتهم. بدوا راضين. تكلَّموا في الخارج وكان يرتدي قبعةً. كان ذلك جيداً. فلو رأوا شعره الرمادي، لربما كانوا سألوا أسئلة أكثر. كان ذلك ليكون سيئاً. كان يرتدي قفازات بستنته، وكان ذلك جيداً أيضاً. فقد كانت يداه دمويتين ومُتلَفتين.

بقي يلعب سوليتير تلك الليلة حتى وقت متأخر بعد منتصف الليل.

كان يوزِّع الأوراق لدورة جديدة عندما سمِع الباب الخلفي يُفتَح.

ما تشتريه هو ما تملكه، وعاجلاً أم آجلاً ما تملكه سيعود إليك، فكَّر لويس كريد في سرّه.

لم يستدر بل نظَرَ إلى أوراقه مع اقتراب الخُطى البطيئة المُحدِثة صريراً. رأى ملكة البستوني. وَضَع يده عليها.

مكتبة
t.me/t_pdf

توقفت الخطوات خلفه مباشرة.

صمت.

سقطت يد باردة على كتف لويس. كان صوت رايتشل مزعجاً، مليئاً بالتربة.

"حبيبي"، قال الصوت.

انضم إلى مكتبة اضغط الرابط

t.me/t_pdf

مكتبة ٥٨٣ t.me/t_pdf

«الموت أفضل... أحياناً»

يبدو المنزل صحيحاً للدكتور لويس كريد من حيث الشكل والإحساس. فسيح، قديم، مريح. مكان يمكن للعائلة أن تستقرّ فيه؛ يكبُر فيه الأطفال ويلعبون ويستكشفون. تبدو التلال والمروج الوديعة في ولاية ماين بعيدةً جداً عن أخطار المدينة الملوَّثة.

المشكلة فقط في تلك الشاحنات الكبيرة التي تجوب الطريق ناشرةً تهديداتها المثيرة للقلق.

خلف المنزل، هناك مسار تم جزّه وتنظيفه بعناية يقود عبر الغابة إلى مكان سارت عليه أجيال من الأطفال المحليين في موكب من البراءة التي يتميّز بها الصغار في السن، آخذين معهم حيواناتهم الأليفة الراحلة لدفنها.

مكان حزين ربما، لكن آمن. مكان آمن بالتأكيد. ليس مكاناً يتسرَّب إلى أحلامك، يوقظك، وتجد نفسك تتصبَّب عرقاً من الخوف والحذر من الشر...

«بإمكان كينغ أن يصيبك بالقشعريرة ولو كنتَ في النصف الآخر من الكرة الأرضية»

- التايمز

«رواية ذات وتيرة جميلة بحيث لا يسعك إلا أن تغوص في أحداثها»

- الغارديان

«أكثر الروايات المخيفة التي ألَّفها ستيفن كينغ على الإطلاق»

- بابليشرز ويكلي

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com

ISBN: 978-614-01-2844-6
9 786140 128446